

تاريخ الجزائر العام

عبد الرحمن بن محمد الجيلالي



ديوان المطبوعات الجامعية

تنبيه هـام !

وقع في بعض الصفحات من هذا الجزء الثالث ما يستوجب الاصلاح والاستدراك لالحاقه بمكانه وتلك هي صفحات الأرقام التالية:

(ص 9 س 6) (ص11 س 15) (ص 27 س 19) (ص 36 س 25)
(ص 56 س 12) (ص 81 س 8) (ص 87 س 5) (ص 96 س 5)
(ص 109) (ص 113 س 11) (ص 183) (ص 202 س 9) (323 س 10)
(ص 230 س 12) (ص 231 س 17) (ص249 س 17) (ص302 س 7)
(ص 308 س 5) (ص 111 س 11) (ص 315 س 26) (ص 378 س 16)
(ص 394 س 8) (ص 395 س 10) (ص 404 س 8) (ص 429)
(ص 463 س 16) (ص 487 س 10) (ص 508 س 11) (ص 516 س 13)
(518 س 13) (ص 518 س 21) (ص 623 س 8) (ص 552 س 18)

فانظر الملاحق...وشكرًا



الجـزء الثالث

عبد الرحمن بن محمّد الجيلالي



تاريخ الجزائر العام

يشتمل على إيجاز وافٍ مفصّل لتاريخ القطر الجزائري في جميع أطواره وحركاته السياسيّة والاجتماعيّة والعلميّة والدّينية والأدبيّة والفنّية والاقتصاديّة والعمرانية والصّناعيّة ، مع تراجم العبقريّين وأرباب القرائح من مشاهير الجزائريّين منذ أقدم العصور إلى الآن .

الجـزء الثالث



ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر

الطبعة السابعة

طبعة جديدة منقحة ومزيدة

الجزائر

1415هـ ــ 1994م

رقم النشر: 1094.07.4



يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك . اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد . كما جعلتها على ابراهيم وعلى آل ابراهيم . انك حميد مجيد ؟

الدولة الجزائرية - التركية العثمانية

920 - 1246 هـ

1514 - 1830م

الترك:

جاء في دائرة المعارف الاسلامية ان كلمة «ترك» محرفة عن اصلها الصيني الذي ينطق به «توكو» ومدلولها عندهم هو ذلك الشعب الاسيوي الرحالة العظيم الذي ظهر بموطنه الاصلي بجبل الذهب في وسط اسيا بين سيبيريا والصين، وأسس ملكا طويلا عريضا امتد من بلاد المغول وشمالي الصين الى البحر الاسود.

ومؤسس ملكهم هذا هو رجل منهم يقال له «تومان» عند الصينيين «وترك بومين» عند الاتراك مات سنة 552م.

والامة التركية هذه هي امة ارية طورانية، وطوران هي بلاد تركستان ومعناها الظلمة نظرا لما كان عليه اهل هذه البلاد في بادىء امرهم من البداوة والغلظة والجفاء والامية همهم الغزو والتهجم على القوافل للنهب والسلب وذلك خلاف ما كانت عليه بلاد «ايران» المجاورة المعروفة يومئذ بأرض النور، نظرا لما كان عليه اهلها من الحضارة والمدنية.

ويرجع اصل هذا الجنس الطوراني الى العرق الغربي الاقصى المتفرع عن العنصر السائد المنتشر بشرق اوروبا وآسيا من بحر البلطيق الى المحيط الاطلسي ومن البحر المتوسط الى اقصى الشمال.

ويشترك في الشعب التركي هذا شعوب واقوام كثيرة متشعبة منها هؤلاء

الاتراك العثمانيون باستانبول والاناضول[1]، والتركمان بايران وآسيا الوسطى والتتار في جنوب روسيا وعبر القوقاس، والمجر بهنكاريا، واهل فيلاندا، والبلغار، وولايات البلطيق، وقدماء القبائل العريقة من سكان سيبيريا والمغول والمنشوس في شرق آسيا. وكلها تنتمي الى العنصر الاري.

ويذكر نسابو الاتراك والاخباريون منهم ان اول دولة عرفت في تاريخهم هي الدولة التي اسسها فيهم «اوغوزخان» بن قاره خان؟.. جد رؤساء القبائل التركية، وان اول من عرف من ملوك الاتراك بلقب خان هذا، هم ملوك قبيلة «ترغش» التركمانية الساكنة بتركستان الغربية وهي المعروفة عند جغرافيي العرب باسم «ما وراء النهر» وفي الحاضر باسم تركستان الروسية - لاستيلاء روسيا عليها اليوم، ولقد حاز امراؤها هذا اللقب في اواخر القرن السابع الميلادي وعرفوا به الى ان قضى عليهم العرب في زمن نصر بن سيار سنة 121 هـ (739 م).

وفي مفتتح القرن الاول الهجري - اوائل السابع م - اتحدت هذه القبائل التركية مع غيرها ممن ساكنها ببلادها من الشعوب الارية. فتكونت بذلك وحدة سياسية بين تلك الطوائف كلها فنشأت عن ذلك دويلات قبلية اسست مملكة عظيمة ممتدة من اقصى حدود الصين شرقا الى البحر الاسود غربا ثم اعتراها بعد ذلك هزال وضعف ففقدت قوتها الحربية ورثت قواها المعنوية ففتحها العرب سنة 85 هـ (704 م) وانتشر يومئذ بينها الاسلام وقد كانت من قبل على دين المجوسية او الوثنية.

وفيما بين اواسط القرن الثالث واوائل الرابع الهجري - التاسع والعاشر م نشأ بآسيا دويلات وامارات تركية صغيرة استبدت بانحاء البلاد والاصقاع الشرقية متفرقة هنا وهناك كبني طولون بمصر والشام، وبني سامان بما وراء النهر وبني بوية ببلاد فارس، الخ... فتدهورت بذلك سياسة الخلفاء العباسيين وتقلص ظل سلطانهم من اقاصي البلاد، فسقطت بغداد بيد التتار

---

(1) محرفة عن كلمة اناطولي التي اطلقها الرومان على شبه جزيرة اسيا الصغرى ومعناها البلاد الشرقية وذلك لوقوعها شرقي بلادهم.

يوم 20 المحرم 656هـ (27 جانفي 1258م) ونتيجة لذلك اصبحت مقاليد الدولة الاسلامية المترامية الاطراف موزعة بين ملوك هاتيك الدول التركية القائمة بالمشرق وشؤون افريقية الشمالية يومئذ بيد اهلها من ملوك المغرب وظل الناس – كما يقول ابن خلدون – يدينون بطاعة الخليفة تبركا، والملك بجميع أشكاله ومناحيه لهم– اي للدول التركية – وليس للخليفة منه شيء.

ومضى زمن على ذلك والامر كذلك الى ان اخذ البطل المغوار السلطان «عثمان بن ارطغرل» التركماني[1] في تأسيس امارة ومملكة اسلامية مستقلة بمدينة «ايكي شهر» من بلاد الاناضول سنة (699هـ – 1300م) مجتهدا في الدفاع عن بيضة الاسلام وحمايته ونصرته وورث منه احفاده ذلك فكلهم حافظ على هذه الخطة المرسومة والتراث العظيم وانشأ جيوشاً وأساطيل تقدم بها الى فتح بلاد آسيا واوروبا، فخضعت لهم ممالك هاتيك البلاد ودولها وثبت العثمانيون على ذلك يتابعون زحفهم في نشر الاسلام باوروبا حتى جاء دور القضاء على امبراطورية الدولة البيزنطية واستئصال مملكتها في الشرق والغرب، وصمم العثمانيون على الاستيلاء على قاعدة البيزنطيين ليأمنوا سلامة المواصلات بين املاكهم في اوروبا وآسيا وليؤسسوا بها عاصمة جديدة لدولتهم، فانبرى لها من عترته «السلطان محمد الثاني الفاتح» مقتحما معقلها الحصين وعاصمتها المنيعة «القسطنطينية» فاحتلها مظفرا منصورا سنة 857هـ (1453م) ونقل اليها العرش العثماني متطلعا الى اجتياح مقر كرسي المسيحية الثاني برومة فكان بذلك محققا لامنية دولة الخلافة الاموية التي طالما حاصرت هذه المدينة الحصينة محاولة فتحها واقتحامها منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان ثم في عهد معاوية وسليمان ففشلت. ويومئذ اشتهرت الدولة التركية بنسبتها «العثمانية» انتماء الى جد ملوكها الاعلى السلطان «عثمان بن ارطغول» التركماني المتوفى سنة 726هـ (1326م).

ويعد فتح القسطنطينية هذا فتحاً جديداً في تاريخ العالم اجمع حيث اعتبره المؤرخون حداً فاصلاً بين القرون الوسطى والعصر الحديث[2].

---

(1) ولد سنة 656هـ/1258م وتوفي سنة 726هـ/1326م.

(2) جرى اصطلاح المؤرخين على اعتبار الزمان وتقسيمه الى ثلاثة عصور: القرون الاولى وهي

وتقدمت تركية العثمانية في فتوحاتها بآسيا ففتحت معظمها وبأوروبا كذلك فامتلكت منها نصفها الشرقي واضحت بذلك مرهوبة الجانب موقرة السلطان.

ولما تم للسلطان «سليم الأول» الانتصار على دولة المماليك سنة 923هـ (1517م) واستولى على مصر والشام وقضى على حكومتها هذه وقبض على محمد بن يعقوب المتوكل على الله آخر خليفة عباسي[1] وبه انقرضت يومئذ الخلافة العباسية المتوهمة التي طالما كان صاحبها بعد سقوط بغداد آلة مسخرة بأيدي ملوك وسلاطين ذلك العصر البائد وصار حينئذ امر رعاية دولة الاسلام بيد سلاطين ال عثمان وخفت يومئذ ذكر لقب الخلافة وطوي بساطه من الوجود الا ما جاء ذكره نادرا في بعض خطابات المتملقين لآل عثمان في اوقات ومناسبات متفرقة فلقد جاء في (ام القرى لعبد الرحمن الكواكبي ص 17 ط القاهرة) قال انما كان حدوث تلقيب السلطان العثماني بلقب الخلافة او الامامة الكبرى او امارة المؤمنين هو في زمن السلطان محمود (1108 - 1166هـ/ 1697 - 1755م) حيث صار بعض خاصته يخاطبونه بذلك احيانا تفننا في الاجلال والتعظيم، واما ما يذكر من انتقال الخلافة يومئذ الى السلطان سليم فهي محض خرافة كان مصدرها المؤرخ (موراجا دوهصان)[2] .Muradja d'Ohssan

وهكذا ظل لقب الخلافة مغفلا ملغى لدى ملوك هذه الدولة الى ان اصبحت الحاجة اليه ماسة في القرن الثامن عشر الميلادي بعد عقد معاهدة

تبتدىء من الازمنة الغابرة المتوغلة في القدم الى سقوط رومة سنة 476م ومنها يبتدىء تاريخ العصور الوسطى الى فتح القسطنطينية سنة 857هـ(1453م) ومنها يبتدىء تاريخ العصر الحديث.

(1) قبض عليه السلطان سليم الاول بمصر يوم فتحها في التاريخ المذكور اعلاه ودخل الخليفة الغرور فاستعمل ما ناله من السلطان العثماني اسوأ استعمال، فعاد به السلطان الى القسطنطينية فاوثقه هنالك بـ «السبع قلال» ثم فك اسره سنة 926هـ (1520م) واجرى عليه ستين درهما في كل يوم، ثم بعد وفاة السلطان خرج المتوكل حينئذ من القسطنطينية منصرفا الى مصر حيث بويع فيها باسم الخلافة صوريا وبقي بها مرموقاً ملحوظاً تحت ظل ورعاية ملوك آل عثمان الى ان استوفى حظه من الحياة فلقي حتفه سنة 950 هـ/1543م فانتهت بموته الخلافة العباسية وانقرض ذكرها من الدنيا.

(2) انظر معجم الانساب والاسرات الحاكمة لزمباورج 1 ص 5 ط القاهرة 1951م والنظم الاسلامية د. حسن ابراهيم حسن: وعلي ابراهيم ص 133 ط القاهرة 1939م.

« كوجك قيتارجي » بين الترك وروسيا سنة 1188هـ (1774م) اي عندما خضع بعض المسلمين للحكم النصراني فدعت اليه حينئذ سياسة الوحدة الاسلامية فتلقب به سلاطين آل عثمان جمعا لكلمة المسلمين واكتسابا للنفوذ الديني متدرعين به تجاه العالم الغربي المسيحي الذي ازمع وتحفز لاكتساح العالم الشرقي الاسلامي واعترف لهم يومئذ اهل السنة - دون غيرهم - بالخلافة مع انها لم تكن لديهم الا ملكا عضوضا، ولقد ظل العالم الاسلامي معترفا بخلافة آل عثمان خاضعاً لسلطانها خشية انتشار الفتن وتعرض الوحدة الاسلامية للتفكك والانهيار، فكانت هذه السلطة العثمانية تعتبر كسياج للدولة الاسلامية في العالم يمنع عنها اعتداء المعتدين.

ولم يزل ملوك آل عثمان يحملون لقب الخلافة منذ ذلك العهد الى ان اجمع رأي حزب الشعب التركي الجمهوري على الغاء نظام الحكم القديم ورفض تبعات الخلافة الثقيلة فاعلن زعيم الاتراك الحاكم بأمره مصطفى كمال « اتاترك »[1] باسم مجلس الامة الكبير نهاية عهد الملكية وتعويضه بتأسيس حكومة جمهورية ودستور جديد، وذلك يوم 1341/4/11هـ - 1922/11/1م فغادر محمد السادس الملقب (وحيد الدين) اخر سلطان عثماني ارض تركية ثم اصدر نفس المجلس يوم 22رجب 1342هـ/1 مارس 1924م قانونا اخر يقضي بالغاء الخلافة، وعندها خرج السلطان عبد المجيد الثاني من القسطنطينية طريد[2] وانتقل مقر الحكم منها الى مدينة انقرة من بلاد الاناضول، وحدث في الدولة يومئذ من الانقلاب السياسي والديني والاجتماعي بل وفي كامل اوضاع الحكومة التركية العثمانية ما تغير به وجه تاريخها القديم بما لم يسبق له نظير ولا مثيل في تاريخ دولة اسلامية من قبل.

واخيرا - وفي هذه المدة الاخيرة فقط - اطلعتنا بعض الوثائق على السر المكتوم الذى حمل تركيا وبعث بها الى هذا الاندفاع العجيب الغريب الذي

---

(1) هو اعظم شخصية سياسية وعسكرية عرفتها دولة الاتراك في تاريخها الحديث ولد في مدينة « سالونيك » سنة 1299هـ وتوفي باستانبول سنة 1357هـ (1881-1938م) ودفن بانقرة.

(2) توفي بمدينة نيس من ارض فرنسا (المحرم 1364هـ/ديسمبر 1944م) فوضع جثمانه بمقصورة خاصة بجامع باريس ريثما نقل الى مدفن الاسرة المالكة بتركيا.

بلغت به في سياستها الى رفض ماضيها والتنكر لتاريخها الاسلامي الماجد وبعجرفة وتغطرس! ذلك انه جاء في الوثائق الرسمية التي اكتشفت في السنوات الأخيرة ما يوصف بأن ذلك وجد ملحقا بشروط الصلح مع تركيا في مؤتمر لوزان 1923م المعروفة بشروط كرزون الاربعة وهي:

1 – قطع كل صلة بالاسلام
2 – الغاء الخلافة الاسلامية
3 – اخراج انصار الخلافة والفكرة الاسلامية من البلاد
4 – اتخاذ دستور مدني بدلا من دستور تركيا القديم المؤسس على الاسلام[1]

اما لغتهم فهي احدى اللغات الطورانية ذات اللهجات الجمة الكثيرة التي لم يكن ليعرف لها قلم او خط مشهور تكتب به قبل القرن السابع الهجري الى حين ان امتزج اهلها بالعرب في العراق والشام وتكون منهم جيش الخلافة العباسية واستبدوا بالملك فانتشر حينئذ بينهم اللسان العربي المبين وفشي فيهم الخط العربي فكتبوا به لغتهم.

وذكر ابن النديم في حديثه عن الترك بفهرسته فقال: والذي تأدى الى من امر الترك هو ما حدثني به ابو الحسن محمد بن الحسن بن اشناس... ان ملك الترك الاعظم اذا اراد ان يكتب الى ملك من الاصاغر احضر وزيره وامر بشق نشابة ونقش الوزير عليها نقوشا يعرفها افاضل الاتراك تدل على المعاني التي يريدها الملك ويعرفها المرسل اليه[2] ولعلها تلك كتابتهم القديمة التي ظهرت في القرن «6م» المسماة بكتابة اورخون[3] او يكون ذلك هو خط اتراك «اللويغور» وهم سكان شرقي تركستان؟....

ولم يشهد الاتراك اتحادا في استعمال لغتهم وتطبيقها على سير الحياة العامة الا في زمن بني سلجوق بالاناضول في القرن الخامس الهجري (11م) اما قبل

---

(1) مجلة دعوة الحق ع 9 س 15 ماي 1973
(2) الفهرست لابن النديم ص 29–30 ط. القاهرة 1348 هـ
(3) نسبة الى نهر في بلاد المغول يقال له «اورخون» وهي اقدم كتابة تركية.

ذلك ففيهم من اتخذ اللغة الفارسية، وفيهم من استعمل غيرها، ولقد فكر السلطان سليم الاول في اتخاذ اللغة العربية وجعلها لسان الحكومة الرسمي وحاول ذلك بالفعل فلم ينجح، ولكنها رغم ذلك بقيت لديهم كما هي ولدى غيرهم كذلك من الامم الاسلامية لغة الدين والعلم.

وكان لمازجة الاتراك بسواهم من الامم الشرقية والغربية ايضا اثر كبير في تطور لغتهم وارتياشها بما اقتبسوه من شتى اللغات فتوسعت اللغة وتهذبت واصبحت بذلك لغة صالحة لتدوين العلم والادب، واكثر ما يوجد فيها من الدخيل هو ما احتوت عليه من مفردات اللغة العربية والفارسية والجغطائية[1] والاوردية[2] والافرنجية... فهي الان بذلك تختلف كثيرا عما كانت عليه في الزمن الغابر.

ولقد شرع الترك في كتابة لغتهم بالحروف العربية منذ القرن السابع الهجري 130م. كما ذكرنا مستمرين مع الزمن على ذلك استمرار اهل فارس والهند وسكان افريقية الاستوائية وجنوبها وغربها على اختلاف لهجاتهم في استعمال الخط العربي، الى زمن اعلان الجمهورية التركية (18 ربيع الاول 1342هـ/29 اكتوبر 1923م) فاستبدل الخط العربي لديهم باللاتيني وذلك بمقتضى قرار الدولة الصادر يوم 19 جمادى الاولى 1347هـ (3 نوفمبر 1928م) تحت رقم «1353»

اتصال الاتراك بالجزائر

في نفس الاوان والزمان الذي قدر ان تضعضعت فيه قوى دول المغرب الثلاث: بني مرين وبني ابي حفص، وبني عبد الواد الزيانيين ولحق كل منها من الضعف والوهن والاضطراب بسبب ما كان بينها من التخاذل والشقاق مع تزاحم رؤسائها وقادتها وتنافسهم على كراسي الزعامة والرئاسة، اقول في نفس ذلك الوقت واعني به اوائل القرن العاشر الهجري - اوائل 14م - اشتد تذمر دولة الاسبان والبرتغال وجمهورية البندقية وجنوة الايطاليتين فحمل كل منها

(1) هي لغة التركمان واكثر سكان بلاد خيوة (خوارزم) وبخارى وغيرها باواسط اسيا ومركزها مدينة مرو، وهي التي يسميها الافرنج أحيانا: التركية الشرقية

(2) هي اللغة الهندية الاسلامية.

على هذا الشمال الافريقي وجريا وراء غايته الصليبية وجشعه الاستعماري الذي ينطبق عليه قول الرجاز العربي:

مسعورة ان غرثت لم تشبع!

وهوجمت السواحل الجزائرية واحتلت منها اهم مواقعها ومراكزها الاستراتيجية ومرافيها ومدنها الممتازة 911 - 918هـ/1505 - 1512م كوهران ومرساها الكبير وهنين وبجاية وجيجل ومستغانم وتنس وتدلس والجزيرة المسماة « سطفلة » التي هي بفرضة مدينة الجزائر، حيث بنى الاسبان حصن البنيون ونزلوا ببعض المراكز البحرية من مدن المغرب الاقصى واحتلوا تونس نفسها واستكملوا بذلك الاستيلاء على ساحل افريقية الشمالية منتهكين في ذلك حرمة اهل هذه الثغور الاسلامية غير مبالين بمقدساتهم الدينية ولا محترمين او مراعين لما جبلت عليه الكرامة الانسانية وطبعت عليه البشرية من الحياء والحشمة مندفعين عن سوء نية وراء حروبهم الصليبية واعمالهم الاستعمارية واغراضهم الساقطة...

في نفس تلك الاونة وخلال هاتيك الحوادث المؤلمة، واثناء تلك الظروف السوداء الحالكة، والنكبات المزعجة ظهرت عمارة الاخوين التركيين: بابا عروج وخير الدين - من ابطال رجال البحرية التركية العثمانية - متنقلة بغربي البحر الابيض المتوسط براية حمراء موشية.... واشتهرت هذه العمارة يومئذ بتطوعها في انقاذ المضطهدين والمطرودين من اهل الاندلس وبنقلهم الى سواحل المغرب العربي واحسانها اليهم وبذلك تمكن اصحابها من النزول بالساحل التونسي والاتصال بصاحب تونس ابي عبد الله محمد الحفصي والتعاقد معه بامضاء معاهدة ودية على أن يكون الساحل التونسي موئلا لهذه العمارة وملجأ تسكن اليه وللخزينة الحفصية الخمس فيما تأتي به العمارة من المغانم وتمت الاتفاقية بين الطرفين على ذلك واستمرت العمارة تعمل على خطتها المرسومة في غزو سواحل النصرانية وخوض غمار البحار للدفاع عن حوزة الاسلام والمسلمين ومحاربة سفن الاعداء الى سنة 918هـ (1512م) حيث غزت العمارة التركية هذه مدينة بجاية فاطردت عنها الاسبان، ثم كان بعدها فتح مدينة جيجل سنة 920هـ (1514م) ثم تقدمت الى مدينة الجزائر نفسها بدعوة من

اهلها درءاً لخطر الاسبان عنها، وكان فيمن كاتب الاتراك ستنجدا بهم يومئذ لهذا الشأن: احمد بن القاضي الزواوي صاحب جبل كوكو، ومما جاء في رسالته يخاطب عروج قائلا: ان بلادنا بقيت لك أو لأخيك أو للذئب، فاقبلت حينئذ العمارة التركية فاحتلت الجزائر سنة 922هـ (1516م) ونزل الاتراك يومئذ بهذا القطر . وفي ذلك تجد دائرة المعارف الاسلامية تقول: «.... وأغرى اكزيمينيس Ximenes الاسبان فتركوا آخر الأمر أرض الاندلس لكي يستأنفوا في افريقية الحرب الصليبية التي ختموها في الاندلس فاستولوا على المرسى الكبير (1505) ووهران (1509) وبجاية (1512) وقد افزعوا الجزائر بمدافعهم المنصوبة في قلعة (بينيون) القائمة بمرسى مدينة الجزائر القديم ودلس، وخضعت لهم تنس وأدت لهم الجزية وحدث مثل ذلك لمملكة تلمسان التي بسطوا عليها سلطانهم الفعلي، وجاء الترك فوقفوا في وجه النصارى وانقذوا الاسلام في افريقية، وأسسوا بقوة السلاح دولة اسلامية تشمل المغرب الأوسط بأسره على أنقاض الدويلات البربرية بعد ان قوضت أركانها الفوضى التي دامت أمداً طويلا، وكان مؤسسا هذه الدولة هما (الأخوان) عروج وخير الدين وقد وضع عروج أساس السلطان التركي بفتح مدينة الجزائر (1516).»

وكان من الاحداث وقتئذ ما سنحدثك عنه في كتابنا هذا من اصطدام الحروب والتناحر والتنافس بين دولة بني زيان المحتضرة ودولة الاسبان المهاجمة ودولة الاتراك الحامية الطامحة وعن ما حدث من الوقائع والخطوب في هذا الموضوع ما عرفته وما ستقف عليه مفصلا في هذا الكتاب.

نظامها الحكومي:

ان اول ما عرفت الجزائر من رؤسائها الاتراك هم جماعة « البيلرباى » ومعناه باى الابياء أو أمير الامراء، وهو لقب يمنحه السلطان العثماني مع كسوة الشرف - قفطان - لامير الناحية.

والجزائر يومئذ هي احدى الولايات الثلاث بالامبراطورية العثمانية التي كان يطلق على رئيسها هذا اللقب مثل ولاية الاناضول والروميلي بتركية اوروبا.

ولبيلرباي الجزائر التصرف المطلق بالمملكةالجزائرية مع الإشراف على ما يليها شرقا الى الحدود المصرية بما فيها من ولاية تونس وطرابلس، وهذا معنى تلقيبه برئيس البكوات.

ثم حد من سلطة حاكم الجزائر واقتصر له فيها على المغرب الاوسط فقط وخرجت تونس وطرابلس عن حكمه، وبموجب ذلك تغير لقبه ثلاث مرات فحول أولاً الى الباشاوية، ثم إلى الاغاوية، ثم إلى الداياوية حسب الترتيب التالي:

أ - عصر الفتح التركي من سنة 920 إلى 950هـ (1514 - 1544م) أي 30 سنة

ب - عصر لباي لاربايات من سنة 950 - 995هـ (1544 - 1587م) أي 42 سنة

جـ - عصر الباشاوات من سنة 995 - 1069هـ (1587 - 1659م) أي 72 سنة

د - عصر الاغاوات من سنة 1069 - 1081هـ (1659 - 1671م) أي 12 سنة

هـ - عصر الدايات من سنة 1081 - 1246هـ (1671 - 1830م) أي 159 سنة

وكان حكام بلاد الجزائر وولاتها في عهد البيلر باي والباشاوات مخلصين لحكومة الباب العالي باستانبول ممتثلين للسلطان العثماني الى ان حدث خلال القرن الثاني عشر الهجري (17م) ما كان سببا في تضعضع دعائم الصلة الادبية

التي كانت تربط ما بين حكومة الجزائر والباب العالي باستانبول حيث شعر الولاة هنا بضعف السلطنة العثمانية وقصورها عن اتخاذ اسطول قوي للدفاع به عن نفسها وعن ممالكها النائية بسبب انشغالها بظهور المسألة الشرقية وشعورها بالخطر الدائم الذي احدق بها ولا سيما من طرف النمسا وروسيا وبريطانيا فجاهروا بقطع صلتهم السياسية - لا الروحية بالباب العالي، ووهت يومئذ العلائق الدبلوماسية بينهما واستبدت السلطة العسكرية المحلية او الوجاق ونستطيع ان نسميها باصطلاح العصر «الميليشيا» بالامر واحتكرت لنفسها تولية حاكم الجزائر الأعلى بانتخابه من بين افرادها او من طائفة الرؤساء وقرصان البحر وتارة من بين اعضاء مجلس الديوان الاتراك من غير مراعاة لنسبه أو حسبه أو منبته انما هو مسلم تركي الجنسية وكفى، ولم يبق للباب العالي حينئذ سوى الموافقة على من ينتخب لهذا المنصب من بين هؤلاء، وهو منزع ديمقراطي في الجملة، ويومئذ اصبح نظام الحكم التركي بالجزائر انتخابيا مستقلا متماشيا على اساس حكم الاستقلال الذاتي كما هو حال نظام «الكومنولث» او الدومنيون في هذه الايام واستمرت امدادات الباب العالي للجزائر بالذخائر والمراكب الحربية والعتاد الى سنة 1183هـ/ 1770م بسبب ما ذكرناه من ظهور المسألة الشرقية (ق18 - 19م). ثم انقطعت بعد ذلك. وللحاكم الجزائري الحرية المطلقة فيما يفعله فله فتح باب المجادلات والمفاوضات السياسية مع الاجانب وله حل المشاكل الخارجية بنفسه، وله اعلان الحرب والسلم وامضاء المعاهدات وابرام العقود الدولية وقبول الممثلين الديبلوماسيين الخ... مستمدا قوته هذه من ديوانه.

واستمر مركز ادارة الحكومة العليا بالجزائر بحي «الجنينة» باسفل المدينة تجاه ساحة الحكومة اليوم متصلا بأرضية (ساحة الشهداء) ولم يزل هذا القصر قائما الى أن تسلط عليه حريق فحطمه (1260هـ/1844م) واقيم مكانه عمارة للسكن حيث يوجد مركز نادي الترقي اليوم، ومن بقايا دور الحكومة التركية بهذا الحي: «قصر حسن باشا الذي هو اليوم تحت تصرف وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية، وهو متصل بجامع كتشاوة، كما توجد تجاهه دار هي من اجمل دور العاصمة الحقت اليوم بمصلحة وزارة السياحة. وهكذا الى اواسط القرن الثالث عشر الهجري - اوائل 19م - اي سنة 1232هـ/

1817م- انتقل داي الجزائر «علي خوجة» من سكنى قصر الجنينة الى اعلى المدينة بجي «الباب الجديد» حيث ابتنى قصر القصبة القائم هناك الى اليوم ونقل اليه مركز الحكومة ولم يزل ولاة الاتراك ينزلون بهذا القصر الى نهاية دولتهم بالجزائر.

وللحكومة الجزائرية مجلسان استشاريان لا يقطع الحاكم امرا بدون استشارتها اولها مجلس الشورى وهو يتألف من اربعة افراد:

1 - وكيل الحرج رئيس المصلحة البحرية، وهو المتصرف في جميع شؤون الدولة العسكرية والمدنية برا وبحرا.
2 - خوجة الخيل متسلم الجزية، وهو بمنزلة وزير الحربية وله التصرف في املاك الدولة.
3 - خزنة دار، او الخزناجي - وزير المالية - ويلقب بالدفتردار وهو يتمتع باختصاصات واسعة، منها جمع المال المطلوب من الولاية وارساله الى استانبول، ومراقبة الاقطاعات التي تمنح للجند، ومحاسبة الباشا في آخر مدة ولايته.
4 - الاغا، وهو القائد العام لقوات الجيوش البرية.

والمجلس الثاني هو المعبر عنه بمجلس «الديوان» وينعقد ثلاث مرات في الاسبوع خارج القصر وواحدة بالقصر، وهو يتألف من سبعة اعضاء وهم:

1 - الخليفة وهو نائب الحاكم الاعلى، ويلقب بالسيد الدولاتلي، والقائم مقام - او الكاهية - وهو الذي بيده مفتاح خزينة الدولة.
2 - الكاتب، اي رئيس ديوان الانشاء وهو كاتب الدولة العام، والكتابة يومئذ باللسانين: التركي والعربي، مما يدل على احترام القوم للغة الدين والوطن.
3 - الباش سيار، مدير مصلحة البريد.
4 - قبودان رئيس - امير البحر -
5 - الترجمان
6 - شاوش الكرسي
7 - بيت المالجي - قاضي بيت المال - وهو أمين الضياع الشاغرة. ومن هذا

المجلس ينتخب اغلب كبار الضباط واعيان الوزراء.

وهناك غير هذين من المجالس التي يتراوح عدد اعضائها بين السبعمائة والثامنمائة عضو ويرتفع احيانا الى الف وخمسمائة عضو، وكلها تعتبر كالروافد لهذين المجلسين الكبيرين منها مجلس الكراسي، ومجلس طائفة الرياس - رؤساء البحر - من قراصنة ورؤساء المراكب الحربية، وكانت الطائفة تتألف أساساً من العنصر الوطني بينا فيلق الانكشارية ينتمي الى العنصر التركي. وبمرور الزمن اندمج الفريقان بعضهما في بعض؛ وكلها كانت تعمل على مساعدة ذينك المجلسين من غير ان يكون لها كبير تأثير على مجرى سير حركة السياسة العامة بالبلاد وليس لهؤلاء الافراد من اعضاء المجالس الحكومية الانفة الذكر اتصال مباشر بالامير الا عن طريق الترجمان او بواسطة شاوش الكرسي، وقد يجتمع بهم الامير فرادي ان شاء او جماعات حسب ما يرتئيه أو تقتضيه المصلحة.

ويشترط في هؤلاء الاعضاء وجميع الحكام أن يكونوا من العنصر التركي ليست فيهم ولا شائبة الكرغلية[1] اذ ليس في تاريخ هذه الدولة لغير الاتراك حظ في مباشرة الحكم او تسيير دفة السياسة العامة بالبلاد، اما في عهد الحاج شعبان باشا فاتح القرن الثاني عشر الهجري (آخر 17م) فانه سمح الى وقت محدود بضم طائفة من ابناء البلاد - الكراغلة - الى الجيش بصفة معاونين تكثيرا لسواد قومه، وكل ما كان هناك من بعض الاهالي في منصب شيخ او قائد الخ... انما هو كمساعد فقط فهم محجوبون عن ممارسة الحياة السياسية اطلاقا.

ولكل من ذكرنا من اعضاء المجالس مرتب معاشي يتقاضاه من خزينة الحكومة الجزائرية الا الحاكم الاعلى فله فوق مرتبه العسكري وما يقدمه البايات والقناصل من العوائد واللزمة وغيرها من الهدايا الضخمة.

وهناك موظفون ثانويون آخرون، منهم جماعة الخوجات وشيخ البلد والمحتسب والمزوار والقاضي والمفتي الخ...

وفي القطر الجزائري ولاة وقادة ومشائخ منتشرون بكامل مناطق القطر

(1) الكرغلي وجمعه كراغلة هو الذي امه غير تركية مثل الهجين عند العرب.

الجزائري السبعة منهم ثلاث بايات - بمنزلة العمال - يعين كل واحد منهم على رأس منطقة خاصة، وذلك لمدة ثلاث سنوات ثم يعاد تعيينه او يعزل تماما، ولهم التصرف في مناطق محدودة من الارض تسمى « بايلك » باي الشرق ومقره بمدينة قسنطينة، وباي الغرب كان مقره اولا بمازونة ثم تحول الى معسكر واخيراً استقر بوهران، وباي تيطري، وكان مقره بمدينة المدية، ولكل من هؤلاء الابياء الثلاثة نظامه الداخلي وتراتيبه الادارية الخاصة، وكلهم يدين بالطاعة والولاء للحكومة المركزية بالعاصمة، وهناك منطقة « دار السلطان » ما بين مدينتي تدلس شرقا وتنس غربا، ومن ساحل البحر شمالا الى سفوح الاطلس البليدي جنوباً، لا يتصرف فيها احد سوى امير البلاد بواسطة اربعة من القادة الاتراك.

كما انه كان لمعظم العشائر والقبائل المنتشرة في انحاء القطر الجزائري مثل الحنانشة شرقي قسنطينة والدواودة[1] بالزاب الجنوبي، وبني مصاب - مزاب - بجنوب مدينة الاغواط وبني عباس وولاية تقرت، وواد ريغ الخ... فلكل منها رئيس: قائد او شيخ يتصرف في ولايته المعبر عنها بالوطن، تصرف الامراء الاقطاعيين على مقتضى النظام السائد في القرون الوسطى والحكومة يومئذ مكتفية منهم بالنسبة وبما يمدونها به من الاموال والانفس ولا حق لهم في الخوض في اغراضها والتدخل في مقاصدها السياسية كيفما كان شأنها، كما ان الادارة الجزائرية تركت التدخل في شؤونهم الخاصة وبذلك يتضح ان شكل هذه الحكومة كان شبه استبدادي او إقطاعي.

ومنذ سنة 927 هـ (1520م) أي يوم ان اذن السلطان سليم الاول لبيلر باي خير الدين باستقلال الجزائر في ميزانيتها واتخاذ السكة الجزائرية وطبع النقود وهي دائما باسم السلطان العثماني اصبحت الخزينة الجزائرية غنية ثرية بمداخيلها الكثيرة المتنوعة من الضرائب والسبي والمغنم والزكاة والعشر والجزية والفيء والمغرم والخراج وما يقوم به الولاة والبايات ورؤساء القبائل والعشائر من دفع العوائد واللزمة والدنوش والحكر- كراء املاك الدولة- والهدايا

---

(1) هم عرب من اولاد داود بن مرداس بن رياح نزحوا إلى المغرب الأوسط أيام الحملة الهلالية أي في اواسط القرن الخامس الهجري- اواسط 11م-

خريطة المواصلات والتقسيم
الإداري بالإيالة الجزائرية
في أوائل القرن التاسع عشر

البحر المتوسط

القالة
عنابة
سطورة
القل
جيجل
بجاية
دلس
الجزائر
شرشال
تنس
مستغانم
مازونة
آرزيو
وهران
رشقون
الغزوات
ندرومة
تلمسان
معسكر
القلعة
الونشريس
المدية
سور الغزلان
البرج
قسنطينة
ميلة
الكاف
تبسة
بسكرة
الأغواط
بايليك الغرب
بايليك التيطري
بايليك الشرق
الأوراس
الزيبان
الصحراء
سلطنة المغرب

سلم الخريطة
0 50 100 150 200 250 300 كلم

المصطلحات

طريق السلطان
طريق مهمة للتجارة
القناطر الرئيسية
مراكز الحاميات العسكرية
حدود الإيالة الجزائرية
حدود البايليك
العاصمة
مراكز البايليك

المتنوعة من الأموال والرقيق والبضائع والتحف والخمس من المغانم البحرية المختلفة الخ... فمجموع ما كان يصل الى الخزينة العامة من ولايات الجزائر الثلاث هو 468000 دورو (- قطعة من فضة من وزن 20 غرام للقطعة الواحدة،) فيكون مجموع ذلك حسب سعر الذهب اليوم (1978م) هو 400 دينار جزائري لقطعة الذهب من سعر 20 فرنكا، فلمبلغ حينئذ يقدر اليوم بـ 187 مليون دينار جزائري[1].

ويقدر مبلغ ما كان بالخزينة الجزائرية من الاموال يوم انهيار الجزائر التركية بنحو مائتي مليون فرنك واضحت العملة الجزائرية يومئذ رائجة معترفا بها رسميا لدى دول العالم اجمع.

والمعروف من انواع العملة الجزائرية الذهبية هو السكة - السلطاني والمحبوب،وهناك نصف السلطاني وربعه كما هو كذلك لنوع المحبوب ايضا، واما الفضية منها فهو الدورو الجزائري، والسكة وهي نصف دورو جزائري، والريال بوجه وهو ما يقدر بنحو 18 فرنكا قديما، وريال بسيطة. والموزونة، وريال درهم وثمن وبوجو، ومن النحاس الصائمة والدراهم الصغيرة والخروبة والفلس وكلها كانت تضرب بعاصمة الجزائر باسم السلطان خاصة وتقدير قيمتها اليوم يختلف بحسب اختلاف الزمان والمكان وتسعير العملة في البلاد يزيد وينقص.

ومن مصادر ثروة الخزينة الجزائرية ومواردها المعتمدة ما كانت تدفعه اشهر ممالك اوروبا ودول الولايات المتحدة بأمريكا من الاتاوة اموالا واسلحة وذخائر اذعانا وخضوعا لسلطان الجزائر وسيادتها البحرية رغبة في كسب عطف ومودة حكامها وللتعامل التجاري مع سكان سواحل هذه الضفة الجنوبية من البحر الابيض المتوسط، فمن ذلك الات واعتدة حربية كانت تقدمها دول الولايات المتحدة الامريكية في صورة هدايا لحكومة الجزائر وذلك ما كان يقدر بنحو اوبعة الاف ريال شينكو - بياستر - وهذا علاوة على ما كان يحضره القناصل الجدد المعتمدون والمفوضون معهم عند ابرام المعاهدات او تعيينهم كقناصل وسفراء بالجزائر من هدايا وتحف التي

(1) احمد توفيق المدني: الوجود العثماني بالبلاد الجزائرية - محاضرة -

جدول المكائيل والموازن والاطوال والعملة بالجزائر سنة 1830 - مقارنة بالمقاييس الحالة

الاوزان

انواعها	ما يعادلها: مغ	غ	كلغ	اقسامها
القيراط		20	0	حبات خروب
الدرهم البغدادي	148	3	0	
الدرهم الفضي	97	2	0	
المثقال الذهبي	25	4	0	
المثقال الخضاري	8	31	0	1/8
الرطل الفضي	435	497	0	16 مثقال
الرطل العطاري	80	546	0	» »
» الخضاري	340	614	0	» 18
» الكبير	510	921	0.	» 72
القنطار العطاري		608	54	» 001
» الخضاري		434	61	» »
» الكبير		151	92	» »

المكائيل

انواعها	ما يعادلها: سل	د	اقسامها
المد	75	0	
القلة	66	16	1/2 1/4 1/8
الصاع		48	1/2 1/4 1/8
الفنيقية		72	1/2 1/4 1/8
القفيز		144	1/2 1/4 1/8

الاطوال

انواعها	ما يعادلها: مم	سم	م	اقسامها
الذراع القياسي	3	63	0	1 21/41/8
الذراع العادي		64	0	1/21/41/8
الذراع العربي		48	0	1/21/41/8

العملة الذهبية

انواعها	اوزانها: مغ	غ	قيمتها بالدينار الجزائري: م	س	د
سلطانيقديم	400	3	82	59	9
» جديد	187	3	80	89	8
نصف سلطاني	593	1	90	44	4
ربع سلطاني	796	0	45	22	2

العملة الفضية

انواعها	اوزانها: مغ	غ	قيمتها: م	س	د
البوجو	782.	19	37	72	3
الريال	77	10	36	88	1
الربع	530	2	11	47	0
الثمن	263	1	65	22	0
البدقة	182	3	81	57	0

العملة النحاسية

انواعها	اوزانها	قيمتها: م	س	د
الموزونة		74	02	0
الخروبة		87	01	0
الفراسي		34	01	0
الزندي		26	00	0
الصوردي		00	20	0

مغ = مليغرام

غ = غرام

د = دينار

س = سنتيم

م = مليم

عن كتاب «مدينة الجزائر»
تأليف عبد القادر حليمي

كانت تبلغ في بعض الاحيان العشرة الاف ريال، ويذكر أن مقبوضات الجزائر من امريكا بلغت ايام رئاستي « واشنطون وادمز » الى مليوني دولار، وكان على الدولة الانكليزية ستمائة ليرة سنويا وهناك من قدرها بنحو اربعين الف فرنك، وعلى دولة فرنسا سبعة آلاف ليرة في كل سبع او عشر سنين، وتارة يقدم هذا المبلغ غلالا أو سلعا وبضائع متنوعة مع هدايا خصوصية نفيسة وفي كل سنتين تدفع دولة هولاندة عشرة آلاف سكة - نصف دورو جزائري - أو ستمائة ليرة فرنسية وقدر ذلك بنحو ستين ومائة الف فرنك مع هدايا نفيسة تبلغ نحو الثلاثين الف سكة جزائرية، وكان على دولة النمسا مائتا الف فرنك، وعلى مملكة صقلية اربعة وعشرون الف ريال شينكو، مع هدايا تقدر بمبلغ اربعة آلاف ريال شينكو، وعلى مملكة سردانيا ستة آلاف ليرة فرنسية، وكان على دولة الدانمارك اجهزة واعتدة حربية وسلاح وآلات عديدة، وذلك ما كان يقدر بمبلغ اربعة آلاف ريال شينكو، ومعها هدايا تقدمها قناصل هذه الدولة الى الحكومة الجزائرية في كل سنتين تقدر بثلاثين الف سكة، وكان على دولة السويد والنوريج مثل ما على الدانمارك، وعلى مملكة نابل الايطالية ما يقدر بمائة وعشرين الف فرنك سنويا وكذلك مثلها دولة البرتغال، اما مملكة سيليزيا فكان عليها اربعة وعشرون الف ريال شينكو، وعلى هانبور - المانيا - اسلحة لا غير، اما مملكتا هانوڤر وبريم الالمانيتين ايضا فكان عليهما ما يقدر بنحو الستمائة ليرة انكليزية وعلى الدولة الاسبانية ما يقدر بثمانية واربعين الف فرنك مع هدايا، وتحف نفيسة، واما الجمهورية البندقية فكان عليها ثلاثون الف سكة سنويا، ولقد استمرت بعض الدول تدفع هذه المبالغ حتى تدهورت قوة الجزائر البحرية قبيل الغزو الفرنسي اما فرنسا نفسها فلقد كفت عن تقديم الهدايا منذ عهد نابليون.

وهناك غير هده من الدويلات الاوروبية الصغيرة التي كانت تدفع الى الخزينة الجزائرية من العشرة الى الخمسة عشر الف فرنك سنويا. اما دولة استراليا والمجر وروسيا فانها كانت معفوة من هذا المغرم برخصة خاصة حصلت عليها من طرف الباب العالي، ولعل ذلك كان مراعاة لحسن الجوار؟....

واما مملكة تونس فانها كانت تقدم ذلك بضائع وغلالا الى الجزائر منها:

مائتان وخمسون جرة زيت، وخمسون جرة من السمن، وعشرون جرة صابون مائع، مع هدايا ومنح تمنح بها أعضاء الدولة وسادة الحكومة ورؤساء الجندية ويقدر الضابط الانكليزي (جاكسون) الذي اشترك في الحملة الانكليزية ضد الجزائر سنة 1231هـ/1816 م مبلغ دخل البلاد يومئذ بمليون ومائة الف (فرنْ) وكانت قيمة(الفرنْ) تبلغ ربع جنيه انكليزي.

وهي مقدرة عنده هكذا بالقروش

انكلترا: تقدم 180الفا
فرانسا: تقدم 235 ألفاً
الدانمارك: تقدم 112 ألفاً
هولندا: تقدم 75 ألفاً

مملكة نابولي: تقدم 187500 الفا عن 75 أسيرا، ويضيف الى هذا ان البرتغال قدمت سفينة و674 ألف قرش كفدية عن أسراها و120 ألف قرش اخرى لتسترد 7 سفن صغيرة من الجزائر، ويضيف الضابط الانجليزي جاكسون ان هذه المبالغ دفعت الى الجزائر سنة 1802م بمناسبة قيام حرب نابوليون ومحاولة جميع الاطراف شراء صداقة الجزائر، ويقدر مجموع ما حصلت عليه الجزائر من الدول الاوروبية في هذا العام بمليون و818 قرش.

بينما يقدر دخل البلاد من الموارد الاخرى بما في ذلك الجزية التي كانت تدفعها تونس بمليون ومائة الف قرش[1].

وأخيراً تناقص هذا العدد الذي كانت تؤديه هذه الدول الى الخزينة الجزائرية بسبب تدهور الاسطول الجزائري وضعف قوة الأتراك فتتضاءلت هيبتهم بهذا البحر.

وبالجملة فان اهم مصادر دخل الخزينة الجزائرية هي:

1 - مداخيل القرصنة
2 - الضرائب

---

(1) كانت قيمة القرش تبلغ 5شلنات، او كرونة - ربع جنيه انجليزي، راجع: المغرب في بداية العصور الحديثة للدكتور صلاح العقاد ص 677القاهرة 1962-63م

3 - اوقاف ومداخيل بيت المال....
4 - رسوم مضروبة على البضائع الصادرة والواردة
5 - رسوم عن الولايات والمناطق المستقلة عن الادارة التركية (نقود وسلع)
6 - مداخيل من قبل الدولة المحتكرة لصيد الاصداف والمرجان بالسواحل الجزائرية
7 - غرامات والتزامات وهدايا وعوائد - دنوش يؤديها الاجانب الى حكومة الداي.
8 - الزكاة والعشور

كما اننا نجد في هذا المعنى حديثا مفصلا طريفا يرويه لنا حمدان عثمان خوجة في مرآته يذكر فيه تفاصيل دخل الحكومة وخرجها وهو ممن عاش هذه الفترة وعاشر هذه الحكومة وباشر بنفسه مصالح ماليتها وعرف ذلك بالتدقيق اذ نجده يقول عن عصره: «وفي هذا العصر فرضت الضرائب على الدكاكين وحدد مبلغ ضريبة الدكان الواحد شهريا بحوالي ثلاثين صانتيما بالعملة الفرنسية، كما فرضت ضريبة على اغنياء اليهود في مقابل أمن انفسهم وصيانة شعائرهم الدينية، ويتم دفع هذه الضريبة حسبما يناسب ثرواتهم وما تقتضيه قوانين البلاد... ثم انه من أجل توفير دخل الحكومة أسست مصلحة الجمارك مع قوانين الضرائب للصادرات والواردات، بيد أن القانون المحدد من طرف الجمرك يقضي بدفع خمسة في المائة سواء في ذلك المسلمون والاوروبيون....

وفي بيان مصرف هذا الدخل يقول حمدان خوجة: «ومصرفها فيما يلي: في صيانة المؤسسات وفي مرتبات رجال المحاكم وموظفي الحكومة وفي رعاية الفقراء والمساكين والارامل واليتامى الذين يجب على الحكومة أن تتحمل نفقاتهم دون تمييز بينهم من حيث الجنس والدين، وفي صنع الطرقات واصلاحها وتحصين الحصون والمعاقل والقلاع وهلم جرا... والمواد الحكومية في قوانين شريعتنا هي التي تحدد جميع انواع دخل الخزينة لصاحب السلطة»(1).

واما نظام الجيش أو الجندية وهو ما يعبر عنه في اصطلاحهم بـ «الوجاق»

---

(1) وللمزيد من معرفة مصادر دخل الخزينة الجزائرية راجع: (ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائري الفترة العثمانية (1800-1830م ص: 85-126ط الجزائر 1979م

فهو اعظم ما تعتمد عليه الحكومة في توطيد اركان ملكها ونشر نفوذها بهذه البلاد.

فالجندية التركية كانت كغيرها مؤلفة من عدة وحدات وفيالق مختلفة الالقاب أشهرها لفيف - اوجاق الينكشايرية[1] المدلل، وفريق السباهية

---

(1) الينكشايرية او الانكشايرية هي كلمة محرفة عن اصلها التركي «يني تشارى» وترسم بالقلم التركي هكذا «يكيجارى» ومعناها الجيش الجديد.

وجيش الانكشارية هذا هو مؤلف من شتى الشعوب وخاصة من الاسرى ومن اطفال النصارى الذين جمعهم العثمانيون جزية من مختلف البلاد المسيحية على اختلاف اجناسهم وتباعد بلادهم فكانت الحكومة التركية تأخذ منهم 20% فتدربهم على الحرب وتبث فيهم الاسلام والولاء، والتعلق بالدولة العثمانية مع قطع العلائق والصلات التي تربطهم بأوطانهم الاصلية بل وحتى بأديانهم وماضيهم ايضا، فكانوا ينشأون على نظام خاص نشأة اسلامية عثمانية محضة من غير أن يكون لهم ادنى التفات الى شيء اخر سوى حب الاستماتة في سبيل الدفاع عن سلطان آل عثمان ودولته.

ولقد كان تأسيس هذا اللفيف من الجيش التركي باشارة احد كبار رجال الدولة العثمانية وهو الباشا قارة خليل جندرلي، أو قرار رستم القرماني وقد كان ذلك بامر الوزير الاكبر علاء الدين بن السلطان عثمان الاول سنة 726 هـ/1326م وباركه يومئذ شيخ الطريقة الصوفية بأماسية الحاج بكتاش، وكان الغرض الوحيد من انشاء هذه الفرقة من الجيش هو تفادي الانحياز والتعصب القبلي والتحزب الطائفي في الجيش التركي الذي قد يؤدي الى سقوط الامبراطورية العثمانية. فكان بذلك هذا اللفيف هو اول جند نظامي باوروبا لذلك العهد.

ولقد أخذ الاتراك هذه الفكرة عن تقليد، فانهم قلدوا فيها غزاة البيزنطيين الذين كانوا يؤسرون السبايا من المسلمين وينصرونهم ثم يدفعون بهم الى مقاتلة المسلمين في عقر ديارهم مثل ما فعل البطريق (ميشال بور تستريس) حينما استولى على انطاكية سنة 358 هـ/(969م) فانه سبى عشرة آلاف غلام من أبناء المسلمين فحملهم معه الى القسطنطينية ونصرهم هناك ثم دفع بهم الى الجندية وجعلهم يحاربون قومهم وآباءهم المسلمين، وكذلك فعل «نيقو فور فوقاس» 359 هـ/ 969 م. لما استولى على حلب وسبى منها عشر آلاف غلام مسلم فنصرهم وعمدهم وصيرهم من أعز جنده، فما كان عمل العثمانيين حينئذ إلا رد فعل أو انعكاس لعمل النصارى المسيحيين مع المسلمين — جزاء وفاقاً —

نشأ هذا الصنف من الجيش على نظام الخطة المقررة المرسومة وترقى في درجات الجندية الى ان اصبح عمدة الدولة في غزواتها وفتوحاتها العديدة في البر والبحر واستمر على ذلك الى أن ظهر فيه الصلف والجور وخرج اكثر ضباطه ورؤسائه عن حدود اللياقة والادب فتعدى القوم طورهم وعتوا في

الفرسان واليولداش، وهي ذات رتب ودرجات يرتقي اليها الجندي حسب اقدميته ومقدرته في اعماله بالسلك العسكري، وحسب كفاءته واهليته الحربية، وقد تجاوز عدد هذه الفرق او الفيالق في معظم الاحيان عدد الرجال الانكشايرية، فكانت الجملة تتراوح ما بين العشرة آلاف جندي الى نحو العشرين ألفاً، على اكثر تقدير وذكر لوجي ديتاسي: إنه لم يكن في يوم من الايام ليزيد عدد الجيش التركي بالجزائر عن اثنى عشر ألفا، وكان مسكن هؤلاء الجند بالثكنات الثمان التي كانت بالعاصمة.

واشهر مراتب الضباط في الجيش اربعة: اوضة باشي، وبولو كباشي، واغا باشي، وكاهية، وهي لا تختلف كثيرا عن الدرجات المعهودة في الجيش بالعالم، وليس هناك ما يجعل الرعية ملزمة بالانخراط في سلك الجيش ولا في النظام الحربي الا ما كان منها عن طيب خاطر وطواعية وفي حالة الاضطرار توفد الحكومة الجزائرية الى آسيا من ينشر لها هناك المناشير ويدعو الناس فيها الى التجنيد المأجور، في حين ان الاتراك في الوقت نفسه أقاموا مراكز عسكرية (زمول) في جميع طرق المواصلات الرئيسية للأمن العام والحد من ثورات الأهالي وكل انواع طوائف الجيش التركي بالجزائر مأجور سوى فرقة المخزن الاهلية فانهاملحقة في نفقاتها بخرج الحكومة العام، فهي لا تتقاضى على اعمالها المخزنية اجرا معلوما وانما هي محشورة ضمن نفقات الحكومة العامة، ويمتاز

الارض عتوا كبيرا: ويومئذ اصدر السلطان محمود الثاني امره في 9ذي القعدة 1241هـ (16جوان 1826م) بحل نظام هذا الصنف من الجيش وابطاله تماما واحل مكانه الجيش النظامي وكانت اقامة جيش الينكشارية بالجزائر في ثكنات خاصة به اشتهر بالعاصمة منها سبع قلاع منها هذه الثكنة الباقية الى اليوم بقرب المسرح البلدي - الاوبرا - المعروفة باسم «دار الكشايرية» وهي منتدى العسكر اليوم وثكنة الخراطين بناحية باب عزون، وقشلة العريش، وقشلة ما قارون قرب الجامع الكبير، هدمت اخيرا عند انشاء هذه العمارات الجديدة بجنوب الجامعين باسفل المدينة، وقشلة باب الجزيرة، وقشلة التاقين - وهم صانعي الخفاف - والتاق - بالقاف المعقودة كلمة تركية معناها الخف، وقشلة باب البحر. وكلها كانت وقفا على هذا اللفيف من الجيش تحت ادارة واشراف رئيسهم الاعلى (القبجي) او الاغا وكان عدد الجند الانكشايري بالجزائر في اول امره لا يزيد عن الف عسكري، ثم تكاثر عدده وتزايد الى اضعاف ذلك، غير أنه لم يزد عدده عن 6000رجل نصفهم يرابط بالعاصمة.

رجال الوجاق واصناف الجند عن بعضهم بما تخصهم به الحكومة من الملابس المتنوعة المختلفة الالوان والاشكال.

وفي اواخر ايام هذه الدولة بالجزائر اضطرت الحكومة المركزية الى مضاعفة عدد رجال الجيش فاضافت اليها فيالق جديدة كفيلق الدوائر والزمول[1]، والقوم والمخازنية، والجند الزواوى، وجيش العبيد من الزنوج، ومرجع قيادة هؤلاء جميعا الى الضابط التركي الاعلى الحائز على لقب «آغا» فهو المتصرف المطلق والامر الناهي في الجيش، ومدة نفوذه حسب تراتيبهم لا تزيد عن شهرين فقط ثم يخلفه آخر «الكاهية».

ولقد بلغ عدد جيش المشاة بالجزائر - في بعض الوقائع - الى ستين الف جندي ثم لم يزد على ذلك. وكان القوم الذين يتألف منهم الجيش النظامي يتناوبون الخدمة العسكرية ويتداولونها بينهم تارة في الثكنات المنبثة في أهم المراكز العسكرية كبجاية، وبرج سباو وقسنطينة، والمدية ومليانة، ومازونة، وتلمسان، وتارة يكونون في صفوف الجيش لجلب الرسوم، سنة هنا وسنة هناك ويقضون سنة في الراحة والاستجمام، ورغم ذلك فاننا لم نر للحكومة التركية كثير الاهتمام بالقوات البرية مثل ما هي حريصة على مساندة البحرية ومؤازرة رجالها، وذلك لانعدام الخطر عليها من الداخل - في نظرها - وفي سنة 1216هـ/1802م انحط عدد القوات البرية الى خمسة عشر الف جندي.

وفيما يرجع الى نظام الاسطول التركي الرابض بسواحل افريقة فان الحديث عنه من اعجب عجب ما يرويه رواد الاخبار ومؤرخي البحرية فانه قد بلغ امتيازه في عدده وعدده وجهازه ونظامه وحروبه ومغامراته إلى الحد القيلسي وفيه من اشكال السفن الحربية ارقى واحكم ما عرفه تاريخ البحرية في ذلك العصر ولقد بلغت وحداته في بعض السنين الى 212 قطعة مختلفة الاشكال مجهزة بالمدافع والرجال وكل اعتدة الحرب تجهيزا جيدا وكلها تسير كما هو معلوم بالشراع والمجاديف

---

(1) كان ذلك على عهد ولاية الباي شعبان على قسنطينة(1099هـ/1688م)فانتشر فيلق الزمول أو الزمالة أولا بوادي الرمل، ثم عم انتشاره بالجنوب القسنطيني ما بين جبال قربون وانف النسر بالقرب من منابع عين الفسقية ومرتفع بومرزوق.

وفيها ما هو معروف باسمه كمفتاح الجهاد والانتصار الاسلامي والغزال وفتح الاسلام والظفر والجزائر وهلم جرا... وكان عدد الجيوش بها يتراوح ما بين الثلاثين والاربعين الف نسمة. ويترأس القوم ضباط من نفس الطائفة: الوردیان ورئيس العسة والباش ريس ورئيس الطريق والكل تحت اشراف «قبطان رايس» امير البحر ويلاحظ انه كان بين طائفة رجال البحرية ورجال الجيش المشاة الينكشايرية تنافس ومشاحة وتحاسد منشأها التشوف الى رتبة الامارة والقبض على ازمة الحكم والاستئثار بخيرات البلاد.

وتحدث ابو الحسن علي بن محمد الجزولي التمجروتي (1003هـ/1594م) عن مدينة الجزائر في رحلته المعروفة (النفحة المسكية في السفارة التركية) فقال:

«ومرساها عامر بالسفن ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر يقهرون النصارى في بلادهم، فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير واعظم هيبة واكثر رعبا في قلوب العدو».

وأما النظام المدني فانه كان يجري تحت تصرف جماعة الاعيان وهم الرؤساء المعبر عنهم بالامناء فلكل صنعة تجارية كانت أو حرفة يدوية امين ولكل طائفة من الناس عريف يضمهم كلهم مجلس شيخ المدينة ولهذا المجلس حق الرقابة المطلقة والاشراف على جميع ما يجري من التعامل بين الناس وفي اسواق المدينة من عدل أو حيف وهناك «المحتسب» الذي يأخذ على يد الظالم و «المزوار» الذي يسهر على نشر الامن ومحاربة الدعارة والبغاء.

أما السلطة القضائية فهي بأيدي القضاة الشرعيين وكان بالعاصمة منهم قاضيان حنفي ومالكي والحنفية هي مذهب الحكومة الرسمي ولكل قاض اثنا عشر عدلا وهناك المجلس العلمي - الشرعي - الاعلى الذي يتألف من قاضيين ومفتيين على مقتضى المذهبين ايضا وشيخ النظر في الأوقاف وممثل الحكومة فإلى هذا المجلس يرفع النزاع في النوازل والمشاكل العويصة وفيه تراجع احكام القضاة وينظر في القضايا الكبرى فهو بمنزلة محكمة استئناف عليا، ومقر انعقاده بالجامع الكبير في العاصمة وقد يحضره الحاكم ويرأسه هو بنفسه احيانا ولقد استمر هذا المجلس على عمله هذا الى حوالى سنة 1264هـ (1848م) بقليل فنسخته السلطة الفرنسية المحتلة بمثله ولكن بهيئة اوروبية محضة اجنبية عن الاسلام

تماما ومركزها قصر العدالة. وكان هناك المحتسب الذي فوض إليه النظر في شؤون الاسواق والاخلاق.

وفيما يرجع الى الفصل في الخصومات الجنائية والجنح واحكام الدماء والحدود فان القصاص في ذلك مفوض الى «حانوت الكاهية» وهو اسم المحل او المكان المأذون به للنظر في مثل هذه القضايا الاجرامية والنوازل التي تجري حوادثها بين المدنيين - لا العسكريين - فان لهؤلاء العسكر هيئة خاصة بهم تفصل فيما بينهم لا يحضرها اجنبي عنهم.

والذي يرأس مجلس «حانوت الكاهية» بالعاصمة هو الحاكم نفسه او خليفته كخوجة الخيل مثلا او الآغا وبقسنطينة قائد الدار وفي وهران الباي نفسه او نائبه كقائد البلد كما أنهم اشتهروا بالشدة والعنف في احكامهم، فلقد كان يجري تنفيذ احكام العقوبات معجلا واحيانا يكون فيه من انواع العذاب والتمثيل بالمحكوم عليه والتنكيل به قريبا مما كان يعامل به المحاكمون في اوروبا[1] ولقد كان بالعاصمة من نوع هذه المحاكم الزجرية ثلاثة احداها بناحية باب عزون والثانية بدار الصابون والثالثة بالزنبوج.

وفيما يختص بالجاليات أو الاقليات والطوائف المسيحية واليهودية فانها كانت تتحاكم الى السفراء والمحاكم الملّية المختصة بها، وبهذا كان نظام القضاء بالجزائر يومئذ خير ضمان لحرية المذاهب واحترام المعتقدات والتقاليد العرفية بين الطوائف.

وأما رايةُ الحكومة ولواؤها الرسمي بالجزائر فحمراء لاشية فيها مجردة عن كل رمز اعلانا بخروجها عن سلطة خلفاء القسطنطينية المحتوى علمهم على النجم والهلال، وفي بعض المرات اقتصر الجزائريون على رسم الهلال بها فقط، وهناك سناجق وبيارق تختلف الوانها ورموزها وهي تختص بالمراكب البحرية كشعار تمتاز به عن بعضها.

ثم كان لهذه الدولة تقاليدها العرفية والدبلوماسية حسب القانون الدولي المعمول به آنذاك وهكذا استمر نظام الحكم التركي قائما بالجزائر حسبما وضعه

---

(1) راجع ch. Andre julien, Histoire de l'Afrique du nord, p: 546 - 7 paris 1931.

الاخوان بابا عروج وخير الدين ومن لفّ لفهما من رؤساء الدولة التركية الاوائل بهذه البلاد مقصوراً على الاتراك وحدهم لا يشاركهم فيه احد من ابناء البلاد الجزائرية مع تغييرات قليلة كان لها شأنها إبان القرون الثلاثة من الحكم التركي، وان إستمر في جوهره كما وضعه الأخوان التركيان، وهكذا الى الاحتلال الفرنسي سنة 1246 هـ (1830م) وهو كما ترى نظام قريب في بعض نواحيه من نظام المتسلط الاجنبي ولا يمتاز عنه الا بمظهره الاسلامي فقط او ما كان من الرابطة والصلة الدينية بين الحاكم التركي وبين سكان البلاد الاصليين. - إنما المؤمنون اخوة.

حدود الجزائر التركية:

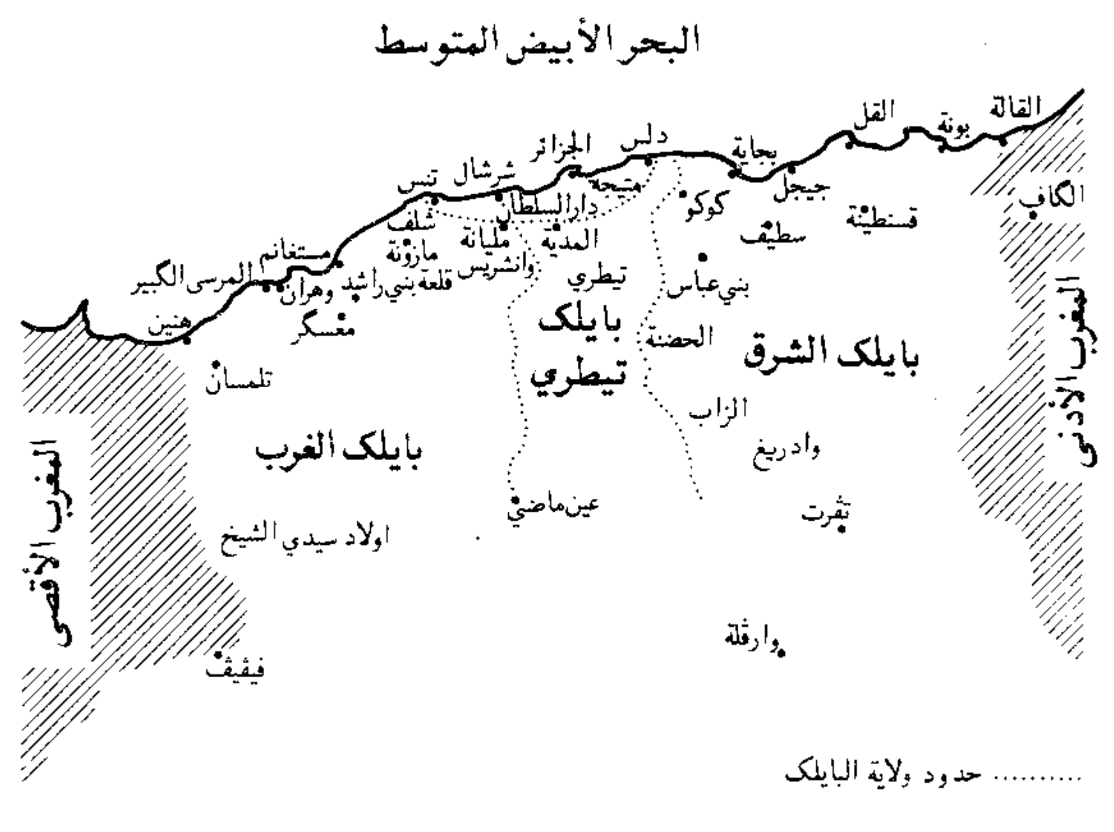
اما كون البلاد الجزائرية بحدودها المعروفة اليوم هي ما كانت عليه بتمامها على عهد الاتراك مستسلمة لنفوذهم منقادة لطاعتهم العامة فهذا مما لا شك فيه بل ما كانت هذه الحدود السياسية الشرقية والغربية مضبوطة واضحة جلية هكذا كما هي عليه الحال الان منذ العهد التركي فقط أي منذ سنة 1236 هـ/1821م حيث سعى الباب العالي في عقد هدنة وصلح نهائي ما بين أبياء تونس ودايات الجزائر، غير ان الكثير من مساحة الجزائر الجنوبية كان خاضعا لنظام الاقطاع وفيه ما كان خاضعا لنظام العرش او الجماعة، وان سلطة الاتراك العملية عهدئذ لا تشمل من اديم ارض الجزائر الفسيحة سوى محيط من الارض يحتوي على خمسة وسبعين الف كيلو مترا مربعا، ينتهي شرقا بمدينة طبرقة وغربا بوادي ملوية، وفي الجنوب بجبال العمور المتاخمة لعين ماضي، وهو نحو سدس التراب الجزائري اليوم. اما الباقي من جبال اوراس مثلا فانها لم تكن لتدخل تحت طاعة الاتراك الا اسما فقط، فهي لاهلها من زناتة، وبلاد الشاوية والزاب والحضنة لاسرة بوعكاز من الد واوده وبلاد تقرت وملحقاتها في اقصى الجنوب القسنطيني لبني جلاب، الخ... واما قبائل سويد بشلف غربي الجزائر فانها كانت مقتصرة في اظهار طاعتها للحكومة الجزائرية بما كانت تبذله للدولة بصفة غير منتظمة من عوائد وهدايا ولزمة الخ... ولقد ظل الخلاف قائما بين اغلب هذه البطون والقبائل والعشائر المتساكنة بهذا الوطن والمتجاورة مع بعضها بعض بسبب ما كان ناشئا عن استغلال العشائر المتجاورة

لارض التخوم ودام هذا الشقاق والشحناء بين تلك العشائر والبطون قائما مدة دوام انعدام الحدود المميزة القارة التي تفصل بينها وبين جيرانها، كما انه لم يكن فيما بين هذه الاسر القبلية ارتباط او اتصال يجعل من مجموعها وحدة سياسية ذات شوكة.

وتعرض صاحب «الثغر الجماني» الى ذكر حدود المغارب الثلاث، فقال: فالمغرب الاقصى حده من نهر ملوية الى اسفى حاضرة البحر المحيط... والمغرب الاوسط حده من وادي ملوية الى بجاية.... وقاعدته في القديم تلمسان ولما تملكه الاتراك صارت قاعدته الجزائر.... واما المغرب الادنى فمبدأه بجاية...

وفي تحفة الزائر قال: ان السلطة العثمانية امتدت الى واحات بلاد مصاب - مزاب - موغلة في الصحراء. وقد ثبت عن صالح رايس انه بعث بطوابير عسكرية سنة 960هـ / 1552م الى واحات وارغلة وتقرت داخل الصحراء.

وجاء في المرآة لحمدان عثمان خوجة تحديد للولاية الغربية الجزائرية فقال بانها تمتد من مدينة مليانة شرقا وتنتهي في وجدة غربا، ومساحتها تشكل الربع من مساحة قسنطينة تقريبا. وقال بأنه استقى هذه المعلومات عن من تولى هذه الولاية من البايات كما تولى بعدها قسنطينة ايضا.



الجزائر التركية

أ – عصر الفتح التركي

920 – 950هـ

1514 – 1544م

الاخوان عروج وخير الدين

هما اخوان من اهل احدى جزائر ارخبيل اليونان « مديللي » اوميتيلان – ليسبوص – التي فتحها السلطان محمد « الثاني » الفاتح سنة861هـ 1457م).

ولد عروج او – أوروج – حوالي سنة 878هـ (1473م) واخوه خير الدين بعده بسنة من أب يسمى يعقوب بن يوسف كان يصنع الفخار بهذه الجزيرة، وهو احد الجند الذين صحبوا جيش الفتح، واصله من قرية « آجى آباد » بالروميلي وامها ذمية.

نشأ عروج وهو ثاني اخوته الاربعة على هواية الحياة البحرية وذلك ما يقتضيه موقع بلده الجغرافي فأنشأ جفنا – مركبا – للتجارة واخذ يعمل به للارتزاق فوقع في محنة العبودية والاسر حيث اخذه الطليان البنادقة فعذبوه ونكلوا به وانالوه من العسف والجور ما اثار في نفسه الحقد وحب الانتقام من القراصنة الاجانب، وهذا يعد من حكومة الطليان خيانة حسبما تنص عليه معاهدة الصداقة واحترام الجوار المبرمة بينهم وبين الاتراك سنة 858 هـ (1454م) ولكن اين الوفاء؟... فكان هذا فاتحة عهد حذر تركيا من دول اوروبا.

ويوم ان تخلص عروج من اسره سعى من حينه الى تغيير مجرى حياته وكرس نفسه للجهاد والغزو في البحر للقضاء على القرصنة الاروبية فنزل هو

واخوه خير الدين ميدان الكفاح بهذا البحر الابيض المتوسط وعملا على ربط صلتها بالسلطان سليم « الاول » ودخلا في خدمة السلطنة العثمانية فامدهما الملك بالمراكب والسلاح واذن لهما في ارتياد الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط لمقاومة اساطيل القراصنة الاروبين واعتداءاتهم المتكررة فأخذا حينئذ في التجول بعرض البحار وطولها فطار صيتهما وذاع ذكرهما في الافاق واصبحا على رأس اسطول ضخم واشتهر عروج يومئذ بلقب « بارباروس » ثم اخوه بعده ببارباروس الثاني، ولا ادري اكان ذلك تحريفا لاسم الاول « بابا عروج »... ام هو تشبيه له بأمبراطور المانيا « فريديرك » الذي حاز الشهرة ايام الحروب الصليبية وعرف بهذا الاسم ؟... ام لشقرة كانت في الاخوين معا ؟...

ويومئذ تشوف الاخوان « بارباروس » الى الفتح والتقدم الى مقارعة الطغاة المعتدين على الثغور الاسلامية ومراكب المسلمين فتوجها للدفاع عن السواحل المغرب الاسلامي وحماية اهله فاتصلا بسلطان تونس ابي عبدالله محمد « السادس » الحفصي ونزلا بجزيرة جربة ثم بحلق الوادي بتونس فانتشرت سمعتهما وسارت بذكرهما الركبان وصار يخشى من ذكر اسمهما من بوغاز الداردانيل الى مضيق جبل طارق.

شدة حاجة المسلمين واضطرارهم الى شن الغارات البحرية:

انتهى امر المسلمين بالاندلس كما هو معلوم في القرن 9 هـ(15م) واصبح امر البلاد بيد الاسبان والبرتغاليين النصارى فاقفلوا الثغور على من بقي هناك من المسلمين واخذوا يذيقونهم من العذاب الوانا!...

ولقد اشتد الامر على المسلمين في ذلك شدة لا يأتي عليها الوصف ولم يقتصر العدو على ذلك فحسب، بل تتبع بدافع الحقد الديني والسياسي معاً اثر الاسلام والمسلمين حيثما كان واخذ يجوب البحار مهاجما لسواحل بلاد المغرب العربي مخربا ناهبا مدمرا ومتخطفا لكل ما يظفر به من الاموال والانفس والارزاق وقد امست بذلك بعض الاماكن من سواحل المغرب موطنا لعصابات من قراصنة الدول الاوروبية على اختلافها، وبذلك نرى انتقال الحروب الصليبية من المشرق الى المغرب، فلقد كانت اولا نيرانها مشتعلة ومستعيرة بالشام ومصر ثم انتقلت الى تونس ثم الى الجزائر والمغرب الاقصى، فلم يكن حينئذ الى السلم سبيل بين

الطرفين واصبح النهوض لاستنقاذ المسلمين وحماية سواحلهم المهددة امرا واجبا يتحتم على كل مسلم القيام به. مهما استطاع وكيفما استطاع الى ذلك سبيلا واضحى لزاما على الدول الاسلامية أن تقابل اعمال العدو بالمثل وان ترد عاديته وتقف في البحر رصدا لتوقع به وترد عليه اذاه وكيده وتدرك ثأرها منه، وبذلك تراجعت قوى الاعداء قليلا من طموحها واطماعها في البلاد الاسلامية، وليس هذا في الواقع بقرصنة أو لصوصية بحرية وانما هو لون من الحروب الدينية ودفاع عن الاوطان ولقد اقر بهذه الحقيقة معترفا بها الكاتب المسيحي «دوماس لاطري» وبعض كتاب الانكليز من رواد الحقيقة[1].

فتح مدينة جيجل:

كان من اوليات المدن الجزائرية التي سقطت بيد الاجانب مدينة جيجل التي كان ان احتلها الجنويز[2] منذ سنة 658هـ (1260م) وجعلها مركزا تجاريا عظيما، ولما ارسى الاخوان اوروج وخير الدين بالسواحل الجزائرية لقضاء بعض مآرب لهما اتصل بهما اهالي هذه النواحي ملتمسين منهما دفع الاجنبي عنهم وانقاذ ثغورهم من تسلطه عليها، فلبت الحامية التركية نداءهم وكان اول ما شرعت في انقاذه من البلاد الجزائرية هو مدينة جيجل فاحتلتها سنة 920 هـ (1514م) واتخذتها مركزا لعمارتها البحرية بهذا الحوض فركزت فيها 50 جنديا و3 سفن واطردت منها الجنويز الذي كان ان احتلها منذ سنة 658هـ /1260م بقيادة اندري دوريا.

ويذكر ابن احمدوش الجزائري في جدول له وضعه في تاريخ ولاة الاتراك على الجزائر قال: ان اتصال عروج بالجزائر كان سنة 916هـ (1516م)؛وليس هذا مما يضر في الضبط تاريخ اتصال الاتراك بالجزائر اذا عرفنا وان هذه المدينة وقع فتحها على يد الاتراك مرتين.

فتح حصون بجاية:

ولما اشتهرت اعمال الاخوين التركيين في غزو العدو وقهره واستيلائهما على

(1) راجع الشرق الاسلامي ج 1 ص 291،و

Demas latrie – Relation et commerce de l'Afrique septentrional avec les nations chretiennes du moyen – age (paris 1866)

(2) هم أهل مدينة جنوه بايطاليا.

جيجل استقبلها سكان ثغور الجزائر وموانيها بكامل البشر واتجهت الانظار اليها اتجاه المستغيث الملهوف الى الغوث فكاتبها اهل بجاية مستنجدين بها لقمع عادية دولة الاسبان والدفاع عن دار الاسلام، وكان الاخوان يومئذ متجهين الى سبتة من بلاد المغرب الاقصى فعدلا عن وجهتها الاولى وغيرا خطة سيرهما الى الشرق فاشرفا على بجاية في شهر جمادي الثانية 918هـ (اوت 1512م) واحتلا منها حصنها القائم على ساحل البحر، وبعد ان مر عليهما حولان اعادا غارتها على المدينة ودخلا باسطولها في الوادي الكبير وحملا من هناك على الاسبان حملة شعواء استأصلا فيها الاسبان قتلا واسرا ودامت المعركة اياما فأنتصر بها الاتراك والتحقت بهم جيوش الجزائر المتطوعة فبلغت نحو العشرين الف مقاتل ويومئذ اخذ النصارى في استعمال الحيلة والدهاء الحربي فتمكنوا بذلك من الاحاطة بالجيوش الاسلامية فحاصروها مدة اربعة وعشرين يوما فصبر لها المسلمون مستميتين في الدفاع عن اوطانهم حتى نفذ ما عندهم من البارود. فالتجأوا حينئذ الى طلب المعونة من صاحب تونس الحفصي فامتنع واظهر عداوته للاتراك واغرى عامله على قلعة بني عباس من بلاد القبائل بمعادات الاتراك ايضا والسعي في نصرة الاسبان وذلك لما كان بين جده عبد الرحمن واحمد بن القاضي -بوقطوش- الموالي للاتراك من العداوة وجاءت الامدادات الى الاسبان من جهات عديدة فتقوى العدو ضد الفاتحين فانسحب القوم صحبة نحو ستمائة اسير وانصرفوا بما معهم من الذخائر وفي هذه الوقعة اصيب عروج في ذراعه الايسر فسقط منه كما اصيب بجراحات بليغة في كتفه.

ثم في سنة 921هـ(1515م) اتحدت قوات المسلمين وجاءت جيوش القلعة العباسية يقودها الامير عبد العزيز الحفصي منتصرة للفاتحين الاتراك والتحقت بهم جيوش احمد بن القاضي من جرجرة وتقدم الجميع للقضاء على قوات الاسبان ببجاية فاخفقوا ولكل اجل كتاب

الاستيلاء على مدينتي الجزائر وشرشال:

كان لعدم استقامة امر ملوك الجزائر الزيانيين واضطراب امر الحفصيين اثر قوي في خروج بعض المدن الجزائرية عن طاعتهم واستقلالها بأمرها تحت رعاية جماعة من اهلها، ومنها مدينة الجزائر هذه فانها بقيت محافظة على حريتها واستقلالها

تحكمها هيئة من الثعالبة تحت رئاسة شيخ من شيوخهم وكان فيمن تعاقب على رأس هذه الهيئة العلامة « سيدي عبد الرحمن الثعالبي » ثم انتقلت رئاستها الى أولاد سالم من بني علاه الهواري، وكان آخر الرؤساء من هؤلاء « سالم السالمي التومي » [1].

احتل الاسبان صخرة المرسى العظيمة مكان برج الفنار اليوم وبنوا عليها حصنهم الشهير باسم « البنيون » penion سنة 916هـ (1510م) ونزلوا فيه واخذوا يومئذ في ارهاق الجزائريين والتضييق عليهم بفرض الضرائب والمغانم الباهظة على مكاسبهم التي تأتيهم عن طريق البحر كما فعلوا كذلك بسائر السواحل الجزائرية فضاق الجزائريون بهؤلاء الاسبان ذرعا وسئموا من هذه الاهانة والذل والقتل وحاولوا التخلص من هذا الحصن الاسباني الذي حل ببلدهم محل الشوكة باللهاة!.

وفي ذات يوم ارسى خير الدين باسطوله في مرسى الجزائر لقضاء بعض مآربه وقد علم الجزائريون يومئذ ان ملك اسبانيا « فيرديناند المسيحي » المتعصب قد توفي فانتهزوا هذه الفرصة، واستمسكوا بخير الدين فرغب اليه

---

(1) كان مقر حكمه ومركزه بالجزائر بحي باب الوادي في دار كانت تعرف بـ « دار الطبجية » ويقال انه سكن بالدار الحمراء قرب ضريح سيدي علي الفاسي بنهج فيليب philippe من حي باب الواد ولقد هدمت مباني هذه الناحية اخيرا بقصد التوسيع في انهج المدينة ودورها وتعميرها على شكل بناء العصر الحديث، ولكن الجزائر خسرت بذلك اجمل عماراتها واحيائها التاريخة الاسلامية، ففقدت بذلك طابعها الشرقي الاسلامي ورونقها الساحر الخاص، واذا كان لاعمال التخريب هذه ما يبررها عندهم في اوائل ايام الاحتلال حين لم يكن بد من ايجاد ملجأ امين لسكان الاوربيين داخل اسوار المدينة - على حد تعبير دائرة المعارف الاسلامية - فليس هناك من شك بأنه ليس ثمة ما يبرر هذا العمل بعد ان امتدت حدود المدينة واتسعت ارجاؤها من جهاتها الاربع.

فقد كانت هذه الناحية السفلى من العاصمة بمثابة الدرة من التاج مزدهرة بثروة طائلة من الدور والقصور الفسيحة الفخمة هي اجمل ما في المدينة من بناء وعمارة وناهيك بها انها كانت مسكن ذوي الوجاهة من رجال السلك السياسي والعسكري ورجال القضاء والفتيا، ورؤساء البحرية الخ... فالبناءات بها كلها من رخام ومرمر ملون زليج فارسي مزخرف ونقوش على الخشب والكلس وقباب مرتفعة ولقواس في اشكال هندسية جميلة على طراز دار مصلحة ووزارة السياحة وما جاورها كقصر حسن باشا القائم ازاء جامع كتشاوة وغيرها مما هو قريب منها...

شيخ مدينة الجزائر « سالم التومي » وشيخ بلاد قبائل - جرجرة - « احمد ابن القاضي » حماية بلادهم من خطر الاسبان ومبايعته كأمير على بلاد الجزائر، فحماهم مدة ثم سخط عليهم فغادرهم سنة كاملة ثم الحوا في دعوته اليهم واكدوا عليه قبول بيعتهم فأظهر امتناعا ثم لبى دعوتهم على ان يشاركه اخوه عروج - اوروج في هذه الغزوة وهو يومئذ مقيم بجيجل فاستصرخوه فأجابهم وجاء معه بحملة فيها ثمانمائة تركي وثلاثة آلاف جزائري، فعرج اولا على مدينة شرشال فاحتلها 922هـ (1516م) وتقدم بعدها الى مدينة الجزائر في نفس التاريخ فأنقذها من بين براثن الاسبان وعزز بها علمه الرمزي الخاص المثلث الالوان: اخضر اصفر واحمر، وكان اخوه خير الدين يومئذ مشتغلا بفتح مدينة مستغانم.

نزل عروج بالجزائر وحاول من يومه القضاء على حصن « البينيون » فلم ينجح، ولم ينشب ان عملت الدسائس عملها فانقلب ضده حاكم الجزائر وبيت له العداوة مع الاسبان، وكأنهم بذلك استضعفوه أو حسدوه فنشط عروج للانتقام من مشيخة مدينة الجزائر فقضى على رئيسها سالم التومي [1] وذلك لخمس سنوات مضت لحكمه الجزائر، واعلن انتصابه بنفسه ملكا على عرشها ولم يلق في ذلك من الاهالي كبير عنف وذلك لما يجمع بينهم جميعاً من اخوة الاسلام ورابطة الخلافة والدفاع عن الاوطان الاسلامية، وكان لسالم هذا ولد اسمه يحيى فر بعد مقتل ابيه الى وهران مستنجدا ومستغيثا بالاسبان فجهز له هؤلاء اسطولا ضخما وجعلوه تحت قيادة « فرانسيسكو ».

خيبة حملة دوق دييقو دوفيرا على الجزائر:

جاءت هذه الحملة الاسبانية في ثمانين مركبا تحمل كمية عظيمة من السلاح والجند اذ فيها من المقاتلين نحو الثمانية آلاف نسمة، يرأسها القائد الاسباني « دييقو دوفيرا » diego - de vera فأرست العمارة بناحية باب الوادي غربي العاصمة وقيل بشرقيها بناحية « حسين داي »؟... وذلك في اليوم الثالث من رمضان 922هـ (آخر سبتمبر 1516م) وما كادت جنود الحملة تتصل بالارض

---

(1) راجع فيما يتعلق بنهاية سالم التومي كتاب « حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا للاستاذ احمد توفيق المدني ص ١٧٤ ط قسنطينة - الجزائر -

حتى فاجأها الاهالي ومعهم الحامية التركية ومهاجروا الاندلس فقضوا عليها وكان ذلك في يوم عاصف حيث اشتدت الزوابع في البحر فاضطربت لها سفن العدو وتقاذفتها الزعازع الموج فتحطم اكثرها واصبح عدد قتلى العدو نحو 3000 قتيل و 400 أسير، فكان ذلك مما زاد في انكسار الاسبان وخيبتهم ولم ينجو منهم يومئذ الا القليل.

ويقال ان الاهالي الجزائريين يومئذ توجسوا خيفة من تسلط الاتراك عليهم وخروج الامر من ايديهم فاحتموا بحاكم مدينة تنس حميد العبيد من بني مهل اذ راسل هذا الاسبان يحرضهم على المساعدة في طرد الاتراك خشية زوال ملكه ايضاً، فكتب يوم 25 اغسطس من سنة 1516م الى القائد الاسباني دييقو دوفيرا diego de vera الذي كان يجهز الحملة لطرد الاتراك واحتلال مدينة الجزائر ما يلي: «مولاي الفاضل لقد اتصلنا برسالتكم واطلعنا بفائق الارتياح لخبر مجيئكم قائدا على اسطول الحملة التي تهمنا وتهمكم، وانتم تعرفون ان ابي عند وفاته اوصى بي الى ملك اسبانيا رحمه الله. (الملك الاسباني فرناند ومات في أوائل سنة 1516م) والان انني تحت حماية سيدي البرنس دوكارلوس (الوالي الاسباني على مدينة وهران اذ ذاك) يفعل بي ما يشاء. انني دائما في خدمته وسنكون احسن وسيط بيننا، ولا ارجو من سيادتكم الا المحافظة على مملكتي، ولا تعيروا اهتماما لحديث المرجفين... والذي احتفظ به منكم هي المنطقة الممتدة من الشلف الى قبر الرومية ولا تقفوا على ما ذهبت اليه سفن شرشال بالقوة...»

وهذه رسالة اخرى يبعث بها قائد الحملة الاسبانية دياقو بتاريخ 18 اغسطس سنة 1516م وهو اليوم الذي كانت فيه قنابل عروج تنزل كالصواعق على حصن الصخرة - بالجزائر - فكتب دياقو هذه الرسالة الى من اشم فيهم رائحة معارضة الاتراك بمدينة الجزائر وعلى رأسهم يحيى بن سالم التومي وفيها يقول دياقو الى يحيى ما يلي:

«ايها الشريف الشجاع والسيد الامين، ان مولانا الملك وقداسة الكاردينال والى المملكة الاسبانية بلغتهما موت ابيك الصادق الامين، وفي استبار البلاد ادرك ان الموت مثل هذا الرجل يجب أن تلقي وان تلتهم، وللاخذ بالثأر،

ومعاقبة المجرمين فان الامر صدر لجمع اسطول كبير وجيش عظيم اذ للجريمة عقوبة تكون عبرة لدانيها وسامعها، ولهذا تهيأ واستعد لمساعدتنا عندما نصل الى مدينة الجزائر حتى نقضي على الاتراك ومن تبعهم من العرب الذين كانوا سببا في قتل ابيك، وحتى لا ينجو احدهم من البر، اما من جهة البحر فسأكفيك شرهم ولا يستطيعون هروبا دون ان الاحقهم ولو فروا الى اسطنبول، ولهذا تكون ضرورة تحرير خدم ابيك القدماء ومجازاتهم والمحافظة على أملاكهم...وان قداسة الكاردينال قد حملني وصية تخص شرفك وشرف اهلك...»[1] وتعددت المراسلة والمكاتبة بين هؤلاء والاسبان وجاءت حملة دياقو الى الجزائر في 30 سبتمبر 1516م ولم يتجرأ احد من هؤلاء المغرورين على مساعدته فأسرع اليهم عروج، فأدركهم عروج في خمسة عشر الف جندي تركي والف فارس من الجالية الاندلسية فقضى على حركتهم هنالك.

تقدم الفتح التركي:

ويومئذ اخذ عروج في توسيع نطاق مملكته بالجزائر فاستولى على متيجة بعد ان فر حاكمها منها الى الصحراء، ثم نزل المدينة واحتل بعدها مليانة واستولىٰ على بلاد القبائل فنصب عليها اخاه خير الدين وقامه بدلس، وكان مما مهد له السبيل الى احتلالها هو ما كان قائما بين زعماء ناحية بني عباس واهل جبل كوكو من التنازع والخلاف. ثم هاجم تنس واحتلها في جمادي الثانية 923هـ (جوان1517م) وقتل صاحبها الموالي للاسبان ونشر سلطانه عليها وعلى ما تصل بها من قراها ومداشرها المحيطة بها، واقتسم حينئذ ادارة البلاد بينه وبين اخيه فأضطلع هو بغربيها وجعل مقره مدينة الجزائر وجعل لاخيه ناحيتها الشرقية مستقرا بتدلس -دلس -

فتح تلمسان:

لقد كان لهذه الفتوحات التركية المتوالية دوي عظيم في انحاء المملكة الجزائرية واثر باهر كبير في نفوس التلمسانيين الذين كانوا يرسفون تحت نير

---

(1) علي عبد القادر حليمي: مدينة الجزائر ص 166ط الجزائر 1972م - Andre Berbrugger
le pegnond alger p: 29 Alger 1860

ابي حمو الثالث وجور خلطائه الاسبان فبمجرد ماتتحقق لديهم انتصار الاتراك على الاسبان في بجاية والجزائر وتقدمهم في الفتح التف اهل تلمسان حول ملكهم ابي زيان المخلوع والتجأوا الى عروج فادركهم بحاميته وفتح تلمسان سنة 923هـ (1517م) وفر أبو حمو الى وهران محتمياً بحلفائه الاسبان، فعاد اذ ذاك ابو زيان الى عرشه.

وقعة هوارة:

هوارة هي قلعة او بلدة صغيرة من ولاية وهران تبعد عن مدينة معسكر بنحو 25 كيلومترا وعن مستغانم بنحو 55 كيلومترا وهي المعروفة قديما بقلعة بني راشد واول من استعمل عليها من الاتراك هو اسحاق بن يعقوب اخ عروج، استعمله اخواه على هذه الناحية واكدا عليه في تشديد الضغط على الاسبان المقيمين بوهران وقطع الميرة عنهم، وكان يومئذ ابو حمو الثالث معهم فجاء الى القلعة مقاتلا مع الاسبان واشتدت المعارك هنالك وكان الظهور فيها للأتراك، ثم اعاد ابو حمو كرته في جيشيه ومعه الاسبان فحاصر القلعة وضيق عليها الخناق مدة ستة عشر شهرا ثم افرج عنها وكانت الهدنة وعقد الصلح.

ثم لاح لائح الخيانة من طرف الاسبان فانقضوا على القلعة سنة 925هـ /1519م بقيادة هيكو دومونكاد hugo de moncad نائب ملك صقلية وقضوا على اهلها غدرا وقتلوا الحامية التركية وكان فيها استشهاد الامير التركي اسحاق [1] ونشبت هناك وقائع وحوادث دامية بين حميد العبد رئيس تلك النواحي - قبائل سويد العربية التي كانت لها الامارات بتنس ويمتد نفوذها من (قبر الرومية) شرقا الى مصب نهر شلف قرب مستغانم غربا - وبين الجيوش التركية، وسرعان ما انتصر الاتراك على الاسبان واحتل عروج نواحي شلف والظهرة وونشريس وتيطرى ومتيجة.

استشهاد أروج وعودة ابي حمو الى العرش:

انتقل ميدان القتال بعد ذلك الى تلمسان وعاد اليها ابو حمو الثالث في

(1) ذكره عبد الرزاق بن احمدوش الجزائري في جدوله المطبوع بالجزائر سنة 1886م على انه كان أول باشا قدم الى الجزائر سنة 915هـ (1509م) وفي تقييدات أو مفكرة ابن رجب الجزائري - مخطوطة - انه تولى امارة الجزائر سنة 910هـ (1504م)؟....

اشياعه وحلفائه الاسبان فحاصرها ستة أشهر وهناك وقف في وجهه عروج فقاتله وقتل من اهله نحو الستين شخصا كان فيهم سبعة من المترشحين للملك، وقضى على نحو الف من سكان المدينة المعارضين ثم خرج بنفسه لملاقات عدوه ابي حمو ومن معه من الاسبان فقاتلهم ولم يعقه في ذلك انفصال ذراعه واستمر يخوض غمار الحرب بشجاعة نادرة الى أن استشهد وجماعته معه في الميدان قرب مقطع الوادي الملح Rio salado على مسافة قريبة من وجدة وذلك في شهر جمادي الاولى سنة 924هـ (ماي 1518م) وعمره يومئذ نيف واربعون سنة، فسر لسقوطه الاسبان فأحتزوا رأسه وسلبوه ملابسه واخذوا ذلك معهم الى بلادهم يطوفون به الشوارع والانهج تطمينا لافئدة شعبهم المضطرمة حقدا وغيظا، ووضعت ملابسه تلك في دير -موناستيرسان جيروم- بقرطبة ويروى أن جثمانه جيء به الى العاصمة فدفن بجوار ضريح سيدي رمضان [1] وقبره عن يمين الداخل للضريح متصلا بجدار المسجد؟... وعند أبي رأس ان استشهاد عروج وقع بجبل بني موسى يوم عيد الفطر من سنة 935هـ/8 جوان 1592م والمرجع الاول، وذكر بروفجير Brugger في المجلة الافريقة (اكتوبر 1859م) ان ذلك وقع بجبل بني يزناس كما قدمنا.

وأعاد الاسبان ابا حمو الثالث الى عرشه المحتضر على أن يكون حليفهم ضد الاتراك ويدفع لهم سنويا اثنى عشر الف دوكه او بياسطر - نقد اسباني - و 12 فرسا و6 صقور رمزا لخضوعه واستخذائه للاسبان وفي هذه السنة جدد خير الدين سور مدينة الجزائر الذي انشأه بلكين ملك صنهاجة من قبل

انهزام الاسبان عن الجزائر:

كان لاستشهاد عروج وانتصار الاسبان على المسلمين في وقعة الوادي الملح ارتياح عظيم لدى الاوساط المعادية وكأن الدولة الاسبانية يومئذ استيقنت

(1) رأيت في مجموع مكتوب بخط الشيخ سيد احمد ابن القبطان الامام الخطيب بالجامع الجديد الحنفي بالعاصمة والمتوفي سنة 1328هـ/1910م ان وفاة سيدي رمضان كانت سنة 1072هـ/1661هـ 1662م.

النصر النهائي لها ورأت الفرصة سانحة لاطفاء ما يتأجج في صدرها من نار طلب الثأر من سكان هذا الشمال الافريقي المسلمين منذ انطلاق موجاته الى الاندلس على عهد طارق وطريف ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي ومن جاء بعدهم من المغاربة. فعزم الامبراطور شارلكان على القضاء نهائيا على دولة الاتراك بالجزائر فجمع يومئذ جمعه وأخذ في تعبئة حملة عنيفة ضد الجزائر مجهزة بأضخم اجهزة الحرب فخرجت العمارة من مرسي جنوة سنة 926هـ (1519م) مشتملة على ما يزيد عن اربعين قطعة بحرية وفيها من الجند خمسة آلاف مقاتل يرأسها والي صقلية «هوكودومونكاد» فعرجت اولا على وهران فاستكملت عدتها هنالك ثم جاءت الجزائر فأرست بناحية الحراش (1519/8/17م) واختار الاسبان مراكزهم عند مرتفعات (كدية الصابون) واخذوا في ضرب المدينة بالمدافع وقد افلح خير الدين في اخراجهم من خنادقهم بهجومه على سفنهم المصفوفة على الشاطىء وهناك اشتبكت المعارك بين الفريقين مدة ثمانية ايام فانتصر الجزائريون على هذه الحملة وأسروا منها ثلاثة آلاف مقاتل وفيهم اكثرية من الضباط ومن بينهم رئيس الحملة، ومات منهم أربعة آلاف غرقا ونجا منهم آخرون.

وفي السنة بعدها كان استيلاء خير الدين على مدينة القل بساحل الجزائر الشرقي ثم بونة بعدها وشرع يومئذ في توزيع الاعمال على الموظفين وتعيين الولاة على النواحي ومن بينهم احمد بن القاضي فأقره شيخا او خليفة على الناحية الشرقية، ومحمد بن علي على الناحية الغربية.

الحاق الجزائر بالامبراطورية العثمانية:

ولما اطمأن الجزائريون على بلادهم وتحققوا من يأس العدو منها اظهر بعضهم الاستغناء عن الاتراك، وفيهم من حول نظره الى الاسبان مستنصرا بهم ويومئذ جمع خير الدين طائفة عظيمة من نخبة اهل البلاد واعيانها وعرض عليهم تخليه عنها، واظهر لهم عزمه الاكيد على الانتقال من بلادهم والعودة الى خطته البحرية لمجاهدة قرصان النصرانية بغوص هذا البحر الذي كان مسكونا بشعوب من القراصين التي تمارس الغزو والقرصنة وتعتمد عليها في معاشها، فأبى عليه مجلس الاعيان ذلك واعلن تعلقه الشديد به وبرهن على ولائه

واخلاصه باظهار رغبته ورضاه فيما يقترحه ويشترطه عليهم خير الدين، وبعد المناقشة والجدال الطويل في ذلك طرح عليهم خير الدين فكرة الحاق الجزائر بالباب العالي والاحتماء بالسلطة العثمانية فاستصوبوا رأيه واستسلموا له في انقياد تام، وكان مما جعل شأن التحاق بلاد الجزائر بالمملكة العثمانية امرا ميسورا لديهم هو ما يجمع بينهم وبين حكومة آل عثمان من رابطة الدين والخلافة مع توجس الاهالي وخوفهم من مفاجآت العدو وغاراته الطارئة. فكان ذلك ما بعثهم على الرغبة في التحالف مع الخلافة العثمانية.

ويومئذ كتب خير الدين محضراً اشتمل على تفاصيل الحوادث الجزائرية وذكر البيعة للسلطان العثماني سليم الاول وبعث بذلك مع احد اتباعه - الحاج حسين - الى استانبول وكان السلطان آنيئذ قد فرغ وشيكا من فتح مصر (923هـ /1517م) فاهتبل هذه الفرصة التي تتيح له وضع القسم الغربي من شواطىء البحر المتوسط تحت سلطانه، فتلقى ولاء خير الدين بالقبول واذن في ضم الجزائر الى مملكته وخلع على خير الدين لقب «بيلرباي» اي امير الامراء وجعله حاكماً عاماً على الجزائر وامده بالفين من الجند المسلح ومدفعية قوية وأربعة آلاف من المتطوعة وجند الانكشارية وجاء معهم كثير من المهاجرين الاتراك ومن هؤلاء الجنود والمهاجرين تكون (الاوجاق) او قوة الجزائر الحربية. واذن السلطان يومئذ في سك النقود ؛ولم يعلم عن احد ممن تولى الحكم من الاتراك بالجزائر انه ضرب العملة باسمه، وانما كانت تضرب دوما باسم السلطان العثماني، واصبحت الجزائر منذ سنة 924هـ (1518م) ولاية تركية مرتبطة بالامبراطورية العثمانية ملحقة بها خاضعة لحكام اقليميين يحملون لقب بيلرباي والباشا والداي يتمتعون بقسط وافر من الاستقلال عن الحكومة المركزية باستنبول. ثم كان بعد ذلك ضرب السكة بمدينة الجزائر باسم السلطان سليمان خان الاول بتاريخ 926هـ / 1520م.

ويبدو ان خير الدين هذا لم يكن يعمل لمجرد الكسب والغنيمة وانما كانت تسيره عاطفة دينية صادقة فلقد عجل هذا الرجل في ساعة نصره وظفره فوضع نفسه في خدمة السلطان وقدم الى الخلافة بلاده في الوقت الذي كان عمال الدولة ينتهزون فيه فرصة استقوائهم لينفصلوا عنها وقد كان الرجل موفقا فيما

رأى اذ وقع تصرفه في نفس السلطان سليم موقعاً طيبا [1].

انبعاث الاضطراب والفتن بالجزائر:

لقد كان التحاق الجزائر بالباب العالي باعثا قويا في اضطراب بلاط بني زيان بتلمسان وبني ابي حفص بتونس والوطاسيين ايضا بالمغرب الاقصى وذلك خشية امتداد القوى التركية الى بلادهم ونشر جناح السلطنة العثمانية على كامل المغرب العربي، فاجتهد الحفصيون والزيانيون يومئذ في العمل على قطع العلائق بين الجزائر واستانبول وسعوا في ايقاد الفتن والثورات الوطنية ضد السلطة التركية، وانفقت في ذلك اموال طائلة وفيهم من استجاش بالاسبان وملوك المغرب الاقصى من وطاس ولكن ذلك كله لم يثبت امام قوة الجيوش التركية النظامية فخاب مسعى بني زيان وتنكر الشعب الجزائري للمولى عبد الله الزياني فانزله عن عرشه وفر الملك الى حلفائه الاسبان وتولى مكانه اخوه المسعود سنة 925 هـ 1519م) تحت نفوذ الاتراك.

غزو ولاية تلمسان:

ما كاد يطمئن خير الدين على ولاية تلمسان حتى فاجأه ملكها المسعود باظهار عداوته وبغضائه للاتراك وانقلابه على الحكم العثماني واعلان ثورته الصماء على خير الدين، فتقدم البيلرباي اولا الى مستغانم فحاصرها بجيوشه المشاة برا وغزاها بحرا بثمان وعشرين سفينة حربية فانفتحت له ثم تقدمت مراكبه الى سواحل الاندلس فانقذت منها عددا وافرا من المحصورين ثم كانت وقعة هوارة - قلعة بني راشد - فاستولى عليها ايضا ويومئذ تصدى لحصار تلمسان فأحاط بها وضيق عليها الخناق مدة عشرين يوما ففتحها وفرامامه المسعود طلبا للنجاة بنفسه، فجاء الاتراك يومئذ بالمولى عبد الله فأعادوه الى العرش الزياني تحت سطوتهم ورعايتهم وخلعوا عليه الخلعة الملكية على أن يدفع للخزينة الجزائرية عشرين ألف دينار سنوي.

حركة احمد بن القاضي:

هو رجل من اعيان بيوتات الجزائر الساكنة بناحية بلاد القبائل

(1) الشرق الاسلامي ج 1ص 296.

كان أولا قاضياً ببجاية وفي سنة 917هـ/1511م أسس امارة بجبل كوكو الواقع عند منابع واد سبأ وبالسفوح الشرقية لجبال جرجرة اي على نحو ثمان كيلو مترات شرقي عين الحمام ولما تولى خير الدين أمر البلاد ولاه رئاسة قومه بتلك الناحية فاستقر بجبل كوكو – سوق الاربعاء – من بلاد زواوة وكان السلطان الحفصي قد استماله سرّاً فرفض الحكم التركي ونهض لقتال الاتراك فشن غارته عليهم بتلك النواحي الشرقية، ويومئذ خرجت الحامية التركية لاخماد ثورته فواجهتها هنالك جيوش الحفصيين بارض القبائل (تيفليست يمليل) وانتشبت الحرب بينهما في الحدود وكانت المعركة شديدة انتصر فيها جيش خير الدين، فعاد ابن القاضي حينئذ الى المراوغة والتظاهر بالتودد للاتراك فصانعهم ودلهم على عورات العدو وسالمهم تقية الى أن شعر من نفسه بالقدرة على مقاومتهم فانقلب عليهم مرة أخرى واستنجد بالاسبان فلم يعبأوا بشأنه واستجاش الحفصيين فانجدوه واستعان بهم في الاستيلاء على كثير من القرى والمدن الجزائرية التي هي ببلاد القبائل، وغزا مدينة الجزائر فانهزم عنها وعقد الهدنة مع خير الدين ثم نكث عهده وجدد هجومه على العاصمة فانهزم ثانيا ملتجأ الى ناحية (ثنية بني عائشة) من ارض القبائل ورأت الحكومة التركية ان الامر لا يصفو لها مع وجود ابن القاضي هذا في الميدان فأوعزت بعد ذلك الى من قتله بعد الثلاثين وتسعمائة للهجرة وقيل سنة 933هـ/1527م.

خيانة قارة حسن واستيلاء ابن القاضي على الجزائر:

وبعد ان تيقن خير الدين من القضاء على ثورات ابن القاضي وانهزامه عن الجزائر نهض لاسترداد الاماكن التي خرجت عن طاعة الحكومة التركية بتلك الجهات الشرقية فجهز لذلك جيشا منظما جعله تحت قيادة وتصرف قارة حسن فخرج الجيش من مكمنه وقام بواجبه احسن قيام فانتقل ابن القاضي حينئذ من مركزه واعتصم بالفرار وذهب الى بونة «عنابة» فاستقر بها مختفيا وهناك استعمل الحيلة والدهاء السياسي فاستمال اليه قائد الجيش التركي: قارة حسن، واتفقا على اقتسام الحكم وتوزيع الاقاليم بينهما واخذا معا في بث روح الشقاق والخلاف في الرعية، ودفعا بها الى اعلان الثورة والعصيان في وجه الحكومة

المركزية بالجزائر فاضطرب لذلك الوطن الجزائري وحدث فيه من القلق والتشعب ما حمل خير الدين على ترك العاصمة والخروج منها الى جيجل لحكم الاوجاق (927 - 931هـ /1521 - 1525م) متماديا في غزواته البحرية تاركا الحبل على الغارب فخلا الجو حينئذ لابن القاضي فانتهزها فرصة فخرب متيجة واحتل العاصمة فامتلكها مدة حولين كاملين وكان عدد سكانها يومئذ زهاء عشرين الف نسمة؟...

عودة خير الدين الى الجزائر:

وبعد مضي ثلاث سنوات قضاها خير الدين كلها في قهر قراصنة الغرب، اتفق ان بعث بمراكب له الى غزو بعض سواحل الافرنج يقودها احد رجاله القرصان المشهورين فعاكست الزوابع الجوية هذه القافلة البحرية فالتجأت الى ميناء الجزائر فصرفها ابن القاضي عن مرادها فعادت العمارة بخيبتها الى خير الدين واخبره رئيسها الخبر، فعظم ذلك عليه واستنكره ونهض من حينه الى نواحي الجزائر مثيرا لانصاره واشياعه ومن بينهم عبد العزيز الحفصي امير قلعة بني عباس، فلبته الجموع وجاءت اليه مسرعة محتشدة تحت لوائه فاحتل خير الدين يومئذ 934هـ (1528م) مدينة القل وبونة وامتلك قسنطينة نهائيا (935هـ / 1529م) ودخل العاصمة منصورا وفي ذلك يقول مؤلف كتاب « جرجرة عبر التاريخ: Boulifa. S.A. le Djurdjura A Travers L'Histoire.

ودخل خير الدين مدينة الجزائر فروى أن أهل المدينة احتفلوا برجوعه ايما احتفال، ذلك ان دخول خير الدين للمدينة كان بمثابة تحريرها، فالسياسة الجافة القاسية التي عامل بها ابن القاضي اهل مدينة الجزائر كانت معاملة جبلية فأوغرت عليه قلوب اهل الجزائر منذ عهد طويل ثم نهض الى ابن القاضي فظهر عليه وقتله بثنية بني عائشة بجوز الجزائر كما سبقت الاشارة الى ذلك ولم تستمر الحرب طويلا بين الجانبين بعد ذلك، فجبال القبائل الحرة الابية قد عمدت الى جمع الشمل من جديد، وجاء الحسين خليفة بن القاضي الذي تولى الامارة بعد مصرع اخيه الشيخ احمد الى مدينة الجزائر 1529م يستسلم استسلاما شريفا بين يدي خير الدين،[1] وظفر بقارة حسن قسيم ابن

---

(1) احمد توفيق المدني. حرب الثلاثمائةسنة ص 214

القاضي في الثورة فقتله ايضا فيمن معه من خاصة انصاره بشرشال وعفى عن الاتباع الاخرين ثم عاد الى العاصمة منهمكا في وضع اساس حكومته التركية ونشر نفوذه على بقية البلاد.

هذا وقد عثر الاستاذ محمد عبد الله عنان على وثيقة تحمل اسم ابي عبد الله محمد ابن القاضي مؤرخة سنة 949هـ / 1542م وجدها ضمن الوثائق المحفوظة بدار المحفوظات الاسبانية العامة بقلعة سيمانقا في اسبانيا، وهذه الوثيقة هي عبارة عن خطاب بعث به ابن القاضي هذا الى الامبراطور شارلكان يستحثه فيه لقتال الترك واراحة الناس منهم[1].

فتح قلعة البينيون

« البينيون » هو اسم القلعة التي انشأها « بيدرو دونافار » الاسباني فوق وسطى الصخور أو اقل الجزر العظيمة الواقعة بثغر مدينة الجزائر سنة 916هـ (1510م) ومعنى البينيون الصخرة العظيمة وهي الصخرة المسماة « سطفلة »[2] وشحنها بالجيوش والسلاح الثقيل وذلك لفرض رقابة الاسبان على الجزائر وتفتيش الصادرات والواردات وقطع صلة الجزائريين بالبحرية فكان هذا الحصن او قل المعقل الاسباني الحصين بمنزلة الشوكة في ظهر الجزائريين ولكنهم صبروا حتى اعياهم الصبر وتعددت اذاية الاسبان وتكرر عدوانهم ضد الأهالي بحيث انهم كانوا يطلقون النار عند أذان الصلاة من هذا المكان على المنارات، فانذرهم خير الدين لينتهوا عن عملهم هذا فلم يقلعوا، بعد ما اخفق خير الدين في انذاره وتهديده للاسبان ويئس من المعالجة السلمية تجهز لمنازلة القلعة بانواع السلاح الثقيل وحمل عليها في شهر رمضان المعظم 936هـ (ماي 1530م) وكان يرأس حاميتها الاسبانية يومئذ الوالي (دون مارتان دي فارقاص) فأوقدها عليهم خير الدين نارا تلظى واقتحم الحصن ففتحه في منتصف الشهر - 16 ماي - وقضى على جميع من بالحصن من الاسبان وكان عددهم حسب رواية مالتسان 150 شخصاً، فلم يسلم منهم سوى 25. ثم امر

---

(1) نهاية الاندلس ص 388 ط القاهرة 1966م
(2) يذكر ابن حوقل مدينة الجزائر فيقول عنها:

« ولها جزيرة في البحر على رمية سهم منها تحاذيها فاذا نزل بهم عدو لجأوا إليها فكانوا في منعة مما يحذرونه ويخافونه. »

بتحطيم الثكنة ودكها حتى لا يبقى لاهلها مطمع في العودة اليها مرة اخرى واستعملت انقاضها في ضم تلك الصخور التي بميناء المدينة الى بعضها وبناء الجسر وهو الرصيف الممتد ما بين المدينة (وبرج الفنار) حيث دار مدار قبطان رايس وهي مقر امير البحرية المعروف الى اليوم [1] القائم بمرسى المدينة القديم وجاء يومئذ مركب حربي اسباني لانقاذ قومه فأسره خير الدين وتم للاتراك يومئذ الاستيلاء النهائي على الجزائر وتمكنوا بذلك من انقاذها من بين مخالب الكفر والطاغوت وتأسس بذلك ما عرف باسم (نيابة الجزائر) واصبحت الضفة الغربية من هذا البحر الابيض المتوسط بحيرة عثمانية ومنذ ذلك الوقت إستعمل إسم (الجزائر) للدلالة على اقليم المغرب الأوسط وكان لشدة الخشية من خطر هيجان الامواج البحرية على العاصمة انشىء رصيف (المول) الطويل سنة 939هـ/1532م.

(انكسار اندرى دوريا امام الجزائر

اشتد غيظ الاسبان على دولة الجزائر التركية الفتاة وانزعجوا لهذا النصر الجديد الذي احرز عليه خير الدين فعز عليهم ما لحق منه من تحطيم حصنهم «البينيون» فلم يستسيغوا انهزامهم بهذه الوقعة التي يئسوا معها من تحقيق مطامعهم بالسواحل الجزائرية فتآمروا يومئذ مع دولة فرنسا والجنويز - بايطاليا - على مهاجمة الجزائر وتحطيم السلطة التركية القائمة بها ثم سعوا في ربط صلتهم كذلك بسلطان تلمسان مولاي عبد الله وتحالفوا معه على ذلك، ويومئذ خرج اسطولهم الثالوثي في شهر ذي الحجة 937هـ (جويلية 1531م) مشتملا على اربعين مركب حربي يقوده امير البحر الجنويزي المشهور (اندري دوريا) الى السواحل الجزائرية فاستولى على ميناء هنين ومكث الاسبان بها يومئذ اربع سنوات ثم خرجوا منها واندفع سلطان تلمسان حينئذ في جيشه لحصار الجزائر فتسرع خير الدين اولا لقتال سفن الحلفاء وخرج بنفسه في خمس وثلاثين قطعة بحرية فغزا الجزائر الشرقية - الباليار - فحطم حصونها وغنم ذخائرها وفي عودته ظفر في طريقه الى

---

(1) انشئت هذه الدار سنة 1241هـ (1826م) اي على عهد حسين بن علي آخر دايات الجزائر.

الجزائر بسفن الاعداء فاستولى على خيراتها وفي هذه البرهة التي تغيب فيها خير الدين عن العاصمة اعتدى اندري دوريا على مدينة شرشال فهاجمها بدون جدوى وادركه الاسطول التركي ففر دوريا امامه ومنى اسطوله هنالك بالانكسار الشنيع والخيبة المريرة، ولكنه تحين فرصة غفلة خير الدين وانشغاله بتدبير ملكه فهاجم الاسطول التركي ليلا واسر منه اربعة مراكب.

نزوح الاندلسيين الى الجزائر:

بعدما وقعت الكارثة الكبرى ببلاد الاندلس واحتلها الاسبان وافتكوا من اهلها معقلهم الاخير غرناطة سنة 897هـ (1492م) وهذا التاريخ يعتبر نقطة تحول في تاريخ الاسلام كما يعتبر سقوط القسطنطينية(857هـ / 1453م) نقطة تحول في تاريخ المسيحية ايضا - فالتجأ يومئذ من بقي هنالك من المضطهدين الى غربي الاندلس معتصمين ثمة بجبالها الشامخة المنيعة ورغم ذلك فان العدو قد لحق بهم وضيق عليهم الخناق هنالك فأنزلهم من معقلهم الطبيعي على شروط وعهود اخذها كل من الجانبين على نفسه ملتزما بها امام صاحبه، وقد اشتملت شروط الصلح التي امضاها ابو عبد الله بن علي آخر ملوك بني الاحمر على سبعة وستين بندا وكلها تنصب على تأمين المسلمين في الاندلس على ارواحهم واموالهم واعراضهم وحريتهم في الدين وعدم الحيلولة بينهم وبين الهجرة متى شاؤوا. ثم لم ينشب الاسبان بعد ذلك ان اخذوا في نقض عهودهم وحل مواثيقهم بنداً بندا وجددوا حملة صليبية شنيعة ضد المسلمين وفتّحوا امامهم ابواب محاكم التحقيق على مصاريعها وبالغوا في إرغامهم على التنصر وخلع ربقة الاسلام من اعناقهم ولم تكتف هذه المحاكم الغاشمة منهم بكتمان ايمانهم بل الزمتهم بالتلبس بشعار الكفر وذهبت في التنكيل بهم الى اشد العذاب فمزقتهم شر ممزق واحرقتهم وفعلت بهم الافاعيل مما لم يعهد مثله ولا عند الامم المتوحشة الفاندالية!... اللهم الا ما فعلته فرنسا بمسلمي الجزائر يوم ان احتلت البلاد ويوم ان فارقتها كذلك!...

وتحدث عبد الرحمن الكواكبي في (أم القرى) عن أعمال سلاطين ال عثمان لاجل التسلط على الملك فقال: هذا السلطان (محمد الفاتح) وهو أفضل آل عثمان قد قدم الملك على الدين فاتفق سرا مع (فرديناند) ملك الارغون الاسبانيولي،

ثم مع زوجته (يزابيلا) على تمكينها من ازالة ملك بني الاحمر آخر الدولة العربية في الاندلس ورضى بالتقتيل العام والاكراه على التنصر بالاحراق وضياع خمسة عشر مليونا من المسلمين باعانتها باشغاله اساطيل افريقيا عن نجدة المسلمين وقد فعل ذلك في مقابلة ما قامت له به رومية من خذلان الامبراطورية الشرقية عند مهاجمته مكدونيا ثم القسطنطينية، وهذا السلطان سليم غدر بآل العباس واستأصلهم حتى أنه قتل الامهات لاجل الاجنة وبينما هو كان يقتل العرب في الشرق كان الاسبانيون يحرقون بقيتهم في الاندلس... (1) وحينئذ استغاثت بقية الباقية من المسلمين المشردين بخير الدين وفاوضته في انقاذها من العدو ونقلها الى عدوة المغرب فانجدها بستة وثلاثين مركب ذهبت كلها سنة 935 هـ (1529م) الى مياه الاندلس تحت رئاسة وقيادة نائبية: ايدن رايس، وصالح رايس فارست ليلا عند اوليفا امام مصب نهر «التيا» على مقربة من دانية ونزلت منها الى البر عصابة استطاعت أن تجمع من الانحاء المجاورة نحو ستمائة من الموريسكيين الراغبين في الهجرة وهنا فوجئت السفن المغيرة بعدة من السفن الاسبانية الكبيرة التي كان يقودها اندري دوريا فطاردتها حتى مياه الجزائر الشرقية - الباليار - ولكن سفن القرصان انقلبت فجأة من الدفاع الى الهجوم، وانقضت على السفن الاسبانية واغرقت بعضها واسرت البعض الاخر وسارت سالمة الى الجزائر تحمل الموريسكيين المهاجرين وعددا من اكابر الاسبان اخذوا اسرى مع عدة من السفن الاسبانية الضخمة أيضا وتوالت بعوث خير الدين وغاراته على الشواطىء الاسبانية وتتابعت الفرص لدى الموريسكيين للفرار والهجرة رفقة السفن المغيرة حتى بلغ ما نقلته سفن خير الدين منهم الى شواطىء المغرب الاسلامي نحو سبعين الف نسمة [2] وكثيرا ما كان عدد السفن لا يكفي لحمل اللاجئين فتضطر الحامية الى النزول بساحل العدو تاركة مكانها للمهاجرين وتبقى هناك في حراسة المتخلفين من اهل الاندلس ريثما تعود اليهم قافلة الاتراك البحرية فتخلصهم

(1) عبد الرحمن الكواكبي: ام القرى ص 169 ط القاهرة - مجلة المنار. 5 ص 902 سنة 1320 هـ/1903م.

(2) محمد عبد الله عنان، نهاية الاندلس ص 284 ط القاهرة 1368 هـ/1949م

من نكبتهم، واستمرت مراكب الاتراك ذاهبة آيبة تعبر هذا البحر بين الجزائر والاندلس سبع مرات واوسع لهم خير الدين في ارض الجزائر واكرم مثواهم وتركهم لانفسهم في اختيار البقاع والامكنة الصالحة لسكانهم الموافقة لاغراضهم ومقاصدهم في القيام بأعمالهم المهنية وصناعهم المتعددة فكان منهم من اختار النزول بالعاصمة مثل الثغريين فنزلوا بأعلى المدينة من الضاحية القريبة من قصر القصبة وهي الناحية المعروفة اليوم باسم – tagarins الثغريين – (897هـ /1492م) اي حيث يقوم اليوم نزل (الاوراسي) الضخم، ومنهم من سكن سهل متيجة بنواحي البليدة ومنهم من نزل مدينة تدلس – دلس، ومنهم من استوطن تلمسان [1] ووهران.

ومستغانم وشرشال وشيدوا بها – كما يقول الحسن بن محمد الوزان– الفي بيت، ومنهم من نزل المغرب الاقصى وتونس... واغتبط بهم الناس وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم

قال المقري: كان النصارى بالاندلس قد شددوا على المسلمين بها في التنصر حتى انهم احرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصارى مرارا ولم يقيض الله لهم ناصرا الى أن كان اخراج النصارى اياهم اعوام سبعة عشر والف (1608م) فخرجت الوف بفاس والوف آخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس، وخرج طوائف بتطوان وسلا ومتيجة الجزائر [2].

---

(1) كان فيمن نزل بهذه المدينة من رجالات الاندلس الامير ابو عبد الله محمد الثاني عشر بن سعد ملك غرناطة الملقب بالزغل، ومعناه الفتى الغض الشباب – وهو عم ابي عبد الله آخر ملوك دولة بني الاحمر النصرية بغرناطة دفين مدينة تلمسان (940هـ/1534م). نزل الزغل بتلمسان وبها قضى بقية حياته في غمر الحسرات والعدم وبها كانت نهايته ووفاته (شعبان 899هـ/ جوان 1494م) كما يدل على ذلك شاهد قبره الذي طالما استعمل عتبة لباب منزل حقير بتلمسان عدة قرون: وفي الأخير ظفر به المستشرق بروسلار c .brasslard فانتشله من مكانه هذا ووضعه بمتحف تلسان. وأخيراً نقل من هناك فألصق بجدار قصر المشور من الخارج بحيث يراه الجمهور– راجع نفح الطيب ج6 ص 275 ط القاهرة 1369هـ/ 1949م.

(2) نفح الطيب ج 6 ص 279. ط القاهرة 1369هـ/1949م

وما اهل الاندلس هؤلاء باجانب او غرباء عن اهل المغرب ولا هم ببعداء عن وطنهم الجديد هذا، بل ما هم الا اصالة منه واليه ومن رجاله وذويه تربطهم بأهله اوشاج وارحام منذ أحقاب وأعقاب اذ طالما حدثنا التاريخ عن جيوش المغرب البربرية التي صحبت ولد حنبعل عملكرض او اميلكار، ثم مع حنبعل نفسه، والرومان الى اسبانيا واستقرت بها، أو ما فتحت الاندلس الاسلامية الاعلى يد الجيوش البربرية التي رافقت البطل البربري الفاتح طارق بن زياد؟... أو ما قامت دولة المرابطين ودعوة الموحدين بالاندلس الاعلى سواعد المغاربة من البربر؟ اوليس لقبيلة نفزة ومكناسة البربريتين مواطن بين الجلالقة وبين مدينة قرطبة بارض الاندلس؟.. وما حكومة دولة بني زيري بغرناطة الا من صنهاجة، وما دولة بني برزال بقرمومة الا من زناتة؟ وما ملوك طليطلة الا من هوارة؟... وما حامية ابن ابي عامر الا من زناتة وكتامة؟ وما ام صقر قريش عبد الرحمن الداخل الا بربرية؟.

واستمرت الهجرة الاندلسية مطردة في سيرها نحو المغرب منذ حلت الكارثة بذلك الفردوس المفقود الى سنة 1017هـ (1609م) حيث نزل منهم في هذه الفترة بوهران يومئذ نحو 28000 نسمة، ولم يبق هنالك من المسلمين آنذاك الا من حبسه اجله...

قال ريناخ: لم تكتف اسبانيا بما قامت به من المظالم باسم الدين واحراق البشر وقتلهم وتعذيبهم بل رأت أن توهم الناس انه لا سبيل الى قيام وحدتها الا بنفي اليهود سنة 1492م ونفي العرب (1609م) فسار مئات الالوف منهم يهجرون بلادهم وهلك منهم في الطرق عشرات الالوف فحرمت اسبانيا من احسن العاملين فيها وفقدت تجارها الماهرين واطباءها الحاذقين، وكان البدء بتنفيذ قرار النفي في اعمال بلنسية منذ اوائل شهر رجب 1018هـ / اكتوبر 1609م فخرجت أول شحنة من هذه الكتلة البشرية المعذبة على سفن الحكومة من ثغر دانية، وقدرت بثمانية وعشرين الف نسمة حملوا الى ثغر وهران الذي كان يومئذ بيد الاسبان، ثم نقلوا الى تلمسان بجاية فرقة من الجند المرتزقة وهناك استظلوا بحماية السلطان [1] وقد قتل في اسبانيا وحدها بفعل ديوان

(1) محمد عبد الله عنان: نهاية الاندلس ص 294ط القاهرة 1368 هـ/1949م.

التفتيش الديني نحو مائة الف انسان على الاقل ونفى منها مليون ونصف، وقد كان ذلك من موجبات تأخر البلاد كما وقع لمدينة نانت يوم طرد منها من كان مخالفا للكثلكة فأضر ذلك بالصناعة الفرنسية كما قال سيديو، وقد تمكن الكاردينال كسيمنس من تعوير جميع آثار المسلمين وأمر باحراق ثمانين الف مخطوط عربي في ساحات غرناطة!.....

ونقل المؤرخ الاسباني الكبير «نافاريتي» ان عدد المطرودين من الاندلس العرب من متنصرة وغيرهم خمسة ملايين نسمة منهم مليونان من اليهود، وقد كان مجموع عدد سكان اسبانيا كلها يومئذٍ لا يتجاوز الثمانية ملايين!....

وكان من فضل هذه الجالية الاندلسية على الجزائر ان انتعشت بها حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية بما جاءت به معها من صناعات وفنون وآداب مما هو معروف في تاريخ الحضارة الاندلسية الزاخرة.... ولا تزال اثارها ظاهرة في الحياة الاجتماعية والفنية بعواصم اقطار المغارب الثلاثة الى اليوم.

استخلاف محمد حسن آغا الطواشي:

وفي سنة 940هـ (1534م) انعم السلطان سليمان القانوني على خير الدين بترقيته الى رتبة قبودان باشا يعني (أمير البحر) وهو منصب القيادة العليا لاسطول آل عثمان باستانبول، وذلك جزاء براعته في الحروب ومكافأة له على انتصاراته العديدة التي احرز عليها في البحار وما كاد يتصل خير الدين بفرمان التولية حتى بادر الى استخلاف محمد حسن آغا على الجزائر وخف بالرحيل الى استانبول ليتسلم مقاليد هذه الرئاسة التي كان هو فاتحة ولاتها وغادر الجزائر تاركا لها اخص رجاله حسن آغا المشهور بالبطولة الحربية والدهاء السياسي، وتمكن الاغا المذكور بعد سنة من ولايته من اخضاع مدينة قسنطينة نهائيا 941هـ(1535م)[1].

---

(1) وفي هذه السنة كان اتمام بناء جامع القائد عبد الله صفر - سفير - بن عبد الله مولى خير الدين بالعاصمة وقد كان الشروع في بنائه في شهر رجب سنة 940هـ والفراغ منه يوم ثاني ربيع الاول 941هـ (1534م) ثم وقع ترميمه على عهد بابا حسن سنة 1185هـ - 1771م ثم جدد واعيد تشييده على عهد حسين بن علي آخر دايات الجزائر سنة 1242هـ - 1827م وهو لا يزال على شكله ووضعه التركي الجميل الى الان.

اغارة الاسبان على تلمسان:

دفعت المطامع عامل النصرانية الاكبر «شارلكان» وبعثت به احلامه اللذيذة الى نشر نفوذه على المغرب العربي وقهر دوله الاسلامية واخضاعها لسلطانه، وخصوصا لما شعر بشغور مكان خير الدين من اسطول الجزائر الذي كان يهدد به شواطىء البحر الابيض محاولا الاستيلاء على موانيه قاضيا على سطوة الملاحة الاسبانية بهذا البحر والبحر الاطلسي ايضا، فأسرع العاهل الى اختيار ابرز ما عنده من ابطال رجال العسكرية الاسبانية ليقوم له بعملية الغزو فوقع اختياره عن «الدون مارتين دي قرطبة» الملقب بالكوندي دا الكوديطي، وعينه في ذي القعدة 940هـ (جوان 1534م) حاكما عاما على وهران برتبة «جينرال» ولكن هذا لم يتصل بعمله الا بعد سنة من تاريخ تعيينه بسبب مرض عاقه عن مباشرة العمل.

وكان على عرش تلمسان يومئذ السلطان محمد بن عبد الله «الثاني» وله أخ اسمه عبد الله يعرف في التاريخ بكنيته «ابي محمد» وكان لا يزال يومئذ طفلا صغيرا محتضنا تحت كفالة جده لامه عبد الرحمن بن رضوان كبير شيوخ قبيلة بني عامر وكان هذا الشيخ حريصا اشد الحرص على ايصال حفيده الى العرش الزياني وكان يعلم انه لا بد له في تحقيق غايته هذه من الاتصال بالاسبان فعمل على ذلك وكاتبهم في مراده واتصل بهم وتعهد لهم باسم حفيده بالاعتراف لهم بالتبعية واعطائهم الجزية كتلك التي كان يقدمها لهم جده ابو حمو «الثالث».

ثم جاء ابن رضوان بحفيده الى حيث السلطة الاسبانية ماثلة بوهران فاقتبله رجالها بكل تجلة واحترام وذلك يوم الاربعاء 29 رجب 941هـ (3 فيفري 1535م) وحادث المسؤولين من الاسبان في شؤون سياسته وشرح لهم اغراضه وتدابيره في كيفية انتزاع الملك من السلطان الحالي واسناده الى حفيده

واقنعهم بصلاحية حفيده ابي محمد بدل اخيه فاقتنع الاسبان بوجاهة آرائه وبعثوا معه بفرقة من الجيش تحتوي على ستمائة او سبعمائة مقاتل يرأسها القائد الاسباني «الوانسو مارتين دي انكولو» وكان مع ابن رضوان يومئذ اربعمائة فارس وتقدم الجميع الى مهاجمة تلمسان وفي اثناء سير الحملة ادرك الاسبان

خيبة مسعاهم ومسعى حليفهم وذلك بما تحقق لديهم من القرائن الدالة على خلاف ما وعدهم ومناهم به ابن رضوان.

ويومئذ وجد التلمسانيون انفسهم امام الامر الواقع فتناسوا كل ما كان بينهم وبين ملكهم من الخلاف والنزاع فوحدوا صفوفهم وجمعوا قواتهم وفتح السلطان خزائن بيت المال واستنفر الخيل والرجال وبذل لهم الاموال الطائلة فانفقت كلها في مجاهدة العدو المهاجم ورد عاديته عنهم وجعل السلطان قيادة جيشه يومئذ للمزوار المنصور بن البوجاني زعيم قبيلة بني راشد الذي كان رهن السجن فعفا عنه وقدمه على قومه تجاه بني عامر.

وفي يوم الاربعاء 28 ذي الحجة 941هـ (فاتح جوان 1535م) اتصلت حملة ابن رضوان مع حلفائه الاسبان بقرية «ابي سكران» المسماة ايضا بـ (قنطرة يسر) وابتدأت الهجومات صبيحة الغد وانتشبت المعارك هناك بين الطرفين مات فيها عدد قليل من الجانبين.

ثم بعد مضي ثلاثة أيام من المعركة تبين للاسبان عجزهم عن احراز النصر وتحققوا خيبتهم في نيل مرغوبهم الذي اطمعهم فيه ابن رضوان: من الاستيلاء على مملكة الجزائر وفتح العاصمة التلمسانية، فتحول حينئذ رئيسهم الوانسو مارتين عن خطته الحربية الهجومية الى استعمال الدهاء والتدبير السياسي وشرع في المفاوضة مع جيش السلطان محاولا الى ابن رضوان وحفيده ابي محمد عبد الله المطالب بالعرش فلم ينجح في سياسته هذه ثم حاول الانسحاب والفرار بالنفس في جنح الليل فاخفق ايضا وانهزمت يومئذ جنوده شر هزيمة ومحقت جميع قواته الثقيلة والخفيفة وهكذا انتهت حملة الاسبان على تلمسان عند وادي يسر يوم الاثنين 4 المحرم 942هـ (5 جوان 1535م) بالخيبة والحرمان.

وابتدأت يومئذ المفاوضات السياسية بين الكونت دي الكوديطي وملك بني زيان حول اطلاق سراح الاسرى من الاسبان، واشيع في الوقت نفسه أن خير الدين التركي يغادر الجزائر حيث لا رجوع اليها بعد فاحزن ذلك سلطان تلمسان وذلك خشية انتصار الاسبان عليه فانتهز الكونت فرصة هذه الاشاعة واكد على السلطان في مقاطعة الاتراك ومقاومتهم اذا هم عادوا الى الجزائر أو حاولوا التحكك على سواحلها، وبعد اخذ ورد ومقاولات ومحاولات ادت ٣٣

جميعا الى حرب انتصر فيها المسلمون على الاسبان واتفق الجميع على تحضير مشروع معاهدة صلح بين الطرفين ينتظم به سير العلائق التجارية والسياسية بين الدولتين وتم تحرير المشروع يوم الاثنين 15 ربيع الاول 942هـ (13 سبتمبر 1535م) مشتملا على واحد وعشرين بندا كلها جاءت في مصالح الاسبان. واليك اهم ما جاء فيه:

1 - اطلاق سراح الاسرى من الاسبان - وهو بيت القصيد من المعاهدة - كلها.

2 - مسالمة الاسبانيين وحسن التعامل معهم

3 - انضمام جيش بني زيان الى جيوش الاسبان، ويتحتم على السلطان الخروج بجيشه يقوده هو بنفسه الى جانب ملك اسبانيا.

4 - يتعهد السلطان بتقديم الميرة والعلف الى الجيش الاسباني.

5 - يجب معاملة الاتراك والقراصنة منهم وخير الدين على الخصوص معاملة الاعداء

6 - ضمان الحرية الدينية للجميع.

7 - لا يسوغ للحكومة التلمسانية استعمال أي مرسى من مراسي الجزائر في شؤونها الاقتصادية سوى مرسى وهران فقط اصدارا وايرادا، وللسلطان الحق في استخلاص واجب الجمرك بوهران وله ان يبعث (مشرفين)لاستلام ذلك بوهران.

8 - لا تحجز بضائع رعية السلطان في مقابل ديون الحكومة التي تدان بها الا اذا كان الدين مرتبا بذمة اثنين من (المشرفين) ويعتبر السلطان ضامنا للديون التي يدان بها تجار مملكته.

9 - يباح لكل من رعية السلطان من مسلمين ويهود التجول والسكنى بمنطقة وهران المحتلة، كما يباح ذلك للاسبان بالنسبة لتلمسان.

10 - على السلطان اعتقال عبد الرحمن بن رضوان وحفيده المطالب بالعرش مهما عادا الى وهران او اتصلا بها وذلك خلال مدة خمس سنوات التي تنتهي بها ايام المعاهدة مع الزام اتباعهما بالخضوع

ومعاملتهم بالاحسان.

11 - يتعهد ملك الاسبان بوضع خمسمائة جندي من جيشه تحت تصرف سلطان تلمسان عند الحاجة.

12 - يتعهد ملك تلمسان بدفع اربعة آلاف (ضبلون) زياني مع اشياء اخرى يقدمها لملك الاسبان كمغرم سنوي.

13 - لملك الاسبان نقض هذه المعاهدة متى شاء مع اخبار حكومة تلمسان قبل ذلك بمدة لا تقل عن ستة أشهر.

14 - لا تعتبر هذه المعاهدة نافذة معمولا بها الا متى امضاها وصادق عليها الطرفان.

وهذه المعاهدة كما تراها ايها القارىء الكريم كلها كانت في صالح الدولة الاسبانية رغم ما يظهر عليها من مسحة حب السلام ونشر الامن بالبلاد فما ذلك الا خداع ومغالطة ديبلوماسية حسبما اجمع عليه المؤرخون، فان غرضهم الوحيد منها كلها كان يرمي يومئذ الى تحرير اسراهم فقط، ومتى تحقق لهم ذلك ضربوا بتلك النصوص جميعها عرض الحائط.

وما كان رضوخ دولة بني زيان في بادىء الامر لهذه الشروط الا خشية تحقق ما قد شاع يومئذ من خبر انتقال خير الدين عن الجزائر وذهاب الاسطول التركي المجاهد معه فيخلو الجو للاسبان.

ورغم ذلك فان المعاهدة بقيت موقوفة لم تنفذ بعد وبقدر ما ظل الكونت الكوديطى حريصا كل الحرص على تنفيذها فان السلطان تباطأ وتمهل في ذلك محتجا بما جاء في نص المعاهدة نفسها من انها لا تصبح نافذة رسمية الا بعد مصادقة الطرفين عليها وبما انها خالية من امضاء ملك الاسبان وموافقته عليها حيث كان آنئذ غائبا عن وطنه مشتغلا بالغزو فلم يمضها فانها تعتبر مرفوضة مالم تمض أو تختم بخاتم الملك نفسه، وبعد محاولة الكونت التأثير على السلطان في اطلاق الاسرى على الاقل - وهو كل شيء عنده - وخيبته في ذلك سعى حينئذ في شنّ غارته على الحدود والتخوم بقصد التشويش فكاتبه السلطان

برسائل اضطرم لها غيظ الكونت وامتعظ منها امتعاظا شديدا ادى به الى الغدر بالمبعوثين السلطانيين فاعتقلها وقطعت المفاوضات.

فتح بونة ومستغانم وبسكرة وتأسيس البليدة:

ولما استوثق خير الدين من امتلاك ناصية القيادة العليا للاسطول التركي باستانبول وتمكن من منصبه البحري الجديد عزم على الرجوع الى المغرب ليتم فتوحاته بشمال افريقيا وليوحد بين اقطاره الثلاثة المتماسكة ببعضها بعض فعاد في اسطوله الضخم الى غربي هذا البحر مبتدئا بغزو تونس حيث نزل بها يومئذ 941هـ (1534م) عاهل النصرانية الامبراطور شارلكان فيمن معه من أمم الافرنج المحالفة لبني ابي حفص، فكانت هنالك وقائع وحروب عظيمة... ثم عدل عنها خير الدين الى بونة - عنابة - فاطرد منها «المركيس مندخار» عامل شارلكان بها وازعج من بقصبتها من جنود الافرنج وكانوا يومئذ زهاء ستمائة نسمة فانهزموا عنها وخرجوا منها مدحورين بعد أن مكثوا بها نحو الخمس سنوات 942 - 947هـ (1535 - 1540م).

وفي هذه الاونة اخذ خير الدين في تأسيس مدينة البليدة قرب عاصمة سهل متيجة «قزرونة» المعروف مكانها اليوم باسم «خزرونة» وقد كان ذلك باعانة أهلها ومساعدة الجالية الاندلسية المهاجرة اليها.

وكان اول ما وضع بها خير الدين من المنشآت ان أسس بها مسجدا جامعا (942هـ/1535م) وحماما وفرنا، فاندرس الاخيران وبقي الاول، وبنى الناس حول ذلك مساكنهم ودورهم الجميلة التي تمتاز بشكلها الاندلسي الانيق، وانشأوا حولها بساتين ومزارع يانعة الثمار زاهية الازهار والنوار، فكانت مدينة جامعة شاملة لانواع الفواكه والرياحين الشذية، والجو العبق الاريج، ممتازة بتدفق مياهها العذبة الباردة وطيب هوائها النقي، وذلك ما جعل هذه المدينة - البليدة - تدعى ما بين البلاد الجزائرية باسم «الوريدة».

وبفحصها الشرقي المعروف بوادي ابي عرفة كان مسكن اسرتنا الجيلانية الاموية المتصل نسبها بالخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه مشتغلة هناك تعمل بحقولها الزراعية الى ان انتقل منها والدي محمد الثالث رحمه الله مهاجرا الى سكنى العاصمة صحبة اخوته الثلاثة: يوسف ومحمد الاول

والثاني أبناء الحاج ابي الاعلام بن ابي القاسم بن عمرو بن احمد (آل الجيلاني)، وذلك خلال اواخر القرن الثالث عشر الهجري محترفين مهنة التجارة وشغل عمنا محمد الاول خطة العدالة بالمحكمة الشرعية ووالدتي المنعمة المبرورة هي «موني» كريمة الحاج ابراهيم بن عبد الرحمن ابن الجيار واسرة ابن الجيار هذه اندلسية من مالقة استقرت بالجزائر واستوطنتها منذ وقع الجلاء عن الاندلس وقد ترجم لبعض مشاهير رجالها ابن الابار في تكملة الصلة وابن الجزري في غاية النهاية والمقري في النفح فانظرها هنالك.

وكان مولدي بحديقة قائمة على الشاطىء البحري بضاحية: «بلكيين» من عاصمة الجزائر بتاريخ مساء يوم الاحد، المحرم 1326هـ/9 فيفريى 1908م

وعاد خير الدين الى استانبول معتكفا على تسيير دفة ادارة شؤون امارة البحر الى ان وافاه اجله بها في اليوم السادس من شهر جمادى الاولى سنة 953هـ (4 يولية 1546م) ولا يزال قبره معروفا بجامع باشكطاش من هذه المدينة الى الان، ووقفت على قبره يوم أن دخلت اسطنبول وانا في طريقي الى ارض الحجاز للحج (1383هـ/1964م)

وفي سنة 946هـ (1539م) فتح حسين آغا مدينة مستغانم واخضعها نهائيا لدولته ثم بعد سنة من ذلك تقدم نحو الجنوب الشرقي فاستولى على عاصمة الزاب «بسكرة» وملحقاتها وشيد هنالك حصنا وأقام به حامية.

اندحار حملة شارلكان الكبرى:

استمر حسن باشا في منصبه المستخلف عليه يعمل على قهر القرصنة الاروبية بهذا البحر فابلى في ذلك البلاء الحسن واصبح شخصه في الجزائر مثالا بارزا في البطولة والتضحية الاسلامية في سبيل الله والدفاع عن شرف الاسلام وبلاد الاسلام بهذا الشمال الافريقي، فاكتست الجزائر بموقفه هذا مهابة وجلالا، وجعلت امم النصرانية يومئذ تهرع الى عاهلها الاكبر الامبراطور شارلكان [1] مستنجدة بسلطانه منضوية تحت لوائه، ومن بينها البابابول

(1) كارلوس الخامس (1500-1558م) اعظم ملوك اسبانيا وامبراطور المانيا والنمسا وهولاندا وايطاليا وامريكا بأجمعها.

« الثالث » وبما أن شارلكان هذا كان قد فشل في محاولاته احتلال مدينتي الجزائر وشرشال في اعوام: 1516 - 1519 - 1531م وقد حاول سنة 946هـ/1539م ابرام عقد صلح بينه وبين خير الدين باربروسة وخاب في ذلك كله، عزم هذه المرة على الثأر من خير الدين بالقضاء على مملكة الجزائر، فأتمر الجميع بينهم يومئذ لشد حيازيمهم في تنظيم حملة عنيفة ضد الجزائر التي كانت آخر قاعدة بحرية بقيت بيد الاتراك يومئذ بسواحل المغربين الاوسط والادنى، وأخذ شارلكان يستعد للغزو باختيار الاقوياء من الجند المدرب على الحرب منذ احتلاله تونس سنة 942هـ (1535م) فجاء بجيش خليط من الالمان وذوقها، والطليان الجنويز، وشارك بالتطوع في هذه الحملة الكثير من اشراف النصارى واعيانهم، وتطوع لهذا الغرض نفسه الف ومائة محارب من رجال الرهبنة الفرنسية « سان جان » القديس ماريوحنا الاروشليمي [1] المقيمين بجزيرة مالطة وغيرهم... من معظم بلاداوروبا.

وجاء الامبراطور في كبار دولته غازيا بنفسه الجزائر على رأس عمارة بحرية تحتوي على 65 بارجة و 451 سفينة نقل تحمل 35730 مقاتلا، منها 2000 فارس و 13000 نوتي بحار، مسنداً قيادة حملته هذه لاندرى دوريا، وكان اتصال الحملة بالجزائر عصر يوم الخميس في 28 جمادى الثانية سنة

---

(1) انشئت هذه الرهبنة الدينية العسكرية على يد تجار امالفيون حوالي سنة 463هـ/1070م وكانت تابعة لمستشفى القديس يوحنا في بيت المقدس، وسميت لذلك بفرسان الاسبيتارية، ثم تحولت الى منظمة حربية حوالي سنة 524هـ/1130م. ولما استولى صلاح الدين على بيت المقدس سنة 583هـ/1187م انتقلت الاسبيتارية الى مدينة عكا، ثم الى جزيرة قبرص حوالي سنة 690هـ/1291م ثم تحولت الى جزيرة رودس سنة 709-928هـ/1310-1522م وبدأوا يعرفون بفرسان ردوس وسيطروا على البحر المتوسط يعملون مع زملائهم في الحروب الصليبية ضد الاسلام، والمسلمين وذاع صيتهم بين امم النصرانية ودافعوا عن جزيرة رودس ببطولة الى ان احتلها الاتراك سنة 929 هـ/1522م فانتقلوا منها يومئذ الى جزيرة مالطة حيث كانت تابعة لدولة شارلكان فتخلى لهم عنها واصبحوا يعرفون منذئذ بفرسان مالطة ومكثت هذه الرهبنة سيدة الجزيرة الى ان احتلها نابليون في طريقه الى مصر سنة 1213هـ/1798م ثم سقطت الجزيرة بيد الانكليز سنة 1215هـ/1800م فاتخذها مركزاً استراتيجياً عظيماً للبحرية، وكان قد استولى الانكليز من قبل على جبل طارق فاستكمل بذلك سيادته على البحر الأبيض المتوسط.

948هـ (23 اكتوبر 1541م) فأرست العمارة بضاحية « حسين داي » أو الحامة شمال شرقي العاصمة والقت باثقالها هنالك، فنزلت الجيوش من حينها مصعدة نحو ضاحية (كدية الصابون)- حيث كانت قبة سيدي يعقوب- وهو المكان المعروف اليوم برج مولاي حسن أو Fort L'Empereur باعالي العاصمة فاحتلته واخذت من هنالك تعمل على حصار العاصمة والتدبير في كيفية الانقضاض عليها دفعة واحدة، ولم يكن بالجزائر يومئذ من الجند سوى ثمانمائة نسمة من الترك و5000 من مهاجري الاندلس وبضعة آلاف من ابناء البلاد المجاهدين كان على رأسها القائد الحاج البشير، وفيها من السكان ما يقدر بنحو خمسة آلاف رجل قادر على حمل السلاح.

واستعد أهل الجزائر لهذه الغارة بتنظيم المقاومة ونشبت الحرب بين الطرفين طوال اثنتي عشر يوما، وكان من المقدور ان احتدم غضب الطبيعة يومئذ فاكفهر الجو وتلبدت السحب فتهاطلت الامطار وثارت الزوابع البحرية وهاجت العواصف الجوية واضطربت الامواج فهلك اثنا عشر الف جندي من جيش العدو وتشتت شمل الباقين وتفرق الجميع شذر مذر وتحطم الاسطول المهاجم فتفرقت اوصاله حتى كاد أن ينعدم بتمامه فانعطب منه يومئذ 250 مركبا من بينها 15 بارجة و 140 سفينة نقل، وغرق من اصحابه ثمانية آلاف نوتي وانهزمت بقية الباقية منهم في الشواني والمراكب المعطوبة الى بعض المراسي المجاورة وغنم الجزائريون من السفن الناجية 25 سفينة، واستشهد من المسلمين مائتان وما كاد الامبراطور ينجو بنفسه الى مركبه الا بعد ما اقتحم الشدائد وكابد من العناء والنصب ما تقوضت به نفسه، فالتحق اولا ببجاية ثم غادرها الى اسبانيا وقد لفظ لجامه. حيث ترك على ارض المعركة 12000 قتيل حسب التقرير الاسباني نفسه، وهكذا سجلت الجزائر صفحة ماجدة في عهدها التركي حيث تمكنت من الانتصار على اكبر الدول الاوروبية في ذلك العصر، وهي امبراطورية شارل الخامس في مدة لا تزيد على اثني عشر يوما وغنمت يومئذ مغانم كثيرة وأسرى كثيرين، ويروى هايدو ان حسنا أظهر في هذه الحرب شجاعة خارقة، وان الفضل في هزيمة جيوش هذا الامبراطور يرجع

اليه شخصيا[1] وفي هذه الوقعة نزع الامبراطور التاج عن رأسه والقاه في البحر وقال: من أراد ان يضع التاج على رأسه فليتقدم الى الجزائر ويأخذها[2].

ولما رأى ذلك سلطان تلمسان المولى محمد هاله الامر واسرع الى الاذعان لدولة الجزائر التركية فتخلى لها عن مشورة. (قصر المشور)

وكان من المتوقع ان لا تذهب الحادثة سدى بدون أن تتعقبها حملات لما تركته في نفوس المنهزمين من الضغائن والاحقاد وفعلاً أخذ القوم في تعبئة الجيوش لتجديد حملتهم على المغرب الاوسط واخذت عوامل النزاع والخلاف تدب الى صدور ملوك دول الافرنج المجاورة بضفاف هذا البحر الابيض المتوسط وكانت هنالك حروب ووقائع القرصنة الرهيبة التي جعلت من قرصان الجزائر ابطالا مغاوير وصناديد بهاليل أذاقوا العدو بأسهم في معارك بحرية متعددة فكف عنهم حينئذ ورجع القهقرى خاسئا وهو حسير.

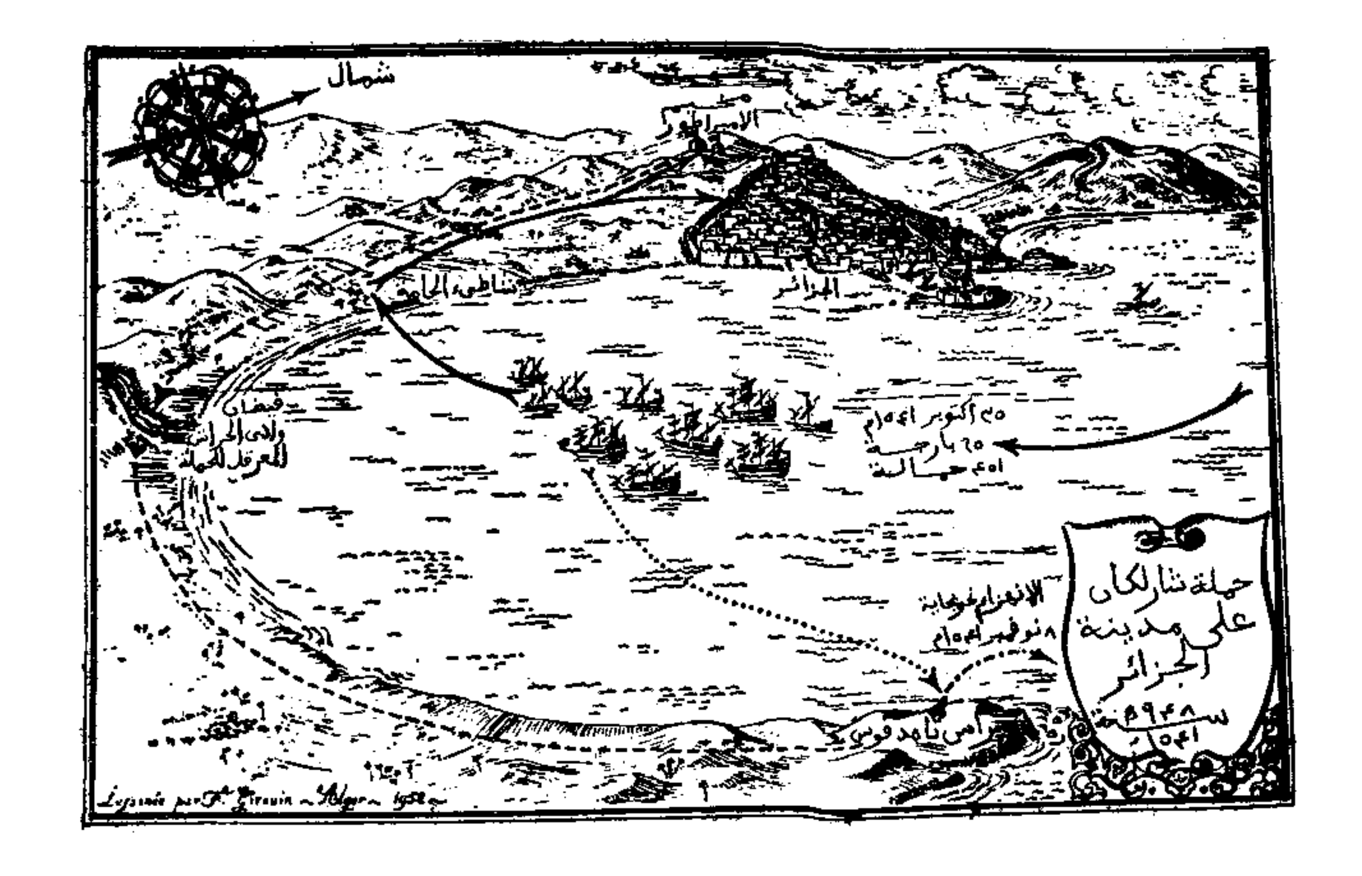
ولم يهدأ روع شارلكان حتى اعاد تحككه على الجزائر وسعى في تحطيم كيانها سالكا في ذلك مسلك الدهاء والمكر، فاتصل اولا بالسلطان مولاي عبد الله الزياني فحالفه وامده بالمال والرجال ثم اخذه بعد ذلك في اغرائه ضد اخيه المولى احمد الموالى للاتراك فاوقد بينهما العداوة والبغضاء وتسرب ذلك الى الرعية فبادر حينئذ حسن آغا خليفة خير الدين الى انقاذ الموقف وشمر على ساعده ونهض للقضاء على فتنة شارلكان هذه (950 هـ - 1543 م) فانهزمت جيوش مولاى عبد الله بشعبة اللحم في ناحية تموشنت وقضى على آمال ابن القاضي وطموحه الى الملك بجبل كوكو واخذ منه ولده كرهينة.

ثم في السنة التالية أعاد الاسبان غارتهم على تلمسان فأزعجوا اهلها واسروا حريمها وافسدوها وخربوها وعاثوا في انحائها فاضطرب لذلك اهالي تلمسان واندلعت بينهم نار الثورة فسقطت المدينة بيد الاسبان وعمت الفوضى وانقلب اهلها ضد الملك وحاولوا اغتياله فانفلت من بين ايديهم

---

(1) دائرة المعارف الاسلامية - النص العربي - مجلد 7 ص 382

(2) محمد بن عثمان المكناسي: الاكسير في فكاك الاسير، تحقيق محمد الفاسي ص 90ط الرباط 1965م.



شمال
الإمبراطور
الجزائر
شاطئ الحامة
فيضان
وادي الحراش
المعرقل للحملة
حملة شارلكان
على مدينة
الجزائر
سنة ٩٤٨هـ
١٥٤١م

وتخلص الى قبيلة آنكاد - على نحو 30 كيلومترا من وجدة - ولكنه رغم ذلك وقع في الفخ فاغتيل هناك وجلس مكانه اخوه مولاى احمد (للمرة الثانية).

وفي هذه السنة أي (951 هـ - 1344م) توفي حسن آغا وبموته انتهى عصر الفتح التركي ومن آثاره العمرانية بالعاصمة: برج الفنار المشرف على المرسى القديم اسمه سنة (948 هـ /1541 م) وقلعة سلطان قالاسي القائمة بكدية الصابون وهو المكان المعروف اليوم باسم برج مولاى حسن أو (برج بوليلة) والمسمى ايضا بحصن الامبراطور، أقامه حسن آغا ذكرى لانتصاره على شارلكان في حملته ضد الجزائر وأنشأ الى ذلك احدى وثلاثين غليوطة جديدة اضافها الى الاسطول الجزائري.

ولاة عصر الفتح التركي

	تاريخ التولية
عروج بارباروس - الاول -	920 هـ - 1514 م
خير الدين بارباروس- الثاني- بيلرباي	924 هـ - 1518 م
محمد حسن آغا الطواشي	940 هـ - 1534 م

سلاطين آل عثمان

918 - 974 هـ

1512 - 1566 م

	تاريخ التولية
السلطان الغازي سليم خان الاول	918 هـ - 1512 م
السلطان الغازي سليمان خان الاول	926 هـ - 1520 م

من مشاهير الجزائر

محمد النقاوسي

أواخر القرن 9 الهجري - آخر 15 م

كان فيمن اشتهر من بيوتات الجزائر بالعلم والفضل خلال النصف الثاني من القرن التاسع واوائل العاشر من الهجرة جماعة توارثت العلم والادب والمجد ابا عن جد، منهم العقبانيون والمقاربون بتلمسان وآل ابن قنفذ الخطيب وآل الفكون بقسنطينة وغيرهم كثير ممن امتلاءت بهم كتب التراجم وجاب بريد ذكرهم الافاق، ومن بينهم مترجمنا هذا ابو عبد الله محمد النقاوسي.

فهو محمد بن محمد بن محمد بن يحيى بن ابي علي ابو الطيب بن ابي عبد الله المغربي النقاوسي - بالقاف المعقودة - القسنطيني المالكي، هكذا ترجم له السخاوي في ضوئه وقال: انه ولد في يوم الاربعاء ثامن عشر جمادى الثانية سنة ثمان واربعين - أي من القرن التاسع الهجري - (2 اكتوبر 1444 م) بمدينة نقاوس من غربي قسنطينة، وكان والده قاضيا بها،، ثم تحول المترجم في حياة والده بعد قراءة القرآن واشتغاله قليلا بالعلم الى مدينة قسنطينة للطلب، ثم الى تونس فأخذ الفقه عن ابراهيم الاخذري واصوله مع المنطق والعربية والمعاني عن احمد النخلي ومحمد الواصلي، وتوفي والده فارتحل الى الديار المصرية في سنة تسع وستين وعمره يومئذ احدى وعشرون سنة فجد في الاشتغال واختص بخطيب مكة ابي الفضل رفيقا للخطيب الوزيري، واخذ عن الشمني في حاشيته وغيرها كشرح نظم ابيه للنخبة وتكرر له عنه، والتقى الحصني في المنطق وغيره والشرواني في شرح الطوالع وغيره من طبيعي والاهي ورياضي. ولازم علماء آخرين كالكفي جي والامين الاقصرائي ويحى العلمي والسخاوي وغيرهم، فأخذ عنهم التفسير والفقه والتاريخ والادب.

قال السخاوي: وحضر عندي بعض مجالس الاملاء، وكان يكثر مراجعتي

مع عقل وسكون وفضيلة وسمع مني رفيقا للقمصى مشيخة الرازي والبردة.

وفي غضون اقامته بالقاهرة حج ثم رجع الى بلاده واستقر قاضي العسكر لحفيد مولاي مسعود، ثم اعرض عنه لاختياره سكنى تونس وصار احد عدولها ودام سنين وامتدح صاحبها بعد اخراج عبد المؤمن بن ابراهيم بن عثمان عنها زكريا بن يحيى بن مسعود بقصيدة طالعها:

ضحك الربيع وجاء سعد مقبل ولك الهنا ذهب الزمان الممحل
فارفل فديتك في ميادين المنى هذا لواء النصر وافى يرفل
وارخ جواد الجد في اثر العدى فسهام سعدك في الاعادي انبل

قال وسمعها منه بعض الفضلاء المغاربة ولم يسمح بعود نسخة بها اليه، وقال: ان زكرياء امتدح بكثير ولم يطابق الواقع في مدحه غيرك.

ثم تحول المترجم بعياله وجماعته قاصدا استيطان الحجاز فدخل الديار المصرية فكانت اقامته بها نحو ثلاثة أشهر وركب البحر من الطور صحبة نائب جدة فدخل مكة في اثناء رجب وهنالك لقيه السخاوي فقال: ودام الشيخ بها على طريقة حسنة في الانجماع والعبادة الى أن سافر مع المدنيين الى طيبة فقدمها في اواخر سنة سبع وتسعين وثمانمائة فدام بها قال ولقيته حينئذ بها وكتب لي بخطه ما عمله اجابة لصاحبه الخطيب الوزيري واقرأ هناك بعض الطلبة، وذكر لي أن عزمه استيطانها. اهـ

* * * *

محمد بن عبد الكريم المغيلي

909 هـ (1504 م)

هو ابو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني احد اعلام الجزائر وابطالها الشجعان في فاتحة القرن العاشر الهجري، ولد بتلمسان ونشأ بها وحفظ القرآن في صغره ورحل الى بجاية فدرس بها العلم واخذ عن مشايخها وتدرب وارتاض على يد ابي العباس الوغليسي، ترجم له احمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج فقال: خاتمة المحققين الامام العالم العلامة الفهامة القدوة الصالح السني احد الاذكياء ممن له بسطة في الفهم والتقدم. اخذ عن الامام عبد الرحمن الثعالبي والشيخ يحيى بن يدير وغيرهما، كان رجلا مقداما على الامور جسورا جريء القلب فصيح اللسان جدليا نظارا محققا متصلبا في الدين متمسكا بالنسبة مبغضا لاعداء الدين ولقد وقع له بسبب ذلك امور وحوادث كبيرة مع فقهاء وقته حين قام على يهود توات بأقصى جنوب عين الصفراء من فسيح واحات الجزائر الجميلة فألزمهم الذل بل قتلهم وهدم كنائسهم [1] ونازعه في ذلك الفقيه عبد الله العصنوني قاضي توات، فراسلوا في ذلك علماء فاس وتونس وتلمسان، فكان ممن كتب في الموضوع الشيخ السنوسي ومحمد بن عبد الجليل التنسي، والرصاع مفتي تونس، وابو مهدي الماواسي مفتي فاس، وابن زكرى مفتي تلمسان والقاضي ابو زكرياء يحي بن ابي البركات الغماري وعبد الرحمن بن سبع التلمسانيان.

ومما جاء في كتابة الشيخ السنوسي قوله: «ومن عبيد الله محمد بن يوسف السنوسي الى الاخ الحبيب القائم بما اندرس في فاسد الزمان من فريضة الامر

(1) راجع تفاصيل هذه الحادثة في كتاب المعيار للونشريسي ج 2 ط. فاس حجري 1314هـ

بالمعروف والنهي عن المنكر التي القيام بها لاسيا في هذا الوقت علم على الاتسام بالذكورة العلمية والغيرة الاسلامية وعمارة القلب بالايمان السيد ابي عبد الله بن عبد الكريم المغيلي حفظ الله حياته وبارك في دينه ودنياه وختم لنا وله ولسائر المسلمين بالسعادة والمغفرة بلا محنة يوم نلقاه، بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقد بلغني ايها السيد ما حملتكم عليه الغيرة الايمانية والشجاعة العلمية من تغيير احداث اليهود أبى لهم الله كنيسَة في بلاد الاسلام وحرصكم على هدمها وتوقف اهل تمنطيطة فيه من جهة من عارضكم فيه من اهل الاهواء فبعثتم الينا مستنهضين همم العلماء فلم ار ممن وفق لأجابة المقصد وبذل وسعه في تحقيق الحق وشفاء الغلة ولم يلتفت لقوة ايمانه ونصوع ايقانه لما يشير اليه الوهم الشيطاني من مداهنة من يتقي شوكته سوى الشيخ الامام القدوة الحافظ المحقق علم الاعلام ابي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي امتع الله به... جزاه الله خيرا قد أمد لابانة الحق ونشر اعلامه النفس، وحقق نقلا وفهما وبالغ فأبدى من نور ايمانه الماحي ظلمه الكفر اعظم قبس.... الخ...

وحين وصل جواب التنسي ومعه كلام السنوسي هذا لتوات حيث يقيم الشيخ المغيلي، جمع صاحب الترجمة طائفة من اتباعه وجماعته فلبسوا آلات الحرب وقصدوا كنائس اليهود وأمر الشيخ بقتل من عارضهم دونها فهدموها عن آخرها ولم يتناطح في ذلك عنزان، ثم قال لهم من قتل يهوديا فله عليّ سبع مثاقيل وجرت يومئذ في ذلك امور، فنظم الشيخ آنذاك في القضية هذه قصائد ومدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم وذم اليهود ومن نصرهم.

ودخل المترجم بلاد اهرو تكدة واجتمع بصاحبها واقرا اهلها وانتفعوا به ثم دخل بلاد كنووكش من بلاد السودان واجتمع بصاحب كنو واستفاد عليه وكتب رسالة في امور السلطنة تحت عنوان «تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين» وهي مطبوعة بمصر في ثمانية عشر صفحة بدون تاريخ حضهم فيها على اتباع الشرع الحنيف والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقرر لهم احكام الدين وقواعده ثم رحل لبلاد التكرور فوصل الى بلدة كاغو واجتمع بسلطانها ساسكي محمد الحاج وجرى الشيخ على طريقته هنالك من الامر بالمعروف

والنهي عن المنكر والف له تأليفا اجابه فيه عن مسائل شتى [1].

وفي كاغو هذه بلغه مقتل ولده عبد الجبار على يد اليهود بتوات، فانزعج الشيخ لذلك وطلب من السلطان القاء القبض على اهل توات المقيمين بكاغو فقبض عليهم السلطان، وانكر عليه ذلك ابو المحاسن محمود بن عمر اذ لم يفعلوا شيئا فرجع عن رأيه وأمر باطلاقهم ورحل الى توات وهناك ادركته منيته فتوفي رحمه الله سنة 909 هـ (1504 - 1505 م) وذكر الشيخ محمد بن الشيخ المختار ابن احمد بن ابي بكر التنبكتي في كتابه (الطرائف والتلائد) قال ان وفاة المغيلي كانت في حدود الاربعين بعد التسعمائة، ومن نظمه ما جاء في مراسلة جرت بينه وبين جلال الدين السيوطي حين بعث اليه هذا الثاني بكتابه: « القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق » مطبوع. فأجابه المغيلي بهذه الابيات:

سمعت بأمر ما سمعت بمثله ... وكل حديث حكمه حكم اصله
ايمكن ان المرء في العلم حجة ... وينهى عن الفرقان في بعض قوله؟
هل المنطق المعنى الا عبارة ... عن الحق أو تحقيقه حين جهله
معانيه في كل الكلام وهل ترى ... دليلا صحيحا لا يرد لشكله؟
اريني هداك الله منه قضية ... على غير هدى تنفها عن محله
ودع عنك ما ابدى كفور وذمه ... رجال وان اثبت صحة نقله
خذ الحق حتى من كفور ولا تقم ... دليلا على شخص بمذهب مثله
عرفناهم بالحق لا العكس فاستبن ... به لا بهم اذهم هداة لاجله
لئن صح عنهم ما ذكرت فكم هم ... وكم عالم بالشرع باح بفضله
فكل عني ما ينبغي لكلامه ... فهذا هو التحقيق فارجع لعدله
وإلا فدم برهان تضليل بعضهم ... على منهج ينجيك عن سم نبله

فرد عليه الجلال السيوطي بهذه القصيدة:

حمدت اله العرش شكراً لفضله ... واهدى صلاة للنبي واهله
عجبت لنظم ما سمعت بمثله ... اتاني عن حبر اقر بنبله
تعجب مني حين الفت مبدعاً ... كتابا جموعا فيه جم بنقله

(1) طبع بالجزائر 1974 م بتحقيق الاستاذ عبد القادر زبايدية.

اقرر فيه النهى عن علم منطق وما قاله الاعلام من ذم شكله
وسماه بالفرقان يا ليت لم يقل فذا وصف قرآن كريم لفضله
وقال به فيما يقرر رأيه مقالا عجيبا نائيا عن محله
ودع عنك ابداه كفور وبعد ذا خذا الحق حتى من كفور بختله
وقد جاءت الاثار في ذم من حوى علوم يهود أو نصارى لاجله
يعزز به علما لديه وانه يعذب تعذيبا يليق بفعله
وقد منع المختار فاروق صحبه وقد خط لوحا بعد توراة اهله
وقد جاء من نهي اتباع لكافر وان كان ذاك الامر حقا باصله
اقمت دليلا بالحديث ولم اقم دليلا على شخص بمذهب مثله
سلام على هذا الامام فكم له لدى ثناء واعتراف بفضله

ومن اجل هذا صنف المغيلي كتابه في المنطق المسمى مختصر لب الالباب في رد الفكر الى الصواب، وللمترجم من التآليف غير هذا كثير، اشتهر منها ما رأيناه مطبوعا من تلك الرسالة المومى اليها: تاج الدين... واجوبته للسلطان ساسكي ثم ما ذكره الشيخ بابا التنبكتي من اسمهائها وهي: البدر المنير في علوم التفسير ومصباح الارواح في اصول الفلاح [1] وهو كتاب عجيب في كراسين ارسله الى السنوسي وابن غازي فأثنيا عليه وقرضاه، ومغنى النبيل في شرح مختصر خليل وهو شرح مختصر جدا اسلك فيه مسلك المزج بين المتن والشرح لم يكمل بلغ فيه الى القسم بين الزوجات، وله عليه قطع اخرى من البيوعات وغيرها، بل قيل انه شرح ثلاثة أرباع المختصر وله حاشية عليها سماها اكليل المغنى، قال الشيخ بابا وقفت منها الى التيمم، وشرح بيوع الاجال من ابن الحاجب بحث فيه مع ابن عبد السلام وخليل، وتأليف في المنهيات، ومختصر تلخيص المفتاح وشرحه ومفتاح النظر في علم الحديث فيه ابحاث مع النووي في تقريبه، وشرح الجمل في المنطق، وله مقدمة فيه ومنظومة ايضا سماها منح الوهاب وثلاثة شروح عليها قال الشيخ بابا وقد شرحها والدي بشرح حسن استوفى فيه، وله ايضا تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين وشرح لخطبة المختصر ومقدمة في العربية، وكتاب الفتح المبيّن، وفهرسة مروياته، وعدة قصائد منها

(1) طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1968م بتحقيق رابح بونار.

الميمية على وزن البردة ورويها في مدح النبي ﷺ.

وكان فيمن اخذ عنه الفقيه ايد احمد والشيخ العاقب الاصنمى، ومحمد بن عبدالجبار الفجيجي في جماعة كثيرة... رحم الله الجميع.

احمد الونشريسي

914 هـ - 1508

هو حامل لواء المذهب المالكي على عاتقه بالمغرب العربي على رأس القرن العاشر الهجري، الاستاذ العلامة الشيخ احمد بن يحيى بن محمد الونشريسي نسبة الى مرتفع ارض ونشريس بمقاطعة الجزائر، وهو صاحب المدونة والمعلمة الفقهية الكبرى الشهيرة باسم: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والاندلس والمغرب وهو كتاب حافل جامع لمعنى اسمه طبع لاول مرة في اثنى عشر مجلدا بفاس سنة 1314 هـ، وحسبه مجدا وفخرا هذا المؤلف الجليل.

ولد رحمه الله حوالى سنة 834 هـ واخذ علمه من مشائخ بلده تلمسان كالامام ابي الفضل قاسم العقباني وولده القاضي ابي سالم وحفيده الامام محمد العقباني والامام محمد بن العباس وابي عبد الله الجلاب وابن مرزوق الكفيف، والغرابلي والمري والمازوني في آخرين من فطاحل علماء الجزائر النابهين، وكان رحمه الله فصيحا بليغا يقول من حضر درسه انه لو رآه سيبويه لاخذ النحو من فيه، كان رحمه الله متخصصا في علوم الشريعة والاصول ملازما لتدريس المدونة ومختصر ابن الحاجب الفرعي، وكل من سمعه فيهما يقول انه لا يحسن غيرهما مع مشاركة حسنة في الفنون.

قال ابن غازي: لو ان رجلا حلف بالطلاق انه - يعني احمد الونشريسي - احاط بمذهب مالك اصوله وفروعه لم تطلق عليه زوجته لكثرة حفظه وتحره

واوذي رحمه الله- بكائنة حدثت من طرف السلطان فنهبت داره بتلمسان في اوائل المحرم 874 هـ (جويلية 1469 م) فشد رحله الى المغرب الاقصى

مستوطنا مدينة فاس وانقطع فيها للتدريس فتخرج على يده جماعة من كبار العلماء واعيان المغرب منهم ابنه الشهيد عبد الواحد وابو عباد بن مليح اللمطي والاستاذ ابو زكريا السوسي، والفقيه المحدث محمد بن عبد الجبار الورتد غيري، وعبد السميع المصمودي وقاضي فاس محمد.بن الغرديسي التغلبي وبخزانة هذا القاضي انتفع الشيخ في تأليف كتابه المعيار لا سيما فيما يرجع الى فتاوى علماء فاس والاندلس اما فتوى اهل افريقية -تونس- والجزائر وتلمسان فقد اعتمد في ذلك على نوازل البرزلي والمازوني.

وللشيخ من التآليف غير هذا كثير منها كتاب الولايات في مناصب الحكومة الاسلامية والخطط الشرعية، طبع مع الترجمة الفرنسية برباط الفتح سنة 1356 هـ - 1937 م، وكتاب في الفروق الفقهية وكتاب خصه بترجمة محمد المقري جد احمد المقري صاحب نفح الطيب، وآخر في القواعد الشرعية صغير الحجم وغنية المعاصر والتالي في شرح وثائق الفشتالي، وتعليق على مختصر ابن الحاجب الفرعي في ثلاثة أسفار، وكتاب الفائق في احكام الوثائق لم يكمل واضاءة الحلك في الرد على من أفتى بتضمين الراعى المشترك مطبوع، وكتاب في الوفيات، وفهرست تقع في نحو الثلاثة كراريس وايضاح المسالك الى قواعد الامام ابي عبد الله مالك.

وفي تقريض هذا الكتاب وبيان مزاياه يقول:

عليك بايضاح المسالك أولا ... فقد ضم انفاسا نفائس واعتلا
وبرز في مجلى الجمال وجيدها ... واحرز اشتات المحاسن واجتلا
واوضح أشكالا جليلا فما ترى ... غموضا وقل كل المناهج ذللا
وهذب القاب القواعد كلها ... ورتب أنواع المباني وفصلا
وقرب ماقد كان ينبوعن الورى ... وقيد ماقد كان في الكتب مسجلا
جنى من ثمار العلم ما قد رأيته ... وحاز من السحر الحلال حلائلا
عليك بحفظ ما حواه فانه ... جليل مفيد قد أبان وحصلا
وتدعو لعبد مذنب متذلل ... عبيد الاله نجل يحيى عن الولا
وصل وسلم ثم صل وسلمن ... على خير رسل الله ثمة من تلا

وقد تناول هذه المقطوعة الشعرية بالتشطير والتخميس جمع من الادباء

والعلماء، منهم ولده عبد الواحد، وابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الجذامي الشهير بالبرذعي، وابو جعفر احمد الغرناطي الشهير بالاندلسي، وابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الشهير بابن يجيش التازي، وابو العباس احمد بن محمد الانصاري الشهير بالحباك.... وقد جمع مؤلف الكتاب كل ذلك والحقه بقصيدته هذه وختم به الكتاب، وقفت على نسخة منه مخطوطة كتبت في مدينة شرشال سنة 1272 هـ وهي تحتوي على اثنتين وعشرين ورقة من القطع الكبيرة.

وكانت وفاته رحمه الله يوم الثلاثاء الموفى عشرين من شهر صفر سنة 914 هـ (14 جوان 1508م)وعمره يومئذ يناهز الثمانين سنة، وذكر الشيخ احمد بابا التنبكتي عن الشيخ القصار ان سقوط وهران بيد الاسبان كان في هذه السنة. وكان فيمن رثاه من علماء وأدباء عصره الفقيه الشاعر ابو عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي. فقال:

رايت نجوم الدين تبكي حزينة ... على فقد من قد كان قطب زمانه
فقلت ومن هذا؟ فقالت مجيبة ... على الونشريسي وحيد اوانه
اليه انتهت في الفقه كل رياسة ... ومعرفة زينت بحس بيانه
ومذ غاب عنا اظلم الكون كله ... وصار الضحى ليلا لفقد عيانه
وإن عزائي فيه للخلق كلهم ... خصوصا ذوي فقه لعز مكانه

- ولنفس الناظم مقطوعة في الموضوع يقول في طالعها:

لقد اظلمت فاس بل الغرب كله ... بموت الفقيه الونشريسي أحمد
رئيس ذوي الفتوى بغير منازع ... وعارف أحكام النوازل الأوحد
له دربة فيها ورأي مسدد ... بارشاده الاعلام في ذكره تهتدي
وتالله ما في غربنا اليوم مثله ... ولا من يدانيه بطول تردد
عليه من الرحمن أفضل رحمة ... تروح على مثواه فيضاً وتغتدي

عبد الرحمن الاخضري

983 هـ - 1575 م

هو العلامة الامام والمصلح الديني، المقدام المحقق الشيخ عبد الرحمن بن سيدي الصغير - بالتصغير - بن محمد بن عامر الاخضري نسبة الى بطن من بطون الدواودة من اولاد رياح المنتمين الى الاخضر بن عامر بن رياح ولا تزال هناك ناحية بالقرب من بسكرة تعرف بنسبتها الى الاخضر هذا، ونرى المترجم نفسه يزيف هذه النسبة الاخضرية وينفيها عن نفسه بعدما يذكرها في كتبه، ويثبت لنفسه« المرداسية » فيقول: « وهو - اي لقب الاخضري - تعريف لنسبنا على ما اشتهر في السنة الناس وليس كذلك، بل المتواتر عن أعالي اسلافنا واسلافهم ان نسبنا للعباس بن مرداس السلمي »[1] - الصحابي المشهور - وامه من تيفلفال بالاوراس - الجزائر واسمها حدة (بفتح الحاء والدال المشددة) كما حدثني بذلك الشيخ عبد المجيد حبه ببسكرة.

ولد المترجم حوالى سنة 920 هـ (1514 م) ونبغ فغدا عبقريا في جميع العلوم الاسلامية معقولها ومنقولها ورزق العلم بها والتأليف فيها فتى صغيرا كما تدل على ذلك عباراته في تآليفه العديدة من نظم ونثر فهو القائل في سلمه المرونق في علم المنطق معتذرا ومتواضعا:

وقـل لمن لم ينتصـف لمقصـدي	العـذر حـق واجـب للمبتدي
ولبــني احــدى وعشرين سنــة	معـــذرة مقبولـــة مستحسنـة
لا سيا في عاشر القرون	ذي الجهـــل والفساد والفتون
وكان في اوائـــــل المحرم	تأليـــف هـــذا الرجز المنظم

---

(1) شرح الاخضري على نظمه: السلم المرونق ص 37 ط القاهرة 1314 هـ.

من سنـــة احـــدى واربعـــين   من بعـــد تسعـــة من الميئين

وفي ختام نظمه الجوهر المكنون في فنون البلاغة يقول انه وضمه سنة خمسين من القرن العاشر اي بعد تسع سنوات من وضع السلم.

تم بشهر الحجــــــة الميمون   متم نصـــــف عاشر القرون

وهو يقول في تورىخه لنظم ارجوزة في آداب السلوك المعروفة (بالمقدسية) ما يلي:

في اربــع واربعــين قــد تجز   من عاشر القرون قل هذا الرجز

ويحتوي هذا الرجز على ست واربعين وثلاثمائة بيت جله في نقد المشعوذين واهل البدع والمتصوفة المخادعين باسم الدين، فكشف عن حالهم للامة ودفع شبهاتهم بردها عليهم ودحض حجج المتدثرين منهم بالتصوف الزائف، طبع بالقاهرة (1348 هـ) وشرحه شيخنا الاستاذ المولود بن محمد الزريبي الازهري المتوفي رحمه الله سنة 1343 هـ/ 1925 م بشرح نفيس لا يزال مخطوطا وللشيخ الحسين الورثيلاني (1192 هـ) شرح على القدسية هذه؛ وبذلك عرفنا أن الاخضري كان من المبكرين في التأليف وكل من وقف على تآليفه وأسلوبه في نظمه ونثره علم ان الرجل كان متضلعا من العلم وانه ذا خبرة تامة بفن التعليم (بيداغوجي).

ولقد جمع الله ما بين قحفي دماغ هذا الرجل فنونا من العلم عديدة فكتب رحمه الله في علوم الحكمة والتصوف والفقه والمنطق والبيان والكلام والحساب والهيئة والنحو الخ... ولسهولة عبارته وحسن سبكه ورشاقة اسلوبه في بسطه لمسائل العلم، اقبل الناس في مشارق الارض ومغاربها على مؤلفاته يدرسونها ويشرحونها في كل مدرسة او معهد من معاهد العلم بهذا المغرب العربي وفي المشرق أيضا.

وكان مما عرفناه واتصلنا به منها نظمه الجوهر المكنون في علوم البلاغة وهو مطبوع بمصر وله عليه شرح مخطوط يوجد بالمكتبة الوطنية الجزائرية ورأيت عليه شرحا آخر للشيخ محمد بن محمد بن علي بن موسى الثغري نسبا الجزائري منشأ، اسماه «موضح السر المكنون في شرح الجوهر المكنون» ولا يزال

هذا الشرح مخطوطا كشرح صاحب النظم وقفت عليه باحدى زوايا الصوفية بمدينة معسكر بحي بابا علي وهو في جزء متوسط الحجم، ونظم الدرة البيضاء في الحساب والفرائض وهي مطبوعة بشرحها في مصر ونظم السلك المرونق في علم المنطق وله عليه شرح مختصر وكلاهما مطبوع بمصر ونظم السراج في الفلك مع شرحه طبع بالجزائر ومصر وكان فيمن شرحه من علماء الجزائر - حدود القرن الحادي عشر - الشيخ سحنون بن عثمان الميدوي الونشريسي دفين ناحية بني وعزان وشرحه هذا معروف باسمه مفيد المحتاج في شرح السراج طبع بمصر سنة 1324 هـ، وللاخضري رجز في الحساب مطبوع بمصر ضمن مجموع من مهات المتون، وله منظومة في العمل بالاسطرلاب مخطوطة والفريدة الغراء في التوحيد مخطوطة عندنا منها نسخة بخزانتنا ومختصر في فقه العبادات على مذهب مالك مطبوع بالجزائر انتهى فيه الى باب السهو وعليه شرح لابن المسبح القسنطيني طبع مصر، وله غير هذا من متون وشروح وتآليف مستقلة في كثير من فروع العلم والمعرفة قيل انها تزيد على عشرين مؤلفا ضاع اكثرها بلهيب النيران وفيها الذي سطت عليها يد الحدثان وفيا ذكرناه منها كفاية في الاستدلال بها على مقدرة الشيخ وكفاءته وعلو كعبه ونشاطه في كثرة الانتاج والتأليف مع صغر سنه.

ويقدر ما رزقه الشيخ من التبحر في العلم وما أنتجه من تآليف كثيرة نراه يشكو زمنه ويندب حظه في التحصيل آسفا مكتئبا لفقد جهابذة العلماء الراسخين فيقول: واذا كان العذر من حق المبتدى في الزمان المتقدم فكيف في هذا الزمان الصعب الذي انقرض فيه أكابر العلماء ولم يبق فيه الا حثالة الحثالة، وغلبت العجمة على قلوب الانام حتى كاد العلم ينقرض بانقراض اهله (1).

توفي رحمه الله سنة 982 هـ / 1574 م ودفن بضريحه المشهور به الى الان بقرية بنطيوس احدى قرى الزاب الشهيرة بالقرب من بسكرة، وفي كتاب الاعلام للزركلي يقول ان تاريخ ميلاد الاخضري كان سنة 918 هـ / 1512 م ووفاته كانت سنة 983 هـ / 1575 م والصواب هو ما ذكرناه.

---

(1) شرح الاخضري على نظمه «السلم المرونق» ص 38 ط القاهرة 1314 هـ

جدول تاريخي

920 - 950 هـ

1514 - 1544 م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث وابرز الاحداث
920 هـ / 1514 م	اتصال دولة الاتراك العثمانيين بالجزائر وفتح مدينة جيجل
922 هـ / 1516 م	احتلال مدينة الجزائر وشرشال وخيبة حملة الاسبان على الجزائر
923 هـ / 1517 م	توسع الاتراك في فتح غربي الجزائر الى تلمسان.
924 هـ / 1518 م	استشهاد عروج والحاق الجزائر بالامبراطورية العثمانية
926 هـ / 1519 م	انهزام حملة شارلكان الأولى عن الجزائر.
929 هـ / 1523 م	حركة ابن القاضي الثورية ضد الاتراك واستيلاؤه على مدينة الجزائر
934 هـ / 1527 م	الاستيلاء على اعمال قسنطينة وبونة وقمع ابن القاضي وقتله
936 هـ / 1530 م	فتح قلعة البينيون Penion بثغر مدينة الجزائر
937 هـ / 1531 م	انكسار اندرى دوريا وانهزامه عن الجزائر وشرشال وفيها كان الشروع في انقاذ مضطهدي الاندلس والمجيء بهم الى الجزائر وانتشارهم بالمغرب العربي.
940 هـ / 1534 م	انتقال خير الدين الى ولاية امارة البحر باستانبول واستخلافه لحسن اغا على الجزائر.

941 هـ / 1534 م	حملة خير الدين على تونس والاستيلاء على بونة. وفيها كان تأسيس جامع القائد صفر- سفير- بن عبد الله بالعاصمة
942 هـ / 1535 م	تأسيس مدينة البليدة
946 هـ / 1539 م	الاستيلاء على مدينة مستغانم وبسكرة وارض الزاب
948 هـ / 1541 م	اندحار حملة شارلكان على الجزائر وتأسيس عمارة برج الفنار بالمينا.
950 هـ / 1543 م	انتصار حسن آغا على ملك تلمسان ووفاته.

عصر البيلر بايات

950 - 995هـ

1544 - 1587م

ولاية حسن باشا بن خير الدين:

اجمع اهل الديوان يوم ان توفي اميرهم محمد حسن آغا الطواشي على تولية الحاج بكير - اوبشير - مكانه موقتا ريثما يتصل بهم الحاكم التركي المولى من طرف الباب العالي باستنبول فمكث الحاج بكير على رأس الادارة الجزائرية مدة الى أن قدم عليهم حسن باشا متبنّى خير الدين وقيل هو ابنه حقا؟ - سنة 950هـ (1544م) يحمل لقب بيلرباي ويكتب بالقلم التركي هكذا: «بيجر باجي او بكلربك» ويلفظ بالكاف ياء خفيفة ومعناه امير الامراء، ارخه عبد الرزاق بن احمدوش في معجمه بجمادي الثانية سنة 952هـ (اوت 1545م)؟... ولعله هو الصحيح، وذلك لان وفاة حسن آغا كانت على ما يروى في شهر رمضان 952هـ / نوفمبر 1545م وقيل انه توفي في السنة الثانية والخمسين من عمره عام 956هـ / 1549 م ودفن في داخل قبة بناها له ناظر خاصته (كاهيا) بالقرب من باب الواد بالعاصمة، ولا يزال النقش الذي كان عليها محفوظا بالمتحف الوطني للاثار بالعاصمة.

رسوخ قدم الاتراك بتلمسان:

ويوم ان انتفض اهل تلمسان على سلطانهم مولاى احمد وحاول هذا الانتصار عليهم بحلفائه الاسبان، بادر حسن باشا الى حماية الاهالي بمشاركة عبد العزيز بن احمد المقراني زعيم قلعة بني عباس فغزا تلمسان واحتلها في اواسط شعبان 952هـ (اكتوبر 1545 م) وقضى على حامية مولاى احمد وحلفائه ونصب على عرش تلمسان مولاى الحسن تحت اشراف دولة الاتراك

بالجزائر، وخرج يومئذ مولاى احمد صحبة وزيره المنصور بن ابي غانم فالتحقا بناحية دبدوا، وهناك اغربهم صاحب تلك النواحي عمر بن يحيى الوطاسي فاستصفى جميع ما معها من الاموال فصادرها واعتقلها عنده مدة ثم اطلق وثاق المنصور في المحرم 953هـ (مارس1546م) وهنا اغفلت الرواية التاريخية ما آل اليه أمر مولاي احمد فلا ندري هل هو مات بمعتقله أم اطلق عقاله؟...

وكان من المؤسسات الادارية التي انشأها حسن باشا بالجزائر في هذه الفترة ان احدث سنة 955هـ /1548 م مقاطعة تيطري واقام عليها رئيسا يحمل لقب «الباي» ثم بعد سنتين من ذلك ابرم حلف الصداقة ومعاهدة الود بين حكومة الاشراف السعديين بالمغرب الاقصى وحكومة الجزائر، وكان من المقرر قمع حركة الاسبان بالايالة الوهرانية وتطهير تلك النواحي منهم وفعلا نهضت حكومة مراكش بذلك وحاصرت تلمسان وضيقت على اهلها الخناق مدة تسعة اشهر ثم احتلتها في يوم الاثنين 23 جمادي الاولى سنة 957هـ (جوان 1550 م) وبسطت نفوذها على النواحي ونشرت اعلامها على مستغانم واحوازها وجميع اعمال تلمسان الى حدود شلف، ويومئذ تحرك داعي التنافس بين الحكومتين المتجاورتين مراكش والجزائر وحمل الاتراك على تلمسان بقيادة حسن باشا فتقهقر المغاربة عنها الى التخوم (959 هـ /1552 م) وتمكن قدم الاتراك يومئذ بالعاصمة الزيانية فالحقوها بحكومتهم الجزائرية مباشرة وولوا عليها من طرفهم حسن قورصو، ثم عاد البيلرباي الى العاصمة مشتغلا باتمام تنظيم الادارة التركية والقيام باصلاح شأن البلاد الجزائرية فأنشأ الحصون والمحارس بها، منها ثم ذلك الحصن الشامخ الذري القائم فوق كدية الصابون بجنوب العاصمة، وهو المعروف الى اليوم ببرج مولاى حسن او برج بوليلة، وقد كان يسمى ببرج الطاوس وبرج سلطان قالاسى اي قلعة سلطان، أنشأه سنة 952 هـ / 1545 م وقيل انشأه حسن آغا حسب ما مر ايضا، ومنها مدينة القليعة الساحلية غربي العاصمة انشأها سنة 957هـ/1550م، كما انه أنشأ بالعاصمة حمامات للعموم ومستشفى للانكشارية.

رسم حدود الجزائر وتخطيط تخومها الغربية:

ولما استقر الحكم التركي بتلمسان وخضعت لسلطانه جميع اعمالها وتقرر رسم

الحدود السياسية بين المملكتين الجزائر ومراكش، انتدب لذلك العلامة الهمام ابو عبدالله محمد الخروبي الجزائري فوفد على السلطان المغرب (961هـ /1553م) فاقتبله البلاط بما هو جدير به من التجلة والاكرام، وعقدت للشيخ هنالك مجالس ومحافل ناظر فيها علماء المغرب وساجلهم في مباحث شتى من العلم، وجرى له الكلام في التصوف والطرق الصوفية كان منفردا فيه وتم على يده تخطيط الحد الغربي الذي بقي محترما معروفا الى اليوم بين حكومة الجزائر والمغرب الاقصى ولم يحدث فيه كبير تغيير جوهري الا ما حدث في بعض الجهات الجنوبية من تحوير طفيف.

انتقال البيلرباي الى استانبول:

اتفق ان نشأ خلاف بين بيلرباي الجزائر ومفوض دولة فرنسا، فسعى المفوض بأمير الجزائر التركي ووشى به لدى الباب العالي باستانبول واحاطة بطائفة من التهم واشبه ونطخ سمعته بالريب فاستدعى السلطان اذ ذاك والي الجزائر الى حضرته، فغادرها حسن باشا سنة 958هـ /1551 م وذهب الى استانبول مستخلفا في مكانه حسن آغا وصفاح خليفي كما ذكرته دائرة المعارف التركية. وتوفي هناك سنة 978هـ /1570 م ودفن الى جوار والده خير الدين.

وفي هذا التاريخ اهتبل الاسبان فرصة غياب الوالي التركي فغزوا تلمسان واحتلوها ومكثوا فيها ثلاثة عشر يوما ثم هزموا واخرجوا منها.

ولاية صالح رايس:

انتصب على اريكة الجزائر في شهر جمادي الاولى سنة 959 هـ(افريل - مايو 1552 م) وهو اول حاكم عربي يحكم الجزائر باسم الاتراك في هذا العصر ولقد كان لتوليته ارتياح عظيم لدى الاوساط الجزائرية: واهم ما ابتدأ به من الاعمال وباشرها بنفسه في صدر ولايته ان تصدى لاخضاع الثائرين والمتمردين على حكومته من سكان الجنوب الجزائري كبني الجلاب المستبدين بنواحي بسكره وتقرت، وبني وارجلان - وارجلة - فان هؤلاء جميعا امتنعوا من اداء الجباية والمغرم فتصدى لاخضاعهم صالح رايس مستعينا على حركته هذه بصديقه عبد العزيز امير قلعة بني عباس حيث اتصل به مجانة ومعه يومئذ

ثمانية آلاف جندي فخضعت له قبائل الجنوب ملتزمة بدفع ضريبة سنوية وتقديمها لباشا الجزائر هي لا تقل عن 30 عبداً من رقيق السودان كما استولى على عاصمة الزاب الجزائري - بسكرة - واحوازها ثم قفل راجعا الى الجزائر وبيده مغانم ضخمة منها خمسة عشر بعيراً موقرا بالذهب واكثر من خمسة آلاف من العبيد. واليه تنسب واحة عين صالح بالجنوب الجزائري.

ويذكر عن حسن قورصو عامل تلمسان يومئذ انه تحرك لمقاتلته عبد العزيز امير القلعة في سنة 959هـ (1552م) وكان اللقاء بينهما في نواحي بوغني والمسيلة، وكان لصالح رايس وولده محمد ضلع في هذه الحرب التي كتب النصر فيها لعبد العزيز.

الاستيلاء على فاس:

كان مما اشتهر به صالح رايس في مدة امارته على الجزائر الولوع بغزو سواحل امم النصرانية بهذا البحر والزحف نحو اساطيل العدو الراسية بموانيء هذه الشواطىء وكان مما ظفر به بمياه الاندلس في سنة 960 هـ - 1553م عشرة مراكب اسبانية فساقها الى الجزائر وكان من بين اهلها يومئذ الامير ابو حسون - ابو الحسن على بن محمد الشيخ - الوطاسي المعروف بالبادسي وقد كان في استنجاد الملكين الاسباني والبرتغالي لاسترجاع ملك آبائه المرينيين، وجد هناك على ظهر مركب منها مختفيا فارا بنفسه من الدولة السعدية القابضة يومئذ على زمام المغرب الاقصى فتعرف ابو حسون الى صالح رايس وكانت بينهما مودة ومصافاة جعلت من الامير الجزائري الصديق الوفي لاسيره الامير الوطاسي وتواطآ على غزو مراكش واسترداد مملكة بني وطاس المرينيين من يد السعديين.

وفعلا خرج الاسطول التركي الجزائري من العاصمة محتويا على 22 مركبا حربيا مشتملا على 4000 جندي جزائري فغزا سواحل مليلة والريف المغربي وبادر الجيش الى السير برا نحو المغرب بقيادة صالح رايس نفسه موريا برد اعتداء المغاربة عن الحدود الجزائرية فاحتل تلمسان وتقدم الى فاس فاحتلها ايضا يوم ثالث صفر 961 هـ (8 جانفي 1554م) ونصب على عرشها ابا حسون مرتبطا بالباب العالي، ونفى السلطان السعدي فكانت هذه هي المرة الوحيدة

والاخيرة التي وصل فيها نفوذ العثمانيين الى مراكش، وفي عودة الاتراك الى الجزائر نهض الملك السعدي مغتنما هذه الفرصة فقضى على ابي حسون وأعاد الامر الى دولته.

الحاق ولاية تلمسان بالجزائر:

كان مما قام به بيلرباى الجزائر صالح رايس ايام وجوده بتلمسان أن درس الوضعية السياسية هنالك فعرف ما كانت عليه البلاد يومئذ من الضعف وسوء التحصين امام جيش الاسبان الجاثم بوهران وانكشفت له بها علائق سرية واتصالات مريبة مخيفة بين مولاى الحسن حاكم تلمسان والاسبان، فكتم صالح امره ريثما انتهى من عملية الحرب بمراكش وفاس، وفي منصرفه من تلمسان اعلن عزل حاكمها المذكور والحقها رأساً بأعمال الجزائر.

تمكن الاتراك من فتح قسنطينة وبجاية ووهران:

من المحقق تاريخيا أن الاتراك تمكنوا من قسنطينة اثر وقعة وادي القطن - بين ميلة وقسنطينة - حيث احتلها اتراك بونة وتونس سنة 962هـ - 1555م والحال انهم قد وجدوا بها منذ سنة 941هـ (1535م) ولكننا لا نعلم صفة ذلك ولا كيفية الغزو أو نوعية الفتح والاحتلال، وانما الذي نعلمه من حوداثهم بهذه النواحي الشرقية انهم فتحوا بجاية بعد حرب طاحنة ومقاتلة عنيفة للاسبان برا وبحرا بجيش يفوق عدده 4000 مقاتل طوال ستة ايام فيما يقارب 22 مركب حربي، وكان احتلالهم لها يوم السبت 12 ذي القعدة سنة962هـ 28 سبتمبر 1555م وأجبر الاسباني (الونسو دوبيرالتا) D. Alonso de perralta على الاستسلام للقوات التركية، فكانت مدة اقامة الاسبان بها 45 سنة، وفي نفس هذه السنة استنجد الفرنسيون بالاسطول الجزائري لتعزيز قواتهم الحربية ضد الاسبان.

وبعد ان فرغ بيلرباي الجزائر من فتح الجهات الشرقية اطلع على مؤامرة سرية كانت تحاك ضده في الخفاء بين ملك المغرب والاسبان وكان الغاية منها طرد الاتراك من الجزائر، فعزم على القيام بضربة قاسية يكون فيها القضاء على الحكومتين معا: حكومة المغرب واسبانيا، فغدا يستعد لذلك وتهيأ لفتح

وهران وأخذ في تعبئة نحو السبعين سفينة لغزوها واجتمع لديه من الجند ما يقارب من اربعين الف نسمة، وكان ينوي اتمام زحفه هذا بالمسير الى مراكش للقضاء على ما قد كان نشب هنالك بين الاهالي من فتن واضطرابات واخضاعها لسلطانه ولكن القدر لم يمهله واجله لم يرجئه فتوفى بالطاعون في شهر رجب سنة 963هـ /ماي 1556م وعمره سبعون سنة، فخلفه يومئذ طرغود بك في فتح وهران فغزاها على رأس اسطوله الضخم فاحتلها واحتل منها على الاخص حصن صانطوس وكاد أن يتمكن من نفس المدينة رغم دفاع الاسبان العنيف عنها واخيرا انهزم عنها الاسبان.

وكان من منشئات صالح رايس وآثاره المعمارية بالعاصمة دار السلطان او قصر الجنينة بأسفل المدينة، مكث في بنائه نحو خمس سنوات 959 - 963هـ (1552 - 1556م) ولقد دام هذا البناء الشامخ نيفا وثلاثة قرون، أي طوال تاريخ ايام الحكم التركي بالجزائر الى أن هدمته السلطة الفرنسية سنة 1272هـ (1856م) والهبت فيه النيران واقامت مكانه هذه الدار الموجودة اليوم شرقي دار عزيزة بنت الباي (الاسقفية سابقا والملحقة اليوم بوزارة السياحة) حيث يوجد بالطابق الاول منها نادي الترقي، ولهذا الرئيس التركي - صالح - اصلاحات عمرانية شتى ادخلها على رصيف خير الدين بميناء العاصمة القديم كما انه زاد في طول (رصيف المول)963هـ/1556م

ولاية حسن قورصو:

انتصب بنفسه على عرش الجزائر يوم وفاة سلفه صالح رايس (963) هـ 1556 م) وفرض طاعته على الرعية ولم يراع في ذلك جانب الباب العالي باستانبول معتمدا في ذلك على ما اوتيه من البطولة الحربية والشجاعة الادبية، واصله من مدينة كورسيكا التي اشتهر بنسبته اليها ودعى لذلك «اوكورسو».

وفي اول برهة من ولاية قورصو توجه بنفسه على رأس حملة شديدة الى وهران فشدد عليها الحصار برا وبحرا وضايق الاسبان بها حتى كاد أن يدركه النصر او يكون منه قاب قوسين او ادنى فناداه حينئذ السلطان العثماني باستنبول مستنجداً باسطول الجزائر لتعزيز قوات المجاهدين ببحر

الارخبيل ورد حملة اندري دوريا عن البوسفور، فعدل يومئذ حسن قورصو عن وهران وعاد بأسطوله نحو بلاد الامبراطورية العثمانية بالمشرق.

وفي ذي القعدة 963هـ - سبتمبر 1556م حل بالجزائر من قبل الباب العالي اميرها الشرعي البيلرباي محمد تشلبي كرد اوغلي - طكلرلي - فاعترضه حسن قورصو وبذل في منعه من الاتصال بالجزائر غاية وسعه ولكن طكلرلي اجتهد حتى تمكن من الحلول بجون «تامد فوس» شرقي العاصمة وهنالك اصطدم بقوات حسن قورصو فناشبه الحرب وذهب ضحيتها الوالي السابق وقتل بعده الوالي الجديد ايضا وحكم الجزائر يومئذ والي تلمسان الامير يوسف صديق حسن قورصو ولم يلبث ان توفي بالطاعون فخلفه يحيى باشا مدة ستة اشهر ابتداء من شهر ربيع الاول الى شعبان 964هـ (من جانفي الى آخر ماي 1557م)

وكانت دولة الاشراف السعديين بمراكش تتحين الفرص للانقضاض على مملكة تلمسان فساعدتها الظروف في هذه الفترة من الزمن فاستولت عليها الى ان جاء عصر حسن باشا بن خير الدين وعاد الى منصبه الاول فجاء الى الجزائر على رأس 20 مركب حربي.

ولاية حسن (باشا بن خير الدين (ثانيا):

تقلد منصبه هذا للمرة الثانية في شهر شعبان 964هـ (جوان / جويلية 1557 م) فابتهج لولايته اهل الجزائر لما عرفوه عنه وتحققوه منه من حسن الادارة وحزمه الشديد في تسيير شؤون الدولة وكونه ايضا ولدته ام جزائرية فهو اذا منهم بالخؤولة كل ذلك كان من دواعي الاقبال عليه في هذه المرة وفي الواقع انه كان من رجال الاتراك الممتازين في وضع اسس النظم الادارية لهذه الدول التركية الناشئة بهذه البلاد.

اهم اعمال حسن باشا بن خير الدين:

كان من اهم اعمال البيلرباي حسن التي شرع في القيام بها في هذه المرة اخذه في جمع كلمة الجند الثائر من فريق الانكشارية فسل منه السخائم واطفأ نار غضبه المنصب على الوجاق كما هي عادته في كل مناسبة تحدث عند تولية

والي جديد، وذلك رغبة منه في زيادة المرتبات ورفع اجور الجيش المرتزق، فعامله البيلرباي يومئذ بما يرضيه، ثم اشتغل بتنظيم الخزن، والتفت كذلك الى محاربة دولة الاشراف السعديين الحاكمة بتلمسان فأجلاها عنها، وتشوف الى تتبع هذه الدولة المراكشية الى عقر دارها بسبب ما بلغه عن ملكها ابي عبد الله محمد الشيخ الملقب المهدي من تصريحه بكلمات احتظم فيها جناب مقام السلطان سليمان العثماني إذ نبزه بسلطان (الحواتة) أو قال القوارب؟ وتوعده مهددا بعزمه على فتح مصر وطرد الاتراك عنها... وبلغ خبره هذا إلى الباب العالي فبعث السلطان من هنالك اثنا عشر فدائيا حلوّا بالمغرب وقضوا على حياة سلطان مراكش يوم 29 ذي الحجة 964هـ / 23 اكتوبر 1557م، ولقد ادى ذلك الى اعتراف حكومة المغرب الاقصى بسيادة الباب العالي على بلادها 988هـ (1580م).

وفي نفس التاريخ الذي هلك فيه سلطان المغرب (964هـ - 1557م) قضى حسن بن خير الدين على الجيوش الاسبانية المقيمة بمازغران - قرب مستغانم - فأسر منها 12 ألف نسمة، وانضم اليه يومئذ الجند التلمساني فاحاط الجميع بالاسبان واوقدت النيران في مخازن البارود فانفجرت وكان من اثر انفجارها سقوط اسوار المدينة وموت الاكثرية من جيش الاسبان (7000 قتيل) وفيهم الجنيرال ماجور (الكونت الكوديط)، وعند غروب الشمس من يوم الجمعة 12 ذي القعدة 965هـ - (26اوت 1558م) احتل الاتراك نواحي مازغران، ونظم الشعراء فيها القصائد الطوال.

ثم في السنة بعدها (966هـ- 1559م) حول البيلرباي نظره من المغرب الى المشرق وتحرك في جنوده الى غزو النواحي الشرقية التي يملكها العزيز امير قلعة بني عباس. فاستولى منها على مدينة المسيلة وبنى حصناً ببرج بوعريج واخر بزمورة وذلك للمحافظة على سطوة الاتراك بتلك النواحي الشرقية وتثبيتا لقدمهم هنالك ورتب بها الحامية التي بلغ عددها اربعمائة جندي ثم غادرها متوجها الى بلاد حمزة - نواحي بويرة -.

وفي منصرف حسن من نواحي زمورة والبرج وثب عبد العزيز على الحصنين المذكورين فأسر ما بهما من الجنود ونشبت هنالك معارك كان فيها حتفه، وجيء برأسه الى الجزائر وخلفه يومئذ في مقامه اخوه احمد امقران

وهو جد الاسرة المقرانية الشهيرة المقيمة بمجانة التي حاربت الاستعمار الفرنسي سنة 1288هـ - 1871م، وحينئذ 968هـ (1561م) تملك احمد امقران نواحي كوكو من بلاد القبائل واضطر الاتراك الى مصالحته والاعتراف بزعامته.

شركة «لانش» الفرنسية:

وكان من اجل احداث السياسية بهذا العصر في الجزائر ظهور شركة صيد المرجان الفرنسية المعروفة باسم لانش lenche حيث ابرمت مع الحكومة الجزائرية عقدة تجارية حوالي سنة 1560 م احرزت بها على رخصة لانشاء مراكز لها بكامل السواحل الجزائرية الشرقية، منها ما كان بالقرب من غربي القالة ومنها ما كان بشرقي بونة الخ... مقابل دفع ما قيمته (30) الف دولار او ما يعادل (5000) جنيه انكليزي، توزعها على حكومة الجزائر وقائد عنابة ورؤساء القبائل المجاورين، وذلك على غرار ما كان يمنحه امراء الاسلام في افريقة واسبانيا وآسيا للشعوب الاوروبية وكذلك الى ما كان يصنعه من هذا القبيل قياصرة الروم لجالية البندقية ومدن ايطاليا الاخرى في القسطنطينية. وذلك ازاحة لمؤسسات الدويلات الايطالية كدولة الجنويز والبنادقة اللتين كانتا تعملان في صيد الاصداف وتمتلكان مخازن مشيدة في طبرقة ونواحيها بالحدود الجزائرية التونسية وكل ما اشترطته الدولة الجزائرية على هذه الشركة هو ان لا يكون بهذه المراكز التجارية سلاح وان لا تظهر بمظهر الحصون الحربية ابدا وذلك خشية ان تكون من قبيل الشركات ذات النزعة الاستعمارية فكانت الحال اولا على ذلك الى ما بعد اربع سنوات فقط حيث نزل بها اول قنصل فرنسي ويومئذ ابتداء دور العاب اوروبا الديبلوماسية يظهر في مجال السياسة الاستعمارية، إذ لم تقف هذه الشركة عند الناحية التجارية بل تجاوزتها إلى الناحية السياسية فكانت هذه المراكز خير عون للاستعمار مهد بها لاحتلال البلاد وسقوطها بين مخالبه فيما بعد، ثم بعد خمس سنوات جاء دور الانكليز فتدخل في اقتصاديات البلاد بطريق نصب ممثلين معتمدين للتجارة بالجزائر.

وسقطت يومئذ جزيرة جربه بيد الاتراك الجزائريين وانجلى عنها الاسبان (967 هـ 1561 م) فحولوا انظارهم حينئذ الى وهران فانتصروا على بعض حصونها واستولوا على بعض المراكب الاسلامية ويومئذ اندفع السلطان العثماني

الى اعلان الجهاد وتقدم الى فتح جزيرة مالطة مقر رهبنة القديس يوحنا الاورشليمي ، وكان من الضروري فتح هذه الجزيرة لمزيد السيادة بهذا البحر الابيض المتوسط ، ذلك لما وهبتها الطبيعة من اهمية موقعها الجغرافي ومركزها الاستراتيجي ،وكان انهزام الاسبان هذا في جربة وانتصار الاتراك بها عاملاً قويا مباشرا في جلاء حلفائهم السعديين عن تلمسان وتركها للاتراك.

وتصدى البيلرباي في السنة التالية لادخال بعض الاصلاحات والتنظيمات في الإدارة التركية بالجزائر فقضى على ثورة بلاد الزواوة واصهر الى قبيلة جبل كوكو بتزويجه بنت شيخها احمد بن القاضي واشرك اهلها في الادارة وباتفاقية كانت بينه وبين الوطاسيين غزا جيشه دولة السعديين بفاس ثم انسحب عنها في مقابلة تعويضات عن نفقات الحملة ، وكان لهذه الغزاة اثر كبير في ادخال بعض التقاليد والنظم العسكرية التركية في الجيش المغربي وبالقصر السلطاني ايضا كآداب الاستقبال وحدوث فرقة الانكشارية الخ...

وأحاطت الدسائس يومئذ بالبيلرباي وسعى به حسدته ومنافسوه الذين اسخطهم تأليفه لفريق القبائل فسعوا به لدى الباب العالي فأخذ مكبلا الى استانبول ثاني مرة ، وتعين مكانه حسن آغا للمرة الثانية أيضا ثم عزل بقوصة محمد ريثما حضر من الاستانة احمد باشا بستانجي في المحرم 969هـ 1562م) ولم تطل مدته فتوفي اثر ثلاثة اشهر من ولايته ، فخلفه يومئذ القائد يحيى ولم يكن من المسير في هذه المدة على حسن باشا أن يبرىء نفسه من التهم التي كيلت له امام الباب العالي فعمل على تنفيذها الى ان اعادت الدولة العثمانية حسن باشا بن خير الدين الى منصبه.

ولاية حسن بن خير الدين (ثالثا)

عاد البيلرباي حسن بن خير الدين هذه المرة لولاية الجزائر معززا بعشر سفن حربية ومزودا بقوات عسكرية مسلحة وكان تاريخ مجيئه هذا سنة 969 (1562م) وان اول عمل جدي قام به في ولايته هذه هو ان غزا في ربيع السنة التالية قوات الاسبان الرابضة بوهران فشن عليها غاراته برا وبحرا فكان على رأس جيش عدته 30 الفا من بينها 12 الف رجل من جيش احمد امقران زعيم قلعة بني عباس وكاد ان يتم انتصاره عليها لولا ما لحقتها من النجدات ،

فانهزم عندئذ حسن الى الجزائر (974هـ / 1567م) منقطعا الى اتمام اصلاحاته وتنظيماته الادارية فاحدث اذ ذاك بالقطر الجزائري اربعة بشالك - مقاطعات - :بايلك الجزائر المعبر عنها بدار السلطان وقاعدته العاصمة، وبايلك تيطرى ومركزه بالمدية، وبايلك الشرق وقاعدته قسنطينة، وبايلك الغرب بمازونة [1] ثم تحول مركز بايلك الغرب الى مدينة معسكر واخيرا الى وهران، وجعل لكل ولاية من هذه المقاطعات الاربع من غير دار السلطان رئيساً يحمل لقب الباى واول من عرفناه من بايات هذا الدور هو باي المغرب بو خديجة بمازونة 970 هـ -1563 م ونصب على النواحي المعبر عنها بالاوطان كوطن بني موسى، ووطن بني مناصر، ووطن يسر شيوخا جعلهم تحت نظر وتصرف البايات.

ولقد حاول الفرنسيون بعد ذلك بسنتين (9صفر1972هـ17سبتمبر 1564م) تنصيب سفير لهم بالجزائر فرفضت الحكومة ذلك، واستمر البيلرباي حسن على خطته الهجومية ضد الاسبان في فترات متفرقة كما انه شارك بنفسه في هجوم الاتراك العثمانيين على مالطة سنة 973 هـ (1565م) ثم لم يلبث بعد ذلك ان استدعاه الباب العالي ليتولى كأبيه منصب قيادة الاسطول العثماني باستانبول فانتقل الى منصبه الجديد هنالك سنة 974هـ(1567م) وبقي على منصبه الجديد باستانبول الى وفاته سنة 977هـ/1570م ودفن الى جوار والده.

ولاية محمد بن صالح رايس:

تشير دائرة المعارف التركية الى انه قد تولى عرش الجزائر قبل محمد هذا اثنان من الباشاوات وهما احمد باشا وحسن باشا (1561 - 1562م) واتصل البيلرباي محمد بن صالح رايس بالجزائر في ذي الحجة سنة 974هـ (جوان 1567م) فصادف بها اوبئة ومجاعات رهيبة صحبها هيجان في الجند واضطراب في الشعب فاضطر الى صرف اغلب اوقاته في مواساة الضعفاء والمصابين وتسكين الفتن، وما فتىء يعمل على ذلك اذ فاجأته ثورة عامل قسنطينة المتأثر بولاة تونس الحفصيين، فعزله البيلرباي وقضى على الثورة هناك وولى على قسنطينة القائد رمضان بن تشولاق. وفي ربيع الاول 975هـ

(1) انظر خريطة الجزائر التركية من هذا الجزء.

(سبتمبر 1567م) هاجم الاسباني جان خوان جاسكون مدينة الجزائر فرد عنها مهزوما.

ثم لم تطل ايام البيلرباي بعد ذلك بالجزائر اذ تعين نقله الى ولاية أخرى بانحاء الامبراطورية العثمانية فأنتقل من عاصمة المغرب الاوساط في رمضان سنة 975هـ (مارس 1568م) ولا يعلم من آثاره المعمارية بالجزائر سوى حصن باب الوادي غربي العاصمة.

ولاية علج علي:

ذكرته بعض المصادر هكذا «او لوج علي» وكان يلقب بالفرطاس - أي الاقرع- واصله من اسرى نصارى «كالابر» الايطالية بصقلية ولد حوالي سنة 1500م ونشأ في احضان القرصنة التركية فأسلم وحسن اسلامه وسبق ان حاز في حياته البحرية مراتب عسكرية خولته درجة الرئاسة فخلف دزغوث باشا بطرابلس، وتولى ولاية تلمسان فحارب بها الاسبان.

ثم صدر الامر العالي بتوليته بيلرباي على الجزائر فنزل بها يوم 14 صفر 976هـ (8اوت 1568م) واشتهر بولايته هذه بالعزم في تسيير الادارة والبطولة الحربية والشجاعة الادبية وسجلت له انتصارات عديدة في البر والبحر ومن اشهرها انقاذ بعض المتخلفين من المسلمين بسواحل الاندلس وفعلا نجح في انزال الاسلحة وبعض المتطوعة على الساحل الاسباني في اوائل سنة ولايته وفي تحطيم موانىء الاعداء هناك وانتصاره الباهر في وقعة «ليبانت» الشهيرة ببلاد اليونان 979هـ (1571م) التي مني فيها الاسطول العثماني لاول مرة في تاريخه بالانهزام بينما والي الجزائر علج علي نجا بسفنه الاربعين واحرز على مغانم كثيرة كان من بينها اللواء البابوي المقدس!... ولقد شارك بنفسه في انشاء الاسطول العثماني وتكوينه من جديد بعد وقعة ليبانت المذكورة فحاز بذلك رتبة منصب القيادة العليا للاسطول العثماني من سنة 978 هـ الى وفاته سنة 995 هـ /1571-1587.

وفي صدر امارته على الجزائر انتزع من الفرنسيين حق احتكار تجارة المرجان بمركز القالة بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة لثلاث سنوات

مضت وتصرفهم في المنطقة الثي نزلوا فيها تصرف السادة في ارض محتلة واباح الداي ذلك للانكليز ويومئذ977هـ (1569م) اعادت الدولة الفرنسية مفاوضتها مع الحكومة الجزائرية حول تنصيب القناصل وتنظيم سير الحركة التجارية.

ومما يؤثر عن هذا الحاكم الجزائري انه كان اول من فكر في فتح قناة السويس قبل وجود فرديناند دي ليسبس بما يزيد على ثلاثة قرون.

فتح تونس

انك على بصيرة مما آلت اليه الدولة الحفصية في اواخر ايامها – حسبما اسلفنا – من الانحلال السياسي وضعف قواتها الحربية والانحلال الاخلاق ولاتها وانتشار فتن الاعراب ونشوب الخلاف وافتراق الكلمة بسبب نزوع بعض امراء البيت الحفصي الى العرش وتنازعهم على ذلك واستنجاد بعضهم بالاجانب الخ...[1] فحاقت بهم يومئذ ضربات الاسبان حيث استحوذوا على بعض المدن الهامة والمراكز الاستراتيجية من القطر التونسي وبسطوا نفوذهم على مملكة بني ابي حفص وكان ظهور الاتراك يومئذ بهذا البحر واستيلاؤهم على بعض ثغور ضربة قاسية على مطامع الاسبان والبرتغال المتجهة نحو سواحل المغرب الاسلامي، فاستولى اذ ذاك خير الدين باربروس على ثغر بنزرت ثم جرت هنالك وقائع بين الترك والاسبان في مختلف انحاء المملكة الحفصية ومنها هذه الحملة التي كانت على يد والي الجزائر علج علي في هذه السنة 977هـ (1579م).

كان علج علي يراقب احوال مملكة تونس حين وفد عليه احد وزرائها ابو الطيب الخضار محرضا على امتلاكها، فجهز الوالي الجزائري جيشا يحتوي على نحو سبعة آلاف نسمة وزحف به نحو تونس فلقيه اميرها ابو العباس احمد الحفصي بباجة، ثم بعد قتال عنيف انهزم الامير الحفصي وتقدم والي الجزائر بجموعه الى الحاضرة فامتلكها واخذ بيعة اهلها للسلطان سليم الثاني وقتل ابن الخضار ورتب حامية لحراسة البلاد تحت رعاية حيدر باشا ثم انكفأ راجعا الى مقره بعاصمة الجزائر.

---

(1) راجع ما قدمناه عن تاريخ هذه الدولة وخلاصة تاريخ تونس ص 131 – 134.

وبعد سنة من هذه الوقعة دعي علج علي الى القسطنطينية ليتولى بها رآسة القيادة العليا للاسطول العثماني فغادر الجزائر وخلفه عليها موقتا قبطان باشا. وعاش علج علي هناك القسطنطينية الى وفاته التي كانت في 15 رجب سنة 995 هـ 21 جوان 1587 م وترك بها آثارا منها مسجد طوب خانة في غلطة وحمام في القصر السلطاني.

تعصب اوروبا المسيحية

انعقد الحلف الاوربي المسيحي الثالث عشر سرا بين قداسة البابا بيوس الخامس وفيليب الثاني ملك الاسبان وجمهورية البندقية بتاريخ فاتح المحرم 979هـ /(25 ماي 1571م) وبعد حين من تاريخ انعقاد هذه المؤامرة تقرر اعلان الحرب الهجومية والدفاعية ايضا من طرف الحلفاء ضد تركية لاسترداد جميع الاماكن التي فتحها الاتراك ومن بينها الجزائر وتونس وطرابلس عملا بقاعدتهم التعصبية التي تنص على ان ما استأثر به الصليب واغتصبه من الهلال لا يرد، وان كل ما حازه الهلال او ضمه اليه وأخذه منها تتحتم عليه اعادته وهو ما اسموه بسياسة الاسترداد Reconquista اي اعادة النفوذ بالقوة على المسلمين.

وعلى اساس هذا الحلف المسيحي المقدس نشأت وقعة المعركة ليبانت البحرية الشهيرة بجنوب بلاد اليونان بتاريخ 17 جمادي الاولى سنة 979هـ (7 اكتوبر 1571م) وذلك بدافع الانتقام من سيطرة الاتراك العثمانيين على قبرص التي كانت تابعة للبندقية، وقد شارك الاسطول الجزائري في هذه الحرب اساطيل الدولة العثمانية في الدفاع عن حوزة الاتراك، ولا يزال اهل ايطاليا الى اليوم يحتفلون بذكرى هذه الوقعة التي كانت سببا في درىء امتداد السلطة التركية وطردها عن بلادهم والتي فقد فيها كل من الاسطولين العثماني والجزائري جل مراكبها الحربية ولم يسلم من بين 208 سفينة التي شاركت في المعركة سوى 92 منها فقط.

مطامع فرنسا في الجزائر:

كانت وقعة ليبانت هذه فرصة مواتية لاظهار رغائب فرنسا واطماعها نحو المغرب الاسلامي، فانه بمجرد ما اشتهر خبر انهزام الاسطول التركي في هذه

الوقعة قدم ملك فرنسا « شارل التاسع » مشروعا الى الدولة العثمانية (980هـ /1572م) بواسطة السفير المفوض باستانبول الراهب « فرانصوا ذونواي » يتضمن طلب الترخيص لحكومته في بسط نفوذها على القطر الجزائري والتنازل عنه لاخيه (دوق انجو) بدعوى الدفاع عن حمى الاسلام والمسلمين به وانها مستعـــــدة في مقابل ذلك لدفع المغرم او الجزية للباب العالي، فاعرض عنه السلطان ولم يعره بالا ولكن رغم ذلك فان دولة فرنسا اوغلت في طموحها والحت واكدت في الحاحها وسلكت للتوصل لغرضها هذا مسالك ديبلوماسية غريبة، واخيرا حصلت على الرخصة لها في نيل امتيازات خاصة وتصريح من السلطان باقامة محارس تجارية بالقالة وغيرها من الساحل الجزائري، فاكتفت اوليا بذلك، على انها كانـت اول خطوة استعمارية خطتها فرنسا نحو هذه البلاد المغربية قبل احتلالها السياسي بما يزيد على قرنين ونصف، الامر الذي يدلنا دلالة واضحة على ان انفجار شرارة الحرب ضد الجزائر سنة 1830م لم يكن هكذا وقع فلتة عن مجرد قصة خفقة المنشة المشهورة!...

والحق اننا قد عرفنا اتجاه همة فرنسا الى اخضاع المغرب الاسلامي منذ ايام الصليبيات وحملة الملك لويس التاسع على تونس التي انتهت هنالك بموته وهزيمة جيشه سنة 669هـ1270م.

ولاية احمد عراب:

تولى الحكم بالجزائر في شهر ذي الحجة 979هـ(افريل 1572م)وفي دائرة المعارف التركية ان ولايته كانت قبل هذا التاريخ بأربع سنوات واشتهر في مدة ولايته كلها بالاجتهاد في نشر الامن وتطمين السابلة وتنظيم الادارة وهو الذي اقام منار (برج الفنار) وكذلك الثكنة التي هو قائم عليها بمكانه اليوم بثغر العاصمة (980هـ /1573م) وايضا رصيف المزوار ومنارة وذلك خشية الهجوم المتوقع من طرف (دان جووان) النمساوي وفي هذا العصر وقع تجديد قصر القصبة - دار السلطان - القائم الى الان بأعلى المدينة، ومن أشهر مواقفه قضاؤه على ثورة اهالي قسنطينـة ومشاركته في الدفاع عن تونس ومناصرة اميرها العلج علي ضد الاسبـان في جمادي الثانيـة 981هـ (سبتمبر1574م) ويومئذ نزح الاسبان عن تونس وانجلوا عنها نهائيا وتمحض

الحكم بها للاتراك.

وفي نفس التاريخ استولى بعض القرصان الجزائريين على سفن فرنسية كانت تتجول بمياه الجزائر، فاحتجت دولة فرنسا على هذا الصنيع لدى الباب العالي، وذلك بناء على ما كان امضاه السلطان من المعاهدة التي تنص على عدم الباغتات البحرية، وجاء حينئذ امر الباب العالي الى الجزائر برد ما استحوذ عليه القرصان من المراكب الفرنسية وحاول احمد عراب استخلاص السفن من يد القرصان فلم ينجح بناء على ان دولة فرنسا لم تتحالف مباشرة مع الحكومة الجزائرية ثم عزل من ولايته.

ولاية القائد رمضان:

أصله من جزيرة سردانيـة وقـع أسيرا بيـد تاجر تركي فهذبه وعلمه...ونظرا لذكائه وحميد خصاله ترقى في مناصب الادارة الى ان ولي رئاسة حكومة الجزائر سنة 981هـ /1574م فكان عهد ولايته عهد سعادة وازدهار، ولم يكن لتاريخ ايامه بالجزائر شأن كبير يذكر به سوى مشاركته في تأييد العلج علي لعبد الملك بن الشيخ واخيه احمد الاميرين السعديين على انتزاع الملك من اخيهما الغالب بالله، فغزا الاتراك فاسا سنة 983هـ /1575م وحققوا لعبد الملك منيته ثم عادوا من مراكش بمبلغ عظيم من الهدايا المغدقة عليهم.

وفي اواخر ايام حكومة القائد رمضان بعث الفرنسيون بقنصلهم الى الجزائر فرده البيلرباي ورفض قبوله ما لم يؤد اتاوة، ولم يتمكن السفير من النزول بالعاصمة الا بعد ان جاء الالزام الحتمي من طرف الباب العالي، ثم لم تطل ايام الوالي هذا فنقل من الجزائر الى ولاية تونس سنة 985 هـ /1577 م.

ومن مآثره بالعاصمة بقايا الحصن الموجود بالقرب من جامع سيدي رمضان بأعلى حي القصبة تجاه المستشفى الحاضر اقامه سنة 984هـ/1576م.

ولاية حسن فنزيانو:

جلس على سرير الحكم بالجزائر في شهر ربيع الثاني سنة 985هـ (جوان 1577م) واصله من ايطاليا، نشأ محترفا مهنة الكتابة بمدينة البندقية venise

ولذلك دعي بفنزيانو اسره درغوث باشا، ثم كان عبدا لعلج علي، وأسلم وكان ينسب اليه فيقال له ابن القبطان علي.

اشتهر حسن بشدة الشكيمة والنشاط والحزم ومضاء العزيمة وحبه الشديد للمال، وهو كما يصفه لنا الكاتب الاسباني «سير فانطيس» وقد شاهده ايام كان أسيراً بالجزائر بانه كان نحيفا طويل القامة شاحب اللون خفيف شعر اللحية، اشقر وكان لعينيه نظره دموية حادة مع كبرياء وعنف. هاجم فنزيانو الاسبان في عقر دارهم مرارا فأقلق راحتهم في عدة مرات، ومن بينها حركته الهجومية ضد جزر الباليار والشواطىء الاسبانية سنة 986هـ /1578م. وكانت له عناية واجتهاد في تحصين مدينة الجزائر على الخصوص يجعلها في مناعة ووقاية من هجمات العدو، وفي هذه السنة انتظمت مملكة مراكش ضمن نفوذ الدولة العثمانية، وصار شمال افريقة باجمعه تابعا لها تماما او نقول خاضعا لنفوذها على الاقل.

والامير فنزيانو هذا هو اول من عقد معاهدة تجارية بين دولة الجزائر وانكلترا، وذلك سنة 987هـ /1579م. وفي السنة وقع هجوم فرسان مالطة و(سانت ايتيان) باربع سفن ضد السواحل الجزائرية واقتربوا من مدينة القل فاختطفوا من هناك 36 شخصا، وبعد ان قضى الداي نحو مدة ثلاث سنوات من ولايته بالجزائر دعي الى استانبول فسافر اليها سنة 988 هـ /1580 م. ويومئذ نزل بالعاصمة الجزائرية قحط شديد وجفاف مهول مات منه جوعا في شهر واحد (71 جانفي الى 17 فيفري) ما يبلغ 5656 نسمة كما حدثنا بذلك (هايدو) وقد شاهد ذلك بنفسه عندما كان أسيراً بالعاصمة[1].

ولاية جعفر (باشا):

يقال ان اصله من اسرى المجر، وبعد ان ظهرت كفاءته ومقدرته الحربية للباب العالي ولته الحكومة العثمانية باداراتها فباشر هناك بالمشرق عدة وظائف ومناصب عسكرية واخيرا عينته السلطة العليا باستانبول حاكما عاما بالجزائر في رجب سنة 988هـ (أوت 1580م) وفي ايامه بلغت وحدات الاسطول

(1) Revue Africaine, t 14 – 15; 1870 – 1871.

الجزائري الى ستين قطعة، منها خمس وثلاثون بارجة وعشرون مركب حربي، عدا انواع اخرى من المراكب البحرية.

وان ابرز عمل قام به هذا الوالي الجديد في ولايته الجديدة، هو صرف عنايته وبذل مجهوداته في ادخال بعض الاصلاحات والتحسينات في الادارة العسكرية بالجزائر واطفائه للثورات التي نشأت بداخل الوطن، ومنها انشاؤه لقلعة الكيفان الموجودة بناحية حصن الماء fort de l'Eau شرقي العاصمة أسسها سنة (989هـ/1581م) وفي هذه السنة اتصلت العلائق بين السلطان مراد الثالث وبين حكومة فرنسا.

ويذكر مؤرخو الافرنج ان في صدر ولاية هذا الباشا كان تعيين اول قنصل فرنسي بالجزائر، (وهوم، بيونو) وان ذلك كان في سنة 1577م، أي بعدما تدخل الباب العالي في الامر كما ان الفضل في توحيد الوجهة السياسية لبلاد للغرب الاسلامي وضمه الى الامبراطورية العثمانية يرجع الى هذا الوالي نفسه مع رفيقه في العمل علج علي.

وبينما الرجلان يعملان بمراكش على تحقيق خطة هذه الوحدة السياسية اذ فوجئا بأمر الباب العالي يأمرهما بالتخلي عن العمل بالمغرب والانتقال الى الحجاز لاخماد ثورة نشأت هناك، فتخليا عن عملهما هذاسنة990هـ/1582م [1] وذهبا الى المشرق.

ويومئذ تولى قيادة الجزائر للمرة الثانية القائد رمضان فحاول من اول مرة الزام قرصان الجزائر برد المركبين الفرنسيين الذين استولى القرصان عليهما منذ سنة 981هـ /1573م فلم ينجح في ذلك بل احدث صنيعه هذا ضجة وثورة عنيفة ضده فاضطر الى التخلي عن منصبه وذهب الى طرابلس حيث اغتيل هناك وتولى مكانه في هذه الفترة بالجزائر مامي الارناؤوط مؤسر المركب الذي كان يحمل الكاتب الاسباني الكبير ميكال سير فانطيس

(1) في اليوم الخامس من شهر اكتوبر من هذه السنةالميلادية 1582م كان ابتداء تطبيق الحساب بالتقويم الغريغوري المعتبر اليوم في ضبط التاريخ المسيحي وهو المتعارف عند الفلكيين بالزيج الجديد وهو الجاري العمل به الآن عند اغلب الامم وفي معظم بلدان العالم.

في سنة (988هـ/1580م).

ولاية حسن فنزيانو (ثانيا)

ثم بعد انتقال القائد رمضان الى طرابلس اتخذ القوم المسمى يونس ريا
حضر من غزواته البحرية الرئيس حسن فنزيانو الذي بادر الى عودته للجزائ
حينما بلغه انتشار الفوضى واضطراب الجند لحادثة المركبين الفرنسيين فانتص
على عرش الجزائر للمرة الثانية وفرض طاعته على الرعية وذلك في شهر ربي
الثاني سنة 991 م) (افريل 1583 م) ولم يعارض الباب العالي في توليته هذ
لما كان له من الفضل في حسم الخلاف واطفاء نار الفتن واستباب الام
بالجزائر.

ولقد باشر الوالي دفة تسيير الادارة الجزائرية هذه المرة بما عهد منه م
النشاط والحزم فانه لم يترك قط قيادة الاسطول الجزائري لغيره. ولم يكن ليثو
في المهات بغيره ابدا، وكثرت في ايامه المغانم بما كانت
تجلبه السفن والمراكب الجزائرية من سواحل اسباني
والجزر الشرقية وصقلية وسردانية من النفائس وبما كان يستولي عليه هو بنفس
من الاسرى ومغانم البلاد في غزواته وزحوفه على الاعداء.

ويذكر عنه انه كان يحتكر تجارة الحبوب ويحدد اسعارها بنفسه - كم
يشاء - وضاعف المغارم واجبر الناس على دفعها حبوبا حتى يبقى لنفس
السيطرة على السوق وفرض على الاجانب من التجار تقديم هدايا ليحصلوا عل
رخص التجارة، كما انه فرض غرامة جديدة يستخلصها هو لنفسه ولفائدته عن
عمليات الارث.[1]

ومن اشهر غاراته واهمها حملته العنيفة على ثغر بلنسية (992هـ1584م)
حيث ابحر باسطوله الى هنالك وحمل من الموريسكيين [2] الفي وثلاثمائة نسمة جاء

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 114 ط بيروت 1964م

(1) اصلها moriscos وهي تصغير لكلمة moors الاسبانية ومعناها المسلمون أو العرب الاصاغر المتنصرون رمزا الى ما انتهت اليه الامة الاندلسية من السقوط والانحلال، انظر نهاية الاندلس لمحمد عبد الله عنان ط القاهرة 1966م.

بها الى الجزائر فانقذها من اضطهاد الاسبان وفي السنة التالية استطاعت سفنه المغيرة ايضا ان تحمل الى الجزائر جميع سكان كالوسا، ولقد بلغت غارات المسلمين البحرية التي وقعت على الشواطىء الاسبانية ما بين سنتي 933و992هـ1528 و1584م) ثلاثا وثلاثين غزوة ما عدا الغارات المحلية التي كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من مهاجري العرب المنتصرة، وفي السنة بعدها أوغل مراد رايس في المحيط الاطلنطي فأغار على الجزائر الخالدات.وغنم بها غنائم ضخمة وأسر منها أكثر من 300 اسباني بما فيهم من زوجة حاكم تلك الجزر.

وبقي حسن فنزيانو على رأس الحكومة الجزائرية الى ان استدعاه السلطان الى استنبول ليتولى منصب امارة البحر في مكان علج علي المتوفي سنة 995هـ(1587م) عن ثمانين سنة، فانتقل الحاكم فنزيانو الى استانبول في شعبان سنة 993هـ(اوت 1585م) وترك من اثاره بالعاصمة حصن باب عزون انشأه حوالي سنة 989هـ993هـ(1581 - 1584م) وتولى مكانه موقتا محمد مامي عتيق المعروف بقارج علي وبانتقال حسن فنزيانو انتهى دور حكومة البيلرباي وهو الدور الثاني من عصر الاتراك بالجزائر

بيلربايات الجزائر

حسن باشا بن خير الدين	بيلرباي	950هـ/1544م
حسن آغا - موقتا -	:	958هـ/1551م
صالح رايس	:	959هـ/1552م
حسن قورصو	:	963هـ/1556م
حسن باشا بن خير الدين (ثانيا)	:	964هـ/1557م.
احمد باشا بستانجي	:	969هـ/1562م
القائد يحيى - موقتا -	:	969هـ/1562م
حسن باشا بن خير الدين (ثالثا)	:	969هـ/1562م
محمد بن صالح رايس	:	974هـ/1567م
علج علي	:	976هـ/1568م
احمد عراب	:	979هـ/1572م
القائد رمضان	:	981هـ/1574م.
حسن فنزيانو	:	985هـ/1577م
جعفر باشا	:	988هـ/1580م
القائد رمضان - موقتا -	:	990هـ/1582م
مامي الا رناؤوط	:	990هـ/1582م
حسن فنزيانو (ثانيا)	:	991هـ/1583م
محمد مامي عتيق - موقتا -	:	993هـ/1585م

سلاطين آل عثمان

926 - 974هـ

1512 - 1566م

	تاريخ التولية
السلطان الغازي سليمان خان	926هـ/1520م
السلطان الغازي سليم خان- الثاني-	974هـ/1566م
السلطان الغازي مراد خان- الثالث-	982هـ/1574م

من مشاهير الجزائر
عمر بن الكماد
960هـ/1553م

هو العالم المحقق الشيخ ابو حفص عمر بن محمد الكماد الانصاري القسنطيني المعروف بالوزان اشتهر رحمة الله بتحرير المسائل والتحقيق في دروسه عند الالقاء وكان جامعيا مشاركا في العلوم الاسلامية معقولها ومنقولها ذكره صاحب نيل الابتهاج نقلا عن فهرست المنجور فاثنى عليه وقال: انه كان من عباد الله الصالحين، رحل اليه الشيخ ابو زكرياء يحيى بن عمر الزواوي وسمعه يقرر الفقه بنقل اللخمي وغيره ويقرىء الفنون فكان اذا ذكره يعجب به ويعجب ويرجحه على كل علماء عصره وسأله عن مسائل كثيرة في الفقه والكلام فأجابه الشيخ عنها بتأليف خاص.

وكان فيمن اخذ عنه جماعة منهم ليسيتني، وعبد الكريم الفكون، وابو الطيب البسكري ويحى بن سليمان.

ولقد عرض عليه حاكم الجزائر حسن آغا خطة القضاء فاعتذر اليه برسالة طويلة فأعفاه،

وله من المؤلفات كتاب «البضاعة المزجاة» كتبه على اسلوب طوالع البيضاوي ومواقف العضد، وهو في غاية التحقيق والايضاح، وله تعليق على قول خليل، «وخصصت نية الحالف» وشرح لصغرى السنوسي وتأليف في الرد على المرابط عرفة القيرواني وصحبه.

قال في نيل الابتهاج: واخبرني بعض اصحابنا ان وفاته رحمه الله كانت سنة 960هـ/1553م، وذكر غيره ان وفاة ابن الكماد كانت يوم 21 شعبان 965هـ/8 جوان 1558م ودفن بمدرسة صهره الشيخ ابن افوناس على يمين الذاهب الى باب الوادي من مدينة قسنطينة ولا وجود اليوم لهذه المدرسة حيث حطمت بعد الاحتلال.

محمد الخروبي
963هـ/1556م

هو الامام المتضلع ابو عبد الله محمد بن علي الخروبي صدر علماء الجزائر في الدور الثاني من العهد التركي، اصله من طرابلس الغرب من بيت علم وفضل، ولد بقرية (قرقاش) قارة قوش – ولا نعلم بالضبط تاريخ مولده، نشأ هناك واخذ علمه عن علماء بلده ثم ارتحل الى العاصمة الجزائرية فأقام بها الى وفاته، كان رحمه الله متمكنا من علوم الشريعة والتصوف متبحرا في معرفة احوال الدول والمماليك ذا دراية واسعة بسياسة الملوك وخبرة تامة بشؤون الحكومات عالما اديبا بليغ القلم واللسان خطيبا مصقعا، شجاعا هماما شديد النكير على اهل البدع والضلالات لا تأخذه في الله لومة لائم، ذا جاه ووجاهة عظيمة عند الملوك والسلاطين.

اوفدته حكومة الجزائر مرتين الى المغرب الاقصى لتسوية قضية الحدود وضبط منطقتي النفوذ السياسي بين المملكتين فكانت الاولى سنة 959هـ والثانية سنة 961هـ (1552 – 1554م) فاقتبلته حكومة مراكش بما يليق بجلال فضله واكرمت وفادته وجرت له هنالك مع علماء المغرب مساجلات ومناظرات واستجازة بعضهم فأجازه بسنده... واثنى عليه المحقق محمد بن المدني كنون في بعض تصانيفه، وحلاه ابو حامد محمد العربي الفاسي بقوله: (كان واسع العلم والمعرفة شهير الذكر) وكان رحمه الله صاحب عناية تامة ورغبة شديدة في جمع الكتب النفيسة حتى اصبحت مكتبته العامرة مضرب الامثال بين العلماء وله من التآليف تفسير القرآن الكريم وشرح الحكم العطائية ورسالة في الرد على ابن عمر القسطلي وشرح على الصلاة المشيشية، وله كتاب مزيل اللبس عن اداب واسرار القواعد الخمس، والدرة الشريفة في الكلام على اصول الطريقة، وحلية العبيد، وشرح على نظم شيخه احمد زروق في اصول

الطريقة الشاذلية وغير ذلك توفي بعاصمة الجزائر سنة 963هـ (1556م) ود
خارج سور المدينة وقبره الان مجهول، وبين يدي تقييد بخط الشيخ علي
الحاج موسى يقول فيه ان مدفن الشيخ محمد الخروبي هو بالبرج الكائن خار
باب الواد الغربي من بلد الجزائر قرب شاطىء البحر بجوار الشيخ سيدي مح
الكتاني، كما يوجد هناك من القبور قبر سيدي محمد بن الشيخ عبد الرح
الثعالبي، وقبر سيدي احمد بن عبد الله الجزائري تلميذ الثعالبي، وكل من هذ
القبور والمقبرة نفسها اندثرت اليوم، ولا يعرف منها الآن الا الناحية فقد
وهي على سبيل التقريب المكان الذي تقوم فيه القلعة او الحصن الذي بنا
الفرنسيون بالقرب من بناية سينما «ما جستيك» المعروفة اليوم باسم (تيمقا
بناحية باب الواد حيث المصطاف او المسبح البحري المسمى حاضرا بالكتاني

علي بن يحي الجاديري

972هـ/1565م

هو العلامة الفقيه الخطيب ابو الحسن علي بن يحي السلكسيني الجاديري التلمساني كان رحمه الله اماما محققا ذا دراية فائقة في علوم الحساب والفرائض وعلم الكلام والفقه وفن الرسم وضبط القرآن وتفسيره: اخذ عن جماعة من الشيخ احمد بن ملوكة الندرومي وشقرون ابي جمعة ومحمد بن موسى الوجديج والشيخ عيسى الخ...

كان رحمه الله متبتلا خاشعا يضل نهاره صائما منقطعا لنشر العلم وتدريسه بجامع اجادير في تلمسان حيث كان اماما خطيبا به فكان لا يفتر عن الدرس ابدا فهو في الصباح يقرىء في المسجد المذكور الى الضحى الاعلى ثم يخرج من المسجد راكبا دابته الى حقله بوادي الصفصيف فيرافقونه الطلبة الى الحقل وهم في طريقهم ذلك يستفيدون منه ما يمليه عليهم من مسائل العلم والحكمة ثم اذا وصل الى الحقل نزل عن دابته وافرغ السرجين بنفسه ونزع البردعة عن دابته ويربطها بيده ولايترك ذلك لاحد ابدا ثم ياخذ الفاس ويباشر اعمال الفلاحة والزراعة وهو مع ذلك مشتغل بتقرير مسائل العلم للطلبة وشرح ما

يقرأه عليه القارىء من المتون وهكذا دأبه دائما وابدا فاذا عاد من حقله فكذلك يصنع وهو يمشي معهم راكبا او راجلا قائما او قاعدا فلا يفتر عن الدرس اصلا واذا حضر وقت الصلاة قام الى الاذان وفي طريقه اليه يذهب معه القارىء ويصعد معه الى الصومعة فيقرئه في طريقه ذهابا وايابا ويؤذن الشيخ بنفسه ليخرج من الخلاف في اجرة الامام.

تخرج عنه جماعة منهم ولده عاشور، ومحمد الادغم، واحمد ابركان الزكوطي وعلى العطافي، واحمد بن الحاج البيدري واحمد اعراب بن سهلة الراشدي ومحمد بن العباس العبادي، وموسى بن ابي عمران، ومحمد بن جوهرة الوجدي وسعيد المقري، وعبد الرحمن بن موسى، في آخرين.

توفي رحمه الله في اليوم الثاني والعشرين من شهر رجب سنة 972هـ (23 فيفري 1565م).

مصطفى باش تارزى

980هـ - 1572م

هو العالم الفقيه الشيخ مصطفى بن العارف بالله سيدي عبد الرحمن باش تارزى القسنطيني، وهو غير شارح المنظومة الرحمانية ومتقدم عليه، كان رحمه الله اعجوبة زمانه في الفقه والحفظ والورع والتدين وحيدا في معرفة الفلك شاعرا مجيدا ولي فتوى الحنفية بقسنطينة ثم القضاء ثم الخطابة بجامع سوق الغزل ثم بجامع القصبة ثم بسيدي الكتاني له تآليف نفيسة منها تحرير المقال في جواز الانتقال ورسالة في وقف الحنفية. وشرح منظومة الشيخ عبد الرحمن في الحساب مقتصرا فيها على العمل دون تعرض لشرح كلام المتن، توفي رحمه الله سنة 980هـ/1572م ترجم له بلدية الشيخ عبد الكريم الفكون في كتابه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية وخلاصة ترجمته هو ما قدمناه.

جدول تاريخي

950 - 995هـ

1544 - 1587م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث وابرز الاحداث
950هـ - 1544م	ولاية حسن باشا بن خير الدين بيلرباي على الجزائر
952هـ - 1545م	غزو تلمسان والقضاء على السلطان مولاي احمد وحاميته من الاسبان
955هـ - 1548م	احداث بايلك - مقاطعة - تيطرى وتولية اول البابات بها.
957هـ - 1550م	استيلاء دولةالسعديين على تلمسان واحوازها، وانشاء مدينة القليعة بالساحل الجزائري-غربا-
961هـ - 1554م	غزو الاتراك لمدينة فاس وتولية ابي حسون الوطاسي عليها والحاق تلمسان بالجزائر
962هـ - 1555م	تمكن الاتراك من الاستيلاء على اهم مدن عمالة قسنطينة وبجاية
963هـ -1556م	استيلاء الدولة السعدية على تلمسان ثانيا وانتشار الوباء بالجزائر
964هـ - 1557م	انتصار حسن بن خير الدين على السعديين وايقاعه بالاسبان في وقعة ما زغران
966هـ - 1559م	غزو حسن باشا لنواحي قلعة بني عباس والمسيلة
968هـ - 1561م	تملك احمد امقران على نواحي جبل كوكو من بلاد القبائل
968هـ - 1561م	ظهور شركة لانش Lenche الفرنسية لتأسيس مراكز صيد المرجان بالسواحل الجزائرية.

969 هـ - 1562 م.	تقسيم القطر الجزائري الى اربع مقاطعات.
975هـ - 1567م	انهزام جان جاسكون الاسباني عن مدينة الجزائر وخيبته.
976هـ - 1568م	مزاحمة الانكليز لشركة صيد المرجان الفرنسية بالساحل الجزائري
977هـ 1569م	مفاوضة فرنسا للحكومة الجزائرية حول فتح قنصلية لها بالجزائر وامتلاك تونس
983هـ - 1575م	سير الحامية التركية الى حماية عبد الملك بن الشيخ بفاس
986هـ - 1578م	انضمام مملكة مراكش الى الامبراطورية العثمانية
987هـ - 1579م	اول تعاقد تجاري وقع بين حكومة الجزائر والانكليز
988هـ - 1580مم	تعيين اول قنصل فرنسي بالجزائر
992هـ - 1584م	مجيء الجالية الاندلسية المهاجرة من بلنسية وكالوسا الى الجزائر

عصر الباشاوات

995 - 1069 هـ
1587 - 1656م

وقع في هذه السنة تغيير في سياسة الدولة العثمانية نحو ولاة الجزائر الذي
امضوا حياتهم بالجزائر يحكمونها حكما دكتاتوريا مطلقا ويتصرفون في شؤون
تحت لقب (بكلربك) وهم يعملون فيها عمل الملوك المستبدين - وان اعترفو
بسيادة الاستانة عليهم - ولقد تطلع بعض هؤلاء الولات إلى أن ينشئو
لانفسهم مملكة تضم المغرب الاسلامي بأجمعه اليهم، بل انهم حاولوا الحد م
سلطان جيش الانكشايرية العظيم الجند اساسامن اهل بلدان الأناضول اعتماد
على الفرق المجندة من قبائل زواوة، بيد أن مطامعهم هذه اقلقت بال سلاطين
استانبول. فعقدوا عزمهم على تغيير النظام باستعمال الباشوات على الجزائر [1]
فاقتضى لذلك حذف لقب البيلر باي الذي كان يحمله حاكم الجزائر وصا
يلقب بالباشا [2] وحددت مدة ولايته بثلاث سنوات احتياطا من ان تطول
مدته فيسيطر على شؤون الولاية... وشاركه في نفوذه الوجاق، أو قوة الجيش
مع الديوان، وكان اول باشاوات الجزائر: دالي احمد باشا.

ولاية دالي احمد باشا:

تولى سنة 995هـ - 1587م ولا نكاد نعلم عن تاريخ ايام حكمه شيئ

---

(۱) دائرة المعارف الاسلامية.

(2) اصل هذه الكلمة هو جزء من باش آغا ومعناها رئيس الرؤساء وهي مشتقة من «بادشاه» الفارسية. وهما كلمتان: «باد» بمعنى تخت أو عرش، و «شاه» بمعنى صاحب أو سيد، أي سيد العرش او ملك. وكان لفظ باشا يطلق على ارباب الاقلام والسيف في مراتب معينة من نظام الجندية ثم توسعوا فيه فصار يمنح كلقب شرفي للمدنيين من غير رجال الدين، ثم بعد سقوط الخلافة العثمانية وق الغاؤه كما وقع ذلك في معظم الدول العربية.

سوى انه تولى بنفسه قيادة المراكب التي غزت شواطىء اسبانيا وكورسيكا وصقلية ومملكة نابولي والدول البابوية (996هـ/1588م) وانه ذهب على رأس بعثة عسكرية الى طرابلس الغرب لاخضاع شوكة الثائرين هناك فكان فيها حتفه وذلك بعد سنتين من ولايته 998هـ - 1589م.

ولاية خضر باشا:

استلم منصب باشا الجزائر في شهر شوال 997هـ اوط 1589م، وكان من كبار رجال القرصنة الجزائرية، نشطا في سائر حركاته وغزواته البحرية عاملا على تنشيط غيره في ذلك، ولم يؤثر عنه - فيما علمناه - كبير عمل في ولايته هذه المرة سوى غزوه لاعمال مجانة الخاضعة لاحمد امقران فقضى على الثائرين هناك واحتل المدينة سنة 998هـ - 1590م ثم اندفع بامر السلطان العثماني لغزو اسطول مرسيليا المتمرد على ملك فرنسا حليف تركية اذ ذاك.

وفي نفس السنة هذه تحركت زوبعة بحرية هوجاء فتحطم لهبوبها اسطول الجزائر الراسي بثغر العاصمة.

واحيط الباشا بتهم سياسية لاندري مكانها من الصحة فقضت على سمعته لدى الباب العالي فاستدعاه السلطان الى استانبول فحمل اليها مكبلا في الاغلال سنة 999هـ - 1591م. وفي ايامه كان ارتفاع عدد وحدات الاسطول الجزائري الى 75 قطعة.

ولاية الحاج شعبان باشا:

هو شعبان بن يحيى تأمر على الجزائر في ذي القعدة سنة 999هـ - اوط 1591م، وفي ايامه اشتد لهيب الثورةببلاد زواوة فانتشر اوارها غربا وجنوبا الى أن كاد يتصل بقاعدة ولاية تيطرى، واجتهد الباشا في اخمادها فلم يحصل على طائل، ويومئذ هبت رياح وعواصف قاصفة على مرسى الجزائر فتحطم من تأثيرها الشديد الرصيف الرابط بين المرفأ والمدينة.

وفي ايامه تعين القنصل الفرنسي دوفياس بالعاصمة ثم جاء دور ترسيم السفير الانكليزى بعده..

ولاية مصطفى باشا:

هو مصطفى بن قية باى تولى الحكم بالجزائر اولا كنائب عن الباشا شهر ربيع الاول سنة 1003هـ - نوفمبر 1594م حاول اطفاء هيجان الثو القبائلية التي نشبت على عهد سلفه شعبان باشا فلم ينجح بل انتشر لهيب واندلع لسانها الى متيجة غربا وما وسعه في ذلك سوى اقامة حصن بسر الغزلان[1] لمقاومة من هنالك من العصاة وقمع الحركة الثورية بتلك النواح ويومئذ دعى الى استانبول فغادر الجزائر ثم اعيد اليها فحكم بها ثلاث اشهر تخلى عنها.

ولاية خضر باشا (ثانيا)

تولى على رأس الحكومة الجزائرية للمرة الثانية في ذي الحجة سنة 1003ه اوط 1595م وكانت ايامه كلها فتن وثورات وكثر حوله الاضداد والخصوم فجمع اليه الباشا الكراغلة والاعراب ويومئذ نشأ التنافس بين هؤلا والاتراك واشتد هيجان الشعب واضطرابه وتصدى الباشا لمقاومة المنشقير والمتمردين وكثر الشغب فعزل الباشا خضر من سنته وجيء بسالفه مصطفى فمكث اياما قليلة ثم انعزل.

وفي هذه الاونة نجد ملك فرنسا (هنري الرابع) يستنجد بالحكوم الجزائرية لتحرير مدينة «مرسيليا» من يد «الهيجينوت» وهم بروتيستانت فرنسا المعتنقون مذهب «كلفن» ومن يد الاسبان أيضا.

ولاية دالي حسن باشا:

تولى باشوية الجزائر سنة 1007هـ - 1599م وكان يكنى ابا ريشة وذكر بعضهم ان المتولى يومئذ على عرش الجزائر هو مصطفى جاقرجي باشي ثم جا بعده ابو رشيد؟... والصحيح هو ما ذكرناه بدليل ما اورده صاحب البستا في ترجمة الشيخ عبد الرحمن بن موسى التلمساني المتوفى سنة 1011هـ حيث قال: وهذه الابيات الاتية نظمها - المترجم - عند هدم الباشا حسن حصر

---

(١) اصل الكلمة هذه لاتينية وينطق بها هكذا «اورزا» ثم حرفت الى ما هي عليه الآن.

المرسى الاعلى - بوهران - وهروب النصارى دمرهم الله للحصن الاسفل وهي هذه:

هنيئا لك باشا الجزائر والغرب	بفتح اساس الكفر مرسى قرى الكلب
ستفتح وهرانا ومرساتها التي	اضرت بذا الاقليم طرا بلا ريب
فثق بالاله واستعن به واصبرن	ينلك المراد يا اميري ومطلبي
وقد وعد الرحمن جل جلاله	مع العسر يسر قد اتى ذاك في الكتب

وبعد ان اتى على القصيدة برمتها قال: وكان دخول المسلمين هذا الحصن ليلة السبت خمسة عشر من رمضان عام 1007 هـ (13 افريل 1599م) وذلك هو نفس تاريخ ولاية دالى حسن باشا على الجزائر.

طموح الغرب نحو المغرب العربي

جاء في مشروع م. لوتسيو الايطالي الذي حرره أو قرره على رأس القرن السادس عشر الميلادي ان ملك الاسبان يمكنه أن يصلى الحرب في افريقية ويطرد الترك منها، وله الحق في الاستيلاء عليها، وانه يجب على البابا أن يجهز الاساطيل لمحاربة الترك في البحر، ولا ادري والله من أين اكتسب هذا الرجل الايطالي هذه السطوة أو السلطة التي اوحت اليه باصدار امره الى الملوك والباباوات بالغزو وشن الغارات والحروب ضد المسلمين وأوجب عليهم ذلك؟ ولا كيف اعطى لهم الحق في ذلك؟... اللهم الا ان يقال ان ذلك عن تعصب وحمية وجهالة فيحتمل!... لا سيما وان البابا (ابان القرن الخامس عشر والسادس عشر) منح نفسه حق توزيع اراضي افريقية على الدول الاروبية باعتباره ممثلا للارادة الالهية

ولاية سليمان باشا:

هو سليمان بن قاطانيا ويعرف بالعلج، تولى على الجزائر سنة 1009 هـ/1601م واظهر الاحداث في دولته هو ذلك الانقلاب العسكري الناشيء عن طغيان جيش الانكشارية ومحاولتهم الاستبداد بتعيين رئيس الحكومة الجزائرية من بينهم فاصبحت عندئذ سطوة السلطان العثماني ضئيلة جدا بهذه الديار، وذلك ما يشبه عصر الفوضى في التاريخ الروماني (192 - 270م)

حيث تدخل الجند في اسناد الامبراطورية الرومانية الى من وافق هواه والتاريخ يعيد نفسه.

ومما كان ان وقع في ايام هذا الباشا اخفاق الاسبان في حملتهم على الجزائر (1009- 1601م) وهم في سبعين سفينة وعشرة آلاف جندي وذلك باشتراك كل من حكومة جنوة وصقلية وسردانية ونابولي، والطوسكان، وبارما، ومودينا، ولابروطان، وجزر الباليار، تساندها قوات البابا، وهذه الحركة حقا تعد من كبريات الحملات الصليبية التي انتظمت ضد الجزائر، بقيادة الجنوبي الايطالي جان اندري دوريا حفيد اندري دوريا الاميرال المشهور، أو ما وقع كذلك من تكرار المحاربة بين احمد امقران سيد مجانة وجيوش الباشا بنواحي حمزة والساحل الجزائرى وفيها كانت وفاة احمد امقران بجمعة الصهريج من بلاد زواوة فخلفه ولده ناصر.

ولقد حدث خلال السنتين التاليين من تاريخ ولاية الباشا سليمان زلازل وطواعين اعقبها جفاف ومسغبة شديدة وابلغ ما كان ذلك في اعمال قسنطينة.

ولاية خضر باشا (ثالثا).

عاد الخضر لمنصبه هذا بالجزائر للمرة الثالثة سنة 1011هـ - 1603م ويؤرخه الافرنج بشهر ماي عام 1604م واستعمل الشدة والقسوة في معاملته للرعية، وكانت بينه وبين الحكومة الفرنسية عداوة منشأها تخلف فرنسا عن دفع ما ترتب بذمتها من الاتاوة والواجبات في مقابلة مراكزها التجارية بالسواحل الجزائرية وما ارتكبته كذلك من المخالفات لنصوص المعاهدة السابقة الذكر واصبح مدلول كلمة الباستيون -Bastion- المركز التجاري - عند الفرنسيين بمعنى الحصن!. وذلك بالاضافة الى ما قام به الفرنسيون من شراء القمح من الاهالي وبيعه في اوربا رغم القحط الشديد الذي كان قد لحق وعم بلاد الجزائر فأساء ذلك الحكومة الجزائرية وحدثت عن ذلك مشاكل واحداث سياسية فعمد الباشا الى تحطيم المركز الفرنسي بالقالة والقاء القبض على القنصل الفرنسي المتصرف هناك ولم يكن ليسمح الباشا بالعفو عنه الا بعد قبضه لضمان مالي جسيم.

واشتكت فرنسا الى حكومة استانبول، ولكنها لم تستطع ان تلزم حكومة الجزائر بشيء فاقترحت إرسال مبعوث خاص الى تونس والجزائر، وهكذا تمت رحلة (دي بريف) التي تعتبر من اقدم البعثات السياسية الى المغرب، ولم ينجح دي بريف في اقناع حكومة الجزائر باعادة الامتياز، ولذلك انصرف نشاطه الى مشكلة افتكاك الاسرى [1]

ويومئذ سعت فرنسا في أخذ تعويضات عن ذلك من طرف الباب العالي باستانبول، واتصل الباشا بالمبلغ فصرفه الى القرصنة، فعزله السلطان من سنته وبعث مكانه محمد قوصة - أو كوسة - باشا.

ولاية محمد قوصة باشا

كانت ولايته سنة 1011 هـ - 1603م وأول ما قام به من الاعمال هو أن قبض على سلفه الباشا خضر فقتله خنقا [2] وصادر جميع امواله وممتلكاته وأبرم مع الحكومة الفرنسية معاهدة يتلخص مضمونها في هذه البنود الاربعة:

البند الاول: تأمين المراكب الفرنسية من القراصنة الجزائريين في كامل البحر الابيض المتوسط.

البند الثاني: تحمل الحكومة الجزائرية لضمان ما عسى أن يقع لهذه المراكب من العطب والخسائر من قبل القراصنة.

البند الثالث: عتق جميع الاسرى الفرنسيين.

البند الرابع: اقامة مركز القالة واعادته من جديد.

ولكن هذه المعاهدة لم يرض عنها الديوان فاحدث لذلك ضجة في الاوساط الجزائرية المسؤولة وامتنع اعضاء الحكومة وابرز الشخصيات الحاكمة من المصادقة عليها وهدد الباشا بالقتل وبلغ ذلك آذان السلطان بالاستانة فأوفد من طرفه مأذونا لحماية الباشا وتنجيز المعاهدة فأصر الديوان على الرفض ولم يلبث الباشا ان توفي.

---

(1) د. صلاح العقاد: المغرب في بداية العصور الحديثة، ص 84 ط القاهرة 1962-1963

(2) لا يزال قبره ظاهراً معروفاً بمقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالعاصمة منقوش على شاهده تاريخ وفاته هكذا بهذه العبارة: «توفي آخر ذي الحجة متمم سنة 1013 هـ» - ماي 1605م -

ولم يبلغنا عن تاريخ هذا الباشا بالجزائر سوى ما قدمناه أو ما كان من رده لغارة الاسبان عن مدينة أزفون بالساحل وتحطيمه للمركز الذي اتخذه الفرنسيون بالقالة بسبب تخلف هؤلاء عن تسديد المغرم المترتب عليهم لمدة ثلاث سنوات وقد وقع ذلك مباشرة برئاسة مراد رايس وجنود عنابة: سنة 1013هـ - 1604م.

ولاية قوصة مصطفى القاجي:

تولى باشوية الجزائر في شهر ذي الحجة سنة 1013هـ - افريل 1605م وسعى بكل مجهوداته في تطبيق نص المعاهدة السالفة الذكر فعارضه الديوان بسبب ما ظهر على حكومة فرنسا يومئذ من التهاون بالشروط التي هي في مصالح الجزائر واخيرا رضخ الديوان لرأي الباشا الجديد امتثالا لامر السلطان وقبل تنفيذه المعاهدة وتطبيقها على أن يكون الاعتراف بها ودخولها في حيز التنفيذ بعد أن لا يبقى من اسرى المسلمين الذين هم بمرسيليا تحت تصرف الفرنسيين احد فكان ما أراد.

وحدث في السنة التالية من ولاية القاجي هذا (1014هـ/1606م) [1] ان حارب الاسبان اهالي عمالة وهران فاستنجد هؤلاء بباشا الجزائر فانجدهم بالحامية فاخفقت وضاع من الجيش نحو الثلاثة ارباع، ولكن الباشا نجح في اخضاع من هناك من الثوار، ويذكر أن عاقبته كانت في السجن بسبب تصلبه في تنجيز المعاهدة مع فرنسا، وفي السنة هذه ظهر الوباء بالعاصمة وفيها كانت وفاة مصطفى باشا القاجي.

ولاية رضوان باشا:

كنيته ابو نعيم رضوان بن عبد الله وهو من مماليك رمضان باشا، تقلد

---

(١) ان من اعظم احداث هذا العصر وارهاصاته المتقدمة بين يدي تقهقر ال عثمان ان انعقدت في هذه السنة بين الدولة العثمانية والنمسا معاهدة ثوروك situolorok حيث تنازلت فيها تركية عن قبض الجزية أو الاتاوة السنوية التي كانت تدفعها لها النمسا، وهي ثلاثون الف دوكة واكتفت بقبض مائتي الف ريال مغرماً حربياً... وكان من الميزة لهذه المعاهدة ان الدول المسيحية امكنها ان تناقش الدول العثمانية في كيفية تحرير الصكوك والمعاهدات وقبل ذلك كانت الدولة تملي مثل هذه المعاهدات باللغة التركية وتبلغها اعداءها وكان عليهم أن لا يراجعوا فيها.

منصبه هذا بالجزائر في شهر صفر سنة 1016هـ - ماي1607م.

واشهر الاحداث في ايامه غزوة الطوسكان [1] وحملتهم على مدينة بونة انتقاما لما قام به الاتراك من قبل في ليفورنيا ومستغلين مع ذلك توتر العلاقات بين فرنسا والجزائر، فنزل هؤلاء الطوسكان بميناء عنابة فنهبوها وسلبوا ارزاقها واحتلوا المدينة ايضا فغنموا ما بها من مغانم كثيرة واسروا منها 1500 شخصا ثم ادبروا عنها، وفي هذه الوقعة كان استشهاد والي قسنطينة محمد بن فرحات الذي جاءهم منجدا.

كما انه حدث في ايام هذا الباشا وحشة بين الحكومة الجزائرية وفرنسا بسبب مدفعين من الفولاذ كانا تحت تصرّف القرصان المفلمنكي البلجيكي المدعو سيمون دانزير كان يعمل بهما لفائدة الجزائر ففر بهما يوما الى فرنسا وقدمهما هدية لاحد كبار ولاة فرنسا وهو الدوك دوكـيز، فغضب لذلك ديوان الجزائر ورفع قضيته الى حكام فرنسا مطالبا باسترجاع المدفعين المذكورين ومعاقبة القرصان البلجيكي المذكور فأهملت القضية ورفض النصارى الاصغاء الى هذه الدعوى ويومئذ (1018هـ/1609م) اعلنت حكومة الجزائر قطع العلائق بينها وبين فرنسا والغت معاهدة احترام مراكبها في البحار وشرعت حينئذ في شن غاراتها ضد السواحل الفرنسية فظفرت منها بغنائم اربت على نحو مليون ليرة.

وثأرت فرنسا من الجزائر بتنظيم غزاة شنتها على ميناء مدينة برشك - بين شرشال وتنس - فحطمتها ثم ذهبت شرقا الى شواطىء جيجل وهنالك قذفتهم المدافع الجزائرية بقنابلها فانسحبت الحملة الفرنسية الى ليفورنيا.

ولاية قوصة مصطفى «ثانيا»

عاد هذا الباشا الى منصبه للمرة الثانية بظهير من الدولة العالية مؤرخ في جمادى الثانية سنة 1019هـ - اوط 1610م، وفي ايامه هذه اشتهرت البحرية الجزائرية بشدة الشكيمة وقوة البأس، فجاء يومئذ الانكليز ومعهم الهولانديون والاسبان فغزا الجميع تونس ثم عرجوا على السواحل الجزائرية

---

(1) امارة بوسط بلاد ايطاليا.

فدمروا منها نواحي جيجل وخربوها، وفي صيف هذه السنة هجم الطوسكانيون على قرية تبعد بتسعين ميلا غربي الجزائر واختطفوا منها 500 شخص.

ثم بعد سنة من ولاية هذا الباشا ظهر الوباء بالجزائر ففتك بعدد وافر من الانفس، وفيها كان تأسيس المسجد الجامع بمدينة القليعة الساحلية (1020هـ/1611م) ثم أننا لا نعلم بعد هذا من مهام حوادث عصر هذا الباشا سوى وقوفه في وجه ثوار زواوة فأخضعهم ونشره الامن في البلاد، او ما كان من حملة الاسبان على مدينة جيجل بقيادة «داسنتاكروز» وايقاد النيرأن فيها، واخيرا تخلى عن منصبه لابن اخيه مصطفى باشا فتولى مكانه يوم 26 جمادى الثانية عام 1020هـ/6 سبتمبر 1611م.

ولاية حسين الشيخ باشا:

كانت ولايته سنة 1022هـ - 1613م وعلى عهده كان ذلك الخلاف المشهور بين حكومة تونس والجزائر في شأن الحدود فكان هناك قتال بين الطرفين انتصر فيه الجزائريون ثم وقع الاتفاق من الجانبين على جعل نهر سراط كحد فاصل للتخوم الجزائرية الشرقية.

وبسعى هذا الباشا وقع عتق كثير من الاسرى المسلمين الذين هم بفرنسا، واظهرت الدولة الفرنسية يومئذ تقربا من الحكومة الجزائرية فاستجابت لعتق الاسرى ولم تشترط في مقابلة ذلك سوى تأمين مراكبها واحترام اهلها، ثم نقضت غزلها واخلفت وعودها فأبطلت المفاوضات وتعطل المشروع وجاء اسطول الدوك دوكيز فانتهب من الجزائر مائتي اسير.

وتخلى الباشا المذكور عن منصبه فتولى مكانه خزناجي حسين سنة 1025هـ/1616م ولكننا لا نعلم عن سيرته شيئا.

ويذكر بعض مؤرخي الافرنج ان الجزائر حصلت في هذه الفترة على ما يزيد عن ثلاثة ملايين ليرة مغنما، واتخذ الناس يومئذ البنايات الفاخرة والقصور الضخمة الجميلة.

ولاية سليان قاطانيالي باشا:

الظاهر أن أصله من مدينة «قاطانيا» بصقلية وكان تعيينه لمنصبه هذا بالجزائر في اليوم الثاني من شهر رمضان المعظم سنة 1026هـ - 3 سبتمبر 1617م وفي ايامه تظاهرت الدولة الفرنسية بمظهر الصداقة للجزائر واخذت مصانعة الباشا وجاءت بعتق طائفة من الاسرى كتكفير لما سلف منها من المخالفات فصانعها الباشا بالمثل، والحرب خدعة!...

حتى اذا اكتمل نزول الاسرى بمدينة الجزائر انبرى الاتراك حينئذ الى مهاجمة مركز القالة الفرنسي فهدموه انتقاما لما سبق من فرنسا حتى لم يبقوا فيه حجرا على حجر واسروا اهله، وفي هذه السنة دفعت فرنسا بخمسين سفينة مقاتلة بهذا البحر.

وفي ايام سليان هذا بلغت اساطيل الجزائر بقيادة مراد رايس الى جزيرة مادير بالمحيط الاطلنطيكي بل والى شواطىء جزيرة ايزلاندة باعلى الشمال فعادت بغنائم كثيرة.

ثم كانت وفاة الباشا يوم الاربعاء ودفن يوم الخميس، جمادى الثانية سنة 1027هـ - فاتح جوان 1618م.

ولاية حسين الشيخ باشا (ثانيا)

اعيد اليه زمام الحكومة الجزائرية للمرة الثانية عصر يوم الاربعاء 29 رمضان سنة 1027هـ - 20 سبتمبر 1617م فاشتغل اولا باخماد نار الفتن والاضطرابات الداخلية واعادة الهدوء والدعة للبلاد، وبعد سنتين من ولايته كانت حادثة تحطيم الاسطول الجزائري المرابط بثغر العاصمة بسبب زوبعة بحرية وعواصف شديدة ذهبت ضحيتها الميناء مع خمس وعشرين مركبا.

وفي اوائل رمضان سنة 1029هـ - 8اوط 1620م ظهر في الميدان السياسي من سعى من تجار فرنسا في رأب الصدع ونشر الوئام بين الحكومتين الجزائرية والفرنسية وعمل على استرجاع المدفعين السالفي الذكر الى الجزائر مع من وجد هنالك في بلاد الثغور الفرنسية من اسرى المسلمين فانشرح لذلك صدر الباشا واخذ هو بدوره يعمل على تحرير اسرى الفرنسيين واوفد سنان

اغا مبعوثا مفوضا الى مرسيليا بفرنسا وكممثل لحكومة الجزائر لدى البلاط الملكي هناك، ليتفاوض في موضوع حصن فرنسا بالقالة وما كادت الاتفاقات تتم بين الطرفين حتى احاطت بها الريب والشكوك وداهمتها اشاعات وقلاقل زائفة مضمونها ان احد قرصان الجزائر- رجب رايس- قد استحوذ على سفينة فرنسية بخليج مدينة ليون فحطمها وفتك بأصحابها؟...

ورغم بطلان هذه الاشاعة المزورة فان الجو الفرنسي تكهرب واظهر اهل مرسيليا عدوانهم للجزائريين بتحطيم مفوضية الدولة التركية بمرسيليا وتقتيل اهلها بما فيهم من السفير سنان آغا نفسه غدرا، ولكن العدالة الفرنسية ساءها ذلك فلم تكن لترضى عن هذا الاعتداء الشنيع فحاكمت شرذمة ممن شاركوا في هذه الجريمة الاثيمة وساقت اربعة عشر منهم الى المشنقة، غير ان الجزائريين راعهم ما فعله اهل مرسيليا بالمفوضية التركية وعظم عليهم موت ممثل حكومة الجزائر هكذا غدرا لمجرد فرية وبهتان فاعلنوا حرب القرصنة ضد المراكب الفرنسية واطلقوا العنان للقرصان في القاء القبض عليها اينما حلت وارتحلت وأسر يومئذ جميع الفرنسيين الذين وجدوا بالجزائر.

وعادت العداوة جذعة وانقطعت العلائق بين الطرفين.

ثم اعتزل الباشا حسن الحكم سنة 1028هـ - 1619م وحل محله موقتا الباشا سليمان ويقال أن المستخلف هو خسرف باشا تأمر يوم الاحد 26 شعبان 10 أوط من هذه السنة؟... وكلاهما لا نعلم عنه شيئا؟...

ولاية خضر باشا:

قيل انه هو نفسه خضر باشا السالف الذكر وانه تولى الحكم بالجزائر اربع مرات؟... فان صح ذلك فيكون تاريخ موته غير ما ذكرناه سلفا؟...

وايا ما كان فان الخضر هذا تولى عرش الجزائر سنة 1029هـ - 1620م فناهضته دولة فرنسا فقاومها وكسر شوكتها، ثم اعادت عليه الكرة حتى تمكنت من تنفيذ رغبتها باقامة وانشاء مركز تجاري لهابالقالة وانزلت به الحامية، ولم يكن ليستقر به الفرنسيون حتى حمل عليه الاتراك فحطموه وقضوا على من كان به من الجند والحامية.

وفي هذا العام حدث ما كنا أشرنا اليه في عهد ولاية حسين الشيخ باشامى التحاق الوفد الجزائري بفرنسا للتفاوض في شأن المركز الفرنسي بالقالة، فنزل بمرسيليا وفي اثناء وجود الوفد هناك شاعت الاخبار بأن سفينة فرنسية قد تعرضت لهجوم الجزائريين بهذا البحر، فما كان من السلطة الفرنسيةويومئذالا أن قتلت اعضاء الوفد غدرا، وحينئذ اعلنت البحرية الجزائرية حملتها العنيفة على الملاحة الفرنسية حيثما وجدت في البحر الابيض المتوسط، الامر الذي أدى التجارة الفرنسية الى خسارة باهظة وتدهور فادح حيث بلغت الخسائر فيما بين سنتي 1629و 1634م الى اربعة ملايين و 752 ألف جنيه[1]

وفي صفر 1030 هـ- ديسمبر1620م جاء الاميرال الانكليزي «مانصيل» الى الجزائر في حملة تهدف الى تأديب قرصان الجزائر وهي تألف من ست مراكب ملكية واثني عشر سفينة تجارية وكان الاميرال يحمل معه امر ملكه جاك الاول الناطق بتخليص اسرى لانكليز وفدائهم، والواقع ان هذا المشروع الانجليزي كان يهدف في الاصل الى الاحتفاظ بالصلح مع اسبانيا عن طريق تقديم مثل هذه الخدمة وهو لم يصب غير قدر يسير من النجاح، ذلك أن المشروع كله كان مضطربا غير محكم ورفض الديوان الجزائري قبوله ثم حاول الاميرال يومئذ التوصل الى غرضه بالمقاومة الحربية فلم ينجح، ولم يلبث أن عاد الاسطول الى انجلترا في يونيو - جوان - التالي [2] وتعد هذه الحملة ومن اقدم حملات بريطانيا ضد الجزائر وكانت الجزائر يومئذ تملك اسطولا ضخما بالنسبة الى ذلك العصر يشتمل على 80 بارجة وعلى عدد وافر من طائفة الرياس.

التزاحم الهولاندي الانكليزي بالجزائر:

لقد اثارت هذه المراكز التجارية التي يحتلها الفرنسيون بالساحل الشرقي من الشواطىء الجزائرية ازدحاماً شديدا واضطراماً عظيماً في صدر المتنافسين الغربيين، وخاصة منهم الهولانديين والانكليز واهل جنوة، فهم كانوا من

(1) الدكتور صلاح العقاد: المغرب العربي ص 45

(1) تاريخ العالم ج 6 ص 619-620

اسبق الناس ركضا بهذا الميدان كل ذلك طمعا وحرصا على احتكار تجارة الرقيق والمرجان واستئثار بخيرات البلاد وتركيزا لسطوتهم القرصانية على ضفاف غربي هذا البحر....

ففيما بين سنتي 1029 - 1033هـ (1620 - 1624م) حلت قافلة هولاندية بحرية بمياه الجزائر تشتمل على ست وحدات حربية واتصل اهلها بالديوان فاظهروا له رغبتهم في النزول بمراكز المرجان المنبثة بالشواطىء فلم يعرهم الديوان بالا ويومئذ كشف هؤلاء الهولانديون عن عدواتهم فجاؤوا بطائفة من الاسرى المسلمين فاعدموهم شنقا امام الجزائر وعلى مرأى ومسمع من السكان ويومئذ استجاب الديوان لهولاندة فعقد معها معاهدة سلم.

وفي نفس هذه الاونة من التاريخ غزا الانكليز عاصمة الجزائر محاولا هو بدوره أيضا احتكار التجارة والاستقرار بالمراكز المذكورة فرمى المدينة بالقنابل واستقر حيث اراد بشواطىء الجزائر ومكث بها عدة سنوات يزاحم الهولانديين بدون جدوى، ثم ضمت المجهودات الى بعضها بعض وتعاقدت الشركتان على العمل معا فلم يقدر لها النجاح.

ويذكر الاخباريون ممن عني بتدوين احداث هذا العصر انه حدث خلال سنة 1030هـ - 1621م وباء رهيب بولاية تونس وانتشر منها الى الجزائر فهلك منه نحو خمسين الف نسمة ويعرف هذا الحادث بالوباء الكبير وبأثره كان انهزام الاتراك امام الاسبان بسهول الهبرة من اعمال وهران.

وهنا تذكر لنا الرواية التاريخية عدة باشاوات اعقبوا خضر باشا من غير أن تعطينا تفاصيل عنهم ولا يسعنا نحن الا سرد اسمائهم هكذا مجردة تأدية لامانة التاريخ: اولهم مصطفى حافظ كوستة أو قوصة؟ سنة 1030هـ 1621م ثم حسين باشا قائد سوسة تولى يوم السبت ثاني شوال من هذه السنة نفسها، وبعده حسين بن الياس باي عام 1032هـ - 1623م، ثم في نفس السنة تولى بعده مراد باشا الاعمى 22 رمضان - جويلية - ثم ابراهيم باشا يوم 14 جمادى الثانية 1033هـ - افريل 1624م.

مدى اتساع الحرب البحرية:

تقول التقارير الاوربية المختلفة انه فيا بين سنة 1613 وسنة 1621 م/1022 - 1030هـ غنم الجزائريون خلال حروبهم البحرية ضداوربا اكثر من ثمانمائة سفينة محملة (أي بمعدل مائة سفينة في كل سنة) وهذا تفصيلها:

447 سفينة هولاندية

193 سفينة فرنسية

120 سفينة اسبانية

60 سفينة انكليزية

56 سفينة المانية

876

ولا تدخل في هذا الحساب السفن الصغيرة التي كان المجاهدون الجزائريون يغنمون في أسرها اثناء غاراتهم المتواصلة على السواحل الاسبانية، كما لا تدخل في هذا الحساب السفن الطليانية التي استولى عليها الجزائريون خلال هذه المدة[1].

ولاية خسرف باشا:

تولى منصب الباشاوية بالجزائر يوم22ذي الحجة 1034هـ - 25 سبتمبر 1625م ويذكر ان اسمه اسراف؟...

كثرت في ايام هذا الباشا الثورات وانتشرت بنواحي جبل كوكو شرقا الى اعمال تلمسان غربا ولج الانكشايرية بالعاصمة في عتوهم وطغيانهم فبعث بهم الى نواحي الثوار فاخمدوا حركاتهم وسكنت العاصمة.

وفي اليوم الثالث من شعبان 1034هـ - 11 جوان 1625م اوفدت فرنسا سفيرها لدى الباب العالي باستانبول لاسترضاء السلطان وطلب العفو عن الاسرى والحصول منه على تصريح بعودتها الى فتح باب المعاملة مع الجزائر

---

(1) احمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا: ص 421ط قسنطينة - الجزائر - 1968. المغرب العربي لصلاح العقاد: ص 45ط القاهرة 1992م

والنزول بتلك المراكز التجارية المنبثة بالساحل الجزائري فاذن لها السلطان في ذلك وامر الباشا بالعفو عن الأسرى وجاء القنصل الفرنسي الى الجزائر فنزل بهذه المؤسسات وتولى بنفسه ادارة حركتها التجارية نتيجة للمفاوضات التي قام بها التاجر الفرنسي (سانصون ناباللون) sanson napallon لدى حكومة الجزائر. وهو احد ابناء كورسيكا الذين سبق لهم العمل في السفارة الفرنسية بالآستانة، وتقضي خطته بأن تضمن الحكومة باسم الملك تنفيذ عقد الامتياز، وهذه المفاوضات هي التي أدت الى عقد اتفاقية بين البلدين في شهر المحرم 1038هـ - سبتمبر 1628م كما سيأتي

ولقد بلغت المراكب التركية الجزائرية في اعمالها القرصانية ايام هذا الباشا مبلغا عظيما فانها بلغت الى ايزلاندة باعلى الشمال واسرت منها اربعمائة اسير، وبلغت كذلك الى سواحل أكادي Acadie بامريكا الشمالية، ثم كانت وفاة الباشا خسرف يوم 22رجب 1035هـ - 19افريل 1626م

ولاية حسين باشا:

وبعد فترة قليلة تولى الحكم بالجزائر حسين أو حسن باشا سنة 1036هـ 1626م وفي السنة بعدها قضى على ثوار تلمسان ومثل برؤسائهم، وفي ايامه اتصلت الجزائر بمائتي اسير ممن كان بمرسيليا من الجزائريين كما انها حصلت على المدفعين المغصوبين منها الموجودين بفرنسا منذ ولاية رضوان باشا 1016هـ - 1607م وبذلك فتحت فرنسا طريقا لتمركزها بالجزائر وبذلت في ذلك اموالا شتى قدم بعضها رشى لولاة الامر وبعضها الاخر قروضا واعتمادات مالية واموالا باسم الدولة، واستطاع بذلك سانصون نابولون المفوض الفرنسي ان يحصل من الدولة التركية بتاريخ 29المحرم 1038هـ - 28 سبتمبر 1628م على تصريح باقامة محرس أو مركز تجاري حصين عرف باسم باسطيون Bastion على الساحل الشرقي واحتكار صيد المرجان بالسواحل الافريقية نظير دفع ستة عشر مليون فرنك سنويا ولا يسمح لسفن الدول الاخرى بالاتجار فيها وتمت المعاهدة بين الحكومتين الجزائرية والفرنسية

في 20 المحرم 1038 هـ/19 سبتمبر 1628م على الشروط الاتية:

أ - تبادل اطلاق الاسرى

ب - احترام مراكب الطرفين

جـ - رفع الاسر بين المتعاهدين

د - حماية المحارس والقنصلية الفرنسية ورجالها

ولهذه الاتفاقية أهمية خاصة، فكانت المعاهدات التالية تشير اليها دائما على انها الأساس في العلاقات الفرنسية الجزائرية، ويسمى ما جاء فيها من امتيازات بالحقوق المعتادة.

ولم يكن مصرحا للمفوض الفرنسي سانصون نابولون كما ترى بهذه المعاهدة أن يجعل من هذه المحارس التجارية حصونا أو يتخذها وسيلة للتدخل في شؤون البلاد ولكنه استعملها لاغراض سياسية فاتخذها مراكز للاستطلاع والتجسس واتخذ منها محطة لتموين اعداء الجزائر ومحاربيها من الدول الاجنبية والتجسس لها[1] ثم تناول تصدير القمح خلسة. وامتدت يده الى متاجر شتى من بلاد المغرب متوسعا فيها.

وقعة السطارة وترسيم التخوم الشرقية:

السطارة أو الستارة هي اسم مكان قرب الكاف من اعمال تونس وبها كانت هذه الوقعة الشهيرة بين التونسيين والجزائريين، في 13 رمضان 1037 هـ - 17 ماي 1628م وبسببها تجدد الخلاف بين اهل هذين الولايتين حول التخوم والحدود المقررة بينهم منذ سنة 1023 هـ - 1614م فانتصر فيها اهل الجزائر وغنموا من سلاح تونس اثنين وعشرين مدفعا ويومئذ بادر والي تونس يوسف دالي الى حقن الدماء فتم الصلح بينهما بعقد معاهدة السلم وجعل الحدود هكذا:

يمتد خط الحد من البحر الى رأس جبل الهفا، ومنه الى قلوب الثيران،

(1) راجع .ch. Andre julien, Histoire de l'Afrique du nord p: 551 paris 1931

ومنه الى الكرش، ثم الى وادي ملاق، ومن هناك الى وادي السيرات في الجنوب.

وتنص المعاهدة في مادتها الرابعة على أن قوانين الدولة المحلية بتونس أو الجزائر تعم جميع من يوجد داخل الحدود من رعايا الجانبين ولا يمكن بحال تعقب احكامهما.

وهنا كذلك تسوق لنا الرواية التاريخية طائفة من أسماء الباشاوات ممن حكم الجزائر بعد حسين ولا نعلم عن تاريخهم سوى ذكر اسمائهم حسبما يلي: اولهم حسن خوجة سنة 1038هـ - 1628م وفي هذا التاريخ كان سقوط مدينة تلمسان بيد دولة مراكش السعدية ثم انتزعت منها، وفي السنة بعدها اتحد الكراغلة مع طائفة الرياس ضد الحكومة المركزية ابتغاء المزاحمة في الحكم فأوقدوا النار في خزينة البارود فانفجرت ومات يومئذ من مفعولها ستة آلاف نسمة وتهدم بالمدينة ما يقرب من خمسمائة منزل، ولم تسجل لهم مع ذلك أي نتيجة ويرجع تاريخ ذلك كما هو عند الراهب دان الى اول شهر جويلية 1633م/ المحرم 1043هـ. ثم تولى يونس باشا بتاريخ اليوم الرابع من ذي الحجة سنة 1039هـ - 15 جويلية 1630م ثم حسن باشا سنة 1041هـ - 1631م.

حادثة برج مولاي حسن:

وفي عهد هذا الباشا حدثت واقعة الكراغلة ضد رجال السلطة الحاكمة من الاتراك، وذلك أن الكراغلة وإن كانوا هم من ذرية الاتراك، فانهم كما يقول حمدان خوجة في «المرآة»: مبعدون عن مناصب الحكم اذ لا يشغل هذه المناصب الا من كان تركيا خالصا من الطرفين، اما الكراغلة فهم مطرودون عن مجالس الحكم وذلك ما كان سببا في حادثة الكراغلة التي وقعت بالعاصمة سنة 1039 - 1040هـ/1630م اذ خطر ببال طائفة من هؤلاء الكراغلة أن يتقدموا للاستيلاء على الحكم ويطردوا عنه آباءهم الاتراك الذين كانوا يترأسونه، فاجتمعوا من أجل هذا الغرض في «برج مولاي حسن» fort l'Empereur بالعاصمة، وكان الاتراك على علم بهذه الدسيسة الا انهم تظاهروا بالغفلة لافساد هذه الخطة المدبرة ضدهم واحباط سعي الكراغلة فيها، فاتفقوا مع عدد من عمال «بني مزاب» على أن يلبسوهم لباس النساء

ويسلحوهم ثم يرسلونهم الى مكان اجتماع الكراغلة لاحباط مؤامرتهم وتبديد شملهم، وقد كان الامر كذلك، فبينما كان الكراغلة في اجتماعهم المدبر اذ بجماعة بني مزاب تقترب من مدخل البرج وهي متنكرة تحت لباسها النسوي تخفي سلاحها فلما بلغت مدخل البرج تظاهرت امام الكراغلة على أنها جماعة من النساء مهانة محتقرة من طرف الاتراك وان كرامتها مداسة باعتدائهم عليها وانها جاءت ملتجئة الى اخوانها الكراغلة لتطلعهم على هذا الضيم الذي لحق بها من لدن الاتراك السفاكين لدماء الابرياء، فلما اذنوا لها بالدخول الى «البرج» دخلت الجماعة وسرعان ما أزاحت عنها ستار التنكر واظهرت سلاحها وهجمت على الكراغلة بمعونة الاتراك الذين كانوا يحرسونها عن كثب من الوراء وبذلك باءت مؤامرة الكراغلة بالفشل واصبحوا خاضعين للاتراك.

وبعد هذه الحادثة لم يستطع الاتراك أن ينفوا ابناءهم الكراغلة من البلاد بيد أنهم لم يسمحوا لهم أبدا بأن يشغلوا المناصب الرئيسية في الحكومة، كما أن جميع من كان يشغل منصبا منهم قبل هذه الحادثة عزلوه عنه في حينه، وعندما يصل واحد منهم الى رتبة سابعة في الجيش يعزلونه لكي لا يترقى الى رتبة فوقها. وبهذه الطريقة لا يمكن لاي كرغلي أن يشغل منصبا في الديوان أن يكون عضوا في حاشية الداي، فترجمان الدولة أو كاتبها باللغات الاجنبية وكتاب الدولة ومراقب أوقاف مكة والمدينة فكل واحد من هؤلاء يجب أن يكون تركيا وليس كرغليا.

ومنذ حدوث هذا الحادث المتقدم نشأ وتكون بين الطائفتين حاجز منع الاتراك من أن يستفيدوا من علوم أبنائهم ويستغلوا نفوذهم الذي كان منتشرا في البلاد، وقد كان حذر الاتراك شديدا بحيث اذا نصحهم الكراغلة بنصائح مفيدة يتخذونها بمثابة حبائل منصوبة لاقتناص حسن نياتهم، واذا بلغهم ان الكراغلة مجتمعون في بعض الاماكن يتجسسون عليهم ليطلعوا على ما دار في اجتماعهم لعلهم مشتغلون بأمور سياسية او بانتقاد بعض اعمال الحكومة، او ربما فقط هم مشتغلون بانتقاد حياة الاتراك الخاصة؟!!... وكذلك كان هؤلاء الكراغلة مراقبين ايضا من طرف الاتراك خشية تواطئهم مع وجهاء القبائل واعيان البدو بقصد الاستيلاء على الحكم في الجزائر، وكانوا عندما يكتشفون

في اجتماعاتهم عن بعض النوايا السيئة بل عندما يتكون ادنى شك في ذلك يسرعون الى تفريق جمعهم ونفى رؤسائهم والحاصل ان الظلم الذي كان يقاسيه الكراغلة من الاتراك هو عينه الذي يقاسيه سكان الجزائر - أي في عهد الاستيلاء الفرنسي على البلاد - فلا يسمح لهؤلاء أو أولئك أن يذكروا اسم السياسة سواء أمام الجمهور او في مجتمعاتهم العامة أو الخاصة.

وكان فيا يحدث أحيانا أن ذوي المقاصد السيئة اذا أرادوا ان ينتقموا لانفسهم من أي شخص كان وارادوا أن يذهبوا بحياته، فما كان عليهم الا أن يبلغوا الاتراك بأن ذلك الشخص هو من الذين يمارسون السياسة وهذا النوع من المراقبة هو الذي اخمد في قلوب رجال هذه البلاد أوار شجاعتهم وخلق في المجتمع عدم الثقة والريبة في كل شيء وقد استمر ذلك الى مجيء الفرنسيين[1].

وتقص علينا الرواية التاريخية ان البحرية الجزائرية بلغت بجولاتها في هذا العصر الى ايرلاندة شمال بلاد الانكليز وجالت فيا حولها من بحار الجزر البريطانية وصافحت قناة القديس جورج وان الخسائر التي منيت بها دولة فرنسا في البحر تجاه الاسطول الاسلامي ما بين سنتي 1037 - 1044هـ (1628 - 1634م) بلغت الى ثمانين مركب مشحونة بمختلف البضائع وان قيمتها تقدر بعملة ذلك العصر: 475000ليرة علاوة على ما احتوت عليه هذه المراكب من نحو ثلاثمائة وألف اسير، اسلم منهم نحو خمسين ومائة علج.

ثم تولى حسين باشا الشيخ للمرة الثالثة وذلك يوم 22 ربيع الثاني سنة 1042هـ - 8 نوفمبر 1632م، وفي ايامه حدث زلزال هائل اندك له اكثر دور العاصمة ومات من جرائه عدد وافر من الناس ولا يبعد ان يكون هذا الحادث هو نفسه تلك الكارثة التي زلزلت لها الجزائر في حركة الكراغلة اثر انفجار خزينة البارود التي اشرنا اليها فيا تقدم؟...

ويذكر عن هذا الباشا انه اختلف مع اعضاء الديوان فنشأت عن ذلك ثورة الانكشايرية والقى القبض على الباشا فاودع السجن.

---

(1) المرآة لحمدان عثمان خوجة تعريب وتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم؛ جريدة «الشعب» 1391-1392هـ/1972م.

وفيا يرجع الى عدد وحدات الاسطول الجزائري فانه بلغ في هذا العصر الى اكثر من مائة قطعة حربية، منها سبعون من ذوات الشراع، ومن بينها عشر غلياطة وهناك مراكب اخرى من نوع اللنتشون، وفيها ما يحمل من السلاح الثقيل من الثلاثين الى الخمسين مدفعا.

ولاية يوسف باشا:

تدخل الجند في تولية الولاة هذه المرة وكانت يومئذ فترة انقطاع اضطرب لها حبل الحكومة الجزائرية وحصل تشويش اعقبه انحلال وفتور في الادارة الى ان بادرت حكومة استانبول الى انقاذ الموقف هذا فقضت على الفوضى الشائعة يومئذ بتعيين يوسف باشا يوم 21 المحرم سنة 1044هـ (جويلية 1634م)

ولكن الديوان تصلب في وجهه معاكسا لسلطته ومقاوما لسياسته المعتدلة.

ويصف لنا الراهب «بيبردان» في كتابه «تاريخ البلاد البربرية وقراصنتها» موكب اقتبال هذا الباشا يوم ان حل بالجزائر لاول مرة ليستلم مقاليد الحكم بها، ومبلغ الاحتفاء بمقدمه يوم ان نزل بها فقال انه قد اعجب غاية الاعجاب بهذه الاحتفالات التي اقيمت لاقتبال الباشا، كما انه اخذ بمشاهد عظمة ما اظهره فيها السلك السياسي من الابتهاج المنسق الجميل، فلقد ارسلت سفينتان حربيتان لاستقباله زينتا لهذا الغرض بصورة بديعة خلافا لعادتها، وكان ضباط الديوان وعددهم 1500 قد ازدحموا في الميناء وحين نزل الباشا من السفينة اطلقت اكثر من 1500 طلقة من مدافع قلعة المدينة والسفن الحربية التي كانت قد نشرت قلوعها وعددها يزيد على الاربعين سفينة.

وكانت تتم مراسم الاحتفال على الصورة التالية:

1 - يسير الاغا في المقدمة وبرفقته شاوشية الديوان ومعهم ضاربان على الطنبور

2 - يتبعه كاتب الديوان مع أربعة وعشرين من مستشاري الديوان الرؤساء

3 - وخلف هؤلاء ضباط الانكشارية هم يسيرون مثنى مثنى وعلى رؤوسهم رياش طويلة.

4 - بعدهم ضباط الاداباشية، يسير خلفهم ستة اشخاص يعزفون، بعضهم يعزف على الشبابة والناي، والبعض الاخر يدقون الصنوج، ومن بينهم عدد من العرب، وكان الباشا الجديد يسير في المؤخرة خلف هؤلاء واولئك وقد لبس رداء ابيض كعلامة للسلم، وامتطى صهوة جواد جميل تبدو عليه شتى انواع الزينة، فالعاصبة فضية مرصعة بالجواهر الكريمة، وكذلك الشكيمة والركاب واللجام الحريري كلها موشاة بالفيروز، يضاف الى ذلك جل رائع الصنع، ويدخل الباشا المدينة على هذه الصورة ويقاد الى القصر الذي خصص لاقامة الباشاوات[1].

ونستطيع نحن أن نأخذ هذا الوصف الشامل للكيفية التي اقتبل بها هذا الباشا كنموذج عام لصورة الاحتفال الباهر التي كان يقتبل بها الحاكم التركي بالجزائر. وكان مما حاوله هذا الباشا السعي في حسم الخلاف بين الجزائر وفرنسا واستمر الديوان على اظهار عدواته للفرنسيين المقيمين بالمحارس التجارية بسبب ما حصل في هذه المرة من الاعتداءات الفرنسية المتكررة على المراكب الجزائرية وأسر أهلها وتقتيلهم مما يعتبر خرقا للصلح المبرم بين الطرفين سنة 1038هـ/1628م. وأخيراً رضخ الباشا للديوان والقى القبض على القنصل الفرنسي م بيون، ويومئذ هوجمت الجزائر من طرف الفرنسيين بحملة بحرية فخابت أولا ثم أعادت الكرة ثانيا فاستولت على خمس مراكب جزائرية ثم كان هنالك غلاء في الاسعار وأزمة في التجارة.

ولاية علي باشا:

اتصل بمنصبه هذا في فاتح صفر سنة 1047هـ - 25 جوان 1637م وصادف ان كان الصراع والخلاف قائمان بين الفرنسيين والجنوبيين حول المنشآت والمتاجر الساحلية ولقد بلغ التزاحم والتنافس بين شركات هذين

---

(1) الدكتور ابو العيد دودو: الجزائر من خلال تاريخ بيبردان - مجلة كلية الاداب جامعة الجزائر 2-1970م.

الامتين اشده فكل من هذه الشركات تريد ان تكون صاحبة الأمر والنهي بهذه المنطقة فاشتد النزاع وتفاقم امر الخلاف حتى ازعج حكام الجزائر واقلق بالهم فاصدر الديوان يومئذ امره للرئيس علي بتشنى [1] بالقضاء على هاتيك المراكز ومصادرة اموالها وما احتوت عليه من ارزاق فخرج الرئيس في مراكبه القرصانية يوم 24 رجب 1047 هـ13 ديسمبر 1637م فدمرها وجاءهم بما فيها من الغنائم منها 317 أسير.

ومعلوم ان هذه المحارس كانت قائمة بناحية القالة وبونة من العمالة القسنطينية وكان سكان تلك النواحي منتفعين بما يجري بينهم وبين اصحابها من المعاملات التجارية فكانت الحركة الاقتصادية يومئذ رائجة بين الاهالي والاجانب ولما نضب ذلك المعين بعملية التدمير التي قامت بها الحكومة المركزية نقص عن السكان ما كانوا يتسغلونه من الموارد والمداخيل، فكان من الضروري ان يعلن هؤلاء استياءهم وتذمرهم امام الحكومة وفعلا قطع القوم وصلتهم بالدولة وامتنعوا من دفع اللزمة - المغرم - لحاكم المقاطعة - مراد باي - واعلنوا ثورتهم فحملوا السلاح برئاسة شيخ العرب ابي عكاز ابن الصخري وقاتلوا الحامية التركية فقضوا عليها فاستنجد الباي يومئذ بحاكم الجزائر فانجده باربعمائة جندي وجاءت النجدة الى قسنطينة برئاسة القائدين يوسف وشعبان وحمى هنالك وطيس الحرب فانهزم الاتراك بالمكان المعروف باسم قجال - بالقاف المعقودة - قرب ميلة وذلك يوم 12 جمادي الاولى سنة 1048هـ - 20 سبتمبر 1638م.

ولم تلبث الحكومة الجزائرية حينئذ ان منحت امتيازات جديدة لشركة فرنسية مرسيلية صرحت فيها للشركة بان تقيم هذه منشئات لحماية اموالها وارواح اصحابها [2].

---

(1)هو ايطالي الاصل من البندقية ويكتب اسمه هكذا pccini أو piceninoكان أمير البحر فاسلم واسس ذلك المسجد الانيق القائم اليوم بحي باب الوادي بالعاصمة فبناه سنة1903هـ - 1622م ثم حوله الاستعمار الى كنيسة مسيحية سنة 1259هـ - 1843م كما حول غيره كذلك من المعاهد الاسلامية بالجزائر الى كنائس ومراكز عسكرية ومصحات الخ.... وقد اعاده الله اليوم الى الاسلام (رمضان 1382هـ/ فيفري 1963م).

(2) انظر. E.vayssettes, Histoire de constantine sous les Berys p: 94 - 110 Alger 1869

واثر هـذه الحادثة تحركت النعرة التعصبية في الاتراك - وهم المباشرون والمسيطرون طبعا على الحكم فقاوموا الكراغلة واجلوهم عن العاصمة (1039هـ - 1629م) وصادروا اموالهم مخافة استقوائهم وتطلعهم بعد ذلك الى مناصب الحكم.

ولاية الشيخ حسين باشا:

كانت ولايته سنة 1049هـ 1639م ولا نعلم عن تاريخ ايامه القليلة التي قضاها على العرش سوى النكبة التي اصابت الاسطول الجزائري بثغر فالونا من بلاد البانيا، وذلك ان الدولة العثمانية كانت في حرب مع اهل البندقية فحمتها مراكب الجزائر برئاسة علي بتشنى في بحر الادرياتيك فصادفتها رياح عاصفة هوجاء فاحتمت بميناء «فالونا» وفي ثغر فالونا هذا خسر الاسطول الجزائري ثمانية عشر قطعة، حيث غرق منه اربع سفن واسرت اربعة عشر ومات من الجند الف وخمسمائة نسمة وحصلت الجزائر على تصريح من الباب العالي بدفع تعويضات عن هذه الخسائر كلها وتدعيم الاسطول الجزائري بخمس وعشرين سفينة حربية ولم يلبث الباشا ان توفي من سنته بالطاعون.

ولاية ابي جمال يوسف باشا (ثانيا):

تقلد منصب الحكم بالجزائر للمرة الثانية في 21من المحرم سنة 1050هـ (ماي 1640م) وكان يعرف بلقب قرطالج او قرطالجي، واهم ما علمناه من الحوادث على عهده هو عقده للمعاهدة التجارية بين الجزائر وفرنسا بتاريخ 17 ربيع الاول - 7 جويلية من هذه السنة وتصريحه للشركة الفرنسية باسترجاع مراكزها الجزائرية. مع تقديم زيادة في الاتاوة إلى حكومة الجزائر وقد كاتبه في ذلك ملك فرنسا لويس الثالث عشر بتاريخ 26 افريل 1640م/4المحرم1050هـ ثم ما كان كذلك من اندلاع لسان نار الثورة الاهلية التي لم ينطفىء لهيبها ضد الحاكم الاجنبي منذ خلق الله الجزائري وولدته امه حرا الى اليوم وتمكن الباشا من اخماد هذه الثورة المنتشرة يومئذ باعمال قسنطينة وغيرها ثم اعقبها تمرد الجنود الانكشايرية بسبب تخلف الحكومة عن دفع مرتباتهم فتغلبوا على الباشا وقبضوا عليه فأودعوه السجن ثم افرجوا عنه واعادوه الى منصبه.

ولاية محمد برصالي باشا :

تولى زمام الامر بالجزائر سنة 1052هـ -1642م وكان يلقب بسرقوشلي وهو الذي اكمل فتح اعمال ولاية قسنطينة واتم الاستيلاء التركي على تلك الجهات الشرقية من القطر الجزائري.

وحدث في ايامه ان كان الاسطول العثماني متوجها الى غزو جزيرة مالطة فأراد السلطان تعضيد هذه الحملة بمرافقة اسطول الجزائر الذي كان يرأسه يومئذ علي بتشنى فرفض الديوان ذلك بحجة تخلف الباب العالي عن انجاز وعده السابق من دفع التعويضات عن الخسائر التي منى بها الاسطول الجزائري

في وقعة ليفورنيا من بلاد ايطاليا فأوفد السلطان الى الجزائر مندوبين للنظر في القضية فأشاع الناس وارجفوا بان ما جاء المندوبان الا لقتل الرئيس علي بتشنى وكثر القال والقيل وكاد الناس أن يصدقوا بذلك وخشى الباشا من اغتيال الوفد فانزله بزاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي ومكث معه الباشا نفسه الى ان دخل عليهم الرئيس علي بتشنى فآمن خيفتهم واذهب عنهم الروع وخرج الجميع من الزاوية آمنا وعند ذلك منح علي بتشنى منصب الامارة العليا على الاسطول العثماني باستانبول وما كاد يصل بفرمان التولية حتى اودت به المنية رحمه الله.

ولاية احمد دغانجي باشا :

انتصب على عرش الجزائر يوم السبت 4 جمادى الاولى سنة 1054هـ/9 جويلية 1644م وكانت ايامه كلها ايام قلق واضطراب بسبب اشتداد وطأة القرصنة من كلا المعسكرين وامتلأت العاصمة على عهده بالاسرى وشارك الاسطول الجزائري بخمسين قطعة في وقعة كريت ببحر ارخبيل اليونان (1055هـ - 1645م) ثم تضعضعت قواته بعد ذلك في وقعة مالطة فاستشهد فيها يومئذ مائتان وخمسون نسمة واسر نحو المائة والخمسين جزائري؟

وفي ايام هذا الحاكم أسست الارسالية المسيحية مركزاً لها بالجزائر على يد القديس فانصان دوبول (1056هـ - 1646م).

ولاية يوسف باشا (ثالثا):

كان جلوسه على سرير الباشاوية للمرة الثالثة بالجزائر يوم الثلاثاء 23 ربيع الثاني سنة 1057هـ - 28ماي 1647م. وذكرت الموسوعة التركية اسم برصالي محمود باشا على انه تولى عرش الجزائر قبل يوسف هذا، وكان هنالك خلاف قائم بين الديوان وحكومة فرنسا فانتقم الباشا من شخص القنصل الفرنسي فأودعه السجن ترضية للرأي العام الجزائري وحينئذ جاءت الحملة الفرنسية ومعها فرسان مالطة يقودها الاميرال دوكين ولم تزل تقذف بقنابلها العاصمة فامطرتها وابلا من المقذوفات النارية حتى اضطر اهلها الى الافتداء فنزلوا عن جميع الاسرى الفرنسيين ودفعوا للحملة مليونا ومائتي الف قرش - ضريبة حربية - فكف عنهم الاميرال وصرف اسطوله عن الجزائر.

وفي شعبان - سبتمبر - من هذه السنة خرج الباشا بنفسه الى اخضاع العصاة المنشقين من الدواودة وغيرهم من اهل الارجاء الشرقية الجنوبية كمدينتي وارقلة وتقرت فأطاعته.

استشراف الدولة الشريفية العلوية للاستيلاء على الجزائر

صرف المولى محمد بن الشريف العلوي سلطان المغرب الاقصى - جد الاسرة المالكية اليوم - عنايته لاحياء ما اندرس من عهد ملوك المغرب في دولة الادارسة والموحدين والمرابطين وعصر الفاتحين الاولين فحاول ضم الجزائر الى مملكته تحقيقا للوحدة المغربية، وبذلك يتم توحيد المغربين الاقصى والاوسط تحت سلطانه فخرج في قومه سنة 1060هـ/1650م الى التخوم الشرقية من حدود مملكته فبلغ الى انكاد واخذ البيعة لنفسه من اولائك الاقوام ثم حملهم معه الى منازلة قبيلة بني يزناسن - سناسن - فاستولى عليها وقصد وجدة فاحتلها وشن غاراته على ما جاورها من القرى والقبائل كأولاد زكرى وبني سنوس فخضع الجميع لطاعته وتقدم سائرا بجيوشه الى ندرومة ثم عاد الى وجدة فمكث بها مدة ومنها توجه الى تلمسان فنازل احوازها واحاط بقراها واوقع هنالك بالحامية التركية فأذاقها قوارعه ثم ادركه فصل الشتاء فعاد الى وجدة يستجم.

ثم بعد انصرام فصل الشتاء خرج السلطان العلوي الى الصحراء الغربية فأغار على الجعافرة وبايعته هنالك قبيلة حميان ثم جاء من دله على مدينة الاغواط وعين ماضي والغسول فتوجه اليها السلطان واحتلها فأحدث ذلك قلقا عاما بالقطر الجزائري اضطرب له حبل الحكومة التركية وكادت الرعية ان تنقض على حكومتها.

تجهز الاتراك للقتال:

وعم الخطر بلاد الجزائر فاخذت الحكومة التركية تعمل على اخذ احتياطاتها في الدفاع والتأهب للحرب ضد الدولة الشريفية فشمرت عن ذيلها وشرعت في حفر الخنادق حول ايالة معسكر وبادر حاكم الناحية - الباي - الى استنصار باشا الجزائر فخرجت الحامية من العاصمة يقودها نائب الباشا الى نواحي تلمسان فاستقرت هناك ويومئذ انكفأ مولاي محمد بن الشريف متقهقرا الى وجدة عن غير قتال وهناك اخذ في تقسيم الغنائم واقتسام الاسلاب ثم قفل الى سجلماسة - تافيلالت -

واثر مغادرة سلطان المغرب للجزائر اوفد الاتراك الى حضرته لجنة من العلماء للمفاوضة في شأن الحدود بين القطرين وتوثيق عرى الصداقة بين المملكتين وكان من بين اعضاء هذه اللجنة الشيخان الفقيهان الحاج محمد بن علي الحضري المزغناني وعبد الله النفزي، فتقرر جعل وادي التافنا هو الخط الفاصل بين الحكومتين وتأكد ذلك بإبرام معاهدة صداقة وصلح مؤرخة سنة 1064 هـ — 1654 م.

وفي عهد هذا الباشا يوسف حصلت الجزائر على تعويضات الدولة العثمانية الموعود بها من قبل في مقابلة الخسائر التي تكبدتها الجزائر في حماية الاسطول العثماني ببحر الادرياتيك ايام الشيخ حسين باشا سنة 1049 هـ - 1639 م فاتصل الديوان بمبلغ ستين الف سلطاني وهو ما يقدر بنحو مليون ونصف فرنك بعملة ذلك الزمن.

وبعد مهلك الباشا يوسف خلفه عثمان باشا سنة 1057 هـ/1647م ثم المسمى مراد فاتح شهر ربيع الاول عام 1060 هـ/ 4 مارس 1650 ولا يعلم من حوادث

تاريخ ايامه في الجزائر الا ما يذكر من هيجان الاسرى الاوروبيين واضطرابهم في السجون.

ولاية بوشناق محمد باشا:

ترأس على حكومة الجزائر بلقب باشا يوم ٢٢ جمادى الاولى سنة 1061هـ منتصف ماى 1651م واشتهر عهده بنشر الامن في الرعية وحماية شعبه واهتمامه براحته ورفعته.

ولا يعلم من تاريخ الحوادث الجديرة بالذكر على عهده سوى انهزام الاسطول الجزائري مرتين امام مدينة البندقية وفي بحر الارخبيل، او ما كان من هجوم بريطانيا العظمى على الجزائر وخيبتها.

ثم تولى بعده طوبال محرم باشا يوم 17 محرم 1064هـ - 9 ديسمبر 1653م ولم يحفظ لنا التاريخ فيما علمناه عن هذا الباشا شيئا سوى حملة بريطانيا ضد الجزائر على عهد كرومويل 1654م.

ولاية احمد طوشان باشا:

كانت ولايته يوم 22 رمضان سنة 1065هـ - 26 جويلية 1655م وابرز حادثة كانت في ايامه القصيرة بالجزائر هي حملة بريطانيا على العاصمة ورميها بالقنابل فاحترقت بعض المراكب الراسية ولم يكن بالثغر من رؤساء البحر يومئذ احد اذ كان كلهم بالغزو فتخطفت الحملة كل من ظفرت به من اسراها والاسرى الهولانديين من غير فداء، وامضى الاميرال الانكليزي بلاك Blak معاهدة صلح مع الجزائر وكانت كلها في صالح بلاده.

ولم تطل ايام هذا الباشا فعزل من سنته وخلفه البكباشي عبد الله باشا وكذلك هذا لم تطل أيامه ولا يعلم من شأنه شيء سوى انعقاد معاهدة صلح في هذه الاونة بين الجزائر وبريطانيا.

ولاية ابراهيم باشا:

تقلد زمام الحكم بالجزائر يوم 12 ربيع الثاني سنة 1066هـ (9 فيفري 1656م) فغزا الاسبان وحاربهم بوهران، وكانت ايامه هادئة مطمئنة لم يرعها غير حادث القنصل الفرنسي حيث توهم معاداة الجزائر لحكومته فبادر الى

القاء القبض على نحو الخمسين نسمة من الجزائريين فأسرهم وخف الى حمل متاعه وكل ما استطاع نقله من مستودعات الحارس فاستصحب ذلك كله معه

الى فرنسا فأشمأز من ذلك اهل الديوان فاجمعوا على عزل الباشا حيث لم يعجل بحجز القنصل ونصبوا مكانه الحاج احمد باشا الذي كان سجينا باحدى الحصون الجزائرية، وذلك عصر يوم الجمعة 24 رجب -ماي- من هذه السنة وفيها ايضا كان استيلاء الاميرال الهولاندي ليتير على ثمانية عشر سفينة جزائرية بجبل طارق.

ثم ادركت فرنسا خطأ القنصل في عمله هذا فجاءت مسترضية، واعيد ابراهيم باشا الى منصبه عصر يوم السبت 22 ذي القعدة 1067 هـ/ فاتح سبتمبر 1657م، وفي هذه الفترة تعين لحكم الجزائر علي باشا ولكنه رفض وعاد الى استانبول، وكان هذا آخر العهد تحكام الجزائر وباشاوتها اصحاب السلطة الفعلية التابعة للباب العالي باستانبول.

نهاية حكومة الباشاوات:

هناك قسط وافر من المسؤولية في سقوط سمعة حكومة الباشاوات واضمحلال سيادتهم بالجزائر ملقى على عواتق هؤلاء الحكام - الباشاوات انفسهم - ذلك أن الباشا قد شعر بالاستقلال في هذه المدة واخذ في الاشتغال بنفسه منصرفا عن الادارة مجتهدا في التمول بطرق الرشي وأساليب اخرى كثيرة... فلم تلبث هيبته ان سقطت واجترأ عليه الانكشايرية فنشأت عن ذلك اضطرابات، وفوضى في البلاد.

والى هؤلاء الباشاوات ايضا ترجع مسؤولية الاسراف في التعدي على السفن والثغور فقد كان هنالك من الباشاوات من يدفع اهل البلاد الى ذلك دفعا بل يكلفون بعض القرصان بأن يقوموا بعملية القرصنة لحسابهم ومن ثم لم يعن الباشا بأن يحسن تمثيل السلطان أو يقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه فلم يكن الجند او الاهلون ليشعروا بوجوده بينهم الا في الاحتفال العظيم الذي يقام لاستقباله يوم أن يصل من القسطنطينية أو في هذه الاجتماعات التي كان مجلس الشورى يعقدها للنظر في شؤون البلاد من حين الى آخر.

وربما حاول الباشا أن يخضع شوكة الانكشايرية بالاستعانة عليهم بقبائل من اهل البلاد فنشأت عن ذلك حروب وويلات شتى....

وقد حاول احدهم ان يستولي على المنحة التي كان السلطان يبعثها كل عا لاعانة الاسطول الجزائري فكانت النتيجة أن قرر الديوان المنعقد سن 1069هـ/1659م- وكانت السلطة فيه للانكشايرية- أن يسحب من الباشا آخ ما بقي لديه من مظاهر السلطان هو القيام على الاموال والاحتفاظ بالخزينا ليتولاها يومئذ الآغا يعاونه الديوان وبهذا اصبحت السلطة الفعلية بيد الاغوات[1].

---

(1) راجع الشرق الاسلامي ج 1 ص 298

باشاوات الجزائر

		تاريخ التولية
دالي احمد	باشا	995 هـ - 1578 م
خضر	»	997 هـ - 1589 م
الحاج شعبان	»	999 هـ - 1591 م
مصطفى	»	1003 هـ - 1594 م
خضر « ثانيا »	»	1003 هـ - 1595 م
دالي حسن	»	1007 هـ - 1599 م
مصطفى جاقرجي	»	1007 هـ - 1599 م
سليمان	»	1009 هـ - 1601 م
خضر « ثالثا »	»	1011 هـ - 1603 م
محمد قوصة	»	1011 هـ - 1603 م
كوسه مصطفى القابجي	»	1013 هـ - 1605 م
رضوان	»	1016 هـ - 1607 م
كوسة مصطفى « ثانيا »	»	1019 هـ - 1610 م
مصطفى	»	1020 هـ - 1611 م
حسين الشيخ	»	1022 هـ - 1613 م
مصطفى خزناجي	»	1025 هـ - 1616 م
سليمان قاطانيالي	باشا	1026 هـ - 1617 م
حسين الشيخ « ثانيا »	»	1027 هـ - 1618 م
سليمان	»	1028 هـ - 1619 م
خسرف	»	1028 هـ - 1619 م
خضر	»	1029 هـ - 1620 م
مصطفى حافظ كوسة	»	1030 هـ - 1621 م

حسين	باشا	1030 هـ - 1621
حسين بن الياس	»	1032 هـ - 1623
مراد	»	1032 هـ - 1623م
ابراهيم	»	1033 هـ - 1624
خسرف	»	1034 هـ - 1625م
حسين	»	1036 هـ - 1626م
يوسف	»	1044 هـ - 1634م
علي	»	1047 هـ - 1637م
الشيخ حسين	»	1049 هـ - 1639م
ابو جمال يوسف « ثانيا »	»	1050 هـ - 1640م
محمد برصالى	»	1052 هـ - 1642م
احمد دغانجي	»	1054 هـ - 1644م
ابو جمال يوسف « ثالثاً »	»	1057 هـ - 1647م
مراد	باشا	1060 هـ - 1650م
بوشناق محمد	»	1061 هـ - 1651م
طوبال محرم	»	1064 هـ - 1653م
احمد طوشان	»	1065 هـ - 1655م
عبد الله بلكباشي	»	1065 هـ - 1655م
ابراهيم	»	1066 هـ - 1656م
الحاج احمد	»	1066 هـ - 1656م
ابراهيم « ثانيا »	»	1067 هـ - 1657م

سلاطين آل عثمان

974 - 1099 هـ

1566 - 1687م

	تاريخ التولية
السلطان الغازي سليم خان « الثاني »	974هـ - 1566م
السلطان الغازي مراد خان « الثالث »	982هـ - 1574م
السلطان الغازي محمد خان « الثالث	1003هـ - 1595م
السلطان الغازي احمد خان	1012هـ - 1604م
السلطان مصطفى خان	1026هـ - 1617م
السلطان عثمان خان « الثاني »[1]	1027هـ - 1618م
السلطان مصطفى خان « ثانيا »	1031هـ - 1622م
السلطان الغازي مراد خان « الرابع »	1032هـ - 1623م
السلطان ابراهيم خان	1049هـ - 1640م
السلطان الغازي محمد خان « الرابع »	1058هـ - 1648م

(1) قتل السلطان عثمان الثاني بالابراج السبعة في ثامن رجب سنة 1031هـ - 20 ماي 1622م وهو أول سلطان قتل في الدولة العثمانية.

من مشاهير الجزائر
ابو العباس احمد المقرى
1041هـ/ 1632م

علامة الجزائر و أديبها الكبير ومفخرة المغرب العربي الامام ابو العباس شهاب الدين احمد بن محمد بن احمد المقري [1] التلمساني.

اشتهر بيت المقري هذا بتلمسان منذ أن انتقل اليها اعضاء هذه الاسر الاولون من مقرة في اواخر القرن السادس الهجري اعني حين استقرت دول بني زيان على عرش الجزائر، وبها ولد المترجم حوالي سنة 986هـ/1578. وفيها درج ونشأ وبها حفظ القرآن الكريم وتأدب واخذ علمه عن مشائخه المشهورين في التاريخ واخصهم عمه ابو عثمان سعيد مفتي تلمسان ستين سنة.

قال ابن مرم: وكان ابو عثمان هذا اماما في العلوم العقلية كلها، حسابا ومنطقا وفرائض وهندسة وطبا وتشريحا وتنجيما وفلاحة وبناء، وكثيرا من العلوم القديمة والحديثة اتقن كل علم، حافظا للغة العرب والشعر والامثال واخبار الناس ومذاهبهم وايام العرب وسيرها وحروبها، ذاكرا الاخبار

(1) نسبة الى قرية (مقرة) احدى قرى الزاب الجزائري المشهورة بجنوب جبال الحضنة وتبعد بنحو العشرين كيلومترا بالجنوب الشرقي من مدينة المسيلة، - المحمدية - ضبطها المترجم نفسه في ازهار الرياض ج1 ص3 بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحةوقال في النفح: وعلى ذلك عول أكثر المتأخرين. وهي كذلك عند الثعالبي في «العلوم الفاخرة» والوانشريسي ايضاً، وضبطها ابن مرزوق الحفيد في شرحه على الالفية بفتح الميم وسكون القاف وقال في النسبة اليها مقري كبدري وسمي كتابه الذي وضعه في ترجمة المقري الجد: «النور البدري في التعريف بالفقيه المقرى»، وهي كذلك عند ابن الاحمر في فهرسته والشيخ زروق قال في النفح: وهما لغتان في البلدة التي نسب اليها، وهي مقبرة من قرى زاب افريقية (نفح الطيب ج 5ص 204-205ط بيروت 1388هـ/1968م) وتدعى اليوم ببرج «مقره» بالقاف المشددة المعقودة.

لصالحين وسيرهم واشارات الصوفية ومذاهبهم [1].

ارتحل احمد المقري الى المغرب الاقصى فدخل مدينة فاس سنة 1009 هـ ولقي بها المشيخة فأخذ عن امثال الشيخ احمد بابا التنبكتي وغيره من علماء العدوتين، ثم عاد الى بلاده فمكث سنتين ثم غادرها الى فاس ثانيا سنة 1013 هـ وبها القى عصاه منقطعا الى العلم والتعمق في البحث والدرس واتصل بالزاوية الدلائية فيها فدرس فيها الحديث الشريف حتى برع في علوم الشريعة والادب والتاريخ فكان آية في الحفظ وسعة الاطلاع واستحضار ابواب الفقه ونوازله راسخ القدم جيد القريحة قوي البديهة مترسلا بليغا وكاتبا مجيدا وشاعرا متفننا ومحاضرا ظريفا وحافظ متقنا، روى عن الشيخ يحيى الشاوي أنه قال: كان سيدي احمد المقري يحفظ جميع الكتب التي في خزانة السلطان الذهبي حفظها في مدة ثلاث سنين وقال لهم: لو احرقت خزانة السلطان لأمليتها من حفظي.

ولاه السلطان احمد المنصور الامامة والخطابة بجامع القرويين بفاس سنة 1022 هـ ثم صارت اليه الفتوى في ايامه.

ولما اختلت احوال مملكة المغرب السياسية اثر وفاة السلطان المذكور وكثرت الفتن وانقسمت الدولة السعدية الى مملكتين الخ... ازمع المقري على الرحيل الى المشرق تاركا المنصب والاهل والوطن والالف، فهاجر المغرب في اواخر رمضان سنة 1027 هـ/سبتمبر 1618م عازما على الحج فركب البحر من تطوان الى مدينة الجزائر وقد شق على اهل المركب ركوب البحر حتى كاد أن يشرف المركب على الغرق فانجاهم الله، وفي ذلك يقول المقري نفسه في الباب الرابع من كتابه «فتح المتعال في ذكر النعال»... اني لما سافرت من ثغر تطوان حرسها الله في غراب للجزائر المحمية وكان ذلك في معظم البرد والبحر حينئذ خوف فهال علينا البحر حتى تكسرت المقاذيف واشرفنا على الهلاك وآيس اهل التجربة من النجاة وتهيؤوا للموت، وقد كنت ارسلت المثال الشريف - وهو يعني مثال النعال النبوية على صاحبها افضل الصلاة وازكى

---

(1) البستان لابن مريم ص 105 ط الجزائر 1326هـ/1908م

السلام لرئيس الغراب ليتوسل به رجاء بركته، فكان من الطاف الله أن آلت عاقبة الامر الى السلامة، وعد ذلك العارفون بأمور البحر كرامة... «وحل المقرى بالجزائر واجتمع بعلمائها منهم سيدي سعيد قدورة المتوفي سنة 1066هـ - 1656م وجرت بينهما مساجلة أدبية شعرية، ومن الجزائر توجه الى مصر فمكث بها قليلا ثم توجه الى الحجاز فحج وطاف بالاماكن المقدسة واملى بتلك المعاهد والاماكن المشهودة علومه ومعارفه الغزيرة فظهر هنالك فضله ونبله، ثم عاد الى مصر فدخل القاهرة في شهر رجب سنة 1028هـ - جوان 1619م فتزوج بها من اسرة السادة الوفائية وبقي يتردد على الحجاز خمس مرات ثم استقر الشيخ بالازهر الشريف متجردا للعلم، فاشتهر يومئذ علمه بين الناس وطار صيته في الافاق، فعلت منزلته وتمكنت محبته وتبارى الادباء والشعراء في مدحه بقصائد ورسائل بليغة وجرت لهم معه مساجلات شعرية ومطارحات علمية نفيسة بعضها مذكور في كتب السير والتراجم[1] وفي نفح الطيب.

وبعد ان تبوأ الشيخ مكانه في المجتمع الاسلامي بالمشرق واصبح به كقطب من اقطاب العلم وامام من ائمة الاسلام عقد اثناء ذلك رحلات في ربوع الشرق الادنى ومنها رحلته المشهورة الى بيت المقدس سنة 1037هـ حيث القى هنالك بالمسجد الاقصى دروسا قيمة كانت سببا في اتصاله بكثير من علماء وأدباء فلسطين والتفت الاعيان اليه، ثم دخل دمشق فابتهج لمقدمه علماء الشام وأفاضلهم ونزل فيها بالمدرسة الجقمقية فبالغ اهلها في اكرامه وهنالك اقترحوا عليه تدريس صحيح البخاري فلبى اقتراحهم وشرع في اقرائهم الكتاب دراية فاحتشد الناس لدروسه وضاقت رحاب مجالسه بالجامع الاموي وتسابق الفضلاء والاعيان الى لثم يده والجثو بين يديه...

ذكر من ترجم له من علماء المشرق انه تكلم يوم ختمه للصحيح بكلام في العقائد وعلم الحديث لم يسمع له نظير قط، وكان فيما ساقه في درسه المشهود أن تعرض لترجمة الامام البخاري بافاضة وانشد له هذين البيتين وافاد أن ليس للبخاري غيرهما:

---

(1) انظر خلاصة الاثر للمحبي ج 1ص 302ط القاهرة 1284هـ

اغتنم في الفراغ فضـل ركوع فعسى أن يكون موتك بغتـة
كم صحيح قد مات قبل سقيم ذهبـت نفسه النفيسة فلتـة

واستغرق مجلس الختم هذا من شروق الشمس الى قرب صلاة الظهر.

وبالشام اقترح عليه العلماء تصنيف كتاب جامع لتاريخ الاندلس فجاءهم بهذا الاثر الجليل والصنيع النفيس العجيب والسجل الخالد: نفح الطيب بغصن الاندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. فرغ من تأليفه واملائه سنة 1039هـ أي نحو سنتين قبل وفاته وطبع كتابه هذا بمصر مرارا في اجزاء كما طبع منه الجزءان الاولان بليدن سنة 1855 - 1861م وترجم الى الانكليزية ونشر بلندن سنة 1840 - 1843م وهو خزانة علم وادب وفن وتاريخ، انفرد فيه مؤلفه بجمع وتدوين اخبار ذلك الفردوس المفقود.

وله رحمه الله ثبت حافل بالمؤلفات النفيسة يزيد عددها على ثمان وعشرين مؤلفا، منها المطبوع ومنها غير المطبوع عرفنا منها كتابه ازهار الرياض في اخبار عياض طبع منه بمصر ثلاثة اجزاء، وطبع بعضه في تونس ايضا واضاءة الدجنة في عقائد اهل السنة مطبوع بمصر اقراه مرارا واملاه دروسا بنفسه على طلاب مصر والشام والحجاز، وفتح المتعال في اوصاف النعال - النبوية - وقفت على نسخة مخطوطة منه بمكتبة الجزائر الوطنية وأملك منه نسخة قديمة النسخ بها أمثلة مذهبة للنعال النبوية الشريفة، وحسن الثنا في العفو عمن جنى مطبوع وشرحا ويذكران له شرحا على مقدمة ابن خلدون؟ وتاريخ الاندلس وحاشية على مختصر خليل في فقه المالكية وازهار الكمامة في شرف العمامة، الفه بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وكان تصنيفه بالحجرة النبوية الطاهرة تجاه الراس الشريف، ولا يخفى حسن المناسبة في ذلك، وقطف المهتصر من افنان المختصر، واتحاف المغرى في تكميل شرح الصغرى - للسنوسي في العقائد - وعرف النشق في اخبار دمشق وروضة الاس العاطرة الانفاس في ذكر من لقيته من اعلام الحضرتين مراكش وفاس طبع أخيرا بالمغرب الاقصى عن نسخة ناقصة، والدر الثمين في اسماء الهادي الامين، والغث والسمين، والرث والثمين، وكتاب البداة والنشأة، كله ادب وفن وحاشية على أم البراهين في علماء الكلام، ومزدوجات شعر مطبوعة بمصر وله كتب ومنظومات فن الحرف والزيرجة والطلاسم والتنجيم الى غير ذلك مما لا

يتسع ذكره في هذا الموجز.

وهو مع ذلك يعد من فحول الشعراء المطبوعين فشعره جيد رشيق ليس فيه تكلف ولا تعسف فانصت الى قوله في الحنين الى وطنه الجزائر:

قطر كـــان نسيمـــه نفحـــات كافور ومسك
وكـــأن زهر رياضـــه در هوى من نظم سلـــك

وفيه يقول أيضا:

اضواؤه طبـق المنـى وهواؤه يشتاقـه الولهـان في الاسحـار
والطبـع معتـدل فقل ما شئتـه في الظـل والازهـار والانهـار

واستمتع الى هذه القطعة الشائقة الرقيقة في النزوع الى وطنه ايضا:

واربـع احبـاب اذا ما ذكرتها بكيـت وقد يبكيك ما انت ذاكر
بطـاح وادواح يروقـك حسنهـا بكـل خليـج نمنمتـه الازاهر
فما هو الا فضـة في زبرجـد تساقـط فيـه اللؤلؤ المتناثر
بحيث الصبا والترب والماء والهوى عبـير وكافور وراح وعاطر[1]
وما جنة الدنيا سوى ما وصفته وما ضم منه الحسن نجد وحاجز
بلادي التي اهلي بها واحبتي وروحي وقلـبي والمنى والخواطر
تذكرني امجادهـا ووهادهـا عهود امضت لي وهي خضر نواضر
اذا العيش صاف والزمان مساعد فلا العيش مملول ولا الدهر جائر
بحيـث ليالينـا كغـض شبابنـا واايامنـا سلـك ونحن جواهر
ليـالي كانـت للشبيبـة دولـة بهـا ملـك اللـذات نـاه وآمر
سلام عـلى تلـك العهود فانهـا موارد افراح تلتهـا مصـادر

واستمر اديبنا العالم المؤرخ متنقلاً في ربوع المشرق مترددا بين معالم مصر ومعاهد الشام متجولا بين ضفتي بردى والنيل الى ان اصطفاه الله لجواره في شهر جمادي الثانية سنة 1041 هـ - جانفي 1632م ودفن بقرافة المجاورين بمصر وهو الصحيح، وقيل بالشام، تغمده الله برحمته.

---

(1) ذكر اربعة اشياء وشبهها باربعة أشياء على سبيل اللف والنشر المرتب.

عبد الكريم بن الفكون

1073هـ/1663م

بيت ابن الفكون بقسنطينة مستطير الشهرة منتشر السمعة، فهو بيت علم وادب ورئاسة ودين، توارث ابناؤه المجد والسؤدد منذ دهر طويل وقرون متتابعة بالجزائر ولا يزال هذا البيت الماجد ملحوظا بعين الوقار والاجلال الى اليوم.

وكان ممن اشتهر وذاع صيته في الافاق من اعضاء هذه الاسرة الجزائرية الماجدة في القديم ابو علي الحسن بن علي بن عمر بن الفلكون اكبر شعراء الجزائر وابرع كتابها وفي الحديث - اي العصر الذي نؤرخه - الشيخان العالمان عبد الكريم بن الفلكون وولده محمد. والمترجم له هنا عبدالكريم المولود سنة 988هـ/1580م ترجم له تلميذه ابو مهدي عيسى الثعالبي الجعفري الجزائري في كنز الرواة فوصفه بقوله:

«علامة الزمان ورئيس علوم اللسان وفخر المنابر اذا خطب، ولسان المحابر اذا شعر أو كتب شيخ الاسلام ابو محمد عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون بفتح الفاء وضم الكاف المشددة القسنطيني... واثنى عليه المقري في نفخ الطيب فقال: عالم قسنطينة وصالحها وكبيرها ومفتيها، سلالة العلماء الاكابر، وارث المجد كابراً عن كابر، المؤلف العلامة الشيخ سيدي عبد الكريم الفكون حفظه الله.

وقال الشيخ العياشي في رحلته: وممن لقيته بطرابلس الشيخ الفقيه المشارك النبيه سيدي محمد بن العلامة الفهامة الناسك الخاشع الجامع بين علمي الظاهر والباطن سيدي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني رضي الله عنه ونفعنا به، قدمها حاجا وهو امير ركب اهل الجزائر وقسنطينة وتلك النواحي على نهج اليه وعادته في ذلك محافظا على سلوك سيرة والده من التؤدة

والوقار فاحبته القلوب ومالت اليه النفوس ولم يطلع اميرا الا في هذه السنة وقبل ذلك انما كان يطلع بالركب والده - عبد الكريم - رضي الله عنه، فلما توفي الوالد قام ولده مقامه في ذلك اعانه الله وسدده.... قال وكانت لنا به - اي بالشيخ عبد الكريم - رضي الله عنه وصلة وانتساب بالخدمة والولاء والاعتقاد الصالح لما حججت معه في سنة أربع وستين و(الف) وقد قال لي رضي الله عنه لما طلبت منه الاتصال بحضرته والانخراط في سلك اهل خدمته: اني اقول لك كما قال الامام الشاذلي رضي الله عنه لك ما لنا من الخدمة وعليك ما علينامن الرحمة.

... قال وكان في غاية الانقباض والانزواء عن الخلق ومجانبة علوم أهل الرسوم بعد ما كان اماما يقتدى به فيها وله في كثير منها تآليف شهد له فيها بالتقدم أهل عصره فالقى من قلبه ترك ذلك والعكوف على حضرته بالقلب والقالب والتزود الى الحرمين الشريفين مع كبر السن، وكان يقول اذا ذكر له شيء من هذه العلوم: قرأتها لله وتركتها لله!...

وعندما ذكر ابو مهدي عيسى مآثر شيخه الفكون ونوه ببراعته «في فنون العربية لغة ونحوا وتصريفا وبلاغة مع المشاركة التامة في الفقه والاصلين والحديث والتصوف وغير ذلك» قال «وما زال يترقى حتى انتهت اليه رئاسة العلم بقطره افتاء وتدريسا وتصنيفا، ثم انجمع باخره عن الناس ولزم العزلة والعكوف على العبادة وتهذيب النفس»[1] ثم قال: «وكان اذا ليم على ترك التدريس يقول: علم طلبناه لله وتركناه لله - يعني لفساد الزمان وعدم اخلاص النية في طلب العلم وقد جمع الله له بين العلم والعمل... قال وأخذ رضى الله عنه عن والده وعن العلامة الرحالة أبو زكريا يحيى بن سليمان الاوراسي وغيرهما وله تصانيف مفيدة...

قال العياشي: وقنعت منه رضي الله عنه بالكلمة التي قالها لي لما علمت حاله وخشيت أن اثقل عليه واكلفه مالا تطيب به نفسه فانه رضي اللهعنه من اهل القلوب، ومروياته رضي الله عنه ومستوفاة في فهرسة شيخنا ابي مهدي عيسى الثعالبي فنحن نروى عنه جميعها بواسطته: قال فلما لقيت ولده -

---

(1) كنز الرواة لابي مهدي عيسى الثعالبي الجعفري الجزائري (مخطوط)

محمدا – تقربت له وانتسبت له بمعرفة والده فوجدت عنده بعض علم بي وقال اما انت الذي وصل كتابك المبعوث الى والدي من وادي ريغ قبل موته بعام؟... فقلت نعم ورحب بي وهش وبش وانس، ووجدت عنده عدة من مؤلفات والده وبعضها بخطه رضي الله عنه فأعارها لي مدة اقامته هناك، فمنها شرحه على ارجوزة الماكودي في التصريف وهو مجلد اجاد فيه غاية الاجادة ... فرغ من تأليفه اوائل صفر من عام ثمانية واربعين والف وسماه بالبسط والتعريف،... ومنها ديوانه في مدح النبي صلى الله عليه وسلم المرتب على حروف المعجم وكتب عليه «مما يمدح به عند الغمة وساعة الغياهب المدلهمة » والتزم ان جعل مبدأ كل شطر حرفا من حروف «الا هي بحق الممدوح اشفني آمين »وجملة ذلك خمس وعشرون حرفا، ففي كل قصيدة مثلها ابياتا وهنا اورد العياشي نماذج من قصائد هذا الديوان ثم قال وبآخرها بخطه ثم بحمد الله وحسن عونه هذا المديح في المصطفى المليح الفصيح في ليلة الجمعة وقت العشاء منها ليلة ثلاثة وعشرين من جمادى الاخرة من سنة واحد وثلاثين والف... «ومن تآليفه أيضا جزء في تحريم الدخان سماه «محدد السنان في نحور اخوان الدخان» وهو في عدة كراريس مشتمل على فتاوى عدة من الايمة في منع الدخان قال العياشي: وقد لخصنا بعضه بحسب ضيق الوقت ولنذكر ذلك تتميما للفائدة.... وهنا اورد العياشي ملخص الكتاب[1] وللمترجم شرح على شواهد الشريف على الاجرومية التزم فيه عقب كل شاهد ذكر حديث مناسب للشاهد، وشرح جمل المجردى ومخارج الحروف من الشاطبية وتأليف في حوادث فقراء الوقت، هو كتابه المسمى بمنشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية وهو كتاب نفيس جدا في موضوعه، وله شرح على مختصر الاخضري في فقه المالكية تعرض فيه لفوائد ومسائل مهمة ذكرها الاخضري في مختصره هذا واغفلها كثير من اصحاب المطولات.

وهذه رسالة لطيفة من نوع الاخوانيات كتبها الشيخ عبد الكريم بن الفكون الى صديقه بالمشرق ابي العباس شهاب الدين احمد المقري، احببنا ادراجها هنا كنموذج لاسلوب النثر – والشعر ايضا – المستعمل في المراسلة

---

(1) انظره في رحلة العياشي ج2 ص390-403ط فاس 1316هـ

بين الادباء والعلماء في ذلك العصر واليك نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على من انزل عليه في القرآن « وانك لعلى خلق عظيم » وآله وصحبه وسلم افضل التسليم، من مدنس الايزار المتسربل بسرابيل الخطايا والاوزار، الراجي للتنصل منه رحمة العزيز الغفار، عبد الله – سبحانه عبد الكريم بن محمد الفكون اصلح الله بالتقوى حاله، وابلغه من متابعة السنة النبوية آماله، الى الشيخ الشهير، الصدر النحرير، ذي الفهم الثاقب والحفظ الغزير الاحب في الله، المؤاخي من اجله سيدي ابي العباس احمد المقري احمد الله عاقبتي واسبل على الجميع عافيته، اما بعد فاني احمد الله اليك واصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا اريد الا صالح الدعاء وطلبه منكم، فاني احوج الناس اليه واشدهم في ظني الحاحا عليه لما تحققت من احوال نفسي الامارة، واستبطنت من دخيلائها المثابرة على حب الدنيا الغرارة كأنها عميت عن الاهوال التي اشابت رؤوس الاطفال وقطعت اعناق كمل الرجال، فتراها في لجج هواها خائضة وفي ميدان شهواتها راكضة طغت في غيها وما لانت وجمحت فما انقادت ولا استقامت فويلي ثم ويلي من يوم تبرز فيه القبائح وتنشر الفضائح ومنادى العدل قائم بين العالمين « وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بناحاسبين » فالله اسأل حسن الالطاف والستر عما ارتكبناه من التعدي والاسراف وان يجعلنا من اهل الحمى العظيم وممن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم، سيدنا ومولانا وشفيعنا النبي الرؤوف الرحيم ولنكف من القلم عنانه، ولما ارجو من اجله ثواب الله سبحانه، وقد اتصل بيدي جوابكم اطال الله في العلم بقاءكم فرأيت من عذوبة الفاظكم وبلاغة خطابكم ما يذهل من العلماء فحولها وبنيلها لدى الجثو لسماعه سؤلها ومأمولها بيد ما فيه من اوصاف من امره قاصر وعن الطاعة والاجتهاد فاتر وأصدق قول فيه عند مخبره ومرآه أن تسمع بالمعيدي خير من ان تراه، لكن يجازيكم الله بحسن النية للبلوغ في بحبوحة الجنان غاية الامنية وقد ذيلتم ذلك بابيات انا اقل من أن اوصف بمثلها على اني غير قائم بفرضها ونقلها فالله تعالى يمدكم بمعونته ويجعلكم من اهل مناجاته في حضرته ويسقينا من كاسات القرب ما نتمتع منه بلذيذ منادمته وقد ساعد البنان الجنان في اجابتكم بوزنها وقافيتها والعذر لي انني لست من اهل هذا الشأن والاعتراف بانني جبان واي جبان

والكمال لكم في الرضا والقبول، والكريم يغض عن عورات الاحمل والجهول وظننا – حققه الله تعالى – ان نجمل على منظومتكم الكلامية – يعني اضاءة الدجنة – تقييدا، ارجو من الله توفيقا وتسديدا بحسب قدري لا على قدركم وعلى مثل فكري القاصر لا على عظيم فكركم، وان ساعد الاوان وقضى بتيسيره رب الزمان فآتي به ان شاء الله الاجل معي لانني بالاشواق الى حضرة راكب البراق ومخترق السبع الطباق وكنت عازما على ان ابعث لكم من الابيات اكثر من الواقع الا أن الرفقة اعجلت وصادفتني ايام موت قعيدة البيت فلم يتيسر عاجلا الا ما ذكر وعلى الله قصد السبيل وهو حسبي ونعم الوكيل.

يا نخبة الدهر في الدراية	علما تعاضده الرواية
لا زلت بحرا بكل فن	يروى به الطالبون غاية
لقد تصدرت في المعالي	كما تعاليت في العناية
من فيك تستنظم المعاني	بلغت في حسنها النهاية
رقاك مولاك كل مرقى	تحوى به القرب والولاية
اعجوبة مالها نظير	في الحفظ والفهم والهداية
يا احمد المقري دامت	بشراك تصحبها الرعاية
بجاه خير العباد طرا	والال والصحب والنقابة
صلى عليه الاله تترى	نكفى بها الشر والغواية

واختم كتابي بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب بغاية عجلة يوم السبت سابع أو ثامن رجب من عام ثمانية وثلاثين والف للهجرة على صاحبها الصلاة والسلام

قال المقري: والمذكور – ويعنى به صاحب الترجمة – عالم المغرب الاوسط غير مدافع وله سلف علماء ذوو شهرة، ولهم في الادب الباع المديد، غير أن المذكور مائل الى التصوف ونعم ما فعل تقبل الله تعالى عملي وعمله وبلغ كلامنا أمله (1)

توفاه الله عشية الخميس 27ذي الحجة سنة 1073هـ – 3أوت 1663م سقى الله ضريحه.

---

(1) نفح الطيب ج9 ص189–194ط دار المأمون بالقاهرة 1936م.

جدول تاريخي

995 - 1069 هـ

1587 - 1659م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث وابرز الاحداث
995 هـ/1587م	ابتداء عصر حكومة الباشوات
998 هـ/1590م	قمع حركة الثورة الوطنية بمجانة
999هـ/1591م	اشتداد لهيب الثورة الوطنية بناحية زواوة
1003هـ/1594م	قمع الحركة الثورية بناحية سور الغزلان وانشاء مركز للحراسة
1007 هـ/1599م	استيلاء الاتراك على حصن المرسى الاعلى بوهران وانهزام الاسبان الى الحصن الاسفل.
1009 هـ/1601م	حدوث الاضطراب السياسي والعسكري حول منصب الامارة واخفاق الاسبان في حملتهم الشعواء ضد العاصمة.
1011 هـ/1603م	نشاة الخلاف السياسي والاقتصادي بين حكومة الجزائر وفرنسا ورد غارة الاسبان البحرية عن مرسى ازفون
1014 هـ/1606م	انتصار الاسبان بوهران
1016 هـ/1607م	اغارة الطوسكان على بونة - عنابة - وقطع العلائق بين الجزائر وفرنسا وتحطيم مرسى برشك
1019 هـ/1610م	حملة الانكليز والهولانديين والاسبان على سواحل جيجل

1022هـ/1613م	تسوية الخلاف الناشيء بين حكومة الجزائر وتونس حول تخطيط الحدود السياسية بين القطرين.
026 هـ/1617م	تحطيم السلطة المركزية للمحرس الفرنسي بالقالة
1029هـ/1620م	تجدد الخلاف بين الجزائر وفرنسا وشن الغارات البحرية الجزائرية ضد المراكب الفرنسية
1030هـ/1620م	خيبة حملة الاميرال الانكليزي مانصيل على الجزائر
1033هـ/1623م	تقدم البحرية الجزائرية واتصالها باعلى جزر بحر الشمال
1033هـ/1623م	التزاحم الهولاندي الانكليزي بالجزائر
1037هـ/1628م	نشوب الخلاف بين الجزائر وتونس حول قضية الحدود وانفجار وقعة السطارة
1042هـ/1632م	تدمير الزلزال الهائل لاكثر دور العاصمة وموت الاكثرية من السكان
1044هـ/1634م	انكسار الاسطول الفرنسي بمياه الجزائر
1046هـ/1637م	تحطيم مركز القالة الفرنسي واعلان الحرب ضد فرنسا
1055 هـ1640م	انكسار الاسطول الجزائري في حرب البندقية ببحر الادرياتيك
1052هـ/1642م	الاستيلاء النهائي على اعمال قسنطينة
1054هـ/1644م	انكسار اسطول الجزائر امام قرصان مالطة
1056هـ/1646م	تأسيس ارسالية القديس فانصان دوبول بالجزائر
1058 هـ1648م	هجوم الاميرال الفرنسي دوكين على مدينة الجزائر
1060هـ/1650م	محاولة الدولة الشريفية العلوية الاستيلاء على الجزائر

1064 هـ/1655م	اتخاذ وادي التافنا حدا فاصلا بين حكومتي الجزائر ومراكش
1066 هـ/1656	تسرع القنصل الفرنسي الى مغادرة المحرس التجاري وتأسيره لطائفة من المسلمين
1069 هـ1659م	نهاية عصر حكومة الباشوات.

عصر الاغاوات

1069 - 1081هـ

1659 - 1671م

منصب الاغا:

كانت حادثة مدير المحارس والمراكز الفرنسية بالقالة كما كنا المعناإليها فيما تقدم هي السبب المباشر والباعث القوي الذي نتج عنه هذا الانقلاب في الحكم فتغير الوضع بحيث نهض الاهالي - بقيادة رؤساء البحر واعضاء الديوان ضد نظام الحكم القائم على عهد الباشاوات فاجهزوا على هذا المنصب وانتزعوا السلطة العملية من يد صاحبها « الباشا » واستبدلوه بترئيس الاغا[1] واسناد حكم البلاد اليه. واصبح لقب « الباشا » يومئذ مجرد لقب فخري وتشريف للحاكم وتفخيم لسلطانه.

وجعلوا مدة رئاسة الاغا لا تزيد عن سنتين فقط، يعني اقل مما كان مقررا لمدة حكم الباشاوات بسنة، وللديوان بعد ذلك النظر في شأنه كما انهم حددوا من سطوته ونفوذه وحصروا سلطته في تنفيذ مقررات الديوان ومجلس الحكومة ليس غير، وهو في ذلك يشبه نظام مجالس الحكم الجمهوري او هو على غرار ما تفعله اليوم احزاب الحكومات الاشتراكية في تعيينها لرؤساء دولها على سبيل التقريب، من غير ان يكون للشعب اي مدخل في ذلك غير انتخابه لمرشح الحزب والهتاف له.

ويذكر ان الباشا السابق - ابراهيم - لم يرض بهذا النظام الجديد

---

(1) كلمة « اغا » فارسية استعملها الاتراك كلقب شرفي معناه العظيم أو الآمر والرئيس ويدخل في معناه الشيخ والسيد وله معان أخرى كثيرة في اللغة التركية الشرقية.

واظهر اعتراضه بالرفض جهرة فنقم عليه الديوان والقاه في السجن فاجتهد الباشا في طلب العفو وانفق في سبيل عودته الى الحكم ما يقدر بمائتي الف ريال [1] فلم يحصل على طائل.

ورفعت الحكومة الجزائرية يومئذ تقريرا بنظامها الجديد هذا الى استانبول طلبا لمصادقة الباب العالي عليه. فأمضاه السلطان العثماني مشترطا في ذلك على الديوان تحمل نفقات الجند وبذل المرتبات للضباط وجميع الموظفين في الحكومة الجزائرية فتحملت الجزائر يومئذ بجميع نفقات الدولة وبذلك احرزت الحكومة الجزائرية الجديدة على شبه استقلال من الحكم الذاتي في دائرة السلطنة العثمانية ورعايتها.

ويبدو ان موافقة الباب العالي على هذا النظام الجديد الذي هو في الحقيقة طريق الى الاستقلال المطلق وخروج عن النظام الامبراطورية العثمانية انما وقع بسبب ما كان عليه بلاط السلطنة العثمانية مما اعتراه من الضعف والعجز منذ القرن الماضي عن اتخاذ اسطول قوي يدفع به عن نفسه وعن ممالكه وامبراطوريته النائية الواقعة وراء البحار.

* * * *

ولاية البكباشي خليل آغا:

هو اول الاغاوات الذين انتصبوا على رأس الحكومة الجزائرية في القرن الحادي عشر الهجري والسابع عشر الميلادي.

تولى منصب الاغوية في شهر ذي القعدة سنة 1070هـ/ جويلية 1660م. وكان فاتحة اعماله تأسيس هذا (الجامع الجديد) القائم بساحة الشهداء بالعاصمة الباذخ بقبته العظيمة ومناره الشامخ، بناه المهندس الحاج الحبيب، وبه كان مقر ديوان الافتاء الحنفي طوال مدة العهد التركي واستمر كذلك ايام الاستعمار الفرنسي - مع الحد من نفوذ المفتي - الى يوم استقلال الجزائر فحذف منصب الافتاء من كلا المذهبين - الملكي والحنفي - بكامل القطر الجزائري وعوض عنه بأحداث المجلس الاسلامي الاعلى الذي جعل تحت

---

(1) الريال بوجو هو ما كان يقدر في ذلك العهد بنحو فرنك واحد وثمانين سنتيما.

اشراف وزارة الاوقاف والشؤون الدينية: ثم اغفل ذكر الاوقاف من هذه الوزارة » وكان من بين اعضائه « لجنة للفتوى » ولقد كان الانفاق على تأسيس هذا الجامع من الاموال المتجمعة بخزينة « سبل الخيرات »

اغارة الانكليز على الجزائر:

طالما الحت دولة بريطانيا العظمى على الحكومة الجزائرية في تأسيس مراكز ومحارس لها تجارية بالسواحل الجزائرية فامتنعت هذه لاسباب ووجوه كثيرة معقولة اهمها المحافظة التامة على معاهداتها السابقة مع الشركات الفرنسية - ان العهد كان مسؤولا - واين من يرعى العهد اليوم!...

وفي سنة1071هـ/1660م اقبلت « عمارة » انكليزية بحرية تحتوي على ثلاث وعشرين قطعة حربية فأرست بالقرب من مياه الجزائر الاقليمية وبعثت بمندوبها الى الديوان فقدمت له مطالبها ورغائبها التي لا تتفق مع سيادة الجزائر المسلمة الابية، فرفضتها الحكومة رفضا باتا، ورغم ذلك فقد استمرت هذه « العمارة » راسية بمكانها تجاه الجزائر في انتظار الموافقة على مرغوبها مدة ثلاثة وعشرين يوما ثم فاجأت العاصمة بالغدر فشنت غارتها الشعواء عليها آخذة في قصف المدينة بالمدافع، ويومئذ امطرتها الحصون الجزائرية المنبثة في انحاء المدينة بقنابلها المدمرة فأصابت منها المركب الرئيسي الذي يحمل الاميرال وانعطبت معه اكثر وحداته ومات بها ما يربو على مائة شخص فاضطرت الحملة الانكليزية حينئذ الى التقهقر عن الجزائر مستجيرة بسواحل الجزائر الشرقية - الباليار -.

ويومئذ اعلنت الحكومة الجزائرية الحرب رسميا ضد بريطانيا العظمى وانطلقت السفن الجزائرية ترتاد البحار، وما كاد يمضي على تاريخ اعلان الحرب هذه ستة اشهر حتى ظفر الاسطول الجزائري في عرض البحار باثنتين وستين سفينة معادية. وحينئذ اذعنت بريطانيا للامر الواقع واستسلمت للصلح. فأملت عليها الجزائر اذ ذاك شروطها. منها الزام بريطانيا بتحمل جميع خسائر الحرب ونفقاتها، وتسليم اثنتي عشر الف قنبلة، وخمسة عشر قنطارا من البارود، فخضعت لكل ذلك دولة الانكليز.

ويذكر اهل الاحصاء الرسمي انه انعطب في هذه الوقعة سبع عشر سفينة

جزائرية في مقابلة ما يزيد على خمسمائة مركب للعدو. اعني ما بين غريق ومؤسر ومعطوب.

وفي ايام الاغا خليل هذا وقع الاجماع من دول اوروبا الاربعة: فرنسا وبريطانيا وهولندا وايطاليا على محاربة الجزائر، وفعلا وقعت الاغارة وشاركت فرنسا في احدى الوقائع بثلاث وستين مركبا وستة آلاف محاربا فاحتلت مدينة جيجل، واخيرا كان النصر للاتراك فاستولوا على اثني عشر مركبا فرنسيا ومثلها من سفن ايطاليا وانكلترا وتسعة لهولاندا.

ثم كانت هذه المغانم نفسها سببا في القضاء على الاغا نفسه حيث اتهمه الديوان بالحيف في توزيعها على الرؤساء فقتل في اواخر المحرم 1071هـ/سبتمبر 1660م، وانتصب مكانه اليكباشي رمضان المعروف باسم بويوك وقتل هذا ايضا. واعيد ابراهيم - اخر الباشاوات - الى كرسي الحكم ثم عزل.

ولاية شعبان آغا:

يقال انه برتغالي الاصل وانه تولى منصب الاغاوية بالجزائر سنة 1071هـ/1661م وكانت ايامه ايام توتر ونزاع بين الجزائر وفرنسا وقد توالت التهجمات الحربية من قبل الفرنسيين على العاصمة وعلى الثغور الجزائرية- منها مدينتي القل وجيجل -اربع مرات 1072 - 1073١٠هـ 1662 - 1663م) وقد تكبدت الجزائر من جراء ذلك ضياع عشرين مركبا، واشتد قراصنة فرنسا وبريطانيا وهولاندا في محاربتهم المتكررة ضد الجزائر فحملوا عليها حملات عنيفة. ومن بينها الحملة الفرنسية التي وقعت ضد مدينة جيجل (يوم 27ذي الحجة 1074 هـ 22 جويلية 1664 م) تحت قيادة الاميرال «دي بوفور» كما سنبينه، وبلغ عدد مراكب العدو في هذه الحملة ستين مركبا ويروي انه بلغ الى مائة وعشرين مركبا حربيا تحمل 7000 جندي مات بها من الجيوش الفرنسية الف واربعمائة مقاتل وغرق منهم الف ومائتان واضاعت الحملة من سلاحها الثقيل مائة مدفع وبالاثر نكصت البقية على عقبها منهزمة الى مراكزها (10 ربيع الثاني 1075هـ/24 اكتوبر 1664م) ولم تكن الجزائر يومئذ لتملك اكثر من اثنتين وعشرين بارجة وتسع سفن حربية.

وقعة وهران:

وفي سنة نيف وسبعين والف للهجرة غزا الاغا شعبان مدينة وهران الواقعة يومئذ بيد الاسبان وكان معه من الجيش نحوالاربعةالاف مجاهد، منهم ثلاثة آلاف فارس فتقدم العدو الذي كانت جحافله وعدد جنوده تفوق عدد جيش الغزاة المسلمين بأضعاف مضاعفة وكان بين جيش الاسبان طائفة بني عامر وكيزة وغمزة الخ... والتحمت الحرب بين الفريقين بكدية الخيار فقتل من جيش العدو الف ومائة، ولم يقو الاغا على متابعة القتال فاحجم عن الحرب ومات يومئذ قتيلا.

ولاية اسماعيل بن خليل آغا:

تأمر على الجزائر برتبة آغا يوم الثلاثاء 17 رمضان 1072هـ (7مايو 1662م) وفي ربيع السنة الثانية من ولايته هذه انتشر وباء الطاعون الجارف الذي شمل ولاية قسنطينة ولم ينقشع عنها الا في نهاية فصل الربيع.

اغارة فرنسا على مدينة جيجل:

اشار كل من الاميرال دوكيزن Duquesne والمهندس كلورفيل Clurville على ملك فرنسا - لويس الرابع عشر - بالعمل على فتح ميناء مدينة جيجل واتخاذها مركزا لمحاربة القراصنة الجزائريين. ولقد كان الكاردنال مازاران قد بعث من قبل ذلك الى الجزائر من المهندسين (1068هـ/1658) من يأتيه بتفاصيل استراتيجية وتخطيطات جغرافية موضحة للشطوط الجزائرية لكي يختار منها مكانا لنزول الحملة الفرنسية فرفع اليه تقرير من طرف بعض المهندسين المختصين بالجوسسة.وفيه تعيين مكان ميناء جيجل والقل لهذه الغاية فقدمه هذا الى الوزير الفرنسي كولبير (1662/6/22م) ويومئذ عمل الوزير على ايقاد نار الحماس في مخدومهالملك،وفعلا شرع الملك في تكوين جبهة حربية ضد الجزائر فأنشأ حلفا رباعياً متكونا بالاضافة الى فرنسا: من بريطانيا العظمى وهولاندا وفرسان مالطة؛ غير ان هؤلاء الثلاثة امتنعوا عن المشاركة في هذا المشروع، فتحملت فرنسا وحدها عبء هذا المشروع وأخذت في تعبئة

الجيوش المقاتلة فجهزت ثلاثا وستين او قل ما يقرب من ثمانين مركبا حربيا وشحنتها بثمانية آلاف مقاتل وجعلت قيادتها البحرية للاميرالين بول ودوكين، اما الجيش فهو تحت قيادة الكونت (دوقا داني) Comte de gadagne ثم كانت الغارة على جيجل فسقطت المدينة يوم 28 ذي الحجة 1075هـ/1664/7/3م، ولم يكن هنالك من طرف الحكومة الجزائرية مقاومة تذكر فخندق الفرنسيون على مسافة من الشاطىء واخذوا في اقامة التحصينات لمهاجمة المدينة وبينما هم يومئذ على ذلك اذ فاجأتهم فيالق من الجند التركي كما احاطت بهم الجيوش البرية من المجاهدين وكانوا في مائة خباء، ومثلها كذلك عددا من جهة البحر فحمى وطيس الحرب بين الطرفين ودوت المدافع ذات العيار الثقيل واحدقت جيوش الاغا بمدينة جيجل حتى اضاقت العدو واشتد عليه الحصار فذهب قائد الحملة الفرنسية يستنجد بحكومته فأنجدته (فاتح ربيع الثاني 22 اكتوبر 1664م) بما لا يجديه امام القوات الجزائرية نفعا فانسحب منهزما الى مراكبه البحرية وذلك بعد مشقة بالغة تاركا وراءه جميع المؤونة والذخائر وكثيرا من جيشه المتخذل البالغ عدده (1400) وقيل الفي جندي و100 مدفعا ، وفي اليوم الثاني عشر من الشهر القمري /3 نوفمبر م اقتحم الاتراك المدينة فغنموا جميع ما ترك العدو وراءه من مؤن وسلاح واسروا ما هنالك من متخلفي الجيش الفرنسي، ومنذ يومئذ استمرت فرنسا على عداوتها للجزائر ومقاومة الاسطول الجزائري حيثما حل وارتحل فأحلت به خسائر فادحة ذهب ضحيتها نحو العشرين مركبا وفيها استشهد آغا الجزائر اسماعيل نفسه فخلفه موسى آغا، وما كاد يحول الحول على توليه هذه الاغا الجديد حتى توفي من سنته ولا اعلم عن ايامه القليلة هذه شيئا يذكر.

المسيحية في خدمة الاستعمار بالجزائر:

وبعد ان تكررت الخيبة المريرة على الجيش الفرنسي تجاه هذا الوطن حاولت الدولة الفرنسية تغيير منهاجها السياسي وسلوكها الديبلوماسي نحو هذه البلاد فركبت لتحقيق غايتها التوسعية مركب الدين وتدثرت باسم الجمعيات التبشرية المسيحية مثل بعثة الاب «لوقاشي» الفرنسية وارسالية القديس

«فانصـان دوبول» وطائفة لازاريت»[1] واستعانت هذه الطوائف التبشرية الفرنسية في عملها بزميلاتها الاسبانية فأقامت لها هياكل ومعابد دينية ومراكز متعددة في كامل هذا المغرب العربي محاولة بذلك خلق الفرص المواتية لاثارة دول اوربا المسيحية ضد المسلمين، ولقد نجح القساوسة في هذه المرة بعض النجاح واخذت الحكومات الاوربية تعتمد عليهم في تبرير غايتها وتوجيه مقاصدها السياسية لدى حكومة الجزائر ومما زادهم تمكنا في ذلك معاملة الوزير الفرنسي (كولبير) واحسانه اليهم، واصبح التعويل في تخليص الاسرى المسيحيين على هذه الجماعات الاوربية المنتسبة للدين وعلى الاخص رجال الكهنوت منهم ثم عهدت اليهم حكوماتهم بالتمثيل الديبلوماسي والقيام بوظائف السفراء حتى اجتمعت المصلحة المسيحية الى المصلحة السياسية الفرنسية، وحتى اصبح ممثل فرنسا هو ممثل المسيحية في ارض المسلمين [2] ومنذ يومئذ وفرنسا تماذق في سياستها وتداجي الجزائريين الى ان وقعت الجزائر في شرك الاستعمار الفرنسي سنة 1246هـ/1830م.

وهكذا نرى كذلك الشاطر عبد الجليل بصيلي يقرر لنا هذه الحقيقة التاريخية بتوضيح كامل فيقول: «اتجه الاوربيون من الفرنسسكان والدومينيكان خلال القرن الثالث عشر الميلادي صوب افريقيا بتأسيس مراكز للتبشير. وكان ذلك والحروب الصليبية تدور رحاها في شرق البحر الابيض المتوسط، ويبدو ان هذه الجماعات التبشرية قد جاءت الى هذه الديار تخفي وراءها اغراضا سياسية اكثر منها تبشيرية، والغالب على الظن انهم كانوا يعنون في الابقاء على القطيعة والفرقة بين مسلمي هذه المنطقة وبين مسلمي شرق البحر الابيض المتوسط حتى لا تتكتل القوى لمقاومة السيطرة الاوربية التي حمل لواءها البابوات.

والى يومنا هذا نجد بين علماء اوروبا ومؤرخيها من يصحح لنا ذلك ويحققه

---

(1) جمعية للرهبان تألفت للتبشير برئاسة القديس فانصان عام 1624م وقد اعترف بها البابا سنة1632م ونظامها أشبه بنظام الجيزويت، ولقد سمي اهل هذه الطائفة هكذا نسبة الى مستشفى الصابين بداء البرص المعروف باسم «Lazarete»

(2) الشرق الاسلامي ج 1ص 306

ومنهم الدكتور سلفاتوري بونو استاذ التاريخ بجامعة روما اذ نراه يقول: «وكان بعض رجال الدين يتوجهون الى بلاد البربر لفترات قصيرة للقيام بالدور الذي نيط بهم والمتمثل في تدبير افتداءات محددة وكان آخرون بالمقابل يقيمون بصورة دائمة في المدن البربرية حيث اسس ابتداء من تاريخ ما سلم تبشيري منتظم يخضع لمجمع الدعوة المسيحية وهذا من جديد برهان آخر على روح التسامح والاحترام حيال الدين المسيحي من الجانب الاسلامي وهو موقف كان اقل انتشاراً بكثير في الارض المسيحية(1).

وجاءت في اعقاب المبشرين جماعات أخرى من التجار الاوربيين من مسيحيين ويهود واشتغلوا في تجارة الذهب والعاج وغيرها من السلع التي تنقلها القوافل عبر الصحراء الى موانىء البحر الابيض المتوسط في افريقيا الصغرى.

وبقي التنافس في الفترة الاولى من القرن التاسع عشر قائماً بين اصحاب السلطان والمال في مختلف الدول، وقد كمنت وراء هذا التنافس العاطفة الشخصية بمطامعها المشوبة بالحسد والغيرة وحب الظهور وحتى وبالقوة والنفوذ، وقد بدأ التنافس بين الدولتين اللّتين تصدرتا هذا التنازع وهما انجلترا وفرنسا في حوض البحر الابيض المتوسط وشواطىء غرب افريقيا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ولم يتطور هذا التنافس الى المرحلة التي اضفت عليه المظهر الاقتصادي الا في هذه الاتجاهات عن طريق اموالها التي دفعت بها الى خارج بلادها لاستثمارها والهجرة الى ما غير ذلك.

وقد اخفى المظهر الاقتصادي بين طياته اكثر من عنصر انتقلت من جيل الى جيل مع رواسب الماضي، وكانت الدعوة الى التبشير من ابرز العناصر التي تخلفت عن العصور الماضية والتي استمد منها التوسع الاقليمي قوته، وسار التبشير جنبا الى جنب مع العنصر الاقتصادي وصار كل منهما متمما للاخر في تحقيق مطامع الدول التي اخذت في الازدياد الى درجة اصيبت معها الدول بحالات من الصرع افقدتها قيمتها الانسانية (2).

---

(1) الاصالة 1395,25هـ/1975م.

(2) محمود كامل: الدولة العربية الكبرى 203- 204- 211.

ولاية الحاج علي آغا:

انتصب الحاج علي آغا على اريكة الجزائر سنة 1075هـ/1665م وهو اول من جمع بين السلطتين العسكرية والمدنية واعطى له التصرف المطلق في مالية الدولة وخزينتها فكان لذلك اول من دعى ولقب بلقب ,,الحاكم,, متقلدا هذا الشرف الذي ينذر بالقتل على الدوام.

واهم شيء قام به هذا الاغا ايام ولايته هو حرصه الشديد ومحافظته الملحة على توثيق العلائق بين دولته وحكومة فرنسا ولقد رافقه النجاح في مسعاه هذا فتمت على يده اتفاقية جديدة بين الحكومتين (1077هـ/7 مايو 1666م) تأكدت بها المعاهدة السالفة الذكر (1038هـ/1628م) القاضية باحترام الصلة وتوطيد العلائق التجارية بين الطرفين مع تحرير الاسرى، وفعلا بادرت الحكومة الجزائرية الى تحرير وعتق 1127 اسير فرنسي ورضخت يومئذ فرنسا لدفع الاتاوة السنوية للجزائر في مقابلة الاذن لها بمرور مراكبها بهذا البحر، ولقد حاول الانكليز أن يتدخلوا بدبلوماسيتهم او قل بدسائسهم المعهودة بالنفث في هذه العقدة وحل هذه الرابطة التي هي في آن واحد ودية وتجارية - بين فرنسا والجزائر - وتعهد الانكليز بتنازله عن ثلاثين سفينة حربية لدولة الجزائر ان هي نقضت عهدها ونفضت يدها من فرنسا ولكن الجزائر استمرت محافظة على صداقتها لفرنسا وفاءا بالعهد وعاد التجار الفرنسيون الى مراكزهم التجارية غير ان دولة الانكليز كما هو شأنها ودأبها دائما وأبدا لا يلحقها ملل ولا كلل في سبيل الوصول الى غايتها السياسية مهما كانت المصاعب فأخذت في تحريض قراصنة الجزائر واطماعهم بالمال للاعتداء على المراكب الفرنسية في طول البحار وعرضها فكان لغفلة البعض من عصاة القرصان وبسطائهم وطموح الاكثرية منهم الى المال واغترارهم ببريق الذهب والفضة تأثير قوي في نفوسهم أدى الى تغيير مجرى السياسة في هذه الاونة بين الجزائر وفرنسا.

وحصل الانكليز على ما كان يصبو اليه ساستهم من بذر أسباب التفرقة والخلاف وبث الشقاق بين الدولتين المتصادقتين.

ونتج عن ذلك ان اتصلت عمارة فرنسا بمياه العاصمة الجزائرية سنة

1080هـ/1669م [1] ورمتها بالقنابل فاحتدم القتال بين العمارة والجزائر وانشيء من اجل ذلك يومئذ حصنان احدهما الذي بباب الوادي والاخر بتامدقوس وانكشفت حال الرياس القراصنة الذين اغرتهم اموال بريطانيا فسيق ثلاثة منهم الى المشنقة. وتألبت دول اوربا ضد الجزائر فسلطت عليها اساطيلها، وكان مما زاد في تعكير الجو بين الجزائر وفرنسا هو تحريض الفيلسوف ,,ليبنتز,, للملك لويس الرابع عشر على تدمير سواحل المغرب العربي وجميع بلاد الاسلام فاكتفت الحملة الفرنسية آنذاك برمي عاصمتي المغربين الاوسط والادنى - تونس والجزائر - بالمدافع اما في الميدان الداخلي فقد عرفت الجزائر سنة 1079 هـ / 1668 م ثورة قادها الاعراب المقيمون في ضواحي مدينة الجزائر، كما ثارت في الوقت نفسه بلاد القبائل، ولا يستبعد ان تكون كلتا الحركتين على اتصال ببعضها؟ [2] ويومئذ تآمر اعضاء الديوان على اغتيال آغا الجزائر الحاج علي فنفذوا فيه القتل يوم الخميس 14 جمادي الثانية 1082هـ/19 اكتوبر 1671م ودفن بناحية برج تافورة بالشمال الشرقي من العاصمة وبموته انتهى دور حكومة الاغاوات وهو العصر الرابع من العهد التركي بالجزائر.

سقوط حكومة الاغاوات:

لم يمض غير قليل حتى تبين للناس ان التغيير الجديد الواقع في رئاسة الحكومة الجزائرية واستبدال منصب الباشا بالاغا قد زاد الحال سوء وخطورة حيث اختل الامن وعمت الفوضى فضربت اطنابها في البلاد واقتتل الاغاوات فيما بينهم للوصول الى مركز الرئاسة وكثرت الاغتيالات حتى انه لقد اغتيل كل من الاغاوات الستة الذين تولوا الحكم في هذا الدور (1070 - 1082هـ/1659 - 1671م) وازاء كل هذا الصراع الحاصل بين الاغاوات

---

(1) وفي هذه السنة دخلت جزيرة كريت كلها تحت نفوذ الدولة العثمانية وهو آخر فتح لهذه الدولة مما فتحته من ممالك النصرانية، ولقد كان ان شارك الاسطول الجزائري من قبل (1078هـ)/ 1667م) في فتح مدينة قندية بنفس الجزيرة.

(2) تاريخ الميلي ج3ص ,176ط بيروت1964م

والوجاقات لم يجد جنود البحرية وطوائفهم الا ان يعلموا على التخلص من سلطة الاغاوات وان يستأثروا هم وحدهم بالسلطة فقتلوا الاغا الحاج علي وهو آخرهم وانتدبوا مكانه احد الرياس - من قادة البحر - وهو المسمى الحاج محمد التريكي[1] وتلقب بالداي، ومن ذلك الحين اصبحت السلطة الجزائرية بيد حكومة الدايات [2] الى ان سقطت امام الحملة الفرنسية وطغيان الاستعمار على البلاد (1246هـ/1830م)

---

(1) يراد بلفظ تريكي: المولع بالقهوة والشاي والتدخين

(2) الشرق الاسلامي ١ص 298- 299

آغاوات الجزائر

		تاريخ التولية
البكباشي خليل	آغا	1070هـ/1660م
بويوك رمضان	,,	1071هـ/ 1661م
شعبان	,,	1071هـ/1661م
اسماعيل	,,	1072هـ/1662م
موسى	,,	1074هـ/1664م
الحاج علي	,,	1075هـ/1665م

* * * *

سلاطين آل عثمان

1058 - 1099هـ

1648 - 1687م

	تاريخ التولية
السلطان الغازي محمد خان الرابع	1058هـ/1648م

لقد طالت ايام حكم هذا السلطان حيث استغرقت برهة من زمان الباشاوات وطوال عهد الاغاوات كله وردحا من عصر الدايات بالجزائر 1058 - 1099هـ (1648/1687م) اي مدة اربعين سنة وخمسة اشهر. ولا نعلم احدا اطال المكث في الحكم من سلاطين آل عثمان غيره.

من مشاهير الجزائر

ابو مهدي عيسى الثعالبي

1080هـ/1669م

العلامة الامام المتبحر جار الله ابو مهدي عيسى بن محمد بن احمد الثعالبي - نسبة الى ثعالبة متيجة بالسهل الجزائري - ويتصل نسبه بجعفر بن ابي طالب القرشي الهاشمي، ومثله في هذا النسب العلامة الشيخ عبد الرحمن بن محمد مخلوف الثعالبي دفين العاصمة وتقدمت ترجمته بالجزء الثاني من هذا الكتاب، وهؤلاء الثعالبة من ابناء ثعلب بن سجير بن معقل من مذحج، على انه لا يعلم لمذحج ارتباط بهذا النسب الجعفري الهاشمي؟...[1].

ولد المترجم رحمه الله بموطن زواوة وبه نشأ وحفظ القرآن الكريم واتقن من متولى العلم ما كان متداولا اذ ذاك بينهم من مصنفات العلوم الاسلامية حفظا وفهما وكان من ابرز مشايخه فيها عبد الله الصادق، ثم نزل عاصمة الجزائر فأخذ عن جلة المشيخة بها منهم مفتيها العلامة الشيخ سيدي سعيد بن ابراهيم قدورة شارح السلم في المنطق. كما لازم بها مجالس الاستاذ الكبير زعيم العلماء الشيخ ابي الحسن علي بن عبد الواحد الانصاري فأخذ عنه اكثر علمه واختص به وحظي عنده فزوجه هذا كريمته، وها نحن نرى ابا مهدي يصف لنا الاسلوب الذي كان يسلكه شيخه وصهره الانصاري في دراسة الحديث والادب فيقول:

,,انه كان ملتزما في درسه لصحيح البخاري الكلام على اسناد الحديث والتعريف برجاله من ذكر سيرهم ومناقبهم ومواليدهم ووفياتهم وما في الاسناد

(1) راجع تاريخ ابن خلدون ج 6ص 59 60- 64-ط بولاق 1284هـ

من اللطائف من كونه مكيا او مدنيا وما فيه من رواية الاكابر عن الاصاغ
والصحابي عن الصحابي ونحو ذلك، وعلى متنه بتفسير غريبة وبيان مح
الاستدلال منه ومطابقته للترجمة وما يحتاج من اعراب وتصريف وما فيه م
القواعد الاصولية وما ينبنى عليها من الفروع والالماع بما به من الاشارا
الصوفية وغير ذلك مما يبهر العقول. وفي درس الادب بقول: انه كان يأتي في
بالعجائب والغرائب، وربما تأتي عليه الايام وهو يتكلم على بيت واحد م
البردة... وانه كان اذا حمل القلم لا يزال يكتب به ما دام فيه مدة مدا
بدون تأمل ولا استحضار... وكان فيمن اخذ عنهم المترجم ايضا الشيخ سعيد
المقري عالم تلسمان ومفتيها ستين سنة.

وقد رزق الشيخ ابو مهدي حظوة عند عامة الناس وخاصتهم، منهم
الباشا يوسف والي الجزائر فاستدعاه لحضرته والحقه بخاصته الى ان وقع للباشا
ما اقتضى عزله عن الولاية وكان من حسن وفاء الشيخ وصدق صحبته ان
انتقل مع الداي هذا وصحبه في تنقلاته بأنحاء القطر الى ان حدثت هنالك
اسباب وحوادث حالت ما بينه وبين الباشا ففارقه.

ولما توفي صديقه الباشا وفقد شيخه الانصاري ومات الكثير من اقاربه
بمرض الوباء اخذ الشيخ يتنقل متجولا ما بين جبال زواوة ومدينة قسنطينة
وبسكرة ونواحي الزاب الجزائري، وكان ممن لقيه واتصل به من العلماء في
هذه الفترة الشيخ عبد الكريم بن الفكون القسنطيني، ثم ارتحل الى تونس فأخذ
بها عن الشيخ زين العابدين وذهب الى المشرق سنة 1061هـ (1651م) فحج
وجاور بمكة الى سنة ثلاث وستين، وقد قاسى في اول مجاورته من الفقر شدة،
فاتخذ له الصبر عدة، فلم يكشف قناع وجهه لطلب نوال امير، وقنع بالرغيف
والماء النمير، وكان لا يغشى ابواب الامراء، ولا يستنكف من مجالسة
الفقراء، لا يسأل الناس شيئا من اموالهم، ولا يرد ما اتاه الله من نوالهم [1].

وبقي سائرا على منهاجه هذا الى ان اشتهر بهذه الاقطار الحجازية اسمه
وذاع في الناس فضله، وطاب في المحافل ذكره فانثال عليه الطلبة من كل
جانب وبسط له في الرزق فعكف على تدريس الحديث بالكتب الصحاح وكان

---

(1) رحلة العياشي ج 2ص 126ط فاس 1316هـ.

كامل العدة والادوات من نحو وتصريف وبلاغة ومنطق وكلام واصول وفقه وتفسير وتصوف وتاريخ الخ... وقد وصفه بعضهم ممن ترجم له بعالم المغربين والمشرقين، ومسند الدنيا في زمانه، وذكره العياشي فيمن اجتمع بهم وانتفع بعلمهم من علماء مكة فقال في شأنه، لا تسأم مجالسته ان حادثته في اخبار الدنيا امتعك، وفي احوال الاخرة نفعك ,,وكان من جملة من اخذ عنهم واخذوا عنه من اعيان علماء الحرمين الشريفين: الزمزمي والبابلي والزين الطبري والقاضي تاج الدين المالكي والعمري. فأخذ عنهم علو اللاسناد واسمعهم من علمه وكتب الكثير من المسانيد والمعاجم والاجزاء بما لم يتفق لغيره من اهل عصره، وكان الشيخ البابلي يخاطبه بقوله: ما وصل الينا من المغرب الاوسط احفظ من المقري - صاحب نفح الطيب - ولا اذكى منك.

وارتحل الى مصر فنزل القاهرة سنة 1064هـ/1654م واتصل بعلمائها مثل النور الاجهوري والقاضي شهاب الدين الخفاجي والشيخين الاخوين محمد الشوبري شيخ الشافعية والشهاب احمد شيخ الحنفية، والبرهان المأموني والشيخ سلطان المزاحي والنور الشبراملسي. وغيرهم من حملة العلم وجهابذة اهل النظر، وكان الشيخ الاجهوري اذا رآه يقول له مع كبر سنه وتضجره من طنين الذباب، شنف الاسماع، لعلمه انه لا يأتي الا لسماع حديث او رواية غريب.

وكتب المترجم يوما للاخوين العالميين، شيخي الشافعية والحنفية بمصر يستجزهما. فلما وقف شيخ الشافعية على المكتوب اعجب به وقال معتذرا عن كتابة الاجازة، جاء في الحديث ان الله كتب الاحسان على كل شيء... واني لا احسن كتابة اجازة تناسب الاستدعاء الحسن... وطلب من اخيه الكتابة عليه فقال: انا على مذهب الاخ. وكتب له البرهان المأموني في اجازته انه ما رأى منذ زمان من يماثله بل من يقاربه.

قال العياشي: ,,ولو قيل ان شيوخه كانوا يستفيدون منه اكثر مما يستفيد

منهم لم يبعد، وذلك لان غالب الاستدعاة منهم انما هي الرواية وهم يستفيدون منه الدراية.

وبعد ان طاف الشيخ بالديار المصرية وجمع في صدره من حقائق العلم وغرائب المسلسلات ونوادر التواريخ وغير ذلك مما تقاصرت دونه همم اهل زمانه عاد الى الحرمين الشريفين فألقى بهما عصاه واخذ هنالك في بث العلم وخدمة الاسلام بالتأليف والتدوين فانتفع به اناس ممن رزقوا الحظوة في العلم وسمو الرتبة، وشدت اليه الرجال من البلاد النائية، فتخرج على يده جماعة منهم العلامة يحي الشاوي والعياشي صاحب الرحلة وابراهيم الكوراني والحسن العجيمي في آخرين...

وله من المؤلفات - كتاب - مقاليد الاسانيد، ذكر فيه من شيوخه المالكية واسانيد رواة الامام ابي حنيفة، وفهرست البابلي، وكنز الرواة المجموع في دور المجاز ويواقيت المسموع وهو كتاب ضخم في عدة اجزاء غريب الترتيب فيه اسماء شيوخه، يبدأ اولا بالتعريف بالشيخ وذكر مؤلفاته ومقروءاته وأسماء شيوخه حتى يستوفي جميع ذلك، ثم ينتقل الى ذكر قراءته هو عليه وما اخذ عنه قراءه من المؤلفات، ثم يذكر سند شيخه الى ذلك المؤلف فيكتب شيئا من اوله ثم يعرف بالمؤلف مع ما يتبع من ضبط الفوائد والنكت، وهكذا يفعل في كل ترجمة شيوخه وفي كل مؤلف قرأه عليهم او شيء منه، فاستوفى بذلك تواريخ غالب الائمة المؤلفين واسانيد مؤلفاتهم وذلك ما يدلنا على عنايته التامة بضبط تاريخ العلم واهله مع قوة حافظته واوقاته مع ذلك معمورة بالعبادة والتدريس وانواع الطاعات، ويوجد من كتابه كنز الرواة هذا نسخة مخطوطة بمكتبة الزاوية الحمزية جنوب مدينة مدلت من اقليم تافيلالت بالمغرب الاقصى وقد اطلعت عليها فاذا هي غير تامة حيث انها تنتهي بكلام مبتور حول ترجمة ابي عبد الله القضاعي البلنسي المعروف بالابار.

وتوفي صاحب الترجمة رحمه الله بمكة المكرمة يوم الاربعاء لست بقين من شهر رجب الفرد سنة (1080هـ ديسمبر 1669م) ودفن آخر النهار بالحجون - جبل بعلاة مكة - عند قبر الشيخ محمد بن عراق.

يحيى الشاوي

1096هـ/1685م

هو بدر العلماء الزاهر، وكوكبهم اللامع الباهر، الشيخ ابو ذكريا يحيى الشاوي لقبا لا نسبة، فقد روى انه قال في شأن هذه النسبة التي عرف بها: «وسبب تسميتي يحيى الشاوي هو ان ليلة ولادتي استضافنا الشيخ يحيى الشاوي وكان هذا السيد من اجلاء المشائخ فسماني والدي به تفاؤلا» والا فهو من مدينة مليانة ووالده هو الفقيه الصالح الشيخ محمد بن محمد بن عبد الله بن عيسى النائلي الملياني.

ولد المترجم رحمه الله بمدينة الجزائر سنة 1041هـ/1631م وبها نشأ فأخذ عن والده وعن مشيخه عصره من الجزائريين مثل الشيخ ابي عثمان سعيد قدورة مفتي الجزائر وابراهيم الغبريني وابي الحسن علي بن عبد الواحد الانصاري ومحمد العربي الزواوي وابي مهدي عيسى الثعالبي وبمليانه عن الشيخ محمد السعدي ابهلول وأجازه الشيخ عبد الكريم الفكون وغيره من فطاحل علماء العصر بالجزائر قال سمعت والدي يقول، كان في بني راشد- بحوز معسكر- ثلاثمائة مجلس في المرادي خاصة وكان رحمه الله على تحصيل العلم ومن شدة حرصه وتعلقه الشديد بطلب العلم إنه ارتحل مرافقاً لشيخه أبي مهدي في سفره مسيرة ثماني مراحل وذلك لاتمام تحقيق بعض مسائل من العلم ثم انصرف عائدا الى بلده متصدرا للدرس والاقراء، فكان آية في الحفظ وتقرير المسائل العلمية وتحريرها متمكنا ضليعا من علوم التفسير والفقه والاصول والمنطق واللغة والبيان وروى عنه انه قال عن نفسه: حفظت في صغري ثمانيا واربعين تأليفا وترجم له تلميذه المحبي في خلاصة الاثر فقال: كانت حافظته مما يقضي منها العجب! وقال تلميذه الشهاب احمد بن قاسم البوني في ثبته: «كان يحفظ شرح التتائي الكبير - علي خليل - وشرح بهرام الوسط وغيرهما بل يحفظ ستين كتابا من الكتب الكبار كمختصر ابن عرفه الفقهي وهو ستة اسفار كبار جمع فيه اكثر المذهب حتى انه يذكر في بعض المسائل خمسين قولا منسوبة لقائلها وامثال ذلك، واما التآليف التي هي كراريس قليلة يحفظ منها ما لا يحصى،

كيف لا وهو يحفظ من ثلاث عرضات لا غير، فحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين ثم اشتهر بالحفظ وحدة الذهن وجودة الأفكار حتى عبر عنه شيخنا سيدي بركات بن باديس القسنطيني (المتوفي سنة 982 هـ) بقوله: «انه عالم الربع المعمور».

وعرج الشيخ في طريقه الى الحج سنة 1074هـ/1663م على مدينة قسنطينة فانتهز الشيخ بركات ابن باديس هذه الفرصة ورفع اليه سؤالا منظوماً حول حكم اكل لحوم الحيوانات المصطادة بالبندقية قال فيه:

ابدر بدا من جانب الغرب قادم وبحر علوم لا يكاد يلاطم
سألتك يا فخر الزمان وصدره عن حادثة احدثتها الاعاجم
أفيم يصاد بالبنادق رخصة؟.. تزيح ظلام الشك والصدر سالم
أجب سائلا يبغى الافادة منكم وانت امام بالشريعة قائم
واختم نظمي بالصلاة على الذي وفدتم اليه بالركاب تزاحم

فأجابه المترجم له بقوله من البحر والقافية:

أتانا سؤال من فقيه منادم امام اهل التحقيق خذه وصاره
يؤمل مني في البنادق رخصة تزيح ظلام الشك عن كل عالم
فقلت فيها خلف وراجح قولهم اباحة صيد منها ليست بصادم
فتاوى لاهل فاسنا كابن غازهم ومنجورهم بالحل يا خير فاهم
وخالفهم غير بحجة صدمها ولا حجة بها وبالعلم قاوم
وحجة من اباحها مورد الصقا لما انهر الدم الحديث لهاشم
مدونة تسحنون تأول لفظها بتحريمها بالبنادق آجم
بان المراد ما من الطين صنعها ويضرب بالاقوال صرعا لقائم
فالبراذعي تأول لفظها وحفظ نظام تحت نعم المكالم
وصل وسلم بكرة وعشية على المصطفى الهادي لكل مسالم

ووفد الشاوي على مصر قاصدا مكة المكرمة، فلما حج عاد الى مصر فاتصل بأعيان علمائها وفضلائها مثل الشيخ سلطان والشمس البابلي والنور الشبراملسي فأخذ عنه هؤلاء وروى عنهم ايضا واجازوه برورياتهم وتصدر

للتدريس بالازهر الشريف فأقرأ الفقه بمختصر خليل والنحو بشرح المرادي على الالفية، والكلام بعقائد السنوسي وشروحها، والمنطق بشرح ابن عرفة على جمل الخونجي....

ثم بدا له الارتحال والتجول بأنحاء الشرق الاسلامي فسار الى بلاد الشام ودخل عاصمة الامويين فعقد بمسجدها الجامع مجلسا عاما حضره يومئذ اعيان دمشق وعلماؤها في جم غفير من الناس فشهد الكل بفضله وامتدحه منهم الشعراء والادباء بقصائد واشعار كثيرة واستجازه النبلاء. ثم قذفت به الاسفار الى بلاد الروم التركية دخل دار السلطنة العثمانية وحظي هناك بعناية الصدر الاعظم مصطفى باشا - الوزير الاول - واكرمه شيخ الاسلام يحيى افندي المنقاري ودعي الى حضور مجالس العلماء، فأعجب الكل به وشارك بالمناقشة والبحث في المجلس العلمي الذي كان يعقد بمحضر السلطان فأظهر تفوقا عظيما وتبحرا في العلم منقطع النظير.

ثم غادر بلاد الروم عائدا الى مصر فدخلها محترما معظما مهابا فتولى منصب التدريس بعدة امكنة من مدارسها الشهيرة كالاشرفية والسيمانية والصرغتمشية وغيرها، وتولى بها قضاءا المالكية وامارة ركب حج المغاربة مرتين.

ثم اعاد الكرة ثانيا الى البلاد التركية فأنزله مصطفى باشا - صديق السلطان - بداره، وهناك وفد عليه الادباء والطلاب يلتمسون منه العلم، فاقراهم التفسير بحاشية العصام على البيضاوي ومختصر المعاني على حاشية الحفيد والخطابي، والفية ابن مالك في النحو، وشرح الدواني على العقائد العضدية، واجاز رحمه الله جميع من حضر مجالسه هذه من اهل العلم والفضل، وكان فيمن اجازهم من تلامذته محمد امين المحبي صاحب خلاصة الاثر، وابو الاسعاد بن الشيخ ايوب، والشيخ زين الدين البصري والشيخ عبد الرحمن المجلد، والسيد ابو المواهب سبط العرضي ومنهم سيدي محمد بن الشاهد الكبير مفتي المالكية بالجزائر وسيدي احمد بن الحاج موسى الجزائري.

ثم عاد الشيخ راجعا الى مصر مرة اخرى وفي هذه المرة عكف على التأليف وكرس حياته للتعليم والدرس فتخرج على يده جماعة كثيرة هي منبثة

بالديار الشامية والمصرية وفي البلاد التركية ايضا، وكان رحمه الله جماعة للكتب، حدث عنه من رآه بمصر فقال: ملك شيخنا يحيى الشاوي خمسة عشر مائة مجلدا كذا سمعته منه، وترجم له النور علي النوري الصفاقسي في فهرسته فقال: هو اشعري الزمان وسيبويه الاوان، قال ولم ار اسرع منه نظما، وقرأنا عليه شرح المرادي على الالفية وكنا نصحح نسخنا على حفظه ولما كتب لي الاجازة قال: مؤرخة بمجموع الاسم واللقب ,,فعددت حروف,, «يحيى الشاوي,, فوجدتها 1078 وذلك هو التاريخ فتعجبت من شدة فطنته[1].

وللشاوي من التآليف كثير منها كتاب اصول النحو سلك فيه مسلك الاقتراح للسيوطي وضعه باسم السلطان محمود خان الاول قالوا انه لم يسبق لمثله، وله شرح على تسهيل ابن مالك ونظم لامية في اعراب اسم الجلالة اسماها ,,الدر النضيد في اعراب كلمة التوحيد,, جمع فيها اقوال النحاة وله عليها شرح حسن، وكتاب توكيد العقد فيما اخذه الله علينا من العهد، يحتوي على 326 صفحة وضعه سنة 1077 هـ توجد منه نسخة بالمكتبة السليمانية في اسطنبول تحت رقم 1594م وله شرح على مقامات الحريري، وتفسير لبعض آي القرآن الكريم اطال فيه النفس وكتاب ناقش فيه بعض شراح العقائد النفيسة وضعه في ستة كراريس، ووضع كتابا في معنى ,,اي,, اسماه الحاق العي بفهم معاني ,,اي,, وله حواش عديدة وضعها على كتب كثيرة، منها حاشية على ام البراهين في نحو العشرين كرسا، واخرى على شرح المرادي للخلاصة في النحو تحتوي على 672 صفحة منها نسخة بمكتبة السليمانية في اسطنبول تحت رقم 3246 وحاشية على شرح التتائي الكبير لم تكتمل، واخرى على شرح الدماميني لم تكمل ايضا، وحاشية على شرح الشريف للاجرومية، وحاشية على شرح الاجهوري لشرح الناصر اللقاني على خطبة مختصر خليل المالكي، وحاشية على شرح عصام الكافية ابن الحاجب، وحاشية على شرح عصام للاستعارات ووضع كتابا في المحاكمة بين ابي حيان المفسر و الزمخشري وابن عطية في التفسير الفه في اقل من شهرين في نحو ثلاثين كراسة، توجد منه نسخة بمكتبة الازهر في مصر منقولة عن نسخة

---

(1) الكتاني: فهرس الفهارس ج2ص 446 طبع فاس 1347هـ

ؤلف تحت رقم 1254 (رافعي) وهي برقم 26641 (تفسير) وهي في 218
رقة، واخرى بمعهد احياء المخطوطات بجامعة الدول العربية مصورة عن
سخة مكتبة (لاله لى) برقم 259 كتبت سنة 1079 هـ اي في حياة المؤلف، كما
وجد منه ايضا نسخة باسطنبول بمكتبة (ملت) تحت رقم 189. وله غير هذا
ن رسائل شتى كتبها في مواضع مختلفة من العلم.

وتوفي رحمه الله في طريقه مبحرا الى الحج، وتحركت يومئذ عاصفة بحرية
قطعت شراع السفينة فقصد اهلها اليابسة بمكان يقال له (رأس ابي محمد)
فارسوا هناك ودفنوه بذلك المكان (الثلاثاء 10 ربيع الاول 1096 هـ/9 فيفري
168) ثم نقله ولده الشيخ عيسى بعد ذلك الى مصر فدفنه بالقرافة الكبرى
بتربة المالكية تغمده الله برحمته.

احمد بن قاسم البوني
1139هـ 1726م

اوحد كبار العلماء المحققين واقدر قراح الكتبة المؤلفين المعدودين الامام
الراوية المسند الواعية الشيخ ابو العباس احمد بن الشيخ ابي عبد الله قاسم بن
محمد المعروف بساسي البوني التميمي المسيتي، ولد ببلدة بونة - عنابه - سنة
1063 هـ/1653م، واخذ علمه عن علماء أجله من مشايخ الجزائر وعلمائها
وفضلائها المبرزين، منهم والده قاسم الذي بلغت مؤلفاته المائة... ويحيى الشاوي
وسيدى بركات ابن باديس القسنطيني شارح الفية ابن مالك وغيرهم.

وبعد ان اكتمل الشيخ معلوماته بالمغرب ارتحل مستزيدا طالبا للعلم الى
المشرق. فلقي بالقاهرة اعلاما لازمهم واخذ عن اعيانهم منهم الشيخ عبد
الباقي الزرقاني، والاجهوري، والخرشي، والشبراخيتي، وخليل واللقاني الخ...
واجتمع به الشيخ احمد بن الحاج موسى الجزائري بمصر اواخر المحرم سنة
1092 هـ، ثم تصدر للاقراء فتخرج على يده جماعة منهم ولده محمد، واحمد
زروق، وانقطع للتأليف فكتب في اغلب العلوم التآليف العديدة المفيدة، فألف

في الفقه والتفسير واللغة والادب والتاريخ واصول الدين والجدل والطب الخ
كان فيمن اجتمع به الشيخ عبد الرحمن الجامعي واخذ عنه واثنى عليه
رحلته فقال: له تآليف تنيف عن المائة ما بين مختصر ومطول نظماً ونثراً و
جزءاً قليلاً منها. واكثرها في نظم متون العلم.

وها نحن اولاً ننقل فهرست اسماء كتبه ومؤلفاته عن كتاب شيخنا
القاسم الحفناوي - تعريف الخلف برجال السلف 2 ص 515 - 553،
نقلها هو عن كتاب ,,التعريف بما للفقير من التأليف للمترجم نفسه، وقد آثر
التصرف في نقلها هنا مرتبا لها على حسب المواضيع لتكون فهرسا جامعا لمؤلفا
ونموذجا مرتبا لحركة التأليف والمواضيع الهامة التي كانت تبعث النشاط
علماء الجزائر في ذلك العصر، فله في التفسير:

التفسير:

تحفة الاديب بأشرف غريب، اختصر فيه غريب القرآن الكريم للعزيزي
ونظم لغريب العزيزي في نحو اربعة آلاف بيت، وارشاد الزمر لمعنى قوله تعا
لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر، واتحاف الاقران، ببعض مسائل القرآن
والفتح القدسي بتفسير آية الكرسي، ونظم في اختلاف العلماء في كون البسملة
آية من كل سورة من القرآن ام لا؟ ونظم لغريب القرآن لابن عباس، ونظ
آخر لغريب القرآن لابن جزي.

وله في الحديث:

نظم كتب البخاري، وكتاب اظهار بعض نفائس ادخاري المهيآت لخ
البخاري، وفتح الباري بشرح غريب الامام البخاري، والالهام والانتباه
رفع الايهام والاشتباه، الكائنين في البخاري - والتحرير لمعنى الاحاديث
المأخوذة من الجامع الصغير، وهي حاشية على كتاب روضة الازهار في الحديث
والفتوحات الكونية بشرح اربعين البونية، وهو الشرح الكبير، والصغير المسمى
بفتح القوى المعين بارشاد المطالعين لشرح الاربعين، والتحقيق في اصل
التعليق - الكائن في البخاري - ونظم كتب الامام مسلم، ونظم نخبة الفكر
في مصطلح الحديث لابن حجر، وتأييد اهل الاستقامة بمعنى غريب كتاب
الاذان والاقامة، ونظم الخصائص النبوية، والمستدرك على الحافظ السيوطي

ونظم الشمائل واختصار مقدمة ابن حجر للفتح ، وتخميس قصيدة قرة العين بمدح الصحيحين لسيدي محمد ساسي.

وله في اصول الدين وعلم الكلام:

نظم كتبا كثيرة في العقائد منها كتاب المقاصد الدينية للتفتزاني في نحو الفي بيت ، وقواعد الاسلام ، وصغري السنوسي ، وصغرى الصغرى والوسطى وعقيدته السادسة وهي مجهولة عند كثير من الناس شرحها صديقه الشيخ عبد الرحمن الجامعي ، وقد قيل ان السنوسي وضعها للنسوان والصبيان ، ونظم عقائد النسفي ، وشعب الايمان ، وعقيدة الرسالة لابن ابي زيد القيرواني وعقيدة ابن الحاجب ، واليقوتتان الكبرى والصغرى في التوحيد ، وعقيدة الطحاوي المساة بالعقد الضاوي ، والنفحة المسكية في نظم العقيدة السبكية ، وفتح المعيد بنظام عقيدة ابن دقيق العيد ، والمعارف الانسية بنظم العقدة الانسية للخمى ، والفتح المتوالي بنظم عقيدة الغزالي ، والنعم الكبرى ، بشرح شرح الصغرى لم يكمل ، ونظم عقيدة الامام محي الدين بن العربي وارشاد المغري لاختصار الصغرى ونظم عقيدة ابي مدين شعيب بن الحسين الاندلسي دفين تلمسان ، والمواهب القدسية بنظم الوغليسية ، وفتح الكريم الحي بنظم عقيدة ابن جزي ، والمنهج المبسوط في نظم عقيدة السيوطي ، فرغ منه آخر شهر شوال عام 1128 هـ ، ونظم عقيدة ابي منصور الماتريدي وعقيدة الشيخ عبد القادر الجيلاني والشاذلي وعقيدة الابشيهي المذكورة بأول كتابه المستطرف ، وعقيدة الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني ، وعقيدة الامام الراعي الاندلسي ، وعقيدة الامام العز بن عبد السلام ، وعقيدة العقد ، وعقيدة الشعراني ، وله كتاب الجود بجواب اسئلة الوجود ، وشرح عقيدة الوالد.

وله في الفقه:

شرح مختصر خليل جمع فيه زبدةما في شرح الخرشي والاجهوري والتتائي وبهرام والمواق والحطاب والزقاني وغيرهم لم يكمل انتهى فيه الى الاذان ، سماه فتح الاغلاق على وجوه مسائل مختصر خليل بن اسحاق ، وشرح آخر اخصر من التتائي الصغير ، ونظم فصول مختصر خليل مماثلا به نظم الاجهوري ، كما نظم المختصر نفسه في نحو العشرة آلاف بيت ونظم الكتاب الجامع لخليل ايضا في نحو

الف بيت، ونظمان في التوقيت، ورسالة اظهار القوة باحكام الباب والكوة، والرسالة الغوثية باحكام بعض المسائل اللوثية، ونظم فرائض خليل لم يكمل، ونظم آخر لفرائض الرسالة، وفتح الشبيك عن مسألة لبيك، والاغاثة على بعض مسائل الحضانة، ونور الشمعة المذهب لظلام اهل الرياء والسمعة، في بعض مسائل الحجر والشفعة.

وله في اصول الفقه:

ولسنا نعلم اله في علم اصول الفقه الا كتابا واحدا وضعه في نظم الورقات وهو المسمى كنز النفوس الشيقات في نظم الورقات لامام الحرمين.

وله في فنون اللغة والادب:

انس النفوس بفوائد القاموس فيه اكثر من الف فائدة، وديوان شعر لم يكمل، ونظم الاجرومية في تسعين بيتا، وله شرح عليه لم يكمل، وشرح لامية ابن مالك لم يكمل، ونظم القطر لا بن هشام لم يكمل، وتعجيز التصدير وتصدير التعجيز للبردة، وآخر قريب منه لم يكمل، ومجموع في السماع لم يكمل، والزهرات الوردية المتنشقة من القصيدة المولدية، واكرام من احبني او قلاني، ونظم الجمان في مدح الشيخ سيدي عبد الرحمن واعانة المعاني بما للفظ العجز من المعاني وقرة العينين في مدح الصحيحين، وهو تخميس لقصيدة جدة واعلام الاعلام بشفاء الالام في مدح المصطفى عليه السلام وتنوير الحجا باسرار الحجا جمع فيه ما يزيد على مائة لغز جارى فيه شيخه سيدي بركات ابن باديس القسنطيني.

وله في السيرة والتاريخ والجغرافية:

كتاب اللمحة البرقية السنية بذكر السيرة المحمدية، واختصار شرح الشهاب الخفاجي على كتاب الشفاء للقاضي عياض لم يكمل، وتنوير السريرة بذكر اعظم سيرة، وطرز الحمائل في الشمائل، والسراج في ذكر بعض البعض من فضائل صاحب المعراج، وتنوير قلوب اولى الصفا بذكر بعض شمائل الحبيب المصطفى... والتيسير في اسنادنا في كتب جمع من التفسير، ونظم الخصائص الكبرى للسيوطي في نحو ثمانمائة بيت، ونظم اسماء الرسول صلى الله عليه وسلم

التي ذكرها صاحب الدلائل، ونظم اسمائه عليه السلام التي شرحها الرصاع، ونظم السيرة المحمدية، ونظم تراجم كتاب الشمائل للترمذي والنفحات العنبرية في نظم السيرة الطبرية، ورسالة في التعريف بمؤلفاته اسماها بالتعريف بما للفقير من التآليف، ونظم مشتمل على سنده في الفقه، واعلام الاحبار وبغرائب الاخبار، ونظم اشتمل على وقائع مراد باي التونسي مع عسكر الجزائر، وذكروا ان فيه تفصيلا وافيا لما جرى بين الجيوش من الوقائع وكتاب فتح المعين بذكر مشاهير النحاة واللغويين، والثمار المهتصرة في مناقب العشرة، والروضة الشهية في الرحلة الحجازية، لم تكمل والدرة المصونة او الكنونة في علماء وصلحاء بونة وهي الالفية الصغرى نشرت بالتقويم الجزائري سنة 1913م، والياقوتة المصونة في صلحاء بونة تحتوي على ثلاثة آلاف بيت، وشذا او نفح الروانيد بذكر بعض المهم من الاسانيد، ونظم فتح رب البرية، بذكر رجال الرسالة القشرية، وله النكت المجتلبة الزاهرة من تاريخ مصر والقاهرة لم يكمل، وطل السحابة في الصحابة لم يكمل، والتعريف ببلد سيدي مروان الشريف - بونة - ونظم في اسناده لخمسة وعشرين تفسيرا.

وله في فنون الحكمة والطب:

اعلام ارباب القريحة بالادوية الصحيحة، ومختصر تذكرة داود الانطاكي، واتحاف الالباء بأدوية الاطباء وتبيين المسارب فيما يتعلق بالاكل والطب والمشارب وهو نظم يحتوي على اكثر من الفي بيت، ونظم في منافع الثوم.

وله في التصوف والمواعظ والرقائق والاذكار:

نظم اخلاق الصوفية التي حواها كتاب تنبيه المغترين للشعراني، واتحاف النجباء بمواعظ الخطباء، ونظم جامع آداب الدعاء وشروطه واركانه وقطع النخاع من اهل الابتداء لم يكمل، وروضة الازهار ونفحة الاسحار في الصلاة على النبي المختار وهو على نمط تنبيه الانام يحتوي على مقدمة وخاتمة، وزاد المسير الى دار المصير، وديوان الموارد والمشاهد التي من الله بها على السيد الوالد لم يكمل، واختصار كتاب العلوم الفاخرة للشيخ عبد الرحمن الثعالبي لم يكمل، وفتح القادر في بيان الطريق للمريد، وتشنيف الاذان بفضائل الاذان، والظل الوريف، في الحث على العلم الشريف، وغبار نعال اهل الله تعالى، والهام

السعداء لما يبلغ لمراتب الشهداء، وحث الوارد على حب الاوراد، وهو يشتمل على ثمانية كتب، اولها تلقيح الفكر بفضائل الذكر، وثانيها ابتهاج الافكار بمسائل الاذكار، وثالثها اليواقيت المنشورة في اسانيد الكتب المأثورة ورابعها رفع الاشتباه عن حديث الانتباه، وخامسها نلىء المعا بأحكام الدعا، وسادسها انفع العطر بذكر الخضر، وسابعها مورد الصفا في فضائل الصلاة على المصطفى، وثامنها الكنز المختبىء في الصلاة على النبي المجتبى، وكتاب الترياق الفاروق لقراءة وظيفة الشيخ زروق لم يكمل، ونظم الذخر الاسنى بذكر اسماء الله الحسنى، وفتح الكريم الاكرم بذكر الاقوال في اسم الله الاعظم، والتيجان المكللة بدور فصول التعوذ والبسملة، ورفع الذيل عن بعض فضائل قيام الليل، وفتح الرقيب بمدح اثار الصالحين وبعض آداب النقيب، والسحر الحلال بما استدرك من خصوصيات الجمعة وليلتها عن ابن القيم والجلال، والكواكب النيرات المعلقة عن دلائل الخيرات، واعلام القوم بفضائل الصوم، وفتح رب السماء بذكر فضائل العلماء، ونظم في التوسل بسور القرآن الكريم، وانارة الدجا بحسن الظن واسباب الرجاء والغرر في شرح الدرر، ونظم رفع القدر بالاستنجاد بأهل بدر، وعلام الاقران بفضائل رمضان، وتلقيح الافكار بتنقيح الاذكار، واختصار اليواقيت والجواهر للشعراني، ورفع الهوان عن بعض الاخوان المستغيثين بالقطب سيدي ابي مروان دفين جامع بونة المشهور باسمه الان. الدر الاسمى في التضرع لخالق اهل الارض والسما ولباب اللباب في ذكر رب الارباب وتبشير القلوب بتكفير بعض الاعمال الصالحة كبار الذنوب، وفتح المنسال بذكر بعض الخصال الموصلة الى الجنان، وكشف الران عن قلب قارىء سورة القرآن، والجوهرة المفيدة في نظم الرسالة القدسية. ابياتها نحو 775 بيت، وقمع المرائي بنفع المرائي ونظم اشتغاثة بالشيخ عبد القادر الجيلاني، وكتاب التيسير في فضل الاجر الكثير بالعمل اليسير، وهو في فضائل الرباط، واعلام الزهداء بعدد الشهداء نظم ونثر، والفتح المولوي بشرح الفاظ النووي، نظمه في حياة والده وبسببه اثنى عليه شيخه العلامة يوسف بن محمد فكيهات الاندلسي صاحب نظم الشذور ومدحه عليه، ونعم الحركة في اختصار

كتاب البركة، وتليين القاسي من نظم الامام القاسي، والجواهر المنظمة في عقد المقدمة، واليواقيت المنضدة بنظم المرشدة، وخير القرى بالياقوتة الكبرى.

وله اكرم الله مثواه غير ذلك من الفوائد والحواشي والتعاليق بهوامش الكتب في شتى المواضيع، وقد اصطفاه الله لجواره فنقله الى دار كرامته سنة 1139 هـ (1726 م) وجدير بالجزائري هنا ان ينشد قول الفرزدق مفتخرا بقومه:

اولئــك اقوامي فجئـــني بمثلهم   اذا جمعتنــا يا جرير المجامع!..

جدول تاريخي

1069 - 1082هـ

1659 - 1671م

تاريخ الوقائع والاحداث	اهم الوقائع وابرز الاحداث
1069هـ/1659م	فاتحة حكومة الاغاوات بالجزائر
1070هـ/1660م	انشاء بناية الجامع الجديد الحنفي بالعاصمة
1071هـ/1660م	خيبة الحملة البريطانية على الجزائر
1072هـ 1662م 1073هـ 1663م	توالى انهزام الحملة الفرنسية ضد الجزائر اربع مرات، وانكسار الاتراك بوهران.
1075هـ1664م	خيبة الحملة الفرنسية ضد مدينة جيجل، وانتشار البعثات والارساليات المسيحية بالجزائر
1076هـ/1665م	توثيق العلائق التجارية بين الجزائر وفرنسا
1080 هـ/1670م	اغارة الانكليز على الجزائر ورميهم لها بالقنابل
1082هـ/1671م	اغتيال الحاج علي آغا وبه كانت نهاية عصر الاغوات بالجزائر

عصر الدايات
1082 - 1246هـ
1672 - 1830 م

هذا هو الدور الخامس والاخير الذي لعبته الحكومة التركية بالجزائر وهو اطول وامد ادوار العهد التركي بهذا الوطن فلقد استمر عصر الدايات هذا من سنة 1082 الى سنة 1246هـ/1672 - 1830م اي طوال مدة قرن ونصف، وهي مدة تعدل نصف تاريخ ايام وجود الحكومة التركية العثمانية بالجزائر.

وكان من اهم البواعث وادعى الدواعي التي دعت الى الغاء نظام الاغوية وتغيير نظام حكومة الاغوات والباشاوات قبلهم - واحداث هذا النظام الجديد. «نظام الدايات» هو ما احدق بمنصب الاغا من الخطر المرعب - خطر الاغتيال والقتل المتتابع كما المعنا الى ذلك فيما قبل فكان ذلك سببا لتباعد الناس عن هذا المنصب بل وتنكبوا عن جميع مناصب الحكم والرئاسة، ولا سيا منها منصب رئيس الحكومة الاعلى الذي اصبح الجالس على كرسيه فكأنه تبوأ (الكرسي الكهربائي)، وذلك من حيث فشو القتل والاغتيال في اكثر الباشاوات بل وكل الاغاوات بالجزائر. فصاحب هذا المنصب دائما وفي كل حين هو في خطر مهدد بالتلف والافتراس والقتل، وكأن ذلك اضحى سنة متبعة وشريعة مطاعة وعملية محتمة لكل من تولى رئاسة هذه البلاد، فلأدنى سبب تافه او خلاف طفيف ينشأ بين الرئيس ومرؤوسه ترى عملية القضاء على حياة الباشا او الاغا تتقدم الاعمال، فتطير الناس من هذا المنصب وتجنبوا عنه وهجروه واصبحوا يرونه مشؤوما عليهم وعلى نظام الحكم في البلاد، ويومئذ ارتأى اعضاء مجلس الديوان واهل الحل والعقد من رؤساء البحر ورجالات الفرصنة تدارك موقف منصب رئاسة الحكومة الجزائرية المهدد بالخطر. بافاضة

نوع من انواع الاطمئنان والاستقرار على هذه الوظيفة حتى ترتفع هذه الفوضى الشاملة عن البلاد ويرتاح الى هذا المنصب خاطر المترشحين له ويتحقق بذلك الامن في البلاد ويضمن لها بذلك استقلالها الداخلي الذي سرت عليه اشواطا فاستأذنوا من الدولة العلية ان يعينوا رئيسا على الجزائر من وجاقهم بمعرفتهم لحمايتهم فاذن لهم السلطان محمد الرابع بذلك فلقب بلقب الداي[1] بتضخم الدال قريبا من الضاد على انه لم يسلم من الاغتيال من هؤلاء الدايات ايضا سوى القليل، اذ قد تولى اربعة عشر دايا باغتيال اسلافهم....

وتولى الرؤساء الجدد خطتهم الجديدة هذه وباشروا التنفيذ بتغيير نظام منصب (الاغا) فنصبوا على رأس الحكومة الجزائرية رئيسا يحمل لقب(الداي) ويدعونه ايضا بالدولاتلى اي صاحب الدولة، وهو الرئيس الاعلى القائم على تنفيذ السلطة التركية بالجزائر مع مراعاة لقب الباشا الشرفي لقبالداياحتراما وتقديرا لمراسيم الباب العالي باستنبول، فتراهم يقولونه هكذا: «داي فلان باشا» وكان في اول الامر ينتخب من بين ثلاثة موظفين سامين، هم الخزناجي، وخوجة الخيل، وآغا العرب؛ واتخذ القوم في ذلك قرارا بأن لا يعزل، الداي من منصبه هذا ولا ينقل منه الا بموته او تنازله واستعفائه تلقائيا وان لا يكون منصبه هذا وراثيا.

وتمكن هؤلاء القادة والرؤساء المتصرفون من اعلان سطوتهم بالتسلط على الادارة الجزائرية فامتلكوا زمامها مدة اثنتي عشر سنة وباشروا تسمية الداي الاول وخلفاءه الثلاثة من بعده، ثم تغلب عليهم اوجاق - فرقة - الانكشارية ولكنهم استطاعوا آخر الامر من استرجاع نفوذهم والمحافظة على سلطانهم وكان انتخاب الداي في هذه الحالة لا يعدو ان يكون تزييفا محضا، ذلك ان المرشح للحكم يبايع قبل الانتخاب، ويقام غالبا في الحكم بالقوة، ولم تكن ثمة شروط تراعى في ملء منصب الداي فلا وزن هناك للحسب ولا للكفاءة، واستمرت دار الخلافة العثمانية على خطتها التقليدية المرسومة عند

---

(1) لفظ تركي معناه الخال أخو الام، ولا تزال الاسر العريقة من أهل مدينة الجزائر تعرف الخال وتناديه بهذا اللفظ: (دي دي) هكذا مكررا، وانما لقب الجند أميرهم أو زعيمهم بهذا اللقب من قبيل الديموقراطية على اعتبار أن الوالي هو من احد افراد اسرتهم.

تولية باشاوات الجزائر بخلع كسوة الشرف عليهم وتسليمهم مرسوما او ظهير الولاية - الفرمان -، وهكذا الى سنة 1123 هـ/1711م حيث اغتيل الباشا « بكداش » واعتصب القوم هنا بالجزائر ضد تدخل سلاطين الاستانة في شؤونهم الداخلية كالتولية والعزل فأصبحوا لا يولى عليهم منذ يومئذ الا من يرضونه وبهذا اصبحت الجزائر يومئذ شبه ولاية مستقلة لا ارتباط لها بدار الخلافة ولا صلة لها بها الا كسائر ارتباطات الحكومات المستقلة بشؤونها بهذه السلطنة العثمانية احتراما وتقديرا للقب « الخليفة » الذي يحمله سلطان استانبول. ويومئذ اتخذ القلم العربي صبغته الرسمية فاحتل مكانه في الادارة الجزائرية الى جانب القلم التركي، واضبح (الداي) وهو الباشا بالجزائر عبارة عن ملك، مستقل له مكانته الملكية وميزته المرموقة بين الملوك ورؤساء الحكومات وهو الذي ينتخب وزراءه ويولى على الاقاليم من يرى توليته من البايات ويقيم العدالة ويفاوض الدولة الاجنبية وفي مكنته ان يجمع ثروة لخزانته الخاصة بمشاركة التجار علاوة على دخله الخاص مما يحصله من اتاوات وهدايا مختلفة مضافة الى نصيبه المقرر في غنائم القرصان...، غير انه لم يكن منصبه وراثيا.

ولاية الداي الحاج محمد التريكي:

هو اول دايات الجزائر وكان يعرف من بين اصحابه ,,بقبطان رايس،، ولكبر سنه كان يدعى ,,بابا حاجي،، كانت. ولايته سنة 1082 هـ/1672م، استعان على تحمل اعباء الحكومة بصهره ,,بابا حسن،، جاويش وان اول عمل قام به من الاعمال السياسية الغاء المعاهدة المنعقدة مع حكومة فرنسا سنة1076 هـ/1665م والتي مر ذكرها وكما حدث في كثير من الاحيان كانت مشكلة الاسرى من وراء هذا الصراع الجديد، وجاءت المخالفة في هذه المرة من فرنسا، فقد وقع سبعة من الجزائريين في أسر أحد ابناء مرسيليا، ورغم ان الجزائر عرضت افتداءهم الا ان حكومة باريس ارادت ان تساوم بهذه المناسبة على تعديل معاهدة سنة 1665م، وذلك بالنص على عدم استرقاق الاسرى الفرنسيين في حالة ما اذا اخذوا من سفن غير فرنسية مع ملاحظة ان الفرنسيين كانوا إذا ارادوا القرصنة تستروا لها تحت اعلام اخرى وطالت المفاوضة بين الفريقين حول موضوع الاسرى خلال عام 1680م واقترحت

فرنسا اثناء هذه المحادثات ان تتعهد الجزائر بعدم تزويد قراصنة بلدة سلا بالمؤن او شراء مسلوباتهم، وفي مقابل ذلك يتعهد ملك فرنسا لويس الرابع عشر بعدم شراء المسترقين من ترك الجزائر لاسطوله...[1].

وأخيراً نفد صبر الحكومة الجزائرية فاعلنت الحرب على فرنسا في سنة 1681م كما سنذكره فيما يأتي وحينئذ عادت الحرب بينهما جذعة كما كانت من ذي قبل وتبودلت المكاتبات في هذا الشأن بين الداي ولويس الرابع عشر بدون جدوى.

وفي سنة 1082هـ/1671م حدث ان خرج ادوارد سيراج الانجليزي لقتال الجزائريين الذين فكوا حبال سفنهم وجمعوا كل ما لديهم من اعواد الشوارع والسواري العليا والساريات ثم احكموا ربطها جميعا بالاسلاك ثم ارسلوها طافية على سطح الماء بواسطة البراميك بقصد احكام شبكة دفاع حول الميناء ومع ذلك فقد استطاعت قوات (توماس الن) تحطيم هذه الشبكة وحرق السفن الجزائرية وقتل المئات من الجنود واخيرا الحاق الخسائر الكبرى بالقلاع والمدينة وبذلك تم له النصر موقتا [2] وفي خلال شهر جوان 1672م/1085هـ حاول الاسبان المقيمون بوهران الاستيلاء على مدينة تلمسان بوهران فانهزمت الكتيبة وعادت الى مراكزها. وفي سنة 1089 هـ / 1676 م تم عقد الصلح بين الحكومة الجزائرية وفرنسا على ان يعود جميع الاسرى الجزائريين الموجودين يومئذ بين يدي الفرنسيين الى مواطنهم آمنين فتعهدت بذلك الحكومة الفرنسية ثم خالفته فلم توف بالعهد متعللة بعدم امكان احضار الاسرى بأسرهم لتشتتهم وافتراقهم على متون المراكب في مختلف انحاء البحار... والحقيقة انها بعثت بهم عبيدا لخدمة المراكب والسفن الفرنسية الموجودة بالمشرق فأحدث ذلك فتورا في العلائق السياسية بين الحكومتين ونشأ عن ذلك اضطراب وهيجان في الشعب الجزائري ادى الى اعلان الحرب ضد فرنسا (5 شوال 1092هـ/18 اكتوبر 1681م) وخرج الاسطول الجزائري يرود البحار فاحتوى على تسع وعشرين قطعة بحرية فرنسية تشتمل على ثلاثمائة اسير، وكان من اثر الانتصار

(1) د. صلاح العقاد: المغرب في بداية العصور الحديثة ص 88ط القاهرة 1963-1962

(2) تاريخ العالم ج 6ص 620-621

لجزائري على الاسطول الفرنسي ان سعى كل من دولة بريطانيا وهولاندا في سالمة الجزائر بعقد معاهدة سلم معها (1090هـ/1679م) وهي تنص على ان تقوم هاتان الدولتان بامداد الجزائر وتزويدها بكل انواع السلاح وجميع اعتدة الحرب والالتزام بتجديد دفع كل ذلك سنويا مع الخضوع التام الى نظام لقرصنة التركية.

ويبدو في هذه الاونة ان عدد سكان الجزائر قد انخفض بسبب انتشار مرض الطاعون الجارف الذي عم بلاد المغرب الاسلامي سنة 1084هـ/1673م واجتاح بلاد اوربا ايضا ولا سيا منهابلاد فرنسا بالخصوص.

وضع الحدود الاقليمية السياسية بين الجزائر والمغرب الاقصى:

كان بمقتضى الامر الواقع من وحدة اللغة والجنس والدين والاقليم بين سكان المغرب العربي انه لا فرق بين ساكن الجزائر او تونس او مراكش او ليبيا فكلهم مغاربة ابناء وطن واحد هو المغرب العربي الكبير ولكن للسياسة المغرضة اعتبارات اخرى. كانت لها اثارها في فصل هذه الاقطار عن بعضها بعض، وكان لهذا الفصل السياسي اثره الفعال في شتى الغارات الحربية وبعث العداوة والاحقاد بين سكان حدود هذه الاقطار الشقيقة، وأغلب ما كان يتنازع فيه ويكثر حوله الخلاف يومئذ هو مسألة هذه الحدود المرسومة والمعتبرة سياسيا بين اقطار المغرب العربي الثلاث، تونس والجزائر ومراكش حرما آمنا وحدا فاصلا.

ففي سنة 1089 هـ / 1676م. خرج المولى اسماعيل سلطان مملكة المغرب الاقصى غازيا بلاد الجزائر ،فترك مدينة تلمسان عن يساره وذهب موغلا في الصحراء الى ناحية الجنوب الجزائري مستجيشا في غزاته هذه بقبائل بني عامر واولاد جرير والحشم فاندفع معه هؤلاء الى الحرب وسارت خلفه الجموع الى ان بلغ نهر شلف بناحية « القويعة » فأناخ المولى اسماعيل بالبطحاء، وهناك على الضفة الواجهة من النهر فاجأهم الجيش التركي ليلا فأقمعهم باطلاق نيران مدافعه بمهارسه فانهزم المغاربة وانقلب اغلبهم الى مواطنه وتضعضع بذلك الجيش المراكشي فانكسرت شوكته وقتل الوزير منصور الرامي وعاد السلطان فيمن

يقي معه من الجند الى حضرته، ويرى صاحب طلوع سعد السعود ان غار
المولى اسماعيل هذه انما كانت بباعث الاقتصاص من قتلة باي وهران شعبا
الزنافي؟...

ثم اعقب ذلك ترسيم الحدود السياسية بين تخوم المملكتين، على اعتبا
وادي التافنة الموازي لمدينة وجدة حدا فاصلا بين المغربين - الاقص
والاوسط - بناء على المعاهدات السالفة منذ عهد امير زناتة ورئيسها الساب
زيري بن عطية المغراوي مؤسس مدينة وجدة (384 هـ/994م) وكان فيم
حضر ابرام هذا الاتفاق الجديد الواقع بين الاتراك والمغاربة: الشيخان العالما
محمد بن زاغو التلمساني وسيدي سعيد، فأمضيا باسم الجزائر عقد الهدنة والصل
بين المملكتين سنة 1090 هـ/1679م ويومئذ تخلى الداي التركي عن منصب
واطلق يد صهره «بابا حسن» في المملكة يتصرف فيها كيف يشاء وانطلق
مهاجرا الى طرابلس ولا ادري اهذا بابا حسن هو الذي اشاد القصر الفخ
القائم الان الى جنب جامع كتشاوة بالعاصمة ام حسن آخر غيره؟... والظاه
ان مؤسسه هو الحسن باشا داي (1205/1212هـ - 1791/1797م) ؟..
ويذكر عن الهولانديين انهم هاجموا الجزائر في اواخر ايام هذا الداي اي سن
1091 هـ/1680م من غير ان يحصلوا على طائل، وفي نفس التاريخ حاول
الانكليز ايضا قصف المدينة ورميها بالقنابل من اسطولهم المحتوي على عشرين
سفينة فخاب مسعاهم.

ولاية الداي بابا حسن:

لقد كان هذا الداي من قبل رئيسا في القرصنة، وشارك في ثورة عا
1082 هـ/1671م التي اطاحت بحكم الاغوات، ولما تولى منصب الداي باسم حمي
الحاج محمد التركي المهاجر الى طرابلس قبض على زمام الحكم بيد من حديد
واثار عداوة الكثيرين بصلفه وسوء ظنه وقسوته ولكنه قمع بشدة كل المحاولات التي
بذلت في سبيل الانتقاض عليه. وفي سنة 1680 م غزا تونس متذرعا باعاد
الامن الذي اخل به تنافس اولاد مراد بك وفي عام 1681 قاتل في المغرب
جيوش مولاي اسماعيل[1] وفي اواخر سنة 1092 هـ/1682 م. تقلد زمام الحكم، وفي ايامه

(1) دائرة المعارف الاسلامية مجلد 7ص 383

الاولى تظاهر ملك فرنسا - لويس الرابع عشر - برغبته في مفاوضة الجزائريين بشأن تبادل الاسرى، حتى اذا ما تم الاتفاق بين البلدين ارسل الجزائريون ما لديهم من اسرى الفرنسيين الى مرسيليا ليتبادلوا هناك مع اسراهم، فغدر الفرنسيون بالاتفاق ولم يتم التبادل من ناحيتهم ، وكان من اثر ذلك ان اعلنت الجزائر الحرب رسميا على فرنسا سنة 1092هـ/1681م واتيح للويس الرابع عشر المبرر في ارسال الحملات المتوالية ضد الجزائر، ولم يكد يستقر الداي على عرشه ويستلم مقاليد الحكم حتى فوجىء في اوائل شهر رجب سنة 1093 هـ / اواخر جويلية 1682 م بحمله عمارة فرنسية مشتملة على عشرة اجفان كبار وخمسة عشر غربا جاءت مهاجمة للجزائر امتعاضا لانتقاض المعاهدة الفرنسية الجزائرية الانفة الذكر، وما لبثت هذه حتى عززتها حملة اخرى وهي فرنسية ايضا تشتمل على اربعين قطعة مختلفة الاشكال، منها خمسة عشر ومثلها غربا او غرابا [1] ، وعشرة من قاذفات القنابل، يقودها الاميرال «دوكيزن»، فاخترقت الحملة اولا حدود مياه اقليم العاصمة ثم انتقلت منها الى شرشال فقصفتها بمدافعها واستولت على مركبين وكان ذلك نذير حرب عنيفة دامت الى نهاية اليوم الثالث من شعبان - 7 اوت - فانهزم فيها العدو ومات من جيشه ما يزيد على الفي مقاتل فرنسي وتحطمت سفينة معادية تحمل خمسين محاربا كلهم من علية القوم وسادتهم، ثم عاد الاسطول الفرنسي من شرشال الى العاصمة فقصفها ايضا بما يقرب من ثلاثمائة قنبلة من الوزن الثقيل، فأحدثت اضرارا كثيرة بالعاصمة اذ تحطم منها نحو المائتي منزل واصيب يومئذ قصر الامارة كما تضررت بذلك بعض المساجد، اذ سقطت قنبلة على الجامع الكبير فانهدم لها جدار القبلة، واخرى سقطت على الجامع الجديد بجواره ولكنها لم تحدث به اضرارا ذات بال، ووقع يومئذ نقل مكتبة الجامع الكبير الغنية بنفائس المخطوطات الى قلعة سلطان - قلعة سي - المعروفة اليوم ببرج مولاي حسن او برج بوليلة القائم على الربوة المعروفة بكدية الصابون جنوب العاصمة، وذلك انقاذا لها من خطر الغارات البحرية، وتنجية لها من وقوعها بيد العدو. ويومئذ قبض بابا حسن على الحكم

---

(1) قال في شفاء الغليل: الغراب هو اسم لنوع من السفن المشهور في اشعار المحدثين لا سيا المغاربة.

بيد من حديد وقتل في غير شفقة ورحمة كل من تجرأ على الشكوى بمفاوضة العدو.

ثم بعد يومين فقط اعاد العدو غارته على العاصمة فصوب اليها مدافعه الثقيلة وقصفها بنحو الثمانين قنبلة وقع اغلبها في البحر، وعندئذ حمى وطيس الحرب والتهب سعيرها واخذت الحصون وقلاع الجزائر وجميع ثكناتها ترمي العدو بشررها كالقصر وخفقت الاعمدة على المغافر وهجمت القوات الجزائرية على وحدات العدو فردتها بالخيبة والحسرة، بعد ان استغرقت الوقعة هذه طوال شهر كامل وفي هذه الحملات استخدمت الزوارق القاذفة للمواد المحرقة للمرة الاولى وقد كان الذي دفع فرنسا الى ان تقوم بهذا العدوان هو ان ملكها لويس الرابع عشر كان قد حاول عبثا في سنة 1079 هـ/1669م ان يحمل الدولة الجزائرية على قطع العلاقات مع اوربا التي تألبت ضده فخاب في مسعاه.

الغارة الفرنسية الثانية:

اتفق ان كان في هذه الاونة عصبة من دول اوربا: المانيا وبولونيا، والبندقية ودولة البابا وجماعة فرسان مالطة - وهم فرنسيون كما تعلم - كلها كانت متألبة ضد الدولة العثمانية، ولم تكن الحكومة الفرنسية لتترك هذه الفرصة السانحة لتمر دون ان تهاجم فيها الجزائر في حال غفلة دار الخلافة عنها انتقاما لهزيمتها المتقدمة الذكر، فبعثت اولا بطليعتها الى الجزائر في اواسط صفر - فيفري من سنة 1094 هـ / 1683 م. وهي تتركب من ثلاث سفن متظاهرة بطلب ابرام عقد المسالمة والصلح، فأعرض عنها الداي ولم يعرها اي التفات لعلمه بما تبطنه وما تضمره في نفسها من الخيانة وما تنطوي عليه نيات اصحابها من الغدر والخداع ثم التحقت العمارة الفرنسية بالطليعة وهي تحتوي على ما يقارب من مائة مركب منها ستون جفنا مختلفة الشكل والحجم، وثلاثون غربا، وسبعة من قاذفات القنابل، فهاجمت مدينة شرشال ثم هاجمت العاصمة في فاتح رجب - 26 جوان - فأصابتها بستين قنبلة، وفي اليوم الثاني تلقت المدينة منها ضعف ذلك واصيبت في هذا اليوم دار الحاكم التي «بباب الجزيرة» سقط منها ساريتان مذهبتان.

وتصدت القوات الحربية بالجزائر الى صد هجمات العدو ومقابلتها بالمثل وكانت الخسائر من الطرفين فادحة واستبد الداي باعلان الهدنة والصلح من تلقاء نفسه من دون استشارة اعضاء الديوان ورضخ لقبول شروط الاميرال دوكيزن التي كانت فادحة ومفرطة في القساوة والشدة.

وكان من مواد هذه المعاهدة وبنودها الاساسية، اقتضاء جميع نفقات الحرب التي قدرت بمليون وخمسمائة الف جنيـــه!؟... وتقديم عدد من الريـــاس الى فرنسا كرهائن... فتحمل الداي على عاتقه مسؤولية كل ذلك مع تسليمه جميع اسرى النصارى على اختلاف جنسيتهم من فرنسيين وغيرهم الى رجال الغارة، وكان يبلغ عدد الاسرى خمسمائة وخمسين نسمة، ونهض الشعب الجزائري اذ ذاك بمطالبة الاميرال بالافراج عن الاسرى المسلمين على قاعدة التبادل فلم يعرهم هذا جوابا ولم يلتفت الى طلبهم، وحينئذ اعلن الديوان سخطه معترضا على الداي في قبول شروط عقد هذه الهدنة المجحفة ولم يعترف له الديوان بهذا الصلح ولا بما امضاه الداي مع الاميرال الفرنسي، وكان ذلك من موجبات قتل الداي فصرع بابا حسن على يد ابراهيم خوجة ليلة 23 رجب 1094هـ/ اواخر جويلية 1683م واعتقل القنصل الفرنسي ومعه اربعة وعشرون فرنسيا كانوا يقيمون في الجزائر، وضعوهم في افواه المدافع ونسفوهم مع الرياح واضطر يومئذ الاميرال دوكيزن الى رفع الحصار.

ولاية الداي الحاج حسين ميزومورطو:

فالرجل ايطالي الاصل كما يظهر من اسمه «ميزومرطو» ومعناه نصف ميت وذلك لبتر يده اليسرى في الحرب، اسلم وحسن اسلامه فحج البيت الحرام، وكان مشهورا بالكرم والحلم وحب العلم واهله، شجاعا داهية في تدبير شؤون الحرب وادارة امورها عارفا بسياسة الدول والملوك وذلك ما اهله وجعله كفوءا لتبوء عرش الجزائر.

تولى مقاليد الحكم يوم وفاة سلفه بابا حسن 1094هـ/1683م وفي السنة بعدها منح لقب بايلرباي، وبمجرد استلامه لمقاليد الحكم بادر الى مطالبة ملك فرنسا لويس الرابع عشر بفك القيد عن الاسرى المسلمين، وكان مما جاء نص رسالته الى هذا الملك قوله: «ان شئت حقا مسالمة الجزائر فابعث الي بالاسرى

سريعا على ان يكون لك في مقابلة هذا شيء... وذلك نظرا لصنيع الاميرال الفرنسي دوكيزن من قبل.

انهزام الاسطول الفرنسي:

لقد كان لهذا الخطاب الذي وجّهه داي الجزائر الى ملك فرنسا وقع كبير في البلاط الملكي الفرنسي فأثار حنقهم واضرم غيظهم واخذ الملك في تعبئة حملة جديدة ضد الجزائر التركية برئاسة الاميرال «دوكيزن» او «دي طرونفيل» (1095هـ/1683م) متناسيا كل ما وقع بالامس من معاضدة الاتراك ومساندتهم لدولته في محاصرة قلعة نيس (nice) على عهد خير الدين برباروس وعادت الحرب جذعة كما كانت من قبل، ولقد نال المدنيين من اهل الجزائر من قنابل حملة العدو في هذه المرة ما يناهز الاثنى عشر الف قنبلة وتحطم نحو الخمسين من دور المدينة من بينها مسجدان وقتل من سكانها يومئذ خمسائة نسمة. وقد لوحظ ان الجزائريين في هذه المرة احترموا المراكز التجارية الفرنسية فلم يمسوها بسوء خلال هذه الغارة الفرنسية على بلادهم، وتدخل في الوساطة بين الحكومتين الجزائرية والفرنسية القنصل الفرنسي الراهب «جان لوفاشي»(Jean le Vacher) الذي حل بهذه البلاد منذ سنة 1668م، وتأكد الداي من سوء نية هذا الراهب الوسيط وخبثه فقبض عليه وعلى اربعة وعشرين ممن كان معه من الفرنسيين فأخذهم الى الميناء موثقين في فوهة مدفع كبير يدعى «بابا مرزوق»[1] فأرداهم هناك قتلى واستمر القتال مدة ثلاثة وعشرين يوما بلياليها، فكان لذلك اضطراب وقلق عظيم في جميع الاوساط الجزائرية وخرج الناس من العاصمة الى الضواحي فرارا من وقع القنابل واخيرا تغلب الجيش الجزائري على العدو فاضطر الاميرال الى الاستسلام مؤكدا وعده بالافراج عن الاسرى المسلمين وكان يناهز عددهم الاربعمائة نسمة، ثم اديرت العمارة الفرنسية فغادرت البلاد بدون طائل، وقد كلفت هذه الحملة الخزينة الفرنسية اكثر من خمسة وعشرين مليون دون ان تحقق منها أي نتيجة.

---

(1) لا يزال هذا المدفع محفوظا بدار الصناعة بمدينة بريست ضمن مغانم فرنسا التي احرزت عليها بالجزائر سنة 1830م.

المهادنة والصلح:

ثم بعد هذه الضربة القاسية التي اصابت فرنسا في الصميم رأى الفرنسيون عدم جدوى الاعمال الحربية فلجأوا الى المكر والخداع السياسي فاجتهدت الحكومة الفرنسية في ابرام الصلح وانعقاد معاهدة صداقة مع الجزائر فلم تفلح، ويومئذ توجهت الى السلطان العثماني مستشفعة به في ذلك فجاء المندوب السلطاني بصحبة المفوض الفرنسي الى العاصمة في شهر ربيع الاول 1095هـ/1684م وسعى بكل مجهوداته لحمل الداي على اجابة فرنسا الى رغبتها فتصامم عنه الداي وتركه جانبا وبقي على ذلك نحو نصف شهر، ثم اجابه الى غرضه وامضى معاهدة صلح مع النائب الفرنسي «م دوصال» بتاريخ 28 رمضان 1095هـ/25 افريل 1684م لمدة قرن كامل، وفيها الاشارة الى توثيق العلائق التجارية بين البلدين ولم يشترط الداي في ذلك سوى الاعفاء عن الاسرى المسلمين والافراج عنهم، وعرض نص المعاهدة هذا على ملك فرنسا نفسه فأمضاه يوم 2 شعبان 1095هـ/17 جويلية 1684م، واليك اهم ما جاء في صك هذه المعاهدة وهي تشتمل على تسع وعشرين مادة: منها هذه:

١ - استقرار السلم بين امبراطور فرنسا وداي الجزائر وحرية التجارة وضمان الامن لبواخر الطرفين.

2 - التوقف عن اعمال القرصنة من كلا الطرفين ضد الطرف الآخر.

3 - اطلاق سراح الاسرى الفرنسيين في الجزائر وسراح الجزائريين في فرنسا.

4 - اطلاق سراح الاسرى الفرنسيين الذين اسرهم اعداء الامبراطور الفرنسي عندما يصلون الى الجزائر ولو اسروا من طرف قوات اخرى.

5 - بواخر كل من الطرفين تحمي بواخر الطرف الاخر من كل اعتداء قد يشن ضدها.

6 - كل باخرة فرسيةتلجأ الى الجزائر فرارا من اعدائها ينجدها الجزائريون دون ان يفرضوا على السلع الموجودة بها اية اتاوة الا اذا بيعت.

7 - لا تجبر البواخر الفرنسية على القيام بسفر لا تريده او حمل شيء ضد ارادتها.

8 - لا يمكن اسر الركاب الاجانب عندما يكونون على متن باخرة فرنسية او الركاب الفرنسيين عندما يكونون على متن باخرة اجنبية، كما لا يمكن اسر الركاب الاجانب على متن باخرة جزائرية والركاب الجزائريين على متن باخرة اجنبية.

9 - يستطيع الجزائريون ان ينزلوا سلعهم بالسواحل الفرنسية ثم يأخذونها دون ان تفرض عليهم اية اتاوة.

10 - يمنع داي الجزائر على رعاياه ان يساهموا في الحرب والقرصنة ضد البواخر الفرنسية.

11 - للامبراطور الفرنسي اقامة قنصلية بالجزائر لمساعدة التجار الفرنسيين ويمكن للقنصل الفرنسي اقامة شعائره الدينية في منزله وكذلك الفرنسيون الذين يريدون ممارسة الشعائر الدينية في منزل القنصل كما يملك الجزائريون الذين يأتون الى فرنسا حرية ممارسة شعائرهم الدينية في بيوتهم.

12 - عندما يحدث خلاف بين فرنسي وجزائري لا يمكن ان يفصل في ذلك قاض عادي.

13 - معاقبة كل من قرصان فرنسا او الجزائر عندما يثبت الاعتداء او الهجوم من احد الطرفين....(1)

وفي الوقت نفسه عقد الداي معاهدة تجارية مع بريطانيا العظمى لمدة عشر سنوات على ان يكون المجال التجاري هذا لا يتجاوز مركز مدينة القالة، ولكن هذا الصنيع لم يرض به اعضاء مجلس الديوان وكانوا يرونه مجرد تصرف استبدادي صدر من الداي فأظهروا سخطهم وغضبهم عليه وتعرضوا لخلعه والقضاء على حياته، ولم يكد يشتهر او يذاع خبر هذه المؤامرة ضد الداي حتى اعلن الداي تخليه عن المنصب وامتطى متن سفينة حربية ذهبت به الى المشرق

---

(1) راجع النص الكامل عند Henri garrot: Histoire generale de l'Algerie, p: 513 - 518 Alger 1910

ولاية الداي ابراهيم خوجة:

تولى زمام الحكم سنة 1097هـ/1686م ولم تستمر ايام المعاهدة السالفة طويلا حتى رأينا الداي قد غزا الثغور الفرنسية مثل نواحي لابروفانص ولانكدوك... وجاء معه بالغنائم والسلع، وكثرت في ايامه المناوشات والغارات البحرية بين الاسطولين الجزائري والفرنسي، وكان كل من الدولتين يحاول التسلل، والتخلص من مسؤولية هذه المناوشات الحربية والقاء اعبائها وتبعتها على الاخر. وهكذا الى ان اظهرت فرنسا عداوتها جهاراً فهاجمت بعمارتها الجزائر مهاجمة عنيفة بقيادة المارشال «ديستري» (26 شعبان 1099هـ/16 جوان 1688م.)

ورمتها حسب رواة الاخبار بنحو العشرة آلاف واربعمائة وعشرين قنبلة وذلك في ظرف ستة عشر يوما فقضت على اكثرية ساحقة من بنايات العاصمة حتى لم يبق بها يومئذ الا نحو ثمانمائة منزل فقط، بعد ان كان بها ما يربوا على العشرة آلاف دار او سكن!... وأغرقت خمس مراكب جزائرية كانت راسية بالميناء وجاوزت قنابل العدو واسوار المدينة الى ما وراءها من ارياض العاصمة، وضواحيها وتحطمت قنوات الري، وكافح الجزائريون في رد العدوان عن بلادهم بكل ما يملكون من قوة وصابروا ورابطوا وقد شوهد الداي متحمسا يتقدم الصفوف لخوض المعركة بنفسه وهكذا حتى انجلى عنهم العدو، اذ لم يستطع انزال قواته بالميناء وجددت معاهدة سنة 1684 م المتقدمة الذكر مع اضافة نص خطير اليها وهو السماح للبحارة الجزائريين باستخدام الموانيء الفرنسية للقيام بهجمات على الانجليز والهولانديين، فكأن لويس الرابع عشر اراد ان يجتذب الجزائر من حالة المهادنة الى حالة المحالفة وذلك بعد تجدد القتال مع بريطانيا وهولندا [1]

وكانت الجزائر يومئذ لا تملك سوى ستين مدرعة حربية مختلفة الشكل والحمولة، وفيها علاوة على وفرة عدد المدافع - كثير من المجانيق - حسبما جاء ذلك في تقرير الدوك، دوقرافطون المؤرخ بيوم 4 اكتوبر 1687م.

مطامع اوربا في الشرق الاسلامي:

وضع الاب كوبان coppin القنصل الفرنسي مشروعا تحت عنوان

(1) د. صلاح العقاد: المغرب في بداية العصور الحديثة: ص 89ط القاهرة 1962-1963م

Bouclier de l'Europe « ترس اوروبا » بتاريخ 1686م املاه عليه تعصبه وحميته الدينيـة المسيحيـة ،دعا فيه الامم المسيحية الى تقسيم المملكة العثمانية كغنيمة مشاعـة وتوزيعها قطعا قطعا متفرقة بين ملوك النصرانية ، وجاء في تفصيل التقسيم المذكور ان الناحية الشرقية من بلاد الجزائر بما فيها من اعمال قسنطينة هي حق من حقوق دولته ، واما مقاطعتي الجزائر ووهران فكلتاهما من نصيب اسبانيا .

وهكذا تراهم يفعلون ببلاد الاسلام ويكتبون ذلك ويقترحونه بل ويدعون اليه في تقاريرهم الرسمية بدون حياء فلا خجل ولا وجل!... وما ذلك في الواقع الا عن داعي التعصب المقوت للصليب ، وان المسيحية الحقة او النصرانية الصحيحة التي دعا اليها الانجيل ليست هي الملومة ولا المسؤولة عن شيء من ذلك ، ولا يمكن بحال ان يأمر دين سماوي كالمسيحية الى استعمار او بغضاء شنيعة او مطامع اشعبية كهذه او اذلال للامم كلا . ولكن تعصب الشعوب الاوربية التي تنتسب الى المسيحية خطأ وكذبا وزورا ، هو ذنبها الاعظم وهو الذي يظنه الناس ممثلا للمسيحية ، مع ان هذا التعصب الذميم ليس من الدين المسيحي في شيء فان دين عيسى دين حب وعطف وحنان ورحمة وسماحة [1].

وقعة الكاف بتونس:

لقد كان - قبل - ان حاول باي تونس استغلال المصاعب التي كان يواجهها الداي حسين ميزو مورطو ، فعمل على اثارة القلاقل بالجزائر ، ونشأت عن ذلك معارك في انهج العاصمة جرح فيها الداي نفسه ، وعندما ادرك الداي ان لباي تونس يدا عاملة في اثارة هذه الفتن والقلاقل وجه ضده حملة بأمرة ابراهيم خوجة وانضم الى هذا كل من اخوي الباي التونسي الذين كانا ينازعان اخاهما العرش ، وبعد حصار طويل استولى ابراهيم خوجة على تونس ونصب عليها (محمد باي) ، ثم تفاقم الخلاف واحتد النزاع بين الاخوين محمد وعلي ابني مراد باي تونس حول تولي عرش ابيهما المتوفي سنة 1086هـ/1675م وبعد التناحر بين حزبي الاخوين استجاش محمد بداي الجزائر فكانت هنالك واقعة الكاف

---

(1) حياة الشرق ص 13ط القاهرة 1933م.

المشهورة بالشمال الغربي من تونس انتصر فيها اشياع محمد على اخيه ثم نشأ الخلاف بين هذا وبين احمد شلبي الباي الثائر المتسلط على عرش الاسرة المرادية بتونس، وحينئذ اتحد الاخوان محمد وعلي ابناء مراد واتفقا على ان يستنصرا بحكومة الجزائر، فاعانتهما هذه على استخلاص عرش والدهما من يد الثائر شلبي وكانت هنالك ملاحم وفتن داخلية واحاط الجزائريون بمدينة تونس فحاصروها سنة 1096هـ/1685م وكسروا من شوكة احمد شلبي فانزلوه عن العرش واخذت البيعة للاخوين معا: محمد وعلي ابني مراد فاقتسما ادارة البلاد بينهما، وبينما الامر على ذلك اذ هجم الجيش التونسي على الباي علي فاغتاله وتفرد بالملك يومئذ اخوه محمد، ثم عاد الجزائريون يحملون الغنائم وما قدمه اليهم الباي الجديد من الهدايا الثمينة.

غزاة كدية الخيار:

اشتهر الباي شعبان الزناقي حاكم الولاية الغربية بمدينة مازونة بشجاعته وصرامته النادرة في غزواته ضد العدو، وخاصة في وقائعه ضد الاسبان بوهران، وكان من بين وقائعه وحركاته الشهيرة التي اذاق فيها العدو بأسه: وقعة كدية الخيار بوهران (1098هـ1687م) التي كان يبلغ عدد جيش الاسبان بها ما يزيد على ثمانية آلاف مقاتل منهم الف فارس وكان عدد المسلمين نصف ذلك الا ان اكثرهم فرسان، مات من جيش العدو مائة والف،واستشهد في هذه الوقعة الباي شعبان قتله بعض المغطسين من بني عامر فاحتز الاعداء رأسه ونصبوه مصلوبا على باب وهران، ثم بعثوا به الى المسلمين فحمله هؤلاء معهم الى الجزائر فدفنوه باحدى مقابر العاصمة.

وفي هذه السنة حول الباي بوشلاغم مركز حكومة باي الغرب الذي كان بمدينة مازونة الى مدينة معسكر، ويذكر المؤرخ الفرنسي اندري جوليان ان في هذه السنة ايضا غزا الفرنسيون مدينة الجزائر بامر لويس الرابع عشر بقيادة المرايشال «ديسطري» (شعبان 1099هـ/ جوان 1688م) فقصفها بعشرة آلاف قذيفة هدمت الجزء الأكبر من المدينة ولكن عاد منها خائبا بدون جدوى ثم انعقد بينهما الصلح بمعاهدة ابرمت في التاسع من ذي الحجة سنة 1100هـ/42سبتمبر 1689م.

وفي اثناء هذه الحوادث تمرد الجند التركي وطائفة الرياس ضد الداي

وعزموا على قتله بحجة انه أستبد بابرام معاهدة (1095هـ/1684م) بدون استشارتهم، فانسحب الداي الى تونس ومنها سافر الى استانبول حيث عين في منصب قبطان باشا اي قائدا عاما للاسطول العثماني.

ولاية الداي الحاج شعبان خوجة:

استلم زمام الحكومة الجزائرية يوم الاحد 24 ذي الحجة سنة 1100هـ اكتوبر 1689م، وكان من اوليات اعماله ابرام المعاهدة التجارية بين الحكومة الجزائرية وبين فرنسا واذن لهذه في استخراج المرجان بسواحل بونة وطبرقة، وادعت فرنسا انها خسرت تجارتها بمقتضى معاهدتها السالفة (1074هـ/1664م) ما يقرب من ثمانمائة الف ليرة، فاذن لها الداي بفتح مراكز تجارية لها اخرى منبثة فيما بين بونة وبجاية.

وبينما الداي في حال تحرير نصوص هذه المعاهدة والنظر في اخراجها في صيغتها النهائية اذ فوجيء بغارة اسبانية يقودها مريشال ضد العاصمة، فاشتغل بالقتال الى ان انصرفت هذه الحملة، ثم عادت في السنة التالية حاملة معها مرض الوباء وكان مصيرها الخيبة والفشل ايضا.

وجاء في بعض الروايات والتقاييد المخطوطة ذكر لمصطفى باشا الشيخ على انه تولى بعد الحاج شعبان رئاسة حكومة الجزائر سنة 1101هـ/1690م، وذكرت بعض المصادر هنا اسم محمد باشا بن درويش آغا؟...

حية تحت صخرة!... او معاهدة وجدة:

هي كلمة ارسلها المولى اسماعيل سلطان المغرب الاقصى عندما اعترضته الجيوش التركية فردته عن حملته الموجهة ضد وهران 1103هـ/1691م، فقال «حية تحت صخرة».

خرج سلطان المغرب في عشرة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف فارس بقصد الاستيلاء على مدينة وهران فاعترضته الحامية التركية فجأة بوادي ملوية، وباغتته بشن غارتها عليه فدحرته هناك، ويومئذ قال كلمته تلك وهو يقصد بالصخرة جبل عيدور «مرجاجو» المشرف على المدينة فتراجعت الجيوش المغربية بعدما قتل منها خمسة آلاف جندي ولم تفقد الجزائر سوى مائة جندي

فقط، وتم ابرام معاهدة وجدة القاضية باذعان سلطنة المغرب وخضوعها للسيادة التركية وخدمة مصالح الخلافة العثمانية.

الجزائريون في نصرة ابن شكر التونسي:

ثار محمد بن شكر خليفة باي تونس ضد صهره محمد بن مراد مطالبا بالولاية، وكان يعلم سخط الحكومة الجزائرية على رئيسه وصهره الباي المذكور حيث انه كان قد اخل ببعض عهوده مع الجزائريين يوم ان اعانوه على الجلوس على عرش والده، فاستغل ابن شكر هذا الموقف وذهب مستنجدا بأهل الجزائر لاعانته على ثورته هذه ضد الباي الحالي فجاءت النجدة الجزائرية ونزلت قرب الكاف سنة 1105هـ/1693م وكانت هناك معركة شديدة انهزمت فيها جنود الباي وتخلت عن ذخائرها هناك وتقهقر محمد باي الى تونس فتبعته الجيوش الجزائرية الى الحاضرة فنصبوا بها صاحبهم ابن شكر، ثم دارت رحا الحرب بين الشقين وشاركت فيها جموع كثيرة، واخيرا اسفرت الحرب عن انهزام ابن شكر وعودة محمد بن مراد باى الى الحكم [1].

وهنا لعبت الدسائس الانكليزية والفرنسية الاعيبها البهلوانية الاختلاسية للاستيلاء على اقتصاديات كلا القطرين الجزائر وتونس فخابت... ولكن الانكليز لم يفتروا عن العمل لايقاد نار الفتنة والخلاف للحيلولة بين حكومة الجزائر وفرنسا، ورغم ذلك فان الداي قد منح لشركة فرنسية من مدينة «ليون» امتيازات تجارية جديدة امضيت في اواخر جمادي الاولى 1105هـ/ اول جانفى 1694م.

وامسى هذا الاتفاق ناجزا كأساس للمعاملات التجارية بين اهل الجزائر وفرنسا حتى سنة 1167هـ/1745م، ولقد تقرر في هذه المعاهدات كلها ان يقتصر الاجانب على نشاطهم التجاري فقط ولا دخل لهم في شؤون البلاد [2]، واذا رجعنا الى تاريخ الشركات الاجنبية بالجزائر او غيرها نجد ان بعضها

---

(1) خلاصة تاريخ تونس ص 150 - 152 وتحفة الزائر ج1 ص 69 - حسين خوجة: ذيل بشائر أهل الايمان ص 12 ط تونس 1908م

(2) الشرق الاسلامي ص 303

سبقت الاحتلال العسكري ومهدت السبل امامه وكانت دولها تسندها في اعمالها التجارية حتى امست هذه الشركات وكأنها حكومات [1] ...

ويذكر عن الداي الحاج شعبان خوجة هذا انه كان شعوبيا متعصبا للاعاجم حقودا على العرب، كما تنبأنا بذلك اعماله الشنيعة وضرباته القاسية التي حلت بالمتاجر والقرى العربية بالجزائر ايام عودة الجيوش التركية من تونس لفرط جوره وظلمه الشديد ان امر جنوده بالانقضاض على العرب في منازلهم وتقتيلهم شر تقتيل، ولم يكن ليمضي على ذلك سوى لحظات من الزمن حتى قبض عليه فأودع السجن في اواخر ذي الحجة 1106هـ/5 اوت 1695م ثم بعد عشرة ايام مضت قتل خنقا.

ولاية الداي الحاج احمد:

جاء في بعض التقاييد المخطوطة ذكر اسماء لبعض باشاوات تولوا الحكم بالجزائر قبل الحاج احمد هذا، منهم عمر باشا على انه تولى الحكم بالجزائر سنة 1102هـ/1690م، ثم مصطفى باشا بعده بسنة، ثم موسى باشا سنة 1105هـ/1693م، ثم جاء ذكر هذا الداي الذي عقدنا له هذا الفصل: وهو الحاج احمد داي، وجاء ذكر اسم والده هكذا: «مصل» وان والده هذا كان اسكافيا منقطعا الى مهنته وان ولده هذا حمل على تولية الحكم حملا فقبله واستقل بزمام الحكم يوم 23ذي الحجة 1106هـ/4 اوت 1695م، وفي ربيع هذه السنة خرج زيدان ابن سلطان اسماعيل ملك المغرب الاقصى الى نواحي تلمسان فقاتل الاتراك بها ونهب اموالهم ثم رجع الى وطنه، وفي يوم عرفة من سنة 1108هـ/29 جوان 1697م جاء وفد من قبل السلطان العثماني مصطفى خان يشتمل على عشرة اعضاء ويحمل رسالة خاصة الى ملك المغرب بشأن الصلح مع اهل الجزائر فعمل بها ملك المغرب، ثم لا نعلم بعد ذلك عن تاريخ ايام حكم هذا الداي وعن ايام ولايته شيئا سوى ما يؤثر من تزاحم الفرنسيين والبريطانيين والجنويز على النزول بالسواحل الجزائرية الشرقية كمثل تبرقة وغيرها من مدن الساحل وذلك لفتح مراكز تجارية بها، ولطالما حرص

---

(1) الامير مصطفى الشهابي: محاضرات في الاستعمار ص 214ط القاهرة 1955/1956م

الفرنسيون خاصة على نزولهم في شرشال نظرا لموقعها الحربي الاستراتيجي فحرموا منها ثم حصلوا بعد ذلك على معاهدة تجارية (1105هـ/1694م) وتكررت اعادة تجديد هذه المعاهدة اربعة عشر مرة الى سنة 1167هـ /1754م.

ومن مآثر هـذا الداي اشادته لبناية المسجد، والقبة بضريح علامة الجزائر ودفين عاصمتها «سيدي عبد الرحمن الثعالبي»[1]، وهي من عمل المهندس البناء عبد القادر بتاريخ 1108هـ/1696م حسبما تشير اليه النقوش الموجودة بجدار الضريح الداخلي وكذلك اقامة جسر وادي الحراش شرقي العاصمة، اما الثكنة القائمة لحماية هذا الجسر فانها تأسست بعد ذلك اي على عهد الداي كوجوك ابراهيم خوجة سنة 1160هـ/1746م، ويذكر الاخباريون انه وقع في هذا العصر وباء اكتسح ارض الجزائر فأهلك عددا وافرا من الناس ومن بينهم الحاج احمد داي فاستشهد بالطاعون في المحرم 1110هـ/جويلية 1698م.

ولاية الداي بابا حسن شاوش:

تولى منصب الدايوية سنة1110هـ/1699م واشتهر بلقبه الداي شاوش قارة باغلي، ولا نعلم عن تاريخ ايامه سوى احداث قليلة منها تعاطي الداي لتنجيز الاعمال المقتضية لنصوص المعاهدة التجارية المتقدمة الذكر المبرمة مع فرنسا سنة 1100هـ/1689م واغارة الباي التونسي مراد بوبالة [2] على مقاطعة ولاية قسنطينة بمواطأة المولى اسماعيل سلطان المغرب وذلك صيف سنة 1112هـ/1700م ويقال ان ذلك نشأ عن تقديم هدية كان قد بعث بها باي تونس الى داي الجزائر فردها عليه فسخط الباي لذلك وشن غارته الشعواء على شرقي القطر الجزائري فاستشهد فيها حاكم قسنطينة على خوجة باي، وخرجت الامداد من الجزائر ففتكت بعساكر بوبالة قرب مدينة سطيف، فتقهقر الباي المذكور الى القيروان مفلولا مدحورا [3] وفيها انهدمت قلعة المنصورة الواقعة شرقي قسنطينة، وكانت هذه الوقعة سببا في تخلي داي الجزائر

---

(1) انظر ترجمته فيما تقدم في الجزء الثاني من تاريخنا هذا.

(2) اسم لنوع خاص من السيوف الحادة الشفرتين.

(3) خلاصة تاريخ تونس ص 53 وتحفة الزائر ج 1 ص 70

عن منصبه، فتولى مكانه علي باشا، وفي سنة 1111هـ/1699م انتشر في الجزائر مرض الوباء الفتاك.

ولاية الداي بابا حاجي مصطفى:

تولى منصبه هذا يوم الجمعة 6 صفر 1112هـ/23 جويلية1700م، وكان من اهم مالاقاه من مهام اعمال الحكومة: الحرب والقتال، تلك الحرب التي شنها الباي مراد بوبالة التونسي على الجزائر محاصرا لمدينة قسنطينة ذلك الحصار الشديد الذي طال مدة اشهر، وكان منشأ ذلك كما قدمنا عداوة شخصية ومنافسة بين الداي والباي.

خرج الداي بابا حاجي في جيشه مسرعا لرد هذه الغارة الشعواء عن الجزائر فالتقى بعدوه بمكان يعرف باسم «جوامع العلمة» او المجاز الاحمر (سانت آرنو) وهو على نحو ثلاثين كيلومترا شرقي مدينة سطيف وكان عدد الجيش الجزائري بالنسبة الى وفرة عدد الجيش التونسي ضئيلا جدا ولما اطلع الباي مراد على ضآلة عدد الجيش الجزائري استهان به واحتقره طمعا في الانتصار عليه ودعا قومه الى الراحة والاستجمام وقضى ليلته تلك في لهو وقصف وطرب، وكان الباي مشهورا بارتكاب الفواحش وظلمه الجائر، وما كادت تدق ساعة نصف الليل من يوم 19 ربيع الثاني 1112هـ/3 اكتوبر 1700م حتى انقض عليه الجيش الجزائري فأصلاه بنيرانه الحامية وهلك من جيشه سبعة آلاف مقاتل واسر مثلها، وانهزم الباي بوبالة الى القيروان منكسر الجناح[1].

وتدخل الباب العالي في ازالة الخلاف بين حاكمي الجزائر وتونس، فرفض الباي بوبالة هذه الوساطة واظهر العصيان والتمرد على الباب العالي بل واخذ في الاستعداد ثانيا لغزو الجزائر فانقلب ضد جيشه وقتل يوم 13 المحرم 1114هـ/فاتح شهر جوان 1702م غير ان حليفه المولى اسماعيل استمر على خطته الهجومية فزحف بجنده الذي كان يبلغ خمسين الف مقاتل فنازل مازونة من غير طائل، ورجع من وادي جديوية شمال شلف - خائبا ثم اعاد زحفه

---

(1) Histoire de canstantine sous les Beys pages 132 - 139, canstantine 1869
E. vayssettes,

ثانيا وكر على غربي الجزائر فانهزم ايضا في غابة هناك بناحية ارزيو وتقهقر الى ما وراء ذلك جريحا.

وتذكر دائرة المعارف الاسلامية انه كثيرا ما شجع خلفاء المولى اسماعيل - من ملوك المغرب الاقصى - عملاءهم من مشايخ الطرق المتصوفة المناهضين للاتراك بالجزائر كدرقاوة والتجانة فأمدوهم بأموال طائلة للاستمرار في الشغب وشق عصا الطاعة ضد الاتراك فكان يومئذ لدسائس هؤلاء السلاطين والملوك يد في الثورة والفتن التي عكرت صفو بلاد الجزائر - ولاية وهران - في نهاية القرن الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد.

ويروى عن بعضهم ان هذه الاعمال الاستفزازية ضد الاتراك هي التي كانت سببا في نقل مركز ولاية الغرب من مازونة الى معسكر سنة 1113هـ/1701م وهو خلاف ما ذكرناه قريبا؟... وان الباي بوشلاغم فعل ذلك استعدادا وتأهبا منه لمقاومة غارات الاسبان وللدفاع عن وهران وفعلا اخذ الباي في التضييق على هؤلاء المحتلين الغاصبين بهذه المنطقة.

ثم بعد سنتين اي في سنة 1114هـ/1703م ابدت بريطانيا محاولات جديدة ترمي الى ابرام معاهدة تجارية واقتصادية عامة مع الجزائريين مطالبة بمساواتها مع الفرنسيين والهولانديين فتم لهم ذلك؟... وفي هذه السنة اتم الداي وضع استحكامات وتحصينات لبرج الحاج علي المعروف برأس المول بميناء العاصمة.

خيبة زحف الجيش التونسي ضد الجزائر:

لم يلبث ابراهيم الشريف باي تونس وهو من جند الاتراك الجزائريين الذين رافقوا محمد بن شكر، في ثورته ان بلغه - ان صدقا وان كذبا؟ - ان داي الجزائر سائر نحو تونس فنهض في رجاله لمحاربة الجزائريين فاتح المحرم 1117هـ/22افريل 1705م وتقدم في جيشه زاحفا نحو عاصمة الجزائر وما كاد يغادر الجيش التونسي بلاده حتى فاجأه الجزائريون بمدينة الكاف فهزموه واخذوا معهم رئيسه الباي ابراهيم نفسه ومعه اخوه محمد فأسروهما معا وذلك يوم 17 ربيع الاول - 7 جويلية - واحاط الجزائريون يومئذ بتونس فطوقوها بحصار شديد قرابة شهرين، ثم تخلوا عنها بمقتضى خطة سياسية صدرت بتدبير

من كاهية الباي، حسين علي تركي راس الاسرة الحسينية المتملكة فيما بعد: (1117هـ/1376هـ - 1957/1705م) ثم عاد الجزائريون الى بلادهم.

ويومئذ حدثت فتنة بالجزائر قتل فيها الداي قيل انه كان وقتئذ مقيما بمدينة القليعة؟... ويعلل بعضهم هذا القتل بتعليلين متناقضين: فمنهم من يقول ان ذلك غضبا لما اقترفه الجيش الجزائري يومئذ بتونس من الفظائع، ومنهم من عد ذلك انتقاما من الداي نفسه حيث عاد الى الجزائر من غزاته هذه ضد تونس من غير طائل؟...

ولاية الداي حسين خوجة:

انتخب لمنصب الدايوية سنة 1117هـ1705م واشتهر بلقب «الشريف» ولم نعثر طوال ايام حكومة هذا الداي على ذكر حدث هام بالجزائر سوى ما يذكر من اشفاقه على اسيره ابراهيم الشريف باي تونس فحل وثاقه واعاده الى ولايته في اربعين الف جندي من الحامية، ولم يشترط عليه في مقابلة ذلك سوى البقاء تحت نفوذ سلطة الحكومة الجزائرية فأطاع الباي على ذلك وارتحل متوجها الى تونس، وما كاد يبلغ في سيره الى غار الملح حتى احاط به الجيش التونسي فدحره وهلك الباي ابراهيم فيمن هلك من الحامية الجزائرية.

او ما كان مقدم مركب أكثرته حكومة استانبول من الحكومة الفرنسية لحمل هدية الباب العالي الى الجزائر وتشتمل هذه الهدية على 500 قذيفة مدفع، و 3030 رطلا من الحديد، ومن القنب و 3715 رطلا و 193 مجذافا كبيرا، و 250 صغيرا، وعدد من البنادق المدفعية و 6 دفاف للمراكب وحمولة من قطع الخشب الخاص بصنع السفن، و 26 قطعة خشبية خاصة ببناء اسفل السفينة، ولقد حل هذا المركب بالعاصمة يوم 25 شوال1118هـ/1706م.

ثم كان بعد ذلك نهوض الجند الجزائري ضد الداي لعدم اكترائه بحاجاته الضرورية بسبب عجز الميزانية ونفاد الاموال في حروب القطرين الشقيقين، التونسي والمغربي مع ما ظهر عليه من آثر الخلال في سياسته وضعفه تجاه مقاومة الاحتلال الاسباني بوهران، فاضطر الداي الى اعتزال السياسة مرة واحدة والانسحاب بشخصية ملتجأ الى زاوية (سيدي والي دادة) بالعاصمة ثم القى عليه القبض ودفع به وبحاشيته الى مركب بحري فأبحر بهم الى المشرق وما عتموا

ان اضطرب بهم البحر فألقت بهم الامواج الى شاطىء بلد قتدلس ، فوقعوا بيد جماعة من زواوة فأخذتهم الى قرية هناك وما كادت تمضي عليهم تسعة وثلاثون يوما حتى توفي الداي حسين خوجة فدفن هناك ضحوة يوم الخميس اواخر شهر ذي الحجة الحرام 1118هـ/مارس 1707م.

ولاية الداي محمد بكداش:

هو محمد بن ابي الحسين نور الدين علي بن محمد النكيد نسبة الى «نيكيدا» ناحية من بلاد تركيا حيث نشأ وتربى وهو عربي الاصل ينتمي الى آل البيت، وبكداش لقب تركي معناه الحجر القاسي او هو لفظ فارسي معناه المتفرد بالسؤدد، لقبه به والده صغيرا تيمنا بشيخ الطريقة البكتاشية [1] وكان يلقب بخوجة ايضا.

نشأ الداي بكداش بموطن ابيه وامه (نيكيدا) نشأة علمية دينية وقد وصفه كل من ارخ له او نعته في شعر او نثر بالتقصي والعلم حتى قيل عنه انه عالم الامراء وامير العلماء...

وقد توسل به في دعائه احمد البوني فقال في ارجوزته (الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة) بعد ان ذكر صهر الداي الفقيه ابراهيم بن سنان العجمي:

بصهره محمـــد البكتاشي	من هو في الصلاح خبر ناشي
بشره الرسول بالمهات	حقنا على الاسلام كالكماة
على لسان والدي في النوم	فاجعله ربي من رؤوس القوم
وبعد ذلك تولى السلطنة	وسار فيها سيرة مستحسنة
صار امير حضرة الجزائر	كنز العلوم انس كل زائر
فنصر الشرع واجلى الظلما	واذهب الجهل واحيا العلما
وفرحت به قلوب المؤمنين	وقهرت به جيوش الكافرين
وفتحت على يديه وهران	فكمل المجد له والبرهان

ويذكر لنا محمد بن ميمون الجزائري في كتابه «التحفة المرضية» عن صفة

---

(1) راجع عن هذه الطريقة: الموسوعة العربية الميسرة مادة ب ك ت ودائرة المعارف الاسـ
مادة «بكتاش»

هذا الداي الخلقية فيقول بأنه كان ابيض اللون طويل القامة معتدل الهامة اشهل العينين خفيف الساقين وكان مقدمه الى الجزائر سنة 1086 هـ/1675م ضمن سلك المجاهدين من العسكر النظامي فنزل مدينة بونة - ولازم بها الشيخ قاسم المعروف بساسي فانتفع بعلمه وادبه.

وكان فيما تولاه هذا الداي من الوظائف الشرعية والمناصب العسكرية بالجزائر أن تولى الخطابة بأحد مساجد العاصمة سنة 1104 هـ/ 1692 م ثم تولى بعدها امارة اللواء— سنجاق دار— 1107 هـ/ 1695 م ثم كان على رأس إدارة التموين بالجيش 1112 هـ/ 1700 م الى سنة 1117 هـ/ 1705 م فاستلم زمام مسلك دفاتر الحكومة حيث تولى منصب دفتر دار ولم يمكث بهذا المنصب سوى سنة واحدة حيث لقى من حسدته ما أوغر عليه صدر السلطان فزج به في السجن ثم أبعد عن الجزائر الى طرابلس الغرب ثم الى تونس فمكث بها قليلاً ثم انتقل آيباً الى الجزائر فدخل العاصمة من ناحية الباب الجديد فسر به أهلها واحتفل به الجيش فأكرمه وأحاط به من الحرس ما ينيف على اثني عشر ألف جندي ونودي عليه داياً على رأس الحكومة الجزائرية فجلس على أريكة الحكم يوم الجمعة آخر شهر ذي العقدة 1118 هـ./ فيفري 1707 م ودخل يومئذ عليه المهنئون فأنشدوا بين يديه القصائد الطوال وألقيت الخطب، وكان فيمن امتدحه من أهل العلم والأدب الشيخ اقسم البوني، والأديب الطبيب أبو عبد الله محمد البونصي، ومحمد بن يوسف الجزائري، وعبد الرحمن الجامعي ويحى بن أحمد بن أبي راشد... ويقول من عرفه: ان نقش خاتمه «الواثق بالله الولي» محمد بكداش بن علي، وانه كان من دايات العدل بالجزائر وليس له من الأنجال سوى ولد[1].

فتح وهران وانهزام الاسبان بها:

استمرت منطقة وهران المشتملة على كل المساحة التي بين مستغانم وتلمسان - ترسف تحت نير الاحتلال الاسباني منذ ان احتلتها جيوشه في الدفعة الاولى سنة 1014 هـ/1508م ثم تأكد ذلك في حملته الثانية عليها سنة 1043 هـ/1633م حيث طوقت المدينة بمدافع العدو واخذ في التضييق عليها

(1) التحفة المرضية لمحمد بن ميمون الجزائري. مخطوط.

من ناحية الحريشة غربي مرسى وهران، فاضطر اهلها الى مغادرتها وانتقل الحاكم التركي منها الى مستغانم، وانتشر جيش العدو فيما بين مستغانم وتلمسان وكثر ضرره بالمسلمين فضاقوا به ذرعا فاستغاثوا بداي الجزائر لحمايتهم واستنهضه منهم الشعراء والعلماء لذلك فخاطبوه بالفصيح والملحون فألهبوا حماسه كان منهم ابو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن آقو جيل في قوله من قصيدته الرائية:

ولتلتفت نحو الجهاد بقوة — والكفر فاقطع اصله بذكور
جهز جيوشا كالاسود وسرحن — تلك الجواري في عباب بحور
اضرم على الكفار نار الحرب لا — تقلع ولا تمهلهم بفتور
وبقربنا (وهران) ضرس مؤلم — سهل اقتلاع في اعتناء يسير
كم قد أذنت من مسلمين وكم سبت — منهم بقهر اسيرة واسير
حلت بأرض المسلمين فهل لها — من عسكر عند الصباح مغير
يرخي كلاكله عليها بغتة — تأتيهم في غرة المغرور
فانهض بعزمك نحوها مستنصرا — بالله في جد وفي تشمير
يعساكر مثل السيول تزاحمت — للسبق تحت لوائك المنصور

الخ....

ونظم في ذلك الشيخ محمد بن عبد المؤمن قصيدة طويلة يحرض فيها داي الجزائر ويحثه على غزو وهران ايضا، هذا مطلعها:

نادتك (وهران) فلب نداءها — وانزل بها لا تقصدن سواها
واحلل بهاتيك الاباطح والربا — واستصرخن دفينها الا واها[1]
مستصحبين لواءك المنصور اذ — يلقاهم الفتح المبين وجاها
واستدع طائفة العساكر نحوها — يغزونها ولينزلوا بفنائها
صرخت بدعوتك العلية فاستجب — لندائها ولتكملن مناها
حاشاك ان تفنى حشاشتها — وقد قصرت عليك ندائها ورجالها
فلطالما عبثت بها ايدي العدا — حتى استباحوا ارضها وحماها[2]

(1) يعني به الشيخ العالم الصالح محمد بن عمر بن عثمان المغراوي الشهير بالهواري المتوفي سنة 843هـ/ 1439م.

(2) انظر هاتين القصيدتين بتمامها مع غيرها مما نظم في هذا الموضوع من القصائد في شرح عبد

ولم يزل سكان وهران واحوازها يستصرخون ولاة الجزائر وقادتها ويبعثون فيهم الحماس لانقاذهم من نير الاسبان حتى هب لنجدتهم الداي محمد بكداش فجهز لغزوها جيشا يحتوي على ثمانية الاف وخمسمائة جندي نظامي وهذا من غير المتطوعين من سائر طبقات الشعب وعددهم يومئذ يفوق عدد الجند النظامي بأضعاف مضاعفة، وامتازت بمشاركة طلبة العلم وتلامذة المعاهد والزوايا، فانخرط منهم في سلك الجيش الفاتح ما يربو على سبعمائة نسمة الى الف طالب وامدهم الداي بجميع انواع الاسلحة والعتاد من مدافع ومهارس[1] وبنادق وسيوف وخناجر ومن البارود فقط نحو ثلاثة آلاف وثلاثمائة قنطار واعطاهم الذخيرة.

وخرجت الكتائب ممتطية متن السفن يقودها (حسن وزن) صهر الداي (فاتح ربيع الاول 1119هـ/2 جوان 1707م) وكان على رأس الجيش الباي بوشلاغم ومصطفى بن يوسف المسراتي حاكم مازونة، وهو اول حاكم جمع بين السلطتين العسكرية والمدنية، ولما اتصل الاسطول الجزائري بمياه وهران ورأى تعذر النزول بها تحول الى ساحل ارزيو فأرسى هناك وضربت الاخبية على الشاطيء فكانت نحو ثلاثمائة وعشرين فسطاطا وبكل فسطاط خمسة وعشرون جنديا وشرعوا من حينهم في توجيه مدافعهم ومهارسهم نحو ثكنات العدو المنبثة هنالك، ووقف للدفاع عنها يومئذ الجنيرال الاسباني «ميلشيورد وأفيلا» ورغم استماتة قومه في القتال ورغم النجدة والحامية التي التحقت به في

الرحمن الجامعي لارجوزة الحلفاوي في فتح وهران - مخطوط - وكتاب التحفة المرضية في الدولة البكداشية لمحمد بن ميمون الجزائري وقد طبع هذا أخيرا بعناية وتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم - بيروت 1392هـ/1973م.

(1) يقول الجامعي في وصف قذيفة هذا المهراس - وهو من المعاصرين لهذا الفتح - انها تسمى البومبة وهي كرة تصنع فارغة القلب على هيئة القدر، فاذا اريد رميها ملئت بالبارود ملأ محكما على هيئة لا يمكن معها خروج البارود منها الا اذا انكسرت ثم يجعل في فمها فتيل مشمول مقدر بتقدير لا ينفذ معه بأكل النار قبل نزوله في المكان المقصود رميها فيه، اذا رميت من المهراس صعدت الى عنان السماء ثم تنزل في المحل المقصود بها... قال وان المهراس هذا هو من أغرب ما استخرجته حكماء العجم المهندسون... انظر شرح الجامعي لارجوزة الحلفاوي، مخطوط.

سبعة مراكب من مالطة فانه انهزم، وانفتح للاتراك بعد ان حطموا قناة الري وهدموا السدود: حصن « برج العيون » الذي كان فيه من المقاتلين الاسبان نحو اربعين وخمسمائة جندي، ومن متنصرة فيزة ستون او ثمانون مقاتلا وكان عدد القتلى من الاسبان اربعين رجلا، ومن الجرحى الذين من عليهم الامير نحو سبعة وعشرين عادوا كلهم الى اهلهم وهذا من غير ما حازه جيش الفتح من ذخائر السلاح والتموين، وكان تاريخ فتح هذا البرج مساء يوم الثلاثاء - 10 جمادي الثانية 1119هـ/ديسمبر 1707م، قيل ورمى المسلمون فيه بما ينيف على اربعة الاف قذيفة مدفع استشهد منهم مائتان وسمى هذا الحصن هكذا « برج العيون » لكونه كما وصفه الجامعي: « مبنيا بأس الماء ومنبعه الذي يسقي اجنة هذه المدينة ويدخل منه انبوب اليها وبناؤه بذلك الموضع مما تقتضيه القواعد السياسية وتستحسنه الفكر الهندسية لان فيه حراسة تلك العيون التي في تغويرها ورود ماء المنون وفيه حراسة البلاد مما يأتيها من تلك الناحية بالافساد وحفظ ما قرب من المزارع والمسارح، من كل سانح وبارح، وهو برج شامخ كأنه طود بأذخ احاط به حفير مثلث الاقطار وحصنه من ناحية الوادي جرف غبرهار، في عرض الحفير نحو الخمسة وعشرين شبرا والعمق اعظم من ذلك قدرا، صف على شفيره تراب ثم سورت كليته بسور خشب محكم الغرز في ذلك التراب، بين الخشبتين مقدار ما تخرج منه رؤوس الجعاب، واذا اريد العبور منه واليه جعل مصراع بابه ظهراني حفير جسرا، واذا اريد اغلاقه رفع فلا يستطاع نقبا ولا كسوا، وفي داخل البرج جب كبير يشرب منه سنتين او اكثر جم غفير يجتمع ماؤه من المطر الذي ينزل على سطوح بيوت البرج ومخازنه ثم ينحدر منها في ميازيب تصب في مواجنه.

ثم بعد استجمام المجاهدين خمسة عشر يوما تقدم الفاتحون منهم الى حصار برج (مرجاجو)[1] فضيقوا على اهله الخناق وفتحوه بعد ثلاثة ايام واحتله الجيش

---

(1) وهو اسم شيخ من شيوخ قبيلة حيان الموالين للاسبان وهو الذي اشار ببناء هذا الحصن، قال الشرفي: ولما أعجبهم - أي الاسبان - رأيه خشوا من فتكه بهم، وقالوا المدبر لنا مدبر علينا فنووا الفتك به وسكتوا وشرعوا في بناء هذه القلعة وحفروا بقرب أساسها بيرا شديدة العمق والقوة فيها خفية وردموا عليه فهو به الى الان وحتى الان، وعجل الله بسوء عاقبته في

التركي يوم السبت 27 جمادي الثانية/26 سبتمبر بعد ان استعصى على كل م
حاول فتحه من قبل هذا الداي او بعده من الملوك وامتلك المسلمون جميع
احتوى عليه الحصن من سلاح وذخائر حربية وتموين، وقبضوا على نيف ومائ
اسير منهم ست نسوة كن في السبايا وقيل هي ثلاث فقط.

وتتابع الفاتحون سيرهم دائما الى الامام فاندفعوا نحو حصار «برج ابن زهرة» او زهوة وهو المسمى ببرج اليهود ايضا، وذلك لما كان من مشاركة الفعلية واليد العاملة في بنائه من اليهود، وهو حصن منيع قائم هنالك على ربوة فأحاطوا به وحفرت الخنادق والالغام حوله وانتشب القتال بين الفريقين ابتداء من ثاني يوم سقط فيه برج مرجاجو، واستمرت الحرب طوال شهرين انتصر فيها المسلمون واحتلوا الحصن يوم الثلاثاء (5 شعبان /1 نوفمبر) بعد ان استشهد منهم عدد وافر، وهلك من جيش العدو كل من احتوى عليه الحصن وكانوا عشرين ومائة لم ينج منهم سوى ثمانية او تسعة انفس ممن من عليهم الامير فاطلق سراحهم.

ثم انتقل ميدان القتال الى مدينة وهران نفسها فهاجمها المجاهدون من ناحية البرجين: البرج «الاحمر والجديد» ويصف لنا الجامعي في شرحه التاريخي هذا البرج الجديد حسبما شاهده بنفسه فيقول: «انه برج حصين، تقتحم الكماة دونه الف عرين، لم تر العيون برجا اكبر منه فساحة، ولا اوسع منه ساحة، ولا اتقن منه بناء، ولا احسن منه رواء، فكان الهرم الكبير، يزرى بالخورنق والسدير، افرغ في قالب الاستواء من صفاء اللجين، وتراءى للعيون برجا واحدا وهو في الحقيقة محتوى على برجين حكى لنا ان نفقة بنائه بلغت تسعين الف ريال كبيرة، واعجب من ذلك انها صدقة امرأة من نصارى الجزئرة...» وكان بهذا البرج اربعمائة مقاتل كاملة العدة، وتواصل القتال حوله في الالغام والصفوف الى ان استسلم الاسبان ولاذ رؤسائهم بالفرار في عرض البحار، فاحتله الجيش التركي صبيحة يوم الجمعة 26 شوال1119 هـ/20 جانفى 1708م

الدنيا والاخرة نعوذ بالله من سلب الايمان وسوء الخسران والمرء بما دان يدان، انظر بهجة الناظر ص 211 ط الجزائر 1924م.

ثم تحول ميدان القتال بعد ذلك الى «المرسى الكبير» وكانت بها قبة حصينة وقلعة منيعة تحصن بها الاسبان هي مما انشأه السلطان ابو الحسن المريني فيا كان قد اقامه هناك من الحصون مثل البرج الاحمر وغيره، وكانت هذه القصبة هي آخر معقل واعظم ملجأ للعدو وهناك، احتدمت الحرب واشتد لهيبها بين الفريقين وكان ممن شارك في المقاومة بجانب الاسبان لفيف من قبائل بني عامر وشافع وجيزة وحميان وكان فيهم لسوء الحظ من قاتل ضد المسلمين بكدية الخيار، فكان هؤلاء اشد وقعا على الفاتحين من الجيش الاسباني نفسه.

وظلم ذوي القربى اشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند

ورغم كل ما بذله الاسبان من وسائل الدفاع بنواحي المرسى الكبير فقد انتصر عليهم الاتراك يوم 13 المحرم 1120 هـ/15 مارس1708م واحتلوا جميع حصونهم ومعاقلهم التي عرفت باسم Presidios «بريزيديوس» وأسفرت الحرب عن مقتل ثلاثة آلاف من جيش الاسبان واسر نحو احدى وستين واربعمائة الف نسمة وكان فيمن استشهد في هذا الفتح من العلماء الشيخ ابو عبد الله محمد الموفق فحمل جثمانه الى تلسمان حيث دفن خارج باب الجياد قريبا من تربة الشيخ السنوسي، واستولى الفاتحون على جميع المغانم والذخائر بما فيها من اجهزة الحرب واعتدة القتال، وسقط يومئذ من مباني المدينة من اثر هذه الحرب ومفعوها نحو الثلث.

وارتاح لهذا الفتح كثير من ادباء الجزائر وشعرائها ففاضت شاعريتهم بما اعربوا به عن ابتهاجهم بهذا الفتح فيا سجلوه في كتبهم وما نظموه من قصائد مشتملة على ابلغ التهاني منها قول ابي عبد الله محمد بن احمد البوني من قصدية طويلة:

ملك يزين مديحه مداحه   هيهات ان يحصيه من انسان
يرتاح قلبي عند ذكر حديثه   فالسقم عندي وضده سيان
لاعيب فيه سوى الهجوم اخي على   (وهران) ذات الكفر والطغيان
يا صاح هذا الامر مما قد خبأ   ربى له في سابق الازمان

وتخلص الشاعر فيها الى ذكر ممدوحه فقال:

بشراك يا بكداش قد نلت المنى وعمرت ارض الكفر بالايمـــان

ولعبد الرحمن الجامعي قصيدة في الموضوع طالعها:

تلـت رسل البشائر يوم عيـد علينـا سورة الفتـح السعيـد
فأحيـــت من رسوم البشر رسما عفـا بالشرك مـذ زمن مديـد
وأصبـح وجـه دين اللـه طلقـا ووجـه الكفر في حزن الفقيـد

الى ان يقول:

فيـا حـادي الرسائـل مسفرات يفتـح الثغر مستحـلى الورود
بحقـك ان وردت عليـه قبـل مباسمـه عن الصـب العبيـد
وقـل (وهران) يهنيـك افتكـاك وانقـاذ من الاسر الشديـد
لـك البشرى وللاسلام اخرى بمنعـك من يـد الكفر العنيـد

وفيها يقول:

جزى جيش الجزائر كـل خـير الـه الخلـق ذو الملـك العتيـد
همو المستنقـذوك وقـد احاطـت بـك الاعـداء تطمـع في المزيد

وللشاعر محمد بن يوسف الجزائري قصيدة في تهنئة الداي بهذا الفتح ومطلعها:

مولاي فضلـك للكروب مفرج وبتـاج عز اللـه انـت متوج
وجمعـت بـين مكـارم وفضائـل اضحـى بها صبح الهنا يتبلج

كما نظم آخرون في ذلك قصائد كثيرة بالفصيح والملحون ايضا...

ثم عاد «حسن وزن» بعد نهاية الفتح هذا الى العاصمة يسوق امامه المغانم ومعه نحو الفين من الاسرى من بينهم مائتا ضابط فيهم الفرنسيون وفرسان مالطة المتطوعون فانتقى منهم الداي طائفة بعث بها الى دار الخلافة باستانبول وانتهى يومئذ حكم الاسبان بوهران نهائياً بعد ان قضوا بها مدة تنيف على قرنين(914 - 1120هـ/1508 - 1708م) وما كان لهذا الحضور الاسباني ليستمر بالجزائر طوال هذين القرنين لولا ما كان هنالك من الخلاف وسوء التفاهم اللذين كانا سائدين ما بين الحكومة والشعب من اثر الطغيان الذي كان

عليه المستبدون بالسلطان ثم ما كان عليه اكثر الحكام والولات يومئذ من السعي وراء المنفعة الشخصية وضف الى ذلك ما لحق القيادة العليا من الضعف المعنوي يوم ان انتصرت على الاسبان بمستغانم سنة 966هـ/1558م حيث انتشت بما احرزته من المغانم وربما اصاب الإسبان يومئذ من الانهزام الذريع فاستنامت اذ ذاك السلطة الجزائرية.

ويعلل بعض المؤرخين من اوربا اندحار الاسبان وانهزام جيوشهم في هذه الحرب بما كان عليه وضع جيش الاحتلال الاسباني من اقتصاره في احتلال البلاد على الشاطىء فقط دون التوغل الى داخل البلاد فكانت سلطتهم بذلك محددة، وقد كان من اللازم لحماية ظهورهم ان يبسطوا سلطانهم على الداخل ولكنهم لم يفعلوا ذلك ظنا منهم بأن الشاطىء وهو القسم الذي يهمهم يغنيهم عن الداخل، وان سلطتهم عليه تكفل لهم سيطرتهم على ما وراءه، ولكنهم اخطأوا الحساب والتقدير، اذ ان اهل البلاد عادوا الى انفسهم وندموا على تغافلهم، وقاموا فحاصروا الاسبان في قلاعهم الساحلية، وقطعوا عنهم كل صلة بالبر حتى كانوا يضطرونهم الى جلب ارزاقهم ومائهم الذي يشربونه من خارج البلاد بطريق البحر[1].

نظام الاستعمار الاسباني في وهران:

يجدر بنا الان وقد عرفنا وسايرنا حوادث الاستعمار الاسباني بالغرب الجزائري - وقد مكث بوهران ما ينف على قرنين كاملين - اي ان نتمم معلوماتنا بمعرفة ما كان يجري عليه نظامه وكيف كانت سياسته مع الاهالي وذلك ما نجد تلخيصه مترجما عن المجلة الافريقية في كتاب حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا للمؤرخ الكبير الاستاذ احمد توفيق المدني ص 447 قال تحت هذا العنوان:

الارض وسكانها

كانت اسبانيا تحتل حول وهران والمرسى الكبير مساحة من الارض تبلغ دائرتها نحو 20 مرحلة أي نحو89 كيلومترا.

---

(1) إحسان حقي: الجزائر العربية ص 50 ط بيروت 1961م.

في هذه البقعة من الارض كان يوجد عدد كبير من الدواوير العربية تقطنها آلاف من العائلات وعلى كل دوار رئيس مسؤول يدعى «الشيخ» يقول الدكتور (دون بدرو دولا كوبا) في تقرير رسمي اسباني ترجمته المجلة الافريقية عن ادارة المدينة ونظامها ما ملخصه:

ان هؤلاء الاعراب الخاضعين للسلطة الاسبانية ينقسمون الى ثلاث اقسام:

قسم الدواوير النبيلة ويطلقون في وهران على رجال هذا القسم من الدواوير «فرسان المملكة» وقسم الدواوير المنحطة والمستضعفة.

وأخيرا قسم الدواوير المختلطة التي تجمع بين جماعة من هؤلاء وجماعة من اولئك وهم يختلطون انما لا يندمج بعضهم في بعض.

والعرب من الدواوير النبيلة يمتازون عن الدواوير الحقيرة بشجاعتهم واقدامهم وحسن سلوكهم (بالنسبة للاسباني طبعا).

المداخيل المالية:

كان هؤلاء الاعراب الخاضعون حوالي وهران للسلطة الاسبانية ويطلقون عليهم اسم «عرب الاسلام» Maro – de paz يدفعون للسلطة الاسبانية كل سنة جزية يدعونها، «الرومية» وهي عبارة عن كمية من القمح يبلغ مقدارها اثنين من الدوبلات عن كل دوار ومقابل هذه الجزية ينال الدوار الامان لمدة سنة.

ويختلف حجم هذا «الدوبلة» حسب اهمية الدواوير فعدد الامداد (جمع مد) التي تشملها كل دوبلة يجدد بواسطة اتفاقات خاصة بين رجال السلطة ورجال الدوار.

فالدوبلة في سنة 1708م وهي السنة التي استرجعت الجزائر فيها مدينة وهران وكانت تشمل 112 مدا اي 28 برشالا اسبانيا أو 43 فنيق قشتالي أو ما يعادل الفين من الكيلوات.

طريق التعامل:

وعندما يدفع شيخ الدوار هذه الجزية ويأخذ لنفسه ولدواره الامان يقدم للاسبان الرهائن المتفق عليها وهي تشمل عادة بعض اولاد الشيخ أو بعض

ذوي قرابته حيث يستقرون بمدينة وهران على حساب الخزينة الاسبانية.

والشيخ يجمع تلك الجزية من سكان الدوار حسب اهميتهم ويدفعها للحاكم الاسباني كل سنة ويتقاضى مقابل ذلك ومقابل ما يقوم به من اعمال لخدمة المئارب الاسبانية مقادير مالية تتراوح ما بين 60 و 100 دورو (الدورو يبلغ بقيمة الذهب نحو 10 دنانير جزائرية).

مجلس تحديد الجزية:

في شهر يونيو من كل سنة يجمع الحاكم العام لمدينة وهران وضواحيها مجلسا يضم كل الشيوخ ورؤساء العشاير وعددا من الفرسان وذلك من أجل تحديد حجم «الرومية»

ويقدم الحاكم العام لهذا المجلس طعام الغداء المؤلف من السمك والفواكه المجففة ثم تقدم لهم كميات من تبغ البرازيل الذي يحبونه كثيرا وفي هذا الاجتماع يقرر حجم الدوبلة ويتناول الشيوخ منحتهم السالفة الذكر.

القبائل العربية وتقسيمها

اما القبائل والدواوير التي لا تحضر هذا الاجتماع ولا تدفع الجزية فانها تعتبر قبائل عاصية لا امان لها ومن أجل ذلك تكون عرضة كل آن للغارة عليها واخذ اموالها ومواشيها واستعباد رجالها ونسائها، هكذا يقول الدكتور دولا كوبا في تقريره الرسمي.

ثم يقول: ان القبائل العربية التي تسكن المنطقة الاسبانية كانت معروفة محددة الميول والسلوك، فمنها الطيب ومنها الخبيث فمن القسم الطيب (بالنسبة لاسبانيا) أولاد عبد الله وأولاد قلطة والعزمي والغروزي واولاد جسلي وقد اشتهر عنهم انهم من الرجال المسالمين، اما الشقرانية والسقراطة وبني عرزاوية والعربي وابن صران فقد اشتهر عنهم انهم من رجال حسن السلوك ومعرفة آداب المجالس.

وأما القسم الخبيث من هذه القبائل (في نظر الاسبان) فهم:

الطرارة وأولاد زعبير وحميان فقد كانوا محسوبين من جماعة الخونة.

وجماعة سويد كانت تعتبر دوما من انصار اسبانيا

وجماعة زفينة المبرة والجفرة كانت من الموثوق بها

وجماعة بني راشد لم تكن ابدا جماعة مسالمة كانت تشمل لصوصا مقلقين (في نظر الاسبان طبعا) يحبون القتال ويستجيبون دائما لكل من ينادي بالجهاد ضد النصارى.

وفي ايام باكداش هذا القي القبض على الاخوين العالمين مفتي المالكية بالعاصمة الشيخ احمد واخيه القاضي على ابني العلامة سيد سعيد قدورة فقتلا خنقا!.. وكذلك كانت عاقبة هذا الداي ايضا مثلها. فان فرقة الانكشارية استعجلت الداي في تقاضي اجرتها فماطلها الداي بسبب تخلف صاحب الدنوش بقسنطينة وفراره من الجباية، فتمرد الجند وتآمروا ضد الداي فقتلوه خنقا يوم السبت 21المحرم 1122هـ/22 مارس 1710م كما أنه اعدم معه صهره حسن وزن، وخلف الداي في منصبه دالى ابراهيم وهو احد المتآمرين ضد الداي السابق وباسم هذا اشتهرت الضاحية المعروفة الى اليوم بالجنوب الغربي من العاصمة باسم « دالى ابراهيم » حيث ضيعته المسمات على السنة الناس من قبل: « حوش ابراهيم » ومكث دالى ابراهيم في ولايته هذه مدة شهر واحد فقط وقيل اربعة اشهر؟ ولشدته وقساوته لقب بدالى ومعناه المجنون واغتيل هو كذلك وخلفه كوسة باشا؟....

ولاية الداي وزن بابا علي شاوش:

تقلد زمام الحكومة الجزائرية يوم الخميس 18جمادى الثانية 1122هـ/15اوت 1710م وكان أول ما شرع فيه من الاعمال أن قام باخماد نار الثورة القومية القائمة يومئذ ضد الحكومة التركية فقبض على ايدي قادة الحركة الثورية وقضى على جماعة المنشقين حتى اطمأن الناس وأمنت السبل واستتب الامن وفي ايام بابا علي هذا بعث السلطان العثماني بمندوبه (شاركا ابراهيم) الى الجزائر يحمل لقب باشا ليتولى وظيفته كممثل للسلطة العثمانية الى جانب الداي، فتلطف الداي في رد المندوب بكيفية ديبلوماسية عجيبة وسعى لدى السلطان في ضم شرف وفخر هذا اللقب الى نفسه، فأسعفه السلطان الى غرضه ومنحه لقب الباشا رسميا بالاضافة الى الدايوية، وتغير بذلك نظام الحكم

بالجزائر نوعا ما فأصبح الداي هو الباشا والباشا هو الداي وأصبحت الجزائر يومئذ مستقلة بادارة شؤونها استقلال حكومات (الدومينيون أو الكومانوالث)[1]، وقد كان حكامها من قبل بمثابة اقيال للعثمانيين ويومئذ عرض على الباشا كل من دولة الاسبان وهولندا وبريطانيا العظمى والصقليين والدانمارك، والسويد المهادنة والصلح فامتنع ولم يقبل أن يبرم السلم سوى مع الهولانديين فقط، وفي 27المحرم 1127هـ/4 فيفرى 1715م وقع زلزال هائل بالعاصمة وضواحيها واستمر في حركته المهولة مدة 23 يوما تحطم بسببه كثير من الدور والقصور وتداعت له جدران الجامع الاعظم وغالب قلاع المدينة وحصونها ومات من جرائه عدد عظيم من الناس فكان منهم بمدينة البليدة فقط نحو العشرين ألف نسمة وخرج الداي من قصر الحكومة ملتجئا الى برج مولاي محمد المعروف بحصن النجم بأعلى المدينة وكثر فيها النهب والسلب ثم كانت بعد ذلك وفاة الداي متأثراً بمرض الاسهال (صفر 1130هـ/ جانفى1718م).

ولاية الداي محمد خزناجي:

هو محمد بن حسن أفندي خزناجي المشتهر بلقب وزنعلى، انتصب على عرش الحكومة الجزائرية يوم الاربعاء 5 جمادى الاولى سنة 1130هـ/6 افريل 1718م واجهته أزمة اقتصادية أناخت بالبلاد بسبب ما أصابها من قحط شديد، وتمردت الرعية عن دفع الضرائب، فصرف همته الى نشر اعلام السلم في البلاد، وعمل على قطع علائقه الديبلوماسية بالباب العالي فقضى بذلك على كل ما كان هنالك من اطماع السلطنة العثمانية في هذه البلاد.

وفي اليوم العاشر من شهر صفر سنة 1132هـ/14 ديسمبر 1719م، وقعت المعاهدة التجارية بين الحكومتين الجزائرية والفرنسية لمدة قرن كامل وذلك تأييداً النص ومعاهدة سنة1100هـ/1689م السالفة الذكر.

واجتهد الداي بعد ذلك في القبض على مقاليد الحكم بيد من حديد فأخذ في

(1) نظام الدومنيون هو الحصول على معاهدة دولية تضمن الاستقلال الداخلي للبلاد، وأما الكومانوالث فهو دخول البلاد ضمن نظام اتحادي مع دولة عظمى.

قطع شوكة طائفة الرياس والعمل على التقليل من بسط نفوذهم بالضرب على أيديهم، وتجاهر أمام خليفة استانبول بأنه لا يعتمد في سياسته الا على ابناء الوطن الجزائري وحدهم، ولم ينشب أن حاك خصومه مؤامرة ضده فاغتيل بناحية باب الجزيرة - احد أبواب العاصمة - من قبل البحر (1136هـ/1724م) ونظمت طائفة الرياس هجوما قتل اثناءه بعض الحراس وشاوش الداي ومعه الخوجة.

ولاية الداي بابا عبدي

كان هذا الداي يلقب « بالكرد » والاعور، وقد يكون من اكراد العراق. تقلب في وظائف عسكرية وادارية كثيرة، آخرها وظيفة آغة الصبايحية العرب، ومنها ارتقى الى منصب باى ولاية تيطرى ثم جلس على اريكة عرش الجزائر يوم السبت 20 جمادى الثانية 1136هـ/15 مارس 1724م وأول ما قام به من الاعمال أن قضى على ما كان منتشرا في انحاء القطر من عناصر الفوضى والخلاف وما كان كذلك حاصل من رؤساء القبائل والعشائر المنشقة من التشويش ضد الحكومة وتمردهم عن الطاعة، فقضى على ذلك كله. وفي نفس التاريخ الذي تولى فيه الداي منصبه بادرت الشركة الفرنسية ميشان « Maichens » لاول مرة - باكتراء بعض الامكنة بالسواحل الوهرانية لانشاء مراكز تجارية وبثتها هنالك منافسة لخصومها الانكليز.

وفي صدر أيام تولية هذا الداي حدث في تونس شقاق عظيم بين علي باشا بن محمد وعمه حسين بن علي تركي مؤسس الاسرة الحسينية، ومنشأ هذا الخلاف هو التنازع والتزاحم على الملك وهو أمر كثيرا ما يغلب على الامراء اذا كانوا من بيت واحد، وأخفق على في ثورته فلجأ الى الجزائر مستجيرا بالداي فاعتقله هذا بدار الباشاوات حسب اتفاقية سابقة كانت مبرمة بينه وبين حسين باي تونس الذي كان قد تعهد بتأدية مبلغ عشرة آلاف سكة سنويا للخزينة الجزائرية وهو ما يقدر - في ذلك الزمن - بنحو 435000 فرنكا، وبذلك تمكنت الاسرة الحسينية من الجلوس على عرش المملكة التونسية طوال قرن وست وسبعين سنة أي الى عهد الحماية الفرنسية 1298هـ/1881م ثم سقطت هذه الاسرة بانقلاب الحكم جمهوريا بتاريخ 27ذي القعدة 1376هـ/25جويلية

1957م [1]. واستمر علي باشا سجين القصر بالجزائر مدة خمس سنوات ونيف، أي الى عهد الداي ابراهيم خليفة بابا عبدى، فرق هذا لحاله وأرسل وثاقه.

وفي هذه الاونة حاولت حكومة الباب العالي باستانبول للمرة الثانية اعلان سطوتها وسلطتها على الحكومة الجزائرية والاشراف على ادارتها فبعثت بمندوبها الى الجزائر، فرفض من طرف السلطة القائمة بالبلاد فعاد ادراجه.

ومما يذكر هنا بغاية الاكبار والاجلال مشاركة المرأة الجزائرية في الكفاح والذب عن الوطن ضد الظلم والعدوان وما روى لنا التاريخ عن الست علجية بنت بو عزيز بن ناصر شيخ قبيلة الحنانشة بسوق هراس شرقي الجزائر، فإنها لما رأت انهزام قومها امام الاتراك المتجمعين من جيوش باي قسنطينة «حسين بوكمية» وحليفه باي تونس في التاريخ (1136هـ/1724م اهتزت لهذا الحادث المريع فأمتطت صهوة جوادها وتقدمت بنفسها لحشد الجيوش ضد الخصم المتسلط وصرخت في قومها بالنفير العام لحماية الشرف والدفاع عن العفاف ولسان حالها ينشد قول أم شملة كنزة المنقرية:

ان يك ظني صادقا وهو صادقي	بشملة يحبسهم بها محبسا أزلا
فيا شمل شمروا طلب القوم بالذي	اصبت ولا تقبل قصاصاً ولا عقلا

فنهض القوم لدعوتها وخرجوا عن بكرة ابيهم رجالا ونساء فقاتلوا معها الاتراك حتى انتصروا عليهم وافتكوا من أيديهم جميع ما استحوذ عليه القوم من الاموال والمتاع!... ووقع مثل هذا من أم هانيء التي قادت الجيوش بنفسها ضد باي قسنطينة، ولم يكن لينجو الباي من الهزيمة امامها الا بحيلة والمصاهرة لها في ابنتها [2] وأن مواقف مشرفة هذه لتذكرنا بقتال نساء المهاجرين في واقعة اليرموك وبحوادث الفتح والحركة النسائية في صدر الاسلام، اذ ما أشبه عمل هاتين المرأتين الجزائريتين بما قامت به أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية

---

(1) كان محمد الامين - الباي التاسع عشر - هو آخر البايات الامراء لهذا البيت الحسيني بتونس، وكان أول رؤساء الجمهورية بها هو الحبيب بورقيبة القائم على رأس الحكومة الان...

(2) E. vayssettes; Histoire de canstantine p: 149 canstantine 1869

الانصارية في وقعة أحد الشهيرة[1] وبمواقف البطولة التي وقفتها خولة أخت ضرار بن الازور الكندي التي قيل عنها أنها كانت أشجع نساء العرب في عصرها، وهي مشهورة بأخبارها البطولية العجيبة في فتوح الشام.

ولو أن شاعر النيل ابراهيم حافظ أدرك هؤلاء النسوة جميعا أو كان ادرك واحدة منهن أو عاصرها على الاقل لاكبر من شأنها في قريضة، ولجاءنا في شعره بأبلغ وأروع مما خلد به الفتاة اليابانية.... وكأن المخبل السعدي -الشاعر الجاهلي - عناهن جميعا بقوله:

وساقطـــة كور الخمار حييـــة	على ظهرعرى زال عنها جلالها
تشد يديهـا بالسنـام وقـد رأت	مسومـة يـأوى اليهـا رعالهـا
نزلنـا فساقينـا الكماة دماءهـا	سجال المنايا حيث تسقى سجالها

وسيشاهد القارىء عجبا من نوع بطولة المرأة والفتاة الجزائرية في جهادها وكفاحها المرير عندما يستعرض معنا تاريخ الثورات التحريرية بالجزائر في مختلف اطوارها ولا يعزب عن القارىء ما كنا قدمناه في الجزء الاول من كفاح المرأة الافريقية القارطاجنية أمام غزاة الرومان، وموقف الكاهنة تجاه العرب الفاتحين، وذلك ما يدلنا على ما جبلت عليه المرأة المغربية من حبها لوطنها وشغفها بقوميتها والذود عن كرامة شعبها الى حد التضحية والاستماتة في سبيله.

وفي سنة 1141هـ/1728م عادت السلطنة العثمانية باستانبول فحاولت - للمرة الثالثة - التدخل في شؤون الجزائر فبعثت بمندوبها مع جماعة من الشخصيات السياسية الى الجزائر فرفضتها السلطة المحلية ويومئذ هاجمت مراكب المندوب مرسى العاصمة ورمتها بقنابل أضرت بالميناء. وفي هذه السنة عاد الحاج محمد بن الداي بابا عبدي منتصرا من حملة عسكرية شنها ضد بعض الثوار الذين كان يرأسهم المسمى بو زيد بالغرب الجزائري

(1) اثنى على شجاعتها الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: ما التفت يوم أحد يمينا ولا شمالا الا ورأيتها تقاتل دوني.

وفي ذلك نظم عبد الله بن ميمون الجزائري قصيدة في تهنئة ولد الداي حين عاد سالما من غزوته منتصرا فقال:

بشرى كما انبلج الصباح البادي	بقدوم مولانا ضحى الميلاد
في ساعة بركاتها فاضت على	كل الورى من حاضر أو بادي
بالطالع الميمون في يوم بدر	في مثله وجه الرسول الهادي
اعملت رحلتك السعيدة قاصدا	في نظم شمل في سبيل جهاد

انظر القصيدة بتمامها عند الدكتور ابو القاسم سعد الله (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ص 139 ط الجزائر 1978)

وفي أثناء ذلك عقدت دولة السويد اتفاقية صداقة مع الجزائر وانشأت قنصليتها بالعاصمة واخذت في التجارة معها (1729م)

استرجاع الاسبان لوهران ووفاة الداي:

لم يزل الاسبان منذ أن انتزعت منهم وهران يرقبون الفرصة لاستعادتها اليهم ويعملون على اكتساب الحلفاء والاصدقاء حتى ساعدتهم الظروف في هذه المرة باستمالة حسين بن علي باي تونس حيث ارتبط مع ملكهم فيليب الخامس بمعاهدة سنة 1143هـ/1731م وتظاهر الجميع على مهاجمة وهران وتجهزت الحملة الاسبانية الى وهران في خمس وعشرين وخمسمائة قطعة بحرية تحمل نحو الثلاثين الف مقاتل يقودها « الكونت مونتيمار » وكان بها من العتاد الحربي 720 مدفعا ومن القنابل المختلفة الحجم 16420 قنبلة، ومن البنادق 12000بندقية، و56000 قنبلة يدوية و80693 قذائف مختلفة ومن البارود 12427 قنطارا و 8000 صندوقا لرصاص البنادق ومليونان من وجبة لطعام الجيش.. وفي اليوم الخامس من المحرم 1145هـ/29 جوان 1732م ارسلت الحملة بمرسى الحريشة غربي وسران وأنزلت جيوشها بعين الترك (15كيلومترا غربي وهران) ويومئذ خرجت الحامية التركية لرد عادية العدو في عدد من الجيش يبلغ نحو الاربعة آلاف مجاهد. تحت قيادة الباي بوشلاغم - باي الناحية - ونشبت الحرب فمات فيها قائد الحملة الاسبانية وكاد ان ينتصر المسلمون على عدوهم لولا خيانة بعض الاعراب من قبيلة بني عامر وجاءهم المدد من الجزائر ولكن بدون جدوى ،فجعل الاسبان يحتلون المدينة وكان بها من المدافع الكبيرة 146 قطعة فاستولوا على

جميع ذلك وعلى غيره مما هو دون هذه المدافع في الحجم، وكما استولوا على الميرة أيضا، ويومئذ انتقل الباي مرتحلا من وهران الى مدينة معسكر، واقتدى به السكان ولم يكن عددهم يومئذ كثيرا، ودخل الاسبان عشية يوم أول جويلية المدينة فوجدوها خاوية على عروشها وبلغ خبر الهزيمة الى الداي. فاغتم لها وبلغ به الاسف والحزن الى حد أنه انقطع عن الطعام والشراب وتوارى عن الناس مدة ثم علم أن ذلك لا يجدي نفعا ولا يعود على رجل السياسة وأمته بفائدة، فشمر على ساعد العمل والجد فعبأ الكتائب وبعث بالجنود تحت قيادة ولده محمد لمقاتلة الاسبان بوهران، وبينما الجند في ميدان القتال اذ فاجأهم الخبر بموت الداي وكان مريضا بداء البطن وقيل أنه مات مسموما وذلك في أواخر ربيع الاول 1145هـ/3 سبتمبر 1732م وقد بلغ من العمر عتيا، فدب الفشل في قيادة الجيش التركي ثم عاد القوم الى مراكزهم بدون جدوى على أن هذه المعركة لم تكن الاخيرة في الدفاع عن وهران لانقاذها من يد الاستعمار الاسباني بل تلتها معارك وحروب أخرى زهاء ستين سنة الى أن انقذت من يد الاسبان نهائيا سنة 1206، هـ/1792م كما سيأتيك تفصيله في محله.

وكان لهذا الداي مآثر بالجزائر كثيرة منها انشاؤه لجامع القرئين بالعاصمة وهو المشهور على ألسنة العامة بجامع «ماقارون» الذي كان قائما على ساحل البحر من العاصمة والمطل على دار امارة البحرية أنشأه سنة 1142هـ/1730م وقد حولته السلطة الاستعمارية الفرنسية فيما بعد الى مدرسة للفنون الجميلة، وأخيرا تحطم في جملة ما حطم من الدور والبنايات الاثرية بذلك الحي وفق تخطيط برنامج وضع لفن المعمار العصري الجديد القائم اليوم على انقاضه بناحية ساحة الشهداء كما أن العمارة الجديدة القائمة ببناية ضريح الثعالبي المنشأ على عهد الحاج «احمد داي بالعاصمة سنة 1108هـ/1696م هي أيضا من مآثر بابا عبدي داي وكذلك الزيادة التي زادها حول الضريح سنة 1142هـ/ 1730م وكان الذي تولى بناء هذه الزيادة مهندس البناء والوكيل بنفس الضريح في التاريخ هو المسمى «سيدي واضح» دفين الزاوية الثعالبية بقرب الميضأة، وفي هذه السنة أيضاً اخذ الحاج عباس بن جلول الباش كاتب بقسنطينة في تأسيس جامع سوق الغزل ببلده... أنشأه وانفق عليه من ماله الخاص، ويقال أنه من مآثر الباي حسين كلياني المكنى بوكمية؟... وهو المسجد الذي حولته السلطة

الاستعمارية الفرنسية الى كنيسة كاتيدرائية، وقد أعادته الدولة الجزائرية اليوم الى حظيرة الاسلام.

ولاية الداي ابراهيم رمضان:

كان ابراهيم هذا من أعيان المستشارين بديوان الحكومة التركية الجزائرية وكان يعرف بالخزناجي وقع تعيينه لمنصبه الجديد هذا يوم الاربعاء 10 ربيع الاول سنة 1145هـ/2 سبتمبر 1732م وبمجرد ما تسلم زمام الحكم بادر بارسال الحامية الى وهران ولكنه جاء بعد فوات الاوان!... وجاء في المعلمة التركية انه الذي تولى الحكم بعد الداي بابا عبدي هو ارسلان محمد باشا (1141هـ/1729م) ثم جاء بعده الداي ابراهيم رمضان.

وقعة سمنجة:

استمر الخلاف والتنازع ناشئا بين باي تونس حسين بن علي تركي وابن اخيه علي باشا، ومنشأ الخلاف بينهما دائما هو التنازع والتنافس على الملك، وكان لعلي صلة صداقة ومودة بداي الجزائر ابراهيم منذ أن حل هنا اعقاله من سجنه بالجزائر كما مر تفصيله. فاستنجد علي هذه المرة بصديقه داي الجزائر ليؤيده في مطالبه ضد عمه حسين، فلبى الداي دعوته على شريطة أن تبقى ولاية تونس دائما تابعة للجزائر مع ما فرض عليه من ضريبة سنوية تبلغ (200000) قطعة ذهبية فتعهد علي باشا بذلك، وأكده الداي بتوقيع مرسوم كتبه الى باي قسنطينة بوكمية المعروف بالشايب يأمره فيه بأن يكون دائما في جانب علي باشا وفي نصرته على خصمه وأن يتهيأ للخروج معه لمحاربة عمه حسين.

وكان الامر كذلك فخرجت حامية قسنطينة مع رئيسها الداى بوكمية متوجهة الى تونس فالتقت بجيوش حسين بناحية «سمنجة» على نحو اربعة عشر فرسخاً من تونس ويعرف هذا المكان اليوم باسم (الفحصى) وهناك انتشبت الحرب بين الفريقين انتصر فيها الجزائريون واستولوا على جميع ما كان يشتمل عليه الجيش التونسي من سلاح وعتاد ودواب وغيرها مع أسر طائفة من الجند المتخلف، واحتلوا تونس ليلة عيد الاضحى سنة 1147هـ/2ماي 1735م ونصبوا (علي باشا) على عرشها وخرج عمه مشردا مع أبنائه الى القيروان،

وفرضت الحكومة الجزائرية يومئذ على تونس مطالب التزمت بها حكومة الباي منهابقاء ثكنة الكاف مجردة عن السلاح، ومنها الاقتصار في رفع العلم الوطني التونسي على نصف الصاري ولا يرتفع الى اعلاه، ومنها انه عندما يوجد مركب جزائري بمرسى تونس فان لقائده الاولوية والتقدم المطلق على غيره من رؤساء البحرية هناك طوال ايام إقامته باقليم تونس، ومنها تعهد الباي الذي اصبح يحمل لقب الباشا ببعث مركب سنويا الى الجزائر مثقل بحمولة من الزيت مع هدايا اخرى تكون من صنع تونس أو مما تدره عليها تجارتها، وكما هو واجب عليه ايضا أن يرفع من مستوى وكيل داي الجزائر وباي قسنطينة الموجودين حالا بالبلاط التونسي الى مقام سفراء دول اوروبا فيكون لهما من الرفعة والاحترام ما لهؤلاء السفراء، وعاد الجزائريون الى وطنهم مزودين بوقر أحمال من مسكوكات الفضة محمولة على خمس وثلاثين بغلا علاوة على ما تعهد به الباي لخزينة الجزائر من تقديم خمسين الف « بياسطر » سنويا وذلك ما قدر قبل اليوم بخمسين وثلاثمائة الف فرنك.

ولاذ ولدا الباي حسين بالفرار الى الجزائر خفية طلبا للنجدة ودام كل منهما يتردد ما بين المدينتين: الجزائر وقسنطينة مدة 16 سنة وأخيراً استقر احد الاخوين وهو محمد الرشيد بعاصمة الجزائر وسكن بها في بستان ولعله هو قصر البارد والقائم اليوم الى جانب قصر الشعب فاحدث فيه فوارة ماء وقال فيها

فوارة بعثت حبابا طالعا　　نحو الدرارى فانثنى بجمان
وتدير قوسا منحنى في بركة　　لصفائها خيل السماء اثنان

وقال فيها بعض جلسائه:

لك الله من فوارة دام حسنها　　ولا عطلت من رائق السلسل الراقي
كان الزلال العذب منها وصوته　　شفاء شج ترجيه هينمة الراقي

وزاره يوما مفتي الجزائر - ولعله الشيخ سيدي محمد بن سيدي بن علي مفتي الحنفية - وكان مشهورا بالادب والنظم الرائق فاطلع على ما قيل من الشعر في هذه الفوارة فقال المفتي من فوره:

ولله روض مشرق جاده الحيا　　على طرب حث المدام بها ساق

كـأن بـه الانبوب يزعـج مـاءه   قضيب من البلور قام على ساق[1]

واستمر الاخوان التونسيان بأرض الجزائر الى سنة 1169هـ/1756م حيث اسعفها ولاتها الاتراك بجيوش جرارة أقبلت على تونس فأسرت على باشا ومع بعض بنيه وكانت هناك وقعة شنيعة في ذي الحجة 1169هـ/ سبتمبر1755م قتل فيها هؤلاء الاسرى وهي آخر حرب شنها حكام الجزائر ضد حكومة تونس[2].

ومن أهم ما يرويه لنا التاريخ من حوادث عصر هذا الداي وقوع الاستياء العام والسخط الحاصل من الاهالي على فرنسا بسبب سوء معاملتها للسفن الجزائرية بهذا البحر، فزج بالقنصل الفرنسي مع طائفة من أبناء جنسه في السجن، ويومئـذ اضطرت الحكومـة الفرنسية الى استعطاف الحكومة الجزائرية لاطلاق السفير وبعد أن دفعت تعويضات مالية عما لحق الاسطول الجزائري من الخسائر، عفى الداي حينئذ عن القنصل واتباعه وأطلق سراحهم.

وفي ليلة السبت 17 رجب1148هـ/3 ديسمبر 1735م وقع بالجزائر زلزال هائل تكرر اربع مرات وظهرت اضراره بالخصوص في مدينة شرشال حيث تحطم أكثر دورها ومات تحت الانقاض من سكانها نحوالخمسين ومائتي نسمة، وفي السنة بعدها كان الشروع في تجديد بناية جسر الحراش شرقي العاصمة، حيث حطمته المياه المتدفقة، وهو الذي كان بناه من قبل الحاج احمد.

ووقعت عواصف هوجاء بالجزائر سنة 1152هـ/1740م فأضرت بمرسى العاصمة وما كان بها من مراكب وسفن، وفي السنة بعدها انتشر مرض الوباء بالعاصمـة ففتك بالسكان فتكا ذريعا حتى أنه كانت الوفيات تعد يوميا بالمئات. وكان سبب نقل العدوى هذه حلول سفينة جاءت من الاسكندرية الى العاصمة.

---

(1) محمد النيفر: عنوان الاريب ج 2ص 26 ط تونس 1351هـ

(2) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ج2 ص 242 ط تونس 1966م.

مطامع اوروبا المسيحية في الشرق الاسلامي:

لقد بلغ من جشع اوربا الصليبية أن جاء في مشروع الكاردينال البيروني Alberoni المؤرخ بسنة 1148هـ/1736م استنهاض قومه للقضاء على دولة الاسلام، وكان مما جاء فيه أنه يجب أن تتكتل جميع دول أوربا وتجمع قواتها لتوجه حملتها ضد الامبراطورية العثمانية فتهاجمها برا وبحرا لتفكها من يد أهلها ولتوزع على ممالك اوربا على أن تكون الجزائر مغنما للاسبان.

ويروى عن الدولة الانكليزية أنها عرضت مساعدتها على الداي ابراهيم لدفع الخطر الاسباني عن وهران بارسال اسطولها الى هنالك على أن يمنح الداي بريطانيا مكانا بتلك السواحل تقيم فيه مركزا تجاريا ويا حبذا لو يكون ذلك المكان بالمرسى الكبير، وكاد أن يتم للانكليز ما دبروه لولا معارضة بدرت من ضباط الجيش التركي فخابت مساعي بريطانيا التي لو تم لها ذلك لاصبحنا تجاه مشكلة شبيهة بمشكلة جبل طارق اليوم، ولكن الله سلم.

وفي صيف سنة 1154هـ/1741م حدث ما عكر الجو بين الجزائر وفرنسا بسبب ما حصل من الاذى لسفينتين جزائريتين نزلتا بمرسى طولون الفرنسية احداها كان يقودها الرئيس محمد، والثانية الرئيس سليمان فعومل ركابها من طرف الفرنسيين معاملة سيئة ثم اطردا من الميناء وما أن غادرا مرسى طولون من غير أن يتجاوزا المياه الاقليمية الفرنسية حتى فوجئنا بحملة اسبانية استولت على احداها من غير أن يتحرك لفرنسا ساكنا، وبما أن هذا الموقف الذي اتخذته فرنسا تجاه الجزائر مخالف لنصوص المعاهدة المبرمة بينها سنة 1096هـ/1684م المارة الذكر والتي جاء فيها: ضمان الامن لبواخر الطرفين. وبواخر كل من الطرفين تحمي بواخر الطرف الاخر من كل اعتداء قد يشن ضدها، وكما تنص هذه المعاهدة على تعهد فرنسا بحماية البواخر الجزائرية الموجودة في عرض المياه الاقليمية الفرنسية الى ثلاثين ميلا، فكان بذلك حادث السفينة الجزائرية سببا في توتر العلائق بين الجزائر وفرنسا حتى بعثت فرنسا الى الجزائر من ينوب عنها في طلب رضاء الديوان عنها وامضيت بين الطرفين معاهدة بتاريخ 4 ربيع الاول 1153هـ/1740م وتنص مادتها الحادية عشرة منها على أنه: «عندما يرسى قراصنة الجزائر في موانىء الفرنسيين فعلى هؤلاء أن يراعوهم ويقدموا لهم البارود والرصاص والاشرعة وسائر الالات

وعلى الجزائريين أن لا يغيروا على اسرى واموال التجار الفرنسيين عندما يلاقونهم، وقد منعوا من القيام بذلك عدة مرات في زمن عظمه جدنا المرحوم ولكنهم لم يكفوا عن ذلك وما زالوا على العدوان ومع أن السلطنة الهمايونية غير راضية عن ذلك فيجب اذن اعتاق الاسرى الفرنسيين ان وجدوا واعادة اموالهم كاملة. واذا تمادى القراصنة في عصيانهم واستمروا في عدوانهم ووقع اعلامنا من طرف السعادة (يقصد به ملك فرنسا) فانه يجب عزل ولي الجزائر أيًّا كان، ويقع بعدها دفع التعويضات عن الالات المغار عليها، واذا لم يمتثلوا لامر الشريف السلطاني مع تنبيههم لذلك فعلى ملك فرنسا اذا ما وصلوا الى موانيء البلاد الفرنسية ان يرفض قبولهم بموانئه وقلاعه، كما أن الوسائل التي يستعملها لمعاقبتهم سوف لن تمس بسوء هاته المعاهدة، وذلك تماشيا مع الحكم الشريف الصادر من اجدادنا والذي ما زلنا متمسكين به، وواعدين ملك فرنسا بتأييد شكاياته أو التعبير عن ارتياحه فيما يتعلق بهذا الامر» [1] وحينئذ عادت المياه الى مجاريها.

وكان فيما سجله لنا التاريخ من أحداث عصر الداي ابراهيم هذا خروج الخزناجي ابراهيم خوجة لاخضاع الثائرين بناحية وهران في سنتي 1734م - وسنة 1736م

وفي ذي الحجة من سنة 1154هـ/فيفرى 1741م تأسست شركة فرنسية بالجزائر تحت اسم الشركة الملكية لافريقا Compagnie Royal d'Afrique برأس مال قدره 1200000 فرنك للتجارة في قمح الجزائر وتصديره لفرنسا وحققت هذه الشركة نموا ونجاحا كبيرا، وبعد الثورة الفرنسية سنة 1789م استمرت على فعاليتها تحت ادارة تجار مرسيليا باسم الوكالة الافريقية Agence d'Afrique وأشرفت الحكومة الفرنسية عليها اشرافا مباشرا وشرعت في بث

(1) انظر السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ترجمة عبد الجليل التميمي ص 39 ط تونس 1970م وراجع ارشيف رئاسة الوزراء باستنبول ديوان همايون اجنبي دفتر لدى (الديوان الهمايوني، الدفاتر الاجنبية) رقم 29/4. دفتر المعاهدات والاوسمة المعقودة مع فرنسا بتاريخ 1153هـ/1740م نشرت في مجلة المعاهدات استنبول 1794- 1877- 1880 م. ج1 ص 14وما يليها، وللاطلاع على الترجمة الفرنسية للمعاهدة راجع: Le Baron de testa, Recueil des traites de la porte ottomane avec les puissance Etrangeres, t I p: 186 paris 1864

مراكزها بالسواحل مثل القالة والرأس الاسود وانفقت على ذلك ما يبلغ 1200000 مليون ومائتي الف فرنكا وأخذت تعمل على بذر جذور الشقاق والخلاف بين الحكومة والشعب تمهيدا منها للاحتلال الفرنسي المبيت. ولم تطل بعد ذلك ايام الداي ابراهيم فاستعفى وتنازل عن العرش لحفيده وسميه ابراهيم خوجة.

ولاية الداي ابراهيم خوجة

يعرف هذا الداي باسم كوتشوك، تسلم زمام الحكم بعد جده صبيحة يوم الاربعاء 24 رمضان 1158هـ/20اوت 1745م ولا نعلم عن حوادث عصره شيئا يهم المؤرخ ذكره سوى مناوشات وقعت بين الجيش التركي والجيش التونسي بمدية الكاف من الحدود التونسية الغربية ذلك بسبب تمرد باي تونس على الحكومة الجزائرية، واستمرت هذه المناوشات الى خريف سنة 1160هـ/1747م ثم عاد الباي فاعترف بتبعيته لداي الجزائر فتم حينئذ عقد السلم بينهما. أو ما كان من مقاومته للثورة التي قام بها الكراغلة بقيادة رجب (رجم) البجائي ضد السلطة التركية الحاكمة بتلمسان وسرعان ما انطفأت الثورة وتوفي الداي بعدها بقليل 3 صفر 1161هـ/ 3فيفرى 1748م.

ولاية الداي علي ابو اصبع (ويعرف بالمولي):

صعد على منصة الحكومة الجزائرية ضحى يوم الاربعاء 26صفر 1161هـ/26فيفرى 1748م وكان حميد الخصال عادلا محسنا واشتهرت ايامه بانتشار الامن والسلم داخل الايالة الجزائرية وخارجها، وكانت علاقاته السياسية بالخارج طيبة ودية، وقع على عدة معاهدات واتفاقيات دولية سلمية وذلك مثل معاهدته مع دولة هولندا والدانمارك والسويد، فلقد نتج عنها من المنافع أن بعثت هولاندا الى الجزائر بكميات هامة من الرصاص والبارود والقذائف كما أن الجزائر حصلت من دولة السويد على خمسمائة قنطار من البارود، وعلى عشرين ألف قذيفة وكمية وافرة من الزفت والحبال والشراعات اللازمة لصنع البواخر، ومن الدانمارك على اربعين مدفعا وستة آلاف قنبلة، مدفعية وعشرين الف قذيفة وكمية هامة من مواد البناء، وضاعف الداي جهوده في تحصين البلاد فاندفع يومئذ الخطر المتوقع الذي كانت البلاد مهددة به من

طرف البابا ومن حام حوله من الدول الاوربية الصليبية مثل حكومة مالطا وجنوة والبندقية وصقلية واسبانيا وغيرها وما أن شعرت استانبول بهذا الخطر المحدق بالجزائر حتى بعثت ببعض المدافع والرماة فتعززت بها قوات الجيش التركي بالجزائر وتوطد السلام بينها وبين معظم الدول وما فتىء أن أحدث القرصان الفرنسيون تشويشات ضد الحكومة الجزائرية، واعتدوا على بعض المراكب فانتقم لذلك امير بحرية الجزائر فقبض على احد ربابنة السفن الفرنسية فقضى عليه ضربا بالعصا، ويومئذ انسحب السفير الفرنسي من الجزائر محتجا فكان ذلك ايذانا بحدوث العداوة بين حكومته والجزائر واتفق أن حدث ليلة الثامن من شهر شوال 1164/سبتمبر 1750م انفجار عظيم بمخزن البارود بالعاصمة يحتوي على خمسمائة والف قنطار من البارود فنسف حصن مولاي محمد وما حوله من جميع العمارات وكل ما جاوره من الدور. ثم كانت هنالك اضطرابات ومجاعة وفتن اهلية وعسكرية وسببها انتشار مرض الوباء (1166هـ/1752م) وقد دامت هذه الفتن اربع سنوات ذهب ضحيتها الداي نفسه فاغتيل على يد المدعو وزنعلى سنة 1754/1168م.

وقد كان يظن هذا المجرم المسكين انه باغتياله للداي يقضي على مادة الخلاف الناشىء بين الحكومتين، ولكنه اخطأ في التقدير بل كان ذلك مما زاد الطين بلة فتشعب الخلاف وارتبك الامر وانتحر وزنعلى في وسط المعركة.

وفي عصر هذا الداي بو اصبع اخذ الناس في تعمير ربض عين الازرق- أو العين الزرقاء - بالعاصمة شرقا حيث مسكننا اليوم ومنزلنا الذي وضعنا فيه هذا التأليف (تاريخ الجزائر العام) - ولا تزال الى الان في هذا الحي عين جارية قائمة البناء تصب في حوضي منقوش عليها في لوح من الرخام الابيض عبارات تركية تحمل اسم هذا الداي وتاريخ اجراء العين وحولها الصهريج وبقيت العين بفسقيتها وسقايتها ولا يزال يعرف هذا الربض باسم (عيون الازرق) أو عين الازرق الى اليوم، ولقد اقيم فيه ملعب رياضي كبير وفي ايام الداي بو اصبع ارتفع عدد السفن الجزائرية الى ما ينيف على مائة مركب حربي وفيها من السلاح 43 مدفعا واثنان وثمانين منجنيقا.

ولاية الداي محمد بن بكير خوجة:

انتصب للحكم سنة 1168هـ/ 1754 م وكان يدعى تارة بالاعور وتارة بنقسيس وكان من قبل يشغل وظيفة خوجة الخيل، حدث في أول ايام ولايته بالعاصمة زلازل ارضية دامت حركتها المرعبة أكثر من شهرين: من أواخر المحرم الى نهاية شهر ربيع الاول - أكتوبر / ديسمبر ولا ندري كيف كان وقعها ولا أثرها على البلاد والعباد؟!...

استنجاد باي تونس بالجزائر:

لا يخفى وأن ولاية علي باشا على تونس كانت بمساعدة الجيش الجزائري في مقابلة شروط التزم بها هذا الباشا نحو الحكومة الجزائرية، ولكنه في هذه المدة تثاقل وتخلف عن انجاز فيما تعهد به للجزائر فكان ذلك سببا في توتر العلائق بين حكومة الجزائر وحكومة تونس فساءت الوضعية السياسية بين الطرفين وكانت هذه فرصة طيبة لدى خصوم أقارب علي باشا ومنافسيه فبادر بانتهازها محمد بن حسين باي تونس واقبل على الجزائريين يستنهضهم ضد ابن عمه علي ويستصرخ بالحامية الجزائرية لاسترجاع عرش والده فلبى الداى دعوته ودفع بابن اخته حسن بن (زرق عينيه)باى قسنطينة في التاريخ للاستعداد والقيام بالحرب ضد باى تونس الحالي والانتصار لمحمد بن حسين بايّ، فخرج القوم فورا متوجهين الى تونس، وفي مدينة الكاف نشبت المعارك بين الجيوش الجزائرية وجند الباي التونسي واستمرت المعركة مدة شهرين كاملين الى أن بدا الضعف في الجانب الجزائري وأوشك القوم على الانهيار ولولا ما لحقهم من النجدة لوقعوا في الهزيمة، وأخيراانفتحت لهمابواب مدينةالكاف فنزلوابها ومنهاتوجهواالىتونس فاحتلوها منتصرين (1169 هـ / 1755 م) ويومئذ استشهد صاحبها علي باشا خامس ذي الحجة 31 اوت 1756 م وصفا الجو لمحمد باي وعاد الجزائريون الى مراكزهم وذلك بعد ابرام الاتفاق على دفع ضريبة سنوية على شكل كمية من الزيت بقصد انارة الجامع الكبير بالعاصمة، وقد استمر دفع هذه الضريبة حتى وقعت الحرب بين الحكومتين الجزائرية والتونسية سنة 1221/ 1224هـ 1806 / 1809 م ولقد عاد الجزائريون من تونس وأيديهم مملوءة بما استفادوه أو

استحوذوا عليه من سلاح وغنائم ثمينة وأموال طائلة كانت تقدر بخمسة ملايين فرنك ذهبية

وفي مفتتح فصل الشتاء من سنة 1169 هـ / 1755 م حدث زلزال رهيب اندك له أغلب مباني العاصمة واضطرب له الاهالي اشد اضطراب ومكثت الحال على ذلك مدة شهرين كاملين وبعد عامين من حادثة الزلزال هذا اندفع القبائل نحو برج (بوغني) فحطموه (شوال 1170 هـ: جويلية 1757 م) واستولوا على تلك الناحية كما أنهم هاجموا برج البويرة أيضا.

بعض مآثر الداي ووفاته:

كانت عناية الداي محمد بكير خوجة - أكثر ما يكون مصروفة الى تعميم قنوات الري بالبلاد، فاجتهد جهده في البحث عن منابع المياه لتوزيعها على مختلف الجهات وخاصة بالعاصمة وأطرافها وكان منها هذه العين الجارية بالحامة والبناية التي نشاهدها بأنفسنا القائمة عليها الى اليوم بمكانها وبنايتها التاريخية تجاه الباب الجنوبي لحديقة التجارب، ولا يزال النقش على الرخام الذي يحمل اسم الداي وتاريخ البناء موجودا على حاله (1173 هـ / 1759 م) مع عبارات تركية .

وبعد قليل نهض الداي الى ناحية تلمسان فقبض على الثائر المستبد بهاء منذ عشرين سنة، رجم السيجائي واعدمه، ثم كانت وفاة الداي في شعبان سنة 1179 هـ / فيفري 1766 م.

واما البحرية يومئذ فلم تكن فائقة القوى اذ لم تتجاوز وحداتها احدى وعشرين قطعة، منها بارجتان. وكلها كانت تحمل من المدافع ما بين الثلاثين الى الستين.

ولاية الداي بابا محمد بن عثمان

بعد ان تقلب بابا محمد في عدة وظائف ادارية وتبوأ مناصب عسكرية ونظرا لشجاعته النادرة وصرامته في مواقفه الحازمة التي أبداها في رد عادية المتمردين على الحكومة في شتى المناسبات عهد اليه الداي السابق: محمد بكير خوجة بالولاية على عرش الجزائر فتولى منصبه الجديد اثر وفاة سلفه هذا ليلة

النصف من شعبان سنة 1179 هـ / أواخر جانفي 1766 م وطالت ايامه مدة ربع قرن كامل كان فيها من أبرز الشخصيات الحاكمة بهذا الدور التركي الاخير بالجزائر، كما اشتهر بالعدل والاستقامة والتمسك بسيرة ابطال الاسلام متقشفا زاهدا مبالغا في التحفظ من الانفاق على نفسه وأهله من مالية الدولة وقد يبلغ به التحفظ أحيانا الى حد التضييق والتقتير على نفسه، متشددا في اجراء الاحكام وتنفيذها وفق ما تقتضيه العدالة الاجتماعية ولما تتطلبه المصلحة العامة من غير مدارات ولا محابات، وكان مما حفظه لنا التاريخ من أوصافه الذاتية انه كان نحيف الجسم مفرط الطول حاد البصر[1] ولقد واجهته في أول امره مؤامرات وتمرد من بعض رجال السلطة والجند فحاولوا اغتياله ولكنه تغلب عليهم بدهائه فقضى على (وكيل الحرج) الذي اشتهر امره بالفساد وقبض الرشاوي كما انه قضى على الجند الذي شارك في تلك المؤامرات. وكان من أعماله في ضبط شؤون الدولة انشاؤه لديوان المغانم لضبط ما يحصل عليه القراصنة وغزاة البحر من المكاسب حتى لا تضيع مصالح الدولة.

اضطراب بلاد الجنوب:

من المعروف انه كان يوجد بنواحي القطر الجزائري كما كان يوجد بغيره من الاقطار في هذا العصر الذي نؤرخه أسر وبيوتات عريقة معتزة بقوميتها القبلية متزاحمة فيما بينها تجري وراء الزعامة والرئاسة على قومها فتراها بموجب الوراثة تتقاسم اطراف بلاد الجزائر، حسب نظام الاقطاع الشائع يومئذ بأوربا ابان القرون الوسطى.، وان كانت جميع هذه الاسر والبيوتات بجملتها خاضعة - على وجه العموم - للحكومة التركية المركزية بالجزائر لسلطانها وهي تقدم لها الخراج المفروض عليها سنويا.

وكانت بلاد الجنوب أيضا سائرة على ذلك وتارة يتمرد أهلها عن الطاعة فيمتنعون عن تأدية المفروض عليهم من الضرائب اعتزازاً وترفعا عن الاذعان الى سلطة الحاكمة لا لشيء الا أنها العزة والانفة والاباء كل ذلك يحملهم على التمرد والعصيان، وقد حدث ذلك بالفعل سنة 1179 هـ / 1766 م وكان مما زاد في تغذية هذه الاضطرابات في الداخل هو ما حصل من الاسرى المسلمين

(1) احمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا ط الجزائر 1356 هـ

الذين أسرهم الاسبان واعتبروا في نظر الحكومة الجزائرية في حكم المفقودين فلما وقع الافراج عنهم من قبل الاسبان وعادوا الى اوطانهم لم يجدوا شيئا من أرزاقهم اذ كانت قد قسمت ووزعت على اهليهم حسب الفريضة الشرعية وبمقتضى الارث، فسخط هؤلاء الاسرى على الحكومة وانضموا الى الثوار وراحوا يساهمون في عمليات النهب والسلب فغزاهم جميعا باي معسكر محمد عثمان وقصد في غزوه هذا على الخصوص نواحي الاغواط والعمور والزناخرة والاربع فخضعوا له وأطاعوه ففرض على تلك العشائر اتاوة باهظة ومستمرة.

وفي 23 المحرم سنة 1182 هـ / 10 جوان 1768 م وقع الداي على معاهدة تجارية لشركات فرنسية أكد بها اتفاقية للسنة 1105 هـ / 1694 م المتقدمة الذكر وأضاف اليها هذه المرة مبلغ ألفين بياسطر تقدمها هذه الشركات للجزائر في كل عشر سنوات.

وفي هذه السنة وقعت المفاداة بين أسرى المغرب الاقصى وأسرى الاسبان، وبهذه المناسبة كاتب ملك الاسبان الى السلطان محمد بن عبد الله ملك المغرب راغبا في وساطته لدى داي الجزائر لفكاك الاسرى الاسبان الموجودين تحت نفوذ حكومة الجزائر التركية، وكان عددهم يفوق بكثير ما عند الاسبان من الاسرى الجزائريين على أن تكون المفاداة رأسا برأس وعلى حسب مراتبهم ومنازلهم في الاطار السياسي والعسكري ومن فضلت لديه فضلة من الاسرى ففداؤه بالمال، فالبحري بخمسمائة ريال والرئيس بألف، فانتدب ملك المغرب للقيام بتنفيذ رغبة ملك الاسبان وكتب في ذلك الى حكومة الجزائر مرتين فاعرضت عنه، وفي المرة الثالثة استجابت لوساطته على أن يبعث من قبله من يمثله ليحضر هذه المفاداة ويكون تسليم الاسرى من الطرفين على يده وبمحضره ومشهده فكان الامر كذلك فجاءت البعثة المغربية وعلى رأسها الكاتب ابو العباس الغزال، واتصل مركب الاسبان بالجزائر مشحونا بالاسرى الجزائريين فأرسى بظاهر مرفأ العاصمة وسلم لاهلها الفا وستمائة اسير ونيفا وكان ذلك في مقابلة العدد نفسه من الاسرى النصارى، وبقيت بقية منهم علاوة على العدد المذكور ففداها الاسبان بالمال ثم خلص كل الى مأمنه [1].

(1) الاستقصا ج 8ص 38 ط الدار البيضاء 1956م.

اخضاع اهل جبل فليسة:

توجد هذه الناحية بسفح جبل بوزقزة قرب ثنية بني عائشة قبلة مدينة الجزائر وعلى نحو أربعين كيلومترا منها، وكان أهل هذه الناحية بمعزل عن السلطة التركية غير مذعنين فكانوا لا يرضون بدفع الضرائب ولا بالامتثال الى أوامر الحكام فقاتلهم الداى سنة 1181 هـ / 1767 م فهزموه وفشا ضررهم هنالك الى أن بلغ اذاهم الى ابواب العاصمة الامر الذي تسبب عنه انتشار مجاعة رهيبة في البلاد، وحينئذ شن عليهم الداى هجوما في سبع فرق من الجيش النظامي وشدد عليهم الخناق فخضعوا لرؤسائهم المنقادين للسلطة التركية، ولكن ذلك كان بعد سبع سنوات مضت (1181 هـ - 1187 هـ 1767 م) وكلها فتن.

ومن أهم ما سجله التاريخ من حادثات الدهر يومئذ (جمادى الاولى 1171 هـ / جانفى 1578م) ذلك الزلزال الهائل الذي شمل كامل ولاية قسنطينة حيث كثر فيها التلف والموت.

تمهيد فرنسا لاستعمار أرض المغرب العربي الكبير:

الواقع أن قرصانا من المغرب احتجزوا مركبا فرنسيا بالمياه المراكشية واستولواعلى ما فيه (1178 هـ / 1764 م) وبالاثر جاءت مراكب فرنسية مهاجمة لميناء مدينة سلا، ثم اعادت هذه هجوما فغزت - في السنة بعدها - مدينة العرائش من المغرب الاقصى ورمتها بقنابلها فتحطم لذلك سور المدينة والمسجد، واتفق أن نزل بعض المهاجين من النصارى الى البر فظفر بهم المغاربة فاعتقلوهم وبعثوا بهم الى حضرة السلطان المولى محمد بن عبد الله بن اسماعيل بمراكش فأسرهم هنالك الى أن جاءت بعثة من ملك فرنسا - لويس الخامس عشر - الى ملك المغرب معلنة رغبة ملكها في الاعفاء عن الاسرى وعقد محالفة مع السلطان، فأجابهم المولى محمد الى ذلك.

وتم ابرام الصلح بين الطرفين بتوقيع معاهدة في آخر شهر ذي الحجة سنة

1180 هـ / 28 ماى 1767 م وكان أغلب مواد هذه المعاهدة وهي تشتمل على عشرين مادة كلها في صالح فرنسا وحدها ، فمن ذلك كما جاء في المادة السادسة ، فهي تنص على أنه اذا انتقض الصلح بين أهل تونس والجزائر وأهل طرابلس وغيرهم وبين الفرنسيين ودخلت أي سفينة كانت من سفن الفرنسيين ملتجئة الى موانىء المملكة المراكشية وتبعتها سفينة حربية معادية فعلى أهل تلك المرسى المغربية حماية السفينة الفرنسية المذكورة من عدوها ولو برميه بالمدافع أو تحبس مراكب العدو. الطالب لها بالميناء ريثما تبعد عنه السفينة الفرنسية بعرض البحار...

وجاء في المادة التاسعة منها. أنه اذا انتقض الصلح بين (وجاقات) الجزائر ووجاقات تونس وطرابلس وبين الفرنسيين فلا يسوغ لسلطان المغرب اعانة (الوجاقات) المذكورة على الفرنسيين بشيء اصلا... وأن لا يترك احدا من رعيته يحمل السلاح أو يركب للحرب تحت سنجاق أحد أو وجاقات هاتين الدولتين ليقاتل الفرنسيين وأن لا يترك أحدا يخرج من مراسيه ليقاتلهم، وأن فعل احد من رعايا المغرب ذلك عاقبه السلطان وضمن ما أفسده.. وتنص المادة الحادية عشرة منها على ان لملك فرنسا أن يبث قناصله وسفراءه في أي بلد شاء من الايالة المغربية ليكونوا وكلاء عنه في مراسى المغرب وليعينوا التجار ورؤساء البحر والبحرية في جميع ما احتاجوا اليه... وأن رتبة القناصل الفرنسيين في مراسيم التشريفات تعتبر مقدمة على غيرهم من سائر سفراء الدول الاخرى، فلهم التصدر والتقدم على غيرهم... وجاء في المادة الثانية عشر أنه اذا وقع نزاع بين مسلم وفرنسي فلا دخل للقاضي في الفصل بينهما، بل يرفع أمرها الى السلطان نفسه أو نائبه حاكم البلاد، وفي المادة بعدها: اذا ضرب فرنسي مسلما فلا يتحكم في قضيتها أحد الا بعد حضور القنصل الفرنسي ليدافع عن المتهم من بنى جنسه... وجاءت في المادة السادسة عشرة أنه اذا دخلت مركب الفرنسيس القرصانية لمرسى من مراسى المغرب فلتتلقى بالبشر والبشاشة... وجاء في المادة الموفية عشرين وهي المادة الاخيرة من هذا الصك: انه اذا مّا انتقض هذا الصلح المبرم بين الحكومتين المغربية والفرنسية، يؤذن لجميع من يوجد من الفرنسيين بالايالة المغربية أن يلتحق

ببلاده بجميع ما يملكه من أموال ومتاع في ظرف ستة أشهر [1].

وفي 18 شوال من هذه السنة 1180 هـ / 1767 م بعث الداى محمد بن عثمان بهدية فاخرة الى السلطان العثماني وهي تحتوي على 7140 سلطاني، وساعة مرصعة وخاتم من الماس، و 52 عبداً رقيقا، و 77 مسبحة من المرجان وواحدة من العاج وأخرى من العنبر و 10 بنادق و و 10 غدارات، و 10 أكياس لوضع الرصاص و 150 كيساً موشى بالذهب و 10 اغمدة للسيوف و 126 حائكاً مختلفة الألوان والأنواع، و 50 حزاماً من حرير، 40 زربية صحراوية، و15 غطاء صوفياً، و 20 دزينة من الشواشي التونسية.

الاسطول الجزائري في كفاحه ومنافحته عن الامبراطورية العثمانية

اشتد وقع الدول المسيحية بالمشرق وبالمغرب ضد الاتراك عموما والخلافة العثمانية بالخصوص وكان من اشدها ضغينة وحقدا دولتا الروس والاغريق، فاستمد الباب العالي بالاسطول الافريقي فخرجت لحمايته العمارة الجزائرية سنة 1183 هـ / 1769 م وعلى رأسها الرئيس - القبطان - ابن يونس ومثلها عمارة من تونس، فالتحقتا بالمشرق ومكثتا هنالك تنافح عن المملكة العثمانية وتكافح أعداءها طوال خمس سنوات ثم عادت العمارتان بعد ذلك الى مراكزها بقيادة عيسى باشا، وفي صيف سنة 1188هـ / 1774 م تجهزت عمارة جزائرية ثانية بأمر داى الجزائر وخرجت بقطعها الخمس متوجهين نحو المشرق أيضا وبعد أن مكثت هنالك نحو ستة أشهر عادت الى مقرها سالمة، وخرجت أخرى بعدها من الجزائر يقودها الرئيس الحاج سليمان وبينما هي سائرة في طريقها الى دار الخلافة اذا بها تشتبك مع القراصنة اليونان ببحر الارخبيل فقاتلتهم وانتصرت عليهم واضرمت النار في سفنهم وأسر رئيس عصابة القرصان اليونانية وهو بسفينته، وأعدمت البقية من رجاله شنقا ثم اتصلت العمارة الجزائرية باستنابول فتلقاها الشعب التركي بكل حفاوة واكرام.

كما شارك الاسطول الجزائرى أيضا في حرب جنكلة بالبحر الاسود، وتسلط بالخصوص على الاسطول الروسي فاشتبك معه سنة 1184 هـ /1770م

---

(1) مجلة المنار 7ص 383 - 788. سنة 1322هـ/ديسمبر 1904م

في لمنوص وتغلب الرئيس البحرى الجزائري (حسن) على الاسطول الذي كان يرأسه أورلوف Orloff الروسي وبعد انتهاء الحرب وامضاء وثيقة الصلح بين الترك والروس عادت مراكب الجزائر الى مواطنها وفي طريقها الى الجزائر استولت على مركب معادي فأسرته واقتسمت المغانم بينها وبين استانبول. وانعم السلطان على حكومة الجزائر بهدية تحتوي على ثلاثة مراكب حربية جزاء مشاركتها الفعالة في الحروب ضد العدو، فتعزز بها اسطول الجزائر الذي لم تتجاوز وحداته يومئذ خمسا وعشرين قطعة كلها من ذوات العشرة مدافع.

خيبة حملة الدانمرك:

اقتضى الحال بسبب فراغ الخزينة الجزائرية أن يستمد الداى من الدول الاوروبية التي كانت خاضعة لسيادة الجزائر على هذا البحر فكانت هذه تمد الخزينة بأموال وذخائر وعتاد وعدد حربية الخ... فطالبها الداى بمزيد من الامدادات العادية وكان من بين هذه الدول المطلوب منها ذلك دولة هولاندا والسويد والدانمرك فاستجاب السويد والهولاند لمطالب الداى، واما الدانمارك فانه حاول معارضة الداى وبعث بوحداته البحرية فقذفت الجزائر بمدفعيتها ولكنها بغير جدوى وصالحت الجزائر (ربيع الثاني 1181 هـ /أوت 1767 م) ثم غدر الدانمارك وحمى تحت علمه الاحمر والصليب الأبيض بواخير امارة هامبورغ الالمانية فأغضب بعمله هذا الرأى العام الجزائري وأصبحت اتفاقية الصلح بذلك لاغية، ويومئذ اعلنت الحكومة الجزائرية الحرب ضد الدانمارك.

وفي عصر يوم الاحد 8 ربيع الاول 1184 هـ / 10 جوان 1770 م فوجئت العاصمة الجزائرية بقافلة من اسطول دولة الدانمارك مشتملة على احدى عشرة سفينة حربية يقودها الرئيس كاس Cass فأرسلت هذه القافلة تجاه (برج السردينة) خارج مرسى العاصمة رافعة لراية السلم والموادعة وهي بذلك تسر حسوا في ارتغاء... فاغتر لذلك أهل الجزائر وسالموها، وفي مساء اليوم الرابع من ارسائها اخذت على حين غفلة من السكان من رمي العاصمة بنيرانها، وما فتئت أن قصفتها الحصون الجزائرية بالمثل فرمتها بالمفجرات والقذائف وأشعلتها على العدو نارا تلظى واستمر القتال طوال أسبوع كامل بدون انقطاع، وفي يوم الخميس19 ربيع الاول 11 جوان - اسفرت الحرب عن

انهزام العدو فمال الى طلب الصلح فرفضته الحكومة الجزائرية ولم تلتفت اليه جزاء غدره واعتدائه، وتتابعت المعارك ثلاثة أيام اخرى انقرض فيها أكثر جيش العدو وتحطمت أغلب مراكبه ولم ينج منها الا القليل.

ومنذ يومئذ التزمت القرصنة الجزائرية بمهاجمة مراكب الدانمارك حيثما وجدت وأينما حلت بهذا البحر، واستمرت على خطتها الهجومية هذه طوال سنة كاملة وكانت الغنيمة ثمينة جدا، ثم حل بعد ذلك وفد من طرف حكومة الدانمارك بالجزائر راغبا في المسالمة أو الصلح فأعرض عنه الداى أول مرة ولم يستجب لمطالبه الا بعد الالحاح الشديد ويومئذ أملى الداى شروطه فألزم العدو بتسديد مبلغ النفقات والخسائر الحربية التي قدرت بمليونين ونصف المليون من صنف عملة الدورو[1] أي نحو اثنتين وستين مليون فرنكا بفرنك ما قبل الحرب العالمية الاولى مع التنازل لحكومة الجزائر على اربعين مدفعا من الحديد وأربعة أخرى من البرونز، وخمسمائة قنطار من البارود وخمسين شراعا كبيرا وما يتبعها ويلازمها من الحبال والخشب لصناعة المراكب، وتسديد ما تخلف في ذمة الدانمارك خلال سنوات الحرب هذه، وافترض عليهم الداي جزية سنوية تؤديها حكومة الدانمارك الى الجزائر مصحوبة بما يتبعها عادة من الهدايا والتحف الممنوحة لارباب السلطة، ونظرا لبعد الشقة بين المملكتين سمح للدانمارك في تأخير دفع هذه الاتاوة السنوية الى مضي سنتين منضمة الى بعضها في كل مرة وهكذا تم عقد الاتفاقية بين الطرفين، ودوت المدافع اعلانا بانتهاء المفاوضات وانعقاد الصلح فاستبشر الناس وفرحوا لهذا الانتصار، ثم كان الشروع في تنفيذ بنود المعاهدة واقلعت سفن الدانمارك وذهبت مستصحبة معها ما افتدته من الاسرى.

خيبة الاسبان في غاراتهم المتكررة ضد الجزائر:

كثيرا ما كانت دولة اسبانيا تتعمد التخلف عن تسديد ضريبتها وما كانت متعهدة به من قبل من تقديم الهدايا النفيسة الى ولاة الحكومة الجزائرية في

---

(1) الدورو كلمة اسبانية معناها: الصلب، أو الشديد في الصلابة ومنها جاءت كلمة dur الفرنسية انظر بحثنا حول سكة الامير عبد القادر الجزائري ط الجزائر 1386هـ/ 1966م.

المناسبات قد كان لهذا التخلف المتكرر وقع في نفوس الرؤساء والولاة بالجزائر، وذلك بالاضافة الى موقف الحكومة الاسبانية العدائي ضد مسلمي الاندلس والجزائر. فكان لذلك كله الأثر السيء لدى الحكومة الجزائرية بالخصوص بمالها من الرعاية والحماية لحمى الاسلام بموجب تمثيلها للخلافة بهذه البلاد، وكانت لذلك دائما تترقب الفرصة السانحة والزمن المواتى للانتقام من دولة الاسبان، وبالفعل فكثيرا ما برز الفريقان للقتال في عرض هذا البحر وبسواحل البلاد الاندلسية على وجه خاص وكثيرا ما عادت السفن الجزائرية من اغارتها هذه منتصرة ممتلئة بالغنائم والاسلاب فتجمع من ذلك يومئذ بالجزائر ما يزيد على العشرة الاف اسير ولم يقف نشاط الداي بابا محمد عثمان باشا عند حصار الاسبان داخل التراب الجزائري بوهران بل شجع البحرية الجزائرية على العودة الى مهاجمة سواحل اسبانيا ذاتها وازاء هذا قرر شارل الثالث ملك اسبانيا ان يقوم بحملة كبيرة ضد الحكومة الجزائرية 1189هـ/1775م فتحالفت دولة الاسبان مع بعض دولاوروباالمعادية هي الاخرى للجزائر ايضا وجاءت بقضها وقضيضها الى مهاجمة العاصمة فأرست بالافق الجزائري ضحى يوم الجمعة 2 جمادي الاولى- فاتح أوت ومنهم ومن جعل ذلك هو يوم 9 جمادي الثانية الموافقة8 جويلية؟ وكانت الحملة هذه تحت رئاسة أو. ريلي O. Reilly الايرلندي، وهي تشتمل على عشرين بارجة وعشرين مدمرة وسبعة مراكب من نوع الشبك وثلاثمائة واربع واربعين باخرة للشحن. ووجدت في «كناش» -مجموع- لبعض المعنيين بضبط الاحداث الحربية بالجزائر ان عدد مراكب العدو بلغت في هذه الغزاة الى خمسمائة مركب؟... تحمل ثلاثة وعشرين ألف مقاتل منهم الف فارس ومعها مائة مدفع وكانت الجزائر قد علمت بأمر الاستعداد الاسباني فاستعدت لتلقي الصدمة ايما استعداد وقد شارك فيها حتى المراهقين والصبيان وبعد اسبوع من مجيء هذه الحملة شرع العدو في القتال وأنزل من جنوده بالساحل الشرقي من العاصمة بين نهر الحراش ووادي خنيس Ruissou نحو العشرين الف مقاتل ولم يلبث أن احاط الجيش الجزائري به من كل جهاته فمن الناحية الغربية بعين الربط القريبة من (عين الازرق) بربض العاصمة الشرقي أحاطت به جيوش حسن الخزناجي ومن الناحية الشرقية أحاط به صالح باي قسنطينة في جنوده التي كانت رابضة فيما بين

الحراش والحميز - جنوب العاصمة الشرقي - في عشرين الف فارس ومعها عدد من راكبي الجمال وكان كل من جنود خوجة الخيل وخليفة باي وهران والآغة في حراثة الناحية الجنوبية الغربية من العاصمة ونزل باي تيطرى بمتيجة وبلغ الى رأس تامد فوس وكان بالميناء جيوش وكيل الحرج، وعسكر آغا الصبايحية بباب الوادي وجنود زواوة في (رأس كاكسين) واما باي الغرب ابراهيم باي فقد بقي على مقربة من مدينة مستغانم كقوة رديف ونجدة وحمى وطيس الحرب واشتعل لهيبها من كل جهة واستلحم الجزائريون بخيلهم ورجلهم جيش العدو واشتركت كل مدفعية المسلمين في هذه الحملة ما عدا مدفعية المرسى وقلاع مدينة الجزائر لانها كانت بعيدة عن الميدان لا يمكن أن تصيب الهدف فأجهزوا على العدو وغنموا اسلابه ولم ينج منه الا القليل الذي لاذ بالفرار تاركا وراءه امتعته وأسلحته وعتاده حاملا لالويته السود حدادا على ما فقده من القتلى وما منى به من الخيبة والهزيمة والعار وانتهى كل شيء ما بين يومي 1 و11 جويلية 1775م وقد احصى ما وجد في جانب العدو من القتلى يومئذ فبلغ الفين وثمانمائة نسمة ومن الجرحي الفين وثمانين جريحا وقد استشهد من المسلمين في هذا اليوم نحو المئتي نسمة أو 400 على ما ذكره صاحب طلوع سعد السعود؟.... دفنوا هناك بمقبرة رملية على ساحل البحر قرب الحراش وهي المعروفة (بحصن المجاهدين) واشتهرت الواقعة هذه بواقعة عام الرمل لوقوع الاشتباكات فيها برمال الشاطىء الجزائري [1] ولقد بيعت اسلاب العدو وجميع المغانم (بباب البستان) بالعاصمة ولم يجد شارل الثالث بدا بعد هذه الهزيمة من محاولة الصلح مع حكومة الجزائر، فتوسط بالباب العالي لهذا الغرض ولكن الداي محمد باشا رفض ذلك وأصر على تمسكه بتخلي الاسبان أولا عن وهران. ومما زاده تمسكا بموقفه هذا هو ما بلغه من أن شارل الثالث يسعى في نفس الوقت الى تأليف حلف صليبي آخر متكون من امارات ايطاليا تحت رعاية البابا بيوس السادس غير أنه فشل في انشاء هذا الحلف فعاد الى توسيط الباب العالي سنة 1197هـ - /1783م ولكن دون جدوى [2] وقصارى ما

---

(١) راجع تفاصيل هذه الوقعة الحربية في كتاب حرب الثلاثمائة سنة للاستاذ احمد توفيق المدني ص 483- 505 ط قسنطينة 1926م

(2) الدكتور صلاح العقاد: المغرب العربي ص 42 ط القاهرة 1962م.

كان هناك هو عقد اتفاقيتين وقع فيهما الطرفان على تبادل اطلاق الاسرى وكان ذلك في سنتي 1181 – 1186هـ – /1768 – 1773م وكان لشدة هول هذا الحادث الحربي المفزع الذي مر بك تفصيله أن نظم الشعراء فيه القصائد المؤثرة من ذلك ما تراسل به من النظم كل من الشيخين العالمين سيدي محمد بن سعيد ابو قريش التيطاوني وسيدي أحمد بن الشيخ سيدي سعيد قدورة الجزائري فقال الاول:

أحقاً ما أشيع عن الجزائر ... من ارهاب البواطن والظواهر
لئن نزل الهوان بها فذلت ... فقد شمل البوادي والحواضر
وكيف يلذ في بلاد مقام ... اذا هان الهوان على الاكابر
ويأبى البائعون نفوس عز ... بأفضل ما يرام من الذخائر
وأي صواعق جعلت رجوما ... فأحرقت الكفور خلال زاخر
فكم لمعت بوارقها برعد ... به صعق المناضل والمناظر
لئن ثبت المقال كما سمعنا ... فقد طاب الرحيل الى المقابر!..
متى تصل النفوس لمبتغاها ... اذا بقي الهوان على الجزائر؟..

وأجابه الثاني بما يلي:

هي الاقلام تنطقها المحابر ... لتسمعك اليقين عن الجزائر
اتاها ما أراد الله حينا ... فكادت تنشق لها المرائر
الى ان جاءها والامر أمر ... مليك لا يجاري في المآثر
فبدل صينها ذهبا نظارا ... وأصلح ذلك الاكسير جابر
وألبسها ثياب فخرا ... فأصبح وجهها كالبدر زاهر
وأنفق في سبيل الله مالا ... وجهز جيشه للقاء الكوافر
فجاد لها وجاد لهم بمال ... وطعن في الصدور وفي الحناجر
وباؤوا مثل ما جاءوا خزايا ... وأعطوا ما أكن في الضمائر
ورد الله باسهمهم عليهم ... ودارت في هلاكهم الدوائر
اشاعوا ما سمعت من البلايا ... ليرهب مؤمن ويسر كافر
فان نزل الهوان بها قليلا ... فكم سلت لرفعتها بواتر
وكم بذل الكرام فيها نفوسا ... ليبتغوا من الله الذخائر

وكم رمـــت الحصون عليهم من صواعــق لا تعـد خـلال زاخر
فقـــل للعـــالم التحرير نفسي فـداؤك لا تخـف فـالله ناصر
ولا تحزن فـــان الله معنـــا اذا التقـــت العساكر بالعساكر

وبهذه المناسبة سلم الداي الخزينة الجزائرية مائتي الف سكة جزائرية من ماله الخاص، ورفض ان يستردها بعد ذلك من الخزينة بحجة انه في غنى عنها، وانه مادام عازما على ان سيترك بعد موته للخزينة كل ثرواته فالأولى به ان يقدم ذلك وهو على قيد الحياة؛

وفي هذا التاريخ (صفر 1184هـ/ جويلية 1770م) خابت الحملة الدانماركية في غزوها الجزائر كما سبق ونظم الناس في ذلك أناشيد يتغنون بها[1] ومنذ يومئذ أخذ الجزائريون حكومة وشعبا في أخذ الاحتياطات اللازمة والتهيء للطوارىء وتبرع الناس بما يملكون من أموال ونشب، وتطوعوا للعمل بأنفسهم لحماية الوطن، فعملوا على حفر الخنادق واقامة المكامن للتوقي من عادية العدو، وأمعنوا في التهيء لذلك على طول الخط الاخذ من باب عزون الى وادي الحراش شرقا، وتحمل الشعب على حسابه كل الاتعاب وكانت مضنية وباهظة كل ذلك في سبيل الله والدفاع عن الوطن بدون أن تنفق الحكومة على ذلك أي فلس.

وفي سنة 1194هـ/1780م كانت حركة طائفة الطريقة الدرقاوية ضد الحكم التركي وكان انطلاق هذه الحركة من مكان قرب تلمسان يسمى بعين الحوت، فنهض لمقاومتها باي الغرب الحاج خليل فعارضته زوابع طبيعية فتشتت جيشه وتوفي الباي فجأة ثم اتخذت الحكومة التركية مواقف حاسمة ضد هذه الطائفة فقضت عليها والزمتها بالخضوع والطاعة.

وفي أواخر شهر شعبان 1197هـ/13جويلية 1783م أعاد الاسبان زحفهم على العاصمة وجاؤوا بأسطول عظيم يحتوي على نيف وسبعين مركبا وفي رواية 180 سفينة؟... منها اربع سفن كبار وستة متوسطة، ونحو العشرة ما بين بوارح ومدمرات، والبقية كلها من نوع (اللنتشون) وهو اسم لشكل جديد

(١) انظرها في المجلة الافريقية 1894 revue Africain p: 25: 1894.-1894

من نوع الزوارق الاسبانية اخترعه الاسبان سرا يحتوي كل مركب منها على مدفع واحد ومهراس فكان للمسلمين مثل ذلك فاندهش لرؤيتها الاسبان، وكان على رأسهم الاميرال انطونيو باركلو.

وفي اليوم الثامن من رمضان الجمعة - 8 أوت - أخذ العدو في قصف المدينة بمدافعه وقنابله الثقيلة فأصيبت أماكن كثيرة من العاصمة منها جامع السيدة - جوار ساحة الشهداء - وزاوية سيدي والي داده قرب جامع كتشاوي[1] والميناء ويقال انه انهار يومئذ من دور العاصمة ومنازلها أكثر من أربعمائة بناية مما أدى الى انسحاب اكثر سكان العاصمة ملتجئين الى خارج المدينة، ما عدا الحصون البحرية فانها - كما جاء في تقرير القنصل الفرنسي

---

(1) أما جامع السيدة: فهو من مؤسسات (السيدة) بنت الناصر الحمادي ملك بجاية أو قفنة على المذهب المالكي في أواخر القرن الخامس الهجري، واستمر المسجد قائما الى عهد الاتراك فأقاموا به اماما حنفيا وانشأوا بجواره قصر الامارة المعروف باسم - الجنينة - وبقي كذلك الى حادثة الاسبان هذه فأصلحه الداي واجتهد في تزيينه وتشييده، ثم جاء عهد الاحتلال الفرنسي فحطمته السلطة الاستعمارية واقامت مكانه نزلا عظيما كان يعرف باسم «لاريجانص» قريبا من ساحة الشهداء، ولقد حطم هذا النزل أخيرا (1383هـ/1963م) واصبح مكانه اليوم ساحة فسيحة هي موقف للسيارات والحافلات العمومية وتستعمل كسوق عمومية. ايضا ومن بقايا هذا المسجد هو ما نشاهده اليوم من تلك السواري الرخامية الجميلة الضخمة البيضاء القائمة على ابواب الجامع الكبير بواجهته الخارجية، وكذلك النافورة أو الحوض المرمري الاسود الواقع بذلك الرواق الخارجي نفسه وقد شاهدت النافورة من قبل وهي ذات صحنين ثم سقط منها الصحن الاعلى فأضيع وكان بناء هذا الرواق الجديد في رمضان 1253هـ/ ديسمبر1837م كما انه لا يزال منبر الجامع المذكور موجود الى اليوم وهو الذي نراه في الحاضر يتصدر الجامع الجديد من رخام ابيض مزخرف وقد حول منبر الجامع الجديد الاصلي من مكانه فاستعمل كمصعد لسدة القراء القائمة بوسط الجامع نفسه كما نشاهده اليوم، وكذلك من بقايا آثار جامع السيدة هذا ذلك السقف المرونق الذي يعلو الباب الرئيسي للجامع الجديد.

وأما سيدي والي دادة فهو رجل صالح من اهل مدينة أزمير قدم الى الجزائر مرابطا بثغرها وبها توفي ودفن بزاويته قرب جامع كتشاوة (961هـ/1554م) وكانت زاويته هذه مأوى للفقراء وابناء السبيل بمنزلة الخانقاه والمعبر عنها بالتكية أيضا، فحطم الاستعمار هذه الزاوية في جملة ما حطم من المعاهد والمساجد والزوايا (1281هـ/1864م) واقام مكانها ديرا للرهبان، ويومئذ نقلت رفاة هذا الوالي الى جوار ضريح الشيخ الثعالبي بالعاصمة كما هو عليه الان بمكانه المعروف به.

التي بعث به الى حكومته: لم تمس الا باضرار طفيفة- وان عدد القتلى بالمرسي لم يتجاوز المائة نسمة.

كما وقع تحطيم في بعض البناءات بالناحية السفلى من العاصمة، ومنها دار الحكومة - قصر الجنينة - ووقعت قنبلة على سطح الجامع الكبير فأحدثت به كوة ونقرة خفيفة عند باب (البواقل) وتضررت يومئذ بعض الحصون والمعاقل واستشهد من المسلمين عدد قليل، وتكرر الهجوم من العدو طوال اسبوع كامل عشر مرات، وثبت الاسطول الجزائري صاعدا في وجه العدو ومستبسلا في كفاحه ودفاعه عن العاصمة الى ان اضطر العدو الى التقهقر والانسحاب الى الوراء وطلب الصلح فلم يجب اليه وذلك لتيقن الحكومة الجزائرية من سوء نية الاسبان اذ كان ملكهم شارل الثالث انذاك في مفاوضات مع حكومات ليفورن وجنوة ونابولي ومالطة لحملهم على المساهمة في الحملة الصليبية التي كان يدعو اليها البابا بيوس السادس ضد الجزائر والتي كان في اعتقادهم انها تنتهي بالنصر في سنة 1194هـ/1780م لولا الخيبة المريرة والهزيمة الشنعاء التي لحقت بالاسطول الاسباني أمام الاسطول الانكليزي في ميناء قادي واصيبت آنذاك بارجة جزائرية فغرقت، واستشهد فيها ستة واربعون مجاهدا وجرح نيف وخمسون[1].

ثم في اليوم الحادي والعشرين من شعبان سنة 1198هـ/28 جوان 1784م خرجت العمارة الاسبانية من مرسى كارطاجنة الاسبانية متوجهة الى غزو الجزائر للمرة الثالثة وكان عدد المراكب بها يفوق يومئذ المئة والثلاثين مركبا من مختلف انواع واشكال السفن بمساهمة كل من نابولي ومالطة وجاءت من البرتغال عمارة حربية لتأييد الاسطول النصراني، وقد نشر البابا يوم 18 جوان من هذه السنة بلاغا باباويا B.R.E.F يعلن فيه انه قد منح الغفران والبركة السماوية لكل مسيحي يشارك في هذه الغزاة، وبعد أربعة أيام من سير هذه القافلة البحرية كانت الحرب قائمة بالجزائر صبيحة يوم الجمعة، وقبل ذلك كان الداي قد وجه الى مختلف المقاطعات الجزائرية في طلب المدد بحيث انه قد حل

(١) راجع تفاصيل هذه الحرب بالمجلة الافريقة لسنة 1876, وكتاب حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ص 511ط قسنطينية.

بضواحي العاصمة قبل هذا الهجوم بشهر واحد خمس وعشرون الف جندي قدموا من قسنطينة، وعشرون الفا قدموا من معسكر، وخمسة آلاف من تيطري كما انه أقيم بالجزائر حصن جديد ثابت البنيان، وقد وجهت كل من هولاندا والسويد واستانبول الذخائر التي كانت الجزائر في حاجة اليها، وانطلقت مدفعية جميع الحصون والثكنات ترمي بشررها هؤلاء الغزاة المعتدين كما انهم استعملوا الابل في القتال واحتدمت الحرب واشتد سعيرها على الطرفين واخيرا وبعد أن تلقت الجزائر من طرف العدو من المحن شدة ومنها ما اصيبت به من نحو 15150 قذيفة مدفعية وقنابل مختلفة انجلت الواقعة عن انكسار العدو وباضمحلال جنوده وتحطيم أغلب مراكبه، فأذعن مستسلما للصلح فرفضته الحكومة واستمرت الحرب قائمة فاستشهد يومئذ عدد قليل من المسلمين وجرح منهم مائة وأربعة وثلاثون مجاهدا وغرقت بعض المراكب الجزائرية من نوع (اللنتشون) ولم تضبط خسائر العدو في الارواح.

وفي اليوم العاشر من شهر رمضان /17 جويلية رغب الاسبان في ايقاف الحرب واذعنوا لامضاء معاهدة صلح مع الداي مذعنين لما يمليه عليهم من الشروط وكان ذلك بواسطة المندوبين الاسبانيين الكونت دسبيلي والاميرال مازريدو فكان من بين هذه الشروط التي أملتها عليهم الحكومة الجزائرية والزمتهم بها: ارغامهم على الجلاء من وهران وعن المرسي الكبير، وعلى تحطيم جميع الحصون التي بنوها هناك منذ احتلال الميناء مع وجوب دفع نفقات هذه الحرب وتعويض جميع الخسائر التي لحقت الجزائر بسببها، مع تأدية ضريبة تبلغ قيمتها المليون ونصف المليون فرنكا سنويا، وذلك لمدة قرن كامل، وان يكون الدفع عن كل سنة مقدما ،وقدر ثمن افتداء الاسير الاسباني بألف دورو وذلك باستثناء أهل ولاية وهران، فاستكان الاسبان لهذه الشروط مذعنين وامضيت الاتفاقية هذه بتاريخ يوم الخميس 9 شعبان 1199هـ/17 جانفي 1785م، ولكنها لم تنفذ من قبل الاسبان[1]، ثم دوت المدفعية الجزائرية ابتهاجا وفرحا بالانتصار وايذانا بانتهاء المفاوضات بين الطرفين ونظم في ذلك الشعراء

---

(1) راجع تفاصيل هذه المعركة في كتاب حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ص 516 - 520 لاحمد توفيق المدني.

قصائدهم الرنانة، ومنها قول الشاعر احمد بن سحنون الراشدي:

يا بشير السرور سر في البلاد	مسرعا فوق عاديات الجياد
كي تبشر كل حي بماذا	فعلت بالعدى الصقور العوادي
خين جاؤوا الى الجزائر دار النـ	صر باسم ثغر كل بلاد
في سفين تسير في الماء سيـ	ر النوق في السهل والفرافي الوهاد
طائرات القلوع يحدو عليها	غربي الريح سائقا سوق حادي
شحنوها بكل أمر مضر	يترك الصخر والصفا كالرماد
لا يقوم له البناء وان كا	ن كمثل بناء أصحاب عاد
جاهلين بكون آمال اهـ	ل الكفر يعكسها اله العباد
ويدافع دائما عن أناس	جاهدوا في رضاه حق جهاد
فعدت عنهم الصقور التي في	جوها لا تصيد غير الاعادي
بمدافع ابعدت عن حماها	كل من جاء قاصدا للفساد
كسروا جمع فلكهم وأبادوا	منهم كل مستطيل النجاد
فسل البحر كم رمى من جسوم	لهم ذات شقوة وعتاد
عاف حوت البحار منها لحوما	لم ترد الماء منذ يوم الولاد
فهي فوق الرمال يأكل منها	جائع الرخم والحدى والجراد

الخ...

وهي طويلة اورد بعضها صاحب الثغر الجماني ص 262 ط قسنطينة - الجزائر - 1973م، ويومئذ تبرع الداي على الخزينة الجزائرية من كيسه الخاص بما قدره مائتا الف سكة جزائرية، وعجب (دوفرامون) لهذا الانتصار الباهر الذي حصلت عليه الجزائر تجاه الاسبان بل اندهش منه فعلق عليه قائلا: انه لأمر جدير بالاهتمام أن تفشل أمة - ويعني الاسبان - لم تنقصها الخصال العسكرية في كل هجوماتها ضد الجزائر رغم ما جندته من قوات اكثر من الكفاية!

وجاء في تقرير مؤرخ في 2 شوال 1199هـ/8 أوط 1785 أن سليم آغا قد تسلم هدية من السلطان العثماني بعث بها الى وجاق الجزائر، تشتمل على 450 قنطارا من البارود و300 قنطار من الرجينة، و200 بندقية، و17 عودا مثلث الصواري

المؤخرة، و50 مجدافا و50 قنطارا من النحاس، و20 ألف قنبلة، و10 مدافع. (النظام المالي للجزائرصفحة150)

مطامع اوروبا في الشرق الاسلامي:

جاء في المشروع الذي كتبه مدير المكتبة الملكية بباريس م. دوكارا «Decarra» المتعلق بالشؤون الشرقية الاسلامية والمؤرخ بسنة 1777م - 1191هـ/ قال فيه «الاتراك هم الاعداء الطبيعيون الابديون للمسيحيين، كما انهم هم اعداء العلوم والصناعات فيجب حينئذ طردهم وإبعادهم عن القارة الاوربية وتوزيع مملكتهم على الدول الاوربية» وكانت الجزائر في مشروعه هذا من نصيب الاسبان وجاء بعده القنصل الامريكي بالجزائر (وليم شيلر (W. Shaler) فألف كتابا يبحث في نظام الحكم بالجزائر تحت عنوان مختصر الجزائر Sketches of Algires طبع في بوسطن بأمريكا سنة 1826م وترجم الى الفرنسية تحت عنوان لمحة تاريخية حول حكومة الجزائر قال فيه: ان بريطانيا يجب ان تعزم على احتلال واستعمار هذا القسم من افريقيا - يعني الجزائر - وذكر أن أية مصاريف تسوجبها او ستكلفها هذه الحملة على الجزائر فستعوضها الخزينة الجزائرية التي هي كما قال - تحتوي على مبلغ خمسين مليون دولارا، ثم بعد عام واحد فقط من تاريخ نشر هذا الكتاب اعلنت الحكومة الفرنسية حصارها الشديد على الجزائر (1827م).

وهناك مشاريع اخرى قررها غلاة الاستعمار المتعصبون ضد الجزائر وكلها تشبه هذه القرارات والمشاريع الغربية أو أشد منها، وكان الغرض من جميعها كلها هو محو السلطة العثمانية من البلاد التي تمثل الخلافة والقضاء على الاسلام والمسلمين بها، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون.

نشاط الطرق الصوفية بافريقية:

ان من اهم أحداث هذا القرن - السادس عشر الميلادي - أن اتسع فيه نشاط الفرق والطوائف الصوفية التي كان من فضلها ومن بين محاسنها او محاسن بعضها في الميدان الاجتماعي على الأقل أن بعثت بالتقاليدالاسلامية في كثير من الجماعات البربرية التي ظلت حتى ذلك الوقت بعيدة عن التأثر

بالثقافة الاسلامية كما عملت كذلك على التقريب بين عناصر السكان ان لم تكن قد جعلت منهم وحدة متكاملة[1]، فلقد جاء في تعليق الامير شكيب ارسلان على الجزء الاول من كتاب حاضر العالم الاسلامي نقلا عن كتاب الاسلامية والمسيحية بافريقيا بوني موري «L'Islamisme et le christianisme en Afrique g. Benet maury فانه بعد ما أفاض المؤلف بتوسع في بسط حركات ونشاط الطوائف المسيحية على اختلاف مذاهبها والارساليات التبشيرية على اختلاف مشاربها وأذواقها وتنوع مقاصدها وأغراضها مع بيان مطول لما قامت به هذه الجماعة في افريقية من التبشير بالنصرانية قال: ان الاسلام نهض نهضته الثالثة من سنة 1750 الى سنة 1901م – أي بعد عهد الفتح وزمن انتشار الدين في اواسط القارة الافريقية – ثم قال: وقد نهض هذه المرة على ايدي مشائخ الطرق او الاخوان، وذلك انه في اواخر القرن الثامن عشر لما دخلت الدعوة البرتستانية من كل نوع الى افريقية وضاعفت الكنيسة الكاثوليكية فيها مجاهيدها بسائق المنافسة، كان لا بد من أن ينتبه الاسلام لمقاومة النصرانية، وان يشتد الصراع بين هاتين القوتين المتقابلتين مقرونا دلك بالاهواء السياسية التي تزيده شدة وحدة، واكثر اسباب هذه النهضة الاخيرة راجعة الى التصوف... وكأنها من نوع المقابلة للرهبانيات النصرانية في القرون الوسطى وللحروب الصليبية، وفي القرن الثامن عشر والتاسع عشر (م) حصلت نهضة جديدة عند اتباع الطريقتين: القادرية والشاذلية، وأحدثت طريقتان هما التجانية والسنوسية[2] وكان القادرية هم أحمس المبشرين بالدين الاسلامي من غرب افريقيا

---

(1) الدكتور صلاح العقاد: المغرب العربي ص 4 ط مصر1962م.

(2) لا يزال الخلاف قائما بين الباحثين حول تاريخ نشأة الطرقية ونظمها السائرة بين اتباعها في الاسلام ولا سيما المتخصصون منهم في دراسة التصوف الاسلامي فمنهم من يرجع بذلك الى ما قبل سنة 656هـ/1258م أي قبل الغزو المغولي لبغداد ومنهم من يرد ذلك الى القرن الثاني للهجرة أو الى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري؟... والواقع ان وظيفة شيخ مشائخ الصوفية كانت معروفة منذ ايام الخليفة العباسي المستنجد، وصاحب هذه الوظيفة كان يلقب بشيخ الشيوخ فقد ذكر ابو شامة انه بعد وفاة شيخ الشيوخ اسماعيل بن ابي سعد في ايام المستنجد سنة 541هـ صار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ (الروضتين ج - 1 ص 191ط مصر 1287هـ) وفي عصر الايوبيين

والمماليك يقول القلقشندي في الصبح ج 11 ص 370 الطبعة الاميرية: ان مشيخة الشيوخ كانت فيما تقدم تطلق على مشيخة الخانقاه الصلاحية دار سعيد السعداء أو دويرة الصوفية بمصر كما ذكرها المقريزي في خططه وجعل ذلك سنة 659هـ/1261م، وفي هذا القرن اشتهر جماعة بدمشق بتولي بمنصب شيخ الشيوخ منهم عماد الدين عمر بن علي بن محمد بن حموية وولده صدر الدين علي؛ ولما توفي عمر هذا في رجب سنة 577هـ/ نوفمبر 1181م أقر السلطان صلاح الدين الايوبي ولده صدر الدين محمد، فأقامه مقام والده شيخ الشيوخ بدمشق. وبهذا يعلم انه كان للحكومات الزمنية دخل كبير في تنظيم الطرقية وتسييرها وتوجيهها حسب اغراضها، كما يُعلم من ذلك ايضا مدى تسلط السلطة الحاكمة على مشائخ الطرق حتى لا تكون اي حركة او نشاط شعبي خارجا عن السلطة والحكومة، ولا حول ولا قوة الا بالله. (راجع خطط المقريزي ج 2 ص 33 ط بولاق 1270هـ). وهكذا الى ان بنى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الخانقاه الناصرية بسرياقوس (بلدة بنواحي القاهرة) فاستقرت خطة مشيخة الشيوخ على من يكون شيخا بها والامر على ذلك الى الآن - اي القرن 9هـ.

وان كنا نحن على يقين بان انتشار هذه الطرق وتعددها وتفرعها الى فروع عديدة منتشرة في جميع الجهات انما كان ذلك منذ القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي فقط.

وهذه الطرق عديدة كثيرة ذات حلقات متسلسلة ضاربة في اعماق غالب اقطار العالم الاسلامي وهي تفوق في عدها الثانين طريقا، ومرجعها جميعا الى أربعين طريقا ذكرها الشيخ حسن بن علي الفجيجي في رسالة له مخطوطة، وبيّن فيها ما يتميز به اهل كل طريق، ونقل ذلك عنه تلميذه ابو سالم العياشي في رحلته (ج 2 ص 217 ط فاس 1316هـ).

اشتهر من هذه الطرق بالجزائر على الخصوص ثمان طرق، وهي القادرية، والشاذلية، والخلوتية الرحمانية، والتجانية والعيساوية والطيبية والسنوسية والعمارية.

فاما القادرية وهي اول منظمة او طريقة صوفية ظهرت في الاسلام، وهي منسوبة الى الشيخ عبد القادر الجيلاني بن ابي صالح موسى جنكي المولود بقرية جيلان - وراء طبرسان سنة 470هـ/1177م. والمتوفي في بغداد سنة 561هـ/ 1166م. واما الطريقة الشاذلية فهي منسوبة الى الشيخ ابي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي- نسبة الى شاذلة قرية كانت بالقرب من تونس- ولد بقبيلة غمارة قرب سبتة 571هـ/1175م، وقيل سنة 593هـ/ 1197م. وتوفي بصحراء عيذاب قاصد الحج سنة 656هـ/1258م ودفن بمدينة الحميترا بالصعيد المصري.

ولطريق الشاذلي هذا فروع وشعب كثيرة تنتسب - عادة - الى مقدميها ورؤسائها ودعاتها المبشرين بها في مختلف الاقطار الاسلامية، مثل الطريقة الزروقية نسبة الى الشيخ ابي العباس أحمد زروق البرنسي المتوفي سنة 845هـ/1441م، والطريقة الدرقاوية نسبة الى الشيخ مولاي العربي الدرقاوي المتوفي حوالي سنة 1239هـ/1823م، والشيخية المنسوبة الى الشيخ عبد القادر محمد عميد اسرة اولاد

.... وبهذا المجري الطرقي اصبحت مراكز كثيرة في افريقية تتأجج فيها حرارة الاسلام.... وقال: ان اتباع الطرق هم الذين تم على يدهم اسلام القسم الاعظم من مسلمي اواسط افريقية وهم الذين اوقدوا الحمية الدينية بعد أن كادت أن تفتر وادخلوا معظم السودان في الاسلام بطريق الارشاد والتعليم

سيدي الشيخ بالجنوب الوهزاني المتوفي حوالى سنة 1022هـ/1613م، والزيانية هي الاخرى ايضا من فروع الشاذلية منسوبة الى الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن ابي زيان القنادسي المتوفي سنة 800هـ/1732م.

واما الطريقة الخلوتية فهي تنسب الى الشيخ عمر الخلوتي المتوفي بقيصرية الشام سنة 800هـ/1397م والى الشيخ كريم الدين الخلوتي الصوفي المصري المتوفي سنة 986هـ/1578م كما انهم ينسبونها الى آخرين... منهم الشيخ محمد البالسي الخلوتي والشيخ قطب الدين احمد بن محمد الابهري وكان الذي جاء بها الى الجزائر هو الشيخ محمد بن عبد الرحمن الازهري الزواوي الجرجري القنشطولي دفين ضاحية الحامة بعاصمة الجزائر 1208هـ/1793م فاشتهرت باسمه، فهي لهذا تدعى هنا عندنا في الجزائر بالطريقة الرحمانية.

واما الطريق العيساوية فهي مسماة باسم شيخها محمد بن عيسى المكناسي المتوفى سنة 933هـ/1526م. واما طريقة الطيبية فهي تدعى باسم مؤسسها مولاي الطيب محمد بن مولاي عبد الله الوازاني المتوفي سنة 1089هـ/1678م وهو تاريخ تأسيس هذه الطريقة نفسها. واما التجانية فهي منسوبة لصاحبها الشيخ ابي العباس احمد التجاني المولود سنة 1150هـ/1737م بعين ماضي - قرب مدينة الاغواط - من بلاد الجزائر والمتوفي بفاس سنة 1230هـ/1815م، واما السنوسية فمؤسسها هو الشيخ محمد بن علي السنوسي الخطابي الجزائري المولود بدوار الطرش - محلة الواسطة - قرب مدينة مستغانم سنة 1202هـ/1787م والمتوفي بزاوية جغبوب بأرض برقة سنة 1276هـ/1859م وتمتاز طريقته بكونها ذات طابع ايجابي سياسي وحربي أيضا. واما العمارية فهي منسوبة الى شيخها عمار بوسنة المولود بزمالة بن مراد حوالى سنة 1123هـ/1712م والمتوفى في (بو حمام) بعشيرة بني قائد مديرية شهاية.

ولقد كان لمجموع هذه الطرق من حيث نشر الفكرة الاسلامية مواقف مشرفة في خدمة السلام والدفاع عن حوزته ضد الاستعمار الغربي - الديني والسياسي - ولا سيا باواسط افريقية وغربها حيث تنتشر الوثنية والفتيشية. وتشتد الدعوه الى التبشير بالمسيحية فكانت هذه الطرق خير وسيلة لنشر تعاليم الاسلام وتبليغ الدعوة المحمدية الى تلك الاصقاع النائية، وهو لعمري احد سلاح واعظم جيش اعترض الارساليات في طريقها الى غزو الاسلام والمسلمين بهذا الشمال الافريقي قبل النهضة الاصلاحية في العصر الحديث.

وبالاخذ والعطاء وبالمصاهرات مع ملوك الزنج، قال بعضهم «ان العالم الاسلامي وقف عن التقدم والتغلب امام الدول الاوربية من مدة مديدة فاستطالت هذه الدول على الممالك الاسلامية وغلبت الكثير منها بالقوة العقلية والمادية ولكن الذي اعجزها وضاعت معه قوتها وحياتها هم الصوفية، فالصوفية هم في الحقيقية القوة الدالة على الحيوية والنماء في العالم الاسلامي فتراهم في افريقية وفي الصين والهند واواسط اسيا بل في جزائر المحيط يدعون الى الاسلام ويدخلون الافواج فيه كل يوم حتى أن الخطوط التي ترسم في افريقية لبيان حدود الاسلام وراء خط الاستواء تنقل متقدمة الى الجنوب في كل عام من أثر فتوحات مشائخ الطرق في مجاهل افريقية، وما دخل الفرنسيون قرية في الكونغو الا وجدوا الصوفية قد سبقوهم اليها وزرعوا بغض الناس لهم فيها ... وقال القائد الفرنسي (رين) في شأن النهضة الاسلامية الحديثة... » وتأتي قوة هذه الحركة الاسلامية من تعدد الطرق الصوفية التي وجدت من أول هذا القرن وعظم شأنها في جميع الانحاء وصار لها تأثير شديد في قلوب الناس ولهم رسل ومريدون يطوفون البلاد الاسلامية التي لا حد لها وغير الاسلامية كمبشرين او مستعطين او قاصدين للحج ويصلون بهذه الكيفية بين الاقطار من مكة الى جغبوب الى القسطنطينية وبغداد الى فاس وتنبكتو الى القاهرة الى الخرطوم الى الزنجبار، ثم كلكتا وجاوة، ومنهم التاجر والمنجم وطالب العلم والشحاذ والمجذوب وكلهم يلاقون صدورا رحبة ومنزلة كريمة بين المؤمنين.

وقال (كوو تتانسون) نرى حركات كثيرة واعمالا كبيرة يقوم بها (المهديون) والامراء في العالم الاسلامي ثم تزول كأن لم تكن، اما العمل الثابت الدائم فيه فهو عمل الصوفية فالفضل لهم في انتشار الاسلام شرقا وغربا شمالا وجنوبا.

وقال (شاتيلي) بعد ان اطال البحث والشرح في وصف كيفية انتشار الاسلام في العالم وعزاه لمساعي مشائخ الطرق قال: «والخلاصة ان الاسلام مدين بكل فتوحاته السلمية وانتشاره في الاقطار لجماعة الصوفية. فمشائخ الطرق هم في الحقيقة الذين يديرون حركة الاسلام الحية ولا يخفى ما في عملهم هذا من الخطر على المصالح الاوربية ».

وقال « ماسينيون » في كتابه (محاولة حول أصول المفردات الاصطلاحية للتصوف الاسلامي)..... « إنما بفضل التصوف كان الاسلام دينا دوليا وعاما، انه دولي بفضل الاعمال المنقبة التي قام بها الصوفية في زيارتهم لبلاد غير المؤمنين اي بفضل المثل الرائع الذي قدمه نساك المسلمين من شيوخ الطرق. الكبروية والشطرية والنقشبندية الذين كانوا يتعلمون لغات الهنود وسكان جزائر الهند الشرقية ويندمجون في حياتهم... وانه عام لأن الصوفية هم اول من فهموا الأثر الخالد الفعال للدين الحنيف وهو وجود توحيد عقلي طبيعي لجميع بني الانسان. وقال الاستاذ « سنوك هورجرونج » المستشرق الهولاندي في كتابه (سياسة هولندا تجاه الاسلام).

« ...: ان الاسلام بفضل تصوفه قد وجد وسيلة صعوده الى مكانة مرتفعة يستطيع منها ان يرى ابعد من آفاقه الخاصة اي ان هذا التصوف مشتمل على شيء من دولية الدين. فهذا اعتراف صريح جاء من طرف اقطاب ساسة الافرنج وكتابهم وأن الحركة الصوفية والنشاط الطرقي هما الحركة الحية الوحيدة الباقية التي فتحت للاسلام في العصر الحديث قدر ما فتحته سيوف الفاتحين الاولين.

وهذا صاحب (تاريخ بغداد) يقرر أن المتوكل العباسي حينما عصفت الحروب بالدولة نادى اهل الفتوة الصوفية فهرعوا اليه من كل مكان، فكانوا جيشه الكبير المنتصر الذي حمى ديار الاسلام وصان حدوده، وهذا الشيخ الاكبر « محي الدين بن عربي رحمه الله يكتب الى الملك الغالب حينما لم يصمد للصليبيين: « انك دنيء الهمة... فانهض للقتال او نقاتلك كما نقاتلهم وكذلك فعل ايضا مع السلجوقيين عام 609هـ فانه كتب اليهم من بغداد يحثهم على مقاومة الصليبيين ورد عدوانهم عن المسلمين؛ والجبرتي يؤكد لنا في تاريخه الحافل ان هزيمة الفرنسيين في مصر انما كانت على ايدي رجال المقاومة الشعبية من ابناء الصوفية وشيوخها؛ ومساهمة اتباع شيوخ الطريقة الرحمانية الفعالة بالجزائر ايام ثورة المقراني ضد المستعمر سنة 1287هـ/1871م لا تخفى... وما يوم حليمة بسر.

ومن قبل ذلك كان للصوفية الفضل الاكبر في هزيمة التتار في عين جالوت،

وفي كسر شوكة الصليبيين في حطين واسر قائدهم «لويس التاسع» في دار ابن لقمان على ارض مصر[1] ويذكر لنا التاريخ سيدي عرفه شيخ الطريقة الشابية بالمغرب، كيف قاد جموع الشعب لمقاومة المستعمرين من البرتغاليين والاسبان وليناوىء بهم في الوقت نفسه سلطان الحفصيين الذين تخاذلوا ووضعوا انفسهم تحت وصاية المستعمر. كما يذكرنا التاريخ ما بذله رجال الطريقة الجزولية وهم اتباع الشيخ ابي عبد الله محمد الجزولي مؤلف دلائل الخيرات المتوفى سنة 870هـ/1465م من المجهودات الكبيرة في مقاومة الاستعمار بالمغرب، ومثل هؤلاء الشيخ عبد الله بن المبارك تلميذ الجزولي ومؤسس الطريقة المباركية (أحدى فروع الطريقة الشاذلية) فانه قام بتثبيت دعائم الاسلام بين قبائل السوس بالمغرب الاقصى واخضاعهم لسلطانه بحد السيف كما أنه قاوم البرتغاليين وانتصر عليهم بطردهم من الثغور التي كانوا يحتلونها بالجنوب، وأسس دولة السعديين واكتسب ثقة أمراء بني وطاس[2] وفي الجزائر أمر مشائخ الطرق ايام الغزو الفرنسي جميع سكان القطر للاحاطة بالعاصمة ومقاتلة المحتلين من الفرنسيين [3].

ولهذا لما صار الترك سادة البلاد الجزائرية، اضطروا الى اتخاذ سياسة صوفية، ومثلهم في ذلك دولة الاشراف في القسم الغربي من الشمال الافريقي، فاذا كانت المناطق الغربية في الشمال الافريقي تحتوي خصوصا على زوايا شاذلية، فانه في القسم الذي كان يسيطر عليه الاتراك كانت السيادة فيه للزوايا القادرية، واعتمد الترك على جماعات هذه الطريقة القادرية وكذلك سائر زعماء الطرق بصفة عامة والصوفية المحليين بصفة خاصة فاحاطوهم كما قال A. Cour بالدعاية ومظاهر الاحترام ورفعوا من شأنهم في نظر العامة ولم يقصروا في مجازاة خدماتهم بسخاء ولا في عقاب مظاهر المعادات بقسوة الا ما ظهر منهم ايام ثورة درقاوة.

---

(1) مصطفى عبد الخالق الشبراوي: تصدير كتاب روضة التعريف لابن الخطيب ص 9 ط دار الفكر العربي، القاهرة

(2) تاريخ فلسفة الاسلام في القارة الافريقية دكتوراه ليحى هويدي ص 362 ط القاهرة 1965 م

(3) حمدان بن عثمان خوجة: المراة ص 186 ط بيروت 1972م.

اما ميلهم الى القادرية بصفة خاصة فكانت له اسباب عديدة منها أن سلطان القسطنطينية - وله يدين بالولاء ولاة الجزائر وتونس كان حاميا لهذه الطريقة الصوفية القادرية في الشرق وحتى بغداد حيث كان مركز هذه الطريقة الرئيسي...[1] ويقال ان السلطان سليمان القانوني واباه سليم الاول كلاهما كانا من انصار واتباع هذه الطريقة؛ ولا أدري بعد هذا وذاك كيف بلغ الامر بالعلامة محمد كرد علي مع غزارة علمه وسعة اطلاعه حتى اتهم كلا الطريقتين الشهيرتين: القادرية والتجانية بأنهما من محض صنع الاستعمار؛ اذ قال في معرض كلامه في مذكراته عن التصوف والصوفية «ج 3 ص 735 طـ دمشق 1968م/1349هـ»... «والعجيب ان لا يطلع بسر الطرق الا الاميون، ولا يفهم كتب القوم الا الجهلة المشعبذون على نحو ما نرى في الطريقتين اللتين جاءت احداهما وهي «القادرية» من الشرق وكانت اختراعا انكليزيا صرفا، وجاءت الاخرى وهي «التجانية» من الغرب وهي بضاعة فرنسية محضة، مع انهما وجدتا قبل ان يكون اي ذكر للانجليز ولا للفرنسيين في هذا الميدان في الشرق او في الغرب.؟

كيف واننا نجد شخصيات سياسية فرنسية تثبت رسميا عداوة الطرقية لاعمال الاستعمار الفرنسي، مثل ما جاء في تقرير المفتش العام للبلديات المتزجة بالجزائر، م اوكتاف ديبون، **M. Octave Depont** 1917م) فيما رفعه الى لجنة مجلس الشيوخ المكلفة بالجيش التي كان يرأسها (كليمانصو) حول أسباب هذه الثورات والانتفاضات التي كانت تظهر في الحين بعد الحين في الجزائر، قال:

«اننا سلفا نجد دائما يدا مرابطية - يعني طرقية، وراء كل هذه الانتفاضات التي يقوم بها الاهالي ضدنا..[2] »

إذ لو كانت الطريقة او الطرقية بصفة عامة هي من صنع الفرنسيين لما كانت اليد المرابطية كما قال ديبون الفرنسي وهو السياسي الخبير: تعمل وراء

---

(1) الفريدبيل: الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي، تعريب عبد الرحمن بدوي، ص 430 ط بيروت 1969م.

(2) شارل روبير آجرون (محاضرة).

كل هذه الانتفاضات التي قام بها الاهالي ضد الفرنسيين والدليل على ذلك الحركة التي قام بها المقراني -وبومزراف والحداد (1288هـ/1871م)؛ واولاد سيدي الشيخ وبو عمامة بالجنوب الوهراني (1298هـ/1881)؛ وقبلهم لالا فاطمة نسومر بجرجرة (1273هـ/1857م)؛ والسنوسيون بالصحراء (1334هـ/1916م) وكلهم من اتباع الطرق وابناء الزوايا.... ولعل كرد علي رحمه الله كان يقصد من قوله هذا اولئك المنحرفين ممن جاء اخيرا من مدعي المشيخة الذين تزعموا هاتين الطريقتين اللتين أشار اليها كرد علي وكانوا فعلا يعملون عملاء متعاونين لمصلحة الاستعمار الانكليزي والفرنسي؟!. فان كان ذلك هكذا فنعم إذاً.

وعن احصاء عدد الطرق الصوفية بالجزائر يقول ديبون Depontوكيبولاني Coppolani : إن في بلاد الجزائر وحدها ما لا يقل عن ثلاث وعشرين من هذه الطرق ينضوي تحت لوائها 295,189 من الاعضاء، ويشرف على أعمالها سبعة وخمسون شيخا وستة آلاف عامل يقومون فيها بأعمال مختلفة وهم (مقدمون ووكلاء ونواب وغيرهم) ولهذه الطرق 349 زاوية، وهي تجمع في كل عام حوالي سبعة ملايين من الفرنكات من الاعضاء والاخوان، وأوسعها انتشارا طريقة الرحمانية وهي تضم 156000 عضو، منهم ثلاثة عشر ألف امرأة، وهذه هي الطريقة الجزائرية الحقة، ومؤسسها سيدي محمد بن عبد الرحمن ابو قبرين، وهو شيخ من الاتقياء الصالحين عاش في القرن السابع عشر الميلادي، ويضم رفاته - حسب الرواية المتواترة قبران منفصلان أحدهما وسط «آية اسماعيل» في أرض القبائل، والآخر في «الحامة» خارج مدينة الجزائر.[1]. وستأتي ترجمته في باب مشاهير الجزائر.

---

(1) دائرة المعرف الاسلامية

احصاء اتباع الطرق الصوفية بالجزائر لسنة 1314هـ/1897م

اسماء الطرق	زوايا	وكلاء	طلبة	شيوخ	مقدمون	شواش	اخوان	اخوات	احباب	خلفاء	فقراء	خدمة	مجموع الاتباع
القادرية	33	1	521	4	301	–	21056	2695	–	–	–	–	24578
الشاذلية	11	–	195	9	99	–	13251	652	–	–	–	–	14206
الرحمانية	177	11	676	23	873	849	140596	13186	–	–	–	–	156214
التجانية	32	9	–	2	165	162	–	–	19821	–	–	–	20159
الشيخية	4	11	–	–	45	–	10020	140	–	–	–	–	10216
الطيبية	8	21	128	–	234	108	19110	2547	–	–	–	–	28148
الدرقاوية	10	–	134	9	72	2	8232	1118	–	–	–	–	9567
العيساوية	10	5	–	1	39	58	3444	33	–	–	–	–	3580
العمارية	260	3	79	3	46	188	284	22	–	36	5774	–	6435
الحنصالية	18	3	176	1	49	102	3485	438	–	–	–	–	4253
السنوسية	1	1	35	1	20	5	874	13	–	–	–	–	949
الزيانية	2	–	–	–	76	4	2673	364	–	–	–	–	3117
الزروقية	1	–	55	1	16	13	2614	35	–	–	–	–	2734
العروسية – سلامية	2	–	–	–	3	6	77	5	–	–	–	–	91
الناصرية	3	–	–	1	3	4	468	165	–	–	–	–	641
الشابية	2	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	2500	2500
القزازية	–	–	–	–	78	–	1673	263	–	–	–	–	2014
اليوسفية	1	–	–	1	8	–	1437	–	–	–	–	–	1446
المدنية	2	11	–	–	14	1	1673	–	–	–	–	–	1699
الدردورية	1	–	–	1	1	–	1020	250	–	–	–	–	1272
	349	76	1999	57	2149	1512	224141	27173	19821	36	5774	2500	293468

راجع: Louis Rin, Marabouts et Khowan, Alger 1884. – octave Depont – xavier coppolani: les confreries Religieuses musulmanes, Alger 1897.

وقدم لنا «بوسكي» G. H. Bousquet في كتابه الاسلام المغربي introduction a L' Etude generale de L'islame. 4 eme ed. Alger 1954 احصائية مدققة عن عدد الزوايا الصوفية الموجودة بالشمال الافريقي كله عام 1930م، فكانت عنده على النحو التالي: 250,000 زاوية في الجزائر، و60,000 في تونس، و200,000 في المغرب[1].

اما فيما يختص باتباع هذه الطرق بالجزائر فاننا أخذناه من دائرة المعارف الاسلامية، وهي فيها كما يلي:

«إن اكثر هذه الطرق اتباعا في الجزائر هي الرحمانية، وتتفرع الى فروع عدة، ويمتد نفوذها الى جميع أنحاء القطر، وبيوتها الكبرى منفصلة بعضها عن بعض، ويقوم بينها النزاع أحيانا، وهذه البيوت هي: شاطودان دوروميل chateaudun de Rhumel بالقرب من سطيف وتضم 40000 عضو، وقسنطينة وتضم 10000 عضو، والهامل قرب بوسعادة وتضم 43000 عضو، وطولقة وتضم 16000 عضو، وأقبو وتضم 9000 عضو ويلي الرحمانية في الاهمية طريقة التجانية، ويسكن شيخها في عين ماضي وينتشر أتباعها البالغ عددهم 26000 في الصحراء وفي جنوب وهران ومنها أيضاً الطريقة القادرية وتضم 24000؛ والطيبية وما تزال ناشطة في أقليم وهران وتضم 22000، وشيخها شريف وزّان بالمغرب الاقصى، والشيخية (اولاد سيدي الشيخ) وهي جماعة سياسية اكثر منها دينية وأتباعها يبلغون 10,000، والدرقاوية وتضم 9000 وهم طائفة متزمتة متعصبة كانت لها يد في جميع الثورات التي نشبت في البلاد على الأتراك والفرنسيين ودامت مائة وخمسين عاما. ومنها أيضاً طريقة العمارية وتضم 6000، والعيسوية وتضم 3500، وتشتهر هذه بما تمارسه من ضروب الشعوذة والرياضة البدنية (الدينية!): ومنها الحنصالية واتباعها من المنشقين على الطريقة الشاذلية، وينتشرون في انحاء ولاية قسنطينة ويبلغون نحو 4000، ومنها الزيانية وتضم 3000، والزروقية وتضم 2700، والكرزازية والشيبة والمدنية واليوسفية وهم اتباع سيدي احمد بن يوسف بمليانة. وآخر ما

---

(1) يحيى هويدي: تاريخ فلسفة الاسلام في القارة الافريقية ج 1 ص 364 ط القاهرة مكتبة النهضة المصرية 1965.

نذكر من هذه الطرق الدينية الطريقة السنوسية ولا يكاد أتباعها يبلغون ألفاً وعلى الجملة - كما يقول ماسينيون: فإن مجموع المنتظمين في سلك الجماعات الاخوانية في أي بلد من البلاد الاسلامية لا يتجاوز 3% من عدد السكان.[1] وجاء في احصائية سنة 1939 ان مجموع عدد المنخرطين في سلك الطريقة بالجزائر بلغ الى نحو 400000 نسمة نصفهم تقريباً باراضي الجنوب.

وأما النظر في شأن اصلاح الطرق الصوفية بنفي الضار منها وابقاء النافع فيها اليوم فهو كما قال الشيخ محمد توفيق البكري شيخ مشائخ الطرق الصوفية بمصر(1351هـ/1932م) فهو أن نجعل (العلم) عندهم هو علم الشرع الاسلامي بلا زيادة ولا نقص و (العمل) يبقى موضوعه على ما هو عليه فيكون عبارة عن ارشاد المسلمين الى الشريعة المطهرة ودعوة غير المسلم الى الاسلام، وبهذا يكون التصوف عبارة عن علم بالشرع وعمل به، ويقوم مشائخ الصوفية اذن بركني التعليم والامر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين حث عليهما الكتاب الكريم قال تعالى: «ولتكن منكم امة يدعون الى الخير وأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقال تعالى: «فلولا نفر من كل فريقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون» وتكون جماعة الصوفية في الدنيا أشبه بمدرسة عظمى فيها المشائخ والخلفاء والاساتذة والمريدون من الكافة تلامذة قد وضعوا أنفسهم تحت التعلم ومراقبة العمل به مدى العمر[2].

ولقد كان لهذه الطرق - كما يقول الدكتور صلاح العقاد - الفضل في صهر القبائل في وحدات اجتماعية اكبر، بل أنها فوق ذلك نجحت في ادماج عنصر العرب والبربر ولكنها مع ذلك ايضا كانت تثير القلاقل في وجه الادارة العثمانية بالحكومة الجزائرية، وقد عمد بعض سلاطين المغرب الاقصى الى استخدامها لاثارة الاضطرابات ضد حكومة الجزائر، وكان منها مهاجمة احد زعماء الطريقة التجانية مدينة قسنطينة واحتلالها فترة قصيرة من الزمن خلال سنة 1218هـ/1803م، كما أن رجال الطريقة الدرقاوية اشتبكوا مع السلطنة

(1) دائرة المعارف الاسلامية، مادة «الجزائر».

(2) مجلة المنار المجلد 5 ص 612-615 .

العثمانية في وهران عدة سنوات، ولذلك يمكن القول في شأن الطرق الصوفية هذه بالنسبة الى موقعها من حاضر العالم الاسلامي بالمغرب العربي هي في آن واحد عامل وحدة وتفكيك[1].

استيراد السلاح الثقيل من الخارج:

اتصلت الجزائر يوم 25 صفر 1192 هـ/25 مارس 1778م من قبل بريطانيا بخمسين مدفعا، وزنها 1074 قنطاراً و75 رطلا، وهو العدد والوزن اللذان تم عليهما عقد الصفقة التجارية بين الحكومتين في مقابلة 5373 كيلة من البر تتسلمها بريطانيا من الجزائر وهو على نسبة خمسين كيلات للقنطار الواحد، كما وقع كذلك شراء ثلاث مرساة - مخطاف - من ربان السفينة الحاملة للمدافع في مقابلة 5506 كيلة من البر، على نفس النسبة المذكورة.

وفي نفس الوقت حل بالجزائر مركب قادم من جبل طارق يحمل خمسة مدافع نحاسية وزنها 32691 رطلا فاشترتها الحكومة الجزائرية بنسبة 22 كيلة من البر للقنطار الواحد.

انتشار المجاعة:

وما كادت الجزائر تنتهي وتستريح من ويلات الحرب المحزنة حتى فاجأها الجدب وخيم على ربوعها القحط المنتشر بكامل هذا الشمال الافريقي - من الاسكندرية الى المغرب الاقصى - وأخذت الجزائر تعاني أزمة المجاعة وارتفاع الاسعار وغلاء المعاش غلاءاً فاحشاً فبلغ يومئذ سعر الصاع الجزائري - وهو ما يزن 34 كيلو تقريبا من البر - : أربعة بوجه أو بجة - أي 80 و74 فرنكا - فمات الناس جوعا، واستمر الحال على ذلك بضع سنين، وكان محمد الكبير - باي وهران - يأتي بالقمح من بلاد اوربا ويوزعه على الاهالي مجانا وأعفى المزارعين والفلاحين من دفع الضرائب والخراج عن اراضيهم.

أول اتصال سياسي بين أمريكا والجزائر:

لقد كان من اعلان الثورة الامريكية (1188 - 1197هـ/1774

---

(1) المغرب العربي ص 32-33 .

1783م) ما حمل كلامن دولة بريطانيا واسبانيا وفرنسا على التخلي عن نفوذها الاستعماري وسحب قواتها العسكرية من أمريكا، وقد كانت الحكومة الجزائرية تعامل هذه الامة بحسب ما كانت تعامل به هذه الدول الاستعمارية الثلاث سلما وحربا، ويوم أن تخلت هذه الدول عن ما يسمى اليوم بالولايات المتحدة وأصبحت أمريكا تحمل علم الاستقلال غير راضخة لما كانت ترضخ اليه هذه الدول من اعترافها بتفوق الدولة الجزائرية وسيادتها على هذا البحر الابيض المتوسط ولم يكن لها اذ ذاك أي علاقة ولا اتصال بعقد معاهدة صداقة مع الجزائر حيث كانت حديثة عهد التكوين، ولم تكن أيضا لتقتدي بغيرها في ابرام عقد صداقة مع الجزائر كما هو الشأن مع جميع الدول الغربية الاخرى بل كانت هذه تعمل في الخفاء على جمع كلمة الدول الاوربية وتكتلها ضد الجزائر كما دلتنا على ذلك مساعي (طوماس جيفرسون وبانجمين فرانكلان) لدى دول اوربا.

ولما كانت الديبلوماسية الجزائرية بالنسبة الى الخارج تقوم على مبدئين أساسيين: الاول كل دولة تعتبر محاربة حتى توقع معاهدة صداقة وسلام مع الجزائر، والثاني كل معاهدة لا يعترف فيها بسيادة الجزائر على هذا البحر الابيض المتوسط فهي مرفوضة وملغاة من طرف الجزائر، فبناء على ذلك اعلنت الجزائر الحرب على اميركا سنة 1199هـ/1785م وبالفعل استولت على سفينتين امريكتين: «ذوفين» و «ماريا» في عرض البحر المحيط الاطلسي، وهنا لم يجد الامريكان بدا من المفاوضات المباشرة مع الجزائر، وجاء المفاوض الامريكي (جون لامب) الى الجزائر يوم 24 جمادى الاول1200هـ/ 25 مارس 1786م وطلب فكاك الاسرى الامريكان، فاشترطت الجزائر في مقابل ذلك أن تدفع امريكا 59496 دولار مقابل 21 معتقلا امركيا، وخابت يومئذ هذه المفاوضات وعاد المفاوض (لامب) الى بلاده بدون طائل، فكان هذا أول اتصال سياسي مباشر جرى بين الجزائر وامريكا الحرة.

الطاعون الجارف:

وفي هذه الاونة (1201هـ/1786م) انتشر مرض الوباء بالمغرب انتشارا

فاحشا فعم القطر التونسي، وشمل شرق الجزائر وهو ما اشتهر بين الناس يومئذ باسم « حبوبة الامجاد » فبلغ عدد الوفيات يوميا نحو الخمسمائة نسمة!... واستمر هذا الوباء يرتاد الجزائر في كل سنة الى عام 1211هـ/1796م فازداد فيه مفعوله بين الناس حتى أنه بلغ عدد الهلكى بالعاصمة 14334 نسمة، منهم 1774 يهوديا و 613 نصرانيا، ويقال ان ذلك نشأ عن عدوى تسربت الى الجزائر بواسطة رجل مريض يدعى « ابن سماية » قدم على ظهر مركب جاء من أرض الروم؟...

اذعان اوطان الجنوب:

كانت البلاد وجميع المواطن المتاخمة للصحراء بالجنوب الجزائري - بحكم موقعها الطبيعي المنيع - في منعة وحصانة وأمن من أي سلطة مركزية، يشرف عليها سادة وشيوخ يتوارثون رئاستها حسب عرف بلادهم، ونظرا لما نشأت عليه هذه القبائل والعشائر من الحرية المطلقة وانطلاقها بتلك البوادي الشاسعة فانها كثيرا ما أعلنت العصيان في وجه الحكومة التركية فلم تخضع لاداء الضريبة ولا في دفع الخراج، وذلك ما وقع من أهل (جبل عمور) بجنوب الجزائر الغربي سنة (1199هـ/1785م، فتصدى لاخضاعهم حاكم قسنطينة (صالح باي) وسلك في طريقه اليهم ناحية العين البيضاء، فأطاعته الرعية، ودانت له يومئذ من البلاد: زنينة وآفلو، والطويلة وعين ماضي، وتاجموت، ثم تقدم الى بلدة الاغواط فاحتلها احتلالا عسكرياً، وكان فيمن شارك في هده الغزاة ايضا محمد بن عثمان الكردي - باي الغرب - فكان يومئذ نازحا من معسكر (الخميس 9 ربيع الاول 1199هـ/10 جانفي 1785م) قاصدا مدينة الاغواط فغزا في طريقه جبال العمور فالبيضاء فأفلو، ثم نزل بالتأويلة - أو الطويلة - ونزل الاغواط فخضع له أهلها وجميع أهل تلك النواحي كلها كما تجد ذلك مفصلا عند كاتب الباي الخاص: احمد بن هطال التلمساني في كتابه المشهور بالرحلة،، وهو مطبوع في القاهرة سنة 1969م بتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم فارجع اليه إن شئت.

وفي نفس هذه السنة وقع امضاء اتفاقية للسلم بين حكومتي الجزائر واسبانيا على أساس تسليم مدينة وهران الى الاتراك، وقد فعلوا ذلك مع الاتراك ريثما

روجوا نقودهم الاسبانية بالاسواق الجزائرية وفي اليوم السابع عشر من رمضان - 14 جويلية من نفس السنة هذه - نقض الاسبان عهودهم

وقبلها جاءت عصابة من سكان الجنوب تمثل طائفة الاباضية خاضعة ممتثلة لتأدية ما وجب عليها من الخراج وتسديد الضرائب، وبعد أن تم انتصار صالح باي على جميع اوطان الجنوب ارتأى أن يلحقها كلها بالسلطة المركزية بالجزائر العاصمة، وقد تم له ذلك بسرعة ولم يشذ عنه يومئذ سوى امارة بني جلاب بوادي ريغ، وعاصمتهم مدينة تقرت [1] حيث انهزم امام رئيسها فرحات بن عمر الجلابي (1197هـ/1783م) فعاد الى مركزه بقسنطينة، ثم أعاد الكرة على هذه الامارة سنة 1203هـ/1789م وحاصر مدينة تقرت مدة ثلاثة أشهر

---

(1) موقع هذه الامارة - أو المشيخة القبلية - ما بين واد ريغ ووادي ايغاغار بالجنوب الشرقي الجزائري الى نواحي الجريد التونسي، وكان تأسيسها على يد الحاج سليمان بن رجب بن جلاب المريني الزناتي سنة 854 هـ/1450م، وأورثها بنيه من بعده مدة أربعة قرون تقريباً، وكان الرئيس منهم يحمل لقب (شيخ) وتارة يلقب بالسلطان، والمعروفة اسماؤهم من رؤساء هذه الامارة اربعة عشر شيخا، أولهم الحاج سليمان المذكور، ثم جاء بعده ابناؤه وذووه فبسطوا نفوذهم على صحراء تقرت الى أن تقلص ظلهم تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي (1267هـ/1851م) حيث انحصرت سلطتهم ما بين جدران مدينة تقرت فقط، وكان آخر رؤساء هذا البيت الشيخ سليمان بن علي تولى المشيخة مدة ثلاث سنوات أي الى يوم أن سقطت مدينة تقرت بيد الاستعمار (14 ربيع الاول سنة 271 هـ/5 ديسمبر 1854م) فخرج منها مهاجرا الى المشرق وبخروجه هذا انقرضت امارة بني جلاب من هذه الديار، وبقي من آثارهم المعمارية فيها: الجامع الكبير بتقرت حيث يوجد على واجهة بناية المسجد المذكور نقش هذا نصه:

« بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد. كمل هذا المسجد الاعظم بحول الله وحسن عونه على يد من احسن بناءه بتقوى من الله ورضوانه الامير الاسعد اللاهي الاسعد الارشد قاصدا به وجه الله الكريم الشيخ ابراهيم بن المرحوم الشيخ احمد بن محمد بن جلاب سنة 1220هـ/1805م) كما انه وجد على منبره ذكر اسم ابراهيم بن جلاب ورمز الى تاريخه هكذا: (في آخر صفر سنة ميرش) وعددها بحروف الجمل هو 1250 وهو ما يوافق سنة 1834 ميلادية م

راجع Revue Africaine 25eme annêe 1881 :Les Ben Djellab sultane de tougourt, px 121, 122, 137, 198 –L. charles feraud le sahara de constantine, p: 1, 2, 3, 21, 23, 25, 87 Alger 1887 – Rene Basset: Bulletin correspondance Africaine quatrieme Anneé 1885 fascieules 3, 4, p: 223

فخضعت لسلطانه ونصب عليها نائبه ابن كانة وانتهت يومئذ المفاوضات بين الجانبين بمدينة زريبة الواد، وتحمل بنو جلاب مسؤولية بدفع جميع نفقات الحرب مع مغارم اخرى تقدر بثلاثمائة الف بسيطة- ريال- مضاف اليها دواب وخيول وعبيد وبذلك انتهى كل ما كان من خلاف أو نزاع بين قبائل الجنوب والحكومة الجزائرية المركزية. وفي هذه السنة أمر الداي بقطع أشجار ساحل الجزائر - العاصمة - لبناء خمسين سفينة فتم له ذلك في زمن قريب.

تبادل الهدايا بين حكومة الجزائر والباب العالي:

استمر تبادل الهدايا متواترا بين حكومة الجزائر والباب العالي باستانبول، وذلك ما يدلنا على تحسن الجو بينهما ورضا سلاطين آل عثمان على ولاة الجزائر، وفعلت مثل ذلك دول أوربا أيضا فكثيرا ما تقدمت حكوماتها بهدايا نفيسة وتحف ثمينة من أسلحة وغيرها حبت بها دايات الجزائر وباشاواتها فمن ذلك ما اهدته دولة بريطانيا الى الباب العالي في اليوم الثالث من شعبان سنة (1201 هـ/21 ماي1787م) من اربعة مدافع ذات أربعين رطلا مطوقة بالنحاس مصحوبة بمائتي برميل مملوءة بمائة قنطار من البارود، واربعمائة قنبلة وما يتصل بذلك من العتاد.

وفي هذه السنة نشب خلاف بين صالح باي قسنطينة وحمودة باشا تونس حول المهاجرين الجزائريين الى تونس وتوترت العلائق بين الواليين الحاكمين ثم انجلى الموقف وسوي الخلاف بطرق سلمية. كلفت تونس بتعويضات ضخمة قدمتها للجزائر.

ثم كان في اليوم الاخير من المحرم 1205هـ/9اكتوبر 1790م أن حدث اهتزاز أرضي عظيم من أثر زلزال مدمر قضى على مباني مدينة وهران كلها - تقريبا - واصيب من مفعوله نحو ثلاثة آلاف نسمة، ويومئذ اقتنص الاسبان هذه الفرصة التي حتمتها الاقدار فأظهروا وكأن اخلاء المدينة كان امرا محتوما خارج ارادتهم فأخلوها واحتلها الاتراك.

وبانتهاء مشكلة وهران تمهد السبيل لعقد معاهدة صلح مع اسبانيا سنة 1802م وقد الزمت هذه المعاهدة اسبانيا مثل غيرها من الدول بدفع مبلغ 60

ألف دولار سنويا لحكومة الداي، كما نصت على أن يقدم كل قنصل جديد (هدايا) بما قيمته 42 ألف دولار [1].

بعض مآثر الداي ووفاته:

ان مآثر الداي محمد عثمان كثيرة، فكان لنشاطه وحركاته تزايد عظيم في سائر ميادين النشاط الحربي والسياسي، والاجتماعي وأهمها هو ما قام به في كل من ميدان الحرب والانشاء والتشييد والتعمير وأعمال الخير والبر، ومنها استعماله - لاول مرة - لنوع مراكب «اللنتشون» في البحرية الجزائرية وانشاؤه لاثنى عشر مركبا حربيا من نوع جديد، وادخاله لعدة اصلاحات في النظم الحربية، واجتهاده في اقامة الحصون والثكنات العديدة كبناء البرج الجديد (1187هـ/1774م) وتجديد برج السردينة وكلاهما بميناء العاصمة القديم ازاء ضريح سيدي ابراهيم السلامي وبرج رأس عمار كذلك وتجديده وتنميقه لجامع السيدة بالعاصمة كما أسلفنا، وكانت له كذلك عناية كبرى بشؤون الرى فأجرى ماء عين الحامة في قنوات العاصمة وأوقف على ذلك أوقافا كثيرة الخ..

غير أنه ترك وراءه سامحه الله وصمة سوداء في حياته السياسية لم يغفل عنها التاريخ ولا ينساها له ولا يمكن ان يتناساها!!... تلك هي موقفه المريب تجاه فكاك الاسرى من عرب الجزائر الذين كانوا يقاسون مرارة الذل والعبودية تحت نير الاسبان مثل من كان يقاسيه معهم هنالك إخوانهم الاتراك الجزائريين؛ فلقد اهتم سلطان المغرب الاقصى محمد بن عبد الله بشأنهم جميعا وسعى لدى ملك الاسبان في فكاكهم جميعا فحتم عليه في فداء الاسرى المذكورين بالمعاوضة بالاسارى الاسبان الذين بالجزائر، وكان سفير السلطان في ذلك هو وزيره محمد بن عثمان المكناسي، فسافر هذا الى اسبانيا سنة 1193هـ/1779م، وفعلا حمل الملك الاسباني جميع اسارى المسلمين في المراكب ووجههم الى الجزائر بقصد مفادات المسلمين بالنصارى، ففدى داي الجزائر الترك وحدهم وامتنع من فداء العرب وفدى من بقي عنده من النصارى بالمال ورد المسلمين - من العرب - الى الاسر ببلاد الكفر، قال صاحب الاكسير: «وكيف يحل له أن يفرق بين المسلمين وكلهم أخذوا تحت علمه؟... فيفتدى اخوانه الترك ويترك

(1) د. صلاح العقاد: المغرب في بداية العصور الحديثة ص 824 ط القاهرة 1962-63

اولاد العرب، على انه بيده من اسارى النصارى ما يفتدى به أسارى المسلمين كلهم ويفضل بيده نصارى كثيرون، فآثر الدنيا وفدى النصارى بالمال ورد المسلمين الى الاسر لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة ولا زال سيدنا - سلطان المغرب - نصره الله يتلطف في انقاذهم شيئا فشيئا كل مرة يخرج منهم شرذمة حتى اخرج جميعهم احتسابا له تعالى وابتغاء مرضاته... »[1]

وكانت وفاة الداي رحمه الله ليلة الثلاثاء 10ذي القعدة سنة 1205هـ/6 جويلية 1791م عن سن عالية تناهر التسعين وفي هذه السنة اندلع لهيب الثورة الفرنسية الكبرى وقد كانت حالة المجتمع الفرنسي يومئذ من أسوء الحالات.

فحاول اعداء فرنسا وخصومها يومئذ انتهازا لهذه الفرصة مخالفة الجزائر بقصد مضادة فرنسا فأغروا الحكومة الجزائرية بشتى انواع الاغراء فرفضتهم الجزائر وبقيت حكومتها محافظة على الولاء والعطف نحو فرنسا بل وهبتها كمية عظيمة من القمح فأنقذتها بذلك من السقوط في هوة المسغبة والجوع، وهل حفظت لها فرنسا هذه اليد التي كانت عليها؟.... سترى ذلك فيما يلي...

ولاية الداي بابا حسن:

تقلب هذا الداى قبل ولايته الحكم في وظائف مدنية وعسكرية وهو حفيد الداي السابق وقد كان قائدا للجيش الجزائري على عهده، كما أنه تولى منصب وكيل الحرج ثم أمانة مالية الدولة - خزناجي - وصادف يوم أن توفي الداي السابق ان كان بابا حسن هذا متغيبا بعيدا عن الجزائر موفدا من طرف حكومتها في مأمورية سياسية حربية باستانبول، فما أن حل بالعاصمة بعد عودته من سفارته هذه حتى رأيناه قد استلم زمام الحكم وترأس على الحكومة الجزائرية 12ذي القعدة 1205هـ/13 جويلية 1791م مدعيا انه وليها بعهد من سلفه.

القضاء النهائي على النفوذ الاسباني بوهران:

رغم الاتفاقية المبرمة ما بين حكومتي الجزائر والاسبان سنة

(1) الاكسير في فكاك الاسير لمحمد بن عثمان المكناسي ص 165 بتحقيق محمد الفاسي. منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي الرباط 1965م.

1198هـ/1784 التي تشير الى جلاء الاسبان عن وهران والمرسى الكبير كما سبقت الاشارة الى ذلك فان الاسبان تلكأوا في ذلك وبقوا على ما كانوا عليه من المساومة ليحصلوا مقابل ذلك على امتيازات لانشاء مراكز تجارية بها ورغم تعدد الرفض الذي وقع من الحكومة الجزائرية فان اسبانيا استمرت على الحاحها في مطالبها هذه الى عهد بابا حسن داي. وأن أول ما باشره هذا الداي من مهام حكومته أن أمر بغزو وهران وفتحها وازالة حكم الاجنبي عنها واعادتها دار اسلام كما كانت فغزاها بأمره باي المغرب محمد بن عثمان الكبير الكردي مرتين 1194هـ - 1198هـ/1780 - 1784م وخاب فيهما معا بسبب معاكسات جوية وتغير احوال الطقس واشتداد العواصف وتوالي، الزلازل بها، ثم عاد اليها الباي للمرة الثالثة فحاصرها مدة ثلاثة أشهر وضيق على الاسبان الخناق فأخلوها واحتلها بعد استعمار دام قرابة 260سنة واحتلها المسلمون ضحى يوم الاثنين 5رجب سنة 1206هـ/29فيفرى 1792م وكان مبلغ ما انفقه الباي في هذا الفتح 260034ريال من غير عد لما انفقه متفرقاوالريال هو عبارة عن مبلغ ستة دراهم شرعية، وابرم الداي معاهدة صلح مع الاسبان كان عليهم فيها ارجاع كل ما استحوذوا عليه من المدافع التي حملوها معهم من وهران الى قرطاجنة، مع دفع مبلغ سنوي قدره مائة وعشرون ألف جنيه استرليني، واذن لهم الداي بحمل موادهم الغذائية ونقل اثقالهم الحربية معهم الى حيث شاؤوا من بلاد اسبانيا مع اشتراطه بقاء المعاقل والحصون الوهرانية على حالها من غير تغيير ولقد حصل الاسبان بحسب هذا البند على منحهم مركزا تجاريا في جمعة الغزوات وللجيوش المحاربة الذهاب الى كارطاخنة، وللرعية المسلمة المحتمية بالاسبان مثل حميان وبني راشد الخ... الحرية المطلقة والامن الكامل في الالتحاق بمليلة وسبتة أو البقاء حيث هي بوهران مع المحافظة التامة على حقوقها وكان فيما اشترطته الحكومة الجزائرية على الاسبان هو أن تحمل سفينة اسبانية بصفة رسمية مفتاحين ذهبيين الى استامبول رمز الاستسلام مدينة وهران والمرسى. مع جرتين من ماء عيون وهران يقدمها الاسبان كبشرى للسلطان العثماني بهذا الفتح، وتأكيدا للرابطة الودية مع دولة آل عثمان.

ويتضمن عقد اتفاقية شروط الصلح بين داي الجزائر وملك الاسبان على ستة بنود وهي كما يلي:

أ - يسمح للاسبان ببناء مؤسسة قرب «مرسى الكبير» بشرط أن يدفع هؤلاء - في مقابل ذلك 12 الف سلطاني أو ما يقدر بمائة وعشرين الف فرنكا (بالعملة الفرنسية) للدولة التركية الجزائرية كل سنة، فيؤدون منها عند اخراج العطاء في كل شهرين الفين.

ب - يسمح للاسبان بالتقاط المرجان من شواطىء الجزائر الغربية.

جـ - يسمح للاسبان بشراء الف شحنة من القمح الجزائري كل سنة بسعر السوق الحاضر

د - يسمح للاسبان - دون غيرهم من سائر الدول الافرنجية - بارساء اجفانهم بالمرسى الكبير شريطة أن يدفعوا للدولة التركية الجزائرية 55 ريالاً منها 40 لبيت المال والباقي لقائد المرسى.

هـ - تسلم مدينة وهران الى الدولة التركية الجزائرية بجميع ما فيها من سلاح وما عليها من بناء مثلما كانت عليه يوم خروج مصطفى ابن الشلاغم سنة 1143 هـ.

و - اخلاء مدينة وهران من جميع الجنود الاسبانيين في فترة لا تتجاوز ستة اشهر من يوم تحبير عقد الصلح[1].

وأمر الباي يومئذ بتقويض جميع الحصون التي كانت ملجأ للاسبان في حروبهم مع المسلمين بوهران، مثل برج مرجاجو، وبرج الوزير، وبرج فرناندو، وبرج كارلوص، وبرج رأس العين الكبير والصغير ايضا، وغيرها من الثكنات والحصون الموالية للاسبان حسما للداء، ويومئذ تبارى شعراء الجزائر وادباؤها في نظم التهاني بهذا الانتصار العظيم. وأرخ هذا الفتح الحاج عبد القادر بن السنوسي بن دحو بنظم قال فيه:

بشرى لنا قد بلغنا غاية الارب	بفتح وهران ذات العجب والعجب
ارخت للقوم ذاك العام مبتدرا	قالوا فما الشهر منه يا أخا العرب

---

(1) احمد بن هطال: رحلة محمد الكبير تقديم د. محمد بن الكريم ص 21 ط القاهرة 1969م والثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لاحمد بن سحنون الراشدي بتحقيق الاستاذ المهدي البوعبدلي ص 309 ط قسطنطينة - الجزائر - 1973م.

فقلت في نظم ما راموا أو اؤرخه وهران طار لها الاسلام في رجب
1206 هـ.

ويومئذ نقل مركز حكومة باي الغرب من مدينة معسكر الى وهران نهائيا. وهاجر اليها كثير من سكان مدينة مستغانم، وانشرح صدر الداي مرتاحا لنشاط الباي محمد الكبير في هذا الفتح فوهبه جميع املاك الاسبان المدنية المصادرة بوهران، وتأكد تملك الباي بهذه الملاك الاسبانية على عهد الداي مصطفى باشا فيما بعد وافادنا صاحب كتاب طلوع لسعد السعود ببيان فيه تفصيل عن تاريخ منشآت مدينة وهران فقال: ان من مباني الاسبان بوهران برج كارلوص وبُرج قراند وبرج رأس العين وبرج المرسى الثاني وبرج الحمارات وبرج مرجاجو وبرج الداهان، وبرج الوزير، والبرج الجديد، وذكروا ان هذا البرج اقامته امرأة نصرانية بتسعين ألف ريال كبيرة من خالص مالها صدقة عليها، اما برج الصبايحية فقد بناه الاتراك والقلة التي بالبرج الاحمر هي من منشآت الباي محمد الكبير بن عثمان فاتح وهران. اما برج اليهودي فبناه يهودي، وما عدا هذا من المنشآت العظيمة بها فهي مما أشاده ملوك بني زيان، ويمتاز فتح وهران هذه المرة بمشاركة مئات من أهل العلم من طلبة المعاهد والزوايا، ورجال الفتيان والقضاء والتدريس في الكفاح المسلح مشاركة عملية فعالة، وكان من بين من استشهد في ميدان الشرف يوم الفتح: العلامة بو عبد الله محمد بن الطاهر بن حواء قاضي مدينة معسكر واهتم الباي بعد ذلك بالتعمير فأنشأ بها مراكز حربية ومدنية تذكارا لهذا الفتح الباهر، ومنها هذا المسجد الجامع الموجود الى اليوم « جامع الباشا » وأذن للافاقيين بسكنى المدينة فنزل بها يومئذ أناس من أهل المدينة ومليانة وتلمسان ومعسكر ووجدة وفاس وغيرها. كما انتقلت اليها طائفة من يهود ندرومة ومستغانم ومعسكر.

ونظرا لاهمية هذا الفتح الباهر افرده الشيخ محمد المصطفى بن زرقة بتأليف كتابه « الرحلة القمرية في السيرة المحمدية » ويعني بالقمرية تاريخ الايام التي تحرك فيها الباي محمد لهذه الحرب المذكورة مؤرخة بالشهور القمرية لا الشمسية، وأحمد بن سحنون في كتابه « الثغر الجماني » طبع قسنطينة 1973م، والعلامة الحافظ محمد بوراس في « عجائب الاسفار » وغيرهم..... والى هذا الباي

المذكور يرجع الفضل في ترسيم ذكرى يوم المولد النبوي الشريف واعتباره عيدا وموسما رسميا تحتفل له الحكومة التركية الجزائرية بأفخر وأبهج مظاهر الزينة ويعلن ذلك بانطلاق اصوات المدافع مدوية في الفضاء [1]

وبعد نهاية الفتح أظهر الاسبان رغبتهم في اتخاذ مركز تجاري لهم بميناء وهران - المرسى الكبير - وحاولوا ذلك من طرف الداي فاشترطت عليهم الدولة الجزائرية تأدية مبلغ ستمائة الف فرنك سنويا فعدل الاسبان عن اقتراحهم هذا وذهبوا من وهران نهائيا بعد أن مكثوا بها وبسواحلها 250 سنة، ولم ينزل بها بعد ذلك أجنبي الى عهد الاحتلال الفرنسي يوم 20 رجب 1246هـ/4 جانفي 1831م فسقطت بيد ولد الجنيرال كلوزيل بدون مقاومة تذكر.

---

(1) كان أول ما بدىء بإقامة الاحتفاء بذكرى ليلة المولد النبوي الشريف واتخاذ هذه الذكرى الطيبة كعيد إسلامي رسمي وموسم دوري في العالم الاسلامي قاطبة أن أقامه أول مرة الملك المعظم أبو سعيد مظفر الدين صاحب اربل - بالقرب من الموصل على شاطىء دجلة - المتوفي سنة 629هـ 1231م إقامة اقتداء بما كان يفعله في هذا اليوم الشيخ عمر بن محمد الملا أحد الصالحين المشهورين بالموصل من تميزه عن بقية أيام السنة بالاحترام والتقدير، واتفق أن دخل الشيخ أبو الخطاب عمر بن الحسن الكلبي الاندلسي إلى مدينة اربل سنة 604هـ/1207م فوجد بها الملك المظفر يحتفل بهذه الذكرى السنوية الخالدة فألف له كتاب «التنوير في مولد السراج المنير» فكان هذا التأليف أيضاً هو أول كتاب وضع في هذا الموضوع اطلاقاً، ثم تطرق العمل على إحياء هذه الذكرى النبوية الكريمة إلى البلاد الأخرى فوصل إلى مصر زمن الملك الكامل الأيوبي المتوفى سنة 635هـ/1238م فكان هذا أول من احتفل به في مصر.

وأما في مغربنا العربي الكبير فكان أول من عني بإقامته والاحتفاء بذكرى يومه وليلته هو الأمير محمد ابن احمد العزفي صاحب سبتة المتوفى سنة 677هـ/1279م كما أنه أتم نظم والده «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» وهو أول كتاب من نوعه يؤلف في المغرب وفي سنة 691هـ/1292م أمر السلطان يوسف بن يعقوب المريني بإقامة هذا الموسم رسمياً في سائر أطراف مملكته كما أن السلطان أبو حمو موسى الثاني عاهل دولة بني عبد الواد الزيانية المتوفى سنة 791هـ/1389م كان هو أول ملك جزائري أقامه بالجزائر. وأما في تونس فإنه لم يقع الاحتفال بذكرى ليلة هذا اليوم المعظم كموسم رسمي إلا في عهد المشير أحمد باشا سنة 1257هـ/1841م. وقد كان الأمير عبد القادر الجزائري أيام إمارته يحتفل للمولد النبوي احتفالاً عظيماً، فانظر التحفة ج 1 ص 203 ط الاسكندرية 1903م.

سير السياسة الاسبانية بوهران:

يقول المؤرخ الاستاذ ف. بروديل في كتابه « الاسبان بافريقية الشمالية les Espagniols en Afrique du nord ما ترجمته: ان التعصب الديني والرغبة الجامحة في محاولة تنصير المسلمين وارادة ابعاد حدود الاسلام، كل ذلك مجتمعا قد حدا الاسبان أواخر القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر الى التدخل بالغزو في البلاد الاسلامية بالشمال الافريقي، والكلمة التي نجدها معبرة عن هذا المعنى والتي لا نجد مندوحة عن استعمالها وذلك نظرا للدور الممتاز. الذي قام بأدائه رجال الكنيسة والكهنوت من أجلها « كتاب الثلاثمائة سنة ص 81 ».

ولقد استمر الاسبان على موقفهم العدائي للجزائريين طيلة أيام تحاككهم على سواحل هذا القطر منذ سقوط الاندلس الي أن ابعدوا عن الجزائر، ويلاحظ اختفاء اسبانيا من بين قائمة الدول التي كانت على اتصال ديبلوماسي مع الجزائر بواسطة قناصل يمثلونها في الجزائر، الا اسبانيا فانها لم تفعل ذلك، وما كان احتفاظها ببعض ما احتلته من موانيء الجزائر وبعض المدن الا لتتخذ منها قاعدة للوثوب علي المسلمين في شمال افريقة حينما تسنح لها الفرصة بذلك، ولم يكن ليمتد احتلال الاسبان للجزائر الى أكثر من احواز مدينة وهران، اذ لم يتجاوز وراء « كرشتل » شرقا وراس « فالكون » غربا، وعربال قرب السبخة الكبيرة جنوبا، أو بعض الثغور الساحلية من تلك المقاطعة الجزائرية كما أنه لم يكن هناك ممن يعتمد به من العشائر والقبائل الجزائرية من اذعن لسلطتهم او اعترف بسيادتهم على تلك الناحية من الجزائر سوى بعض القبائل المخدوعة التي حملها تنازع السلطة والتزعم على حب الرئاسة والطمع في السؤدد على يد الاجنبي، مثل المغاطيس، وبني راشد، وبني علي، والشوافع والمطارف، وحميان، والونارزة وغمرة، وقيزة وأولاد علي، وأولاد عبد الله، وكل من هؤلاء انما مال للأسبان بباعث الاثرة والانانية.

وأخذ نظام حكم الاسبان السياسي بوهران في هذه الفترة شكلا عسكريا محضا في سائر الميادين يديره رجال من السلك العسكري تحت أشارف وتسيير شارلكان نفسه بدون استثناء أي شيء مما يجري استعماله وتطبيقه بين الناس

من القوانين فيما قل أو جل من جميع الامور ، رغم ذلك كله فلقد باءت الحكومة الاسبانية بالفشل والخيبة في حكمها بهذه البلاد ، ويكفينا في ذلك دليلا ما كتبه احد ضباط الاسبان في عهدهم الاخير بوهران ، يشكو الى ملكه سوء حاله قائلا : « انني لم يبق لدى ما أدرأ به الجوع والعدو عن المدينة »...

مناهضة أمريكا:

كان من سوء طالع سياسة امريكا أن حاولت تأليب الدول الاوربيةللتحالف معها ضد الخطر الجزائري - على حد تعبيرها - وكان زعيم فكرة هذا الحلف الرئيسي الامريكي ط. جيفرسون والديبلوماسي المفكر بنجامين فرانكلان(1758 - 1786م) واستمرت امريكا على تعنتها ورفضها للرضوخ الى تأدية الاتاوة الى الجزائر كغيرها من الدول التي لها صلة بهذا البحر الى سنة 1207هـ/1792م فاعتبر الداي هذه المعاملة من امريكا معاملة مخالفة لما هو عليه سير الدول الاخرى نحوالجزائر فهي اذا معاملة شاذة وجب دفعها ، ومن فوره أمر بابعاد جميع مفوضي السفارة الامريكية من هذه البلاد وبترصد السفن الامريكية بعرض البحار ، وفي سنة 1793م وقعت احدى عشرة سفينة امريكية في قبضة القراصنة الاتراك فحجزوها وجاؤوا بها الى عاصمة الجزائر وكانت تحمل 119أو 217 أمريكا ، وتكرر منهم ذلك مرتين ، وحينئذ جنحت الولايات المتحدة هذه الى السلم واظهرت رغبتها في عقد معاهدات ديبلوماسية وتجارية مع الجزائر ، وتعهدت بدفع مليون ونصف المليون الى الحكومة الجزائرية ثمنا لتوقيع المعاهدة واعتمد الرئيس جورج واشنطن مبلغ 40000 دولارا لفدية الاسرى الذين كان يبلغ عددهم بالجزائر اكثر من مماية اسير امريكي ، بانضمام مبلغ 12 الف سلطاني ، وذلك ما كان يقدر ب 64800 فرنكا او 725 دولار امريكيا كجزية سنوية الى الجزائر ومن بينها معدات بحرية ، وأمضيت بذلك معاهدة سلام وميثاق صداقة بين الطرفين بتاريخ 21 صفر 1210 هـ/5 سبتمبر 1795 م وظلت هذه الضريبة تدفع الى الجزائر بدون انقطاع الى غاية سنة 1225هـ/1810م

ونظرا الى ما وقع بين امريكا وبريطانيا من الحرب (1812م) فان مدخرات امريكا البحرية قد عانت كثيرا وعندما عرضت أمريكا على الداي ان تدفع له

النقود بدلا مما كانت تعهدت به من تقديم معدات حربية رفض الداي هذا العرض وأعلن الحرب ضدها من جديد وعندما توقفت امريكا عن الدفع في السنة بعدها وقعت الحرب رسميا بين الدولتين، وتسببت هذه القطيعة في مجيء اسطول امريكي الى البحر الابيض المتوسط سنة 1230هـ / 1815م كما سيأتي تفصيله. ومما جاء في ديباجة وثيقة المعاهدات المشار اليها ما نصه مترجما:

«من تاريخ ابرام هذه المعاهدة سيحل سلام دائم وصداقة مخلصة بين رئيس الولايات المتحدة الامريكية ومواطنيها، وبين حسن باشا داي الجزائر وديوانه ورعاياه. وأن سفن ورعايا كل من الامتين سيتعاملون مع بعضهم بشكل شرف واحترام[1]

وقد احتوت هذه المعاهدة على اثنين وعشرين مادة كلها تتعلق بشروط تنظيم التعامل التجاري بين البلدين وجوازات السفر والعلاقات الدولية في حالة الحرب والسلم والملكية الخ... ومن أهم ما جاء فيها:

- قيام الجزائر بمساعدة أمريكا والسعي لدى حكومة طرابلس وتونس بشأن تحقيق السلام بين هذه الاقطار الثلاثة.

- للسفن الامريكية ممارسة التجارة بهذا البحر الابيض المتوسط مقابل دفع الرسوم المعتادة مع اعفاء جميع الادوات البحرية والحربية من هذه الرسوم.

- يصرح للسفن الجزائرية بمثل ما جاء في المادة السالفة مقابل جوازات سفر تمنح لها من القنصل الامريكي.

- تستقبل البوارج الامريكية في موانىء الجزائر بالحفاوة المعتادة.

- يختص الداي بالنظر في النزاع الذي ينشب بين الجزائريين والامريكيين، وأما ما يخص الاميركان فيما بينهم فيختص بالنظر فيه القنصل الامريكي.

- للقنصل الامريكي التمتع بالحصانة الدبلوماسية الشاملة لحياته

---

(1) الوثائق البحرية ج 1 ص 107 ط واشنطن 1939م - انظر مجلة المعرفة عدد 15 والثقافة عدد 40/1977م.

العامةوالخاصة وله الحق في ركوب أي سفينة تكون بميناء الجزائر والسفر الى حيث يشاء.

- وفي حالة الخلاف بين الطرفين لا تعلن الحرب الا بعد استنفاذ جميع وسائل الاتفاق السلمي

وقد وافق مجلس الشيوخ الامريكي على هذه المعاهدة بتاريخ 22 شعبان 1210هـ/ 6مارس 1796م وبذلك اصبحت نافذة ملزمة للطرفين.

وطبقا لما جاء في هذه المعاهدة أطلقت الجزائر في شهر ذي الحجة: جوان من نفس السنة الاسرى، الامريكان، أما امريكا فلقد تعهدت ببناء عدة سفن للجزائر وقامت بتقديمها فعلا منها سفينة باسم (الهلال) وأخرى باسم (حسن باشا) وأخرى باسم (لالا عائشة) ورابعة باسم (حمد الله) وأخرى باسم قنصل سويدي بالجزائر «سكجولد براندي» كان قد قام بدور الوساطة في الفاوضات الجزائرية الامريكية، وتم ذلك فيما بين سنتي 1212 - 1213هـ/1798 - 1799م وبذلك احرزت الجزائر على انتصار ديبلوماسي عظيم، فأحرزت أولا على نيل مبلغ هائل تدفعه امريكا سنويا جزية لخزينة الجزائر: 642الف دولار وما حصلت عليه من بناء السفن ومعدات حربية بما قيمته 21الف دولار سنويا مع انعزال امريكا عن اصدقائها الذين كان يمكن أن يقوموا بدور الحليف لامريكا ضد الجزائر وكل ذلك علاوة على السمعة الدولية التي حصلت عليها الجزائر، وان كانت امريكا هي ايضا قد فازت بهذه المعاهدة في انهاء الحرب مع الجزائر وبفتح الطريق التجاري في البحر الابيض المتوسط واطلاق سراح الامريكان، ولقد قال بعضهم «ان معاهدة السلام مع الداي قد قبلت بالحفاوة والتهاني في أمريكا لانها أدت الى اطلاق سراح الاسرى وأمنت التجارة، ولكنها كانت معاهدة مهينة كثيرا لامريكا لانها قد كلفت كثيرا من النقود ونصت على جزية سنوية».

ويلاحظ أن أمريكا اسرعت في هذه الاونة الى تعيين قناصلها بالنيابات أو الايالات الثلاث: الجزائر وتونس وطرابلس، واشتهر قنصلها في طرابلس (وليم أتون) باستنكارسياسة بلاده ووصفها بأنها تذلل لدول متبربرة لا تساوي

اساطيلها جميعا صفين من صفوف الاسطول الامريكي الحربي، ومن ثم تخلفت امريكا عن تطبيق كل هذه النصوص المتفق عليها في هذه المعاهدة وتنفيذها كما يجب ان تنفذ، وذلك بعكس ما قامت به الجزائر من الاسراع الى تنفيذ هذه الاتفاقية بجذافيرها ولكن الرئيس الاميركي (جون آدمر) اعتذر عن هذا التخلف برسالة كتبها الى الداي بتاريخ 25 ديسمبر 1797م يتعلل فيها بحدوث ظروف وعقبات عائقة عن التنفيذ [1].

استغاثة فرنسا بالجزائر:

كان من جراء حوادث الثورة الكبرى بفرنسا (1207 هـ/1793م) والضائقة الاقتصادية الشديدة التي اصابتها بسبب الحصار الذي ضربه عليها حلفاؤها أمثال بريطانيا العظمى وغيرها أن تعرضت بذلك الى أيام محنة ومجاعة عظيمة، فكانت لذلك مضطرة الى الاستنجاد بحكومة الجزائر واستمدادها لمديد المساعدة لها، بانقاذها من هذه المسبغة والفاقة الشديدة، وتوسط في ذلك القنصل الفرنسي بالجزائر (فاليار) فلبت الجزائر نداءها وأمدتها بالاموال والاقوات ومنحتها قرضا ماليا قدره 250000 فرنكا بدون فائض ولا ربا، ثم بمليون فرنك آخر في سنة 1796م/1210 هـ وذلك رغم كل المساعي الحثيثة التي بذلها قنصل بريطانيا لدى حكومة الداي ليحول بينه وبين تقديم أي مساعدة الى فرنسا فخيب الداي سعيه ورفض مطالبه وتعهد لفرنسا بتموينها وامدادها بكل ما هي في حاجة اليه من محصولات الجزائر، وكتب في ذلك رسالة الى نابليون يقول فيها- حسب رواية ج. اسكير في كتابه la prise D' Alger, P 18 paris 1923 «انه لمن المستحيل عليكم وانتم تخوضون غمار حرب شاملة الا تواجهوا صعوبات للحصول على المواد الغذائية وغيرها من المواد الضرورية وفي هذه الظروف نبسط لكم كل كرم شخصيتنا وامتداد عواطفنا».

ثم في سنة 1212 هـ/1798 ثم فتح نابليون جزيرة مالطة وأطلق ما كان بها من الاسرى الجزائريين ترضية لاهل الجزائر عما كان قد حدث بينهما من التوتر بعد الثورة، وقامت الجزائر باعادة علاقاتها الديبلوماسية مع فرنسا كما كانت من قبل. ولم تمض ثلاث سنوات حتى اصاب الخزينة الفرنسية خلل فالتجأت

(1) مجلة المعرفة 15؛ سبتمبر - اكتوبر 1964م.

الحكومة الفرنسية مرة أخرى لتسد ما اصابها في ماليتها مت العوز فقدمت لها الجزائر مليون فرنكا بدون فائظ لمدة سنتين [1].

ولما كان المبلغ الذي حصل لفرنسا من الجزائر لم يكن كاف لسد حاجتها عمدت الى استكمال المبلغ الكافي بواسطة شركة بوشناق وبوخريص اليهودية بالجزائر وتقاضتها مع ذلك في الحبوب أيضا[2] فارتفع الدين المترتب على فرنسا الى

---

(1) هكذا كانت الجزائر المسلمة تعامل غيرها أياً كان بقطع النظر عن تدينه أو عقيدته أو جنسه وبدون أن تنتظر منه مكافأة أو منفعة ما، بل وربما انقلب عليها المعروف جريمة تقاسي منها آلاماً فكانت لا تبالي، ولا أدل على هذا من الهجوم الفرنسي الغادر على الجزائر سنة 1246 هـ/1830م.

وهل أتاك حديث بريطانيا إذ طلبت من حليفتها أمريكا بعد الحرب العالمية الأخيرة (1939-1945م) أن تعقد اتفاقية قرض كبير يعرف باتفاقية - برتين وود - بدون شيء من الربا، ولكن امريكا أبت أن تقرض حليفتها إلا بالربا... وهل تدري بماذا أجابت امريكا وزير المالية الانكليزي (الدكتور دالتي) وهو يعرض عليها قضية القرض هذه؟... أجابته بقولها: «ما هذه بسياسة عملية» وكان الانكليز يومئذ في حاجة شديدة إلى المعونة لتعدد المشاكل التي نتجت عن جراء الحرب، فاضطرت الحكومة الانكليزية كرهاً إلى الرضي بالربا.

ولقد ترك ذلك أثراً سيئاً وألماً شديداً يحز في صدر الشعب البريطاني وهو ما أعرب عنه المستر (تشرشيل) وهو من أشد الناس حباً لأمريكا وتعلقاً بسياستها - قال: «أني لأتوجس خلال هذا السلوك العجيب المبني على الاثرة وحب المال الذي عاملتنا به أمريكا ضروباً من الأخطار، والحق أن هذه الاتفاقية قد تركت أثراً سيئاً جداً فيما بيننا وبين أمريكا من العلاقة» وقال اللورد كينز وهو يلقي خطبتهة في دار الشيوخ بعد رجوعه من أمريكا بعد عقد اتفاقية القرض هذه باعتباره ممثلا للشعب الانكليزي فيها قال آسفاً: «لا أستطيع أن أنسى أبد الدهر ذلك الحزن الشديد والألم المرير الذي قد لحق بي من معاملة أمريكا إيانا في هذه الإتفاقية فأنها أبت أن تقرضنا شيئا إلا بالربا».

وخطب الدكتور الانكليزي (دلتن) وزير المالية في البرلمان فقال عن هذه الاتفاقية: «إن هذا العبء الثقيل الذي نخرج من الحرب وهو على ظهورنا، جائزة عجيبة جداً نلناها على ما عانينا في هذه الحرب من الشدائد والمشاق والتضحيات لأجل الغاية المشتركة، وندع للمؤرخين في المستقبل أن يروا رأيهم في هذه الجائزة الفذة في نوعها، التمسنا من أمريكا أن تقرضنا قرضاً حسناً ولكنها قالت لنا جواباً على هذا: (ما هذه بسياسة عملية)!! أبو علي المودودي: كتاب الربا ص 57 ط دمشق 1378هـ/1958م.

(2) هاجرت بعض بيوت اليهود الماليين - ولا سيا بيت باكري - بوخريص - من ليفورن

مليونين فرنكا، ثم بعد ذلك عادت الى الاستزادة من الجزائر فمنحتها هذه نصف مليون آخر وأضافت الى ذلك مقداراً من الحبوب فارتفع مبلغ الدين الى سبعة ملايين فرنكا في حين أن حكومات أوربا الصديقة لفرنسا والمجاورة لها اعرضت عن مساعدتها المالية وعن تموينها بالميره أيضا وخاصة دولة بريطانيا العظمى فانها لم تكتف بالاعراض عن جارتها وصديقتها هذه بل حاولت أن تحيط مساعيها وأن تحرمها بأسلوبها الديبلوماسي المعهود حتى من المساعدة الجزائرية.

وتمسكت فرنسا بارتباطها مع الجزائر فأخذت في انشاء مراكزها التجارية ببعض الاماكن الساحلية الجزائرية - تلك الاماكن التي كانت مبعث بزوغ قرن الاستعمار الفرنسي فيما بعد وتغافلت عن ما في ذمتها من الدين المتبوعة به ولطالما انتدبت الشركة اليهودية من طرف الداي لاستخلاص هذا الدين من فرنسا فلم تفعل الا ما حصلته في سنة 1797م من تقسيطين فقط.

وكان من حسن نية الحكومة الجزائرية وسلامة طويتها نحو فرنسا أنه حدث حادث اعتداء من بعض السفن الاسبانية على سفينة فرنسية كانت داخل المياه الاقليمية الجزائرية فأسرع الاسطول الجزائري الى انقاذ السفينة الفرنسية من يد الاسبان (1210هـ/1795م).

مآثر صالح باي ومقتله:

هو صالح باى بن مصطفى كان من أشهر بايات قسنطينة وولاتها البارزين ذو فضائل كثيرة من حسن سياسة واخلاق كريمة ومآثر معمارية جليلة، ومن مآثره الطيبة الخالدة هذه المدرسة الكتانية الزاهية الباقية الى اليوم انشأها بقسنطينة سنة 1189هـ/1775م ثم كان بعد ذلك بسنة واحدة تأسيس الجامع الحنفي بازائها، ومدرسة جامع سيدي الاخضر (1203هـ/1789م)، والجامع

بايطاليا سنة 1770 الى سكنى العاصمة الجزائرية وعملوا بها كوسطاء في التجارة، وكان الدايات يبيعون لهم القمح بثمن بخس نظير اقتراضهم الاموال من تلك البيوت المالية عند الحاجة، ثم يبيع هؤلاء الوسطاء القمح لفرنسا باثمان باهظة لحاجتها الى التموين واضطرارها للدفع على الاجال. انظر المغرب العربي للدكتور صلاح العقاد ص 86 ط القاهرة 1962م.

الكبير ببونة (عنابة) (1206هـ /1791م) وتاريخه في هذه الابيات الخمسة المنقوشة بظهر حائط القبلة وتظهر من خارج المسجد:

لعمرك بيت الله للسر جامع	مشيد أركانه به النور الساطع
بدت دونه زهر الكواكب رفعة	به « بونة » للسعد منها مطامع
به جاد تاج الدين والمجد « صالح »	الى درج العلياء راق وطالع
أمير البرايا زاد ظفرا ونصرة	مؤيدا دين الحق للشرع تابع
فمذ أسس البيت الرفيع على الهدى	أؤرخه للخير برك جامع

1206هـ.

وكذلك تجديد القنطرة الكبيرة بقسنطينة (1206هـ/1792م) الخ... كل ذلك وغيره كان من خصاله ومآثره الحميدة مما جعل السنة الناس تلهج بشكره وافئدتهم مملوءة بحبه، فساء ذلك خصماءه ومنافسيه من الحسدة فسعوا في فصم العلائق وبذر الشقاق بينه وبين داى الجزائر، وحاكوا حوله الدسائس وأكثروا من الوشايات وافتعلوا ماسولت لهم أنفسهم من مكروه، وزعموا أنه كان ينازع الداى في منصبه وأنه كان عازما على رفض الاعتراف بالسلطة المركزية والاستقلال بولاية قسنطينة وجميع نواحي الجزائر الشرقية، فما راعه الا وقد عزل عن منصبه وأحاط به الجند والقى عليه القبض وأودعوه في السجن وجعل مكانه ابراهيم بك ابو اصبع قائد سباو (ذو الحجة 1206هـ/اوط 1792م) وحل البلى الجديد بقسنطينة في عصابة من جماعة عمراوة واحضر لديه العلماء والاعيان فتلى عليهم ظهير تنصيبه على ولاية قسنطينة وأذن لصالح بالانطلاق من سجنه، وكانت هنالك مؤامرة مدبرة ضد الباى الجديد فقتل بعد ثلاثة أيام من ولايته ذبحا في جملة من قتل من خاصة وأعضاء حكومته الذين حضروا معه من الجزائر، ويومئذ بعث الداي بالحامية الى قسنطينة يقودها صهره (علي) وكيل الحرج صحبة باى تيطرى حسن بوحنك المشهور بالوزناجى، وما كادت الحامية هذه تتصل بقسنطينة حتى كان صالح في السجن ونفذ فيه حكم الاعدام صبيحة يوم الاحد 16 المحرم سنة 1207هـ فاتح سبتمبر 1792م ودفن بالمدرسة الكتانية ولا يزال ضريحه معروفا بها الى اليوم ونجد مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار (نقيب اشراف الجزائر) أن قتل صالح باي كان بايعاز من زوجة الداى حسن باشا وذلك انتقاما لابيها وأخذا بثأرها

من صالح الذي كان السبب في قتل والدها خزناجي محمد باشا على ما قيل؟..[1]. وصودرت جميع ممتلكاته ومكتنزاته البالغة يومئذ ستين مليون فرنكا، وكانت مدة ولايته على قسنطينة اثنين وعشرين سنة، وبموته خسرت الجزائر قائدا محنكا خبيرا بفنون الحرب ورجلا سياسيا عظيما عارفا بتدبير شؤون الحكم وتسيير الادارة عالما بصالح البلاد وحاجياتها وما تتطلبه من انجازات ومهام.

أشهر مآثر الداي ووفاته:

ان للداى بابا حسن باشا مآثر كثيرة وأخصها ما احدثه في العمران والسياسة فهو الذي وقع معاهدة الهدنة مع البرتغال (1207هـ/1793م) وعلى عهده كان تسوية الخلاف والنزاع القائم بين حكومتي القطرين الشقيقين الجزائر والمغرب الاقصى الناشىء يومئذ حول تحديد مناطق النفوذ مع توضيح التخوم الجزائرية المغربية، حيث قضى الداى على الاضطرابات والفتن القائمة بين الحامية التركية المقيمة بوجدة وبين حكومة المولى سليمان سلطان المغرب الاقصى فسرعان ما أصدر الداى أوامره بجلاء الجيش التركي عن مدينة وجدة وتركها للمغاربة، (1211هـ /1796م) وجعل وادي تافنا حدا فاصلا بين القطرين فما كان الى شرقه فهو من الجزائر وما كان الى غربه فهو للمغرب، ومناهضة ابن الشريف خليفة ابن عراش الدرقاوي في نزوله بمدينة معسكر واثارته للفتنة التي ذهب ضحيتها الكثير من الحامية التركية، فأمر الداى يومئذ بطرد ابن الشريف وابعاده عن المدينة، وتولى ذلك محمد المقلش باى الغرب.

ومن اجل وافخم مآثره العمرانية الطيبة انشاؤه لجامع كتشاوى [2] بالعاصمة سنة 1206هـ/1791م الذي يحدثنا عنه رواة التاريخ بأن الباشا المذكور «انفق عليه اموالا طائلة وبذل في اتقانه واتيانه وفق مراده الجهود الفائقة، وجلب له مواد البناء الجيدة من جهات قاصية ولا سيما سواريه الرخامية التي أمر بصنعها في ايطاليا، واستخدم فيها مهرة الفعلة والصناع من الاهالي

(1) احمد توفيق المدني: مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار ص 64 ط الجزائر 1974م.

(2) كلمة تركية معناها ساحة أو رحبة العنز، وهو اسم المعروفة به البطحاء التي أقيم عليها المسجد الجامع.

المسلمين ومن الاسرى المسيحيين، وفي مقدمتهم النجار الشهير المعلم احمد بن البلاطي أمين أو قل نقيب النجارين بالعاصمة الذي باشر بنفسه صنع تاج باب المسجد المحرم المنقوش، الذي نقل فيما بعد - الاحتلال الفرنسي وتحطيم المسجد وتحويله الى كنيسة كتدرائية تحمل اسم القديس فيليب «Cathedral St. Philippe» 1248هـ/1832م - الى مسجد علي بشنين بحي باب الوادي - والمحول ايضا الى كنيسة سنة 1259هـ/1843م ثم نقل الرتاج هذا الى متحف الاثار القومي بالعاصمة حيث هو الان ببهو القبة، ولا تزال حاله في غاية الجودة والاناقة والاتقان.

ويقول الزياني بان الوالي حسن باشا مؤسس هذا المسجد الجامع كتشاوة « قد حبس وأوقف عليه من الرباع والضياع كثيرا قلما تسمح نفس أحد بانفاقه الا من وفقه الله » وصدق الزياني فيما يقول فلقد اطلعت بنفسي على وثيقة الوقف ممضاة بخط يد الداي الواقف ومختومة بخاتمه وهي مؤرخة باواسط شعبان سنة 1210هـ/1796م وفيها ثبت حافل مفصل لذكر الاماكن والعقار المحبسة على هذا المسجد مع بيان مصرف الوقف وتعيين الوظائف المتخصص اصحابها في القيام بهذا المسجد وهم يبلغون سبعا وأربعين موظفا مع تقدير مرتباتهم، فانظرها فيما يلي عند كلامنا على الاوقاف الاسلامية بالجزائر، وأضاف الباشا المذكور الى هذا المسجد كمية وافرة من الكتب النفيسة على اختلاف مواضيعها مكتوبة كلها على الرق فأوقفها وجعلها بخزانة الجامع المذكور، ومن المؤسف انه ضاع اكثرها وفقد اغلبها واننا لا نجد اليوم الا بقية ضئيلة من مجموعة طفيفة موضوعة بخزانة الجامع الجديد، بالعاصمة، ومنها ذلك المصحف الجليل الرائع الذي كان ان قد اهداه احد سلاطين آل عثمان الى باشا الجزائر فأوقفه هذا بدوره على الجامع الجديد سنة 1199هـ/1784م - 85م، كما هو مثبت على ظهره، وهو في رونقه وفي خطه وتزويقه وورقه وزخرفته وتنميقه وتسفيره آية الايات!... وهو بفضل الله لا يزال الى اليوم محفوظا بمقصورة المفتي الحنفي موضوعا على محملة الخاص به بالجامع الجديد وأخيراً - رغم شرط الواقف الذي يمنع اخراجه من الجامع نقل الى ادارة المتاحف والاثار بحجة المزيد من المحافظة عليه من الضياع والتأكيد من صيانته والعناية بشانه خشية الضياع.

وللداي عناية فائقة بفن البناء والتعمير وتزيين الحدائق بغراسة الازهار

الزاهية، ومنها القصر وحوله الحديقة الوارفة الظلال التي أنشأها خارج اسوار العاصمة بالشمال الغربي المعروفة باسم «جنان الباي» بناحية باب الوادي» حيث يوجد المستشفى العسكري اليوم؛ ومن مآثره كذلك هذا القصر القائم الى اليوم ازاء جامع كتشاوة وهو من ابدع القصور الجزائرية وافخمها، اتخذه الاستعمار الفرنسي المقر الشتوي للوالي العام ثم استعمل معهدا للدراسات الاسلامية للغتين الفرنسية والعربية، وهو اليوم تابع لوزارة الاوقاف الجزائرية وكان النهج المؤدي الى هذا القصر يعرف في العهد التركي باسم نهج او شارع حسن باشا، ومما هو من مبرات هذا الباشا ايضا: مسجد ضاحية بئر الخادم «انشأه سنة 1212هـ/1797م وقد زيد فيه الان زيادة عظيمة ضاعفت من مساحته وتخطيطه القديم. وكذلك الحمام القائم الى اليوم غربي جامع كتشاوة المعروف بحمام سيدنا.

واذا نظرنا الى المدة الزمنية التي قضاها هذا الداي في الحكم - وهي لا تتجاوز سبع سنين - ونظرنا الى مآثره الجليلة واعماله الاصلاحية الكثيرة عرفنا وان الرجل حقا كان عظيما، وحاكما رشيدا، كانت وفاته رحمه الله يوم الاربعاء 9 ربيع الثاني سنة 1213هـ/فاتح اكتوبر 1798م.

ولاية الداي مصطفى باشا:

هو ابن اخ الداي السابق ووزيره وكان رجلا صالحا شجاعا حتى انه كان تارة يخرج بنفسه ليلا الى البحر فيركب زورق الحراسة مع المجاهدين ويبقى معهم هناك طول الليل، ولاسم هذا الداي شهرة واسعة وذكر مستمر بين سكان عاصمة الجزائر الى اليوم وذلك يرجع الى ما حصل عليه من ثراء واسع وما انشأه وبناه من القصور والدور الكثيرة المنبثة في انحاء العاصمة، ومن أجل ذلك اطلق اسمه على حي كامل من ارباض العاصمة، ومنها الحي الذي تقوم فيه بناية المستشفى الجامعي الان وكذا قصره القائم بجوار قصر الشعب وهو المكان الذي اتخذته الاخوات المسيحيات في عهد الاستعمار مأوى للايتام، ثم اتخذ مكانا لتعليم الصناعات المنزلية، ومنها ذلك القصر القائم بجوار قصر حسن باشا وجامع كتشاوة واستعملته السلطة الفرنسية مكتبة قومية عمومية (1863 - 1958م) ثم هو اليوم بعد الاستقلال مركز حكومي، ولا يزال ذكر

إسم الباشا هذا منقوشا فوق باب القصر الى الان وكذلك ما يقربه من ثلاثة قصور اخرى كانت كلها بملكه، وهو الذي انشأ برج راس تافورة خارج باب عزون، وكذلك برج باب الواد، ومنها البناية المتصلة بقصر الباردو وغيرها كثير وقد قدرت ثروته بنحو نصف مليون دولار وهذا ما جعل اسمه شائعا ومشتهرا بين الناس، ولا نعلم عن نسبه الا أنه «مصطفى باشا بن ابراهيم الاندلي وخاله الداي السابق - بابا حسن - ويقال انه كان في اول امره تاجرا ثم موظفا بسيطا بالقصر ثم ارتقى الى رتبة خزناجي في حكومة خاله الداي حسن ثم تولى الحكم بعد وفاة حسن يوم الجمعة 3 ذي القعدة سنة 1212هـ/19 ابريل 1798 م وكان من اوليات اعماله السياسية الهامة التي باشرها يوم ولايته ان قام بانجاز ما اشتملت عليه معاهدة الصلح المنعقدة مع امريكا سنة 1210هـ/1795م ثم كانت اولى غزواته هي التي توجهت الى البرتغال سنة 1214هـ/1799م والتقت في طريقها بمراكب مبهمة الجنسية حيث لم تكن تحمل اي راية او شارة فغزتها مراكب الجزائر وبعدما استولت عليها ظهر وانها تنتمي الى النمسا وجيء بهذه المراكب الى الجزائر فتوزع الغزاة مغانمها واحتفظت الحكومة الجزائرية بالاسرى حتى جاء الامر من سلطان اسطنبول بتسليم هؤلاء الاسرى الى القبجي باشي فحملهم معه الى دار السلطنة، ثم كانت الغزاة الثانية بعدها سنة 1216هـ/1801م حيث توجهت المراكب نحو سواحل نابولي من بلاد الطليان واتصلت بارضهم فاسرت منهم 350 اسيرا كان من بينهم ستة عشر امرأة بأولادهن.

اعلان الحرب ضد فرنسا:

لقد كان من غرض نابليون بونابارت حين اخذ في حملته التي توجه بها الى مصر سنة 1213هـ/1798م هو التوسع الاستعماري بالاستيلاء على الشرق الادنى واخضاع آسيا الصغرى كلها وليتوصل بذلك الى الهند وهو في ذلك يعمل على تحقيق مطامع فرنسا القديمة في شرقي البحر الابيض المتوسط وذلك انتهازا منه لما كانت عليه حال تركيا يومئذ من الضعف والخور اللذين اصابها اثر حروبها المستمرة ضد خصومها فنهض نابليون لمحاربة المماليك بمصر مدعيا انه فعل ذلك لمصلحة تركيا، وفي الحقيقة انه يعمل اولا وبالاحرى على ابعاد تركيا

من الميدان ليخلو له الجو في غزواته الشرقية، واستعمل للتفاوض في هذا الشأن مع تركيا وزيره (طاليرند) Tallyrand فبذل الوزير مجهودا جبارا لحمل تركيا على الحياد وبعث بذلك المسمى (ديبواتانفيل) Du bois thanvil الى الجزائر لمفاوضة الداي واقناعه باتخاذ سياسة الحياد وهو الى ذلك محمل برسالة في هذا الشأن من نابليون مؤرخة بيوم 20ذي الحجة 1214هـ/13ماي 1800م. فاقتنع الداي بذلك غير ان السلطان العثماني لم يرضه ذلك ولم يقنع بوجهة نظر الداي وحمل الداي على اعلان الحرب ضد فرنسا وقطع علاقاته معها بعد مناقشة طويلة جرت بين الداي ومبعوث السلطان حاول فيها الداي اقناعه برايه فلم يصغ اليه ويفسر لنا الدكتور صلاح العقاد هذا السبب الذي حمل الداي على اتخاذ هذا الموقف المضطرب موقف التردد والتراخي تجاه اوامر استانبول في اعلان الحرب ضد فرنسا فيقول بان الداي نفسه كان يوجد من بين الدائنين لفرنسا وانه كان ان قدم لها بضائع بمبلغ 300 ألف فرنكا على سبيل الاقراض فهو لذلك نراه يخشى عاقبة من الحرمان.

وأخذ السلطان العثماني يومئذ في بث موقف الحكومة تجاه حرب نابليون وأوعز الى جميع ولاة وامراء الافاق بالامبراطورية العثمانية ليقوموا بمهمة اشغال فرنسا عن هذه الحملة التي هي في الحقيقة ضد الشرق الاسلامي كله فكان ما أرادته حكومة الباب العالي ودعا مصطفى باشا يومئذ قنصل فرنسا الى قصره وأخبره بمطالبة حكومة باريس بتأدية الدين المترتب عليها من طرف الجزائر، فامتنعت فرنسا عن اجابة مطالب الداي وحينئذ أعلنت الجزائر الحرب ضد فرنسا (2 رجب 1213هـ/10 ديسمبر 1798م) والقي القبض على السفير الفرنسي بالجزائر وعلى كامل جماعته المنبثين في عنابة ووهران وحطم مركز القالة وأحرق ما كان فيه من أثاث وسجن جميع العملة الذين كانوا به وعددهم يومئذ يبلغ 98 عاملا، وجهزت الاساطيل الجزائرية تحت قيادة الرئيس حميد فغزا بها سواحل فرنسا ورجع منها بغنائم وأسلاب، ثم كانت بينهما هدنة (21 صفر 1215 هـ/19 جويلية 1800م) ولم تكن الحكومة التركية لتوافق على هذا الصلح وتمضيه الا بعد سنة مضت (16 صفر 1216هـ/27 جوان 1801م) ورغم ذلك فان اثار الخلاف والنزاع لم يمح من اذهان رؤساء البحر الجزائريين، واستمروا على مهاجمتهم للاساطيل الفرنسية

حيثا كانت او وجدت، الى ان اضطرت فرنسا الى رفع احتجاجاتها لدى الباب العالي، وقام السلطان بواجبه فاذعن هؤلاء يومئذ لاوامر السلطان واعادوا اليها كل ما كان سلبوه منها منَ مال ونشب وتم اثرها عقد اتفاقية صلح بين حكومة الجزائر وفرنسا (11 شعبان 1216هـ/17 ديسمبر 1801م) وقد اشتملت هذه المعاهدة على تسع عشرة مادة وهي تتلخص في اعادة العلاقات الودية بين الدولتين وتثبت ما سبق من المعاهدات الخاصة بالملاحة والتجارة وتدخل في حيز التنفيذ الاتفاقيات المتعلقة بالمؤسسات الافريقية؛ ولم يخرج عن نطاق هذه المعاهدة سوى تلك الحسابات المتبقية من الاتاوات.

ووفقا للمادتين السابعة والثامنة من معاهدة السلم هذه يمنع استرقاق الفرنسيين في مملكة الجزائر مهما كانت الظروف والاسباب... وزيادة على ذلك فان الداي اطلق سراح جميع الاسرى المسيحيين الذين كانوا معتقلين عنده، وكذلك سائر السفن الايطالية والفرنسية التي كانت محجوزة لديه[1]... وبالجملة فان هذه المعاهدة كانت كلها قائمة على اساس مراعات مصالح فرنسا وذلك وفق ما كانت تقتضيه معاهدة الامتيازات القنصلية المبرمة بين حكومة فرنسا والباب العالي منذ سنة 942هـ/1536م وكان الذي عهد اليه من قبل في تحصيلها هو الراهب (دولافوريست) De la forest وهو من رهبان فرسان القديس يوحنا الصليبيين ثم عين بعدها كسفير لفرنسا بدار الخلافة العثمانية، وهو اول السفراء الفرنسيين بالامبراطورية العثمانية.

والامتيازات الاجنبية هذه كانت تقوم على منح رعايا الدول الاجنبية النازلين بالامبراطورية العثمانية امتيازات خاصة التي لم يكن ليحصل عليها العثمانيون انفسهم كما انها تشمل جميع المتجولين والسائحين الاجانب من غير المسلمين واستمر العمل بمقتضى هذه المعاهدة نحو الاجانب الى ما بعد نشوب الحرب العالمية الاولى (1333هـ/ 1914م) [2] وبذلك اصبحت المراكب الفرنسية محترمة بهذا البحر، غير ان الانكليز لم يرض بذلك في قرارة نفسه

---

(1) البيردوفولكس: الرئيس حميد وتعريب محمد العربي الزبيري. المجاهد 621 - جويلية 1972

(2) راجع تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد ص 19 ط مصر 1314 هـ/ 1896 م وكتاب التبشير والاستعمار للدكتورين مصطفى الخالدي وعمر فروخ ص 132 ط بيروت 1957 م.

وعمل على اثارة الشعب الجزائري، وتهييجه ضد حكومته كما انه سعى في افساد العلائق الودية السياسية بين نابليون وداي الجزائر.

وفي الجزائر نشأت ثورات واضطرابات داخلية اكتنفت القطر الجزائري شرقا وغربا وجنوبا، وكان قوامها مشائخ الطرق الصوفية هلك فيها عثمان باي قسنطينة - وخلفه في منصبه عبد الله التركي كما سنرى - ذلك قريبا، ويومئذ شعرت الجزائر بالخطر الانكليزي فأخذت في تعزيز قواتها البحرية باتخاذ السفن العظيمة وجعلتها في المكان الاول من العناية بشؤون الدولة وقدر ان وقع بالجزائر في هذه السنة 1214 - 1215هـ/1800م قحط شديد ومجاعة مهولة وغلاء في الاسعار الى حد الشطط فاحتاج الناس فيها الى الاقوات حتى ان الحكومة الجزائرية اضطرت الى جلب القمح والحبوب من مراسي البحر الاسود وقد بيع القمح يومئذ بثمانية وعشرين فرنكا للصاع الواحد[1] وذلك ما حمل الداي على فتح باب الغزو البحري على مصراعيه فغزت فرقة نواحي سواحل مدينة ليفورن الايطالية فظفرت هنالك بثلاث مراكب يونانية محملة قمحا وفحما فأتت بها الى الجزائر وخرجت مراكب جزائرية اخرى ترتاد نواحي السواحل الاسبانية فظفرت بثمانية عشر مركبا يونانيا تحمل القمح وانواعا اخرى من مختلف البضائع والسلع وظفرت اخرى بمراكب نمساوية فغنمتها وبيعت كلها باسواق الجزائر.

انفجار الثورة القومية:

وأعني بها تلك الثورة القومية العارمة المهولة التي تزعمها مشائخ الطرق الصوفية ضد سلوك بعض رجال السلطة التركية الحاكمة بالجزائر نحو الرعية في إرهاقها بتطلبات العوائد والضرائب والرسوم وما قد يكون هنالك من بواعث مذهبية اخرى... فاندفع لهيبها اولا بعين ماضي[2] قريبا من مدينة الاغواط

---

(1) راجع بهذا العدد: المرآة لحمدان عثمان خوجة.

(2) الاصل في هذا المكان هو حصن اقامه احد سادة العرب: وهو ماضي بن مقرب من بني بكر احد بطون كرفة بن الاثبج الهلالي اسمه ايام مقدم الحملة الهلالية الى المغرب العربي اواسط الخامس الهجري - منتصف القرن 11م - واجرى به عينا نسبت له، وهناك كان مسقط رأس الشيخ التجاني الصوفي سنة 1150هـ/1737م.

بالجنوب الجزائري وكانت تحت زعامة الشيخ الصوفي ابي العباس احمد بن محمد - فتح الميم - بن المختار التجاني صاحب الطريقة التجانية المشهورة فتصدى لمقاومته مصطفى باي الغرب فأزعجه من تلمسان الى قرية ابي سمغون، ولما توفي الباي المذكور وتولى مكانه ابنه عثمان - منشيء زاوية ضريح سيدي الهواري بوهران (1214هـ/1799م) فوشى له بالشيخ التجاني الثائر فبعث الى اهل ابي سمغون يهددهم ويتوعدهم اذا هم لم يبعدوا التجاني عن بلادهم، ولما اتصل الشيخ بالخبر وتحقق ان ذلك وقع من الباي خرج مع بعض تلامذته وابنائه سالكا طريق الصحراء ملتجئا الى المغرب الاقصى فدخل مدينة فاس يوم17 ربيع الاول سنة 1213هـ29 اغسطس 1798م وبعث برسوله الى السلطان ابي الربيع سليمان بن محمد يعلمه بصفة هجرته الى المغرب وانه هاجر من بلاده فرارا من جور الترك وظلمهم لاجئا الى المغرب فاكرم السلطان وفادته وانعم عليه بالسكنى واجرى عليه جراية لينفق منها على نفسه وعلى من معه من الاتباع، فاستقر الشيخ نهائيا بمسكنه في القصر المعروف بحوش المرايات بمدينة فاس وترك مسؤولية ثورة عين ماضي ملقاة على عاتق اهالي تلك الناحية فالزمهم الباي بدفع مبلغ من المال قدره سبعة عشر الف ريال، وذلك ما يقدر بنحو 150000 فرنكا ومعها من الاثاث أغطية وملابس هي من افخر الثياب وارفع نسيج الخ... فأرهق القوم ذلك فبعثوا بطلب المعونة من شيخهم بفاس مع اظهار رغبتهم في عودته اليهم، فأجابهم الشيخ برسالة مطولة أوضح لهم فيها موقفه وعذره في إنتقاله عنهم ونصحهم بالسمع والطاعة لاميرهم التركي وعدم تعرضهم لعصيانه في كل ما امرهم به أو نهاهم عنه، وكان مما جاء في هذه الرسالة ما نصه:

« ...الى أيدي احبابنا وأعز الناس عندنا جماعة اهل عين ماضي من غير تخصيص السلام عليكم ورحمة الله وبركاته من كاتبه احمد بن محمد التجاني ... يليه اعلامكم عما كتبتم به الي فأما انتقالي اليكم فانه قد حان انتقالي من هذه البلاد لكن الاسباب الالهية أعجزتني عن الانتقال اليكم لكوني ثقيل الحمل، لا

اما اولاد ماضي المشتهرون بنواحي ولاية قسنطينة فهم أبناء ماضي بن ردان بن معروف بن عامر بن رغبة غير صاحب الحصن المذكور.

يحملني الا سبعون بعيرا او ثمانون بعيرا ولا اجدها في هذا الوقت لا عندي ولا عندكم والان صارت الطريق بيني وبينكم مخوفة لا تسلك الا بشدة من كثرة الاعتداء والله غالب على أمره، واما ما طلبتم مني بعثه من البارود والرصاص فلا وجود له في هذه البلاد اصلا، وكان قبل هذا يوجد في بلادي فيجيج، والان الطريق بيننا وبينهم مخوفة لا امان فيها... واما امر الباي معكم فاسمعوا مني نصيحة كاملة يبذلها الوالد المحب لوالده، اذا كنتم تراعون نصيحتي فسيروا اليه في بلاده وأعطوه ما تقدرون عليه من المال ولا تقاتلوه فانه لا خير لكم في قتاله... فأياكم ثم اياكم ان تخالفوه أو تقاتلوه، فكل تدبير عندكم في القتال والخلاف فاتركوه ولا تدبروا الا في الصلح بينكم وبين هذا الباي... عباد الله لا تخالفوني في هذا الذي قلته لكم... وأن قضي الله واصطلحتم مع الباي بذهاب الشر بينكم وبينه وبعثتم لي من الابل قدر ما يحملني انتقلت اليكم[1].

ولم تكد تنطفيء هذه الثورة بعين ماضي حتى انتشر اوارها وعم شررها أغلب القطر الجزائري شرقا وغربا وجنوبا، وكانت الثورة بالناحية الغربية تحت زعامة مدعي المهدوية ابي محمد عبد القادر بن الشريف الفليتي- نسبة الى ناحية فليتة ما بين وادي مينة ووادي جديوية [2] - (1217هـ/1802م) وهي الحوادث المشهورة باسم (ثورة درقاوة) كما سنذكره.

أما اصل هذا الرجل فهو من قبيلة «كسانة» البربرية الخيمة على ضفاف وادي العبد جنوبي غريس، حفظ القرآن بقبيلته صغيرا ثم دخل القطينة فأخذ بها مبادىء العلوم الاسلامية والتصوف على الشيخ محي الدين والد الامير عبد القادر ثم التحق بفاس فأخذ بها عن شيوخ القرويين وانتقل بعدها الى الجبل فاتصل بالشيخ ابي عبد الله محمد الدرقاوي بزاوية (بوبريح) من ارض بني زروال فلقنه الطريقة فاصبح شيخا صوفيا.

ثم عاد الى الجزائر فاكتسب بها اخوانا واتباعا صاروا يشكون اليه مما يصيبهم من ارهاق وحيف بسبب ما يلزمهم به الحكام الاتراك من باهظ المغرم وجور الضرائب وما يلحقهم بسبب ذلك من اهانة، فكان عبد القادر بن الشريف

(1) كشف الحجاب لاحمد سكيرج ص 363 ط المغرب الاقصى 1325هـ

(2) قرية غربي وادي رهيو بنحو عشر كيلو ميترات.

يحملهم على الصبر و‍ بالفرج القريب، وكان يقص ذلك على شيخه ابن عبد الله محمد الدرقاوي حين يزوره في زاويته بالمغرب الاقصى، وكان هذا يقول له: انصرهم والله ينصرك، ويومئذ تكونت في ابن الشريف روح الثورة ضد النظام التركي الجائر بالجزائر[1] حدثته نفسه بالملك ورغب في مبايعته فأصبح يدعو الى الطريق الدرقا ‍ نيته وهو في الباطن يستعد للثورة. وكان من فطنته ان اختار ل غريس وجبال بني شقران فأنشأ بها الزوايا وجمع حوله المر ‍ ن في يوم ما جندا طوع يده يدك بهم صروح الحكم العثماني با‍ بشيخه محي الدين والد الامير عبد القادر الذي ما كان ل‍ في تلك الناحية التي يعتبرها منطقة نفوذ فانسحب ابن بعد ان لحقته اهانات من شيخه المذكور متوجها الى الج ل شافع والمهاجة وحميان واقام بينهم مدة ينشر دعايته ‍

ولما استفحر ‍ نه المهدي المنتظر فأعلنت القبائل طاعته وخلعت من عنق آل عثمان وزحف بهم ابن الشريف سنة 1217 هـ/1802 م الى على بعض القرى والمدن واستسلمت له بعض الحاميات العثمانية ن وجهه فتعقبها حتى التقى بباي وهران محمد المقلش الذي كان مشائخ الطرق الصوفية وخاصة منهم الطائفة الدرقاوية التي بل‍ نفوذ والطاعة بين العامة ما لم تبلغه الحكومة التركية نفسها وكا‍ يستمدون نفوذهم الروحي من مولاي العربي الدرقاوي بالمغرب ت العلائق بين ملوك المغرب وامراء الجزائر متوترة فكان ذلك ن المغرب على تأييد مشائخ الطريق اللاجئين اليه من الجزائر، و هو ما جعل الباي المقلشي يواصل حملاته ضد الشيخ عبد القادر بن ‍ الدرقاوي ان اضطهد وقتل وسجن كثيرا من اتباعه ففر الشيخ يومئذ ‍ الصحراء ونزل بقبيلة الاحرار فاجتمع حوله

---

(1) تحفة الزائر ج (ص 75 ط الاسكندرية 1903 م - أنيس الغريب والمسافر، مسلم بن عبد القادر، تحقيق رابح بونار ص 71، 72 ط الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1394 هـ/1974 م - دائرة المعارف الاسلامية مجلد 9 ص 198 -206.

اتباعه ممتعضين مما أصاب اخوانهم من التقتيل والتش والسجن، وزحفوا لمهاجمة الاتراك بغتة فقاتلوهم في كل جهة.

وما كاد الداي يتصل بخبر الانهزام والاندحار الحاصل للاتراك حتى بعث بالمدد الى باي وهران وامره بالانتقام من هؤلاء الثوار وفي مقدمتهم قبائل الحشم وسويد وكان اللقاء بسهول غريس قرب معـ الاتراك وخسروا الكثير من الرجال والعتاد ولم ينجهم سوى ا هران متحصنين بأسوارها ومعتصمين بأبراجها وتبعهم ابن الـ وحاصرهم بها ويومئذ جاءت القوات العسكرية من الجزا آغا فاعترضه الاهالي من سكان وادي شلف وصدوه عن عوه الماء حتى كاد الجيش ان يهلك عطشا فلاذ الاغا بشـ ومستجيرا به لدى اهالي شلف فأبوا عليه ذلك الا في مقا ى لهم مطلبهم ثم انقلب راجعا الى الجزائر[1].

وضاقت الحكومة الجزائرية ذرعا بهؤلاء سلطان المغرب المولى سليمان وأطلعته على الامر ملتمسة منه ي محمد العربي الدرقاوي ليكف عنها اتباعه بوعظه وتذكير هذا التمادي في العصيان؛ وجاء شيخ درقاوة الى الجزائر فاط ذه ومقدمه ابن الشريف على ما نال اتباعه من قبل الاتراك وجور فتردد الشيخ أولا في الامر واظهر امتعاضه مما نال والاجحاف، وغير موقفه، بل يقال انه شجع ابن الشر والاستمرار في الحرب؟.. وزادت العلائق بذلك توترا بين ر وتفاقم الامر واشتد النزاع وبالغ الباي في الدفاع عن وهران ثوار من دخولها فانكفؤوا عنها على محاصرة تلمسان وشهد معهم محمد العربي هذا الحصار وكان لسكانها (الحضر) من غير الاتراك . سلطان المغرب فاتفق معهم أهالي الجزائر على خلع طاعة الاتراك ومبايعـ حب المغرب وتم الاتفاق على ذلك ودخل الثوار تلمسان تحت راية ابن الشريف فأخذ البيعة من أهلها

---

(1) تحفة الزائر ص 76 ط الاسكندرية 1903 م، راجع مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار ص 84 ط الجزائر 1974 م تحقيق الاستاذ احمد توفيق المدني.

وخطب ودعا على منابرها لسلطان المغرب سليمان ووجه له هدية بواسطة شيخه مولاي العربي وتحصن الاتراك ومن معهم من الحامية بقصبة المشور الى أن هدأت الفتنة وأصبح سلطان ابن الشريف ممتدا من المدية الى الحدود المغربية باستثناء وهران. وكان من أشهر الوقائع التي انتصر فيها ابن الشريف الدرقاوي على الاتراك هي معركة « فرطاسة » - ربيع الاول 1219هـ/ جوان 1804م - وفرطاسة اسم مكان يقع بين « مينا » وواد العبد جنوب ايغيلزان وقد اشتهر هذا المكان منذ ذلك التاريخ باسم وادي الابطال كما هو معروف به اليوم، قتل فيه عدد كثير من جنود الباي مصطفى، وكان من بين هؤلاء القتلى كاتباه الشهيران الحاج احمد بن هطال وابو عبد الله محمد الغزلاوي، وقد نظم في هذه الوقعة حسن خوجة التركي ابياتا فقال:

« فرطاسة » يومها ترى الجنود به ... ما بين قتلى وأسرى غير ناجينا
فالباي جاء بجيش لا نفاد له ... به يريد لقا العدو وباغينا
فلم يحقق له سعى ولا أمل ... بل جاء جنده صفر الكف باكينا
فاليوم لابن الشريف عز فيه على ... باي الاعاجم لولا الدين لا دينا

ويومئذ تحقق رجال الحكم بالجزائر بأنه لم يبق لديهم أدنى شك في مناصرة سلطان المغرب لحركة الثورة القومية بالجزائر فعمد الباي محمد المقلش الى الوسائل الديبلوماسية والدهاء السياسي لاتقاء شوكة الدولة المغربية ودفعها عنه حوزته فعمل على ربط صلته بمصاهرة الحشم اعظم القبائل المنشقة عن الاتراك واكثرها انتصارا لحركة الثورة القومية بالجزائر فكانت بينه وبين الشيخ قدور ابن الصحراوي مصاهرة وختونة.

وكان الذي اشار بهذه المصاهرة السياسية المغزى هو العلامة الحاج الاخضر المهاجي والد السيد ابن فريحة خليفة الامير عبد القادر الجزائري فيما بعد، ونظرا لانتشار المسغبة بتلمسان حمل اليها الباي محمد المقلش الحبوب من مطامير بني عامر فجاءها بتسعمائة حمل وضاقت السبل والطرق حتى صار القمح يحمل الى الجزائر على طريق البحر ثم بعد ذلك هدأت فتنة حروب درقاوة وتحسنت علائق الاتراك بالحشم - عمدة هذه الثورة - ووقع العفو العام عن المتهمين بالمشاركة في هذه الثورة ومن بينهم العلامة الحافظ الشيخ ابو راس الذي وشى

به خصومه وسعوا به الى الباي المقلش وما ذلك الا لما اشتهر عنه من اتصاله بسلطان المغرب لا غير، وقد كان ذلك في آخر شهر صفر سنة 1220هـ/ آخر ماي 1805م ووضع الشيخ ابو راس تأليفا مستقلا لتاريخ الثورة هذه بعنوان «درء الشقاوة في حروب درقاوة» فانظره (مخطوط) وانتقل ابن الشريف بعد ذلك الى النواحي النائية من ارض الجزائر وبقي ينتقل هنا وهناك وفر بأهله وأولاده الى نواحي تلمسان ثم لحق بجبال بني برناس من أعمال المغرب الاقصى وأقام هنالك الى وفاته ثم عاد أهله للوطن فنزلوا على الشيخ محي الدين والد الامير عبد القادر الجزائري بالقيطنة لائذين به فعفا عنهم الباي حفظا لذمة الشيخ ومراعاة لحرمته. وقد قامت هذه الفتنة الكبرى - او قل حروب درقاوة - المشؤومة طوال عشر سنوات تقريبا كانت كلها وبالا وخسرانا فاحشا على كلا الطرفين - حكومة وشعبا - فياليتها لم تقع!.. ويذكر انه لما توجه الشيخ محي الدين الى الباي بوهران لتهنئته بهذا الانتصار وخرج من عنده تحدث الباي الى جلسائه قائلا: نحن لا نخشى من ابن الشريف وامثاله وانما نخشى من صولة هذا واشار الى محي الدين وذلك لما للشيخ محي الدين من نفوذه المعنوي والسلطة الروحية على الرعية وفعلا وقع القبض عليه فيما بعد وذلك ما كان سببا في مزيد تمسك الناس به والالتفاف حولهواجتماع كلمتهم عليه أيام وقوع الهجوم الفرنسي على الجزائر (1246هـ/1830م) وحينما كانت تجري هذه الاحداث بالنواحي الغربية كانت أحداث أخرى على وشك الانفجار بالجهات الشرقية.

وكانت أنباء الانتصارات بعمالة وهران تجد لها صداها المدوى بعمالة قسنطينة ولم تتحقق نهضة الناس بها الا لعدم وجود القائد الماهر الذي تتحقق على يده المعجزة ولم تكن الاحتياطات التي اتخذها (العمال) هناك لتحول دون تحقيق الثورة عند سنوح أول فرصة.

ولقد سنحت هذه الفرصة وتحققت بعد سنة من قيام ابن الشريف بالاعمال الغربية عام 1218هـ/1803م وجاءت القيادة هذه المرة بنفسها من المغرب أيضا وذلك بظهور الحاج محمد بن الاحرش الشريف وهو رجل من اهل المغرب الاقصى واحد رجال الطريقة الدرقاوية ايضا خرج حاجا ايام الحملة الفرنسية

ضد مصر فالف قوة من أعراب الشمال الافريقي وقاتل بهم نابليون وحارب الى جانب المصريين وأبلى في تلك الحروب بلاء حسنا اكسبه ذلك ذكرا وشهرة واسعة ومجدا. ولما انسحبت القوات الفرنسية الى بلادها انسحب ابن الاحرش الى المغرب ودخل تونس برجاله فلقيه حاكمها حمودة باي فأكرم نزله، ولما استعلم عن حاله وأخبر بما هو عليه من القوة وشدة البأس فأوجس منه خيفة ان هو بقيت قواته قائمة هناك في الايالة التونسية ففاوضه واغراه بالحملة ضد حاكم الجزائر لما كان يحمله والي تونس من الاحقاد على هذا الوالي في نفسه ووعده بمظاهرته بالزاد والاجناد فسافر ابن الاحرش الى المغرب يجر وراءه انصاره المدربين الذين كان ينمو ويتكاثر عددهم كلما تقدموا في سيرهم الى الامام بانضمام الاعراب اليهم أثناء الطريق من أهالي سكيكدة وجيجل وبني بولبان فبلغت جنوده نحو الستين الف نسمة حتى اذا دنا من قسنطينة وصادف ان كان حاكمها يومئذ الباي عثمان بن قارة محمد في جولته التفقدية متنقلا بين العشائر والاعراش فانتهزها ابن الاحرش فرصة سانحة ودعا الى نفسه وندب القبائل للقيام ضد الحكومة التركية واشتدت شوكته بتلك الجهات وزحف الى قسنطينة فناهضه ورده عنها قائد الدار محمد بن الابيض ريثما عاد الباي من جولته واذ ذاك اشتعلت ولاية قسنطينة ثورة ونارا تلظى انهزم فيها الباي بجنوده شر انهزام وترك جميع ذخائره وأسلابه غنائم للثائرين ولم ينصرف باي قسنطينة هذا الى مقر ادارته كما فعل صاحبه باي وهران بل ترك الحبل على الغارب وفر بأهله الى تونس.

ولما اتصل خبر هذه الوقائع المزعجة إلى الداي مصطفى باشا والي الجزائر احضر عثمان باي بن محمد باي وبعث به حاكما عاما الى قسنطينة وامره بالقيام على ساق الجد والاجتهاد في محاربة ابن الاحرش وكتب الى رؤساء القبائل وشيوخ العشائر يعد ويمنى ويحذر وينذر سالكا في ذلك مسلك الترغيب والترهيب.

ولما وصل الباي الجديد الى قسنطينة جمع حوله فلول الحاميات العثمانية واستجاش بمن بقي متمسكا بالطاعة من أهل المدن والقرى وخرج بجيش كثيف لمحاربة ابن الاحرش وضرب خيامه بظاهر المنصورة ثم ارتحل اليه بجبال بني

بوالبان وهنالك كانت المعارك قائمة في سهل وادي الزهور.

وكان من براعة الزعيم ابن الاحرش ومهارته في تدبير الحرب أنه أمر باقامة سد بنهر الزهور فأقيم السد لحينه وحجز الماء في الوادي حتى اذا كان الليل عبأ قوته وأمر برفع السد وفتحه وما حان وقت الفجر حتى غمرت المياه السهل والمعسكر معا وكان ابن الاحرش وجنوده على الضفة الاخرى يستلحمون كل من يحاول الفرار من الجنود المخزنية، ثم انجلت المعركة عن قتل الباي عثمان ومحق محلته واستيلاء الثائرين على امواله واسلحته وكان قد اصطحب معه منها الشيء الكثير [1] حتى قيل انه لم يترك بالخزينة شيئا من مال أو ذخيرة الا وأخذه معه فشهد معه المعركة، وكان فيما احتله ابن الاحرش من المدن مدينة جيجل ونصب بها رئيسا يحمل لقب آغا، واذ ذاك خرج الرئيس حميدو الى حصار هذه المدينة بحرا للقبض على الزعيم ابن الاحرش فلم ينجح [2].

ثم عزم والي الجزائر على مجابهة الثوار والخروج الى قمعهم بنفسه فاعترض عليه أعضاء الديوان في ذلك، واسند امر الدفاع يومئذ الى باي الخشنة عبد الله بن اسماعيل المعين في مكان باي قسنطينة عثمان القتيل بوادي الرمل، فقام عبد الله يكبح جماح الثورة فانتصر في شوال 1219 هـ/يناير 1805م وفر أمامه زعيم الثائرين ابن الاحرش الى الاعمال الغربية حيثما اجتمع هناك بابن الشريف الدرقاوي، ثم كانت خاتمة حياته آن قتل في ثورة نشأت ضد الاتراك بالرابطة بنواحي سطيف - سنة 1222 هـ/1807م وفي مذكرات الزهار ان قتل ابن الاحرش كان على يد ابن الشريف الدرقاوي.

وبما أن العلاقات السياسية بين ملوك المغرب الاقصى ودايات الجزائر كانت متوترة في هذه الفترة كما علمت فانه من الممكن والقريب جدا ان تكون هذه الحركة الثورية التي قادها رجال الطرق الصوفية مستندة على حكومة المغرب؟

---

(1) تحفة الزائر ج 1 ص 75 -77، البصائر 269

(2) انظر الحاج احمد مبارك: تاريخ حاضرة قسنطينة، تحقيق عبد القادر نور الدين ص 13 ط الجزائر 1952 - مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب تحقيق رابح بونار ص 67 ط الجزائر 1974 م - ابن العنتري محمد الصالح، الاخبار المبينة ص 41 ط قسنطينة 1846 م.

اذ كان مستند الدرقاويين على ما يقال هو مولاى سليان مع ما كان بين السلطان وبين شيخهم من خلاف وان التجانيين كانوا في حماية المولايين عبد الله وسليمان.

ثم تبعتهم في هذه الحركة الثورية قبائل زواوة وأولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني واضطربت البلاد وتشعبت الافكار واختلفت الاتجاهات السياسية بين الرؤساء مما دعا الى انتشار الفوضى واختلال النظام، وحينما كانت الجنود الجزائرية مشتغلة في شرق الايالة الجزائرية ووسطها وغربها، غزا مولاي سليمان سلطان المغرب ناحية فقيق عام 1219هـ/ 1805م وفي عام 1222هـ/1808م غزا كورارة وتوات وانتزع من الترك جميع بقاع الجنوب الشرقي لها لاقليم وهران. وكانت العلة في كل ما وقع كما يقول حمدان عثمان خوجة هو سوء تصرفات الحكام في الرعية فاستغاظ الناس وكانت النتيجة هذه الثورة العارمة بقيادة مشايخ الطرق ومن والاهم، وبينما الحال على ذلك اذ جاء قرار مؤتمر لندن (1807 - 1811م) الذي يقضي بالغاء تجارة الرقيق ويمنع القرصنة ووجوب مقاومتها بالجزائر فزاد بذلك الطين بلة، وارتبكت العلائق السياسية العامة مع الخارج ويومئذ اخذت فرنسا تمهد لاحتلال الجزائر.

كيف كان تدخل اليهود في دولاب الاقتصاد الجزائري.

تقدم لنا ذكر ما كان عليه الاتراك من الحقد على الكراغلة بسبب التزاحم على الرئاسة والتنافس على الملك، وقد دام ذلك بينهم حوالي قرنين، وهؤلاء الكراغلة هم كثيرون ومنتشرون في كامل انحاء الايالة الجزائرية لا سيما في الناحية المعروفة باسم وادي الزيتون سفح جبل فليسة، والذين هم بهذا المكان فقط كان يقدر عددهم بنحو ثمانين أو مائة ألف، وهم معدون من الجيش يتقاضون مرتبات خوفا من حقدهم وتفاديا لغيظهم.

وأراد الكراغلة يوما أن يدخلوا تحت رعاية أسلافهم وينالوا عفوهم، فراحوا يأتون برجال ويقيدونهم في سجل الانكشارية على نفقاتهم، كما انهم قد دفعوا بأبنائهم ليقيدوا انفسهم كمتطوعين في الجيش الانكشاري أيضا، ولما اصبح الكراغلة الذين يتقاضون مرتباتهم من الدولة موزعين في جميع انحاء الايالة تعذر عليهم الحضور كل شهر بمدينة الجزائر ليقبضوا على تلك المرتبات

حسبا جرى به النظام والعادة، وقد كان هذا من جملة الاسباب التي ساعدت اليهود على أن يستمتعوا بميزة خاصة بين طبقة خاصة في البلاد، اذ اصبحوا هم الممولون لهؤلاء الكراغلة، فقد كانوا يقدمون لكل واحد منهم قيمة مرتبه سلعا وبضائع لمدة سنة ويأخذون منه وثيقة (وكالة) تسمح لهم بأن يتسلموا من الدولة مرتب صاحب تلك الوثيقة، وكان هذا التقديم مشروطا بأرباح لصالح اليهود (أي مع الفائض) ولما كان هؤلاء الكراغلة في حاجة الى المساعدة المادية قبلوا هذا التقديم بجميع شروطه، ولكن اذا مات واحد من الكراغلة قبل انتهاء السنة فان اليهودي يخسر جميع ما قدمه له، وكانت قوانين الايالة تسمح بهذا النوع من التجارة.... وعندئذ ارتبط اليهود بالاتراك واغتنموا الفرصة في هذه الظروف وجمعوا اموالا طائلة... [1] ثم بممارستهم لتجارة القوافل واحتكارهم طريقها الممتد بين الجزائر وقسنطينة والى جانب ذلك قل الصلات التي كانت تربطهم بالبيوت التجارية في بلاد اوربا وبمدن تجارية مشهورة في شرق البحر الابيض المتوسط مثل بيزة وجنوة والبندقية الخ... وقد كانوا يعكفون بصفة خاصة على تجارة الحرير والاقمشة والمصابيح الاروبية مع احتكار الحبوب. وكان بمرونتهم الشخصية ودهائهم ومعرفتهم باللغات السائدة في حوض هذا البحر ما جعلهم - ولا سيما منهم اسرة باكري وبوشناق - يقومون بممارسة اعمالهم هذه تحت حماية الداي وقناصل فرنسا وانجلترا ففتحوا المتاجر في الجزائر وأسسوا بها الشركات (1770و 1783م) واستحوذوا على الاسواق وقاموا بدور المصارف يعاملون الرعية بالربا الفاحش. وبرعوا في ذلك حتى ان جميع انواع التبادل التجاري في البحر الابيض المتوسط كانت محتكرة في أيديهم كما يحقق لنا ذلك مؤرخو القرن الماضي.

مطاردة اليهود واغتيال الداي:

نظرا لما كان عليه يهود الجزائر من الخبرة بفنون التجارة والدربة عليها ومهارتهم في طرق كسب المال. وما كان لهم من الاطلاع على سير الاقتصاد الجزائري بسبب تدخلهم الجرىء في شؤون البلاد سياسيا واجتماعيا واقحامهم

---

(1) راجع المرآة لحمدان عثمان خوجة.

لانفسهم في كل مسلك من وعر أو سهل، فحصلوا بذلك على نوع من التسلط السياسي فقبضوا على خيرات البلاد واستحوذوا على طرق اقتصادياتها، وغالب امكانياتها الحيوية، ولا سيما ذلك على عهد الداي مصطفى باشا الذي اهتم بمساعدتهم في الحصول على كثير من الامتيازات التي خولتهم التصرف في تسيير الاقتصاد الجزائري فتفوقوا في ذلك على غيرهم من أهل البلاد حتى اصبح لهم نوع من النفوذ على بعض من رجال الحكم ولا سيما منذ أن أخذ اليهودي ميكائل كوهي المدعو بن زاحوط في تأسيس مركزه التجاري وتدعيمه بالجزائر سنة 1184 هـ/1770م ثم سعيه بكل مجهودته في توسيع نطاق نفوذه في ميدان السياسة والاقتصاد الى أن حصل على مكانة مرموقة بين رؤساء الجزائر وزعمائها وساهم في كيان الحركة الاقتصادية في السوق العالمية وضم اليه يومئذ (1197 هـ/1783م) كلا من بنيه واخوته الثلاثة وصهره المسمى نفتالي بوجناح المدعو بوشناق أو بوزناج ويوسف باكري الخ... وعملوا جميعا على تكوين شركة اقتصادية لاحتكار دفة تسيير الحركة الاقتصادية بالجزائر والمعاملة مع الخارج أيضا وكتب لهم النجاح في خطتهم هذه فقبضوا على محصولات البلاد الزراعية ووضعوا ايديهم على جميع منتوجاتها المختلفة واصبحوا بذلك في درجة الملوك والسادة يسيطرون على حيوية البلاد بجمع امكانياتها وزاد نفوذهم بانتشار معاملاتهم مع الخارج فكانت لهم مراكز متعددة في أنحاء الاقطار المختلفة في الجزائر وتونس والاسكندرية ومرسيليا وجنوة وليفورن ونابل وأزمير، وكان لهذه الشركة اليهودية علائق واتصالات خاصة بالدوائر الفرنسية العليا، ولقد تجلى ذلك بالخصوص ايام حملة نابوليون على مصر (1215 هـ/1800م) ومكنها ذلك من التسلط على ولاة الجزائر فأعارها بعضهم سمعة فاستبدت به وتمكنت من بلوغ غايتها في احتكار محصولات الجزائر الزراعية واخذت تبيعها بأثمان باهظة للخارج بدون أن تلتفت الى الواقع مما يهدد البلاد من حاضرها السيء من حيث الفاقة والخصاصة والاملاق.

وكان لسليمان جاكت اليهودي المتوفي سنة 1138 هـ/1725م وشيعةباكري وبوجناح خاصة الخطر الاكبر في ذلك بل كان لهم في بعض الاحيان التقدم على غيرهم في المسائل الجزائرية عامة الى ان اضبحوايقومون أمور الداي المالية ويقومون بالوساطة الرسمية بين الايالة الجزائرية وبين الدول الاوربية، وقد

ظل نفتالي بوشناق أو بوزناخ خمسا وعشرين سنة (1194هـ/1220هـ - 1780م/1805م مستوليا على زمام الدولة يستغل نفوذه في تنصيب البكوات والدايات وخلفائهم والتصرف في موارد الدولة أو قل بايجاز انه كان يدير السياسة الداخلية والخارجية للامارة ويصرفها وفق مصالحة الخاصة وهواه حتى انه كان يلقب بسلطان الجزائر وملكها !ثم كان لهذا النفوذالواسع الذي احرز عليه اليهود رد فعل كبير في اوساط السلطة الجزائرية وعند العامة أيضا اذ أقدم احد الانكسشارية وهو يحيي آغا على قتل اليهودي نفتالي بوزناخ (فاتح ربيع الثاني سنة 1220هـ/29 جوان 1805م) وذلك بعد أن اقترب منه وناداه على سبيل السخرية والتهكم به: يا ملك الجزائرخذها!!! ثم قتله وأعقب ذلك فتنة دموية ذبح فيها أغنياء اليهود وقدر عدد قتلى اليهود في ذلك اليوم بخمسين قتيلا وهناك من المؤرخين الافرنج من ارتفع بهذا العدد الى 107 قتيل وجرح اكثر من 80 شخصا وأخرجوا من البلاد فهاجر بعضهم الى تونس وبعضهم الى ليفورن بايطاليا، وانتهبت حوانتهم ودكاكنهم وصودرت أملاكهم ونقص عدد اليهود في البلاد الى اربعة آلاف نسمة كما يقول روزي Rozet.

وهكذا ظلوا يتحملون نير الاتراك فى عناء ومضض ولذلك رحب اليهود بسقوط حسين - آخر دايات الجزائر - ترحيبا عظيما وانضموا الى المعمرين الفرنسيين ولم يظهروا لهم معارضة ما [1].

ويذكر عن الداي مصطفى باشا أنه انتصر في هذه الواقعة لليهود وعاقب بأشد العقاب كل من ثبتت ادانته أو مشاركته في هذه الفتنة وكان يأخذ للمشنقة كل يوم عشرة من المتهمين في هذه الحادثة فاحتدمت القلوب عليه غيظا ودعي يومئذ بحامي اليهود حتى اذا جاء دوره وحان حينه بعد شهر ويومين من حادثة اليهود فبوغت يوما من طرف احدهم وهو منصرفا من القصر الى منزله ولما شعر بالخطر التجأ الى احد المساجد وهناك ادركته يد الجاني فقتله ومثل بجثته بشوارع العاصمة ودفن بعضها بمقبرة باب الوادي المندثرة الان والبعض الاخر مدفون بتربة الثعالبي وقبره معروف هناك عن شمال الداخل الى الضريح ازاء النافذة الاولى المطلة على المقابر (1220هـ/1805م)، وقتل معه

(1) دائرة المعارف الاسلامية

الخزناجي قارا، ويقال أن الخزناجي هو الذي أمر بشنق المتهمين في قضية اليهود.

اما عند حمدان خوجة فإنَّ جميع وكل ما قد قيل او حيك من تهم وشبهات حول الباشا المذكور من دعوى انتصاره لليهود الخ... انما هو مجرد تشويش وتلبيس وقع من خصومه ومنافسيه في الحكم، ومنهم أحمد خوجة دفتر دار مزاحم مصطفى باشا في منصبه، فهو الذي دبر هذه المؤامرة ونسج خيوطها وضم اليه لفيفا من صعاليك الجند فنادوا بسقوط مصطفى باشا، وتأثرت بذلك طائفة الانكشارية فأطاحت بالداي وقتلته بدون أن يثبت عليه ارتكاب أي خطأ يستحق به القتل، وبذلك انحاز منصب الداي الى منافسه ومزاحمه احمد خوجة المذكور فزاد في اجور الجند واغدق عليهم الاموال مكافأة لهم على مواطأتهم له في الجريمة، وراح يعزل البايات من مناصبهم ويقتلهم ليستولي على ارزاقهم مع ما ارتكبه من جرائم أخرى [1].

وهذا ما وافق عليه الحاج احمد الشريف الزهار في مذكراته اذ نراه يقول ما نصه:

ان «احمد خوجة هذا كان أحد الكتاب الاربعة بدار الامارة الذين بيدهم دفاتر العسكر ومداخيل الملك من الخراجات والعشور ومصاريف الملك من الرواتب وغيرها، ثم ان الملك (مصطفى باشا) غضب عليه في يوم من الايام وعزله، وكان له بستان عظيم فذهب اليه، ثم انه رأى أن يبيع البستان على انه ذاهب الى الحج، فاشتراه منه قائد العرب ابن سحنون، وبعد ما باع البستان اشتغل في اثارة العسكر خفية، وله اعوان في ذلك وانحاز بعض العسكر اليه ووعدهم بأن يزيد لهم من الراتب ويعطي القمح للمتزوجين منهم وقد فشا بعض هذا الامر عند الناس فخافوا على انفسهم.

«ومن جملة ما تحيل به أن بعض اعوانه ذهب الى الخزناجي وطلب الخلوة معه وقال له: ان العسكر قد اتفقوا على تعيينك بموضع مصطفى باشا وبعثوني اليك، فاتسع الامر في عقله وقال له: كيف يكون ذلك؟ فقال له: انت لا تفكر

---

(1) راجع المرآة لحمدان عثمان خواجة.

في هذا الامر وابق بعيدا عنا الى وقت الحاجة ولا نحتاج منك شيئا فرضى بذلك، وخرج من عنده وذهب الى اصحابه وأخبرهم بما فعل، وانما هم فعلوا ذلك خشية أن يبلغه الامر، فلما كان يوم الجمعة الخامس من جمادي الثانية من سنة 1222 هـ/1807م ثار العسكر على الامير مصطفى باشا وقارا خزناجي فخرجا من دار الامارة هاربين الى ضريح الولي الصالح سيدي ولى داده العجمي، فعندما وصلا الضريح وجدا أن باب الزاوية قد اغلق عندما بلغ القائمين عليه أمر الهرج، فرجعا، ولما وصل الامير لزنقة (فرن الزناكي) لحق به العسكر وقتلوه ثم لحقوا بالخزناجي وقتلوه بين باب جامع كتشاوة وباب الحمام؛ ثم استقدم العسكر احمد خوجة وادخلوه لدار الامارة » (1)...

وفي الواقع ان مصطفى باشا قد تعرض للقتل اربع مرات، فالمرة الاولى كانت سنة 1214 هـ/1799م على يد رجل طموح الى الملك يسمى والي خوجة، فدبر مكيدة لقتل الباشا ولم ينجح فيها فقتل لحينه امام الباشا والثانية وقعت في السنة بعدها حيث سعى فيها رجل آخر يسمى علي خوجة فقتل من وقته كذلك، والثالثة حصلت سنة 1219 هـ/1804م اذ بينما كان الباشا في وسط العمال من الجند يتتبع اعمالهم في نحت الحجارة لبناء القلاع والحصون اذ هوجم من طرف شرذمة منهم فضربته بالحجارة حتى ادمته ودافع عنه اصحابه فردوهم عنه وقتلوهم ثم حملوا الباشا وادخلوه القصر ليلا وفي المرة الرابعة كان حتفه (2) والى هذا الباشا يعزى تجديد بناء جامع سيدي علي مبارك بمدينة القليعة واقامة منارة وانشاء الزاوية حول الضريح بعد أن حطمها الزلزال الهائل سنة 1217 هـ/1802م، وهو الذي أمر باحداث 200 مركب بحري من نوع اللنتشون، وعلى عهده بلغت وحدات الاسطول الجزائري الى 66 سفينة كلها كانت من ذوات 25 - 80 مدفعا.

ولاية الداي احمد خوجة الخيل:

وهو احمد بن علي خوجة داي، استلم مقاليد الحكومة الجزائرية يوم الجمعة

---

(1) الاستاذ احمد توفيق المدني: مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار ص 88 - 89 ط الجزائر 1974م.

(2) مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار ص 80 81 82 88 89 ط الجزائر 1974م

5 جمادى الثانية 1220 هـ/ آخر شهر أوت 1805م، قضى على باقية البقية من آثار الفتنة التي كان أن قام بها الدرقاويون سنة 1219 هـ/1804م واخمد نار الثورة المشبوبة بنواحي بلاد زواوة وبالجنوب الوهراني أيضا، وكان لسوء سلوك باي قسنطينة عبد الله بن اسماعيل ان اجرى عليه الداي حكمه بالاعدام فأعدم.

وكان من أوليات اعمال هذا الداي فيما يتصل بالسياسة الخارجية أن طالب امريكا بانجاز التزاماتها نحوالجزائر فلم تفعل، وحينما انكشف له غدرها وعدم وفائها لمعاهدة سنة 1210 هـ/1795م اعلن عليها الحرب سنة 1222 هـ/1807م وكان من أوليات النتائج لهذه الحرب أن وقع القاء القبض على ثلاث سفن أمريكية بحمولتها وربابنها، وهنا لم يسع القنصل الامريكي العام بالجزائر وهو المسمى ليار Lear الا ان يعجل باقتراض النقود من اليهودي الجزائري (باكرى) ودفعها للخزينة الجزائرية على ان يحصل باكري على ارباح كبيرة لهذا القرض من الحكومة الامريكية وبذلك عادت العلائق السياسية بين الحكومتين الى مجراها الطبيعي وان سادها التوتر فترة من الزمن (1808 - 1812م) [1]

وثوب قرصان الجزائر

لقد تبرم القرصان الجزائريون لبنود معاهدة فرنسا المنعقدة مع الحكومة العثمانية اثر انهزام حملة نابليون عن مصر وتقهقره الى بلاده (1216 هـ/1801م) اذ وجدوا فيها ما يمس بالشرف، ولا سيما منها ذلك البند الرابع الذي ينص على احترام زائد لمصالح فرنسا في كل من مجال الملاحة والتجارة بسائر انحاء المملكة العثمانية من غير أن تراعى في ذلك مصلحة الجزائر ولا أن يحسب لها أي حساب[2] فشق عليهم ذلك وتأكد أمر هذه المعاهدة بابرام داي الجزائر اتفاقية مع نابليون الاول - بونابرت - بتاريخ 11 شعبان 1216 هـ/17 ديسمبر 1801م واخرى بين نابليون وباي تونس بتاريخ 23 فبراير 1802م وكلتاهما تقضي باحترام سفن فرنسا التجارية كما كان الشأن في زمن السلطان سليمان القانوني

---

(1) مجلة المعرفة عدد 16 سنة 1964 م.

(2) راجع محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ص 185 ط القاهرة 1896 م.

فعظم كل ذلك على القراصنة وكان هذا باعثا لهم على الوثوب ضد المراكب الفرنسية المتجولة بهذا البحر دفاعا عن كيانهم وحقهم المتعارف المشروع، وكان لعملهم هذا رد فعل لدى الحكومة الفرنسية فأخذت في التضيق على كل من وجد بفرنسا من الجزائريين بمصادرة املاكهم وحجز أموالهم والقاء القبض عليهم الخ... ويومئذ انتزعت مراكز استخراج المرجان بالقالة وبونة - عنابة - من يد الفرنسيين بعد أن تداولتها قرابة ثلاثة قرون. (1520 - 1806م) خمس شركات فرنسية وحلت محلها شركات انكليزية وايطالية.

المنشآت والمراكز التجارية الاجنبية بالجزائر:

يجد القارىء تحت هذا العنوان ملخص سير احتكاك الاجانب بالمغرب الاسلامي والكشف عن نواياهم المبيتة ضد هذا الوطن العربي المسلم رغم تظاهرهم وتبجحهم بالاقتصار على الاعمال التجارية المزعومة، ولكنه في الواقع هو الجشع والطمع والحقد والغيظ الكامن في صدورهم نحو البلاد والممالك الاسلامية.

ولقدتغيرالموقف السياسيفي غربيالبحر الأبيضالمتوسطوتطور تطوراًخطيراً خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر - الميلاديين - حيث اخذت اسبانيا بعد قيام ثورة مستعمراتها ضدها وهزيمة اساطيلها امام القوات الانكليزية تهوى من الاوج الذي كانت تعيش فيه، في حين أن قوة فرنسا البرية والبحرية أخذت تظهر، ومن ثم استراح المغرب الاسلامي من منافسة الاسبان وعدوانهم ولكنه أخذ يستقبل نشوء عدوان جديد في شخص فرنسا، وبدأ ثغر مرسيليا يأخذ طريقه في النهوض فكان أهله يقومون بمغامرات واعمال تجارية متنوعة مهتمين بحماية مراكبهم الفرنسية وكان الانكليز قد تفوق عليهم في أمريكا وفي الهند فسد عليهم سلوك هذه السبيل، ومن ثم لم يجد تجار فرنسا وقراصنتها ميدانا خاليا من المزاحم غير ميدان المغرب الاسلامي فاتجهوا نحوه وأخذوا في الضغط عليه شيئا فشيئا بقدر ما كانت تفقده دولتهم من مستعمرات واسواق عبر البحار الاسيوية الامريكية.

وفي أوائل القرن السابع عشر تمكن أحد تجار مرسيليا المطلعين على احوال المغرب العربي العارفين بوضعياته وتقاليد أهله، وأصل هذا التاجر من

كورسيكا واسمه سانصون دي نابليون - تمكن من الاتصال بمقصده في نيل غرضه من خيرات هذا الشمال الافريقي ولا سيما منه تونس والجزائر فحصل على تصريح من الدولة التونسية لاقامة محرس تجاري حصين على الساحل الافريقي نظير ضريبة ضئيلة لا تتجاوز 160 دينارا سنويا، وذلك ما عرف بعد باسم الباسطيون Bastion المحرم 1038 هـ/آخر سبتمبر 1628م) ولقد بذل في الحصول على ذلك اموالا كثيرة بطرق مختلفة، فاحتكر بذلك صيد المرجان، ولم يكن ليؤذن له في هذا التصريح باتخاذ حصون مسلحة او قيام بأمر آخر من شؤون البلاد غير صيد المرجان، ولكنه خالف ذلك فاستعمل الباسطيون كمركز للاستطلاع والتجسس ومد يده الى تصدير القمح وتناولت أعماله متاجر شتى من بلاد المغرب.

وكان الايطاليون ومعظمهم من أهل جنوة قد حصلوا قبل ذلك على اذن خاص من طرف خير الدين بنزول جزيرة طبرقة فاستقروا بها واتخذوا بها مراكز كثيرة لتجارتهم المتنوعة ومنها صيد المرجان فساءهم بل اسخطهم ما حصل عليه الفرنسيون على يد سانصون من الترخيص له باقامة الباسطيون، فدبروا ضده مكيدة انتهت بقتله والتمثيل بجثته (ذو القعدة 1042 هـ/ ماي1633م).

وبهذا تغير ميدان الصراع بين المتزاحمين، فانه بعد ما كان بين الفرنسيين والاسبان اصبح الان بين فرنسا وأهل جنوة الايطاليين، وأخذ يومئذ الفرنسيون في بذل وسعهم للتخلص من هذه المنافسة الجديدة كي يخلو لهم غرب البحر الابيض المتوسط واشتد النزاع بين هؤلاء وهؤلاء حتى أقلق بال حكام الجزائر فصادروا جميع منشئات الاروبيين حيثما كانت من هذا الساحل (شعبان 1047 هـ/ديسمبر 1637م) ولكنهم لم يلبثوا أن سمحوا لشركة فرنسية من مرسيليا بمنحها امتيازات concession اذن فيها للشركة باقامة منشآت جديدة لحماية اموالها وارواح اصحابها.

ولم يكد يبلغ أهل مدينة ليون خبر ما حصل عليه اهل مرسيليا من هذه الامتيازات الجديدة حتى خف هم الاخرون بدورهم ايضا الى ابداء رغباتهم في الحصول على مثل ذلك من الحكومة الجزائرية فجرت منازعات طويلة بينهم وبين أهل مرسيليا في هذا الشأن، وانتهى الامر بحصول اهل ليون على نفس الامتيازات التي كان حصل عليها سانصون من قبل، وامضى اتفاق بهذا

القرار بين الجانبين (جمادى الاولى 1106 هـ/أول جانفي 1694م) واستعمل هذا الاتفاق كأساس لجميع المعاملات التي انشئت بين الجزائر وفرنسا 1167 هـ/1754م وكان من المقرر المنصوص عليه في جميع هذه الرخص أو الامتيازات ان يقتصر هؤلاء الاجانب على التجارة فقط بدون تعرض أو تدخل منهم في شؤون البلاد السياسية.

بيد انه لم يقدر لهذه الحال أن تستمر طويلا ولم يقدر لهذه الهدنة ان يرضى عنها أحد من الطرفين، بل لم يرض عنها حتى أهل المغرب انفسهم لانها حرمت عليهم ما يكسبونه من الاسلاب عن طريق مهاجمة السفن المعادية في عرض البحار وكانت الدولة الجزائرية تفيد كثيرا من الاموال التي تجبيها من القراصين والتي تستفيدها مما يجلبه بعض محترفي الملاحة على حسابها فكان لذلك الملاحون من أهل المغرب يفضلون حالة الحرب على غيرها رغم ما فيها من اخطار، وأما دول أوربا فانها كانت اذ ذاك تتظاهر في موقفها العدائي ضد الجزائر على أنها تعمل على استنفاذ الرقيق.

وأخذ الرأي العام الاوروبي في مختلف البلاد يهاجم سياسة عقد الاتفاقيات مع بلاد المغرب وأخذت حكوماته تحت ضغط الكنيسة والرأي العام المسيحي تترصد فرصة التخلص من هذه الاتفاقيات لشن غاراتها على دول المغرب الاسلامي.

ومعلوم أن هذه المعاهدات أو الاتفاقيات الدولية لم تكن لتعقدها الجزائر مع الدول الاجنبية في آن واحد، بل كانت الدولة الجزائرية لا تعقد اتفاقية الا مع دولة واحدة او دولتين فقط وتشتد على غيرها في اعمال السلب والقرصنة، فحينما عقدت الجزائر صلحا مع ريتر Ruyter الهولاندي (1073 هـ/1663م) كان معنى ذلك نقض الاتفاق مع فرنسا وتوجيه اعمال القرصان نحو السفن الفرنسية، وكما كان معنى التحالف مع لويس الرابع عشر (1080 هـ/1670م) هو اعلان الحرب على الانكليز والهولانديين معا، وكان معنى الاتفاق مع الانكليز سنة 1092 هـ/1681م هو اعلان للحرب على السفن الفرنسية، وهكذا استمرت القرصنة في طريقها تؤذي الجزائر اكثر مما تؤذي الدول الاخرى بسبب

ما تقيمه نحو بلادها من العداء الشديد[1]

احتدام الحرب بين تونس والجزائر:

لقد كان لحكومة الجزائر نوع من السلطة على حكومة تونس بسبب ما قامت به الجزائر نحو ولاة هذه الحكومة من ايواء الاخوين محمد باي وعلي باي بعد مقتل والدهما علي باشا في حوادث ولدي حسين باي تونس (1159 هـ/1746م) وبمساعدتها للاخوين المذكورين بمديد المساعدة لهما وأمدادهما بالذخائر أيضا، ولقد بالغ حكام الجزائر في هذا التسلط الى أن بلغوا حد التضييق على اقتصاديات البلاد التونسية والاضرار باسواقها والتحكم في حكامها ولم يكن من اخلاق الملوك ولا من طبيعة الرؤساء احتمال الضيم، فاعلن الباي ابو محمد حمودة باشا رفضه لهذا التسلط والغى كل ما كان بينه وبين داي الجزائر من حرمة أو تقدير وأظهر ذلك جليا بامتناعه من أداء الضريبة المقرر دفعها لخزينة الجزائر وقدرها حسب نص المعاهدة المعقودة مع دايات الجزائر في وقعة سمنجة السالفة الذكر: الف سكة مع هدايا اخرى من زيت وغيره.... وزاد على ذلك فارتكب عملية عدائية اخرى اذ آوى اليه أحد العصاة المتمردين ضد الحكومة الجزائرية وهو الحاج مصطفى باي قسنطينة المعزول يومئذ - الملقب بالانكليز - وذلك منذ شهر المحرم 1218 هـ/ماي 1803م بل ولم يقتصر حمودة باشا على هذا فقط، بل أضاف الى ذلك طرد جميع الجزائريين المقيمين هنالك بتونس وأخذ في تعذيب الاسرى منهم، ويومئذ وجه داي الجزائر الى تونس من يفك الاسرى ويفتد بهم ويستخلص الضريبة المقررة فامتنع الباي وأبى أن يمتثل لذلك بل اعلن نقض المعاهدة تماما ويومئذ استولى الجزائريون على مركبين أو ثلاثة من مراكب تونس وحينئذ تحرك الحاج مصطفى - الملقب بالانكليز - من تونس وأخذ يزحف بجيوشه نحو الجزائر لاسترجاع قسنطينة بمساعدة باي تونس وذلك يوم السبت منتصف ذي القعدة 1221 هـ/24 جانفي 1807م الى ان اقترب من قسنطينة واشرف على الاستيلاء عليها فاعترضته جيوش الجزائر وقاومته طوال شهر كامل مقاومة عنيفة فانهزم الى تونس واستولى اهل الجزائر

---

(1) الشرق الاسلامي ج 1 ص 302و Charle Andre julien, Histoire de l'Afrique du nord p: s 548 paris 1931

على ذخائره وأسروا عددا من جنده (الاحد 24 صفر 1222 هـ/3 ماي 1807م.

ويومئذ انبرى باي تونس لتجهيز جيش عرمرم يحتوي على سبع وخمسين الف مقاتل ويشتمل على عدة فرق من الجند فيه من المخازنية ومن المزارقية وفيه الفرسان والرجالة الخ... وجعله تحت تصرف يوسف صاحب الطابع وبعث به نحو الجزائر في ثلاث دفعات، بعضه خرج يوم الجمعة 1222/3/21هـ وبعضه يوم الجمعة 4/5 وبعضه يوم الاحد 4/31 و(5/29 و1807/6/28م) وكان اللقاء بين الصفوف على ضفاف نهر سراط أو هو كما سماه ابن ابي الضياف سلاطة.... أو هو سطح المنصورة، والخيانة وقعت من طرف قيادة الجيش الجزائري انتصر اهل تونس واستولوا على جميع مخلفات الجزائريين المنهزمين [1] وكانت هنالك دسائس أو هي حقائق اعلنت ضد باي قسنطينة أوغرت عليه صدر الداي فنقم عليه وقتله خنقا وولى مكانه على شاوش ثم قتل علي هذا ايضا مع الباشا آغا حسن أثر مؤامرة دبرت ضدهما من طرف احمد شاوش الذي كان لاجئا بأرض القبائل منذ حادثة وادي الزهور فنصب نفسه واليا على قسنطينة في مكان باي وكتب بذلك الى باي تونس يستشيره ويستنجده ضد حكومة الجزائر ثم نهض المسكين يزحف نحو العاصمة فقبض عليه الداي وقتله. وهنالك بدأ عزم الحكومة الجزائرية على اعادة الكرة على تونس بذلك اهل الحاضرة فاستعدوا للدفاع عن حوزتهم بقيادة الوزير يوسف صاحب الطابع وخرج معه يومئذ سليمان كاهية وطائفة عظيمة من فرسان المخازنية والمزارقية و أهل العروش وتخطوا وادي سراط يوم الاثنين 18 ربيع الثاني 1223 هـ/1808/6/13م ولما رأى الجزائريون كثرة عدد الجيش التونسي احجموا عن الهجوم وعادوا من حيث أتوا.

ويومئذ حاول الدرقاويون تجديد حركتهم الثورية بالجزائر فهزمهم باي وهران (بوكابوس)، وتقول دائرة المعارف الاسلامية (ج9ص 201) ان هذه الحروب الدرقاوية هي التي أفسحت المجال في هذه الفترة لسلطان المغرب المولى سليمان فغزا فيجيج عام 1805م وكورارة وتوات سنة 1808م وانتزع من الترك جميع بقاع الجنوب الشرقي من اقليم وهران. ثم وقع الصلح بين أهل تونس

---

(1) انظر تاريخ ابن ابي الضياف ج 3 ص 37 - 50 ط تونس 1963م.

والجزائر (رمضان 1223 هـ/نوفمبر 1808م) وفي اثناء ذلك حدث بين الحكومتين الجزائرية والفرنسية ما ساءت به العلائق بينهما فانتزع الداي يومئذ مراكز القالة من يد فرنسا وسلمها للدولة البريطانية فرفع تجار تلك النواحي الشرقية احتجاجاتهم ضد هذا الصنيع.

وأخيرا ظهر في نواحي من سياسة الداي بعض الخور والضعف في التسيير واصبحت المناصب والمراكز الدولية الكبرى بيد السماسرة تباع في الاسواق بالمزاد، فاستبق الجيش الى القبض على زمام الحكم واكتسب بذلك نوعا من السلطة المطلقة فانتشرت الفوضى وكثر الفساد وعم الظلم والجور بين الرعية والجند وثار الجند ضد رجال الحكم فقبض على الداي وخلعه من منصبه ثم قتله يوم 15 رمضان/5 نوفمبر 1223 هـ/1808م)
وسحب شلوه على انهج الجزائر وشوارعها كما فعل هو بشخص مصطفى باشا قبله اهانة له وتحقيرا لشأنه وكان له أملاك فخمة بالعاصمة منها هذا القصر القائم اليوم بنهج «الحاج عمر» المعروف بدار احمد داي تجاه المحكمة الشرعية قرب جامع كتشاوى.

ولاية الداي علي بوجوالق:

هو علي بن محمد بوجوالق وكان يعرف بالغسال لكثرة سفكه الدماء، كانت ولايته سنة 1223 هـ/1808م وكان فيه خور وضعف في تسيير شؤون الدولة والحكم فتسلط عليه فريق الانكشايرية حتى اصبح الة مسخرة في ايديهم يسعى دائما في انجاز رغباتهم كما في المرآة لحمدان عثمان خوجة؛ ولم اطلع فيما وقفت عليه من مصادر التاريخ ما يهم من الاحداث بالجزائر على عهد الداي سوى ما حدث في سنته الاولى من ولايته من تمهيد فرنسا لاحتلال الجزائر، وذلك أن نابليون بونابارت الاول أبرم معاهدة سرية ضد الجزائر مع امبراطور روسيا في تلسيت (tillsitt) جويلية 1807م وطلب الى الكولونيل بوتان Boutin المهندس العسكري بعقد سياحة استكشافية في عامة القطر الجزائري لدراسة طوبوغرافية البلاد ومعرفة أحوالها وجمع معلومات عن مدينة الجزائر وضواحيها خاصة وكان الامر كذلك فجاء هذا المهندس الجاسوس الى الجزائر (1808) وتعرف الى الاسر اليهودية وعلى الاخص منها اسرة بن زاحوط فكانت له خير معوان ومساعد

نصوح للقيام بمهمته، فدرس احوال المدينة - العاصمة - ومواقع حصونها وجميع منشآتها كما انه حقق النقاط الاستراتيجية منها ثم عاد الى بلاده يحمل معه تقريرا مفصلا الى الامبراطور الفرنسي مزودا بحقائق وتفاصيل مدققة ومعلومات جامعة هامة عن الجزائر بما فيها ثم كان مصير تقريره هذا من محفوظات وزارة الحربية.

وأنه لمن المفيد جدا أن نشير الى أهم النقاط الواردة في هذا التقرير نظرا لاستخدامه واستعماله في الحملة الفرنسية ضد الجزائر سنة 1246 هـ/1830م فكان فيما أوصى به هذا التقرير: الحضّ على ضرورة القضاء على حكومة الداي لصلحة فرنسا، وقدر قوات الداي العسكرية في ايام السلم بخمسة عشر ألف نسمة قال ويمكن زيادتها الى 60ألف جندي عند نشوب الحرب ودعا الى ضرورة انشاء حكومة (متحضرة) في هذه المنطقة من البحر المتوسط المواجهة لفرنسا، وارسال المزارعين الاوروبين لتعميرها - كما نفذ ذلك بالفعل - ولم يوافق بوتان على الفكرة الشائعة آنذاك من امكانية اثارة شعور العرب ضد حكامهم من الاتراك مستدلا بالتضامن الذي تجلى أمام الحملة الاسبانية سنة 1189 هـ/1775م ولكنه قال: انه من الممكن استمالة رجال الطرق الصوفية [1] وذلك لما رآه في بعضهم من السخط والتبرم ضد الحكم التركي.

والى هذا الداي كتب نابليون الاول يستمد منه العون (بصيغة التهديد) فهو يقول في خطابه الموجه في ذلك الى الداي: «ان لم ترضني وتجب مطلبي فاني انزل ارضك بثمانين الف جندي وأهلك ملكك انت واهلك وحاشيتك!..» فكانت منه هذه نواة لرسم خطة غارة فرنسا على الجزائر سنة 1246 هـ/1830م[2]. كما يتضح ذلك فيما يأتي

وفي هذه السنة نفسها - أي السنة التي وقع فيها تعيين الداي بوجوالق على الجزائر - ابعد البطل البحري الجزائري الشهير الرئيس حميدو فذهب الى الشام، وكما وقع اضطراب عظيم في صفوف الجند التركي يومئذ بسبب تخلف

(1) المغرب العربي للدكتور صلاح العقاد ص 49 ط القاهرة 1962م.

(2) reconnaissance générale des villes fortes et Batteries d'Alger ouvrage suivi des memoires sur Alger par les consuls de kercy (1791) et Dubois thanville (1809).

الداي عن تسديد مرتبات الجيش، ولم تطل حكومة هذا الداي بحيث لم تزد ايام دولته عن اربعة أشهر، فقتل خنقا أو شنقا آخر شهر ذي الحجة 1223 هـ/7 فيفرى 1809م على يد مزاحمه الحاج علي.

ولاية الحاج علي الشريف داي:

وهو المعروف بلقب «خداويردى» تولى رئاسة حكومة الجزائر فتبوأ منصب داي يوم السبت 18 المحرم 1224 هـ/ 3 مارس 1809م.

ومن فواتح اعماله انه شمل بعفوه الرئيس حميدو واستقدمه من منفاه وأقام له يوم مقدمة حفلة استقبال باهرة وأسند اليه رئاسة امارة البحرية، فغزا حميدو سواحل العدو الشرقية منها والغربية فغنم مركبا برتغاليا كان بجبل طارق ومراكب اخرى بسواحل صقلية. وفي سنة 1225 هـ/1810م كان بالجزائر 615 اسير برتغالي، فتوسطت بريطانيا لاطلاق سراحهم بان تدفع دولة البرتغال مبلغ 690337 دولاراً فدية فنجحت في توسطها.

وظهر في هذه الاونة الشريف الدرقاوي بنواحي بني يزناسن محاولا اعادة الثورة ضد نظام الحكم التركي فهزمه باي الغرب محمد بوكابوس، وفر الشريف الى حيث لا يدري مكانه كما مر تفصيله.

غزو تونس

نقم الداي على نص معاهدة الصلح المبرمة ما بين تونس والجزائر سنة 1223 هـ/1808 فلم يرضى عنها وحاول نقضها بشتى الوسائل فلم ينجح وأخيرا بعث بأسطول لمهاجمة تونس يحتوي على اربعة عشر مركبا حربيا وجعله تحت قيادة الرئيس حميدو فاصطدم بمراكب تونس 1226/4/14 هـ/1811/5/7م وبعد معركة دامت ست ساعات استولى حميدو على سفينة أمير البحر التونسي محمد المورالي المحتوية على ثمان وثلاثين مدفعا ثم تقدم الى جزيرة جربة.

ثم كانت بالقرب من جزيرة قرقنة معركة بين الاسطول الجزائري وثلاثة عشر مركبا تونسيا انتصر فيها الجزائريون أيضا واحتلوا في السنة بعدها خليج حلق الوادي وتدخل الباب العالي في تهدئة الطرفين فلم ينجح وانقطعت تونس عن دفع الدنوش وتسديد الضرائب للجزائر وفي يوم الخميس

1227/7/13هـ/1812/7/23م جهز داي الجزائر حملة ضد تونس لتخلفها عن تسديد المبلغ الملتزمة به ودعا الى معاضدته على ذلك أهل ولايتي قسنطينة ووهران، ولما أخذ القوم في السير متوجهين نحو تونس وكان لاسباب شخصية او لأغراض اخرى ان انعزل عنهم باي الغرب محمد بوكابوس، مقلدا في ذلك أهل قسنطينة وقد كان مزمعاً الانفصال عن الحكومة المركزية متوقعا نصرة سلطان المغرب له، فغدر الغزاة بقادتهم الاتراك وقتلوا منهم عدداً كبيراً من بينهم رئيسهم المسمى علي باي والباش آغة حسن وأمروا عليهم احد الجند المدعو احمد شاوش المشهور بلقب القبائلي - لطول اقامته ومكثه ببلاد القبائل - وبادر عمر آغة فقتل الباي بوكابوس وبعث بشلوه الى الجزائر فصلب (بالباب الجديد) وتولى مكانه على ولاية الغرب الباي علي قارا بغلي، وما لبث الامر على ذلك حتى بدا الخور الضعف في الجيش الجزائري المتوغل منه في التراب التونسي والملتحق بحلق الوادي ايضا وهو الذي صده الوزير التونسي يوسف صاحب الطابع عن تونس في مائة وخمسة وسبعين شونا وفي كل شون مدفع واحد أو مدفعان وانتشرت بينهم الفوضى والاضطرابات وعمهم القلق من جراء تغير الموقف بالجزائر فانسحب الاسطول الجزائري من تونس وأحجم الجيش عن تتبع الغزو هناك وعاد من غير طائل سوى ما انتهبه من مراكب التجارة التونسية فلحقته كتائب تونس محاولة الهجوم على قسنطينة فردها محمد نعمان [1]

وقد ظل هذا النزاع متوترا بين تونس والجزائر الى ان توسطت حكومة استانبول في رفع الخلاف بينهما في سنة 1232هـ/1817م كما ستقف على ذلك فيما يلي:

ولقد كان في سنة 1227هـ/1812م ان توترت العلائق بين حكومتي الجزائر واسبانيا، وذلك بسبب حلول مركب اسباني بميناء بونة - عنابة حاملا معه خليطا من القرصان. كان فيهم فرنسيون وايطاليون من أهل جنوة ونابلي وسردانيا، وهو الى ذلك في وضعية مشبوهة وغير قانونية فاشتد معه القائم بنظام البحرية الجزائرية واتهمه بالاعتداء الذي كان قد وقع من قبل على مركب من المراكب ونشأ عن ذلك خلاف بين البلدين ولم ينته أمره الا بعد سنة

(1) راجع Alphonse Rousseau - Annales tunisiennes, Alger 1864

1242هـ/1827م، واستمر النزاع الى ما بعد الاحتلال الفرنسي ثم ظهرت براءته وثبت الاعتداء هذا في جانب قرصان سردانية.

غزو الثغور الافرنجية المعادية:

انطلق الاسطول الجزائري في هذا البحر متوجها الى غزو الثغور الافرنجية بقيادة الرئيس حميدو (1228هـ/1813م) فغنم في مسيرته هذه مراكب مشحونة بالسلع كانت للدانمارك والسويد وغنائم من مراكب البرتغال ثم والى مسيره الى بلاد اليونان فهاجمها هجوما عنيفا واستولى هنالك على مراكب كثيرة أغريقية وتكررت عملية غزو مراكب اليونان، ثم اعادها الى اصحابها حسب الامر الصادر بذلك من دار الخلافة باستانبول، وفي هذه السنة أبرمت معاهدة صلح بين حكومة الجزائر والبرتغال على ان يؤدي هؤلاء للجزائر اتاوة تقدر بمليونين ونصف مليون فرنكا علاوة على مبلغ القيمة التي قدموها لافتداء اسراهم.

اندلاع لهب الثورة القومية:

وهكذا ظل الشعب الجزائري تجاه سلطة الحكام المستبدين من الاتراك قائما على قدم العزة والكرامة لا يستكين لخسف أو ذل، فمهما لمح فرصة تخول له النهوض لتقويض عرش المستبدين بحكومة بلاده التي اصبح غريبا عنها ويدعى فيها منعوتا من طرف بعضهم باسم - البراني - يعني الاجنبي، لا يقام له وزن ولا يحسب له حساب ولا يذكر له اسم في حضور أو غياب، الا وانتهزها، وكان لم يزل مهما شعر من أحد أيا كان باهانة أو زراية او احتقار لشأنه الا ونشط وهب متوثبا للاخذ بحقه الضائع والانتصار لكرامته، وكان من وثباته تلك الثورات القومية التي حدثناك عنها فيما سلف وما سنطلعك عليه فيما يأتي.

ومنها هذه الثورة الاخيرة التي نشبت بناحية الاغواط وبادية الحضنة بسبب الجازر التي ارتكبها محمد تشاقر باي قسنطينة والتي عجز عن اطفائها الباي جعفر والي تيطرى وامتد لهيبها الى نواحي سطيف والمدية وبوسعادة وانضم اليها الزعيم بوترفاس فشن غارته بناحية المزيردة بقرب ندرومة 1229هـ/1813م ولم يكن ليخبو سعير هذه الحرب حتى تضافرت على اخمادها كل من قوات مدينة الجزائر ووهران وشارك فيها الداي بنفسه فخاض غمارها فانطفأت.

تلاعب اليهود بالاقتصاد الجزائري:

بناء على التفويض الذي حصلت عليه شركة باكرى أو بوخريص اليهودية من طرف الداي في التعامل التجاري مع الخارج استظهرت هذه الشركة سنة 1229هـ/1814م بأوراق تشتمل على حساب مبلغ الديون المترتبة على دولة فرنسا من قبل شراء حبوب البر متدرعة بما للحكومة الجزائرية في هذا الدين من قسط ثابت أو سهم مقرر، والواقع أن حكومة الجزائر كانت منخدعة لهذه الشركة منقادة لتدبيرها في تسيير دفة الاقتصاد بهذه البلاد فضاع بذلك الكثير من حظ الجزائر وقسطها الاوفر... وبالغتاليهود يومئذ في أشرها وبطرها والعبث بأوضاع البلاد والتهاون أو للاستهانة بنظام الحكم والسخرية من تقاليد البلاد الى حد أنها اتخذت زي الاشراف من آل البيت الذي كان أهله يمتازون بلباس العمامة الخضراء [1] فجعلته من لباس نسائها.

ويومئذ قبضت السلطة على أعيان اليهود وعلى من ثبتت ادانته بمشاركة هؤلاء بالمعاملة في التجارة بالحبوب ومن بينهم باي قسنطينة احمد طبال ففتكت بهم (1226هـ/1811م) وفرضت على بقايا الاقلية اليهودية ضريبة باهظة تضارع ما ثبت في ذمتها من التلف، ثم اخذت الحكومة في تعديل العملة وتغييرها فكسرت السكة ورفضت النقود وانقصت ربع الريال وضربت بعد ذلك عملة جديدة.

خيبة مشروع الاميرال سدني سميث:

ففي شهر اغسطس 1814م قدم الاميرال البريطاني سدني سميث مذكرة او هو بيان بخصوص الحكومة الجزائرية الى هيئة الدول المتحالفة التي انتصرت على فرنسا وحروب نابليون وذلك نظرا لاتصال هذا الاميرال بمنطقة البحر المتوسط ابان الحروب النابوليونية ولقد اشتملت هذه المذكرة على عدة مبادىء

---

(1) كان أول من امر بامتياز آل البيت بهذا الزي هو سلطان مصر: شعبان بن حسن بن قلاوون احدثها سنة 773هـ/1371م وفي ذلك يقول الشاعر:

جعلوا لابنـــاء الرسول علامـــة ... ان العلامـــة شأن من لم يشهر
نور النبوة في وسيم وجوههم ... يغنـــي الشريـف عن الطراز الاخضر

هامة منها ضرورة قيام اوروبا بعمل جماعي ضد قرصنة المغاربة لان فرسان مالطة لا يستطيعون تحقيق هذه المهمة ولا يعني هذا التدخل الاوروبي احتلال الجزائر وانما يكتفي بتحطيم حكومة الدايات القائمة يومئذ واقامة حكومة أخرى في الجزائر ترعى المبادىء المتبعة بين الدول المتحضرة... ولتحقيق هذه الخطة اقترح سدني سميث تأليف قوة بحرية مشتركة وأبدى رغبته في ان يكون هو قائدها ولكن اتفقت كل من انجلترا وفرنسا عند انعقاد مؤتمر فينا (1231هـ/1815م) على رفض المشروع، وذلك بالنسبة لفرنسا فالسبب واضح وهو أنها خرجت من حروب نابليون مستضعفة، وأما بالنسبة لبريطانيا فانها كانت لا تزال اذ ذلك تحتفظ بسياستها التقليدية التي تفضل بقاء النيابات أو قل الايالات أي - حكومات شمال افريقيا - حتى لا يتعرض شمال أفريقيا لحالة من الفوضى تمكن فرنسا من اخضاعها دون عناء، لذلك اكتفى المؤتمر في قراراته النهائية في يونيو 1815م بوضع مبدأ عام يحرم القرصنة واسترقاق المسيحيين في المغرب ضمن سياسة عامة تهدف الى الغاء عادات القرصنة والرق في العالم[1] بدون أن تدعى الحكومة الجزائرية للمشاركة في المؤتمر أو تستشار في الموضوع على الاقل وهو موضوع يمس بها كما يمس بغيرها من قراصنة اوروبا.

عداء أمريكا:

مما لا يغرب عن ذهن القارىء المتتبع لسير سفينة التاريخ الجزائري أن هناك معاهدة هدنة وسلم انعقدت بين دولة الجزائر وامريكا سنة 1210هـ/1795م وكان أن التزم كل من الطرفين بشروط يجب عليه تنفيذها نحو الاخر، فأما الجزائر فانها بادرت الى تطبيق نصوص المعاهدة كما يجب ذلك في أوانه، واما امريكا فانها استمرت على تماطلها في انجازها لما التزمت به نحو الجزائر الى هذا التاريخ أي طوال خمسة أو ستة عشر سنة، وأضافت الى ذلك امتناعها من تقديم ما كانت تقدمه الى الخزينة الجزائرية من عروض ونقود وتحف كان يحضرها معهم ممثلو الولايات المتحدة لدى اقتبالهم بدار الامارة الجزائرية وهو ما يقدر بنحو أربعة آلاف شينكو وذلك ما كان يقول به غيرها من الدول نحو الجزائر كاتاوة اعترافا بسيادة الحكومة الجزائرية بهذا

(1) المغرب العربي للدكتور صلاح العقاد: ص 80 ط القاهرة 1962م.

الحوض من البحر الابيض وتفوقها فيه على غيرها من الدول وفي هذه المرة ترى الدولة الامريكية قررت في مجمعها الدوري المنعقد سنة 1229 هـ/1814م الغاء النظام المعمول به مع الجزائر منذ معاهدة (1210 هـ/1795م) ورفضت تسديد المبلغ المعهود وجاهرت بعصيانها هذا باعتداء اسطولها الذي كان يقوده الضابط الامريكي ديكاتور Decatur حيث اعتدى على سفينتين جزائريتين كانتا تتجولان بعرض هذا البحر قرب جبل طارق وكانت احداها تحمل على ظهرها الرئيس حميدو فاحاط بها الاسطول الامريكي بسفنه العشر وقذف بقنابله في وجهة السفينتين فتعطب مركب الرئيس واستشهد صاحبه هو ومن كان معه من البحارة وهم ثلاثون رجلا وذلك بتاريخ 9رجب 1230 هـ/17 جوان1815م وطورد المركب الثاني الى المياه الاسبانية فحجزته دولة الاسبان بموجب كونها ظفرت به داخل مياهها القانونية ولا يزال عندها الى اليوم ويومئذ بادرت الحكومة الجزائرية الى القاء القبض على سفير امريكا وانذار دولته بسوء العاقبة ان هي لم تعجل بالوفاء بالتزاماتها نحو الجزائر وهنا أترك الحديث للمؤرخ الفرنسي البير دوفولكس يروى لنا ما كتبه احد المساهمين الرئيسيين المباشرين بانفسهم لهذه الحملة الامريكية البحرية وهو المسمى « شالر » قنصل عام الولايات المتحدة بالجزائر اذ يقول:

« بعد المصادقة على معاهدة كاند وبعد ما رفض مؤتمر الولايات المتحدة المنعقد في دورته العادية فكرة التمادي في دفع الضرائب للجزائريين فانه أعلن الحرب عليهم واتخذ جميع الاجراءات اللازمة لكي يرسل الى البحر الابيض المتوسط قوة بحرية كافية اما لارغام الايالة على ابرام الصلح أو لضمان تجارة الجمهورية وحمايتها من جميع أنواع القرصنة، وبتلك المناسبة عينت رئيسا للجنة التفاوض من أجل السلم مع الجزائر ويساعدني في هذه المهمة النقيبان « بامبريدج » و « ديكاتور » قائد القوات البحرية المخصصة لانجاح المفاوضات، أبحرت من « نيويورك » في شهر ماي سنة 1815م مع السيد ديكاتور الذي يقود الاسطول الاول المكون من ثلاث حراقات وقارب وشبك وثلاثة مراكب أخرى، فوصلنا الى البحر الابيض المتوسط في بداية جوان، وفي اليوم السادس عشر من نفس الشهر التقينا بحراقة جزائرية واستولينا عليها في مرتفعات (رأس كات) وبعد ذلك بيومين التقينا بشبك كبير واستولينا عليه، وفي يوم

28 جوان وصلنا الى مدينة الجزائر ووفقا لتعليماتنا اقترحنا على الايالة الشروط التي يمكن أن تجدد بها علاقاتها السياسية مع الولايات المتحدة وتذبذب الجزائريون من جراء المفاجأة ، ولما كان جميع رياسهم متغيبين، وافقوا بدون نقاش تقريبا على شروط السلم التي امليناها عليهم، وتم التوقيع على المعاهدة يوم 31 جوان ، وفي مساء اليوم نفسه دخلت مدينة الجزائر كقنصل عام الولايات المتحدة وهو منصب عينني الرئيس لاشغله ان وقع السلم، لقد مرت هذه الاحداث بسرعة فائقة حتى انني لم أكد اصدق بما وقع... » وهنا يعلق البيرد وفولكس على ما كتبه « شالر » فيقول: « من البديهي أن السيد شالر في هذه الرواية يبالغ في تقدير مدى المزايا التي حصلت عليها امته لان ما جعل الجزائريين يحترمون المعاهدة لا يقل صعوبة عن الحصول على تلك المعاهدة، انه يخادع نفسه خاصة عندما تكلم عن سهولة الحملة ضد الجزائر.

ان غفلة الجزائريين وانخداعهم ومجيء الاسطول الامريكي فجأة في حين كان رياس الايالة كلهم متغيبين، كل ذلك يحط من قيمة بحرية الجزائر ، وفي حياة الشعوب كما هو الشأن في حياة الافراد فان الحظ يلعب دورا كبيرا ، وكان الحظ في هذه المرة أيضا قد ابتسم للامريكيين الذين تعودوا الاعتماد عليه، لقد وصلوا في الوقت المناسب عندما كانت قطع البحرية الجزائرية مشتتة في انحاء البحر الابيض المتوسط، ولو أن الجزائريين علموا بهذا الاعتداء وكان من الاكيد أن يخبرهم بذلك جواسيسهم لاستقبلوه استقبالا من نوع آخر ما في ذلك من شك، لقد كان اسطولهم يتكون في ذلك الحين من عشرين مركبا فيها خمس حراقات ومن عدد من الاشباك فلو جمع هذا الاسطول الى جانب حصون المدينة لاستطاع ان يقاوم الاميركيين وينتصر عليهم، وبالفعل فان الاسطول الصغير الذي يقوده الديكاتور لا يستطيع القضاء على حصون الجزائر لو هاجمها ... وبدون ان تنقص من قيمة البحرية الامريكية فاننا نستطيع القول بان الاحداث كانت تأخذ منعطفا آخر لو علم الجزائريون بالحملة، خاصة وانه لم يكن من السهل على الاسطول الصغير الذي وضع تحت تصرف السيد شالران يلقى درسا قاسيا لمدينة الجزائر – حسب ما قال – [1].

---

(1) البيرد وفولكس: الرئيس حيدو. تعريب محمد العربي الزبيري. المجاهد 13/625اوت 1972م.

وفيا بين (شوال 1229 هـ/ سبتمبر 1814م/ ورجب 1230 هـ/ جوان 1815م) تشكل مؤتمر فينا الدولي اتماما لمعاهدة باريس 1814م لوضع تسوية نهائية للمشاكل الاوروباوية التي نتجت عقب الحروب النابوليونية وقد كانت المناقشة تدور فيه حول وضع حد لتجارة الرقيق في شمال افريقيا وارغام الجزائر على مسالمة جيرانها وتدعيم سياسة فرنسا وتبرير نواياها حول احتلال الجزائر حتى يتخلصوا مما كانت تهدف اليه الدولة الفرنسية من التوسع الأوروبية. ويبدو ان اوروبا بعد ذلك اسفت على ادخال الجزائر في مناقشاتها واتخاذها لهذا القرار ولذلك يرى تغيير الخطة واضحا في مؤتمر فينا هذا بنفسه فقد تحولت سياسة الدول الاوروبية الى معاكسة سياسة فرنسا في مقاصدها التوسعية بحيث اضحت هذه الدول الثلاث انجلترا وروسيا والنمسا تقوم على ميدا العمل المشترك ضد حكومة الجزائر ولكنها اضطربت فظلت تتردد في كيفية تنفيذ هذه الخطة السياسية حتى اتيح لفرنسا في نهاية الامر ان تنفرد بمهمة تحطيم الحكومة الجزائرية (1246 هـ/1830م).

ثورة قبائل جرجرة واغتيال الداي:

ان كل من يستعرض تاريخ الاستعمار في اي مكان من هذا العالم فانه لا محالة يرى الاضطراب والقلق وعدم الطمأنينة والفتن بجميع انواعها واختلاف اشكالها فاشية في القوم المستعمرين في كل وقت وحين وحيثما وجدوا وهكذا قل في الجزائر ايضا منذ عرفها الاستعمار الاجنبي من اقدم العصور الى الآن، وقد مر بك تاريخ الرومان بهذا الوطن ومثلهم البيزنطيون والواندال الخ..... ولقد عرفت كيف آل امرهم وأمر الشعب الجزائري معهم اذ ذلك وقل مثل ذلك في هذا العصر التركي ايضا وقد علمت كيف كان موقف الاهالي سلبا وايجابا تجاه هؤلاء الاعاجم الاتراك في سائر العصور ومن هذا القبيل هذه الثورة القائمة بجرجرة من بلاد القبائل [1] (1230 هـ/1815م). وسببها قتل بعض السادة

(1) لم يكن هناك في تاريخ الجزائر قوم أو طائفة تعرف هكذا اجمالا باسم (القبائل) وانما كانت كل قبيلة تعرف وتدعى باسمها: صنهاجة - كتامة - مغراوة - هوارة - زناتة - نفزاوة - رواوة - تجين الخ... الى ان جاء دور الاتراك فاختصروا كل ذلك في اسم (القبائل) واصطلحوا عليه.

من الاسرة المقرانية الشهيرة فانتشبت اثر ذلك نار الحرب ضد نير الحكم التركي وانتهزها عمر آغة (المخلوع عن ولاية وهران) فرصة ثمينة للثأر من الداي فتآمر مع وكيل الحرج عبد الله واتفقا على اغتيال الداي فنفذا فيه المكيدة ذبحا أو اختنقوه خنقا بداخل حمام بعد أن احكموا غلق ابواب الحمام عليه ثم ذبحوه.، ويقال عن هذا الداي بأنه كان متعسفا في أحكامه سفاكا للدماء مستهينا برجال حكمه يحتقرهم ويزدري بآرائهم فانتقموا منه بهذه الكيفية، وكان ذلك يوم 11ربيع الثاني 1230 هـ/23 مارس1815م وهناك من يقول بأن الداي قتل تحت وابل من طلقات الرصاص [1] ومن مآثره العمرانية: انشاء باب الجهاد بمرسى المول العاصمة، وتجديد قنطرة وادي الحراش، وبناء المخازن التي بين البلد وبرج الفنار بالعاصمة وبناء جسر وادي شلف، (30رجب 1229 هـ/19 جويلية 1814م)

ولاية الداي الحاج محمد الخزناجي:

تولى منصبه هذا سنة 1230 هـ/1815م وقد ناهز التسعين سنة من عمره وكان من قبل يحتل منصب خوجة الخيل فكان محببا لدى الشعب الجزائري، لما قد كان ادخله من قبل على نظام الحكم من الاصلاحات والتحسينات الادارية الكثيرة في المجال المالي وغيره وبذلك حاز رضى الشعب وتقدير رجال الحكومة. وما كان يستقر على أريكة عرش الجزائر حتى بوغت من طرف مزاحمة عمر آغة فقتله يوم 27ربيع الثاني 1230 هـ/18افريل 1815م مثل ما فعله هو ايضا بسلفه ولم يكن لتزيد أيام حكم الداي الخزناجي عن احد عشر أو أربعة عشر يوما وقيل سبعة عشر يوما فقط، وتولى في هذه الاونة علي بورصالي ريثما تعين خلفه الداي عمر وان الحقيقة في الامر الذي كان سببا في قتل الداي محمد الخزناجي هو كما يذكر الاستاذ احمد توفيق المدني: ان الداي المذكور كان يعلم أن عددا كبيرا من الجندلم يكن له وجود وكان خزناجيا مدة طويلة واطلع على جلية الامر وعلم أن عددا من الموجودين كان يتسلم مرتبات ومخصصات الجند المفتعل فأمر عندما تولى الحكم بتصحيح دفاترالجيش والغاء مرتبات الذين لا وجود لهم

(1) عبد الجليل التميمي: بحوث ووثائق ص 236ط تونس 1972م.

فأثار أصحابه الفتنة وعلى رأسهم الاغا ثائرة الجيش ووقع ما وقع.[1]

ولاية الداي عمر بن محمد:

أصله من جزيرة ميتلان موطن الاخوين «بربروس» وكان لا يتكلم اللغة العربية، وبعد عشر سنوات من وصوله الى الجزائر تقلد منصب حكومة البلاد يوم الجمعة 28ربيع الثاني 1230هـ/ 10افريل 1815م. يقول ليون روش في كتابه ثلاثون عاما خلال الاسلام: انه روى مباشرة عن ولد عمر باشا - هذا نفسه - فحدثه بما يلي: قدم أبي من تركيا الى افريقيا على نفس المركب التي امتطاها محمد علي الذي اصبح باشا مصر، واتصلت بينهما الصداقة، وكانا قاصدين مصر معا، لاستخلاصها من الجيش الفرنسي، وأفضى كلاهما لصاحبه بمطامعه واحلامه، فقال محمد علي لعمر: لا يجب أن تكون معا في بلد واحد، لاننا لا محالة سنتصادم ونختلف، فأنا سأذهب لمصر، وانت اذهب الى بلد آخر، واتفقا على ذلك فكان عمر ممن قدم الى الجزائر.[2] وبلغ رتبة آغا، ثم منحه الباب العالي لقب بيلرباي وباشا، ووصفه قنصل فرنسا دوفال Deval لوزير الخارجية بتاريخ 16مارس 1816م فقال: يبدو ان عمر باشا يتمتع بشخصية هادئة ومفكرة وطبعه عنيف غير أنه عادل..[3]

وان أول ما يواجهنا من تاريخ الجزائر في ايامه هو تلك الحملة الشنعاء والاغارة الشعواء التي شنتها حكومة الولايات المتحدة الامريكية ضد الجزائر.

اذ لا يخفى وان امريكا امتنعت - كما تقدم بسطه - عن الاستمرار على تسديد الاتاوه التقليدية التي كانت تقدمها الى الحكومة الجزائرية سنويا وتصلبت في امتناعها هذا فأنذرتها حكومة الجزائر بأنواع من الانذار وتوعدتها بطرق من التهديد، فلم يزدها ذلك الا عتوا وطغيانا بل ومكثت تترصد الفرص للانقضاض على الجزائر حينما تسنح لها الفرصة، حتى جاء يوم ان غادر الاسطول الجزائري العاصمة في جولة تفقدية وهوجمت الجزائر (جمادي الثانيـة

---

(1) مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار ص 115ط الجزائر 1974م.

(2) احمد توفيق المدني: مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار ص 128ط الجزائر 1974م.

(3) الدكتور عبد الجليل التميمي: بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ص 237ط تونس 1972م.

1230 هـ/ مايو 1815 م) بثمان سفن يقودها الاميرال البريطاني اللورد ايكسموث Exmouth من طرف البولنديـــــين بست سفن ومن طرف الانكليز بمشاركة جم غفير من الفرنسيين الذين كان يرأسهم الضابط كاطور الفرنسي الاصـل، فكـان من المقـدر ان تصـادف الاسطول الجزائري بالاسطول الامريكي في مضيق جبل طارق، ودارت بينهما رحى حرب طاحنة (8 رجب/16 جوان) واستمر القتال بينهما طوال يومين كاملين وفي اليوم الثالث اسفرت الحرب عن استيلاء الامريكان على اعظم مركب جزائري وعن تحطيم آخر، واستشهاد الرئيس حميدو فيه كما سبقت الاشارة الى هذا فيما تقدم، وحينئذ تقدم الاسطول الامريكي الى مياه الجزائر وفاجأ العاصمة بحملة عنيفة يوم 19رجب/28 جوان فلم يسع الحكومة الجزائرية اذ ذاك الا الرضوخ للمفاوضة في شأن تعديل شروط العلائق مع أمريكا والاذعان لقبول مقترحاتها، وأبرمت في ذلك مع اللورد المذكور اتفاقية سنة 1231 هـ/1816 م الشهيرة على مدة ثلاث سنوات وكان من اهم محتوياتها صدور العفو العام عن جميع الاسرى الامريكان وابطال عقود الضرائب والاتاوات التي كانت مفروضة على امريكا نحو الجزائر، والغاء نظام اسر المسيحيين وتسليم عشرة آلاف دولار تعويضا لامريكا عن الخسائر التي لحقتها في هذه الحرب دون ان تحصل الجزائر على تعويض ما، بل انها تعهدت للجمهورية الامريكية الجديدة بحرية التجارة في هذا البحر مما لم تحصل عليه اي دولة من الدول الاوربية من قبل طوال قرون طويلة. وفي هذه الاثناء غزت خمس مراكب جزائرية سواحل نابل الايطالية فأسرت منها 450 اسيرا وكان فيهم بعض النساء والصبيان.

رفض قبول تعيين قنصل فرنسي جديد بالجزائر:

لقد أصبح من الضروري لدى كل من كان له أدنى اتصال باخبار العلائق السياسية بين الجزائر وفرنسا معرفة المعاملة السيئة التي واجهت بها فرنسا دولة الجزائر حول الديون المترتبة عليها من قبل وما تقاضت من الحبوب الجزائرية من قمح وشعير وغيرها... وكيف أخذت فرنسا في تلاعبها السياسي بالتواطؤ مع شركة بوخريص اليهودية وكيف كان موقف هذه الشركة المريب نحو حكومة الداي... وهذا ما حمل الحكومة الجزائرية على استمرارها في التمسك برأيها في رفض ممثل فرنسا بالجزائر ما لم توضح هذه موقفها نحو ما هي مدينة به الى

الجزائر ولا تبرأ ذمتها الا بدفع المبلغ الى الداي وهكذا استمرت الحال الى يوم ان سقطت حكومة نابليون بونابارت المتمردة (1814م) ويومئذ أذنت الحكومة الجزائرية بقبول الممثل الفرنسي بالجزائر فكان ذلك من حظ دوفال صاحب قصة لطمة المروحة المشهورة وكان اتصاله بالجزائر يوم 17 رمضان 1230هـ/ 23 أوت 1815م وفي هذه الاثناء وجه الداي الى حكومة تونس انذارا يتوعدها فيه بالزحف على المملكة ان هي لم تبادر بتسديد ما تجمع لديها من المغرم، وزاد على ذلك فأرعبها بتحطيم ما أشادته من الحصون بمدينة الكاف وبالحدود الجزائرية أيضا وألزمها باعلان اعترافها بالتبعية والانضواء تحت راية الجزائر، ولكن تونس لم تفعل ذلك وبقيت متمسكة بموقفها السلبي.

خيبة الزحف البريطاني الهولاندي ضد الجزائر:

لقد كان في سنة 1232هـ/1816م ان تعرضت احدى السفن البريطانية الصغيرة للاسر فأسرعت بريطانيا بارسال حملة بحرية ضخمة تتألف من ثلاث وثلاثين بارجة يقودها اللورد اكماوث **Lord Exmouth** البريطاني وهذامن غير السفن والمراكب الصغيرة وما اليها من البوارج البحرية ذات الثلاث طبقات التي تحمل كل واحدة منها 100 مدفع ومنها ما تحمل 98 مدفعا، وفيها ما يحمل 74 مدفعا وانضم اليها بجبل طارق الاسطول الهولاندي بقيادة القرصان (فان كابلن) واغتنم الامريكيون هذه الفرصة فاستعرضوا عضلات اسطولهم امام الجزائر بقيادة القرصان شونسي وانضمت اليهم سفينة فرنسية كانت راسية بالميناء فاستعدت هذه كلها للهجوم وهي في الحقيقة ونفس الامر ليست ضد الجزائر فحسب بل كان من غرضها ان تطوف بالحكومات الاسلامية في شمال افريقية ارهابا لها لكي تسرح ما لديها من اسرى وتعطي تعهدات باحترام قوانين البحر الحديثة وتخضع لما قررته الدول الغربية السبعة في مؤتمر (ايكس لا شبيل) سنة1818م وهذه الدول هي: امريكا وهولاندا والبرتغال والسويد والنرويج والدانمارك ومملكة نابلي الايطالية الا دولة فرنسا فانها لم تشارك في هذا المشروع بل رفضته وآثرت الحفاظ على القرصنة خشية ازدياد نفوذ السلطة البحرية الانكليزية في هذا البحر الابيض المتوسط، ومن اجل ذلك ارسل وزير خارجية فرنسا امرا الى قنصله بالجزائر بتاريخ 2 اوت 1816م يقول فيه: «ان

البواخر والجيوش التي هي تحت امرة اللورد اكسموث قد اقلعت من انجلترا. ومما لا شك فيه انها ستتجه الى الجزائر، وعليه فانه يجب عليكم ان تبقوا بعيدين عن كل المناقشات والحوادث التي يمكن ان تكون مسرحا لها في المستقبل.[1]

كان قرار هذا المؤتمر المنعقد باكس لا شبيل يقضي اولا بالزام حكومات شمال افريقية المسلمة بالعفو العام عن الاسرى، وثانيا استرجاع كل ما دفعته حكومة سردانيا ونابولي فيما تقدم لها في افتداء الاسرى منذ بداية السنة، ثالثا ابطال تجارة الرقيق مع القضاء على نظام القرصنة تماما[2] وكان هذا بموافقة السلطان محمود، على ما جاء في مذكرات الزهار؟..... كما طلب من داي الجزائر بالتنازل عن حقه في تفتيش السفن الاجنبية وعدم مصادرتها رغم كونها غير مستوفية لاوراقها القانونية وان يصدر بذلك وثيقة رسمية يتعهد فيها بتحقيق هذا القرار المفروض عليه، وبعد التفاوض مع حكومة الجزائر في هذا الشأن اتفق الطرفان على رفع القضية الى اسطانبول لمفاوضة السلطان في ذلك. وما كاد نبأ هذه الاتفاقية يبلغ اسماع حكومة لندن حتى سبقت غيرها الى الهجوم على الجزائر وقصفتها بـ 34000 قذيفة مطالبة بفك الاسرى الذين هم من الجزر الايونية وذلك نتيجة للمركز الجديد الذي اكتسبته واحرزت عليه بريطانيا في منطقة البحر المتوسط اثر حروب نابليون.

وقاومت الجزائر هذا التحالف الغربي الغريب وصمدت لتهجمات العدو وهجوماته العنيفة صمود الجبال الراسية رغم نقصان عدد وحدات الاسطول الجزائري الذي كان لا يتجاوز عدده اذ ذاك الثلاثين مركبا كما اعترفت بذلك اعداؤها انفسهم، ولقد اتفقوا على ان مدينة الجزائر يومئذ كانت على وشك الخراب بسبب القنابل المنصبة عليها من البحر مما جعل اللورد اكسموث يسجل انطباعاته واحاسيسه نحو هذه الحرب فيقول: «لم ارَ في حياتي اعداء يحاربون بايمان وثبات جأش كهؤلاء» (عبد الجليل التميمي: بحوث ووثائق... ص

(1) عبد الجليل التميمي: بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ص 238 ط تونس 1973م.

(2) لا ينبغي أن ننسى وأن الفرنسيين انفسهم قد استولوا بطريق القرصنة في مدة اثنتين وعشرين سنة 1815-1793)م (على 10871 مركبا تجارياً من مراكب الانكليز وفي سنة واحدة 1797م) استولى الفرنسيون على 449 مركبا لمختلف الامم والشعوب وكل ذلك بطريق القرصنة.

240 ويذكر شيلر الذي كان شاهد عيان لهذه المعركة: ان حوالى ستمائة جزائري قد استشهدوا في هذه المعركة وجرح فيها الف من السكان، واما العدو فقد تكبد فيها ضياع حوالى تسعمائة مقاتل بين قتيل وجريح وتعطب اكثر اسطوله ونجا قائد الحملة البريطانية اكثماوث في ثلة من جماعته وبعض مراكبه الى تونس فعقد مع صاحبها محمود باي معاهدة سلم ومع ذلك رفضت الجزائر امضاء السلام المفروض عليها اللهم الا اطلاق سراح بعض الاسرى من امارتي نابولي وسردينيا وعلى اساس انساني محض وبفدية مخفضة من 2500 الى 1500 فرنكا على كل اسير، وتقول الوثائق بان امريكا قد استمرت في دفع اموال ضخمة الى الجزائر مقابل حماية النشاط التجاري وطرق المواصلات البحرية، وبمجرد ابتعاد الاسطول البريطاني عن الجزائر القي القبض على عدد كبير من الرعايا الانكليز والفرنسيين الذين كانوا يعملون في مصايد الصدف قرب ساحل الجزائر الشرقي من سكيكدة الى طبرقة كما طرد القنصل البريطاني من الجزائر.(1)

عودة العدو الى الجزائر:

وعاد الانكليز وحلفاؤه الهولانديين الى الجزائر مرة أخرى في حملة بحرية عظيمة تضم اكثر من 42 قطعة حربية وفيها ذات المائة مدفع... يقودها الأميرالان اللورد اكسموث Exmoutn وباندير كاپلن Vander Capellen بوصفهما ممثلين لدول اوروبا. وكلها كانت تحمل راية السلم البيضاء مخادعة وتضليلا وهي الى ذلك تزعم وان بيدها الاذن من السلطان محمود، ولكن الداى لم يغتر بهذا المظهر في هذه المرة فقد كان ان استخلص من هذه التحركات الاجنبية المتقدمة ضد الجزائر عبرة دفعته الى بذل مجهوداته في تحصين العاصمة وتعزيز دفاعها وحمايتها بما ادخله على الحصون والقلاع من اصلاحات عسكرية جديدة وضعها في كل من المواجهة الشرقية والغربية والناحية الشمالية من العاصمة ايضاً فكلها كانت محاطة بعدد وافر من المدافع الضخمة التي كان منها ما يبلغ عياره 68 وبناء على ما اتخذه من الحيطة والاستعداد للنزال انطلق لسانه بهذه الجملة التي بقيت خالدة بعد: لا جواب عندي لهؤلاء القوم الا هزيم دوي المدافع. ورغم ذلك فانه لم يصدر امره بالدفاع نظرا لما تظاهرت به الحملة من

---

(1) المغرب العربي: صلاح العقاد ص 81 ط القاهرة 1962م.

وحلت الحملة بمياه الجزائر واتصلت بمرفأها يوم ثالث عيد الفطر (1231 هـ/27 اوت 1816 م واخذت (بناء على مقتضى تفويض من مؤتمر فينا المنعقد سنة 1229 هـ1814 م) في قصف المدينة ورميها فجأة بالقنابل مدة عشر ساعات بما يبلغ عدده بضعة آلاف قذيفة وقع بعضها على جدار قبلة الجامع الاعظم فتحطم شطر المسجد وكثر الهدم في الابراج والحصون واصبح القسم الأعلى من مبنى القنصلية الامريكية خرابا بعدما أصيبت حيطانه بخمس قنابل واحترق يومئذ خمس بوارج واربع مراكب وثلاثون قاربا جزائريا وتضررت الميناء واستشهد عدد كثير من السكان المدنيين الذين كانوا في مأمن بحيث لم يتوقعوا حدوث ذلك من العدو بمفاجأة كهذه في ذلك اليوم واستمرت المعركة ثلاثة ايام فمات منهم في هذا الحادث المفاجيء ما لا يقل عن سبعة آلاف من السكان العزل كما قتل من جيش العدو عدد لا يحصى وجرح فيها الاميرال «ايكسموث» Exmouth وكسرت مراكبه... ولم يسع الداي امام هذه الخدعة الحربية الا الرضوخ لمطالب العدو والنزول عند شروطه التي املاها عليه هواه كما قدمناها قريبا. ثم انبرى الداي بعد ذلك لاصلاح وترميم ما تحطم من معالم المدينة، المدنية منها والعسكرية وكان منها الجامع الاعظم.. وجاءت المساعدة والاعانة من سلطان المغرب المولى سليمان العلوي فساهم بمركبين من نوع الكورفيط (وبلاندرة) واموالا جاء بها قاضي حنفية الجزائر الحاج محمد العنابي فوزعها حسب رغبة السلطان على المجاهدين، كما بعث يوسف باشا طرابلسي واميرها (بلاكرة) اعانة للجزائر، ومثلهم في ذلك السلطان محمود الثاني فانه بعث بثلاث مراكب من استانبول هدية من الباب العالي الى الجزائر بقصد تجديد الاسطول الجزائري.

ويذكر لنا الدكتور صلاح العقاد عن هذه الخدعة الحربية بشيء من التفصيل فيقول: ان الاميرال (اكث ماوث) دبر حيلة ليضمن بها السيطرة على ميناء الجزائر في حالة رفض الداي للشروط قال فبينما كان المفاوض يتقدم في السفينة التي تحمل العلم الابيض ارسل خلفه سفينة حربية - تحمل قمصانا مكبرتة - رست داخل الميناء وعندما رفض الداي عمر كما كان متوقعا هذه

المطالب استطاعت هذه السفينة ان تفتح الميناء للاسطول الانجليزي الذي تمكن من الحاق اضرار جسيمة به وتحت هذا الخطر الداهم الذي الحق الرعب بقلوب الرعية اضطر الداي عمر الى توقيع الشروط التي قدمت اليه في 29 اغسطس 1816 م وسلم الاسرى الطليان الذين كان اكث ماوث يطالب بتحريرهم بدون مقابل[1]، وكانوا نحو 1500 اسير. كما حصلت دولة هولاندا على عقد معاهدة سلم مع الجزائر بنفس الشروط لاشتراكها في الحملة، وتعتبر هذه الحملة ضربة قاسية للحد من نشاط البحرية الجزائرية ولجميع نشاط البلاد.

ولقد ترك لنا داي الجزائر عمر باشا وثيقة قيمة فيما كتبه هو بنفسه الى السلطان العثماني بتاريخ 19 شوال 1231 هـ/12 سبتمبر 1816 م شرح لنا فيها حوادث هذا الغزو الغربي بوضوح جاء فيها: «... فقد وصل الاسطول الانكليزي الهولاندي اللعين الى ميناء الجزائر بتاريخ 3 شوال، لقد استعمل الانكليز الحيلة برفعهم علما ابيضا، كما وجهوا الينا رسالة طالبين منا الرد عليهم خلال ظرف ساعة واحدة، وعندما لم يستلموا اي رد فقد دخلوا الميناء مجابهين قلاعنا وبواخرنا، ويتركب اسطولهم من اربع بواخر كبيرة، ذات ثلاث جسور وباخرتين وبارجتين واربع بواخر مدفعية، وبعد برهة من الزمن اندلعت الحرب. ان الجزائريين على استعداد لمتابعة الحرب دفاعا عن الدين والدولة ان هاته الحرب كانت رهيبة بحيث ان تاريخ الانسانية لم يسجل مثيلا لها.

«لقد كانت معركة حامية الوطيس دامت احدى عشرة ساعة وعشرين دقيقة، احرقت خلالها كل بواخرنا وسفن تجارتنا، ولم نر دقيقة واحدة اذ اخذت تتهاطل علينا في كل لحظة سيلا وافرا من القنابل الصغيرة والكبيرة الحجم[2] بحيث ان تحصيناتنا وميناءنا قد تحطمت خلال ظرف ساعة واحدة.

«لقد حفت بنا النار فكانت القذائف تقع في كل مكان، وادى ذلك الى

---

(1) صلاح العقاد: المغرب العربي ص 82 ط القاهرة 1962م. - اسماعيل العربي: قصف الاسطول البريطاني للجزائر، مجلة الثقافة عدد 42. 1398هـ/1978م

(2) يذهب كرامن الى ان عدد الكرات الحديدية التي اطلقت فسقطت على التحصينات الجزائرية بلغت نصف مليون، اما القنابل النارية فبلغت 980 قنبلة، وجاء في تقرير رئيس رفعه الى السلطان قال أن عدد موتى وجرحى الجزائريين قد ناهز 300 نسمة أما بالنسبة للانجليز فيتراوح ما بين ألفين و٣ آلاف شخص. وجاء في تقرير آخر أن عدد الموتى بلغ 500. وأما بالنسبة للانجليز فبلغ 833 شخصاً.

خراب كثير من الامكنة وضياع املاكنا وثروتنا، لقد استشهد كثير من الاوجاق الشجعان دفاعا عن دينهم وسلطانهم، ان مآلهم الجنة مثوى لهم ليتغمدهم الله برحمته...

إن عدد موتى الكفار كان أربع مرات عدد المسلمين بالإضافة إلى أن عدد الجرحى كان مرتفعاً، أما بواخر الكفار فقد أصابتها النيران واحترقت اثنتان منها...

«ونظرا الى ان قلاعنا قد تهدمت وذخائرنا قد نفذت خلال هاته الحرب وان عدد جنودنا اصبح غير كاف فقد اضطررنا الى قبول شروطهم وامضاء الاتفاقية من جديد..» (1)

ويبدو ان كل ما وقع من بريطانيا في مثابرتها على غزو الجزائر - ولا سيما في هذه المرة بالخصوص - انما كان بدافع تدعيم مركزها وتمكين سياستها بجبل طارق الذي كان تحت نفوذها منذ سنة 1115هـ/1704م فلذلك نراها لم تكن لتسمح لاي كان بالتدخل في شؤون هذا البحر منفردا او مستقلا عنها ولم ترضى كذلك بوقوع اي تغيير عميق في توازن القوات القائمة به.

انتقاض بعض العشائر الجزائرية واغتيال الداي:

استمرت نار الحركة الوطنية ملتهبة في اماكن متفرقة من القطر الجزائري هنا وهناك فلم تنطفىء طوال العهد التركي كما حدثناك عنها في مواطنها فيما سبق ولا سيما منذ الخمس عشرة سنة الاخيرة، وفي هذه المرة جاء دور قبيلة فليسة الزواوية فنهضت للمحافظة على وحدتها الذاتية وشخصيتها الجزائرية رغبة في استقلالها الداخلي فناجزتها جنود الداي وارضختها قسرا والزمتها بغرم سنوي يبلغ 900 فرنكا بعملة ذلك العصر وفي غضون شهر ربيع الثاني 1232 هـ/ فيفرى 1817 م غزا الطاغية محمد تشاقر باي قسنطينة - قبيلة اولاد دراج فخسر الصفقة هنالك وخاب وعاد بخفى حنين وكان ذلك سببا في سقوطه. ثم كانت بعدها فتن واضطرابات داخلية سببها نقمة الجند على الداي لخضوعه وقبوله شروط بريطانيا وهولاندا المتقدمة الذكر - رغم كونه مضطرا كما عرفت - وحينئذ قبضوا على الداي وقتلوه خنقا يوم الاثنين 27 شوال

---

(1) عبد الجليل التميمي بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ص 253-254 تونس 1972 م.

وانظر الاتفاقية في أرشيف وزارة الحربية الفرنسية بفانسان - باريس -

1232هـ/سبتمبر1817م ودفن بتربة ضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالعاصمة ولا يزال جدثه ظاهرا مسنما بالرخام المزخرف عن يسار الداخل الى قبة الضريح، والى جواره قبر مصطفى باشا.

وان دل هذا الاغتيال على شيء فانما يدلنا على مبلغ تهور القوم وانتشار الفوضى بينهم واغترارهم بأنفسهم حيث جهلوا قوة اوربا الزاحفة يومئذ بكل وسيلة نحو التقدم واندفاعها العظيم نحو الرقي المادي والنمو المتزايد المطرد في شتى المجالات عن غير تبصر من قادة الجزائر او حذر او اخذ احتياطاتهم على الاقل.

ويبدو من ذلك ان الخزينة الجزائرية يومئذ كانت في ازمة شديدة تشكو عجزا وفقرا كبيرا حتى انها عجزت عن تسديد اجور الجند الانكشاري، ومرتبات الموظفين، وذلك بسبب ما قد لحق الجزائر يومئذ من المجاعة الكبرى التي كان قد عمت بلاد البحر الابيض المتوسط وحتى مدينة استانبول، ومما يؤكد لنا هذا العجز المالي ما كتب به الداي عمر باشا الى دار الخلافة باستانبول بتاريخ 5 جمادى الثانية 1230 هـ/16 ماي 1815 م حينما قال «.... منذ بضع سنين كان يجب علينا تسديد اجور ما بين الثلاثين واربعين الف انكشاري، ففي سالف الزمن كنا ندفع اجورهم على دفعة واحدة، ولكن منذ عشر سنوات لم نتمكن من مضاعفة اتاوتهم، كذلك كنا نسدد الاجور كل شهرين، اما اليوم فان تسديد اتاواتهم يتم مرة واحدة كل اربعة اشهر بالنسبة للبعض، وستة اشهر بالنسبة للبعض الاخر، وقسم ثالث تسدد اجورهم كل سنة.... وكذلك مما يزيدنا ايضاحا وتفصيلا لاسباب هذا العجز المالي الطارىء على مالية الدولة الجزائرية هو ما علل به عمر باشا نفسه هذه الظاهرة في نفس الرسالة المومى اليها اذ قال ما نصه:

«... منذ عشر سنوات عوض الداي مصطفى بالداي احمد، وقد ضعف هذا الاخير اجور الانكشاريين على اثر الثورة التي حدثت، كما انه بجانب الجزائر توجد جبال يسكنها العربان الذين هم في حرب سجال معنا، وقد ترتب عن ذلك كله افلاس خزينتنا. هذا كلام عمر باشا، واما خلفه علي خوجة فانه جعل ذلك راجعا الى سوء تدبير عمر اذ وصفه بالتبذير وعدم حسن التدبير اذ

قال في رسالة له بعث بها الى السلطان بتاريخ 25 ذي القعدة 1232 هـ/6 اكتوبر 1817 م ما نصه: « .. ان عبدكم داي الجزائر السابق المرحوم عمر باشا لم يهتم بصورة مجدية لحل قضايا الانكشاريين والمسائل المهمة المتعلقة بالجهاد، بل على العكس من ذلك اتبع سياسة استبدادية وحسب ميوله الشخصية، كما انه لم يهتم بضعفاء الولاية وانصرف الى تبذير اموال خزينة المسلمين في تشييد ابنية لا فائدة ترجى منها وقيامه ببعض الاعمال التي ادت الى الافلاس.(1)

ولاية الداي علي خوجة:

ويعرف بالحاج حفيز تولى الحكم بالجزائر في 27 شوال سنة 1232 هـ/9 سبتمبر 1817 م وكان يلقب بمر علي او علي لوكو جمع له ما بين رتبتي بيلر باي وباشا. وان اهم حدث افتتح به اعماله السياسية بهذه البلاد هو انه سعى في اتمام ما كان قد شرع فيه الديوان من قبل ابرام اتفاقية صداقة وحسن الجوار ما بين الجزائر وتونس وكان من بين الفقرات الهامة التي جاءت في نص هذه المعاهدة هي الغاء الضريبة التي كانت مفروضة على تونس مع الاعتراف باستقلالها السياسي المطلق وفتح باب التعامل الاقتصادي بين البلاد وللسفير الجزائري الحرية المطلقة في جعل مقر اقامته في اي بلد شاء من القطر التونسي وتم ذلك فعلا في شهر ذي الحجة – اكتوبر – من هذه السنة.

قصر القصبة او ترسانة الباب الجديد:

لا يزال هذا القصر والترسانة – القصبة – او قل القلعة الى اليوم قائمين بمكانها المرتفع المشرف على العاصمة بناحية حي «الباب الجديد» ولقد كان الشروع في تأسيس هذا البناء الشامخ ايام بابا عروج الفاتح التركي، اقامه على انقاض القلعة البربرية القديمة سنة 922 هـ/1516 م ثم اهمل شأن هذه القصبة الى عهد عراب احمد بكلر بك الجزائر (979 هـ/ 1572 م فاعتنى بها وجددها الى ان احترق القصر وتحطمت الترسانة في حادثة انفجار خزينة البارود سنة 1025 هـ/1616 م على عهد الباشا مصطفى خزناجي فاهملت كذلك ثم بناء

---

(1) عبد الجليل التميمي: بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ص 246-247-259 ط تونس 1972م

دور الداي علي فأعاد ترميم هذه المؤسسة العظيمة وادخل عليها اصلاحات كثيرة[1] وسكنها متحصنا بها ليشرف هو بنفسه من اعلاها على ما قد تحدثه طائفة الانكشارية من التحركات والقلاقل بثكناتها المنبثة في انحاء المدينة وليأمن كذلك على نفسه من شر انتقاض الجند الذي كثر شره ولا سيما بعد ان قضى على نظام الجند التركي البالي (أوجاق[2] الانكشارية) حينما سلبه من كافة الامتيازات السياسية نظرا لسوء سلوكه وتدخلاته الاجرامية في شؤون الدولة وجرأته على بسط سطوته على الرؤساء والولاة؛ واعتمد بدله الجيش الاهلي الجزايري المكون من كراغلة وزواوة واشركه في الحكم فاحدث بذلك تغييرا جذريا ذا بال في سير سياسة السلك الحربي، وهو الى ذلك يعد تحولا سياسيا هاما، كما انه نقل مركز الحكومة من قصر الجنينة[3] الى هذا القصر وهو المعروف الى اليوم باسم (دار السلطان) او قصر القصبة) وقد كان ذلك التحول ليلة يوم 27 ذي القعدة 1232 هـ/17 اكتوبر 1817 م وفي ذلك يقول حمدان عثمان خوجة في مرآته: « ... وكان في احد الايام قد امر الداي جميع سكان مدينة الجزائر باغلاق ابواب منازلهم قبيل نزول الليل، كما امر باغلاق الثكنات وبعدما اجتمعت له مجموعة كبيرة من البغال حمل عليها خزائن اموال بيت المال وانتقل بها تحت جناح الليل الى القصبة حيث نزل بنفسه مصحوبا بفرقة من جنوده الخاصة وفي الصباح اعلن عن تحويل جميع خزائن اموال الجزائر الموجودة بمنزل الباشا السابق بواسطة طلقات مدفعية، وقد وقع اثناء نقل خزائن الاموال الى القصبة تبديد كبير فيها ونهب كثير لها من طرف وزراء الداي وحاشيته[4].

وكان من التغييرات الجذرية التي احدثها هذا الداي في صميم جوهر الحكم

---

(1) راجع وصف القصبة عند H.klein, feuillet D'eldjezdir 111p: 19 Alger 1912 - g.
morçais, manuel d'art musulman T2 p: 799 paris 1927

(2) كلمة تركية مفردة تجمع على اوجاقات ومعناها «موقد النار» وتطلق ايضا – كما هنا على الفرقة العسكرية.

(3) راجع h.klein feuillets d'eldjezair, v3 p: 21 Alger 1912

(4) انظر مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار ص 132 – 136 ط الجزائر 1974م ففيها تفاصيل هامة ومزيد بيان عن كيفية هذا التنقل الى قصر القصبة.

انه غير وزن العملة النقدية حيث نقص الريال الدورو من (15) اوقية الى (12) اوقية ونقص الريال العادي من (8) اواق الى (6) اواق.

ويقول كلان H. Klein انه اطلع على وثيقة تاريخية تصف انتقال ادارة الحكومة الجزائرية من قصر الجنينة الى قصر القصبة هذا بناحية (الباب الجديد) فقال بشأن المال خاصة: ان مجرد حمل النقود والمسكوكات استوجب حمولة ست وسبعين بغلا لنقل الذهب فقط و 1400 حمل من الفضة وقدر ذلك بنحو خمس وستين مليون فرنكا بقيمة الفرنك في ذلك العصر[1]؟... وقدرها آخرون بانها كانت عندئذ لا تقل عن 50 مليون دولار ذهبا. واذا قدرنا او قارنا ذلك بوزن الاثقال على اساس ان حمل البغل يساوي ثلاثة قناطير في المتوسط فيكون تقدير كنوز الجزائر في عهد الداي على خوجة بنحو 228 قنطار من الذهب، و4200 من الفضة وذكر غيره انه استعمل في نقل المال وحده 50 بغلا كل ليلة لمدة خمسة عشر ليلة.

ولقد سر الشعب الجزائري يومئذ بهذا التغيير الحادث في الجيش وشعر منذ ساعته بنوع من العزة والكرامة حيث دعى للمشاركة في خدمة الوطن والدفاع عن حوزته كما انه كان لهذا التحوير في نظام الجندية وقعة السيء لدى الاوساط العليا باستانبول فانحلت بذلك اواصر العلائق الودية بين الباب العالي وحكومة الجزائر واحدث ذلك بلبلة في الاوساط العسكرية التركية وحاولوا القضاء على النظام الجديد فهزمهم الداي شر هزيمة.

تلاعب شركة ابن زحوط اليهودية

انتهى الامر في تآمر هذه الشركة وتدبيرها المبيت ضد الجزائر بأن أعلنت للحكومة الجزائرية بأنها اتصلت من حكومة فرنسا يوم 19 ذي الحجة 1232 هـ/28 اكتوبر 1817م ببعض مبلغ الدين الثابت بذمتها الذي كان يبلغ قدره 7000000 فرنكا فزعمت بأنها استلمت منه اربعة ملايين ونصف مليون ووافقتها فرنسا على ذلك مصدقة لزعمها هذا على أنها امسكت الباقي لديها بدعوى انها تسلمه لغرماء الشركة المذكورة - وكان موقف السفير الفرنسي تجاه

(1) feuillets d'eldjezaiř , v3 p: 21 Alger 1912

الحكومة الجزائرية في ذلك موقفا مريبا - وتناست الشركة ومثلها فرنسا نفسها ما للحكومة الجزائرية من الحق الشرعي في ذلك المبلغ المتخلف وعندئذ انتظر الداي قليلا ريثما تحقق لديه مخادعة الشركة وممالاة فرنسا لها فنهض لمطالبة الحكومة الفرنسية بتسديد المبلغ كاملا غير منقوص. فلم تعرهْ هذه التفاتا ولا أقامت له وزنا. وقد كانت هذه القضية بعد ذلك فيما يظهر للناس انها هي علة العلل والسبب المباشر في سقوط الجزائر في احضان الاستعمار الفرنسي بيد أنها في الحقيقة ما هي الا جزء أو حلقة واحدة من بين سلسلة حلقات من مؤامرات ومكائد دبرت بليل ضد الجزائر المسلمة كما مر بيانه وسيأتيك مزيد للبيان.

صرامة الداي تجاه المفسدين:

لقد كان الانقلاب الذي احدثه الداي في كلتا الناحيتين الادارية والعسكرية مفعوله العميق فى اوساط بعض المفسدين، ولا سيما في طائفة الينكشارية منهم بالخصوص حيث انطلقت هذه الفرقة من الجند تبث الشقاق في انحاء من القطر الجزائري وتنشر الخلاف ضد نظام الحكم الحاضر فنشأت عن ذلك فتن في بعض المناطق الجزائرية من ذلك ان باي قسنطينة احمد المملوك قام في سنة 1234 هـ/1818م بحملة ضد سلاطين بني جلاب بتقرت بتحريض من فرحات بن السعيد الراغب يومئذ في بسط نفوذه على تلك المنطقة مقابل 50 ألف بسيطة، فأسترضاه محمد بن جلاب بإعطائه مبلغ 10000 ريال بسيطة بعد ان كان الباي قد قطع 200 نخلة إنتقاماً من بني جلاب فبادر الداي إلى تأليف عصابة من الجيش الاهلي تحتوي على الفي جندي فاحتمى بهم والقى القبض على الجند المتمرد من الانكشايرية فبعث كلا الى موطنه من بلاد آسيا وبلاد الروم وشد حيازيمه في نصرة الشريعة وتطبيق احكامها على سير الحياة العامة والزم الناس بالمحافظة على صلاة الجماعة وتعمير المساجد وشدد العقاب على المستهترين وأمر باقصاء البغايا الى خارج العاصمة ومنهن من التحقن بمدينة شرشال، وضرب على يد المفسدين وشدد الارهاب والنكير على العصاة المنشقين فسفك دماءهم وهتك حرمتهم حتى اطمأن الناس وذهب عنهم قلق القتلة غير أن أيام هذا الداي لم تطل كثيرا شأن طائفة ممن تقدمه من ملوك وأمراء العدل، فأيام عمر عبد العزيز كانت قليلة ومثله في ذلك ايام معاوية بن يزيد ويزيد

الناقص والمهتدي بن الواثق بالله العباسي وغيرهم... وهكذا شاء القدر، فتوعك الداي بمرض الوباء الفتاك الذي كان قد عم جميع ارض الوطن وتوفي بقصر القصبة يوم 22 ربيع الثاني 1233 هـ/ فاتح شهر مارس 1818م وبذلك يكون قد قضى في ولايته مدة ستة أشهر فقط.

ولاية الداي حسين بن علي

هو حسين خوجة بن علي وقيل ابن الحسن آخر دايات الجزائر، ولد ببلدة ازمير وقيل ببورلة من بلاد آسيا الصغرى أو من دنيزلي Denigli حوالى سنة 1178 هـ/1764م ووالده ينتمي الى عائلة نبيلة من بلد (تشنا قلعة) عمل ضابطا في الفرقة المدفعية (الطبجية) وكان يحترف بغسل الاموات. ويذكر عن ولده (حسين) هذا انه كان على جانب لا بأس به من الثقافة الاسلامية والاخلاق الكريمة مستظهرا للقرآن الكريم، وتلقى معلوماته الحربية بمدرسة البارون دي طوط[1] باستانبول، وجاء الى الجزائر كأحد جنود الحامية الاتراك وتقلب في وظائف ومناصب سامية؛ وكان فيما تولاه من الوظائف المدنية بالجزائر امامة الصلاة بالقصر والكتابة في مخزن الزرع بدار الامارة كما انه تولى من مناصب الحكومة ووزارة البحرية برتبة خوجة الخيل، ويصفه لنا

---

(1) هو مجري الاصل وولد بفرنسا سنة 1145هـ/1733م تجنس بالجنسية الفرنسية واستعمل كمستخدم في سفارة فرنسا باستانبول ثم عين قنصلا لها بالقرم سنة 1181هـ/1767م ثم دخل في خدمة الدولة العثمانية فاستعمله السلطان مصطفى الثالث في اصلاح الطبجية - المدفعية - وتحصين مضيق الداردانيل فابتنى القلاع حول ضفتيه مسلحة بالمدافع الضخمة الثقيلة على احدث طراز كما انه كلف من طرف السلطان المذكور بانشاء مسبك لصب المدافع باستانبول فقام بذلك احسن قيام ويومئذ احدث بها مدرستين حربيتين احداهما لتخريج ضباط الطبجية واركان الحرب والثانية لتهيئة ضباط البحرية فتخرج منها عدد غير قليل من قادة الجيش التركي وضباط البحرية ومنهم حسين داي هذا.

ثم عاد البارون المذكور الى فرنسا وعين مفتشا عاما لمركز القنصلية بالشرق وبلاد المغرب ايضا فقام برحلة استطلاعية حربية (1191 هـ/1777م) كلف فيها باختبار حالة السواحل والقلاع والحصون الواقعة على البحر الابيض المتوسط ومعرفة أعماق المياه في الموانيء... ولما نشبت الثورة الفرنسية الكبرى سنة 1204 هـ/1789م انتقل البارون في السنة بعدها مهاجرا الى موطنه الام - المجر - فأقام به الى وفاته سنة 1207u/1793م تاريخ الدولة العلية ص 157.

حمدان في مرآته بأنه كان رجلا منصفا حكيما مستقيما، ويقول الزهار بأنه كان رجلا عاقلا متدينا محبا للعلماء والاشراف والصالحين.

واشتهر الداي باعتداله في طموحه الى المناصب السياسية غير متشرف لها كثيرا، وما كان انتصابه على عرش الجزائر الا عن وصية وعهد من الداي السابق، فتسلم زمام الحكم باجماع اعضاء الديوان ورؤساء البحرية من غير معارضة احد وذلك يوم 19 ربيع الثاني 1233هـ/27 فيفري 1818م وابقى لنفسه حق المحافظة على حريته في تقديم انسحابه متى شاء فوافقه على ذلك جميع ارباب الدولة فأصبح هو الداي وهو البيلرباي وهو الباشا، ويصفه لنا (كوران) بانه رغم كونه شديدا في اجراءاته الا انه لم يكن سافك دم، ولكنه كان عنيدا[1].

وكان يوصف بالحزم وبشدة الشكيمة وملازمة النظام والاستقلال في الرأي الى حد الاستبداد احيانا كما انه وصف بشيء من ضعف التدبير والابتلاء بالرشوة وحب الهدايا مع اشتهاره بنصرة العدالة والتدين واعمال الخير والبر وتعظيم أهل العلم والصلاح.

ومن مآثره وخلاله الحميده المشكورة الباقية على مر الايام الى اليوم تجديد بناية جامع القائد صفر – سفير – بن عبد الله القائم الى اليوم بحي القصبة (1242هـ/1827م) وتأسيسه لـ (جامع دار السلطان البراني) المواجه لباب قصر القصبة المركزي اقامه الداي وانشأه يوم توليه على العرش، ولقد وقع لهذا المسجد على عهد الاستعمار الفرنسي مثل ما وقع لكثير من مساجد الجزائر بالعاصمة وغيرها حيث اصبحت كنائس تحمل اسماء القديسين والرهبان، فصار هذا الجامع منذ سنة 1255 هـ /1829 م يحمل لقب Sainte Croix الى ان استرجعت الجزائر سيادتها فاعيد الى الاسلام، واين هذا من معاملة الحكومات الاسلامية لاهل الذمة من أهل الكتاب؟... وأما ما يذكر عن السلطان محمد الثاني – الفاتح – من تحويله لكنيسة آيا صوفيا باستانبول الى مسجد

(1) راجع عبد الجليل التميمي: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ص 33 ط تونس 1970م

جامع[1] وتوزيع بقية كنائسها بين المسلمين والاروام (857 هـ/1453م) فانما كان ذلك في مقابلة منحهم الحرية المطلقة في التصرف في دينهم وفي قومهم حرية كادت تشبه أن تكون حكومة دينية مسيحية منظمة داخل حكومة اسلامية، وهذا ما انتج بعد ذلك من تشريع قانون الامتيازات الذي كان أشبه بحلقة صارت بعد ذلك سلسلة متعددة الحلقات استفحل أمرها مع الزمن واستشرى شرها كما يعلم ذلك من تاريخ الدولة العثمانية.

ونعود الى تتبع مآثر الداي حسين حيث يتراءى لنا ذلك القصر الشامخ بحافة الميناء التركي القديم بالعاصمة وهو مقر (قبطان رايس) امير البحرية انشأه سنة 1242 هـ/1826م وهو رغم ما حدث فيه من التغيير والتبديل وما زيد فيه من مرافق وما لحقه من ترميم على عهد الاستعمار فانه لا يزال محافظا على شكله الفني وجمال مظهره البهيج وهناك غير هذا من آثار معمارية اخرى: مساجد وأضرحة ومبان أنشأت بأرباض العاصمة واطرافها وبالميناء أيضا وفيها الذي لا يزال يحمل اسم الداي وتاريخ انشائه منقوشا على جدرانه. وكان فيما عني به الداي في مجال الاصلاحات العسكرية ان اخذ في ترقية عدد وحدات الاسطول بحيث بلغت الى سبعين قطعة حربية وكان فيما استهل به الداي حكمه أن أصدر عفوه العام عن المساجين السياسيين وأسرى الحرب، وأبطل شتى الاجراءات العنيفة التي كان اسلافه يعاملون بها فرقة الانكشارية. ولقد حاول خصومه ومنافسوه اغتياله مرتين فانجاه الله منهم، ونعم الحارس الاجل! وعاش طوال ايام حكمه منعزلا بقصر القصبة منزويا عن الناس يحميه جيش من زواوة، وذلك ما جعل الفرنسيين بعد يتخذون فرقة من الجيش تحت اسم Zoive أي زواوة.

وكان لاضطراب الشؤون العسكرية في الايام الاولى من تولية هذا الداي ان انتشرت الفوضى بين الاهالي ونشبت الفتن في انحاء من القطر معاكسة للسلطة الحاكمة ومناهضة لها فعقد الداي عرمه على استئصال شائبة هذا النزاع فأزال الخلاف وقضى على المشوشين وساعده في ذلك اعوانه مثل يحيى آغا وباي وهران وقسنطينة.

---

(1) ومنذ سنة 1353 هـ/1934م اصبح هذا المسجد بأمر مصطفى كمال أتاترك متحفا لفن العمارة البيزنطية وجرده عن العباده.

تصالح الجزائر وتونس:

لقد عادت الخلافات والمنازعات السياسية بين حكومتي القطرين الشقيقين تونس والجزائر بسبب التنافس والتزاحم القائمين بين الولاة ونشأ عن ذلك مشكلة الحدود، فأنبرى السلطان العثماني الى القضاء على هذا النزاع الذي لا مبرر له وأوفد من طرفه من انتدب الى حمل ولاة القطرين على ابرام اتفاقية مؤاخاة وصلح دائم مستمر فتم ذلك سريعا ورد الجزائريون ما كان قد احتلوه من التراب التونسي الى اهله، وقد تم ذلك بصفة نهائية يوم الثلاثاء 1236/6/15هـ/1821/3/20م وارتفع بذلك ما كان بين البلدين الشقيقين من داء الضرائر، وانحسم نهائيا ما كان هنالك من احقاد وتكاد تكون هذه الاتفاقية اقرب الى اتفاقية حدود دولية منها الى تخطيط حدود ادارية بين ولايتين[1] وكانت هذه السنة هي خاتمة الستين سنة التي قضاها أهل الجزائر وتونس في تشاكس وشقاق، وانشأت في هذه السنة نقود جزائرية جديدة تحمل اسم «دورو جزائري» وهو ما كان يقدر في آخر ايام الاتراك بنحو ثلاث فرنكات و75 سانتيما. وفي السنة بعدها انتشر داء الوباء بعنابة نشأ عن مركب تركي من نوع (بولاكر) عائدا من الاسكندرية، محملا بالحجاج، وقد ظهر فيهم هذا الداء الخبيث، فاضطر لذلك مستخدمو الشركة الافريقية الى تقديم طلب الى باي قسنطينة في رسالة عاجلة بتاريخ 24 جوان 1822م ليسمح لهم بغلق المركز التجاري التابع لهم بهذه المدينة، فبادر الباي الى تلبية طلبهم في يوم 4 جويلية بعد ان كان الداء قد استشرى وتفاقم أمره فأصبح قاتلا.

انهزام الحملة البريطانية:

كان هناك بعض العصاة من الجزائريين المنشقين عن الطاعة، عملوا على تعكير الجو بين الحكومة الجزائرية وحلفائها الاجانب، متخذين في ذلك سبيل التعدي والظلم، ومنهم اهل جبل موازاية بالقرب من مرسى بجاية، ففي ذات يوم اضطر اهل سفينة امريكية الى الالتجاء الى هذا الساحل بسبب

---

(1) راجع في شأن الحدود الجزائرية التونسية degramont H.l Histoire d'Alger sous la domination turque p: 313 paris 1887 – Documents diplomatiques français, livre jaune Affaires de tunisie 1871 – 1880, paris

اشتداد هيجان البحر وطغيانه على السفينة، فعمد سكان الساحل الى هذا المركب فأسروا اصحابه وفيهم من قتلوه ونهبوا جميع ما كان معهم ولما أخذت الحكومة في البحث عن هؤلاء اللصوص اختفى بعضهم في السفارة الانكليزية حيث كان يعمل مستخدما بها وامتنع السفير من تسليمهم للسلطة بدعوى انهم من تشملهم الحصانة الديبلوماسية ولا سبيل للدولة الجزائرية عليهم، ولكن حرس الداي اقتحم السفارة واستخرج منها اربعة منهم هم رؤساء الفتنة، فجعل الاغلال في ارجلهم وساقهم الى مقطع الحجر يعملون به عقابا لهم وتأديبا، ويومئذ عمل السفير الانكليزي ماكدونيل Mac – Donnel على اثارة احقاد بعض رؤساء قراصنة الانكليز ضد الجزائر ومنهم الاميرال السير هارينيل Harrynealle فخرج هذا من مالطة على رأس اسطول يحتوي على ثلاثة وعشرين مركبا ولما حل بمياه الجزائر تظاهر بأنه جاء مطالبا بدفع تعويضات عن الخسارة التي كانت لحقت الاسطول البريطاني في حملته السابقة ضد الجزائر، فرفضته الحكومة، ثم لم ينشب الاميرال حتى صوب فوهة مدافعه نحو الجزائر فرماها بقنابله واطال حصارها اياما معدودات (13 – 27 شوال 1239هـ/26/12/ جويلية 1824م) فكانت الحملة فاشلة ثم غادرها بدون طائل، وكان ذلك كله استبداد منه ومن غير استشارة لحكومته، ولما اطلعت دولته على حقيقة الامر قالت «بأن الحق مع الجزائر ولا مدخل لنا في رعيتهم ولا نجعل معهم عداوة فنخسر أموالا ولا نحصل على طائل ولا بد أن تجعلوا الصلح مع الجزائر...»[1]

ثم عاد الاميرال بعد ذلك الى الجزائر راغبا في الصلح وبعد ما طال الجدل بينه وبين الداي وافقه الداي على مطلبه بشروط كان منها استبدال السفير الانكليزي بغيره ودفع مقدار معلوم من المال.

ثورة محمد الكبير بن الشيخ التجاني:

سبق أن قدمنا ذكر انبثاق الثورة القومية الجزائرية على يد شيوخ الطرق الصوفية سنة 1213هـ/1798م وذكرنا اذ ذاك التجأ الشيخ احمد التجاني صحبة ولديه محمد الكبير ومحمد الحبيب الى المغرب الاقصى واستيطانه بمدينة

---

(1) احمد توفيق المدني: مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار ص 151 – 154 ط الجزائر 1974م.

فاس الى وفاته سنة 1230هـ/1815 م ثم بعد تسعة اشهر من تاريخ وفاته عاد ولداه الى الوطن واستقر محمد الكبير بعين ماضي التي تبعد بمسيرة 72 كيلومترا غربي مدينة الاغواط - جنوب الجزائر - الى سنة 1240هـ/1825م حيث ذهب الى الحج وفي عودته اعترضته قوات باي قسنطينة بموجب مناوأة والده لسلطة الاتراك بالجزائر، واجتهدت هذه في القاء القبض عليه فخابت والتحق محمد التجاني ببلده سالما وما كاد يستقر بموطنه حتى أعلن في اتباعه التجانيين مناوأة السلطة التركية بشق العصا في وجه الحكم التركي وخرج بأنصاره وحزبه الى ناحية مدينة معسكر وكان هنالك من بايعه بها سرا وايده في ذلك سلطان المغرب المولى عبد الرحمن الذي ظل مناصراً للحركة القومية بالجزائر بزعامة التجانيين وهناك اصطدم التجانيون بجيوش باي وهران - حسن بن موسى - حيث كانت مقبلة نحوهم من جهة غريس فتشتت جمع التجاني وفر عنه اصحابه وبقي هو في طائفة قليلة من اتباعه لا يتجاوز عدها الثلاثمائة نسمة، فتقهقر وأحجم عن القتال ولكن ذلك لم يدفع عنه شر القتال فقبض عليه الجند بمكان يقال له (عواجه) بناحية غريس وقيل ان ذلك وقع بنواحي عين البيضاء (1243هـ/1827م) فقتلوه فيمن كان معه ونقل رأسه الى العاصمة حيث أصبح مصلوبا بها تجاه الباب الجديد وبعثوا بسيفه واعلاقه الى السلطان محمود باسطانبول وفرضت الحكومة التركية على أهل عين ماضي مفرضاً باهظاً يقدر بمائة الف (بوجو) وذلك علاوة على ما الزمتهم به من تقديم أثاث من فضة وملابس وفرش وأغطية من صوف، وهذه وحدها تقدر بنحو ثلاثمائة الف (بوجو) كما الزم اتباعهم من الحشم بتقديم ما قدره خمسون ألف (بوجو).

وتذكرنا هذه الوقائع بحوادث سنة 1236هـ1820م التي نشأت ببلاد القبائل بسبب التذمر من جور حكم الولاة المستهدين بتلك النواحي واصطدامها بقوات الحكومة بزعامة يحيى آغا[1] وتحطم يومئذ برج بوغني وقتل الزعيم محمد اوقاسي ببرج سابا واعقبتها ثورة سكان المناطق المحيطة ببجاية واحتل بنو

---

(1) كان رجل سياسة ودهاء وحزب، شغل منصب القيادة العامة للجيش طيلة اثنتي عشرة سنة وكثرت حوله الدسائس وكاد له خصومه فعزل عن منصبه، ثم ابعد الى مدينة البليدة وبعثوا اثره من قضى عليه خنقا وهو بحديقته (1244هـ/1828م) - راجع مذكرات الزهار ص 162.

عباس ناحية البيبان ثم اجلاهم عنها ابن كانون ورغم ذلك فلقد اندفع لسان الثورة الى وادي الساحل وحاول يحيى آغا القضاء على قبيلة بني عباس بايقاد النار في كل جهة بل وفي كل ما يعترضه أو يحول دونه وبين هذا القبيل في حركته وفي هذه الاثناء قام مصطفى بو مزراق (باي تيطري) بحملة ضد قبيلة الاربعاء فحجز أثناءها 120 من أعيانها واستولى على 10700 جمل بيعت في مكانها لقبائل القوم ثم عادت الثورة جدعاء سنة 1241 هـ/1826م، وفيها قام نفس الباي بحملة ضد اولاد مختار الشراقة، عادت عليه بغنائم تقدر بـ500 جمل و 4000 خروف.

ويومئذ حطم الزلزال الهائل كلا من مدينتي البليدة والقليعة وأعيد انشاؤها بمساعدة الاتراك واشراف يحيى آغا على ذلك وجاء باي قسنطينة الحاج احمد صحبة يحيى آغا الى مدينة بونة - عنابة - للقيام بمراقبة حصونها والنظر في تنظيم البلد واصلاح شأنها فأمر بانشاء حصن تجاه البحر لمواجهة العدو من هناك ووضع فيه من الاسلحة مدافع سويدية واصلح من شأن سير نظام التموين الخ.... ويومئذ اشتد أمر القرصنة التركية بهذا البحر فاستولى الاتراك على عمارة ايطالية وأوغلوا في التقدم بحرا الى أن بلغوا بحر الشمال.

وفي هذه الاونة (28 صفر 1242 هـ/سبتمبر 1826م) ابرمت معاهدة (آق كرمان) بين الدولة العثمانية ودولة الروسيا وهي في الحقيقة تأكيد لمعاهدة الصلح المبرمة في بوخاريست بتاريخ 17 جمادى الاولى 1227 هـ/1812/5/16م، وكان بموجب المادة العاشرة من هذه المعاهدة والمادة السادسة من معاهدة آق كرمان: الزام الدولة العثمانية بالقيام بدفع تعويضات عن الخسائر التي حصلت لرعايا الروس بسبب -قراصنة الايالات الثلاث: الجزائر وتونس وطرابلس، عن المصادرات التي حصلت في وقت انقطاع العلاقات بين الدولتين في سنة 1221 هـ/1806م وكذلك الاجراءات الاخرى التي هي من هذا القبيل بما فيها ما وقع منذ سنة 1237 هـ/1821م وبمثل ذلك يكون الحال بالنظر لرعايا الباب العالي. وجاء في المادة السابعة من معاهدة (آق كرمان) ان على الباب العالي الاعتناء التام بمنع قرصنات المغرب من تعطيل التجارة والملاحة الروسية بأي حجة كانت واذا حصل منهم شيء من ذلك فبمجرد علم الباب العالي بحدوثه يتعهد من الان بأن يقوم بإعادة جميع المأخوذات التي استولى عليها اولئك (اللصوص

بدون أدنى تأخير وان يعوض على الرعايا الروسيين ما لحقهم من الخسائر وان يحرر بهذا الصدد فرمانا صارما الى البلادالمغربية بحيث لا تدعو الضرورة الى تكراره مرة ثانية وفي حالة ما لم ينفذ مفعول هذا الفرمان فيدفع مقدار التعويض من الخزينة الملوكية الخ...[1] وفي هذه السنة (1826م) قضى السلطان محمود على فرق الانكشارية في مذبحة جرت باسطنبول.

امتداد نشاط الثورة بولاية قسنطينة:

اشتدت وطأة ظلم بعض ولاة الاتراك المستبدين بنواحي مقاطعة قسنطينة، فنشأ عن ذلك اضطراب وقلق عم كامل القطر الجزائري ولا سيما النواحي الشرقية وكان فيمن استنكف في ذلك وثارت به الحمية قبيل النامشة وأهل الاوراس ويومئذ اصدر الداي امره الى الحاج احمد باي قسنطينة بالتوجه نحو هؤلاء القبائل الثائرة للنظر في دواعي هذه الثورة والعمل على اخمادها فخرج الداي صحبة الباشا آغا - أو شيخ العرب - كما يسميه بعضهم، الى الناحية الغربية من عمالة قسنطينة ورفع عن اهلها المظالم وقاتل منهم أولاد سالم القاطنين بموطنهم المعروف باسم «الرحبات» فأخضعهم وارتج باب الفتنة.

محاصرة فرنسا للجزائر:

لا يعلم فيما مضى من تاريخ الجزائر التركية حادث يؤذن باختلاف او نزاع وقع بين حكومة الجزائر وولاية الفاتيكان بروما الى أن وقع اشتباك وتصادم بين السفن الجزائرية ومراكب منسوبة للبابا سنة 1241هـ/1826م ووقع بعضها بين يدي الاتراك فيومئذ اهتبلت فرنسا فرصة هذا الحادث لتتدخل في شؤون الجزائر وارسلت في شهر اكتوبر من هذه السنة سفينة الى الجزائر تحمل احتجاجها على هذا الحادث ودفعت بسفيرها في الجزائر - القنصل دوفال - الى اتخاذ موقف احتجاج صارم ضد هذه العملية التي وقعت بين الاسطول الجزائري ومراكب تنتسب للفاتيكان واخذت في تبرير تدخلها هذا وتتملل بكونها تعتبر نفسها الابن البكر للكنيسة الكاثوليكية والح القنصل على الداي في استرجاع المراكب البابوية الى الفاتيكان فلم يصغ اليه الداي بل أخذ في

(1) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية ص 213 - 212ط القاهرة 1314هـ/1896م.

تقويض المراكز الاجنبية القائمة بمرسى الخرز - القالة - والتي زاد عددها على العدد المقرر اتخاذه وحينئذ شرعت فرنسا في ضرب حصارها على مدينة الجزائر بارسال 18 قطعة بحرية، وعند بداية الحصار طلب قائد حملة الحصار الفرنسية الى وزير البحرية بالجزائر أن يتقدم بنفسه الى السفن الفرنسية معتذرا عن الحادث ومتعهدا بالامتناع نهائيا والانقطاع تماما عن القرصنة وعن المطالبة بالاتاوات مع اعادة اسلاب السفن البابوية والاعتراف لفرنسا بحق الاولوية بالرعاية في الجزائر وأخيرا - ولعله الاهم كما يقول الدكتور صلاح العقاد - هو تخلي الداي عما له من ديون!.. وأجاب الداي عن هذا كله قائلا على طريق التهكم «لم يبق لهؤلاء الا ان يطلبوا امرأتي!... »[1]

واستمر هذا الحصار طوال ثلاث سنوات (1242 = 1244هـ/1827 - 1829م) بدون جدوى وذلك لاستغناء الجزائر عن البحر بما كان يصلها من تونس والمغرب عن طريق البر وفي اوائل شهر اوت من سنة 1827م حضر مترجم سفير فرنسا في استانبول الكونت قبيو مينو**comte guilleminot** لدى الباب العالي وقدم لرئيس الكتاب وهو يومئذ وزير الخارجية مذكرة كتبها السفير - الفرنسي - أوضح فيها وجوب تدخل الحكومة العثمانية لتأديب والي الجزائر الذي اظهر عداء للفرنسيين منذ مدة وقال: « ... وحيث ان الداي قد زاد من تعدياته السابقة بتحقيره قنصل فرنسا في الجزائر، فان جناب امبراطور فرنسا اضطر لطلب ترضية علنية مهددا باعلان الحرب في حالة رفض طلبه، الا ان طلبه قد رفض وعليه فالحرب محققة ». وكان في ختام مذكرته يصرح بمحاصرة السفن الحربية الفرنسية مدينة الجزائر[2] وفعلا وقع الحصار وكانت هنالك معارك بحرية شقي بها الطرفان، بلغت الخسائر المادية فيها بفرنسا الى نحو 7 ملايين فرنكا واذ ذاك اخذت فرنسا تفكر في تدبير خطتها الحربية لاحتلال الجزائر.

---

(1) المغرب العربي ص 90ط القاهرة 1962م.

(2) راجع ارشيف وزارة الخارجية باستانبول. جزائرك طرقندن اشغالي مسائل سياسية (احتلال الجزائر من طرف فرنسا. مسائل سياسية) ملف رقم 708, امذكرة الكونت مينو للباب العالي بتاريخ 2×3 اوت 1827م. السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ص 39ط تونس 1970م.

مشاركة الجزائر في واقعة ناوارين:

منذ أمد غير بعيد ظهرت بأرض اليونان حركة تكتل شعبية ترمي الى التخلص من وطأة الحكم الاجنبي متخذة في ذلك مظهراً خفياً يتشكل في تنظيم هيئات ثقافية ومنظمات سياسية وجمعيات سرية وأهمها كان تلك الجمعية السرية المسمات (هيتيري) وهي كلمة يونانية معناها الجمعية اليونانية الوطنية او جمعية أخوية اسسها المهيجون من اليونان في بلاد الروسيا بمساعدة القيصر - اسكندر الاول- والتي كان غرضها وغايتها استقلال اليونان ومناهضة الإسلام، وأخذ الكثير من اعضائها يقتلون ويسلبون بأسمها وبدعوى المطالبة باستقلال اليونان واستمرت هذه الخلايا السرية منها والعلانية تعمل على تحقيق هدفها سرا الى سنة 1236هـ/1821م حيث احتدمت الثورة اليونانية ضد النفوذ التركي وعاضدها في ذلك كل من الدول الثلاث: روسيا وبريطانيا العظمى وفرنسا وتشكلت في مختلف بلاد اوربا عدة منظمات تسمت باسم جمعيات محي اليونان فجمعت هذه كثيرا من الاموال بالاضافة الى كميات وافرة من الاسلحة والذخائر وتطوع كثير من رجالها في عداد المحاربين وارسلت بذلك كله الى اليونان الثائرة واتفق كل من هؤلاء الحلفاء الثلاث بمقتضى توقيع معاهدة سرية انعقدت بينهم في سان بطرسبورق واخرى في لندن بتاريخ 11 ذي الحجة 1242هـ/1826/6/6م على ارغام الدولة العثمانية بالقوة لمنح بلاد اليونان استقلالها الاداري أو الداخلي على أن يقدم اليونان في مقابلة ذلك جزية يقدر مبلغها فيما بعد، كما انه يقع اتفاق ما بين الطرفين على تحديد التخوم بين اقطار الفريقين... ولكن تركيا لم تحفل بذلك كله.

ويومئذ أصدرت كل من الدول الثلاث اوامرها الى قادة اساطيلها بالتوجه الى سواحل اليونان وفي اليوم الثامن والعشرين من ربيع الاول سنة 1243هـ1827/1/20م تكامل اجتماع سفن هؤلاء الدول المتحالفة ضد الاتراك بمرسي مدينة نأوارين «نافاريسنو» الواقعة بالجنوب الغربي من شبه جزيرة (موري) مطلة على البحر الايوني.

وبينما الاسطول العثماني المتكون من سفن جزائرية وتونسية ومصرية مرابط ببحر يونان للحراسة اذا باسطول الحلفاء المنضوي يومئذ تحت قيادة الاميرال

(كودرنجتون) الانكليزي مقتحما المراكب الاسلامية مخادعا بنشره لاعلام السلم حتى اذا تمكن منها اطلق عليها النيران من جميع الجهات غدرا من غير اشعار ولا انذار بالحرب فغرقت اساطيل المسلمين كلها دفعة واحدة ما عدا مركبين جزائريين سلما من الغرق وقد كان يبلغ عدد مراكب الجزائر في هذه الوقعة ستة عشر مركبا من بينها ثمان بوارج، والكل يحمل نحو اربعة آلاف نسمة فانسحب المركبان الجزائريان الى مرسى الاسكندرية ولم يزالا هنالك الى سنة 1245هـ/1830م ثم لا ندري ما كان مصيرها بعد ذلك؟... وبالفور اعلنت الروسيا الحرب ضد الدولة التركية فوجدت هذه نفسها عند الامر المقضى فاضطرت الى الاعتراف باستقلال اليونان[1].

وما الثورة اليونانية في حقيقة أمرها الا مظهرا من مظاهر الصراع الطويل القائم على أساس النزاع المستمر بين تركيا وروسيا وحيلة من الحيل التي لجأ اليها روسيا للقضاء على تركيا فالروسيون والبلقان هم اخوة في البيئة الجغرافية والطبيعة والمذهب الديني والاخلاق وكان الروسيون قبل ذلك يبذلون قصارى سعيهم وغاية جهدهم للقضاء على تركيا والاتصال بالبحر الابيض المتوسط، فلما عجزوا عن ذلك عن طريق القسنطينية حاولوا أن يبلغوا غايتهم عن طريق اثارة شعوب البلقان بدعوى العمل على تحريرها من الحكم العثماني وهم بذلك يرمون الى احدى الغايتين اما ان تندمج بهم واما أن يصبحوا هم ذوو الكلمة النافذة والتصرف في مرافقها ونواحيها. وكانت دول اوربا تعرف هذه الحقيقة ولهذا تدخلت في المسألة اليونانية وعملت على انهائها، ولو لم ير الانكليز والفرنسيون والنمساويون شبح اروسيا ماثلا خلف دخان الثورة اليونانية لما تدخلوا أو أعانوا اليونان على غرضهم.

فمن الخطأ اذن ان ننظر الى ثورة اليونان على أنها كانت ثورة شعب ثقلت عليه وطأة الحاكم الاجنبي فسعى بنفسه تلقائيا يطلب استقلاله أو قام يكافح في سبيلها، نعم كان فيها شيء من ذلك ولكنه لم يكن هو كل شيء.

---

(1) راجع تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد ص 206 - 218 ط مصر 1314هـ/1896م. وصفوة الاعتبار لمحمد بيرم الخامس ج 4ص 43وج 5 ص 55 3 ط مصر 1303 - 1311 هـ والمسألة الشرقية لمصطفى كامل باشا ج 1ص71 - 125ط القاهرة 1326هـ/1909م.

فثورات اليونان اذن ما هي الا – كما ذكرنا – مظهر من مظاهر الصراع الطويل المستمر بين روسيا وتركيا ولم يكن اليونان انفسهم الا آلة بيد الروس يحركها كيف يشاء[1].

ونعود الى الجزائر فلا نرى – فيما علمناه عن هذه الفترة (1243هـ/1827م) من احداث الوطن بعدما ذكرناه مما يستحق التسجيل سوى حادثة الزلزال الهائل الذي عم نواحي سهل متيجة وكان سببا في تحطيم مدينة البليدة فجددها الداي حسين بمعاضدة أهلها ومشاركتهم الفعالة في حركة البناء والتشييد تحت اشراف يحيى آغا، أو ما كان من تولية الحاج احمد بن محمد الشريف وهو أول ولاة العرب ترأس على بايلك قسنطينة على عهد الاتراك، تعين في مكان الباي محمد مانالي المعزول عن وظيفته فصرف هذا الباي الجديد همته ووجه عزيمته الى توطيد دعائم ولايته هذه وتوثيق الروابط والعلائق بينه وبين الرعية ولم يلبث الا قليلا فنشأ بينه وبين قائد القوات العسكرية الآغا يحيى خلاف منشأه مجهول؟... اودى بعزل الآغا المذكور.

قضية ديون فرنسا وشركة باكري بوشناق اليهودية:

كان ابتداء علاقة الحكومة الجزائرية بالدولة الفرنسية منذ الثلث الاول من القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي – أي حين انعقدت معاهدة الصداقة بين الحكومتين تلك المعاهدة التي توصل بها ملك فرنسا – فرانسوا الاول – الى استنجاد خير الدين حين أغارت جيوش شارلكان – ملك الاسبان – على أرض فرنسا 932هـ/1526م فانجده حاكم الجزائر هذا وأعانه على رد عادية عدوه عن بلاده، وفي سنة 942هـ/1535م حارب الفرنسيون سلطنة جنوة مستمدين في حربهم هذه أيضا دولة الجزائر فأمدتهم بقواتها البحرية والمالية فانتصروا على خصومهم واعدائهم المغيرين على سواحلهم من جنويين وغيرهم.

وفيما بعد الثورة الفرنسية الكبرى عزم نابليون على غزو ايطاليا ومصر (1207هـ/1798م) وشعر بحاجته الاكيدة الى الميرة والاقوات فالتفت الى الجزائر مستمدا اياها في ذلك ايضا فأمدته هذه بأنواع الحبوب والزرع

(1) الشرق الاسلامي ص 206 – 207 ط القاهرة1938م.

واستقرضها مالا فأقرضته واستمر الداي على مد يد المساعدة الى حكومة فرنسا الملكية والديريكطوارية او القنصلية الى ما شاء الله... وبذلك تغلبت هذه على المجاعة وانتصرت في ثورتها وقهرت اعداءها.

وذهبت فرنسا في طريقها مستمرة على استيراد القمح من الجزائر بواسطة الشركة الفرنسية «أجانس ناسيونال دافريك» بسعر لا يتجاوز اثنين واربعين فرنكا للقنطار الواحد فما راعنا الا وفرنسا تحول نظرها عن هذه الشركة فتضرب عنها صفحا لتعقد صفقة معاملة جديدة مع شركة يهودية كانت محتكرة لحبوب الجزائر وأخشابها وتلك هي شركة يعقوب كوهين بوخريص (باكري) وبوزناك أو بوشناك من يهود ليفورن المستوطنين بالجزائر منذ أن طردوا من ايطاليا سنة 1184هـ/1770م.

وبما أن اليهود عرفوا من قديم - من ايام الفينيقيين والأراميين بل من عهد عبادتهم للعجل الذهبي - بتهالكهم على الاصفر الرنان وشغفهم بالتجارة فعمل هؤلاء على الحصول على اذن خاص وتفويض من الداي حسن المتوفى سنة 1213 هـ/1798م في التعامل بالتجارة مع الخارج ثم تأكد لهم الامر بما حققه لهم بعد ذلك الداي حسين سنة 1233هـ/1818م ويومئذ اخذت هذه الشرذمة من اليهود في التمتع بحق الانفراد في التخصص باحتكار الحبوب والزرع فوضعت بذلك يدها حتى على البنوك، وبذلك عرفت كيف تقبض على دواليب الدولة.

ثم أن هذا التعاقد الذي وقع بين فرنسا والشركة اليهودية هذه بشأن الحبوب كان على معدل من السعر يبلغ المائة وعشرين فرنكا للقنطار بدل 42 فرنكا وهذا مبلغ باهظ كما ترى... ورغم هذا البون الشاسع والارتفاع الفادح في السعر فلم نر لحكومة فرنسا أي تحرج ولا أدنى حركة تشعر بمراجعة الاسعار فما معنى ذلك؟... انه لعمرك تعاقد مريب؟ نعم لقد فسره بعضهم بما كانت عليه حال الخزينة الفرنسية من العجز عن دفع ثمن شحنات القمح نقدا، فقبلت الحكومة لهذا السبب التعامل مع الدار اليهودية على هذا المعدل مؤجلا على الرغم من السعر الباهظ، وقد يكون هذا التفسير صحيحا؟ ولنسلط عليه نحن ضوءا آخر قد نهتدي به الى الكشف عن السر في ذلك، وهذا الضوء هو ما حققه بعض المؤرخين الباحثين من أن هناك تدبيرا مبيتا وقع باتفاق سري

مشترك بين الشركة اليهودية وبعض الخونة من الفرنسيين الموجودين حالا من بين اعضاء السلك الديبلوماسي القائم بالقنصلية الفرنسية هنا بالجزائر وذلك بمالأة من كان على غررهم من وزراء فرنسا الممثلين في شخص وزير خارجيتها القس (طاليران)، ولقد شاع من كلمات ابراهيم بوخريص قوله «لو لم يكن الاعرج – وهو يشير بذلك الى طاليران – ملك يدي ما كنت لاستطيع أن افعل شيئا في باريس».

وكان الغرض من هذه المؤامرة اليهودية الفرنسية اقتسام الارباح بين اعضائها المتآمرين بدون أن يكون للخزينة الجزائرية أي إنتفاع رغم أن حكومة الداي هي صاحبة الحق الاول في هذه الارباح وهكذا اسفرت هذه الصفقة الغادرة عن خيانة شعب بأكمله وخسر بذلك الطرفان معا – فرنسا والجزائر – اموالا ضخمة، ولم ينتفع بها سوى هؤلاء الخونة الغادرين أرباب المصالح الشخصية حسبما كشف عن ذلك البحث العلمي النزيه وأطلع على ذلك بنفسه القنصل الفرنسي (جان بون سانت اندرى) وعلم بذلك الداي.

واستمرت الجزائر تمد فرنسا بالحبوب وتقدم لها القروض المالية من غير فائض ولا سيما عندما افلست خزينتها تحت حكومة (الديريكوار)[1] مما جعل نابليون بونابارت ايام قنصليته يزجي شكر دولته الحار الى الحكومة الجزائرية التي انكر الاستعمار الفرنسي نفسه سيادتها الدولية ووحدتها الاقليمية يوم أن قام رئيس الجمهورية الفرنسية الجنرال دوغول يذيع على الناس بواسطة امواج الاذاعة والتلفزة (1959/9/16م) متحديا للتاريخ متبجحا بقوله انه لم تكن هناك وحدة للقطر الجزائري ولا سيادة جزائرية منذ بدء العالم... بل لم يوجد بهذا القطر في أي لحظة كانت ولا في أي شكل من الاشكال دولة جزائرية!!... هكذا يقول دوغول!..

واتصلت المعاملة التجارية بين الجزائر وفرنسا على يد هذه الشركة، وكانت الشركة مدينة لخزينة الجزائر بمبلغ 300000 فرنك ولتجار آخرين بمبلغ ضخم من المال في مقابلة ما ترتب عليها من ثمن ما اشترت به الصوف من الحكومة

---

(1) هو اسم نظام الحكومة القائم بفرنسا من 1795/10/27م الى 1799/11/9م حيث قلب نابليون هذا الحكم الى نظام يعرف بالنظام القنصلي.

الجزائرية ولم تسدده، وكلما طالبت حكومة الداي والتجار الدائنون أو الغرماء هذه الشركة بالمحاسبة أو ابراء الذمة بالتسديد ماطلت هذه الشركة وأخذت في الاعتذار والتلكؤ والتسويف زاعمة انها هي الاخرى لا تزال تنتظر من فرنسا تسديد الدين فكان ذلك لزاما على حكومة الداي أن تتدخل في قضية باكري مع فرنسا بموجب أن باكري جزائري الجنسية وهو الى ذلك حاخام اليهود في الجزائر تجب حمايته كبقية الرعية. وهناك رواية تقول عن هذا التجمد بانه كان بايعاز من وزير خارجية فرنسا الى زميله وزير المالية لكي تبقى الشركة اليهودية تحت ايديهم لا تتحول عن مصالح فرنسا. ثم انها الى ذلك تبقى مدفوعة الى التحفظ في طريقها للعمل مع الانجليز خصوم فرنسا في هذه الفترة، وكان من الممكن جدا أن يستولي الداي على مال الشركة اليهودية بما له من النفوذ السياسي في البلاد ويستخلص منها ما في ذمتها من مال الحكومة وما يرجع منه للدائنين، ولا شك أن الداي لاحظ كل ذلك، ولكنه رأى نفسه في مأزق من حيث ان اغلب معاملات الدولة مع الخارج كانت بيد هذه الشركة وجميع موارد البلاد واقتصادياتها هي مرتبطة بهذه الشركة فكيف العمل والبلاد يومئذ في حال ضعف سياسي وتخلف ثقافياً وعسكرياً، فما كان عليه الا أن يصير للقاضي فأجرى اعماله على طريق القضاء، ولكن الحقيقة ان هناك مخادعة وقعت من الشركة المذكورة فهي التي تراخت في سعيها لقبض ما تجمد وتحجز من المال امعانا منها في تعقيد القضية قصدا لاحداث مشاكل مع فرنسا ليست في صالح الجزائر، واتخذ طاليران لنفسه موقف الدفاع عن هذه الشركة فكان لا يفتأ أن يوصي وزير المالية الفرنسي بأنه لا ينبغي له أن يعتبر هذه القضية كمسألة شخصية جرت بين أفراد تجار وانما هي مشكلة حكومية ناشئة بين دولتين.

واستمرت فرنسا على استيراد القمح من الجزائر بمعدل مليون فرنكا سنويا الى أن تجمع لديها من الدين الذي ارتفعت ارباحه الى أربعة وعشرين مليونا فرنكا بمعدل فرنك ذلك العصر ثم انحط الدين الى ثمانية عشر مليونا، كل ذلك والشركة متدثرة بالكتمان لا تحيط الداي بشيء من الايضاح حول قضية هذا الدين، ثم بعد مرافعة وتحاكم قضائي استغرق عدة سنوات تشكلت سنة 1819 لجنة لدرس قائمة الحساب هي مركبة من ثلاثة خبراء فرنسيين.... وأخيرا

قررت هذه اللجنة بأن للجزائر الحق في مطالبة فرنسا بمبلغ سبعة ملايين فقط وأكدت قرارها هذا بظهير مؤرخ بيوم 8 المحرم 1235هـ/28 اكتوبر 1819م وصوت عليه مجلس النواب يوم 24 جويلية 1820م وحقق البحث القضائي أن الشركة كانت استلمت من فرنسا مبلغا من المال قدره 3175631 فرنكت على أن تسلمه الشركة الى حكومة الجزائر ولكنها لم تفعل.

ولا عجب!.. فان من اطلع على خفايا سيرة حياة اعضاء هذه العصابة الخسيسة وسير هذه الشركة المريب وخبر معاملاتها واتصالاتها المشبوهة لا يستبعد كل ما وقع... وتمادت الحكومة الفرنسية على اتصالها بهذه الشركة في استيرادها للقمح ولا سيما عندما أزمع نابليون على تحقيق غرضه لغزو القطر المصري سنة 1212هـ1798م حيث اخذت الجزائر تمون البلاد الفرنسية رغم اعتراض الشعب الجزائري وارتفاع صيحات الرأي العام هنا وهناك وتحذير الانكليز من ذلك ولكن ذلك لم يمنع من توالي المدد الجزائري وعندما تصدت حكومة الداي لمطالبة الدولة الفرنسية بتسديد الدين نصحها طاليران بأن تطالب في ذلك نابليون بمصر.. وما ذلك في الحقيقة الا فرارا من دفع الدين واستفزاز لحكومة الجزائر حتى يتكون وينشأ عن ذلك مشكل مسوغ للاعتداء على الجزائر. وظهر ذلك جلياً من الإنذار الذي أرسلته وزارة الخارجية الفرنسية إلى محمد غالب أفندي سفير الباب العالي في باريس ذاكرة فيه أنها لن توافق على دفع المبلغ إلى داي الجزائر بأي حال من الأحوال.

ويوم أن انبرى الداي لهذه الشركة وكشف عن خيانتها وشدد عليها الخناق لتدفع ما تجمد لديها من الاموال (8 المحرم 1235هـ/28 اكتوبر 1819م) التجأت الى المراوغة بأساليب وتدابير ديبلوماسية ملتوية متركزة على المداجاة والرشوة وقد نال السفير الفرنسي ومندوب الشركة بفرنسا - نيقولا بليفيل - من هذه الرشوة يومئذ مليونان فرنكا!... وأخيراً اظهرت الحكومة الفرنسية استعدادها لدفع اعتماد الى الحكومة الجزائرية بمعدل 583000 فرنكا اسبوعيا وبقي الداي في انتظار الوفاء من فرنسا بتنجيز وعدها هذا فلم تف به ومضت الاسابيع وانقضت الشهور وما اتصلت الجزائر من ذلك الدين ولا بنصف فلس أو دانق!...

ثم بعد تماطل طويل وتوان ممل وتلكؤ وتمنع وأخذ ورد تمطيطا للقضية ونقاش حاد امام البرلمان الفرنسي انتهت القضية باعتماد المبلغ المطلوب في 13 شوال 1235هـ /24 جويلية 1820م وشرعت فرنسا في العمل على تسديد أكثر الدين حتى اذا ما بقي منه نحو مليونين ونصف المليون نهضت يومئذ جماعة فرنسية بمرسيليا تدعي بأنها من غرماء الشركة اليهودية المذكورة مطالبة بحجز ما لهذه الشركة من المال المتخلف أي المليونان ونصف المليون بوضعه في صندوق الودائع حتى تبرأ ذمة الشركة من الديون المتبوعة بها واستصدرت في ذلك أحكاما ورسوما من محاكم فرنسية وكلها جاءت في صالح دعواها هذه ومفادها: ان التجار اليهود كانت عليهم ديون لفرنسيين كانوا قد التجأوا الى المحكمة، وفي النهاية دققت الحكومة الفرنسية بواسطة لجنة في ديون اليهوديين واغلقت الحساب بسند مؤرخ في سنة 1819م ووضعت يدها على قسم من النقود التي تعطى للتجار اليهود معتمدة على مادة في السند[1]. فكانت بذلك أشبه بمعاملة سان لويس St . Louis ملك فرنسا للمسلمين ايام حركته الى تونس سنة 669هـ/1270م من نكث العهود ونقض العقود وما أشبه الليلة بالبارحة - ذرية بعضها من بعض -.

واحتج الداي يومئذ لدى القنصل الفرنسي على هذا السلوك الشاذ نحو الجزائر معترضا على المحكمة الفرنسية في تدخلها في الفصل في قضية خارجة عن اختصاصها فهي قضية خلاف جرى بينه كحاكم دولة وبين اثنين من اليهود يعتبران من رعاياه وطالب بتأدية الاموال المحكوم له بها كاملة غير معترف بما اصطنعه الغرماء ودبره الخصوم حديثاً وأن تكون كذلك مرافعة التجار والغرماء في مجلس القضاء بالجزائر وأنه مستعد لرد هذا المبلغ في مدة24 ساعة في حالة ما إذا كان احد رعاياه مدينا لملك فرنسا. وكان الداي في ذلك على حق اذ لا ينبغي أن يكون الفرنسيون - وهم الخصوم - حكاما في القضية بل يعد هذا تحكما وفضولا منهم. ولكن القنصل أو السفير الفرنسي تصامم عن احتجاج الداي معلنا صوته الى

---

(1) آرجمنت كوران: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ترجمة عبد الجليل التميمي ص 33 ط تونس 1970م.

جانب هؤلاء الغرماء وزاد على ذلك فادعى انه لا يرفع الحجز الا بضمان يقع لمن يرضى به الغرماء فغضب الداي لهذه المواطأة المفضوحة وكاتب رأسا الى ملك فرنسا المستبد شارل العاشر (22 المحرم 1242هـ/26 أوت 1826م) رسالة معلناً له فيها بسخطه وما كان يجده في نفسه من القلق حول الديون المترتبة على فرنسا نحو الجزائر ومحتجا على ما قامت به حكومته من تدعيم المركز الفرنسي بالقالة وحشده بالاسلحة والذخائر الحربية وذلك يعد خرقا لنصوص الاتفاقيات المعقودة بين الحكومتين حول حقوق الامتياز وبعد أن تكررت المكاتبة من الداي ثلاث مرات أحاله الملك شارل على سفيره القنصل المشبوه بالجزائر، وعندئذ أيقن الداي بأن امواله وجميع حقوق دولته ضاعت فيما بين تسويفات الحكومة الفرنسية ومخادعة وزيرها طاليران ودسائس الشركة اليهودية وحظوة مندوبها بباريس (نيقولا بليفيل) وتلاعب القنصل الفرنسي (دوفال) وما يحدثه هذا من مشاكل وتعقيدات حول حل هذه القضية ويومئذ وقع في نفس الداي نوع من التوجس ولا سيما حينما اعترفت الحكومة الفرنسية بالجدارة والاستحقاق لشركة باكري متناسية تماما ما لحكومة الداي من الحقوق وأخيراً شعرت الغرفة التجارية بمرسيليا بأنه قد تم شيء من الاتفاق السري بين باكري ودوفال للعبث بمصالح الحكومتين معا: فرنسا والجزائر فأعلنت رفض التعامل مع هذا القنصل ووصفته بالرجل الفاسد ويصفه المؤرخون الفرنسيون أيضاً بأنه كان مشهوراً بالمؤامرات الدنيئة والخبث وسؤ الطوية وفساد الخلق... ولم يكن أهلا للثقة في شيء ومضى الداي يشكو سوء معاملة دوفال بعدما تحقق لديه ما ابتلي به القنصل من الارتشاء وما اشتهر به من حبك المكائد ونصب الحبائل فأبلغ حكومة فرنسا ما تم - في الخفاء - من الوعود والمواثيق بين شركة بوخريص - باكري - وعامليها: القنصل دوفال وبليفل Pleville من منحهما مليونين من الفرنكات اذا هما حصلا لها على الملايين السبعة المتجمدة لدى الحكومة الفرنسية، «دوماس» ملتمسا منه (ربيع الاول 1242هـ/ اكتوبر 1826م) سحب القنصل المذكور من وظيفته بالجزائر وكان مما كتبه الداي الى وزارة الخارجية الافرنسية في شأن القنصل دوفال ما يلي «.. انني لا استطيع احتمال وجود هذا الدساس لدي فقد علمت من التاجرين بانها ووكيلهما في فرنسا» نيكولا بليفيل «قد اعطياه مبلغ مليوني فرنك ليساعدهم للحصول على

مبلغ سبعة الملايين فرنك التي دفعتها الحكومة لهم. »

ثم أنه نصح الحكومة الفرنسية بأن تسترد المال من القنصل لانه من العار أن يكون ممثل الحكومة خائنا لها، وختم رسالته قائلا: « واذا أرسلتم قنصلا جديداً، ذا اخلاق حسنة، فانه سيلقى منا كل عطف على اعتبار أنه يمثل دولة صديقة ». ولكن فرنسا لم تسمع لهذا النداء فلم تلتفت إليه ولا أعارته بالا.

ولما رأى الداي أن جميع اعماله ومحاولاته وكل أقواله هذه ذهبت سدى وأن جميع هؤلاء المشاركين في قضية الدين هم متواطئون ضد الجزائر، أخذ يومئذ موقفا حاسما تجاه حركة سير السفن والمراكب الفرنسية فمنعها من التحكك على الساحل الجزائري وعمل في التضييق على مراكزها التجارية بالسواحل وأذاع بيانا يسمح فيه لجميع الدول بصيد المرجان الموجود بهذا الساحل مستثنيا في ذلك فرنسا.

وما كاد أمر اليهوديين يعقوب كوهي بوخريص أو - باكري - وصاحبه بوشناق أو بوزواك - يفتضح، وحالها ينكشف حتى هربا وتسللا من الجزائر خفية ولكن هذا بعدما اتما دورهما في العمل على تخريب البلاد وذبذبة السياسة الخارجية للجزائر وذلك بما كان لهما من التدخل في شؤون البلاد، فنزل احدهما بليفورن والاخر بباريس وتجنس كل منهما بالجنسية الفرنسية فرارا من محاكمتهما بالجزائر مع تطبيق واجراء قوانين الاجرام عليهما، وما دريا انهما تركا وراءهما سبة ولعنة باقية ومعرة تتبعهما في معرة الى يوم القيامة.

ما هذه المناورة الدنيئة أو الخطة الخسيسة التي دبرتها هذه الشركة اليهودية بالاشتراك مع نفر من كبار ساسة فرنسا الا مؤامرة خبيثة وخيانة شنيعة أريد بها سرقة مالية الدولة، فكان اليهود أو الاسرائيليون في ذلك كمخلب حيوان مفترس بيد الفرنسيين لاختطاف الجزائر واختلاسها.

ومن خلال دراستنا لهذه المناورات التى احدثتها مشكلة الدين هذه نجد أنفسنا مضطرين الى أن نستدل بها على النتيجة الآتية وهي أن السياسيين الفرنسيين كانوا يرمون من وراء كل ذلك الى غصب حاكم شرقي في بلد اسلامي بضعة ملايين من الفرنكات واذا ما طالب بها كان في نظرهم مسيئا معتديا على شرف دولة محترمة كدولة فرنسا فتجب مقاومته!!...

والواقع ان هذه القضية بلغت من التعقيد والاشكال ما جعلها في صف

مشاكل العالم المعقدة التي لا تحل، وقد كان خليقا بالداي - كما ذكره حسين مؤنس - أن يجعل علائقه مع الفرنسيين خالصة مباشرة دون حاجة الى وساطة البكرى او غيره وكان يستطيع أن يتخذ لنفسه وكيلا في باريس يشرف على تجارة القمح ويحصل له المال، لان اطلاق يد هذين اليهوديين كان جديرا أن يدلع بها الى الافساد والتضييع[1].

ولو حضر هذه الحادثة في ذلك اليوم رجال الصحافة والاذاعة والتليفزيون أو حدثت في أيامنا هذه لقورنت في تقاريرهم الرسمية ومقالاتهم الطويلة الذيل المسترسلة بفضائح ومخازي لصوصية ستافيسكي الشنيعة وامثالها!!.. ثم أنهم لا يجدون لها مثيلا!..

القرصنة الجزائرية هو عمل ضروري مشروع يحتمه الأمر الواقع وشيء يفرضه القيام بالواجب:

قد يبدو هذا العنوان لاول وهلة لدى بعض الدارسين أو القراء الغير المتخصصين عنواناً مفاجئا غريبا وفي آن واحد هو مرعب ومدهش أيضاً!.... حقاً هو كذلك، ولكنني التمس من القارىء شيئا قليلا من التريث والتمهل في الحكم مع الصبر على مطالعة هذا الفصل بتمامه وكماله ثم بعد التأمل فيه بامعان وتدبر فليعلن القارىء حينئذ رأيه وحكمه جهرة من غير تلعثم ولا تهيب ولا محاباة ولا مداراة وانني متأكد بأنه سيكون بجانبنا موافقا على حقيقة هذا العنوان وصدقه.

وذلك أن الحقيقة المجردة التي نشأت عنها القرصنة في التاريخ عموما هي البحث الدائب عن الثراء عن طريق سفن منفردة تجوب عرض البحار كما انها الى ذلك بالنظر الى اصلها هي حرفة اكثر منها جريمة أو لون من الوان المضاربة في المغامرة بكل محتملاتها المجهولة بدليل انه حينما كانت سفينة غريبة وهي تباشر عملها عبر هذا البحر المتوسط تلقى سفينة اخرى تحييها بالقاء هذا السؤال:

---

(1) راجع تحفة الزائر ج 1 ص 81 - 82 ط الاسكندرية 1903م والشرق الاسلامي ج 1ص 313 - 321 ط مصر 1938م. - - ch. Andre julien, Histoire de l'Afrique du nord p: 574 578 paris 1931

هل انت من قرصان البحر أو من التجار؟... ولم يكن يقصد بهذا السؤال تأنيب أو هو يعتبر كذلك[1] بيد أنه منذ بداية القرن السادس عشر حتى موقعة ليبانتو عام 1571م صار مسلمو شمال افريقية شديدي الحنق على كل الدول المسيحية ومصدر فزع دائم في البحر للملاحة الاسبانية الفرنسية وسفن جنوة والبندقية والسفن الانجليزية.

نعم انه انعقد مؤتمر دولي في مدينة «ايكس لاشابيل» - بحدود المانيا الغربية - بتاريخ 29 ذي القعدة 1233هـ/30 سبتمبر 1818م اشترك فيه كل من دولة بريطانيا العظمى وفرنسا، وهولاندة وايطاليا واسبانيا والبرتغال وكان فيما قرره هذا المؤتمر في اجتماعاته الغاء عملية القرصنة واعتبار هذا عملا عدائيا!... ثم عمل هؤلاء على تبليغ قرارات المؤتمر الى حكومة الجزائر بواسطة ايفاد عمارتين احداهما انكليزية والاخرى فرنسية وتناسوا بعد انفسهم في تسلطهم جميعا على البلاد الاسلامية شرقا وغربا وما كانت تقوم به الامبراطورية المقدسة عموما وامبراطورية هابسبورغ خصوصا من حملاتها المتكررة ضد المسلمين الخ... فلذلك لم يعرهم الداي أي اعتبار غير أنه افادهم علما بأنه يستحيل على حكومته ان تتخلى عن حقها في الاشراف على ما يجري في هذا البحر للاطلاع على البواخر المعادية وانها بذلك تعمل على صيانة استقلال بلادها... واستمر الداي يعمل على خطته البحرية المرسومة ضد اعدائه وأطرد القنصل البريطاني «ماكدونيل» Macdonelle من مقر سفارته بالعاصمة.

وربما تطرف الجزائريون في هذه المعاملة واشتدوا في مطاردة السفن المعادية بعنف وربما أنزلوا بموانىء الخصوم كثيرا من الاذى... نعم كل ذلك صحيح ولكن اعمالهم هذه كما جاء في كتاب (الشرق الاسلامي ج 1 ص 292): لا توصف الا بانها جهاد ودفاع عن الاوطان وردفعل من جنس العمل ونفس النزعة المنبثقة في أوساط المعسكر المسيحي، جزاء وفاقا فقد فقد جاء في المثل قديما: (كن قرصيا تجدني قرصيا ونصفا)، والواقع ان الافرنج هم كانوا أسبق من الناس الى هذه الطريقة طريقة القرصنة لغزو بلاد الاسلام والاستيلاء على اساطيل المسلمين في عرض هذا البحر والاعتداء على ضفافه المسلمة، منذ كان سقوط دولة الموحدين كما حكى ابن خلدون اذ قال:

(1) تاريخ العالم ج 6 ص 613 ط القاهرة بدون تاريخ.

:« كانت امة الفرنج وراء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم تغلب ودولة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره وسردانية وميورقة وصقلية وملأت اساطيلهم فضاءه وتخطوا الى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها وعادت لهم سورة التغلب في هذا البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم الى آخر دولة الموحدين بكثرة اساطيله ومراكبه فغلبهم الافرنج وعادت السورة لهم وزاحمتهم اساطيل المغرب لعهد بني مرين اياما، ثم فشل ريح الفرنجة واختل مركز دولتهم بافرنسة وافترقت طوائف في اهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية وأصبحوا دولا متعددة فتمت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل افريقية لغزو بلادهم، وشرع في ذلك اهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ويصطنعون الاسطول ويتخيرون به ابطال الرجال ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ويصادمون ما يلقون من اساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والسبي والاسرى، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلد بضجة السلاسل والاغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدائهم بما يتعذر منه او يكاد، فشق ذلك على امم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلك ذلا وحسرة وعجزوا عن الثأر به، وصرخوا على البعد بالشكوى الى السلطان بافريقية فصم عن سماعها وتطارحوا اسهمهم ونكلهم فيما بينهم وتداعوا لنزول المسلمين والاخذ بالثأر منهم...[1]

ومع ذلك لم تكن الجزائر لتفعل.اكثر مما كان يفعله البرتغاليون في هذا المجال في كل البحار وبجميع الموانيء، فقد كانت أمم النصرانية كلها متضافرة على أعمال القرصنة باعتبارها السلاح الوحيد والوسيلة المشروعة لمقاومة المسلمين والانقضاض عليهم كما صرح بذلك القس دان Le Pére Dan وقد كانت مدائن ايطاليا وفرنسا واسبانيا كلها اعشاشا للقراصين يقيمون فيها ومنها يندفعون للغزو والسلب، والانكليز انفسهم كانوا في هذه العصور قراصين، وما نشأت البحرية عندهم الا عن القرصنة!... فلم تكن اذن هذه الحال الغير النظامية

(1) تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 399 - 400 ط. بولاق 1284هـ

مقصورة على المسلمين كما هم متهمون به من طرف الخصوم.

يقول الاستاذ ف. بروديل في بحثه عن الاسبان والمغرب العربي بالمجلة الافريقية (1928م): ان القرصنة لم تكن في غرب البحر المتوسط بالشيء الجديد فمنذ قرون عديدة كان المسلمون وكان المسيحيون يقومون بأعمال القرصنة في البحر ولا يحق لنا أن نغالط التاريخ فان القراصنة المسيحيين كان عددهم كبيرا جدا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر بهذا البحر المتوسط.

وأيضا فما دامت القرصنة هي وسيلة من وسائل التجارة المتعارفة وطريق لاكتساب الرزق والعيش في ذلك الزمن فقد كان من الطبيعي أن يلتجيء اليها أهل الجزائر كما التجأ اليها غيرهم من الامم حكومة وشعبا، ولا سيما وهم قوم بحريون يحسنون الملاحة وشؤون البحر، وقد كان فيهم على الخصوص طائفة من الجالية الاندلسية المضطهدة التي اخرجت من ديارها طريدة مشردة في البلاد لا تملك من حطام الدنيا شروى نقير!.. فماذا يا ترى تجدها تصنع؟.. وقد اوذيت واستذلت من طرف العدو؟....

اذ لا يخفى وانه كان للاسبان والبرتغال يومئذ قراصنة أقوياء يعترضون في كل البحار سير السفن الاسلامية وخاصة على سواحل المغرب العربي وازدادت هذه القرصنة على السواحل المغربية جرأة وعدوانا عندما حم القضاء بمسلمي الاندلس واخذت بقاياهم وفلولهم تخترق البحر قارة بدينها وشرفها وأموالها وبقايا متاعها الى سواحل الشمال الافريقي فكانت سفن القراصنة الاسبانية والبرتغالية تستحوذ على السفن الاسلامية وتسبي من فيها من رجال ونساء وتأخذها مع ما فيها من متاع[1] وهذا ما رواه لنا كتاب الغرب انفسهم ونشروه بأنفسهم على صفحات الكتب والمجلات، ومن ذلك ما قصه علينا سواريس Suarez montaney بالمجلة الافريقية (1864 - 1865م ص 251) اذ قال:

«وبمجرد ماوقع الاستيلاء على مملكة غرناطة وساحلها - آخر القرن الخامس عشر الميلادي - اخذت البحرية المسيحية لقرطاجنة - الاسبانية - تظهر في البحر المتوسط وفي شواطيء بلاد البربرسك وكانت تجهز السفن الكبرى

---

(1) حرب الثلاثمائة سنة للاستاذ المدني ص 74 - 75

والزوارق والمركبات الحربية المزودة بالمجاذف والاسلحة وكانوا يتوجهون الى الامام بدون خوف وكانوا يغيرون مرارا على سواحل مملكة تلمسان الموجودة امام جنوب قرطاجنة فيصلون اليها بعد اربع وعشرين ساعة من الابحار في جو هادىء وخصوصا اقليم وهران الذي هو أقرب أرض من اسبانيا وكان العرب Les moros يضطرون للقيام بالحراسة ليلا ونهارا في اعلى الابراج ووضع الحرس بمينائي وهران والمرسى الكبير، وكان المسيحيون يضعون مرارا الكمائن في داخل الخليج وحتى في اليابسة قصد اسر العرب الذين كانوا يسافرون فرادي من ناحية الى اخرى على طريق البر والبحر، وكثيرا ما كانوا يهاجمون في وسط الليل على القرى الصغيرة الساحلية في ضواحي وهران والمرسى الكبير كالونزة وبوصفر وكرارة وكاناستيل شرقي وهران وقرى بحرية أخرى وكانوا يدخلون الى الارياف ويغزون العرب على بغتة دون أن يبتعدوا عن البحر ثم يرجعون الى مراكبهم بسرعة بالغنائم أو بدونها عندما كانوا يشعرون أن السكان قد استيقظوا لهم، وكان عرب مملكة تلمسان لم يعرفوا الى ذلك التاريخ القراصنة المسيحيين الذين أخذوا يقلقون راحتهم ويسبونهم في البر والبحر»[1].

ففي هذه الفترة تميز القرصان المغاربة بنشاطهم الجبار بما كان لهم من سفن محكمة الصنع والاعداد وموارد ضخمة وجرأة على المغامرات ودراية بفنون البحر كاملة وقواعد بحرية على الشواطىء أحكمت حمايتها.

وكان مما زاد في حماس هذه المعارك والحروب القرصانية من طرف الجزائريين هو اتصال هذا الوطن بالباب العالي وارتباطه بالسلطنة العثمانية - ولو نسبيا - وكانت الدولة العثمانية يومئذ في حرب مستمر مع القوى الاورباوية فلم يكن للجزائر بد من مشاركة دار الخلافة في الدفاع عن حوزة الاسلام والجري على مقتضى سياسة الخليفة العثماني رغم كل العواقب، وقد كان هذا ماشيا مع التقاليد الدولية في القرن السابع عشر والثامن عشر فكانت الاوضاع اذ ذاك تبيح مثل هذه الاعمال الانتقامية بين رعايا الدول حتى دول غرب اوربا عندما لا تكون بينها حرب.[2]

ومع ذلك فهنالك أمثلة عديدة ضربها البحارة الجزائريون في احترام

---

(1) ابن اشنهو؛ دخول الاتراك العثمانيين الى الجزائر ص 24 ط الجزائر 1392هـ/1972م

(2) تاريخ العالم مجلد 6ص 141.

النظام، فقد ذكر ان سفن الدول المحايدة كانت اذا وقعت في يدي هؤلاء البحارة جروها الى ميناء الجزائر، فإذا وجدوا فوقها بضائع لدول معادية استولوا عليها ثم خلوا سبيل السفينة.

وكانت المشكلة التي تصادفهم دائما هي التحقق من جنسية السفن، فكثيرا ما كان البحارة الاوروبيون يمارسون الملاحة تحت أعلام لا تدل على جنسيتهم الحقيقية، وتستر القراصنة الايطاليون في القرن السادس عشر تحت العلم الفرنسي لأن فرنسا كانت في ذلك الوقت على علاقة طيبة مع الدولة العثمانية، كما ان القراصنة الفرنسيين أنفسهم تستروا تحت أعلام دول اخرى ليهاجموا جزر الارخبيل التابعة للدولة العثمانية، لهذا السبب عمد المغاربة الى التحقق من جنسيات السفن عن طريق التعرف على هوايات البحارة، فتعتبر السفينة تابعة للجنسية التي ينتمي اليها غالبهم[1]

وقارن الكاتب (دوماس لاطري) المسيحي في كتابه «معاهدات السلام والتجارة وعلائق المسيحيين بافريقية الشمالية» بين فظائع القرصنة المسيحية والاسلامية، فلاحظ ان المسيحيين يتحملون قسطا وافرا من النهب والتدمير الذين ارتكبا باسم القرصنة البحرية اذ نجدها أخطر مما نسب الى أهل المغرب العربي وحدهم ثم زادنا على ذلك توضيحا فقال: اذا كان يلوح لنا أن المسيحيين قد تضرروا أكثر من غيرهم من القرصنة الاسلامية فما ذلك الا لكون تجارتهم كانت اضخم وسواحلهم أقل مناعة وتاريخهم العام معروفا أكثر من التاريخ العربي، فهناك شهادات من كتاب ومؤرخين مسيحيين تبرز ما الحقته القرصنة الاوربية من ضرر فادح بالسفن والسواحل العربية وبالاسرى أيضا[2]

وجاء في تاريخ العالم (ج 6 ص 614 - 621 - 622) أنه كما أن قرصان البربر كانوا مصدر اغراء لبعض الافراد الشديدي البأس القساة من رعايا انجلترا والاراضي المنخفضة وايطاليا وشرق البحر المتوسط فكذلك الف البحارة الانجليز وبحارة ويلز وبحارة الفرنسيين والهولانديين من كثير من الموانيء مجموعة يفيض تاريخها بألوان من المغامرات ممزوجة بالدعارة والتلصص

(1) د. صلاح العقاد: المغرب في بداية العصورر الحديثة ص: 75 ط القاهرة 1962 - 63م.

(2) مجلة رسالة المغرب صفر 1372هـ/ نوفمبر 1952م ص41

والوحشية المسرفة... وأن القرصنة ابان القرن الثامن عشر ومقدمات القرن التاسع عشر هي التي كانت الطابع المميز للحروب الانجليزية الفرنسية والانجلزية الامريكية.

وذكر المؤرخ الالماني هيدو Heydo انه في فاتحة القرن الخامس عشر خرجت مراكب تجارية ايطالية قاصدة للمغرب وكانت تحمل عددا وافرا من الركاب المسلمين فلما وصلت الى مدينة رودس أسر رؤساء هذه المراكب - وهم من البندقية - جميع الركاب ونهبوهم. وقد وقع بمجلس شيوخ البندقية شكوى ضيق من قلة الاسرى والحال ان فيليكس فابري قدر عدد العبيد بالبندقية في آخر القرن الخامس عشر الميلادي بما يبلغ ثلاثة آلاف نسمة، قال واغلبهم من المغرب.

ويحدثنا صاحب التاريخ العام عن سنة 1856م/1272هـ فيقول ان في هذه السنة اجتمع مؤتمر بباريس وقرر الغاء القرصنة باعتبارها عملا خارجا عن حدود القانون ولكن دولة امريكا واسبانيا والبرتغال والمكسيك رفضت هذا القرار ولم تعمل به الى أواخر القرن التاسع عشر!... ولقد استمر اليونان على مزاولة نشاطهم في القرصنة بهذا البحر الى ما بعد سقوط الجزائر 1830م.

وبعد، أفلا يسمح لنا التاريخ بعد أن رتلنا على مسامع الاشهاد استعراضنا الشامل لهذه التفاصيل من أعمال القرصنة الغربية في كل ما ذكرناه أن نكرر كلمتنا ونعيدها مرارا فنقول: ان الغزو البحري أو (القرصنة الجزائرية) كما يحبون أن يسموها بذلك هي عمل واجب وحق مشروع؟ ورحم الله شوقي اذ يقول مخاطبا الجناب النبوي ﷺ:

والحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء

معاملة الرقيق بالجزائر:

وحيث انكشف لنا وجه الحقيقة حول معقولية القرصنة أو بالاحرى حقيقة الجهاد البحري ومشروعيته في نظام الحكومة الجزائرية حسب الحقائق التاريخية والبراهين الساطعة التي أدلينا بها في الفصل السابق المتعلق بالقرصنة كان من الواجب علينا حقا ان نخوض مع القارىء في موضوع هو اعلق وامس بسابقه بل يعد عنصراً اساسيا حياً من صميم عناصره الاساسية الاكيدة التي لا

يمكن اغفالها بحال من الاحوال وذلك هو الكلام حول ما يستحوذ عليه هؤلاء القراصنة من المغانم والاسرى أو ما يسمونه بالرقيق. فكيف كانت معاملة الرقيق بالجزائر؟.. في مستوى الحكومة وبالنسبة الى الاهالي المسلمين ايضا؟..

من المعلوم ضرورة ان نظام الرقيق كان شائعا في العالم قديما وحديثا منتشرا بين الشعوب كلها ويبدو وانه كان شائعا في حضارات دجلة والفرات وفي فارس القديمة وعهد الفراعنة بمصر، ومن المتفق عليه بصفة عامة ان اصل الرق كان يقترن عادة بالعمليات الحربية التي تقوم بها احدى القبائل وتنتهي باخضاع قبيلة اخرى مهزومة، وان الرق الناشيء عن الدين ظهر هو الآخر كذلك منذ اقدم الازمنة وكان هذا النظام مألوفا ايضا عند العبرانيين القدماء كما انه كان من النظم المقررة في اليونان منذ زمن هوميروس، وجعله ارسطو نظاما ضروريا، وباركه القديس بولس باعتبار انه نظام اجتماعي لابد ان يكون حتى اصبح الناس ينظرون اليه كنظام فطري لا غنى عنه، وعند الرومان كذلك فان الرق في نظرهم هو نتيجة الاسر او السبي أو الميلاد أو الدين أو الفرار من الجيش، واستمر الرق سائدا في الامبراطورية البيزنطية، وكذلك في روسيا فترة طويلة من الزمن حتى ان الامبراطور بطرس الاكبر وضع رقيق الارض في قائمة العبد كما استمر هذا النظام معمولا به في اوروبا الغربية وأمريكا وآسيا الى هذه القرون الحديثة، ويبدو كذلك ان الرق استمر موجودا في آسيا الوسطى وفي أجزاء من الصين ايضا وفي نواح مختلفة من افريقيا وخاصة في ليبريا واثيوبيا حيث كان وجوده في هذه السنة الاخيرة هو الاساس الذي اعتمد عليه جهاز الدعاية التابع لـ «موسوليني» لتبرير غزوه لهذه البلاد سنة 1354هـ/1935م [1]. وجاء في محاضرات الامير مصطفى الشهابي (ص 49 و81 ط القاهرة 1956م) ان الانكليز استفاقوا للتجارة في الرقيق منذ اواسط القرن السابع عشر وأسسوا لها شركات قوية ومراكز على شواطيء افريقية وأستأثروا بها طوال القرن الثامن عشر وكانوا يسمونها تجارة «خشب الابنوس» مشبهين الزنوج بذلك الخشب الطبيعي الاسود وكانت مدن انكلترا تتسابق في تجارة الرقيق وبلغ

(1) راجع الموسوعة العربية الميسرة مادة رق

ما نقلته مراكب ليفربول وحدها في عشر سنين (1783 - 1793م) 307037 عبداً رقيقا وكانت قيمة هؤلاء العبيد 15186850 جنيها انكليزيا وبلغت المراكب الانجليزية المتخصصة بتجارة الرقيق في سنة 1770م الى 197 مركبا.

وعلى القارىء ان يتصور آلاف العبيد الذين نقلوا قسرا والفظائع التي كانت تقترف في اقتناصهم وشرائهم وبيعهم ونقلهم وارغامهم على العمل في امريكا، وذكر بعض المؤلفين أن مرابح الانكليز من هذه التجارة كانت من أكبر العوامل في تقدم الصناعات الكبرى في انكلترا، وهكذا قل عند البرتغاليين في القرن السادس عشر والهولانديين في القرن السابع عشر، والفرنسيون أنفسهم كانوا يتاجرون بالرقيق كغيرهم وكانوا ينقلون العبيد الى مستعمراتهم في امريكا كجزائر الانتيل وغيرها لحملهم على الاشغال في الارض، وفي سنة 1685م أوجد الوزير كولبر شركة غينية لتوريد ألف عبد في السنة بثمن 13ليرة لكل عبد، ثم زيد عدد العبيد المنقولين لشدة الحاجة اليهم.

ولقد جاء «غوستاف لوبون» بوصف مدقق جامع للاسلوب الدقيق الذي كان يسلكه ربابنة السفن الانكليزية لجمع ما يحتاجون اليه من العمال في جزر الملابو، فقال: أنهم يجتذبون بحيل ولا سيما بمظاهر ودية أناسا كثيرين من أهل تلك الجزر ويضربون رقابهم ويأخذون لزمن معين من رؤساء القبائل المعادية عددا من العمال في مقابل كل رأس من أولئك!.. وان كانوا لا يعيدون الى هؤلاء العمال حريتهم ابدا خلافا للعهود [1]. وفي مقال نشره المؤرخ الفرنسي لافيس بمجلة باريس 1897م انه حدث أن شخصين تزاحما على منصب قنصل فيفضل منها ويقدم على صاحبه الذي يتعهد بجلب اكثر عدد من اسرى المسلمين. وذكر أحد مؤرخي أمة الطليان: أن الثروة والحرب خشنت طباع قرصان أوربا فلم يجدوا غضاضة حتى في القرن السابع عشر أن يستخدموا عبيدا من المسلمين تركا وأفارقة. وقد استمرت عادة استرقاق المسلمين حتى نهاية القرن الثامن عشر، فقد كان في مالطة وحدها نحو عشرة آلاف رقيق مسلم، ولما احتلها نابليون سنة 1798م وجد منهم الفين فحررهم على امل استرضاء العالم الاسلامي قبيل حملته على مصر، ولقد ألح مولاي اسماعيل سلطان المغرب

---

(1) حضارة العرب ص 709 ط القاهرة 1948م.

الاقصى ودايات الجزائر على لويس الرابع عشر في تحرير الاسرى المسلمين ولكنه رفض، لانه كان يسخرهم لخدمة الاسطول الفرنسي[1]

وبعد هذا فلم يشاع لدى الغربيين أن المسلمين هم وحدهم المسؤولون عن أعمال النخاسة في العصور الماضية ويتغاضون عن الاف الرقيق المسلمين الذين غصت بهم رحاب ايطاليا وانكلترا وفرنسا ومالطة وغيرها؟... ولماذا لا يذكر هذا مؤلف كتاب «الاسلام في افريقية الشرقية» الدكتور (ليندون هاريس) وهو علم من أعلام التبشير في القارة الافريقية فهو لا يذكر شيئا عن النخاسة في افريقية الغربية، وهي تدل بآثارها على الفارق بين النخاسة المنسوبة الى تجار العرب وغيرهم من الاسيويين وبين النخاسة الاوربية الامريكية التي نقلت السود الى العالم الجديد وعدتهم الان هناك لا تقل عن ستة عشر مليونا من الرجال والنساء وهم أضعاف الارقاء السود الذين نقلوا الى بلادهم الاسيوية في عدةقرون.

فالماديون والمبشرون يجتهدون في مسألة النخاسة وتلفيق الاكاذيب التي توهم الافريقيين المتحررين أن العرب المسلمين قد احتكروا النخاسة قديما وحديثا وهم - اي دعاة المادة والتبشير - أول من يعلم من تاريخ النخاسة انها كانت صناعة شركات اوربية وأمريكية تعتمد على سماسرتها من غير العرب المسلمين ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا في مدارس المبشرين.

والفارق الاكبر في مسألة الرق من جانب الواقع التاريخي هو ذلك الفارق الذي تحصيه الارقام بالحساب والضبط المحكم بين عدد الارقاء في البلاد الاسلامية وعددهم في البلاد الغربية حيث يعيشون اليوم بين الامركيين، فان الارقاء من الزنوج لم يزيدوا في البلاد الاسلامية - بعد ثلاثة عشر قرنا - على ثلاثة ملايين أو نحو هذا العدد القليل بالقياس الى سعة البلاد وطول الزمن واقتراب المكان ولكن عدد السود في الامريكيين قد يبلغ العشرين مليونا ولم يمض على قيام الحكم «الابيض»؟ هناك أكثر من ثلاثة قرون.[2]

(1) المغرب العربي للدكتور صلاح العقاد: ص 39 ط القاهرة 1962م.

(2) عباس محمود العقاد: ما يقال عن الاسلام ص 63 و145 و148 ط القاهرة 1966م.

وكيف كان يعامل هذا الرقيق المسلم من طرف غير المسلمين؟ ذلك ما يحدثنا عنه المؤرخ الفرنسي لافيس نفسه فيقول:

« انهم كانوا تحلق وجوههم ورؤوسهم الاقنتها ويعطى لهم كل سنة قميصا وسروالان وطربوش من الصوف الاحمر ومعطف أحمر، وفي كل سنتين قفطان من الملف الاحمر ومعطف احمر يسمى كسوة الملك L'Habit du Roi ولا يسمح لهم بلبس النعال أو الاحذية الا لمن اعتنق النصرانية منهم. مشروبهم الماء وأكلهم الخبز وفول مطبوخ في الزيت يعطى لهم مرة في اليومين كيلا تثقل معدهم ويمنعهم عن العمل!!.. وقال: ان هذه القساوة لا مثيل لها في تاريخ الرق ابدا!.. وفي المقارنة بين حال الاسرى عند النصارى والمسلمين يقول الدكتور سلفاتوري بونو استاذ التاريخ بجامعة روما: فبينما كان المستعبدون المسيحيون يتألمون في المدن البربرية كان مسلمو المغرب يحتفظ بهم كعبيد في ظروف قاسية جدا بالعديد من مدن الساحل الاروبي [1]

وأقبح ما يروى عن عادة الاسترقاق هو ما يعامل به الامريكان ارقاءهم بأمريكا الشمالية فللامريكي الابيض الذي يملك أمة سوداء ويولدها البنين أن لا يعتبرها أم ولده أي عكس ما فعله الاسلام، كان له أن يبيعها ولابنه الابيض أن يبيعها ويبع ذريتها الذين هم اخوته من صلب ابيه[2] وما كان يعامل به أهل باريس رقيقهم من البروتستانت من القائه تحت العجلات في الطرقات حيث يجتمع الناس للتفرج عليه [3] فأين هذا من المعاملةالتي كان يعامل بها المسلمون رقيقهم من الاحسان اليه والشفقة عليه تاركين له ما يختاره من عقائد أو دين، فلقد أكد لنا المؤرخ الاسباني هايد وحسن هذه المعاملة التي كان يلقاها الاسير المسيحي من يد المسلم، فانه يقول: « لم يكن على القساوسة من الاسرى حرج في ترتيل صلواتهم ترتيلا مسموعا على وقع الموسيقى. ونقل الكاتب الفرنسي « كلان » عن الكاتبين سيرفان نطيس ورونيار وقد وقع كلاهما في الاسر بالجزائر أنهما شاهدا بنفسيهما حسن حالة الرقيق بالجزائر وحسن معاملته من طرف

---

(1) الاحالة 25

(2) عبد العزيز جاويش: الاسلام دين الفطرة والحرية ص 70 - 71 ط القاهرة

(3) الشرق الاسلامي ج 1ص 301

اسياده، وقالا فيا يقصانه عن حال زملائهم أن حسن هذه المعاملة دفعت بكثير منهم الى اعتناق الاسلام عن طواعية منهم وفيهم من انضم الى الجماعة الاسلامية بطريق المصاهرة [1] كما يشهد بهذه المعاملة الحسنة التي كان يلقاها الاسرى الاوربيون بين المسلمين مؤرخ العصر شارل جوليان فيقول: «انهم كانوا أحسن حالا من البربر ويعني بهم مسلمي شمال افريقية الذين يؤسرهم الفرنسيون ويسخرونهم في سفنهم فقد كانوا يدمغون بالحديد المحمى، أما الفرنجة اسرى الجزائريين فلم يكونوا يدمغون وكانت تترك لهم الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية وبهذا اعترف جميع السياح - كما يقول غوستاف لوبون - الذين درسوا الرق في الشرق درسا جيدا فقالوا بأن الضجة المغرضة التي أحدثها حوله بعض الاوربيين لا تقوم على اساس صحيح، ويشهد لهذا كما قال مسيو «أبوت» أمهات سلاطين آل عثمان زعماء الاسلام المحترمين وكثير غيرهم من الخلفاء كان أمهاتهم من الارقاء وكانوا لا يرون ذلك مما يحط من قدرهم وقد كانت أسرة دولة المماليك بمصر من الارقاء[2].

وجاء في دائرة المعارف الاسلامية أن الاسرى الاروبيين بالجزائر كانوا أقل بؤسا مما يقوله الناس عنهم فقد كانوا آمنين على أرواحهم وكان يسجونهم معابد صغيرة لها قساوسة وكان بها ملجأ للعجزة وحانة للشراب مع احترام عطلة يوم الاحد ويعترف بهذا حتى الرهبان انفسهم، فلقد جاء في تأليف الراهب جول تورنيي Jules Tournier «الكنيسة الافريقة الجديدة او الاحتلال الديني للجزائر من سنة 1830 الى سنة 1845م الذي قدمه الكاردينال بودريار Boudriart عضو الأكاديمية الفرنسية: فانه يعد ان ذكر محتشدات الأسرى المسيحيين بالجزائر قال: «انه كان في عاصمة الجزائر خمس كنائس خاصة بالاسرى، وواحدة في محتشد الملك (اي الباشا) واثنتان في محتشد علي بتشيني، والرابعة بقنصلية فرنسا، والخامسة بنيابة اسقفية الجزائر وكانت هذه الكنائس كلها تزين بشتى أنواع زينة الكنائس وتضاء ليالي الاحتفالات والمواسم بمئات

(1) تاريخ الحضارات العام - القرنان 16 - 17م رولاند موسنييه ج 4 ص 562 ط بيروت 196. H. Klein, feuillet D'Eldjuzaïr, v 4 p: 43 - 90

(2) حضارة العرب: غوستان لوبون ص 460 ط القاهرة 1948م.

القنادل المختلفة الألوان..... وعندما تقام الاحتفالات الدينية بهذه الكنائس يدخل رهبان الارساليات الى محتشدات الأسرى ليالي الاحتفال ليمكنهم من اقامة الصلوات في الصباح الباكر، وفي أزمنة الوباء يقيم هؤلاء الرهبان باستمرار في المحتشدات ليعالجوا الأسرى ويلقنوهم العقيدة عند الموت.

وهنا نقل المؤلف ما ذكره الراهب برنادو مونطري le pere Bernard de montray يصف عيد الفصح الذي قضاه بالجزائر مع الأسرى في محتشدهم سنة 1612م فقال: «ان التجار المسيحيين المقيمين بعاصمة الجزائر يزورون الاسرى بمحتشداتهم، والكثير من هؤلاء التجار يقضون معهم الليل، وفي يوم العيد يعرض «القربان المقدس» في المصلى المزين اللائي تبرع بها الجزائريون او المسيحيون الذين اسلموا، وتوقد نحو الخمسين والمائة مصباح، كما يشارك في هذه الحفلات الاسرى الموجودون بالمحتشدات في القرى النائية ...وان الارساليات لم تقتصر على احداث الكنائس المذكورة بل امكنها تحصل على المستشفيات والمقابر، ففي سنة 1551م أسس الراهب الاسباني الاب سيبصطيان دابور pere Sébastien dapor بإذن من الباشا مستشفى بيسطا استحال الى مستشفى نال اعجاب حكام البلاد واعانتهم وجعل تحت رعاية قنصلية فرنسا. وفي سنة 1571م اذن الباشا لمرشد ولي عهد النمسا دون جوان Don juan dAutriche الذي كان اسيرا بالجزائر بشراء قطعة ارض اتخذت مقبرة للمسحيين بباب الوادي... وهكذا يشهد لوجي دوطاسي Laugier de tassy بنفسه معترفا بالواقع فيقول «ان احسن ما يذكره الانسان عندما يتحدث عن الدين والمتدينين هو التسامح الذي يتصف به المتدينون، وهذا التسامح موجود في الجزائر ويستحق سكانها الثناء عليه حكومة وشعبا....(1)

كما ان شيلر - قنصل امريكا بالجزائر في نهاية القرن الثامن عشر - يقول: لقد سمح للذين كان يؤتمن عليهم من الهرب ممارسة الاعمال المريحة حتى ان بعضهم ترك الجزائر آسفا واشتغل بعضهم في الحكومة. كما يشهد بذلك ايضا الديبلوماسي الفرنسي فانطير دوبارادي venture de paradis المتوفي سنة

---

(1) الاستاذ المهدي البو عبدلي: آثار التبشير المسيحي في الجزائر، الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامي ج 3ص 1321. 1393هـ/1973م ط قسنطينة 1395هـ/1975م

1799 م في كتابه الجزائر في القرن الثامن عشر Alger au 18 me Siècle edité par pagnan 1898) حيث يقول بأن العبيد المسيحيين - بالجزائر - كانوا لا يحملون الاغلال، ولهم حق العوائد والغذاء الجيد مثل الانكشارية، كما كانوا يمنحون الالبسة الجيدة والوظائف اللائقة بهم مثل منصب الكتابة، ومنهم كان كبير كتاب العبيد الذي له مركز في الدولة يحسد عليه، واذا اسلموا كان لهم الحق في ارتقاء الى مناصب ضباط الجيش كالكاهية مثلا والاغا ووكيل الحرج وهي وظائف محرمة على الكوروغلي والاهالي ومقصورة على الاتراك وعلى من رضوا عنهم من العبيد وصرح لوجي دو بيطاسي Laugier de tassy في كتابه تاريخ مملكة الجزائر Histoire du Royaume d'Alger بانه يفضل العبودية لمدة عشر سنوات بالجزائر عن الاسر لمدة سنة واحدة في اسبانيا...

وقال العلامة اميل لارشي (ج1ص 91):وكان العبيد يعاملون في ارض الجزائر معاملة حسنة فيعتنقون الاسلام ويعتقهم اسيادهم بكل سهولة وكثيرا من الزنجيات كانت تصبح زوجة لسيدها فيعامل ابناءها معاملة ابناء زوجاته الاخريات، ولما صدر قرار 27افريل 1848م القاضي بتحرير العبيد لم يكن في ارض الجزائر كمية كبرى من الزنوج يشملهم ذلك القرار [1]فانه كان بمدينة الجزائر - من الاسرى - خلال اوائل القرن التاسع عشر ما يقدر 1200نسمة بينما كان متوسط عدد الاسرى بها خلال القرن السابع عشر 35الف نسمة [2].

ولقد نعت (فان دنبرغ) معاملة الاسلام للرقيق بقوله: «لقد وضع للرقيق في الاسلام قواعد كثيرة تدل على ماكان ينطوي عليه محمد واتباعه نحوهم من الشعور الانساني النبيل، ففيها تجد من محامد الاسلام ما يناقض كل مناقضة الاساليب التي كانت تتخذها الى عهد قريب شعوب تدعى انها تمشي في طليعة الحضارة...وكيف لا وقد ورد ان الوصية على الارقاء هي من آخر ما تكلم وتلفظ به رسول الله ﷺ واوصى به وهو محتضر حتى صار يقول: «وما ملكت ايمانكم» يحرك بها لسانه وما يكاد يبين [3]وقال الشعراني: ومن وصى عليه رسول

---

(1) احمد توفيق المدني كتاب الجزائر ص ص149 ط الجزائر 1350هـ

(2) الدكتور صلاح العقاد: المغرب العربي ص 79 ط القاهرة 1962م.

(3) السهيلي: الروض الانف ج 7ص 577ط القاهرة 1970م.

الله ﷺ هذه الوصية وهو ﷺ محتضر وجب احترامه كل الاحترام[1].

وجملة القول، فان وضعية الرقيق بالجزائر كانت كوضعيته في سائر الاقطار الاسلامية معتنى بشأنه محاطا بسياج من عدل ورحمة من غير احتقار أو اهانة متمشيا معه حسب وصاية الاسلام به وسواء ذلك داخل المنزل أو خارجه، ولم يكن الرجل ليطيل استرقاق ملك يمينه بل كان يحرره ويعتق رقبته في شتى المناسبات ابتغاء مرضاة الله وكانت الرقيقات يتزوجن سادتهم ويرتقين الى مقام الامهات المكرمات وفي الرجال منهم من بلغ الى أعلى درجة في مراتب الحكم والرئاسة في بلاد الإسلام مثل حسن باشا البندقي في الاصل وعلج علي الكلابري وحسن آغا السوداني الأصل والمماليك بمصر الخ ... فأين هذا مما لا تزال أمريكا الى يوم الناس هذا تعامل به الزنوج من قساوة وبغضاء وإهانة وتحقير الى درجة أن أفتى بعض مطارنة أمريكا البيض بكفر من يعتقد بمساواة الزنوج لسائر البشر، وما الزنجي عندهم إلا بمنزلة حيوان خلق في صورة إنسان لخدمة الرجل الأبيض، ولهذا تراهم يحرمون على الزنجي الاجتماع مع البيض في الحارة وفي المسكن وفي المركبة العمومية وفي الحافلة وفي دور السينما وفي المجتمعات العامة والخاصة وفي دور الملاهي وحتى في المدرسة والكنائس والمعابد وفي الحدائق العمومية ... الخ فأين هذا من تعاليم الاسلام السمحة ونظمه الاجتماعية المحكمة ومعاملته العادلة للناس سواء بسواء؟ ...

لطمة المروحة وقصتها

كل من تتبع أو سبر سير حركة السياسة العالمية الخارجية نحو الجزائر - في هذا العصر - عرف الوسائل المفضوحة التي كانت تتخذها دول أوربا تجاه المغرب العربي الاسلامي وعرف خفايا نواياها ومطامعها الصليبية البعيدة المرمى ولا سيما المغزى السياسي والمرمي الاستعماري والاقتصادي الذي كانت ترمي اليه دولة فرنسا نحو هذه البلاد بالخصوص منذ أمد بعيد، منذ أيام حملة لويس التاسع على المغرب الادنى - تونس - (668هـ/1270م) ثم ما أنجز الى هذا وذلك من توالي الاحداث والمشاكل السياسية وتكرر الاعتداءات والتهجمات الحربية ضد الجزائر من فرنسا وغيرها من دول وراء البحار طوال العصر

---

(1) الميزان للشعراني ج 2ص 162ط القاهرة 1302هـ.

الوسيط والى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حيث كانت الايام هنا عندنا بالجزائر كلها حربا وكان الميدان مفتوحا على مصراعيه للجيوش والاساطيل والكفاح مستمر على ضفاف غرب البحر الابيض المتوسط أضف الى ذلك ما كان يعتقده الفرنسيون من الضائقة التي لحقتهم في تجارتهم وخاصة حين ما أصبحت فرنسا محرومة من مستعمراتها بالهند والكندا بأمريكا والسينيغال بأفريقا حسب معاهدة باريس (1177هـ/1763م) وفقدها لمقاطعتي الالزاص واللورين بمقتضى نص معاهدة باريس أيضا (1230هـ/1814م) وبذلك أصبحت لا يمكنها الاعتماد على مستعمراتها القديمة فحسب من ذلك ان سكر البنجر أصبح يتغلب على سكر القصب ولم تعد الحماية الجمركية التي ينشدها المنتجون تفيد شيئا، اذا فلا بد لها من الحث عن أسواق جديدة ولا بد من السيطرة على ميادين عديدة لتنظيم وسائل استغلالها على الطريقة التي ظن الفرنسيون انها مانعة مجتمعهم الاصلي من الانهيار وتزاحم الطبقات [1] وقد صرح بهذا وزير الحربية الفرنسية الجنيرال جيرار فور عند نزول القوات الفرنسية الى الساحل الجزائري فقال: «ان هذا الاحتلال يستند الى ضرورات هامة جدا ويرمي الى فتح منفذ واسع لتصريف بضائعنا [2].

ثم ان كل ما استظهرت به الدولة الفرنسية قبل ذلك أو بعده من الحجج والبراهين في تعليل تهجمها على الجزائر انما هو من قبيل التهويل السياسي والاسلوب الديبلوماسي لتبرر بـه موقفها الاستعماري كسبا للوقت - وقد جاء ذلك واضحا في تصريح المؤرخ الفرنسي «هانري تشاو» في كتابه تاريخ الجزائر العام ص.648 ط الجزائر 1910 م قال ما مؤداه: «ان الحكومة الفرنسية ارادت ان تنتهز فرصة انشغال احسن الوحدات من الاسطول الجزائري في الشرق وأن تخلق مبررا لتدخلها العسكري فأرسلت تعليمات خاصة الى قنصلها في الجزائر وأمرته ان يغتنم فرصة قد تسنح لاساءة العلاقات مع حكومة الداي»!...

(1) علال الفاسي: محاضرات في المغرب العربي ص3ط القاهرة 1955م. وانظر «ليل الاستعمار» لفرحات عباس، ص 54 ط فضالة - المحمدية - المغرب بدون تاريخ

(2) احمد الخطيب: الثورة الجزائرية ص 39ط بيروت 1958م.

فكل من علم ذلك ترقب لا محالة وتشوف الى ما ستسفر عنه هذه الاحداث وما تستقر عليه نهاية سفينة هذا الكفاح القائم بين الشرق والغرب، وبذلك يستبعد ما وقعت فيه الجزائر سنة 1246هـ/1830م وذلك ما عقدنا لشرحه هذا الفصل وخصصنا له هذا الجانب من كتابنا هذا.

فانه بعد ما قضي الداي على متاجر فرنسا ودمر مراكزها الساحلية ابان قضية القمع وامتناع الحكومة الفرنسية من دفع الديون ثم اعادت احتكاكها بالجزائر مرة أخرى وسعت في تجديد وترميم مؤسساتها ومستودعاتها الاقتصادية الخربة بالقالة وغيرها فبنتها من جديد على طريقة غير مشروعة، وجعلت فيها من انواع العتاد الحربي والسلاح الثقيل ما لا يتفق مع نص الاتفاقية السلمية المبرمة بين الحكومتين حول انشاء هذه المراكز أو قل المحطات التجارية واخذ تلتمس في ذلك المعاذير - كسبا للوقت - حتى اذ كانت حوادث الاضرابات والفتن بداخل فرنسا بسبب ما كان قد فقدته من معظم اجزاء امبراطوريتها الاولى ابان حروب الثورة وهزيمة نابليون الاول في معاهدة باريس (1815م) حيث تنازلت للانكليز عن معظمها. وحكومة البوربون وعلى رأسها «شارل العاشر» كانت تعاني معارضة قوية من البرلمان وسخطا من الرأي العام الفرنسي منذ ان عادت على أكتاف الاجانب وقبلت الشروط القاسية ضد مصلحتها (1815م) ثم ما كان هنالك من اختلاف اتجاه الافكار من جمهورية وملكية واشتراكية ورأسمالية... فاعتقدت هذه الحكومة انها باحداث نصر خارجي ستعوّض مكانتها المتداعية في الرأي العام الفرنسي فدبرت مكيدة لتحويل اتجاه الاستيلاء الداخلي حتى يتيح لها ان تظهر بمظهر الذي يقوم بحرب صليبية غربية ضد شمال افريقية، فزجت بالجيش في معركة حربية تبعده عن الخوض في اوضاع البلاد الداخلية وتلهيه بالحرب قصد تحقيق انتصارات خارجية وأوحت يومئذ الى ممثلها بالجزائر القنصل دوفال - وهو ذلك الرجل المشبوه في اخلاقه - باستفزاز الداي رجاء اذكاء نار حرب خارجية تأخذ بلب الشعب الفرنسي فيشتغل بها عن شخص الملك وجماعته الرجعيين ولكن ذلك لم يغن عن الملك شيئا اذ اطاحت به ثورة سنة 1830م.

وامتثل القنصل لاوامر سيده واخذ يرقب الفرص المواتية حتى كانت وقعة

« ناوارين » المتقدمة الذكر (1243هـ/1827م) واصاب الاسطول الجزائري هنالك ما اصابه وجاءت مناسبة عيد الفطر من سنة 1243هـ/1828/4/16م) فتقدم القنصل ومن معه من رجال السلك الديبلوماسي - في امسية ذلك اليوم - لدى الداي حسب التقاليد والعرف المتبع للقيام بمراسيم التهنئة بالعيد وهناك دار حديث طويل بين الداي حسين والقنصل دوفال وكان ضمن ذلك الحديث حول الاجراءات والتصميات الغير المشروعة التي اتخذتها فرنسا بالقالة وغيرها من الساحل الجزائري فاستنكر الداي لهذه الاعمال المتنافية مع ما نصت عليه الاتفاقية المبرمة بين الحكومتين كما ابدى الداي تعجبه وامتعاضه الشديد من سوء معاملة حكومة فرنسا في مماطلتها بأداء الدين المترتب عليها منذ سنة 1208هـ/1794م مع تأثره الشديد لعدم اكتراث الملك بالرد على مكاتبة الداي وتقاعسه عن الاجابة رغم تكرر رسائل الداي واستمراره على السؤال عن ذلك، والحال أن مطالبة فرنسا بتسديد ديونها من قبل الجزائر لم تكن وليدة اليوم، بل تمتد في الماضي الى عهد مصطفى باشا ثم من جاء بعده الى عهد حسين، أي منذ سنة 1215هـ/1800م وقد ظهر منذ البداية الخلاف على تقدير الديون من ٣ ملايين الى ٨ ملايين فرنكا وقضى الداي مصطفى باشا سنة 1230هـ/ 1805م دون أن تسوى المشكلة ثم انقطع الحديث عن ذلك بسبب توتر العلاقات بين الجزائر وفرنسا الى هذه الآونة، وما كان جواب القنصل الفرنسي عن تساؤل الداي هذا إلا بنوع من الغطرسة والاستخفاف بحكومة الجزائر والازدراء بمقام الداي نفسه من الاخلال بما تقتضيه آداب اللياقة وما تفرضه قواعد البروتوكول العامة [1] ومن ذلك ما ورد ذكره عن شاهد عيان حضر هذه المقابلة فذكر ان القنصل وضع يده على سيفه مهددا [2] قائلا للداي: « ان مولاي لا يتنازل الى اجابة رجل مثلك... وفي رواية قال: « ان ملك فرنسا وشعبها لا يحررون لك ورقة ولا يرسلون ردا حتى على رسائلك المرسلة »... وتمادى القنصل يتحدث على هذه الوتيرة... وطال النقاش بينه وبين الداي حول السيادة على هذا البحر فقال القنصل في هذاالمجال: « يمتنع على حكومة الجزائر أن تراقب سير سفن فرنسا المتجولة بهذا البحر وتابع حديثه متوجها به الى الداي قائلا: « لا

Revue Africaine 430 - 431: 1952 p: 190 (1)

(2) احمد الجزائري: كيف دخل الفرنسيون الجزائر ص 21 ط بيروت 1962م.

يسوغ لك أيها الداي أن تتعرض لسير المراكب الفرنسية حيثما وجدت أو حيثما حلت ومثلها في ذلك مراكب البابا والطوسكان أيضا، والحال انها كانا في حالة حرب ضد الجزائر، فاشتد اذ ذاك غيظ الداي واستشاط غضبا، وفي مثل هذا الجو القاتم وهذه الاهانة الواقعة من سفير أجنبي لملك جالس على عرشه وبمحضر جميع أعضاء حكومته وفي يوم عيد تقتبل فيه التهاني فالمعقول جدا أن يحتدم الداي ويشتد حنقه على محدثه هذا فيرفع يده التي كان ممسكا بها مروحة مشيرا الى الباب قائلا للسفير: اخرج يا كلب بن الكلب، تقول القصة أنه خفقه بمروحة أو منشة كانت بيده خفقة واحدة أو ثلاث خفقات ويقول الحاج احمد الشريف الزهار في مذكراته جازما: «وكانت بيده – أي الداي – منشة ينش بها الذباب فضربه بها وشتمه وشتم الراى – أي الملك –، وكذلك تجد سيمون بفايفر يقول:... فثارت ثائرة الداي عندئذ ولطم القنصل الفرنسي على رأسه بالمروحة التي كانت بيده في تلك اللحظة...[1] وكلا الرجلين الزهار وبفايفر هما كما نعلم كان يومئذ موجودا بنفسه بعاصمة الجزائر وكلاهما كان على اتصال وثيق بالاوساط الادارية للحكومة الجزائرية وعلى خبرة بما يجري في بلاط الداي فكان لخبرهما هذا صبغة رسمية لا يمكن أن يخطئنا معها الحقيقة، وعلى كل فلقد خرج القنصل من القصر ظافرا ببغيته حيث نراه نجح في تنفيذ الخطة المدبرة حول اثارة غضب الداي، وذهب الى باريس مبشرا أسياده بما فعل: «وتحمل القيام مقامه فيما يتعلق بمصالح فرنسا وشؤونها في هذه البلاد سفير سردانية الكونت (دودا تيلي) D'Attili della Torre ثم كانت هذه الحادثة المبيتة التي زعم الفرنسيون انها اهانة لحقت بهم أو بقنصلهم هي الشرارة التي اشتعلت منها نار الحرب بين الجانبين. هكذا تروى قصة المروحة عند ثقات المؤرخين، واليك نص الحوار الذي جرى ما بين الداي والقنصل الفرنسي المذكور حسب رواية المؤرخ الفرنسي (اسكير) معتمدا فيه على تقرير هذا القنصل نفسه قال ما مؤداه: «بدا الداي بالسؤال عن صحة الانباء بوقوع حرب بين انجلترا وفرنسا بسبب البرتغال فأجاب دوفال بالنفي قائلا بأن

---

(1) راجع مذكرات الزهار ص 164 ط الجزائر 1974م – مذكرات سيمون بفايفر، ص 33 – 34 ط الجزائر 1974م.

حكومته لا تتدخل في شؤون البرتغال.

الداي: أهكذا تعطى فرنسا لانكلترا كل شيء ولا تعطيني شيئا؟..

القنصل: سيدي اعتقد أن حكومة جلالته اعطتك دائما كلما أردت.

الداي: لماذا اذن لم يرد علي وزير الخارجية؟

القنصل: لقد حملت اليك رده الشفوي بمجرد أن تلقيته.

الداي: ولكن لماذا لم يكتب الي مباشرة؟.. وهل انا شخص تافه؟ أم أنا رجل حافي القدمين؟..

انك أنت الذي تسببت في عدم الرد ولانك وشيت بي عند حكومتك أنت شرير كافر.

القنصل: ان حكومتي لن تكتب اليك أبدا، اذ لا فائدة من ذلك.

ثم نرى الى ذلك المصادر الجزائرية تختلف اختلافا أساسياً عن تقرير دوفال هذا وترميه بتزييف الحقائق بسبب بغضه الشخصي للداي، فتنفي عن الداي حادثة الضرب بالمروحة وان الامر لم يتجاوز التهديد بالكلام، في حين أننا نجد أحمد افندي الجزائري فيما كتبه عن مشاهدة يثبت ذلك وان خالف في تعيين اليوم والشهر اذ نراه يذكر في حوادث عام 1243هـ/1828م ما نصه:

«وسبب وقوع بلاد الجزائر فى أيدي الفرنسيين أنه فى اليوم الخامس من شهر رمضان سنة 1243 هـ الموافق 12 مارس سنة 1828 م مسيحية وقعت بين حسين باشا وبين قنصل فرنسا مناقشة أفضت الى المشاتمة بينهما فحنق القنصل من الباشا ومد يده الى سيفه ليضربه فهم الباشا بقتله لولا أن نائبه ابراهيم داى توسط بينهما ومنعه من ذلك وقال له: ان الشريعة لا تجوز قتل المستأمن. فعدل الباشا عن قتله واكتفى بضربه وطرده من المجلس. فلما عاد القنصل ارسل الى ملكه يخبره بما حصل[1] والملاحظ أن تاريخ الحادثة نجده عند احمد

---

(1) احمد الجزائري: كيف دخل الفرنسيون الجزائر ص 21 ط بيروت 1962م والدكتور صلاح العقاد: المغرب العربي ص 89ط القاهرة 1962م.

الجزائري يختلف عما اشتهر عند الناس من أن ذلك وقع أيام العيد بينما هى عند الجزائري -وقعت فى أوائل رمضان.

ثم انه ليس بالامر ذي البال اذا وجدنا الداي تناول مروحته وضرب بها دوفال وليس بالامر الخطير الذي تستحق من اجله الجزائر أن يزال عنها استقلالها خصوصا وقد استيقن الناس أن دوفال قد استفز الداى بوقاحة غير لائقة وبدون مراعاة لأدب اللياقة ولا يرى في ذلك حرج على حسين اذا خرج به الغضب عن طوره المعتاد فلطم وجه دوفال بالمروحة عندما لقى منه تلك الاهانة كلها وتيقن منه ان حكومته تصر على الاساءة لشخصه بالعمل على القضاء على سيادته جهارا والتجرء على اموال الخزينة الجزائرية ومع ذلك نجد المؤرخ الفرنسي «أوجيين كارنيي» Eugene guernier ينفي هذه الحادثة القصصية نفيا باتا فتراه يقول عنها: ان هذا أمر مصطنع دبر بليل وما جيء به الا لتبرير موقف فرنسا الاستعمارية ليس غيره وكذلك نرى الكاتب (ميتيرنيش) Metternich يقول مثل هذا بل ويعلق على ذلك بقوله:... والا فكيف يتصور ذلك وهناك حوادث بل واحداث ووقائع هي أجل من ذلك واعظم لم يكن لها ادنى تأثير في مجرى الحياة السياسية بين الحكومتين الأجل حادث وقع منشة مضى عليه ثلاث سنوات يموت أربعون ألف جندي وينفق مائة مليون؟...

ولم يزل الداي يؤكد لفرنسا أن مسألة دوفال هي حادثة شخصية لا دخل لحكومة فرنسا فيها، ولكن هذه اعتبرتها كافية لتبرير غزوها الجزائر واحتلالها [1] وبالاثر وقع حادث تحطيم المحطات والمراكز والمستودعات الفرنسية التي بالقالة وتخريبها كما أنه وقع أسر مركب فرنسي كان يتجول بهذا البحر من غير رخصة ومن أجله عزل وزير الحربية التركي.

المباغتة بالهجوم:

منذ أن اصطدم مسلمو الاندلس بفرنسا في المعركة الشهيرة باسم بلاط الشهداء والمعروفة في التواريخ الافرنجية بوقعة توروبواتيي التي نشبت بين العرب والافرنج بسهول فرنسا على ضفاف نهر اللوار (114هـ/732م) واحتل

(1) راجع تحفة الزائر ج 1 ص 82 والشرق الاسلامي ص 289 - 314 - 316

المسلمون جزءا كبيرا من أراضيها فمنذ ذلك الوقت وفرنسا تكيد للاسلام واهلــــه وتأتمر بهم في كل مكان كما فعل الاسبان منذ كان للمسلمين دولة في الاندلس، واستمرت فرنسا تضمر كيدها هذا حتى واتتها الظروف في هذه المرة فاتخذت حادث لطمة المروحة سببا مباشرا ومبررا شرعيا لهجومها على الجزائر وقد كانت غزت تونس وبلاد الكنانة من قبل ثم كان الشروع في توجيه حملاتها البحرية ضد الجزائر من يوم عودة سفيرها ووزير خارجيتها يومئذ «بولينياك» الى تراب فرنسا (3ذي الحجة 1243هـ/ 1828م) واستمرت هذه الحملات تتكرر ضد الجزائر وضرب الحصار عليها بتدبير الاميرال كوليط مدة حولين كاملين ولم تنته عن غيها حتى بعد أن شعرت بالانهيار أمام القوات الجزائرية بسبب ما لحقها من الخسائر العظيمة في الانفس والعتاد. وقدرت نفقاتها الحربية يومئذ بعشرين مليون فرنكا وذهب الاميرال المذكور معها ضحية مطامعه الاستعمارية فكان أمرها على حد قول القائل:

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وفي الواقع انه كان لهذا الحصار آثار سلبية على كلا الطرفين معا: الجزائريين والفرنسيين، فهم فيه سواء.

فاما من الجانب الجزائري فان هذا الحصار حال دون التبادل التجاري بين اوروبا والجزائر، وتسبب في تحويل الطرق التجارية بالنسبة للقطاع الشرقي من البلاد الى تونس. ولم تبق سوى مراسي وهران، وآرزيو، ورشقون على اتصال باسبانيا مستفيدة من موقعها القريب من جبل طارق.

واما من الجانب الفرنسي فان هذا الحصار - كما جاء في خطاب النائب دوبورق Dubourg يوم 9 جوان 1829م حيث قال: «... ان هذا الحصار كلف فرنسا في سنتين خسائر قدرت بأكثر من مليوني فرنك، بينما لم يستولي الاسطول الفرنسي على اية سفينة تزيد قيمتها على 20 ألف فرنك [1]»

وبهذه المناسبة شرع الحاج احمد باي قسنطينة في تحصين موانىء القطر الجزائري الساحلية الشرقية مع ما اتصل بها من الشطوط.

---

(1) د. ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر (1800 - 1830م) ص68 ط الجزائر 1979م

اذعان فرنسا وخضوعها للصلح:

اشتد ظلام الجو السياسي واكفهرت جوانبه بين حكومة الجزائر وفرنسا وبينما الداي يستعد لتحصين المعاقل والقلاع الجزائرية حذرا من مفاجآت العدو ومباغتاته اذا بقضية احتلال الجزائر تطرح على البرلمان الفرنسي صيف سنة 1829م وكان رئيس البرلمان اذ ذاك (مارتنياك) الذي كان اقل اعتمادا على العناصر الرجعية وبعد مناقشة الموضوع اتضح اتجاه النواب الى إستبعاد الاحتلال ولم يطالب بفكرة الغزو سوى نائبين منهم فقط ولذلك فاتحت حكومة (مارتيناك) الداي في توقيع معاهدة صلح وحاولت ان تفتح معه مفاوضات أكثر من مرة فأخفقت في مطالبها.

ولكن الذي يظهر ان لهذا الاخفاق أسبابا جوهرية هي التي اعترضت توقيع الصلح بين الجزائر وفرنسا، ومن بين هذه الاسباب موضوع تقديم الاعتذار المطلوب من الداي بعد رده لاسرى السفن البابوية وعقد هدنة موقتة تمهيدا للصلح ثم يقع ارسال مندوب عن الداي الى باريس لتقديم الاعتذار ولكن الداي قدم شروطا مضادة فطالب قبل ارسال مندوبه بتنازل فرنسا عن ادعاءاتها في حصن القالة وعن احتكار تجارة ميناء بونة - عنابة - ثم بعد توقيع الصلح على هذه الاسس يمكن ارسال مندوب للاعتذار، وقد توسط في هذا الصلح كل من قنصل الانكليز وسردانيا (1).

فبينما الحال على ما ذكرنا واذا بمندوب فرنسا المسيو «ديلابر» يحل هو الاخر بالجزائر في المحرم 1245هـ/جويلية 1829م وقد جاء على ظهر سفينة «لابروفانس» موفدا من طرف حكومته فاتصل بالداي وقدم اليه مقترحات حكومته التي تتلخص في كون الداي يقدم اعتذاره عن الخطيئة التي ارتكبها نحو القنصل الفرنسي دوفال كهفوة صدرت منه عن غير قصد مع التظاهر بالندامة والتراجع عن موقفه الحربي وكل ذلك مراعاة للرأي العام الفرنسي ودفعا للهزيمة التي لحقت فرنسا في خيبتها بالجزائر وفشلها الذريع في مساعيها الحربية والسياسية أمام الملاء طوال حولين كاملين وبما أن الداي كان يرى نفسه محقا في الحادثة التي جرت له مع القنصل فلم يقبل بالتنازل لاعطاء أي ترضية

(1) المغرب العربي ص 91

لفرنسا ورفض الداي كل ذلك، ثم جاء بعده لهذا الغرض نفسه - المندوب الفرنسي «لابروطونيبر» La Bretonier على ظهر سفينة «لابروفانس La provence» (1829/7/31م) فحاول بأسلوبه الخاص كصاحبه تحقيق نفس الغرض فلم يفلح، وكان فيما قاله هذا الى الداي: «... ان الغلط من لوازم الانسان والغضب من لوازم الطبيعة البشرية ولعل القنصل أساء الادب بما حرك غضبك؟... وحسم المادة ان شئته سهل وهو أن ترفع الراية الفرنسية على قصر القصبة وتطلق عليها مائة مدفع وواحدة لتحيتها وتبعث أعيانا من عندك الى دولة فرنسا يبلغون على لسانك أنك لم تقصد بضرب القنصل اهانته ولا الاستخفاف بدولته ويطلبون التجاوز عن هذا الغلط» وجمع الداي أعضاء حكومته وأعيان دولته واستشارهم في شأن الحرب مع فرنسا؟ فكلهم أشار بالاحجام عنها لعدم تكامل امكانياتها بالجزائر يومئذ فانتهزهم الداي واتهمهم بالجبن وسفه أحلامهم فخرجوا من عنده متوقعين الهزيمة [1] واستمر الداي متمسكا برأيه في الغاء كل اقتراح يقع من فرنسا في هذا الموضوع، وما كاد المندوب الفرنسي يغادر ميناء العاصمة حتى اندلع صوت المدفع يدوي من برج المرسى خلف مركبه ايذانا بسخط الداي أو حكومة الداي على هذه المفاوضة الفرنسية الجزائرية، والواقع أن هذا الحادث وقع عن غير اذن الداي وانما هو صادر عن استبداد وقع من وزير البحرية فأقاله الداي عن منصبه هذا حتى يثبت للدول التي توسطت في حل النزاع الجزائري الفرنسي عدم مسؤوليته عن هذا الحادث ويومئذ التجأت فرنسا الى اتخاذ وسيلة أخرى لتحقيق غرضها المنشود لدفع الداي الى الاعتراف بهفوته فتعلقت في ذلك بالباب العالي وجاء المندوب السلطاني (طاهر باشا) قائد الاسطول العثماني في موقعة نافارين الى تونس ممتطيا ظهر مركب حربي في ذي القعدة 1245هـ/ افريل 1830م وكان من مهمته الاطلاع على سير المملكة التونسية أولا ثم التعريج على الجزائر لخلع الداي ولكن باي تونس اعترضه متعللا ومعتذرا بحجة ضرب الحجر الصحي - الكرنتينة - على البلاد، ولقد

---

(1) راجع مذكرات سيمون بفايفر ص 57 ط الجزائر 1974م تعريب الدكتور ابو العيد دودو.

أغضب موقف الباي - هذا - ولاة الامر بدار الخلافة العثمانية [1] ولازم طاهر باشا مركبه ثم توجه الى الجزائر عازما على مفاوضة الداي ولكن الداي بقي متمسكا برأيه نحو الموقف السلبي الذي اتخذه تجاه فرنسا بل أمر بتدمير المنشئات الفرنسية القائمة بالقالة وأبى كل الاباء أن يرضخ لمقترحات فرنسا ولعله كان يعتمد في مسلكه هذا على المؤازرة السرية - الموهومة - المنتظرة من بريطانيا؟...

ورغم ذلك كله فقد ألحت فرنسا على الداي ورضيت منه بان يقتصر في ترضية الرأي العام الفرنسي بتكليف أي جزائري كان يوجد بأرض فرنسا يومئذ ليقوم بذلك باسم الداي حفظا لكرامة الشعبين ولكن الداي لم يتزحزح عن موقفه السلبي وشمخ بأنفه نحو السماء.

واذا حاولنا معرفة كنه حقيقة هذه الاستكانة التي تظاهرت بها فرنسا بجانب الجزائر قلنا انها ولا شك عائدة الى ما أحاط بها من الظروف الحرجة الناشئة عن سوء سير سياستها الداخلية وانصراف رجال الدولة الى ما ذهبت به الحكومة من التشتت بسبب الفتن القائمة بين طبقات الشعب الفرنسي والهيجان المستمر من قبل الثورات المنبثة هنا وهناك ضد الحكم القائم يومئذ، واختلاف الاحزاب السياسة، والاضطرابات المنبعثة عن حروب نابليون الاول وما عراها كذلك من الانقلاب السياسي وغير ذلك مما أنهك قواها وقضى على معنوياتها فأرادت أن تدفع عنها خزى هزيمتها الخارجية هذه بميلها الى الصلح.

وساطة محمد علي باشا خديوي [2] مصر:

واتصل الخبر بملك فرنسا شارل العاشر ففاوض رجال حكومته وأعضاء

---

(1) تاريخ ابن ابي الضياف 3ص 165ط تونس 1963م وأحمد الجزائري كيف دخل الفرنسيون الجزائر ص 25 ط بيروت 1962م. revue Africaine 1877 p: 409

(2) الخديوى: لفظ فارسي أصله «خديو» ويلفظ به «خديف» على الاصطلاح الفارسي وهو مستق من أصل تشترك فيه اللغة الفارسية واللغات الجرمانية ويدل على اسم الجلالة فهو في الفارسية «خدا» وفي الانكليزية god وفي الانكلوسكسونية guth وفي الالمانية gotte وفي لغة الدغارك gud وهي كلها تفيد معنى السيادة والسلطة، ولقد اختير هذا اللفظ لقبا لامير مصر تمييزا له عن سائر ولاة الدولة العثمانية وتفخيما وتعظيما لهذه الولاية (عن مجلة الهلال مجلد (١١).

مجلس دولته في موضوع تصلب الداي هذا فأسفوا لذلك، وأقول لو أن فرنسا كانت في ظروف غير التي أحاطت بها بين سنتي 1825 و1833م لتقدمت بحملتها ضد الجزائر قبل اليوم بعدة سنوات ولكنها كانت في شغل شاغل لما أصابها من النوائب والنكبات كما قدمنا فانظرت لذلك قضية الجزائر وتركتها-على مضض-الى هذا اليوم على أن المجالس الفرنسية قد اجمعت أمرها أواخر عام 1829م على اتخاذ محمد علي باشا خديوي مصر وسيلة للوساطة بينها وبين داي الجزائر في مقابلة منحه بعض الامتيازات اذا ما ضم الجزائر الى ولاية مصر، وفعلا لقد قام الخديوى بهذه الوساطة وسعى اصلاح ذات البين بين الجزائر وفرنسا وأرسل بكتابه الى الداي ينصحه فيه ويحذره وينبئه - في آن واحد - بان العاقبة وخيمة ان هو أصر على رفض المفاوضة في السلم، فلما قرأه حسين باشا داي قال للرسول: معرضا بالخديوى «أبلغه سلامي وقل له ليذهب فليأكل الفول» ولما اتصل الخديوي بهذا الجواب أبلغ الحكومة الفرنسية بخيبة سعيه وعدم نجاحه في الوساطة، وحينئذ ازمعت فرنسا على الحرب واخذت في تدبير المكيدة ولقد وجدت في محمد علي عدو تركيا يومئذ أن مصلحتها تقضي عليها بمساعدته وتغليب كفته على دولة الخلافة توسيعا للفتوق في كيان الدولة التركية، فأوحت اليه بواسطة قنصلها في مصر «دروفتي» وكان هذا من أصدقاء محمد علي فزين له القيام بتعبئة حملة بحرية تتكون من 000 40 رجل نصفهم من القوات النظامية يقودهم ولده ابراهيم والنصف الاخر من الغزاة البدو ويسير بهم على طريق البر المحاذية للبحر وتخرج الحملة من مصر متوجهة نحو شمال افريقية لتقوم بشن غاراتها على سواحل المغرب على أن تتعهد له فرنسا بتقديم المعونة من مال ونشب وعتاد وسفن وغير ذلك مما يراه الخديوي صالحا لحاجته في هذه الحملة. وفي مقابل ذلك يتعهد محمد علي بأن يقيم في افريقيا الشمالية حكومة تعطي فرنسا امتيازات اقتصادية في البلاد، وأن يقضي على القراصنة الافريقيين في البحر المتوسط وأن يقدم لخزينة السلطان العثماني من المال مثل ما يدفعه لها عن مصر، وأخبرت بذلك سلطان استانبول ترغيبا له في الموافقة على غزاة محمد علي والحت فرنسا في تحقيق رغبتها هذه بأساليب شتى، وكان فيما ذكرته للسلطان ترغيبا وتشويقا له في موافقتها على ذلك ان قالت له:

ان في هذه الخطوة ربما يعد كتعويض عما ضحى به السلطان في معاهدته مع روسيا، وهي في ذلك تشير الى اتفاقية (لوندرة) الواقعة في نوفمبر 1828م [1] ولا يبعد أن تكون فرنسا قد وسوست الى الخديوي في الخفاء بمحاربة الباب العالي لتشغل به أولا الدولة التركية وطمعا في انتقال الخلافة اليه فيخلو لها بذلك الجو للتمكن من غزو الجزائر وفتحها، ولقد وافقت كل من بروسيا وروسيا على خطة فرنسا هذه وابدت النمسا في ذلك بعض التحفظات، وربما كانت نصيحة محمد علي لداي الجزائر مقدمة للمفاوضة في شأن فتح الجزائر لحسابها أو لحسابه؟... ولا يبعد - أيضا - أن يكون الداي الجزائري على علم من كل هذه المفاوضات أو المؤامرات السرية التي كانت تدبر ضد الجزائر فعمد لذلك الى السخرية من الخديوي حينما أجاب مبعوثه بقوله: قل لمخدومك؟ ليذهب فليأكل الفول »!...

على أن محمد علي قد رأى من بادىء الامر - لا محالة - خيبة المشروع وتحقق قلة جدواه وكثرة نفقاته وثقل عبئه ولكنه لم يهن عليه أن يدع هذه الفرصة تنفلت من بين يديه لانه لو يقدر لها النجاح لكان يفيد بذلك فائدتين اثنتين أو فوائد شتى، أولا التمكن من اعادة بناء اسطوله بمساعدة دول الغرب ثم هي بعد ذلك سبيل يؤدي الى الارتباط أو المحالفة مع دولتين عظيمتين من دول اروبا وهما دولة فرنسا وبريطانيا؛ وهناك باعث آخر اقتصادي يدفعه الى ذلك أيضا، وهو أن القوافل القادمة من السودان كانت تفضل الوصول الى البحر الابيض المتوسط عن طريق طرابلس الغرب بدل مصر، تهربا من دفع الضرائب الباهظة التي كانت تؤديها الى والي مصر، وباستيلائه على الجزائر يكون قد احتل تونس وطرابلس الغرب وبذا ستعود اليه ضرائب القوافل القادمة من السودان[2] ومن ثمة اشتط الخديوي في طلب الثمن اذ طلب من فرنسا أو قل اشترط عليها أن تقرضه مبلغ 21200000 فرنكا بدون فائض ومن غير مقابل، مع تزويده بأربع سفن بـ بوارج - كبيرة من ذوات الاربعين مدفعا فجاءت الموافقة من فرنسا على النصف من ذلك وعلى

---

(1) راجع محمد فريد بك/تاريخ الدولة العلية ص 220 - 231ط القاهرة 1896م.

(2) السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ص 50ط تونس 1970م.

أن يقدم له هذا المبلغ مقسطا اثناء مباشرة الحملة ثم يقع تسديده بعد عشر سنوات.

وعبثا حاول المندوب الفرنسي فوق العادة المسيو (ميمو) الذي ندبه رئيس وزراء فرنسا بولينياك لاقناع محمد علي بالتعجيل في هذاالامر ذلك لان الرجل كان يخشى الدولة العلية كما يخشى الانكليز ونجده في ذلك يحذر الساسة الفرنسيين من انكشاف القضية وينصحهم بالكتمان ولكن هؤلاء لم يرزقوا حصافته ولا دقة فهمه - كما يقول حسين مؤنس - فمضى «دروفني» قنصل فرنسا يحدث «باركر» قنصل انجلترا في الامر!... وتعجل جلمينو guilleminot سفير فرنسا في تركيا فحدث الرايس افندي عن المشروع راجيا الحصول على موافقته ويومئذ بادر الخديوي بمفاتحة القنصل الانجليزي في القاهرة واخبره بوجود خلافات كبيرة بيه وبين فرنسا حول مشروع الجزائر وأضاف الى ذلك قوله: «انني لا اقبل المشاركة مع فرنسا في حرب ضد المسلمين فأخسر ثقتهم بي وأود أن لو كانت انجلترا وثقت بي لان مصلحتها الاعتماد على مواجهة الخطر الروسي» ولم تتحول بريطانيا عن سياستها المعادية فعملت على تدخل الباب العالي.

وعارض الباب العالي في تدخل الخديوي مؤكدا انه في استطاعته ارسال مندوب خاص -هو طاهر باشا المومى اليه فيما تقدم- لمقاوضة الداي وحمله على الانصياع الى طرق باب السلم من غير داع الى حرب او غزو، وقد حضر قبله الى الجزائر وكيل باش مفتش الترسانة عبد الرحمن افندي موفدا من طرف السلطان، وكذلك خليل آغا وكيل الجزائر بأزمير موفدا هو ايضا الى الداي من طرف الصدر الاعظم خسرو باشا وبقي الجو مضطربا بسبب اعتراض الانكليز على استعانة فرنسا بمحمد علي ثم بامتناع فرنسا نفسها من قبول تدخل دار الخلافة العثمانية في القضية واعتراض الوزراء الفرنسيين على تسليم سفن فرنسية للخديوي ونهضت الصحف الفرنسية كذلك تعترض على المشروع المصري ومثلها المعارضة الدولية التي ظهرت في معظم عواصم اوربا مثل فينا وعاصمة روسيا.... ووقع يومئذ اضطراب حبل الحكومة الفرنسية المتمثل في سياسة الرئيس بولينياك وملكه شارل العاشر، وكل ذلك دفع بولينياك الى التفكير

من جديد في انفراد فرنسا باحتلال الجزائر.

.....وأخيراً الحرب!....

ثم بعد الخيبة الذريعة التي منيت بها.فرنسا في تلك المحاولات كلها رفع وزير الحربية الفرنسي «كلارمون دوطنير» تقريرا الى الملك شارل العاشر يحرضه فيه على احتلال الجزائر انتقاما لشرف فرنسا من موقف الداي نحو القنصل وجلبا لشكر المسيحية في تحطيم الد اعدائها.... ومما جاء في تقريره هذا قوله: «لقد ارادت العناية الالهية تثأر حمية جلالتكم بشدة في شخص قنصلكم بواسطة الد أعداء المسيحية، ولعله لم يكن من باب الصدفة ان يدعى ابن لويس التقي لكي ينتقم للدين وللانسانية ولاهانته الشخصية في نفس الوقت وربما يسعدنا بان ننتهز هذه الفرصة لكي ننشر المدنية بين السكان الاصليين وندخلهم في النصرانية[1] وجمع الملك شارل وزراءه لهذا الغرض وقرر في جلسته المنعقدة يوم 13 شعبان 1245هـ/7 فيفرى 1830م وجوب الاستيلاء على القطر الجزائري وخطب فيهم الملك مندفعا بدافع الصليبية متحمسا لتنصير هذا الجناح الاسلامي من هذا الشمال الافريقي قائلا: «سترون ان التعويض الضخم الذي ستحصل عليه حكومتي سيؤول بحول الله لاخواننا في الدين المسيحي...»[2]

وبمجرد ذيوع خبر هذا القرار وانتشاره باركه امبراطور روسيا نيقولا الاول فمنح فرنسا تأييده بدون تحفظ بل واعارها احد ضباطه المتخصصين في الشؤون المالية وهو المسمى (فيلوسلوف) ليرافق الحملة ضد الجزائر، ومثله فعل الامبراطور الروسي فريديريك الثالث، وكان موقف دول الشمال ولا سيما السويد مثل ذلك، غير ان بريطانيا فقد تحرك في جسمها داء الضرائر فبذلت غاية وسعها ونهاية جهدها في احباط هذا المشروع، لا لسواد عيون الجزائريين وانما كان ذلك انتقاما من فرنسا التي كانت ترمي في حملتها على مصر سنة

---

(1) الدكتور صلاح العقاد: المغرب العربي ص 86 ط القاهرة 1962م. ومحاضراته عن تطور السياسة الفرنسية في الجزائر ص 43ط القاهرة 1960م.

(2) الشرق الاسلامي ج 1 ص310-312 وتحفة الزائر ج1 ص 83 والمغرب العربي ص 94.

Gustave gautrot, la Conquête D'Alger 2 .45 Paris 1929.

1213هـ/1798م الى ابعاد الانكليز عن جميع مستعمراتهم في الشرق وتدمير مراكزهم التجارية في البحر الاحمر والى جعل هذا البحر من مشمولات الحكم الفرنسي الذي كان من مقاصدها ونواياها تحطيم الامبراطورية البريطانية في الهند والوثوب على الحكم الانكليزي هناك واحتلال الضفة الجنوبية من البحر الابيض المتوسط فتكون السيادة بذلك فيه لفرنسا وحدها ويضعف بذلك طبعا نفوذ بريطانيا بهذا البحر بعد ان كادت ان تستقل بالسيادة عليه منذ ان استحوذت على جبل طارق وجزيرة مالطة فخشيت ان تصبح فرنسا مزاحمة لها فيه، فكل ذلك حمل الانكليز على السعي الحثيث في احباط نوايا فرنسا نحو الجزائر ومن ذلك حضور سفير بريطانيا الى رئاسة الوزارة الفرنسية وكان على راسها يومئذ البرانس دي بولينياك فقدم له السفير لائحة تحتوي على احتجاج دولته ضد الموقف الاخير الذي اتخذته الحكومة الفرنسية نحو الجزائر واندره على لسان دولته بالحرب فأجابه دي بولينياك قائلا: خذ لائحتك معك وقل لمن ارسلها لك انك قدمتها اليّ ولم اقرأها.

ومن هناك انتقل السفير البريطاني الى ناظر الخارجية الفرنسي لعله يظفر هناك بمبتغاه؟ ولكنه اقتبل ثم بنفس الاقتبال الذي لقيه عند رئيس الوزراء... وما راعه الا ان بوغت بكلمات ناظر الخارجية التي كان مؤداها هو قوله: «ايها السفير لقد اخبرتك عن عدد مدرعات الاسطول وعن عدد مدافعه وملاحيه وعدد جيش الحملة وعن المكان الذي يصدر منه الجيش الى القطر الجزائري فقف لنا انت في اساطيلك بالمرصاد وامنعنا من ذلك ان امكنك».

وهناك بعض المؤرخين من يذكر لنا ظهور الدولة العثمانية بموقفها السلبي تجاه تدخل الخديوي في القضية واكتفائها بايفاد مندوب السلطان برتبة قابودان لتبليغ رسالة دار الخلافة الى داى الجزائر وارغامه على المسالمة ولكن الديبلوماسية الفرنسية ادركت وان هذا العمل يتناقض مع مصلحتها في عزمها على احتلال الجزائر، ولهذا ذهبت الى العمل على الحيلولة بين مندوب السلطان واتصاله بالجزائر وذلك بان انذرت باي تونس بضربها الحصار على مملكته ان هو سمح لهذا القابود ان يتخطى الحدود التونسية الى الجزائر واوحت اليه

بالحيلة في صرفه وتحويل نظره عن الجزائر[1] فأسعفها الباي. ولما حل المنا
السلطاني (طاهر باشا) بتونس سعى الباي في عرقلته عن الاتصال بالجزائر
قدم اليه بزعمه نصيحة بعدم الاقدام على النزول بارض الجزائر لما يكثر
من الاوبئة وكان بمقتضى نصوص قانون الوقاية العام يمتنع السماح لاي احد
بالتجول والسياحة بارض موبوءة وبموجبه عدل طاهر باشا عن النزول
مركبه وعاد من حيث اتى وما راعه وهو سائر يمخر عباب البحر في طريقا
استانبول الا وبوارج فرنسية تحيط به فساقته تحت الحفظ الى ميناء طولا
وفشل مشروع طاهر باشا كما فشل قبله سعي المندوب السلطاني خليل افند
ولم تسمح له السلطات الفرنسية بمغادرة ميناء طولون الا بعد ان استكـ
عملية الفتح بالجزائر[2].

هذا وقد اتصلت ادارة الاستعلامات الجزائرية من طرف الجواسـ
الاسبان بوثائق تشتمل على خبر ينبىء بعزم فرنسا على غزو الجزائر في
1245 هـ/1830م واليك نص ما كتب به رجال قلم المخابرات والاستعلامات
الداي:

«الحمد لله وحده ولا يدوم الا ملكه

المعظم المكرم المجاهد في سبيل الله المحترم سيدنا حسين باشا محروسة الجز
نصره الله وخلد ذكره ومآثره السلام على مقام سيدنا العالي بالله ورحمة
وبركاته عن خير سيدنا ادام الله وجوده آمين مما يجب الاعلام به لسيدنا
خبير جنس الفرنسيس الذي هنا كما هو بالقاريظات التي مع هذا فليطالعها سيدنا -
يعلم ذلك وقد تواتر ذكر الفرنسيين يريدون حرب ثغر الجزائر برا وبحرا
آخر شهر ماية الاتي (1830م) ونحن على خدمة سيدنا وجميع ما يحدث
الاخبار نعلم سيدنا به ان شاء الله، وفي جميع ما يحتاج نحن على ما يعهده سيـ
منا من النصح وفي الخدمة بحول الله غير مقصرين والسلام. بتاريخ 17 رمضـ

---

(1) الفتوحات الاسلامية ج 2ص 196ط مصر 1323هـ

(2) تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد ص 232 ط القاهرة 1314هـ/1896م - gautrot - tave
La Conquête d'Alger p: 39 - 160 - 161, paris 1929

سنة 1245هـ[1] وقد اكد صحة هذا الخبر سفينتان جزائريتان استطاعتا ان تتسللا ليلا بين السفن الفرنسية المحاصرة، كانت احداها تحمل العلم الانجليزي والاخرى العلم الايطالي، وكان هذا الخبر مبعث رعب وفزع بالنسبة للجزائر كلها، فاسرع الداي بارسال الرسل الى البايات والى شيوخ القبائل يخبرهم بقرب نزول القوات الفرنسية الى البر ويامرهم بالاستعداد للمساعدة عند حاجته اليهم[2]. واما المعارضة الانكليزية فانها بقيت مستمرة على موقفها المعاكس الى مابعد الاحتلال بثلاث سنوات.

الحملة الفرنسية ضد الجزائر:

وقبل ان تنبعث الحملة الفرنسية من مركزها بميناء طولون قدم الرئيس دي بولينياك مشروعا الى مجلس الوزراء عرض فيه الخطة التي ينبغي اتخاذها حول تقرير مصير الجزائر بعد الانتصار عليها ويتلخص المشروع في نقاط اربعة وترك للمجلس اختيار احدى هذه النقاط.

1. – ابقاء الداي في حكم الجزائر على ان تشرف فرنسا عليه من الناحية العسكرية فيحدد له عدد الجيش والاسطول الذي يستطيع الداي الاحتفاظ به.

2 – او اعادة الجزائر الى الدولة العثمانية لانشاء حكومة منظمة فيها تضمن احترام الجزائريين للملاحة في البحر المتوسط.

3 – او ان تتقاسم فرنسا الجزائر مع الدول الاوربية وخاصة انكلترا

4 – او ان تحتل فرنسا الجزائر بصورة دائمة وان تستغلها اقتصاديا لكن الذي غلب هو الراي الاخير[3].

وفي عشية يوم مغادرة الحملة لمرسى طولون واقلاعها الى الجزائر طبعت الحكومة الفرنسية منشورا بالعربية وارسلت بـ 400 نسخة منه الى القنصل

---

(1) I.j.Bresnier – Chrestomathie Arabe – p: 138–140 Rapport d'un espion espagnol a Hoçeïn pacha sur le Bruit de l'expedition française en 1830 – Alger 1867.

(2) مذكرات سيمون بفايفر تعريب الدكتور ابو العيد دودو ص 63 ط الجزائر 1974م.

(3) انظر د. ابو القاسم سعد الله. ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر ص 188 ط الجزائر 1978 نقلاً عن مجلة ليفربول الصادرة بلندن The Liverpool Mercury تاريخ 18 جوان 1830م. لندن.

الفرنسي بتونس ليوزعه على مراكز معينة بالجزائر اعداداً للخطوات الاولى وتخذيلا للشعب الجزائري وتضليله وعزله عن حكومته، وهذا نصه:

« الى الكولوغلى » ابناء الاتراك والعرب المقاومين في اقليم الجزائر »

« اننا نحن اصدقاؤكم الفرنسيين نتوجه الان نحو مدينة الجزائر، اننا ذاهبون لكي نطرد الاتراك من هناك، ان الاتراك هم اعداؤكم وطغاتكم الذين يتجبرون عليكم ويضطهدونكم والذين يسرقون املاككم وانتاج ارضكم، والذين يهددون حياتكم باستمرار، إننا لن ناخذ المدينة منهم لكي نكون سادة عليها اننا نقسم على ذلك بدمائنا واذا انضممتم الينا، واذا برهنتم على انكم جديرون لحمايتنا، فسيكون الحكم في ايديكم كما كان في السابق، وستكونون سادة مستقلين على وطنكم.

ان الفرنسيين سيعاملونكم كما عاملوا المصريين اخوانكم الاعزاء الذين لم يفتأوا يفكرون فينا ويتأسفون على فراقنا طوال الثلاثين سنة الماضية، منذ خروجنا من بلادهم، والذين ما يزالون يرسلون ابناءهم الى فرنسا ليتعلموا القراءة والكتابة وكل فن وحرفة مفيدة ونحن نعدكم باحترام نقودكم وبضائعكم ودينكم المقدس لان ملك فرنسا المعظم حامي وطننا المحبوب يحمي كل دين.

فاذا كنتم لا تثقوا في كلمتنا وفي قوة سلاحنا، فابتعدوا عن طريقنا ولا تنضموا الى الاتراك الذين هم اعداؤنا واعداؤكم، فابقوا هاذئين. ان الفرنسيين ليسوا في حاجة الى مساعدة لضرب وطرد الاتراك، ان الفرنسيين لكم، وسيظلون اصدقاؤكم المخلصون، فتعالوا الينا وسنكون مسرورين بكم وسيكون ذلك فرصة لكم، واذا احضرتم الينا الأطعمة والاغذية والابقار والاغنام فسندفع ثمن ذلك بسعر السوق، واذا كنتم خائفين من سلاحنا فأشيروا علينا بالمكان الذي يقابلكم فيه جنودنا المخلصون دون سلاح مزودين بالنقود في مقابل التموين الذي تأتون به؛ وهكذا يحل السلام بينكم وبيننا لمصلحتكم ومصلحتنا.(1)

وفي اليوم الثاني من شهر ذي الحجة 1245 هـ/25 مايو 1830 م غادرت الحملة الفرنسية ميناء طولون بقيادة الاميرال « دوبيرى » وامرة وزير الحربية

(1)ابو القاسم سعد الله: ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر ص 188.

القائد العام (دوبورمون) وهي تشتمل على ما يزيد عن ستمائة مركب اشترك فيها كل من حكومة الجنويز وقاطانيا بخمس ومائة مركب وفيها من البوارج الفرنسية 123 بارجة مختلفة الشكل، و383 مركبا للشحن وعدد كبير من السفن التجارية التي ساعدت بها كل من دولة ايطاليا والنمسا وروسيا[1] واسبانيا على سبيل الاجارة كما سمحت هذه الاخيرة الاسطول الحملة باتخاذ جزر الباليار كمحطة لها وقد ضم هذا الاسطول سبع سفن بخارية فقط. اما الباقي فكانت سفنا شراعية، ولهذا فانه يمكننا اعتبار تلك الحملة آخر حملة استخدمت فيها قوة الشراع، وكان عدد الجيش المقاتل 37617 نسمة منهم 27000 بحارة و4000 من الفرسان ومن المتطوعة 3207 والباقي من تمام عدد الجند المشاة ومعهم من المدافع الثقيلة والخفيفة ما يبلغ 2968 مدفعا وذلك علاوة على ما تحمله معها هذه الاساطيل الحربية من القناطير المقنطرة من السلاح الابيض واطنان من البارود، وودعها ملك فرنسا شارل العاشر بخطبة جاء فيها ما يلي: « ... ان العمل الذي ستقوم به الحملة ترضية للشرف الفرنسي سيكون بمساعدة العلي القدير لفائدة المسيحية كلها ... » وكان في الحملة ستة عشر قسا كل منهم جاء للمشاركة بنصيبه في بعث الحماس الديني في الجيش وتنصير الجزائريين على طريق التبشير المسلح كما صرح بذلك الملك شارل العاشر نفسه يوم ثاني مارس 1830م حيث قال: «ان فرنسا تقصد من وراء تمدين الافارقة الى تنصيرهم.. » وبمثل هذا صرح الجنيرال « دوبورمون » في بيانه الموجه الى المبشرين الذين رافقوا الجيوش في هذه الحملة اذ قال: « ...لقد جئتم لتعيدوا معنا فتح الباب على مصراعيه لتدخل المسيحية افريقيا واننا لكبيرو الامل ان تعم ديانتنا هذه الربوع قريبا لتعمل من جديد على ازدهار المدنية التي انطفأ نورها منذ عدة قرون... »[2] وحين نرى الفرنسيين يحاربون الاسلام في شخص الجزائر كما هم يحاربونه الى الان باساليب مختلفة لم يكن ذلك حقيقة منهم انتصارا للمسيحية كما زعموا ويزعمون، فما تؤمن فرنسا بالمسيحية ولا تدين بها. ولو كانت تعتقد المسيحية وتؤمن بها كما بعث بها المسيح عليه السلام حقا لما وقع منها ما وقع ضد

---

(1) احمد الخطيب: الثورة الجزائرية ص 42 ط بيروت 1958م.
وانظر كشف البضائع في ذكر الوقائع، محمد العنابي مخطوط.

(2) gustave gautrot – la Conquête D'Alger p. 29– 30– 58– 60 Paris 1929

الانسانية في هذه الحملة، ولما اصابها كذلك ما هي عليه الى الان من الانحلال الخلقي، ولما غرقت في هذه المفاسد والضلالات.... وذكروا عن نفقات هذه الحملة فقالوا انها بلغت الى 25000000 فرنكا من فرنكات فرنسا في ذلك التاريخ.

وجاء قائد الحملة دوبورمون بتعاليم من مخدومه بباريس مأمورا بتنفيذها في الجزائر وهي تتلخص فيا يلي:

اولا: لا ينبغي له ان يسعى للمفاوضات بل يكون هدفه دائما هو احتلال الجزائر، ولكن اذا عرض الداي الصلح قبل نزول الحملة الى البر فيمكنه قبول المبدأ، ولكن على أساس شروط قاسية، ويجب على كل حال تسليم الاسلحة والحصون الخارجية واحتلال الجزائر موقتا الى ان تنفذ تلك الشروط ومن بينها سفر وفد من كبار الشخصيات للاعتذار لداي الحكومة بباريس والتعهد بالقاء الرق والقرصنة والاتاوات نهائيا ودفع غرامة قدرها خمسون مليون فرنكا وهو ما يعادل نفقات الحصار والحملة وما ارتكبه الداي من تعد على الوفد الفرنسي اثناء مفاوضات سنة 1829 م ويعود الداي الى تبعية الدولة العثمانية فيثبته السلطان ويعين خلفاءه ويجدد الداي امتيازات فرنسا السابقة لصيد الاصداف مقابل عوائد سنوية ولكن عليه ان يتنازل ايضا عن جزء من الساحل يمتد من عنابة وخليجها حتى الحدود التونسية ويعترف بسيادة فرنسا عليه. ولكن هذه التعليمات كلها قد تلاشت بمجرد الاستيلاء الذي وقع على العاصمة[1]

وكان اتصال الاسطول او قل الارمادة - الفرنسية - كما يسميها كل من الاتراك والاسبان معا بساحل الجزائر يوم 20 ذي الحجة 1245 هـ/13 جوان 1830 م واتجهت في الساعة الثامنة نحو الغرب عند خليج «سيدي فرج» على بعد اربعة عشر كيلو مترا غربي العاصمة وهي المنطقة التي اختارها لنزول الجيش بها الخبير العسكري بوتان Boutin الذي كان قد بعث به نابليون من قبل (1808م)، لاختبار ارض الوطن، فاختار هذه الناحية لان الحملة تستطيع منها ان تاتي مدينة الجزائر من خلفها بدل من ان تتعرض لها من

(1) المغرب العربي ص 100

ناحية وجهها الحصين فيما لو أرادت النزول في شاطىء أو مرفأ مدينة الجزائر ذاتها وهكذا بدون اعلان حرب او انذار بقتال اخذت الجيوش الفرنسية تنزل بارض الجزائر اخذة في الاعتداء على الوطن واهله من دون ان تلقى من الجزائريين اي مقاومة تذكر ، وذلك لان الحامية يومئذ كانت مرابطة بنواحي الحراش شرقي العاصمة وهي هنالك كانت ترقب العدو حسب الخطة المرسومة ظنا منها انها تؤخذ من هنالك ولم تعلم ان خطة الغزو هذه احكمت في الخفاء اي منذ حل بالجزائر المهندس العسكري الكولونيل بوتان Boutin حين ندبه نابليون الاول الى الجزائر سنة 1223هـ/ 1808م لاستكشاف احوالها ووضع تصميم لها وكان مما خطه في تقريره: هو ان يكون نزول الغزاة بساحل سيدي فرج القريب من فحص العاصمة غربا ويكون الهجوم على العاصمة برا من ناحية الجنوب وذلك لعلمه باهمال الاتراك للتحصينات البرية اكتفاء منهم بالحصون والمنشآت البحرية اذ كانت المدينة محاطة بـ 907 فتحة مدفع للرمي ، وتطل من هذه الفتحات 658 فوهة مدفع مختلفة العيارات ، منها 529 فوهات مدافع موجهة نحو البحر موزعة على ابراج الشاطىء وليس هناك سوى حصن واحد (مولاى حسن) على بعد 1700 ميترا من القصبة العليا الذي كان يستطيع ان يحمي المدينة من الجهة الجنوبية والجهات البرية بصفة عامة.

وكانت الاحتياطات الوحيدة المتخذة للدفاع عن المدينة برا هي ما امر به الاغا افندي من اضافة بعض المدافع الى حامية (سيدى فرج) وارسل اليها بضع مئات من الجنود كما اقام مخازن للحبوب تتسع لحوالى 180 الف مد ، ولهذا عدل الفرنسيرن عن غزو المدينة من الجهة البحرية واتوها من الخلف ، على ان يكون اتجاه العسكر الفرنسي من هناك الى حصن الطاوس او القلعة المسماة سلطانية - قلعة سي - الواقعة بمرتفع كدية الصابون المشرفة على العاصمة - جنوبا - وهي المعروفة اليوم باسم برج مولاى حسن او حصن الامبراطور Fort L'Empereur كما اطلقه عليه الفرنسيون اثناء استيلائهم على الجزائر مراعاة لما بناه الاسبان من بعض الزيادات في هذا الحصن ايام شارل الخامس.

ولا يسمح لنا التاريخ ان نقول أو حتى نتصور ان الداي كان يجهل ذلك او كان في غفلة عنه كما يبدو من تصرفاته تجاه هذا الغزو الفرنسي. كلا : بل انه

كان على علم بذلك وكان متيقنا به بل وحتى بالمكان الذي ازمع العدو النزول به قبل اتصاله بارض الجزائر وهذا ما نجده عند احمد باي في مذكراته حيث قال:

«ذهبت في سنة 1830 م الى مدينة الجزائر لاداء الدنوش او الزيارة الاجبارية التي يؤديها الى الباشا جميع البايات مرة كل ثلاث سنوات... وعندما حضرت بين يدي الباشا قال لي: ليس لديكم اكثرمن الوقت الكافي للخروج الى الفرنسيين الذين سينزلون بسيدي فرج، انني اعرف مكان النزول من الرسائل التي تصلني من بلادهم ومن كتاب طبع في فرنسا وارسله لي جواسيس من مالطة وجبل طارق.. ثم اضاف بان الرسائل ترد اليه باستمرار من فرنسا وانه على علم بكل ما يجري هناك[1]. ولقد اخذ القنصل الانكليزي يومئذ موقفا حماسيا بجانب الاتراك يحرضهم على الثبات في المقاومة معترضا على نزول الجند الفرنسي بالجزائر وقد فعل ذلك مرتين فلم يلق من الداي يومئذ الا اذناً صماء ولكن ذلك نشأ عما كان يعتقده الداي في نفسه من القضاء على جيش العدو بمجرد نزوله، فوقع له في ذلك مثل ما وقع للمستنصر الحفصي حين نزلت جيوش (سان لوي) ملك فرنسا بارض قرطاجنة سنة 669هـ/1269 م فأخطأ كلاهما المرمى.

وانتشرت حينئذ الجيوش الفرنسية بفحص الجزائر وضواحيها وتقدمت الى العاصمة بخطة محكمة واذ ذاك خرج الجيش التركي بما فيه من جند نظامي وغير نظامي ولم يكن ليتجاوز الجيش كله ثلاثين الف محارب ومن وراءه الشعب يدب يقودهم جميعا ابراهيم آغا صهر الداي حسين فبلغ العدد في مجموعه ما يقارب الخمسين الف او الستين الف نسمة على اكثر تقدير، ويروي لنا سيمون بفايفر الالماني الذي شاهد الوقعة بنفسه ضابطا لعدد الجيش الجزائري المقاوم لهذه الحملة فيقول: «وقد تولى الاغا افندي ابراهيم قيادة الجيش الجزائري الذي كان ينضم اليه في كل يوم بضعة آلاف من العرب والقبائل بقيادة باياتهم وشيوخهم او خلفائهم، فوصل باي قسنطينة الى (اسطاوالى) مع حوالى اثنى عشر الفا، وباي تيطرى مع ثمانية آلاف، وخليفته ثلاثة آلاف، وخليفة باي وهران ستة آلاف وشيوخ القبائل ما بين الستة عشر الفا، وامين

(1) محمد العربي الزبيري: مذكرات أحمد باي ص 11ط الجزائر 1973م.

الميزابيين مع حوالى اربعة الاف، وبذلك اصبح الجيش الجزائري باضافة حرس الاغا افندي وسكان الجزائر الذين توصلوا الى المعسكر دفعات كبيرة، يضم خمسين الف رجل على الاقل، والحقيقة ان كلا من الداي والاغا افندي كان يجهل مقدار القوات الجزائرية المحاربة(1)، وجمع الفرنسيون في مقابل هذه القوة حوالى عشرين الفا وهو عدد قليل بالقياس الى الاهالي، ولكنه كان يفوقهم من حيث النظام والعتاد الحربي واختيار المواقع الاستراتيجية المهمة اذ بينما الجيش الأهلي كان مجتمعاً على صورة غير منتظمة فزحف به الآغا المذكور من حصن (اسطاوالى)(2) «الى ناحية «سيدي فرج» (27 ذي الحجة/19 جوان) وهناك كانت المعارك عنيفة بين قوات العدو والجيش الجزائري فتزلزلت لها اقدام جند الاحتلال وكاد ان ينهزم لولا ما لحق القيادة الجزائرية من الضعف فانتصر عليها العدو واستولى على ما كان لديها من اسلحة وعتاد وذخائر ومركوب فكان منها مائة جمل وعدد من الخيل والبغال واربعمائة خيمة وثلاثة عشر مدفعا، واستمر العدو في زحفه الى العاصمة حتى تمكن منها ويرد بعضهم سبب هذا الانهزام الى فقدان الكفاءة في القيادة اذ لم يعد القائد العام ابراهيم آغا لهذه الحرب اي شيء ولم يتخذ اية حيطة بل لم يعط اي اوامر او تعاليم لجيشه القليل فتركه بدون سلاح ولا مؤونة وهو مع خصاصته لا يتجاوز ثلاثمائة فارس وشرذمة قليلة كانت مع الحاج احمد باي قسنطينة(3) مع خلو برج سيدي

---

(1) مذكرات بفايفر تعريب الدكتور ابو العيد دودو ص 80 ط الجزائر 1974م.

(2) تكتب كلمة «اسطا» هكذا بالالف اولا وآخرا كما في اعلى الصفحة أو بدون الالف الاول هكذا «سطا» أو «اسطى» بالمقصورة. وتكتب بالصاد كذلك هكذا: اصطى واسطى وأصطا بالالف الممدودة ايضا. وهو لقب فارسي أصله: استاذ، فحرف في العصور الحديثة بالنسبة الى اصحاب الحرف الى لقب «اسطى» ومعناه المعلم والسيد الماهر المعلم والسيد الماهر المشهور بعمله. راجع الدكتور حسن باشا: الالقاب الاسلامية في التاريخ ص 40 او 285 ط القاهرة 1957م. وكتاب الفنون الاسلامية والوظائف، لنفس المؤلف ج 1 ص 61 ط القاهرة 1965م. أما كلمة والى الواردة في النص فهي علم شخصي أو عائلي ويحتمل أن تكون من الولاية بمعنى الحكم أو بمعنى الصلاح

(3) ولد الحاج احمد بي حوالي سنة 1200هـ/ 1786م وبعد أن تقلب في وظائف مخزنية تولى بايا على ولاية قسنطينة سنة 1241هـ/1826م ومكث في الحكم 22 سنة وحاز من طرف الباب العالي لقب باشا فضرب النقود باسمه وله مواقف حازمة وقفها تجاه الغزو الفرنسي لبلاده ولما أحس بالهزيمة لجأ الى

فرج من التحصين الحربي اذ لم يكن به يومئذ سوى اثنا عشر مدفعا كان وضعها هناك قائد القوات الحربية قبل يحيى آغا[1] وبعد اسبوع واحد فقط وقع الاستيلاء على معسكر «اسطاوالى» ويومئذ التجأ الداي الى انتداب واستنجاد حكومة جارتيه: تونس والمغرب، فلم ينتدبا لذلك ولم يلبيا نداءه اللهم الا ما نذكر عن باي طرابلس الغرب فانه اعلن الجهاد ضد فرنسا وامر باعلان ذلك على رؤوس المنابر في المساجد واذاعته بين الجمهور[2] وفي اليوم الثالث من شهر المحرم 1246 هـ/25 جوان1830 نهض ابراهيم آغا الى متابعة القتال ولكنه لسوء خبرة الجيش الجزائري بالمناورات الحربية الحديثة وجهله هو بأسلوب القتال العصري في الأرض وعدم اضطلاعهم وتدربهم جميعا على النظم العسكرية الحديثة التي كانت جنود العدو متلبسة بها انهزم الجيش الجزائري فتعقبه العدو الى حصن ابن جاريه «فاستولى عليه مستحوذا على جميع ما احتوى عليه هذا الحصن من عدة وعدد وذخائر وقد كلف الجيش الفرنسي تسعمائة قتيل، وبالرغم من المقاومة الشديدة التي ابداها كل من باي تيطرى، مصطفى بومرزاق[3] بميمنة العدو وباي وهران بمباغتاته لقلبه وما قام به الاغا ابراهيم من الاحاطة بالعدو والقضاء على ميسرة جيشه وعزل جيوش العدو عن شبه جزيرة «سيدي فرج» والحيلولة بينها وبين القوات الاحتياطية الفرنسية فان ذلك لم يجد كله نفعا واصبحت جميع ضواحي العاصمة (8المحرم1246م / 30 جوان 1830)خاضعة للقوات الفرنسية ورغم ذلك فقد لازمت الحامية الجزائرية مركزها وصمدت تجاه العدو فمنعته من الحركة الامر الذي جعل الفرنسيين

جبل حر خدو بالاوراس وبعد مفاوضات جرت بينه وبين رجال السلطة الفرنسية استسلم الى الرائد دوسان جيرمان يوم ٢ رجب 1264 هـ/5 جوان 1848م شريطة السماح له بالانتقال الى بلد مسلم ولكنه اسر واخذ غدرا الى مدينة الجزائر فمكث بها معتقلاً الى وفاته سنة 1266 هـ/1850م فدفن بتربة زاوية ضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي وقبره معروف بها انظر محمد العربي الزبيري مذكرات احمد باي.. ط الجزائر 1973م. وانظر بشأن حركة الحاج احمد باي كتاب محمد العنابي: كشف البضائع في ذكر الوقائع (مخطوط).

(1) المرآة لحمدان عثمان خوجة

(2) gustave gautrot — la conquete d'Alger p: 72 paris 1929

(3)تكنى بذلك يوم أن تقدم للداي وصرح له بأنه عازم كل العزم على خوض هذه المعركة وهو على رأس عشرين الفا من الجند نصفهم مسلح بالمزارق، فكني يومئذ بأبي مزراق.

يتقدمون الى العاصمة على نسبة كيلومترا واحد وتسعة امتار في اليوم اي انهم مكثوا 22 يوما لقطع مسافة 24 كيلومترا [1] وهي المرحلة التي ما بين « سيدي فرج » والعاصمة وتكبد العدو فيها من الخسائر في الارواح ما بين قتيل وجريح ما بلغ الستة آلاف مقاتل وذلك حسبما صرح به قائد الجيش العام الفرنسي وكان الطريق كله من اسطاوالي الى العاصمة مغمورا بالجرحى والقتلى.

وبعد ذلك بيومين اشرف العدو على العاصمة من الجنوب من ناحية « برج مولاي حسن » ومن هناك اخذ في قصف البرج المذكور الذي لم يفتر عن الدفاع عن نفسه الا عند الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم وقد تولى قيادة الجيش يومئذ وزير المالية - الخزناجي - فتقدم بنفسه مع 800 جندي تركي و 1200 جندي عربي مندفعا امام جيش العدو مخترقا للصفوف ومتجولا بين الكتائب هنا وهناك فقاتل حتى لم يبق معه سوى جندي واحد ورفيق آخر معه وحينئذ اسرع بدافع اليأس الى خزينة البارود الموجودة بذلك الحصن فاوقد بها النار فانفجر الحصن انفجارا هائلا كان له دوي عظيم وساقطت منه شظايا الصخور والحجارة العظيمة فوقعت منقضة على العدو كالصاعقة وتطايرت منها قطع شظايا وقع بعضها على دور المدينة وقصورها وشملت الكثير من منازل الخاصة والعامة فكان لذلك وقعها على الاهالي شديدا واستشهد من جرائها عدد وافر من السكان. ولقد بدأت هذه المعركة الحاسمة من الساعة الثالثة صباحا واستمرت حتى العاشرة من نفس ذلك اليوم. وسقطت القلعة المذكورة بيد العدو وصباح يوم (24 المحرم 1246 هـ/4 جويلية 1830م) [2]. وقد استولى على 30 الف بندقية [3].

---

(1) احمد الخطيب: الثورة الجزائرية ص 46 ط بيروت 1958م.

(2) يقول سيمون بفايفر الالماني في حديثة عن برج مولاي حسن وقد شاهد بنفسه يومئذ سقوطه بيد الفرنسيين انه كان لهذا الحصن ثلاث حاميات يتلو بعضها بعضا، ويتراوح عدد مدافعها بين الثانين والمائة، أما في اليوم الذي خسر فيه الجزائريون معركتهم مع الفرنسيين فلم يكن به سوى أربعة مدافع وحوالي خمسين قذيفة وأقل من قنطار من البارود، ان لم اخطىء في هذا، وما يقرب من اربعين رجلا من كبار السن، ولم تكن به مؤونة، وفي الليل حل اليه بناء على اوامر الداي عدد كبير من القنابل والقذائف والرصاص وكمية كبيرة من البارود والذخيرة، ويقوم على حمايته الف رجل بقيادة الخزناجي افندي (مذكرات سيمون بفايفر ص 90 ط الجزائر 1974م) ويذكر لنا الزهار وصفا كاملا

المنية ولا الدنية!...

بهذه الجملة الحماسية الحارة والعبارة الجامعة الحاسمة اجاب الداي حاشيته حينما اشارت عليه هذه بالمسالمة والصلح لما توقعته من سوء المنقلب الذي كانت منه الجزائر على قاب قوسين او ادنى، وكيف العمل وقد احاط بهم العدو واحدقت بهم اساطيله؟.. ولكن الداي ابى ذلك ورد على جمعهم قائلا: انني ما دمت حيا والى الرمق الاخير استمر على مقاومة العدو الى النهاية... ثم نهض متحمسا الى مشعل النار فقال وهو يتهيأ للقبض على المشعل: ان ابيتم الا الاستسلام والخضوع فها اني ساتلف قصر القصبة هذا بيدي واذهب معه هباء!..؛واهوى بيده الى مشعل البارود ليوقد النار في خزينة البارود فعند ذلك اعترضه الحاضرون من الرؤساء والولاة وحجزوا بينه وبين عملية الاحراق وكلهم نطق بلسان واحد وبشجاعة عظيمة فقالوا: اننا معك ايها الداي نموت او نحيا وها نحن نقدم انفسنا فداء لوطننا نقاتل معك بانفسنا وابنائنا الى اخر نفس ولا نسلم بلادنا ابدا...

عن هذا الحصن وعما جرى له هو في نفسه أيام الاحتلال وشارك فيه فقال: «واتفقوا - أي أعضاء الحكومة ورجال الشورى - على تعمير برج مولاي الحسن وكانوا قد بعثوا بي لاجرد لهم ما فيه من المدافع وآلة الحرب فذهبت ووجدت به عشرة مدافع صغيرة ونحو القنطارين من البارود وما يقرب، من المائتين كورة، فأتيتهم بالجريدة واطلعوا عليها وأمروا بتعميره.. (احمد توفيق المدني: مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار ص 173ط الجزائر 1974م.

(3) محمد العنابي: كشف البضائع في ذكر الوقائع - مخطوط -

وبينما جماعة الباشا في اضطراب وحيرة من امر مريج اذا بقائد جيوش الحملة الفرنسية هو الاخر يبعث الى الداي بانذار يهدده فيه قائلا: «اننا قد امهلناك اربعة وعشرين ساعة لتتروى في تسليم القلعة طوعا، والا اخذناها منك كرها وقهرا وعاملنا اهلها باسوا معاملة» كما انه بعث بانذار اخر عام الى كافة سكان العاصمة يقول فيه ما ملخصه: «انكم ان القيتم القياد وسلمتم البلاد فلكم الامان على انفسكم واموالكم اذ لا حاجة بنا الى سفك الدماء وفيها الصبيان والنساء ولا في هدم الابنية، وان كانت الاخرى فقد القيتم بانفسكم وعرضتم بلادكم للهدم فاني لا انفك عن هدمها او تصير دكا»[1]

وجاء في مذكرة احمد الجزائري وهو احد اعيان العاصمة قد شارك هو بنفسه في مفاوضة الداي بشأن التدبير في مصير المملكة الجزائرية وعمل على بث الروح الوطنية في الشعب وتحميسه في الدفاع عن الوطن. ولما رأى احمد هذا مخائل الاستسلام بدأت تظهر على وجه القوم اتخذ موقف الاقدام على استمرار الحرب وكتب ينعى على القوم انقيادهم للاستكانة والخضوع فقال في مذكرة له: «واما انا فلم استحسن هذا الرأي ولم تسمح نفسي بقبوله فجمعت الصلحاء من المسلمين واخبرتهم بما اعده الله لعباده المسلمين من السعادة في الموت على الشهادة وما وعدهم به من الغنيمة والنصر وان بذلوا انفسهم في سبيل الله ونصر الدين. قال: فلما رأت النساء ذلك منهم القين بانفسهن امامنا ورمين باولادهن تحت اقدامنا وصحن قائلات لنا: نعم ذلك لكم ان كنتم غالبين وان غلبتم هجم الاعداء علينا وهتكت حرمتنا فاستعينوا بالله وسيروا، ولكن ذبحكم لنا قبل سيركم اصون لعرضنا»[2] وكأن نساء الجزائر في موقفهن هذا يعدن لنا عهد جزائر القصر الزياني ايام الحصار المريني لتلمسان[3]

واخيرا اثر الداي العمل بمقتضى قواعد الصلح والسلم فارسل من طرفه مندوبه (سيدى مصطفى قادري خوجة ليفاوض القائد الفرنسي الاعلى (دوبورمون) في شان الهدنة؛ ويذكر ان مجلس الداي اناط مفاوضة قائد الحملة

---

(1) تاريخ ابن ابي الضياف ج 3ص 167ط تونس 1963م.

(2) احمد الجزائري: كيف دخل الفرنسيون الجزائر ص 32ط بيروت 1962م.

(3) راجع تاريخ الجزائر العام للمؤلف ج 2 ص 143 ط بيروت 1965م.

الفرنسية دوبورمون في شان المثير باربعة اشخاص وهم المكتبجي وحسـ
حمدان خوجة، واحمد بوضربة، وقنصل الانكليز البريطاني، وكان الحسن و
يجيدان التحدث باللغة الفرنسية كما جاء في المرآة... وكان القنصل الانك
هو الذي تكفل بحمل وثيقة الاستسلام الى قائد الحملة الفرنسية الجـ
دوبورمون، غير ان هذا ابى ان يرضى من الداي بسوى الاستسلام المط
وذلك ما يجعلنا نعتقد جازمين بان هؤلاء الغزاة الفرنسيون لم يكونوا في غـ
هذه خاضعين لما تخضع له الدول عامة في تسيير حروبها مع الخصماء فتـ
مشاكلها بحلول سلمية مهما وجدت الى ذلك من سبيل قال الجزائري: «وبيـ
مهتم في تسكين غضبهن وازالة روعهن - يعنى النساء الجزائريات - اذ ـ
الي رسول من طرف الباشا فلما تمثلت بين يديه قال لي: اعلم يا ولدي اني شـ
عصا ولي امري وخالفت امره فانه لم يامرني بفعل ما قد فعلته ولهذا قد انهز
وبين يدي اعدائي وقعت. وهكذا يجازى الله كل من عصى مولاه واطاع ـ
نفسه والشيطان.

«فرجعت الى من كنت جمعتهم وقلت لهم: حيث ان هذا القتال على
رضا خليفة الله وان الدين ينهانا عن مخالفته فالاولى ان نكف عن القتـ
فاجابوا باعلى صوت: لقد حل بنا القضاء وضاق بنا الفضاء فاننا ما خرجنا
وطننا وتركنا اهلنا الا محبة في ديننا ورغبة في اطاعة مولانا فصرنا في ـ
الموضع نقاسي الم الحرمان والبعد عن الاهل والاوطان اذ كنا ممن شق الـ
ولامر مولاه وسيده قد عصى.

قال «وهموا بقتل حسين باشا ولكن كان ذلك لا يفيد شيئا فان مد
الجزائر قد رميت بسهام الخراب والتدمير نسال الله تعالى ان يحفظ كل بلدة
بلاد المسلمين من مثل هذا الامر الخطير»[1]

وكانت الحكومة الفرنسية في هجومها هذا ترمي الى هدف غير شريف: فـ
كانت تهدف الى سلب الشعب حريته بالاستيلاء على بلاده غصبا واستعمار
استعمارا سياسيا وصليبيا ايضا.

---

(1) احمد الجزائري: كيف دخل الفرنسيون الجزائر ص 32 - 33 ط بيروت 1962م.

الى هذه المقاصد كلها مجموعة كان مجيء الحملة الفرنسية الى هذه البلاد، ودليلنا على ذلك تاريخ الاستعمار الفرنسي نفسه وسير براجه وتخطيطاته منذ وطئت اقدامه تراب الجزائر الى ان تحطم تحت ضربات الشعب الجزائري في ثورته العارمة المظفرة (1374 - 1382 هـ/1954 - 1962م).

وكان فيما اشترطه «دوبورمون» على مندوب الداي ومفوضه السياسي ان يكون الاستسلام المطلق اولا ويتبعه تسليم العاصمة حتى لا يكون للحكومة الجزائرية اي سلطة على حصونها وقلاعها مثل قلعة باب عزون وباب الواد بحيث يكون التصرف فيها جميعا بيد جيش الحملة قبل فتح الحديث عن المدنة، قالوا ولما اخذ الترجمان «براسيو ويتس» Braciovitz - وهو ترجمان قديم من تراجمة نابليون في مصر - يتلو ترجمة طلب الاستسلام الذي املاه قائد الحملة الفرنسية غلى الدم في عروق الضباط والجنود التركي فثاروا وتعالت صيحات الغضب والاستنكار ولمعت السيوف في الايدي، فمات الترجمان من الخوف وكادت الحرب تستأنف [1] ولكن الداي ابى ان تراق الدماء هدرا من غير استعداد للقتال، فاستسلم للاقدار، وعند الساعة الثانية بعد الزوال من يوم 14 المحرم1246 هـ/5 جويلية 1830م وقعت العاصمة فيما كان ينتظرها من المآل الرهيب المحتوم، فاحتل العدو منها المراكز الرئيسية ثم انطلق يتتبع البلاد... وهنا ملاحظة يجب أن نبديها وتساؤلات اخرى جديرة بايرادها وطرحها امام القارىء ليمعن النظر فيها.

اولا لماذا لم نر الداي يستعد لهذا الغزو الذي طالما هدده به الاجانب قبل اليوم ولا سيما وقد وافته مصلحة الاستعلامات او الاعلام والاخبار بشتى الاخبار حول هذا الغزو؟... اهو ناشىء عن عدم المبالات بالقوات الاجنبية المعادية؟... ام كان ذلك عن عدم اكتراث بالخصم واحتقاره؟ ام كان لا يتوقع من فرنسا مثل هذه الغزاة؟.... او كان ذلك اغترارا منه، بوعد القنصل البريطاني «سانت جوهن» Saint john من حماية دولته ودفاعها عنه؟... ثم انه كذلك لماذا نرى الداي اغفل فيما يخص جيش الحامية النظامي جانب الاهالي واقتصر في اتخاذ الجند من طائفة الانكشارية المتمردة والتي هي في الحقيقة

---

(1) الجزائر العربية للدكتور احسان حقي ص 66ط بيروت 1961م.

امرها اجنبية عن البلاد؟... اذلك لقصور لمسه في الاهالي ام هناك شيء اخر؟... كما اننا لا نستطيع ان نكتم الاخطاء الكثيرة التي ارتكبها الداي اثناء هذه الحرب التي وقع فيها واهمها هو عدم منازلة الفرنسيين عند النزول الى البر اذ بقي الجند قابعا في الحصون الدفاعية التي تحمي مدينة الجزائر اعتقادا من الداي بانها ثكنات لا تقهر، وان جندها لا يغلب، وكذلك ابقاؤه لمعظم المتطوعين من القبائل بعيدا عن المدينة توفيرا للنفقات ومنها تعيين صهره ابراهيم آغا رئيسا للقوات التي نيط بها ملاقاة الفرنسيين وهو غير كفء [1] ام هناك غدر وخيانة وقعا من ذوي القربى؟... لا ادري والله!...[2]

---

(1) راجع المغرب العربي ص 101

(2) روى لنا صاحب كتاب الفتوحات الاسلامية (ج 2 ص196-197 ط مصر 1323هـ) نبأ عن السلطان محمود الثاني على أنه هو الذي سلط الفرنسيين على داي الجزائر لتأديبه، وذلك أنه لما أحدثت الدولة العثمانية تغييراً في نظام الجيش سنة 1241هـ وبعثت بتعاليمها الجديدة حول هذا الشأن إلى الآفاق امتنع حاكم الجزائر من الامتثال لأوامر الباب العالي، وقد يكون هذا الخبر صحيحاً إذا قارناه بما حدثنا به الحاج أحمد الشريف الزهار في مذكراته عما كان يحمله السلطان في صدره من الحقد الدفين على الداي حينما انهزمت الدولة العثمانية أمام جيوش الروسيا عند هجومها على تركيا واستيلائها على المدينتين وارنة وأدرنة وغيرهما من بلاد الترك سنة 1244هـ/1828م والتزم السلطان بدفع تعويضات خسائر الحرب لروسيا كي تعيد له جميع البلاد التي استولت عليها من أرضها حسب ما جاء في البند 8 و9 من معاهدة أدرنة المؤرخة في 15 ربيع الأول 1245هـ/14 سبتمبر 1829م) محمد فريد بك/تاريخ الدولة العلية العثمانية ص225 ط القاهرة 1896م. وبعث السلطان مبعوثه قبجي باشا إلى الولاة ليمدوه بالمال، فامتنع داي الجزائر من مساعدته وقال لمبعوث السلطان حين حضر بين يديه: ادفعوا أنتم لموسكو ما وجب عليكم، أما ما وجب علينا فابعثوه لكي نعطيه من أفواه المدافع. وحين بلغه مكتوب السلطان بتغيير نظام الجيش رفضه وأظهر العصيان؛ قال الزهار: فلما رجع القبجي باشي وأخبر السلطان الأعظم بذلك اشتد غضبه على الباشا.

وهناك أمر آخر ظهر في هذا العام كان سبباً في المعاداة أيضاً، وهو أنه لما قدم الأميرال الفرنسي دولابرتو نيير إلى الجزائر في طلب الصلح تشدد معه الداي وحدث بينهما خلاف وسوء تفاهم حول شروط عقد الصلح بينهما فرفع الأميرال وصحبه القضية هذه إلى السلطان فأجابهم السلطان بقوله: «هؤلاء الناس طغاة فاذهبوا إليهم واحملوا جميع من بها من الأتراك واتتوني بهم وخذوا مصاريفكم من خزينتهم، واتتوني بشيء منها، واتركوا بها نصيباً لمصروف البلد، واجعلوا عليها من يقوم بأمرها من أهلها».

موقف الدولة العثمانية ازاء سقوط الجزائر؟

نحن على علم يقيني بما اصيبت به دولة آل عثمان من الانحلال والضعف يومئذ بسبب ما اصطدمت به آنذاك من خروب محمد علي باشا وانقطاعها لمقاومة حركته بالشام والأناضول، مع فقدها للجيش الكفء المدرب وتخلفه عن السباق في الميدان التكنولوجي الحربي مع خلو الميدان من فرقة الانكشايرية العنيدة منذ سنة 1244 هـ/1828م بالاضافة الى اندحار الاسطول العثماني وتدمير مراكبه وتلاشي قواته البحرية في معركة نافارين (1243هـ/1827م). مع توالي الهزائم عليها في حروبها ضد النمسا وانشغالها برد العدوان عن بلادها وما لحقها كذلك من الاضطهاد في حروبها مع روسيا ومبالغة هذه الدولة باستمرار في تدبير الدسائس والمكائد وترصدها ضد الاتراك، ثم اتحاد دول اوروبا وحكوماتها يومئذ ضد دولة الخلافة الاسلامية، ويضاف الى ذلك بعد الشقة وطول المسافة ما بين بلاد الجزائر ومربض الاسطول العثماني باستانبول... كل ذلك نعلمه وهذا وحده يكفي لأن يكون عذرا لتركيا في وقوفها عند الامر المقضي... بل

ويستمر الزهار في حديثه عن حوادث احتلال الجزائر وسقوطها بيد الفرنسيين فيذكر لنا بعض الملابسات التي لابست حوادث الاحتلال فيقص علينا قصة قائد دار السلطان (قزلار آغاسي) باستانبول وقعت له في تلك الأيام قال عندما شاهد هذا القائد السلطان محمود يعطف على أولاده وبنيه فيقبلهم ويظهر لهم من الحنان الأبوي واللطف والإشفاق عليهم قال له يوماً: « هذا ولدك أخذك الحنان عليه، فكيف لا يأخذك الحنان على أمة سيدنا محمد ﷺ، وفيهم صبيان وكهول وعلماء وأشراف وصالحون وشيوخ وأيتام وأرامل، وقد أذنت للفرنسيين بأخذهم ولم تشفق عن هؤلاء المسلمين لأجل رجل عصاك، فلو بعثت إليه أحد خدامك يأتيك به وتنتقم منه وإن منعوه عنك تسلط عليهم من ينتقم منهم، فبهت السلطان لهذا القول » (مذكرات الزهار ص165-167-169 ؛ ط الجزائر 1974م).

وكما تشهد لنا بذلك مراسلة أهل تلمسان لسلطان المغرب المولى عبد الرحمن بن هشام (فاتح ربيع الأول 1246هـ/1830م) ومما جاء فيها قولهم عن الداي حسين: « ويدل على تغلبه واستقلاله عدم وقوفه عند أمر العثماني وأمثاله، بل لا يكترث به أصلاً ولا يتبع له قولاً ولا فعلاً، كيف وقد أمره أن يعقد مع النصارى صلحاً، فلم يقبل له قولاً ولا نصحاً، وطلب منه بعض الأموال ليستعين بها على ما حل به من النصارى من الأهوال فامتنع غاية الامتناع ولم يمكنه من شيء منها فضلاً عن الباع...(الاستقصا: ج 9 ص 28 ط الدار البيضاء 1956م).

ونستطيع ان نلتمس لها عذرا آخر ايضا فنقول ربما ان حكومة الاستانة كانت تنتظر وقوع تصالح واتفاق بين الداي وفرنسا كما كان يحدث بينهما من قبل من خلاف ثم تفاهم وتراجع، بدليل اننا نراها سعت بذلك يوم ان كلفت خليل افندي بالوفود على داي الجزائر للقيام بالعمل على حسن التفاهم بين باشا الجزائر وحكومة فرنسا، وفعلا قد حل خليل بالجزائر في اواخر شهر نوفمبر 1829م ولكنه اخفق في مهمته. وكذلك حينما قررت حكومة استنبول تعيين موظف سام ليتصل بالداي لحل مشكل النزاع القائم بين الداي والدولة الفرنسية، وبالفعل تعين طاهر باشا[1] بهذه المهمة وجاء معه بتعليمات تحمل إمضاء السلطان نفسه وهي تتلخص فيما يلي:

1) عندما يصل الباشا الى المياه الاقليمية الجزائرية يحاول التباحث مع قائد الحصار الفرنسي لتسوية الخلاف.

2) فان رفض القائد فعليه ان يطلب من الحكومة الفرنسية تعيين موظف له صلاحية التباحث مع طاهر باشا ويدخل مدينة الجزائر.

3) يبين طاهر باشا للعلماء والاعيان الاوجق بالجزائر الاخطار التي ستنتج عن الحرب بين الوالي وفرنسا كما يذكر بأن السلطان طلب حل النزاع.

4) اذا كان الجزائريون يرون بان اقتراحات فرنسا شديدة فان على طاهر باشا ان يتباحث مع الموظف الذي سترسله الحكومة الفرنسية لهذا الشأن.

5) فاذا لم يتوصل الطرفان الى التفاهم فان علي طاهر باشا ان يخبر الباب العالي عن الوضعية بتوجيه رسالة الى السلطان، ولكن عليه قبل كل شيء ان يعمل ما بوسعه للنجاح في مهمته (راجع السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، تعريب عبد الجليل التميمي ص 49 - 56 ط تونس 1970م).

---

(1) هو بحار جزائري الاصل كان يلقب بابي تشنج وهو اسم منطقة في الاناضول عمل قائدا في معركة نافارين وشارك في الحروب الروسية 1828 - 1829م ثم وزيراً للبحرية 1832 - 1836م ثم عين واليا على طرابلس الغرب وبقي في هذا المنصب حتى أوائل سنة 1837م، وفي 1841م عين من جديد وزيراً للبحرية حيث بقي بهذا المنصب سنتين وتوفي سنة1847م.

ولكن فرنسا عملت جهدها في خلق العوائق والموانع وبث الاشواك والعراقيل في طريق طاهر باشا فمنعته من دخول الجزائر وابقته في مدينة طولون حتى لا يقع اي اتصال بينه وبين الداي كما اصطنعت العراقيل ايضا في عودته الى استنبول بحيث انه لم يتصل بالسلطان الا بعد فوات الاوان.

كما اننا نعلم بالاضافة الى ما تقدم - ما اعترى العالم الاسلامي يومئذ - وفي مقدمته الامبراطورية العثمانية - من الانحطاط السياسي والتقهقر الاجتماعي والتخلف التقني والصناعي واختلال شؤون الادارة والارتداء برداء الخمول، والتزمت في شتى الميادين... في حين استيقظ فيه اهل اوروبا واخذ رجالها ونساؤها في الزحف سريعا نحو التقدم والرقي ماديا وأدبيا... الى غير ذلك من الموانع والعوائق التي احاطت يومئذ بالدولة التركية نعم... اي والله... كل ذلك هو واقع حقا لا محالة، رغم هذا كله فاننا نرى تركيا بذلت غاية جهدها ومنتهى وسعها بطرق ديبلوماسية ووسائل مختلفة محاولة بذلك منع فرنسا من بسط يدها على الجزائر.

فمن ذلك انها حاولت تأكيد حقها الشرعي في الجزائر لدى الدولتين الانكليزية والفرنسية وعملت بكل وسعها في كسب مساندة دولة بريطانيا بشأن القضية الجزائرية وانعقدت لذلك تلك المقابلة السرية التي وقعت بين وزير الخارجية التركي حميد باي وسفير بريطانيا باستنبول (السر غوردون يوم السبت 29 جانفي 1831 وفي ذلك المجلس عرض الوزير التركي على السفير رغبة دولته في صداقة الانكليز ومساندتهم للعمل على صيانة حقوق الدولة العثمانية في الجزائر، ولقد اظهر السفير رضاه على ذلك ولكنه لم يخف مقاصد دولته وانها لا ترغب في دخولها في حرب مع فرنسا لأجل تحرير الجزائر.

كما ان هذا الوزير التركي نفسه كلف من طرف الباب العالي بمباحثة السفير الفرنسي ايضا الموجود في استانبول وهو الكونت (فييومينو) في هذا الشأن فلم يعترف له هذا بحق تركيا في الجزائر ثم اعطيت للوزير التركي تعاليم واوامر صارمة بتاريخ ذي الحجة 1246هـ/13/ ماي 1831م وفيها اصرارا للدولة العثمانية على المطالبة بحقها المشروع في الجزائر وكتبت ذلك في دفتر توجيهات الوظائف العالية والتوليات ونشرته في جريدة تقويم وقائع الرسمية بتاريخ 4

شوال 1247هـ/7 مارس 1832م ولم تكن هناك اي نتيجة.

وكذلك وقعت محاولة أخرى في سنة 1834م وكان سببها هو ما كتب به حمدان بن عثمان خوجة باسم الجزائريين الى السلطان العثماني بتاريخ 29 ربيع الأول 1249هـ/16 أوت 1833م وفيه يشرح الجزائريون ما يلقونه من ظلم الفرنسيين ويسترحمون السلطان لتقديم المساعدة، فكان لهذا المكتوب اثر في ايفاد مصطفى رشدي باي الى باريس كسفير فوق العادة مكلف بمباحثة ذوي النفوذ والسلطان من رجال فرنسا لاسترداد الجزائر، وفي أواخر سنة 1834م غادر رشدي باي استنبول محملا برسالة من السلطان العثماني الى ملك فرنسا ،ومعه رخصة له سرية تتعلق بخصوص مهمته لقضية الجزائر، وعندما اتصل رشدي برجال الحكم الفرنسي بباريس وكان منهم وزير الخارجية الاميرال دوريني De Regny وبعد تكرار الاجتماعات وتعدد الاجتماعات وتعدد الجلسات والمقابلات ولا سيما ذلك الاتصال الذي وقع بينهم بتاريخ 18 ديسمبر 1834 م فانه تحقق في ذلك اليوم بان فرنسا لا تنوي التخلي عن الجزائر مهما كلفها الامر، وأما ما كان من دولة الانكليز فانها كعادتها في مواقفها السياسية من شدة التحفظ والتلاعب أو سمه - إن شئت - دهاء وديبوماسية فانه لما تقابل السفير التركي نامق باشا الموجود يومئذ بلندن مع وزير الخارجية البريطاني اللورد (بلمرستون Palmerston بتاريخ اواسط شهر نوفمبر 1834م وتحادث معه بشأن تخليص الجزائر من الاحتلال الفرنسي، افصح الوزير بأنه لن يستطيع ان يقول شيئا لفرنسا بشأن هذه القضية.

وكذلك حاول السفير التركي محمد نوري افندي الذي خلف نامق باشا بلندن تحقيق امل دولته مع دولة الانكليز بطريق ودادية فاجتمع بالوزير البريطاني (بلمرستون) فما كان من هذا الا ان اوصاه بالتريث والاعتدال، ثم قام محمد نوري بتقديم مذكرة بعثها بواسطة القائم باعمال السفارة التركية بباريس الى وزير الخارجية الفرنسي بتاريخ 19 جوان 1835م بشأن نفس الموضوع فرفضها الوزير ثم اعاد نوري مقابلة وزير خارجية بريطانيا في 14 جويلية 1835م وشرح له موقف الوزير الفرنسي تجاه الموضوع فما كان جوابه الا ان نصحه بان الافضل ان لا يبحث مطلقا في الوقت الحاضر شيئا بهذا الشأن.

وهنا غيرت تركيا سلوكها في تحقيق قضيتها لتخليص الجزائر من الاحتلال الفرنسي فانزلت قواتها البحرية بطرابلس الغرب لتكون قريبة من تونس والجزائر وكان ذلك يوم 26 ماي 1835م ويومئذ انتهى حكم اسرة القرمانلي بليبيا، وفي اثناء ذلك اتصل السلطان محمود برسالة او قل هي عريضة بعث بها اهالي قسنطينة في 21 ربيع الاول 1251 هـ تتضمن اخبار الباب العالي بانهم في حالة حرب ضروس مع الدولة الفرنسية ويسترحمون السلطان في تولية احمد باي حاكما اعلى برتبة باشا على ولاية قسنطينة وبعد اطلاع السلطان على العريضة عقد مجلس الشورى للنظر في القضية وبعد التداول في الرأي قرر المجلس ارسال محمد كامل باي باشا متجولا بالمغرب الاسلامي ليتصل بكل من احمد باي ووالي تونس وفي مطلع شهر افريل 1836م توجه كامل باي الى مهمته ثم بعد شهر ابحر وزير البحرية العثماني طاهر باشا من استنبول على رأس قسم من الاسطول التركي متوجها الى طرابلس الغرب ليستكمل انقاذ ولاية طرابلس باكملها من تسلط الاجنبي عليها، ولم تتأخر يومئذ الدولة الفرنسية من اخذ التدابير اللازمة لصد الاسطول التركي ورده عن غايته المنشودة فأخذت في بذر الاشواك في طريقه بشتى الاساليب وكتب السفير الفرنسي الاميرال (دوسين) الموجود باستانبول مذكرة بتاريخ 7 جوان 1835م بعث بها الى الباب العالي يخبره فيها بان الاسطول الفرنسي اقلع لحماية المصالح التجارية والسياسية الفرنسية في حوض البحر الابيض المتوسط وشواطىء اسبانيا.

وبعد ان اتصل مبعوث السلطان بأرض الجزائر وقام بمهمته نحو باي قسنطينة عاد الى استنبول فاخبر السلطان بما اتفق عليه اهالي قسنطينة من منح لقب باشا لاحمد باي وما قام به الباي من سك النقود وضربها باسم السلطان العثماني واحضر المبعوث رسالة من الباي يستنهض فيها همة السلطان لانقاذ مدينة بونة (عنابة) من الاحتلال الفرنسي.

وبعد يومين من وصول كامل باي الى استنبول ارسل السفير الفرنسي ترجمانه الاميرال (روسين) الى وزير الخارجية التركي خلوصي باشا يخبره بان منح لقب باشا الى باي قسنطينة يؤدي الى عواقب وخيمة؛ وبالاثر قرر الصدر الاعظم باستنبول ارسال تعليمات الى السفير التركي بلندن رشيد باي للتضييق

على الحكومة الفرنسية لاعادة الجزائر، وكان لحمدان بن عثمان خوجة الجزائري الذي كان قد عاد الى استنبول في تلك الآونة الاثر الاكبر في اتخاذ هذا القرار.

وكان لشدة تخوف فرنسا من وجود الاسطول العثماني بالقرب من المياه الاقليمية لتونس فانها بعد اسبوع واحد فقط منذ صدور القرار التركي اوعزت الى سفيرها في استنبول الاميرال روسين ليخبر الباب العالي بأن الاسطول الفرنسي الذي هو الآن يتجول في البحر الابيض المتوسط سيحل بالمياه الاقليمية التونسية، فبعث بترجمانه الى الحكومة التركية ومعه المكتوب وفيه يتساءل عما اذا كان قائد البحرية التركي سيذهب الى تونس؟... فكان جواب الصدر الاعظم خلوصي باشا بأن مهمة قائد البحرية انما هي مقصورة على الذهاب الى طرابلس الغرب فقط، ثم انه لا يستطيع التنبأ بما قد يجول في نفس القائد او بما تطمح اليه نفسه من الذهاب الى مكان آخر، ولم يكن هذا الجواب ليقنع السفير الفرنسي او يكتفي به فإنه عمل على الاتصال المباشر بالوزير التركي وزاره في منزله يوم 24 جويلية 1836م مقدما تهنئته لخلوصي باشا بتوليه رئاسة الوزارة والصدارة العظمى ثم في اثناء حديثه معه تطرف الى ذكر شؤون المغرب الاسلامي وسأل الوزير عما اذا كان من مهمة القائد البحري الاتصال بتونس ام لا؟... وسأله كذلك عن امر منح باي قسنطينة لقب الباشا أي هل يقوم بتبليغه ذلك كامل باي الذي كان ان أرسله السلطان الى والي قسنطينة ووالي تونس؟... فأجاب الوزير عن السؤال الاول بما كان قداجاب ترجمان السفارة الفرنسية من قبل، وعن السؤال الثاني: فإن طاهر - الموفود من قبل الباب العالي هو قائم بمهمته في طرابلس ولمتابعة اعماله بها... وفي اثناء الحديث صرح الاميرال للوزير بأن فرنسا لن تستطيع اعادة الجزائر، فأجابه الوزير على الفور بقوله: وتركيا هي أيضا لا يمكن أن تتخلى عن حقوقها في الجزائر... وانتهى المجلس على ذلك.

وفي 8 أوت 1836م أرسل السفير الفرنسي ترجمانه الى الباب العالي برسالة يوضح له فيها أن فرنسا لن تغض الطرف أبدا عن وجود وال معاد لها في تونس، كما ان المترجم هذا جاء مأموراً بتذكير وزارة الخارجية العثمانية بوجوب عدم التدخل في قسنطينة.

وفي أوائل شهر جويلية 1836م عاد كامل باي الى استانبول، ويومئذ

ارسلت وزارة الخارجية التركية بتعاليم الى سفيرها المفوض الموجود بباريس تأمره فيها بالعمل والسعي هناك لاسترجاع القطر الجزائري الى تركيا، ويومئذ انفتح باب المكاتبة والمراسلة بين سفيري تركيا بباريس ولندن في شأن خدمة القضية الجزائرية، ثم كانت بينهما اتصالات مباشرة بباريس قياما بما اوجبته عليهما حكومتهما من خدمة القضية مع ترقب الفرص لها وفي كل مناسبة... وفعلا قام كل من رشدي باي بلندن ونوري افندي بباريس بما عهد اليهما وما يقتضيه الواجب عليهما من السعي الحثيث لدى المراجع العليا في كل من دوائر الحكم في فرنسا وبريطانيا والنمسا، ولا سيما عندما ذاعت خيبة فرنسا على ابواب قسنطينة واندحار جيوشها هناك (30 نوفمبر 1836م) ومع ذلك لم تأت اعمالها بنتيجة.

وتقابل السفير التركي بلندن رشيد باي مع وزير خارجية بريطانيا اللورد بلمرستون يوم 26 جانفي 1837م واخبره عن صاحبه السفير التركي بباريس وانه ساع بتكليف من طرف دولته لمطالبة فرنسا باسترجاع الجزائر، كما أبان عن تعليق تركيا كل آمالها على بريطانيا لنصرتها في موقفها هذا، ولكن اللورد بدوره اظهر له بأنه لن يستطيع الافصاح عن وجهة نظره بخصوص قضية الجزائر.

وفي أواسط شهر فيفري 1837م اجتمع نوري افندي بالاميرال الفرنسي (روسين) واظهر له اسفه الشديد لما تقوم به فرنسا من تدخلها في شؤون الجزائر الداخلية وهو يعني حربها الضروس التي شنتها على ولاية قسنطينة وهو الى ذلك يقترح على الاميرال مساعدته للعمل معه في حقل استرجاع الجزائر واعادتها للدولة العثمانية - وهذه بساطة او نهاية في الغفلة والبساطة ظهرت على السفير نوري -، وكان رد الاميرال على ذلك هو قوله: ان الحكومة الفرنسية تعتبر الاستيلاء على قسنطينة دين شرف عليها، ونصح السفير التركي بعدم البحث في أيّ شيء ما عن الجزائر لدى رجال السلطة الفرنسية. كما أنه اتضح للعيان من مكاتبة رئيس الوزراء النمساوي (مترنيخ) للدولة العثمانية في هذا الموضوع من أن دولته كانت تعمل بميوعة وبرودة ازاء القضية الجزائرية.

وحرص نوري افندي للحصول على موعد مع وزير خارجية فرنسا الكونت

(مولى Molé) الى ان تمكن من الاتصال به في اوائل جوان 1837م وخاض م
في الموضوع... وأخيرا كانت النتيجة هي ما صرح به الوزير بلهجة شديد
قائلا: ان فرنسا اخذت الجزائر دافعة الثمن دما فرنسيا...

ثم بعد أن علم السفير التركي نوري افندي وان فرنسا عقدت مع الامير عب
القادر معاهدة صلح «التافنا» (6 ربيع الاول 1253هـ/30 ماي 1837م) كتب
الى وزير الخارجية الفرنسي رسالة مؤرخة بيوم 11 جوان 1837م ينكر علي
فيها صنيع دولته مع رجل (عادي) - يعني به الامير - فهو تابع لسلطة الدول
العلية، ويقول ان ذلك عمل مناف لاصول روابط الاخلاص والصفاء القائم
بين الدولتين العثمانية والفرنسية، فأجابه الوزير الفرنسي برسالة مؤرخة بيو
18م اوضح له فيها بصراحة وان فرنسا لا تعترف مطلقا بحق اية دولة اجنبي
في التدخل في شؤون اوجاق الجزائر القديم

ثم تعددت الاتصالات والمقابلات بين كل من سفراء تركيا بلندن وباريس
ورؤساء وزراء الدولتين فرنسا وبريطانيا كما تقابل بعض وزراء الاتراك
بالمعنيين بالقضية الجزائرية من رجال السلك الديبلوماسي البريطاني وتوالت
المكاتبات والمراسلات بين هؤلاء وبين الباب العالي وعملت تركيا على اعاقة
المعاهدة بين فرنسا والامير عبد القادر وساعدت احمد باي قسنطينة على
مواصلة الحرب مع فرنسا وهو ما جعلها تتخذ الحذر منه فاقتفت اثره تتبعه في
تحركاته حتى رأته عاد الى استانبول، واستمر الفرنسيون في حملتهم على
قسطينة حتى وقعت بأيديهم في 13 اكتوبر-1837م، وانسحب منها احمد باي
الى جبال اوراس ومنها كتب الى الباب العالي برسالة مؤرخة في 15 رجب
1253هـ/16 اكتوبر 1837م يخبره فيها بسقوط المدينة طالبا منه النجدة وان
رأى ان ذلك متعذرا فليأذن له بالهجرة الى ديار المسلمين، ويومئذ قرر مجلس
الشورى التركي ارسال اوامره، الى باي تونس احمد باشا على ان يساعد والي
قسطينة في موقفه الحربي، ولكن لم يقع، وحينئذ تم لفرنسا ماارادته من اخضاع
الولاية القسنطينية، ثم تجردت بعدها للناحية الغربية ومقاومة الامير عبد
القادر، وارادت الدولة العثمانية استطلاع رأي الدولة البريطانية في ذلك
فاستشارت السفير البريطاني اللورد بنسي الموجود حالا باستنبول فكتب لها

بتعليمات مؤرخة في 3 ديسمبر 1837 م وفيها يرى انه من المناسب ان تؤخذ ضمانات بحقوق الباب العالي في اوائل فرصة تسنح بذلك مع تجنب التفوه بكلمات قد تغضب فرنسا. وقد لوحظ كذلك مثل هذه المعاملة وهذا التدبير عند روسيا ايضا حينما اتصل مترجم السفارة الروسية برجال دولة آل عثمان بعد ذلك[1] . ثم اسدل الستار على القضية في الخارج ورضي العثمانيون بالامر الواقع وبقي الامر موكولا الى اهل الوطن فحدثت فيه انتفاضات وتحركات هنا وهناك تطول وتقصر كما سنذكره في محله الى ان حان الاوان للقضاء النهائي على قوات المحتل الغاصب فتحررت البلاد بعد كفاح طويل مرير على يد ابناءئها البررة (1389 هـ/1962م) (وما حك لك مثل ظفرك، وما بكى لك مثل شفرك).

وأخيرا تم الاستيلاء الفرنسي على مدينة الجزائر وسلم الداي نفسه لقوات جيش الاحتلال في 13 المحرم 1246 هـ/5 جويلية 1830م وبه تم عدد الدايات الذين تعاقبوا على حكم الجزائر منذ سنة 1082 هـ الى سنة 1246 هـ. 1672 - 1830م ثمانية وعشرين دايا قتل اربعة عشرة منهم غيلة. واظهر اليهود يومئذ شماتة كبرى بالمسلمين وهكذا سقطت العاصمة في مدة قصيرة لا تتجاوز الاربعين يوما رغم سوء القيادة الفرنسية وسخط الجند الفرنسي على قائدهم الاعلى دوبورمون اذ كانت عامتهم تحمله مسؤولية هزيمة واتيرلو الشهيرة (1230 هـ/1815م) وتتهمه بالخيانة لرئيسه نابليون ولجميع الجيش الفرنسي في تلك الوقعة، وكل هذا يدلنا على ما كانت عليه الحكومة الجزائرية من الضعف العام والتخلف عن موكب العصر للتقدم في اساليب الحرب والدفاع.

ولقد كان لشدة سرعة سقوط مدينة الجزائر ان اندهشت لها القيادة الفرنسية العليا بنفسها حتى اعتقد (دوبورمون) طمعا بأن بقية اقطار الجزائر ستستسلم سريعا تبعا للعاصمة ،وكتب في ذلك بنفسه الى الوزير (بولينياك) في يوم 15 المحرم7 جويلية خطابا يذكر له انه تكفيه خمسة عشر يوما فقط للانتهاء من اخضاع البلاد، ولكن فاته ان هناك بالقرب من المدينة وضواحيها فقط من اهل متيجة من يهاجمه ويحاربه - حرب الكمين - التي سيشتهر امرها في المقاومة الجزائرية، فتراجع حينئذ دوبورمون الى العاصمة في حالة ذعر شديد.

---

(1) السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ترجمة عبد الجليل التميمي ط تونس 1970م.

ولم يقف الشعب الجزائري بعد ذلك مكتوف الأيدي تجاه صنع العدو الغاصب بل استمر يكافح وينافح عن بلاده طوال قرن وثلث حتى ظفر بطرد عدوه واسترد سيادته (1383 هـ/1962 م).

واذا تأملنا وضعية تاريخ وجود الاتراك بالجزائر تجاه الخصماء وجدناها عبارة عن حركة دائبة وتفاعل مستمر ضد المزاحمين لهم من دول الغرب المعادية للاسلام والمسلمين اذ ليس هنالك ما يبرر وجودهم بهذه الاقطار طوال القرون الثلاثة التي امضوها بهذا الوطن الا ما كان لهم من صفة الاسلام وحمايته بهذه البلاد، والواقع انه لولاهم للحق الجزائر ما لحق الاندلس على يد الاسبان

نص وثيقة الاستسلام:

رغم ما ينص عليه دستور الجزائر ونظام حكومتها الديبلوماسي التركي من ان جميع المفاوضات او الاتفاقيات الدولية لا تعتبر نافذة المفعول ولا بناجزة ولا يقع البت فيها الا بعد مصادقة، مجلس الكراسي، واعضاء الديوان عليها اما وثيقة الإستسلام هذه فانها قد وقع الاتفاق عليها بطريقة استبدادية محضة فلقد حررت بين مجرد مفوض الداي وقائد الحملة الفرنسية بدون استشارة اعضاء الحكومة الجزائرية وقد كان ذلك حسبما يقال بقصر الرئيس حيدو الموجود الى الان بضاحية الجزائر ,,الابيار,, جنوب العاصمة والملاحظ ان هذه الوثيقة الخطيرة حررت بالعربية ولم تكتب لا بالبربرية ولا بالتركية مما يدل على ان اللغة العربية هي لغة البلاد الرسمية واليك نص المعاهدة:

1 - ان كافة القلاع المختصة بمدينة الجزائر وابواب المدينة تسلم للعساكر الفرنساوية في صباح اليوم السادس من شهر يوليو - جويلية - على الساعة العاشرة.

2 - يتعهد القائد العمومي الفرنساوي بتركه للباشا امواله المختصة به، (وعلى ان لن يؤذن للجنود الفرنسيين بدخول المساجد الجزائرية).

3 - ان يكون لحضرة الباشا الحرية بأن يتوجه مع عائلته وامواله الى المحل الذي يرغبه وفي مدة اقامته وبقائه في مدينة الجزائر يكون هو وعائلته تحت حماية القائد العمومي الفرنساوي وان الباشا وعائلته يكونون تحت حرس مخصوص.

4 – ان القائد العمومي يمنح هذه الحماية والامتيازات المعطاة لحضرة الباشا لكافة قواده العسكر الجزائرية من انكشارية وغيرهم.

5 – تعطى الحرية للديانة المحمدية وللمكاتب الاهلية ولديانتهم مع احترام تقاليدهم واملاكهم وتجارتهم وصنائعهم. وان لا يعارضوا في ذلك وان لنسائهم الاحترام التام ومزيد الاعتبار ويقسم الجنيرال على ذلك بشرفه.[1]

6 – ان مبادلة هذه المعاهدة تكون غدا على الساعة العاشرة صباحا وتدخل العساكر قلعة القصبة ويقيمون في قلاع المدينة والشطوط البحرية.

حرر بالمعسكر أمام مدينة الجزائر في 5 جويلية سنة ثلاثين وثمانمائة والف.
الامضاء كونت دوبورمون – الخاتم: حسين باشا داي الجزائر.

وكان قد نشر دوبورمون نفسه منشورا عاما وجهه الى الشعب الجزائري وفيه بيان وشرح طويل كتبه بلهجة عربية عامية مفهومة بين سائر الاوساط الجزائرية وبخط مغربي واضح في ورق طوله مترا واحدا وستين سانتيمترا وعرضه تسعون سانتي وهو يتضمن تأكيد تعهداته وتحقيق ما عاهد عليه الشعب الجزائري من ذمة وحرمة ويطمئنه باسم ملكه شارل العاشر على تحقيق كل ما جاء في صك المعاهدة من المحافظة التامة على جميع مقوماته الحيوية وما يتصل بها من تقاليد وعوائد شعبية وشعائر دينية الى غير ذلك مما لم تف به السلطة الفرنسية من عهودها فيما بعد!... واليك اهم ما جاء في هذا المنشور حرفيا:

« هذه مناداة من سار عسكر امير الجيوش الفرنساوية الى سكان الجزائر واهالي القبائل:

« باسم الله المبدي المعيد وبه نستعين، يا ايها ساداتي القضاة والاشراف والعلماء واكابر المشايخ والاختيارية اقبلوا مني اكمل السلام واشمل اشواق

(1) ولقد اكد هذه المادة من هذه الوثيقة بالخصوص ملك فرنسا حينما حضر لديه نخبة من أهل الجزائر للتفسح بأرض فرنسا، فقال لهم: « وأنا ابذل جهدي في حفظ دينكم وشريعتكم وبقاء مساجدكم وتعميرها واحياء مدارسكم وعلومها.. » وكان من بين من حضر هذه المقابلة وسمع من الملك ما تقدم: الشيخ محمد الشاذلي قاضي قسنطينة، والشيخ الحاج محمد بن الخروبي، وسي احمد ولد احمد بن محمد خليفة مجانة، وسي بو الاخراص ولد أخ شيخ العرب، وسي علي بن با احمد.. فأين ذلك بعد ذلك؟.. (انظر تاريخ قسنطينة لابن العنتري ص 172 – 173 ط قسنطينة 1262هـ)

قلبي بمزيد العز والاكرام اما بعد ، اعلموا هداكم الله الى الرشد والصواب ان سعادة سلطان فرنسا مخدومي وعزة جنابه الاعلى عز نصره قد انعم علي بتوليته اياي منصب سار عسكر ويا اعز اصدقائنا ومحبينا سكان الجزائر ومن ينتمي اليكم من شعب المغاربة ان الباشا حاكمكم من حيث انه تجرأ على بهدلة بيرق فرنسا المستحق كل اعتبار واقدم على اهانته فقد سبب بجهله هذا كل هو عتيد ان يحل بكم من الكوارث والمضرات لكونه دعى عليكم الحرب من قبلنا فان عزة اقتدار سلطان فرنسا دام ملكه نزع الله من قلبه مرحمته المعهودة ورافته المعروفة المشهورة فلا بد ان هذا الباشا حاكمكم من قلة بَصيرته وعماوة قلبه قد جذب على نفسه الانتقام المهول وقد دنا منه القدر المقدر عليه ، وعن قريب يحل به ما استحقه من العذاب المهين.

« اما انتم يا شعب المغاربة اعلموا وتأكدوا يقينا انني لست آتيا لمحاربتكم فعليكم ان لا تزالوا آمنين ومطمئنين في اماكنكم وتعملوا اشغالكم وكل ما لكم من الصنائع والحرف براحة ثم اني احقق لكم انه ليس فينا من يريد يضركم لا في مالكم ولا في عيالكم. ومما اضمن لكم ان بلادكم واراضيكم وبساتينكم وحوانيتكم وكل ما هو لكم صغيرا كان او كبيرا يبقى على ما هو عليه ولا يتعرض لشيء من ذلك جميعه احد من قومنا بل يكون في ايديكم دائما فأمنوا بصدق كلامي ثم اننا نضمن لكم ايضا ونعدكم وعدا حقيقيا مؤكدا غير متغير ولا متأول ان جوامعكم ومساجدكم لا تزال معهودة معمورة على ما هي الان عليه واكثر وانه لا يتعرض لكم احد في امور دينكم وعبادتكم فان حضورنا عندكم ليس هو لاجل محاربتكم وانما قصدنا محاربة باشتكم الخ.. الخ.. » راجع النص الكامل ان شئت في المجلة الافريقية Revue Africaine (مجلد 6 ص 153 ط الجزائر 1862م) وهو بنفس العدد من المجلة مترجما الى اللغة الفرنسية بقلم المستشرق الفرنسي بريسني Bresnier.

ولقد نشرت هذه الوثيقة بنفسها مصورة في عدة مراجع فرنسية وعربية فإليكها مصورة كما هي عليه حسب الأصل : ←

وجاء في بيان له آخر وزعه على الشعب الجزائري هذا نصه:
« نحن الفرنسيون اصدقاءكم نتوجه الى الجزائر لنطرد الاتراك منها... اننا


هذه مناداة من سار عسكر امير الجيوش الفرنساوية

الى سكان الجزائر واهالى القبائل

بسم الله المبدئ المعيد وبه نستعين

Proclamation du général de Bourmont aux Arabes

Pièce originale : 1m60 × 0m90 — Archives du Ministère des Affaires étrangères.

Les premiers termes de cet écrit sont les suivants :

Ceci est une proclamation du Général commandant les Légions françaises aux habitants de la ville d'Alger et à ceux de l'extérieur. Au nom de Dieu qui crée et fait retourner à la vie. C'est de lui que nous implorons le secours. Messeigneurs les Cadis, les Chérifs, Eulemas, etc., agréez de ma part le plus complet salut.

Il est donné, dans cette proclamation, avis aux Musulmans que M. de Bourmont ne fait la guerre qu'à leur Pacha, et que la France, toute bienveillante pour eux, les engage à accepter son autorité.

La fin est ainsi conçue : *Salut à celui qui entend et se soumet.*

لا نغزو المدينة لنصبح سادة عليها، واننا نقسم لكم على ذلك بدمائنا، فانضموا الينا وكونوا اهلا لحمايتنا، ستحكمون بلادكم كما كنتم في السابق سادة مستقلين في وطنكم... اننا نتعهد باحترام كنوزكم واملاككم وديانتكم المقدسة...؛ وكما جاء في منشور آخر باسم ملك فرنسا يقول فيه: «اني ملك فرنسا اضمن لكم بقاء بلدكم على ما هو عليه واعدكم وعدا صادقا بأن مساجدكم كبيرة كانت او صغيرة ستبقى معمورة» وأكد الملك ذلك في بيان ثان جاء فيه قوله: «اني ملك فرنسا اضمن لكم بشرفي اني سأنجز وعودي جميعها واتعهد امامكم وامام الملأ بأن مساجدكم وجوامعكم ستحترم، وان ديانتكم ستمارس بحرية كما كانت في السابق...» (هاربال ميشال قصة نكث العهد)[1]

وفي الغد من صباح اليوم السادس من يولية - جويلية - الثالث عشر من المحرم 1246هـ/1830م وفي نفس الوقت المعين المتفق عليه بين الفريقين احتلت الجنود الفرنسية العاصمة وكان دخولها اليها من (الباب الجديد) بأعلى المدينة وانزلت وقتئذ اعلام الدولة المنهزمة من القصبة وجميع القلاع والابراج وارتفعت عليها الرايات الفرنسية وانتشر معها الجيش المحتل في كامل انحاء العاصمة وتم بذلك تنفيذ ما كانت فرنسا تضمره نحو هذا الوطن منذ عهد طويل مديد[2] واقيمت يومئذ صلوات كنيسة خطب فيها كبير قساوسة الحملة فقال مخاطبا لقائد الحملة: «لقد فتحت بابا للمسيحية على شاطىء افريقيا» وكتب بهذه العبارة نفسها مبشرا سيده الملك شارك العاشر...

ومما يبعث العجب والدهش في الامور ان الرأي العام الفرنسي - من وراء البحار - لم يكترث كثير لاخبار هذا النصر الذي حازه قادته في الجزائر، بل تلقاه بمزيد من الازدراء والسخرية حتى ان القادة الذين باشروا هذا الفتح ونسب اليهم فخر الانتصار اسقطهم شعبهم في ميدان الانتخاب حينما كانت مدافع «الانفاليد» تدوي يومئذ مبشرة بدخول الجزائر في طاعة فرنسا، ولا ارى ذلك - فيما يبدو - عائدا الا على ما كان يكنه الشعب الفرنسي للملكه ووزيره بولينياك من الكراهية بسبب ما قام به كل منهما من الاعمال القبيحة...

---

(1) محمد العربي الزبيري: مذكرات احمد باي ص 130ط الجزائر 1973م

(2) انظر تحفة الزائر ج 1 84 ط الاسكندرية 1903م.

واليك وصف ما قام به الشعب الفرنسي بباريس نحو الملك شارل العاشر ابان الفتح الفرنسي للجزائر، كتبه شاهد عيان كان موجودا يومئذ بباريس، وهو الشيخ رفاعة بدوي رافع الطهطاوي فسجل في رحلته الباريسية ما شاهده بنفسه من حوادث الفتنة التي اودت بالملك فاسقطته من عرشه واطاحت بوزيره بولينياك فأبعدته عن منصبه، قال صاحب الرحلة:

« ... اعلم انه جاء الى الفرنسوية خبر وقوع بلاد الجزائر في ايديهم قبل حصول هذه الفتنة بزمن يسير، فتلقوا هذا الخبر من غير حماسة وان اظهروا الفرح والسرور به، فبمجرد ما وصل هذا الخبر الى رئيس الوزراء بولينياك امر بتسييب مدافع الفرح والسرور، ولقد صدق من قال:

وكم سرور طيــــــــه احزان لاجــل هــذا خلــق الزمــان

وصار يتماشى في المدينة كأنه يظهر العجب بنفسه حيث ان مراده نفذ وانتصرت الفرنساوية في زمن وزراته على الجزائر، فما كانت ايام قلائل الا وانتصرت الفرنسوية عليه وعلى ملكه نصرة اعظم من تلك حتى ان مادة الجزائر نسيت بالكلية وصار الناس لا يتحدثون الا بالنصرة الاخيرة على ان حاكم الجزائر - يعنى الداي - خرج منها بشروط وأخذ منها ما يملكه،
وملك الفرنسيين خرج من مملكته يتندم على ما وقع منه، وللزمان صروف تدول، واحوال تجول وكان هذا هو عاقبته على غارته على بلاد الجزائر بأسباب واهية لا تقتضي ذلك بل بمجرد ارضاء هوى النفس وإذا نصر الهوى بطل الرأي.

« وكان مما وقع ان المطران الكبير لما سمح بأخذ الجزائر ودخل الملك القديم - شارل العاشر - الكنيسة يشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك جاء اليه ذلك المطران ليهنئه على هذه النصرة، فمن جملة كلامه قال ما معناه: انه يحمد الله سبحانه وتعالى على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الاسلامية ولا زالت كذلك... مع ان الحرب بين الفرنساوية واهل الجزائر انما هو مجرد امور سياسية ومشاحنات تجارية ومعاملات ومشاجرات ومجادلات منشأها التكبر والتعاظم... قال فلما وقعت الفتنة كسر الفرنساوية بيت المطران بعد هروبه وخربوه وافسدوا جميع ما فيه حتى انه تخفى ولم يعلم له اثر ثم ظهر واختفى ثانيا وهجم على بيته ثانيا ولا زال مذموما مخذولا، قال الشاعر:

لا تعجـــبن رويـــدا انهـا دول دنيـا تنقـل من قوم الى قوم

«ثم ان الفرنساوية لما رأوا ان شارل العاشر اخرج باشا الجزائر من مملكته ايضا صاروا يهزؤون بشارل العاشر ويصورونه هو وباشا الجزائر في الطرق ويكتبون في وقائع النوادر تلميحات غريبة ونكات ظريفة، فمن جملة ذلك انهم صوروه هو والباشا المذكور وكتبوا تحت صورة باشا الجزائر كأنه يخاطب ملك فرنسا المعزول: وانت ايضا جاءت نوبتك. كأن الباشا يقول للملك استفهاما ليهزؤا به: وانت ايضا عزلت كما عزلتني. شعر:

فقل للشامتين بنا رويدا   امامكم المصائب والخطوب

وقال آخر:

الدهر يفترس الرجال فلا تكن   ممن تطيشه المناصب والرتب
كم نعمة زالت بأدنى زلة   ولكل شيء في تقلبه سبب

وكتبوا ايضا في وقائع النوادر ما نصه:

«ان الباشا المذكور يقول لشارل العاشر قم بنا نلعب لعب كذا على قدر معلوم، وان لم يكن معك شيء جمعنا لك شيئا على سبيل الصدقة من الناس، يشيرون بذلك الى ان باشا الجزائر خرج من بلاده غنيا وشارل العاشر خرج من بلاده فقيرا...

وكانوا ــ يعني أهل باريس ــ يصيحون في البلدة بعد هذه الفتنة بورقات مطبوعة متعددة مثالب الملك مع المطران، فيها عشق هذا الملك وفساده في صغر سنة وفسق المطران، وهكذا... وبأن ابن ابنه ليس هو ابنا حقيقيا وإنما هو ابن مزور..»[1]

ولم يلبث «دوبورمون» بعد ذلك الا قليلا فعزلته حكومته وولت مكانه كلوزيل clauzel (2 سبتمبر 1830م) ولقي بعدها دوبورمون اهانة كبرى واحتقارا بالغا من الشعب، حتى ان قائد اسطول الغارة الذي رافقه في غزو الجزائر الاميرال «دوبيري» Dupere رفض ان يسمح له بالعودة الى وطنه ممتطيا ظهر سفينة فرنسية، فاضطر دوبورمون الى استئجار مركب نمساوي غادر على ظهره البلاد فرمى به المركب خارج بلاد فرنسا وأنزله باسبانيا[2].

---

(1) تخليص الابريز في تلخيص باريز، أو الديوان النفيس بايوان باريس ص 184 - 186 طبولاق 1265هـ وانظر تعليق صاحب هذه الرحلة على رسالة احمد افندي الجزائري: كيف دخل الفرنسيون الجزائر ص 42ط. بيروت 1962م.

(2) الشرق الاسلامي ص 318 - 319

موقف كبار دول العالم

تجاه العدوان الفرنسي ضد الجزائر

لقد حظي عمل فرنسا هذا بتأييد كل من اغلب الدول الاورباوية شرقا وغربا وحتى من امريكا وروسيا، فان روسيا رأت في ذلك تسليطا لفرنسا على انجلترا لمناوشتها في البحر الابيض المتوسط، واما النمسا فانها زادت على ذلك بان شجعت فرنسا على الاستقرار الدائم في الجزائر، وكذلك فعلت كل من الحكومات الايطالية مثل مملكة نابل وسردانيا، وراتها هولاندا فرصة سانحة فتوقفت عن دفع الجزية التي كانت تعطيها للحكومة الجزائرية، واذنت اسبانيا للبواخر الحربية الفرنسية بالنزول في ميناء الماوبان من جزر الباليار لتؤسس فرنسا مستشفى عسكريا بما هون بعد تمانعها من ذلك في اول الامر نظرا لما كان يربطها بحكومة الجزائر التركية من تعهدات تجارية.

واما بريطانيا - المراوغة - فقد احتجت على هذا الهجوم واعتبرته مخالفا لسياسة التوازن الاوروبي فاجابتها الوزارة الفرنسية بجواب - صدها عن المقاومة وان كان قد دشن عهد الصراع الذي طال بين الدولتين حتى سنة 1904م.

وكان فيما جاء في جواب فرنسا على احتجاج بريطانيا ما يلي: (ان الملك الذي لا يكتم خطته لتعويض ما وقع لفرنسا من خسارة خاصة ليعلن انه مصمم العزم على ان يحول للصالح العام المسيحي نتائج غزواته التي امر باعدادها، لقد جعل غاية قصده والثمن الذي ينشده هو هدم البحرية الاسلامية ووضع حد لأسرى المسيحيين والقضاء على الجزية التي تؤديها الدول المسيحية للايالة الجزائرية[1] على أن بريطانيا كانت تفضل ان ترى فرنسا في الجزائر على أن تراها في بلجيكا أو في الاسكندرية. ولكنها مع ذلك لم تقدم أوراق اعتماد قنصلها في الجزائر إلى فرنسا إلا في عام 1851م.

---

(1) محاضرات علال الفاسي ص 4 ط القاهرة 1900م l'islam et la france par Eugene gronier t 2 p: 38

ولقد اكتشف في الوثائق الفرنسية اخيراً ان هناك مشروعا غربيا قدم سنة 1142هـ/1729م، الى ملك فرنسا يهدف الى احتلال الجزائر، وتعرض (فانتوردي بارادي) في آخر مذكراته لسنة 1204هـ/1789م الى الحديث عن مشروع وضع لاحتلال الجزائر كان ضبطه المهندس (ريكو) في عام 1168هـ/1754م اقترح فيه الهجوم على مدينة الجزائر من الشاطىء المواجه لباب الوادي، ويعلق فانتوردي بارادي على هذا المشروع قائلا: (لكن الاحسن من ذلك هو النزول في الشاطىء الموجود بين رأس كاكسين cap caxin وموقع ناحية سيدي فرج، فمن هناك يمكن الاستيلاء على الجزائر من المؤخرة التي ليست محصنة على الاطلاق، وذلك لما قامت به الحكومة الجزائرية من قبل من تحصين ميناء العاصمة وتعزيز الدفاع عن المدينة فقط، كما ان وضع نظام شمال افريقيا تحت سلطة فرنسا كان احد بنود المعاهدة السرية التي عقدها نابوليون مع قيصر روسيا، وقد شرعت في ذلك منذ انتهاء حروب نابوليون وانهزامه في واقعة واتيرلو (1230هـ/1815م) حيث بلغت المدافع المعدة لحماية العصمة نحو الخمسمائة مدفعا.

وفي سنة 1197هـ/1782م بدأ القنصل الفرنسي (كيرسي) يفكر في وضع مشروع لاحتلال الجزائر وظل يعمل على ذلك طوال تسع سنوات الى ان قدم مذكراته الى وزارة الخارجية الفرنسية عام 1306هـ/1791م محددا فيها وموضحا المكان المناسب لنزول جيوش الاحتلال قائلا:

(ان الفكرة المنتشرة عن انسب مكان للنزول هو المكان المسمى سيدي فرج... ثم جاء بتفاصيل جغرافية تسهل عملية الاحتلال...).

وفي سنة 1218هـ/1803م وجه الكونت ديوتنوزي الى الامبراطور بونابارط مذكرة يشرح فيها مزايا احتلال الجزائر... وفعلا تأثر بها العاهل الفرنسي وكتب الى الاميرال (ديكريس Decrice (سنة 1223هـ/1808م يقول: (فكروا في حملة الجزائر سواء من ناحية البحر او من ناحية البر، فالتركز في هذه الارض الافريقية يثير تفكير فرنسا). وفعلا حضر الى الجزائر العقيد الكولونيل بوتان Boutin جوليط 1808م) ووضع دراسة حول مراكز الدفاع الجزائرية، وفي شهر اوت 1814م وجه السير سدني سميث sir sidney smith

نداء الى اروربا: لتنظيم حصار حول الجزائر حتى يوضع حد لقرصنة الدول الغربية (بحوث ووثائق عبد الجليل التميمي235) تونس 1972م، واشتهر عن المعاهدةالسرية التي كان عقدها نابوليون مع قيصر روسيا انه كان من بنودها ما ينص على وضع شمال افريقيا تحت سلطة فرنسا.

وفي خريف سنة 1229هـ/1815م سلم عامل ولاية قرطبة (دومينقوباديا) الى وزير خارجية فرنسا (الدوق ريشوليو) مذكرة عن استعمار افريقيا، وفي هذه المذكرة يدافع عن استعمار فرنسا لافريقيا الشمالية.

وفي سنة 1231هـ/1816م قدم شاطوبريان تقريراً للحكومة - الفرنسية طبعا - يستحثها فيه على استمرارها في الحروب الصليبية بالمغرب للأخذ بثأر اولئك المسيحيين المساكين - على حد قوله - الذين قدم سان لويس حياته بقرطاجنة فداء تحريرهم...

وفي سنة 1236هـ/1820م، ظهر بباريس كتاب يحمل عنوان (قصة اقامة في الجزائر) يتحدث فيه صاحبه عن الاهمية التي يكتسبها الاستعمار الاوروبي لشمال افريقيا ويقدم توضيحا لكيفية تموين الجيش المكلف باحتلال تلك المنطقة...

وفي هذه الفترة دعا قيصر روسيا (اليكساندر الاول) فرنسا بواسطة سفيرها الوزير (لافيروناسي) الى احتلال الجزائر قائلا: ما على فرنسا الا ان تفتح البركار من مضيق جبل طارق الى الداردنيل وان تختار ما يلائمها، وتستطيع ان تعتمد في هذا المجال ليس فقط على تأييد روسيا بل وعلى اعانتها الجديدة والفعالة.

وفي عام 1241هـ/1825م اتصل وزير خارجية فرنسا المعروف بلقب (بارون دمشق) بمذكرة تحمل عنوان (مذكرة عسكرية عن الجزائر) يوصي فيها صاحبها - المجهول الاسم -باحتلال عاصمة الجزائر بواسطة حصار بري. وقد بدأ في هذه المذكرة بتحليل اسباب فشل شارلكان على العاصمة سنة 948هـ/1541م ومن بينها - في نظره - الجهل بالمكان - ثم يؤكد ان انطلاق الهجوم من سيدي فرج كفيل باسقاط العاصمة.

ونفس هذه الفكرة تجدها عند قنصل الولايات المتحدة الامريكية الذي

نشر في هذه الفترة بالذات تقريرا كان ضبطه في عام 1242هـ/1826م، يؤكد فيه امكانية احتلال الجزائر بواسطة هجوم من الخلف.

وفي صيف هذه السنة وجه شخص اسمه (بارسي بوكاج) بمذكرة الى وزارة الخارجية الفرنسية وهي بطلب من هذا كما يبدو عنوانها (مذكرة سياسية) تحدث فيها كاتبها عن المفاوضات التي ستجري مع الجزائر في حالة ما اذا كانت الحكومة الفرنسية تفضل حلا ديبلوماسيا كما ان هذه المذكرة تتحدث عن طريق احتلال البلاد حربيا ان كانت تفضل طريقة الحرب..

وفي شهر ربيع الاول 1243هـ1827م اقترح وزير الحرب الماركي دوكليرمون على الملك شارل العاشر - كما جاء في المجلد الاول من وثائق الحرب التاريخية - ان يغتنم فرصة المصاعب التي تواجهها انجلترا اليوم وان يمضي قدما لاحتلال الدولة الجزائرية وتدعيم السلطة الفرنسية في افريقيا.

وفي عام 1244هـ/1828م طالب القنصل الفرنسي بتونس باحتلال الشرق الجزائري انطلاقا من ميناء بونة - عنابة - بدعوى الدفاع عن المراكز التجارية الفرنسية، ويؤكد ان احتلال الشرق الجزائري يسهل بعد ذلك احتلال العاصمة، ثم يتبع ذلك بشرح مزايا هذه العملية[1] ولهذا نرى مؤرخي الاستعمار في فرنسا كلهم مجموعين على ان الاستيلاء على الجزائر بعد نقطة انطلاق لاحياء السياسة التوسعية وتأسيس امبراطورية استعمارية ثانية. وفي يوم 9 رمضان1245هـ/4 مارس 1830م حل بالجزائر مركب حربي اسباني جاء من مدينة القنت ليؤكد لجميع القناصل الاوروبيين خبر عزم الدولة الفرنسية على مهاجمة الجزائر وبالجملة فان عقيدة الاحتلال عند الغربيين مصحوبة بسياسة الاستعمار وكانت موجودة بينهم منذ زمن بعيد. ويؤكد لنا هذا المعنى ما كتبه العالم الاقتصادي السويسري (سيسموندي جان شارل 1773 - 1842م) في مقال نشره قبيل الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر جاء فيه: (ان الجزائر لن نحتلها فقط، بل سنستعمرها وسنجعل منها بلدا آخر يستقر به الزائد من سكاننا وينشر فيه الفائض من نشاط بلادنا في مختلف الميادين)[2].

---

(1)راجع تاريخ الجزائر للميلي ج 3ص 275 - 286ط بيروت 1964م
(2) مجلة المجاهد الثقافي عدد 2اوت 1967

التبكير بالغدر

ما كاد ينقضي على اخذ العهود والمواثيق المؤكدة من فرنسا على تأمين السكان وتطمينهم على ديانتهم واموالهم وحريتهم الشخصية وحول تجارتهم وصناعاتهم الخ.... مدة شهرين فقط حتى اخذت فرنسا في نقض ما ابرمته مع الحكومة الجزائرية وهدمته حجرا حجرا.... فاطلقت يد النهب والسلب والقمع وانتهاك الحرمات بين الناس، ولا سيما فيما يختص بالمادة الخامسة المتعلقة بالمؤسسات الدينية والشريعة الاسلامية والاوقاف كما جاء في المعاهدة فانها اصبحت كلها منقوضة واضحة جميع موادها غير محترمة فلا تراهم ينظرون اليها الا كما ينظرون الى مجرد حبر على ورق.

وليس ببدع ان تغدر فرنسا اللاتينية الصليبية او تخون مسلمي الجزائر، فان اسبانيا اللاتينية الصليبية فعلت مثل ذلك بمعاهدتها مع مسلمي الاندلس، ولا سيما فيما يتعلق بالمادة الخامسة المتعلقة بالديانة الأسلامية فهي هي نفسها في الوثيقتين الفرنسية والاسبانية وحتى في الترتيب والترقيم وفي المنطوق والمفهوم عبث بها الاسبان كما عبث بها الفرنسيون[1].

ثم لم يكن لتنقضي على المعاهدة الجزائرية - الفرنسية مدة اسبوع واحد من ايام الاحتلال ولياليه الحالكة الطويلة الاولى حتى عمل الجيش المحتل على طرد الاهالي واخراجهم من ديارهم ومساكنهم الى حيث نرى اكثر الاهالي يشدون رحالهم الى البوادي والقفار والى اقاصي حدود البلاد الجزائرية، ومنهم من ذهب على وجهه فخرج من المدينة سالكا طريق الحراش الى حيث لا يدري اين تلقى به الاقدار، ومنهم من سيق كالاغنام بقوة السلاح وبغير شفقة ودون ستر عوزات نسائهم الى حيث حشروا بداخل السفن التي اجرت بهم الى المنفى، ومنهم من انتقل مهاجرا الى المشرق والمغرب. وصودرت املاكهم وجميع ممتلكاتهم، وخرج يومئذ من الجند التركي اكثر من 2500 انكشاري فذهبوا الى ازمير، وكان ارتحال الداي من الجزائر يوم 17 المحرم 1246 هـ 10 جويلية 1830م فذهب الى مدينة نابولي الايطالية، وفي خلال ظرف ثلاث

---

(1) راجع نهاية الاندلس لمحمد عبد الله عنان ص 345ط القاهرة، 1386هـ/1966م.

سنوات ونصف مضت من يوم الاحتلال فقط هدمت عمارات المدينة دون ان تدعو الحاجة الى ذلك، ودون ان يتم تعويض المالكين وفقا للمادة 545 من القانون المدني كما حطمت مساجد العاصمة التي كان يوجد بها يومئذ 92 مسجدا مالكيا و14 مسجدا حنفيا، وفيها ما حول الى كنائس ومنها ما اصبح ملكا (للدومين) يكتريه للتجار ونفى رجال السلك الديني والقضاة دون ان يرتكبوا ما يدعو الى ذلك كما ابعد الخواص من الاثرياء الذين يساعد وجودهم الطبقة الفقيرة لا لشيء الا نتيجة اتهامات لا اساس لها من الصحة وهدمت ظلما وعدوانا المخازن التي يمكن للطبقة الفقيرة ان تحصل منها على وسائل العيش واصبحت المؤسسات العمومية التى انشأها بعض الاثرياء الخواص لمساعدة المساكين بيد الدومين الفرنسي، غنيمة للمنتصر، وتم احتلال ممتلكات الاشخاص احتلالا عسكريا وبدون مقابل، كما حدث انتهاك للمساكن الخاصة واحتجاز بعضها مما يخالف ما جاء في المادة 57 من ميثاق سنة 1830م وضف الى ذلك بعثرة القبور التي تحتوي على هياكل اجداد هذا الشعب لغرض التجارة بعظام اصحابها!!...[1].

ولما احتج حمدان بن عثمان خوجة لدى القائد الفرنسي الجنيرال كلوزيل ضد خرق فرنسا للاتفاق المشترك، اجابه كلوزيل بأن فرنسا غير مجبرة على احترام هذا الاتفاق لانه لم يكن هذا في نظرها سوى لعبة حرب (المجلة الافريقية مجلد 57 ص 138 (1913)).

وهكذا انقرض عهد الاتراك بالجزائر بعد ما مكثوا فيه ما يزيد على ثلاثمائة سنة وربع قرن (326 سنة)، قل ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

واستمرت المقاومة الشعبية بعد ذلك قائمة تحت امرة الامير عبد القادر الجزائري مدة سبعة عشرة سنة الى ان استسلم الامير للاقدار فاندفعت بعده حركات التحرير التي غذاها ببطولته ونفخ فيها من روحه فأخذت تتفجر من حين الى آخر هنا وهناك... في مختلف انحاء الوطن الجزائري فكانت ثورة

---

(1) راجع المرآة لحمدان عثمان خوجة طبع بيروت 1972م ورسالة الشيخ محمد بن الشاهد الجزائري المتوفي حاجا سنة 1253 هـ (مخطوطة).

اهالي الواد الابيض بالاوراس 1848 - 1849م، وثورة الزعاطشة قرب - بسكرة1849م وثورة الاغواط1852م وثورة بني سناسن 1859م، وثورة اولاد سيدي الشيخ 1864م وثورة قبائل زواوة 1870 - 1871م، وحوادث التوارك بصحراء الجزائر وواحاتها 1881 - 86 - 95، ثم كانت الخاتمة هذه الحركة التحريرية المباركة (1954 - 1962م) التي تحقق بها انتصار الشعب الجزائري على المستعمر الغاصب.

ولقد استند بعض الذين توفروا على بحث آثار الاستعمار الفرنسي في شمال افريقيا على ما ورد في كتب المؤرخين الفرنسيين انفسهم من ان غزو الجزائر قد تم بالنار والدماء، وان مقاومة الشعب الجزائري الباسل لقوات الاحتلال ظلت سنين طويلة، فكثيرا ما ثارت العواصف المدمرة اينما حل الجنود الفرنسيون، وان حكومة باريس كانت قد وطدت العزم على وضع حد لتسلط لاسطول الجزائري على غرب البحر المتوسط فانتهزت فرصة غياب اكبر السفن الحربية الجزائرية في المياه اليونانية لتجد دعوى تبرر بها اعلان الحرب على الجزائر فارسلت تعليمات الى قنصلها ليغتنم الفرصة ويثير اسباب النزاع[1].

---

(1) راجع: شمال افريقية بين الماضي والمستقبل لشاكر والعريان وامين. ص 34 - 42 - 44؛ والدولة العربية الكبرى لمحمود كامل ص 225 - 226.

نهب خزينة الدولة الجزائرية
واختلاس ثروة الشعب

فما ان احتل الجيش الفرنسي العاصمة ونزل منها بقصر الامارة - قصر القصبة - [1] الشهير بناحية (الباب الجديد) بأعلى المدينة حتى اسرع الى الاستحواذ بطريق النهب على جميع ما ظفر به هنالك من ذخائر القصر من مال ونشب وسلاح ومجوهرات وحلى وتحف ونفائس ملكية مختلفة، وكان فيها من الذهب ما يقدر وزنه بسبعة اطنان و 312 كيلو غرام، ومن الفضة 108 طنا و704 كيلو غرام، ورغم ما اعترى القصر من النهب والسلب الواقعين من ضباط الجيش الفرنسي وكبار رجاله فان الجنيرال بيرتوزان والدكتور بونافون والقبطان بيليسيي دورينو، والرسام المصور فودان، ومعهم م. زوزي في آخرين... كلهم شاهدوا الخزينة الجزائرية وشهدوا بأنه كان بها من الذهب ما قدره: 24700000 فرنكا على نسبة فرنك ذلك العصر، وكان بها من نقود الفضة ما يقدر بمبلغ 23,984,527 فرنكا... اما مختلف البضائع والعروض والسلع المتنوعة التي وجدت مودعة بمخازن الحكومة فانها قدرت بما يبلغ ثمنه نحو 11,000,000 فرنكا... وما وجد هناك من السلاح والعتاد الحربي وما يرجع الى ما تملكه الدولة الجزائرية من عقار بما قدره 50,000,000 فرنكا. وذكروا ان من بين ما اختلسه الجيش من ذخائر القصر ومستودعاته سبائك من التبر وقطع من الذهب الخالص وذلك ما يقدر بعشرة ملايين ريالا، وهذا من غير الحلى والاحجار الكريمة والملابس الفاخرة، وقطع من نسيج الحرير والصوف وكميات كبرى من الحديد والنحاس والرصاص والشمع والجلد والملح والخل والحبوب وما الى ذلك من مدخرات الحكومة... ومن غير المسكوكات والنقود الاجنبية المتجمدة بالخزينة قدرها (دوبورمون) نفسه بما يبلغ نحو الثمانين مليون فرنكا اما وزير الحربية (كلير مون دي تونير) فانه كان

---

(1) راجع ما قدمناه عن تاريخ انشاء هذا القصر من هذا الجزء، وكذلك كتاب: h. klein feuillets d'eldjezaïr, p: 74-83 Alger 1937

يتوقع ان ذلك يبلغ 180 مليون فرنكا وقدرها السفير الفرنسي دفال بمائة وخمسين مليون، وذكر القنصل الامريكي (وليام شيلر) في كتابه مختصر الجزائر Sjatches Algires المطبوع بواشنطن سنة 1826م ص 119 انه كان يوجد بالخزينة الجزائرية ايام تمثيله لحكومته بالجزائر 1815 - 1824 ما يقدر بخمسين ومائتي مليون دولارا وذهب القنصل البريطاني الى 500 مليون فرنكا. وتذكر لجنة الحملة الفرنسية التي كلفت بعد تقدير كنوز قصر القصبة سنة 1830م انها وجدت بالخزينة الجزائرية 72 قنطارا و12 كيلو غراما من الذهب و1087 قنطارا و4 كيلو غراما من الفضة الخالصة وقومت هذه المعادن النفيسة بحوالى 48,683,000 فرنك فرنسي منها نقود مختلفة الجنسية ما بين اسبانية ومكسيكية وتونسية ومصرية ومغربية.. وجزائرية طبعا، ومنها السبائك ولقد ثبت أن الجنود كانوا يستخدمون أوراق السجلات في إشعال السجاير وأن إتلاف السجلات هذا كان عفواً أو عمدا ساعد على عدم اثبات قيمة تلك المبالغ!... ويرحم الله الشاعر التونسي احمد بن علي القليبي المعاصر لحوادث هذه الكارثة القائل في مطلع مرثيته للجزائر.

عظم اللـــه اجركم في الجزائر وجزاكم برزئهـــا اجر صابر

فانه تعرض في قصيدته هذه لذكر مالية الدولة الجزائرية المنهوب فقال:

دخلوهــا وملكوهــا خداعــا ودنوا من اميرها دون زاجر

وتولوا خزانــة لوحوتهـــا يدقـــارون لم يزل يتفاخر

ويكفي لبيان مبلغ ضخامة مال الخزينة الجزائرية ما حكاه المؤرخون عنها يوم ان نقلت من قصر الجنينة الى قصر القصبة، فقالوا بانها حملت على ظهر مائة من البغال في ظرف ثلاث ليال متناسقة[1].

وفيما يرجع الى خزينة بيت المال الشرعية فانها الحقت بادارة الاملاك العمومية بقرار رسمي صدر بتاريخ 7 ديسمبر 1830م، ولقد ظلت العملة الجزائرية التركية هي المتداولة بين السكان في مطلع السنوات الاولى للاحتلال الفرنسي حتى يوم 11 اوت 1851م عندما اصدرت السلطات الاستعمارية قرار

---

(١) محمد العنابي: كشف البضائع في ذكر الوقائع مخطوط.

الغاء التعامل بالنقود الجزائرية التركية وانشاء بنك فرنسي لسك النقود الجزائرية الجديدة على اساس الفرنك الفرنسي وبذلك اتصلت عملة الجزائر بعملة فرنسا والتحقت بها الى عهد الاستقلال، وقد سجل المؤرخون من الافرنج على ضباط الحملة الفرنسية انهم فازوا بمائة مليون فرنكا اختلسوها لانفسهم ولم يطلعوا حكومتهم الا على النصف من ذلك فقط[1]، ثم ماذا صنعوه بهذه الثروة؟...

جمعت هذه الاموال في صناديق خاصة وحملت على ظهر خمس بواخر وذهبوا بها الى ما وراء البحار الى فرنسا فحملت السفينة المسماة باسم (مارونفو) ما قدره 598 218 13 فرنكا ذهبا، وكانت حمولة السفينة (دوكيزن) 11,550,000 فرنكا ذهبا، واختصت السفينتان (لوسبيون) و (الافينوز) بنقل الفضة فحملت الاولى 5,100,600 فرنكا والثانية 10,240,000 فرنكا، وتركوا لنفقات جيشهم الحال بالجزائر 5,285,729 فرنكا، فكان المبلغ كله حسب المعلومات المستفادة هو 4,868,452,794 فرنكا.

وجاء في ملف دوبورمون قائد الحملة الفرنسي ان اللجنة الخاصة المكلفة بأمر الخزينة الجزائرية افادت بان ارباح الخزينة تقدر بأكثر من 80 مليون من الفرنكات راجع Archives du ministère de la guerre . H papiers De Bourment (vincennes) وهو ما لو قدرناه بعملة اليوم لبلغ ما يعادل الخمسة او الستة آلاف مليارا[2].

---

(1) احمد الخطيب: الثورة الجزائرية ص 49 ط بيروت 1958 وانظر فيما يتعلق بنهب الخزينة كتاب المرآة للشيخ حمدان بن عثمان خوجة نشرته جريدة الشعب تباعا (1382هـ/1972م)

(2) Henri naoguere l'expedition d'Alger 1830 p: 299-311 paris 1962 la conquete d'Alger p: 111-112 paris 1929.

ومما يذكر في الدلالة على مبلغ ثراء الخزينة الجزائرية في العهد التركي ما حكاه التمكروتي في رحلته من خبر السفينتين اللتين عادتا من الجزائر الى استانبول محملتين بهدايا وتحف نفيسة الى السلطان وحاشيته فقد كانت تبلغ الف ألف مثقل أو ثمانية عشر قنطارا ذهبا سوى الجواهر والملف وغيرها من سائر البضائع قال فوقع الكل بيد النصارى وذهبوا بالسفينتين الى بلادهم بما فيها من الاموال والنساء والصبيان قال فوقع مأتم عظيم في كل دار من ديار الجزائر حزنا على ما وقع للمسلمين من المصيبة في الانفس... (النفحة المسكنة في السفارة التركية ص 139 - 141 طبعة حجرية بباريس بدون تاريخ.

ويضاف الى ذلك ما وضعت الدولة الفرنسية يدها عليه من املاك الحكومة الجزائرية من العقار وهو كما يلي:

املاك الدولة - البايلك -	1500,000 هكتارا مربعا
مكسوبات العرب الترابية	1500,000 ,, ,,
مجموع الاراضي العروشية المشتركة بين700 قبيلة الارث المشاع	5000,000 ,, ,,
ارض صحراوية وبور غير منتجة	23,000,000 ,, ,,
ارض الاوقاف والاحباس	2,000,000 ,, ,,
ارض املاك السكان الذين خرجوا عن طاعة الحكومة المحتلة	3,000,000 ,, ,,
	36,000,000 ,, ,,

وهذا من غير اعتبارنا لما في ارض الجزائر من الكنوز المنجمية وما فيها من الثروات المعدنية والثمار والسوائل الطبيعية الخ....

ثم كانت مغبة ذلك - اي فيما بين سنة 1830 و1870م ان جهزتها الحكومة المحتلة لخدمة الاستعمار فقدمت لاخلاط من المهاجرين الفرنسيين وغيرهم من اسبان وايطاليين ومالطيين... 716880 هكتارا اختارتها من اجود الاراضي الخصبة الطيبة التربة ثم زادت على ذلك فوزعت على هؤلاء وعلى غيرهم ممن طرأ على هذا الوطن من شذاذ الافاق فيما بين سنتي 1871 الى سنة 1896م - 668791 هكتارا خرى، ويقدر اهل الخبرة ما بقي بيد الحكومة بعد هذا التوزيع من اراضي املاك الدولة الجزائرية بما تبلغ مساحته 831383 هكتارا، منها 250,000 هكتارا صالحة للزراعة وللتعمير فأقطع المستعمر معظمها، وبذلك اجتمع لهؤلاء الطارئين ما ينيف على 1600,000 هكتارا هي من اجود الاراضي الزراعية[1].

وكتب الجنيرال «برو» من الجزائر الى شقيقه في باريس رسالة بتاريخ 18

(1) الامير مصطفى الشهابي: محاضرات في الاستعمار ص 139 ط القاهرة 1956م.

فبراير1934 م ورد فيها ما يلي: « تسألني اين صار استعمارنا ؟... اقول لك انه اقتصر حتى الان على امتلاك الاراضي... اننا نلعب هنا على الاراضي كما نلعب في البورصة على اسم المداخيين والبن... والسادة الذين جاءتنا الاوامر بتمليكهم الاراضي في غالبيتهم من خريجي السجون او المرشحـــــين لدخولها... »!...

كما نجد ذلك مسجلا ايضا عند المؤرخ الفرنسي « كريستيان » المعاصر لعهد الاحتلال اذ كتب في معرض تاريخه للغزو الفرنسي هذا قائلا: « ... لقد تمت غداة الاحتلال وبعد ان توطدت اقدام الفرنسيين في الجزائر عدة صفقات مريبة، انتهت الى مصادرة املاك الجزائريين بحجة التآمر على قوات الاحتلال... » وبعد ان وصف عملية الاعتداء على حرمة الاهالي وسوقهم اذلاء تحت السوط والحديد والنار دون مراعاة لستر عورات نسائهم حيث حشروا بداخل السفن التي ابحرت بهم الى المنفى، فقال« ... وكان كل مالك منهم يحمل في يمينه عقدا او صكا بالتنازل عن ارضه اكرِه على توقيعه... » وبهذه الطريقة الاجرامية تملك الاقطاعيون الاجانب تراب الجزائر...

اغتصاب ثروة الاوقاف الاسلامية وانتهاب اموال المشاريع الخيرية

لقد كان الوقف بصفة عامة معروفا عند الرومان قديما، وكان منه الخاص ومنه العام، كما هو معروف عند الامم المسيحية لعهدنا هذا، واستنبط الاسلام الوقف لمصالح لا توجد في سائر الصدقات فان الانسان ربما يصرف في سبيل الله مالا كثيرا ثم يفنى فيحتاج اولئك الفقراء تارة اخرى، ويجيء اقوام آخرون من الفقراء فيبقون محرومين، فلا احسن ولا انفع للعامة من ان يكون شيء حبسا موقوفا على الفقراء وابناء السبيل تصرف عليهم منافعه ويبقى اصله على ملك الواقف، والاوقاف هي من باب التعاون على البر والتقوى.

وما برحت الاوقاف تنمو في بلاد المسلمين بنمو الثروة والتبسيط في مناحي الملك وامتداد السلطة بامتداد الفتوح ثم تكاملت اجزاؤها وتكاثرت موادها في صدر الخلافة العباسية وخصوصا على عهد الخليفة المأمون فانه وقف الاوقاف

الكثيرة في العراق وغيرها على العلماء ودور العلم والجوامع و والمباني العامة لتبقى دائمة الانتفاع على الدهر وتكفي العلماء - والمنقطعين للبحوث العلمية - مؤونة قرع ابواب الملوك والامراء وتغني المحاويج واصحاب الزمانات والعاهات من التكفف والاستجداء، فمن ثم كثرت الاوقاف النافعة كثرتها في الولايات المتحدة الامريكية لهذا العهد ومعظمها على دور العلم والباحثين.

ولقد تفنن القوم في انواع الاوقاف حتى لا يكاد يخطر ببالك خاطر في الوقف الا وتجد من سبقك اليه مما اوشكت ان تكون معه معظم بلاد الاسلام موقوفة[1] وكأن الحكمة من الاوقاف المختصة بالمساجد هي جعل الدين حرا مستقلا غير راضخ لاية سلطة حكومية مهما كانت وكيفما كان نوع حكمها عسكرية او مدنية، وكان بفضل هذا العمل الاسلامي الجليل وصلت الينا هذه الاثار القيمة الدينية من فن المعمار الاسلامي الجميل الذي تزدان به العواصم الاسلامية اليوم في مشارق الارض ومغاربها.

ولما كان هذا العمل العظيم يتطلب العناية التامة بما يدره من الاموال والغلال والثمار انشأت الحكومة الجزائرية المسلمة هيئة مسؤولة تسهر على هذه المصلحة وتشرف على تسييرها بضبط ما تنتجه من دخل وما ينفق عليها من الخرج وما يقتضيه الحال من بذل الوسع لحفظها من التلف وكل ذلك يجري على وفق ما تشير اليه نصوص الواقفين المتركزة على قواعد الشريعة الاسلامية، فكان لهذه المصلحة - مصلحة الاوقاف - مجلس يشتمل على اربعة او خمسة افراد من اعيان القوم: وكيل واحد او وكيلان، وعضوان مستشاران ينتخبان غالبا من هيئة العدول - اعضاء المحكمة الشرعية - ويضاف اليهم باش شاوش لمباشرة الاعمال. وكل ذلك قضى عليه الاستعمار الفرنسي بجرة قلم، وذلك ان الجينرال (دوبورمون) نفسه بعدما اعطى عهوده ومواثيقه بشأن المحافظة على اموال الاوقاف وعدم التعرض اليها بسوء - كما جاء في المادة الخامسة من نص وثيقة الاستسلام فانه نكث عهده، بعد مضي شهرين فقط من تاريخ ابرام

---

(1) محمد كرد علي: خطط الشام ج 5ص 101 ط دمشق 1346هـ/1927م

الاتفاقية واصدر مرسوما يوم 8 سبتمبر 1830 م يقضي بمصادرة الاوقاف الاسلامية والاستيلاء عليها ولم يلبث بعده الا يوما واحدا فقط فاصدر قرارا ثانيا يكفل فيه لنفسه حق التصرف في الاملاك الدينية بالتأجير والكراء[1] على اعتبار ان الحكومة الفرنسية هي التي حلت محل الحكومة الجزائرية في ادارة الاوقاف، وانها المسؤولة عنها وعن توزيع ريعها على المستحقين الا ان عملية المصادرة هذه - بكل اسف - لم تتم لحساب الجهات التي وقفت عليها هذه الاراضي والاملاك، بل تمت لحساب الحكومة الفرنسية[2] اذ نهبت اموال الاحباس وصرفت في غير ما وضعت له حتى ان الكاردينال (اسقف الديانة المسيحية) بالجزائر كان يناله منها ثلاثون الف فرنكا سنويا، يتصل بها من فائض المال.

كما انه كان هناك مشروع جزائري اخر أسس سنة 999هـ/1590 م ويعرف بمشروع سبل الخيرات اسسه شعبان خوجة، وهو من قبيل المشاريع الخيرية العامة كاصلاح الطرقات واجراء القنوات للري واعانة المنكوبين وذوي العاهات وتشييد المساجد والمعاهد العلمية وشراء الكتب لايقافها على طلبة العلم واهله، كان هذا المشروع ادارة منظمة مركبة من احد عشر عضوا منهم ثمانية مستشارون ووكيل وخوجة - كاتب - وهم ينتخبون غالبا من اهل العلم والفضل ويضاف اليهم شاوش - مستخدم - وقد جاء عن هذا المشروع الخيري في التقرير الذي رفعه اوبنيوز Aubignose يوم 25 اوت 1830 م الى قائد الحملة الاستعمارية دوبورمون ان دخل المشروع هذا بلغ في هذه السنة 150000 فرنكا[3]، ولقد حدث لهذا المشروع مثل ما حدث لغيره!...

وقد احصى بعضهم مبلغ مالية الاوقاف خاصة في ايام الاحتلال الاولى فكان العدد يفوق الاربعين مليون فرنكا ذهبيا من عملة ذلك الوقت، اي على نسبة 66% من مجموع الاملاك العقارية والزراعية وقد جاء ذلك منشورا في رسالة طبعت بتونس سنة 1309هـ/1891م باسم المناضل الدكتور محمد بن

(1) احمد الخطيب: الثورة الجزائرية ص 112ط بيروت 1958م.

(2) الدكتور حسين فوزي النجار: انتصار الجزائر 73ط مصر 1962م

(3) La Conquête d'Alger: 178

العربي الطبيب والعضو وقتئذ بمجلس بلدية الجزائر وباسم رفيقه المجاهد الغيور محمد ابن رحال الندرومي: فانها بعد ان اوضحا في رسالتها مطالب الجزائريين حول اصلاح حالتهم الراهنة تعرضا فيها للاوقاف فذكرا العدد المومى اليه ثم قالا: «وان هذا العدد من المال كان ينفق - ريعه - على مائة وخمسة عشر مسجدا، منها خمسة عشر جامعا كبيرا - كلها بالعاصمة، قضى على جلها الاستعمار - وقالا: واذا قدرنا دخل هذه الاوقاف بخمسة في المائة بلغت جملته مليونين من الفرنكات مع انه لم يعتبر منها في الميزانية العامة لينفق في الشعائر الدينية الا ستون الف فرنكاً سنويا فمرتب مفتي الجزائر (1891م) ثلاثة الاف فرنكا سنويا وجراية الكاردينال - من الاوقاف - ثلاثون الف فرنكا. وفي سنة 1868م طلب المسلمون من اعضاء مجلس شورى الحكومة حساب شرائط السبعة ملايين المقدرة لها اوقاف الجزائر فاحيلت المسالة على لجنة مخصوصة لا زالت لم تستقر على راي، ويصرف ريع الوقف غير مصرفه الحقيقي»[1].

هذا وقد اوضحت المجلة الافريقية Revue Afrcaine في بحث لها منشور بأجزائها: الرابع 1860 م ص 171 والخامس 1861 م ص 59 - 223 - 386 والسادس 1862 م ص 203 - 370 ايضاحا وافيا - بعض الشيء - عن الأوقاف الاسلامية بالجزائر العاصمة حرره أ. دوفولكس A. Devouixأورد فيه قائمة أحصى فيها عدد الأمكنة المحبسة مع ضبط محصولها من المال وهي كما يلي:

480	منزلا	الدخل	2665380	فرنكا
63	مزرعة	»	183000	»
57	حديقة او بستان	»	125745	»
242	حانوتا (متجرا صغيرا)	»	427860	
33	مخزنا كبيرا	الدخل	44970	فرنكا
82	بيتا - داراً	»	84665	»
03	حمامات	»	20045	»
11	فرنا	»	10260	»
04	مقهى	»	16170	»

(1) رسالة الحكيم محمد بن العربي وحمد ابن رحال ص 12-13 تونس 1309 هـ.

01	فندق - اصطبل	»	13500	»
06	مطاحن	»	9750	»
1341			3601345 فرنكا قديماً	

اضف الى ذلك عدد 1558 بناية اخرى مختلفة الشكل والوضع بلغ دخلها كما جاء في بعض التقارير 4322270 فرنكا فيكون مجموع الدخل هكذا: 7923615 فرنكا، وذلك علاوة على عدد 201 من المستغلات الغير الثابتة.

وذكر هـ. كلان H. Klein رئيس (جمعية الجزائر العتيقة) ان الاملاك الموقوفة على جامع القصبة القديمة المعروف اليوم بجامع سيدي رمضان بأعلى حي القصبة - وهو حسب المتواتر اقدم جامع بالعاصمة - بلغت اوقافه خمسين عقارا[1] وان الاملاك المحبسة على زاوية ضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي بلغت تسعا وستين عقارا. وكان فيما احتله الفرنسيون ابان نزولهم بالجزائر مما هو ملحق باوقاف الجامع الكبير - 55 - عقارا اتخذوها كلها مأوى للجيش. وقد جاء في وثيقة بخط الشيخ حميدة العمالي قاضي الجزائر ثم مفتيها المتوفي سنة 1220هـ/1873 م ناقلا لها عن خط علامة الجزائر الشيخ سيدي سعيد قدورة شيخ الافتاء وامين اوقاف العاصمة المتوفى سنة 1066هـ/1656 م ذكر فيها انه فضل بيده من ريع اوقاف الجامع الكبير بالجزائر في شهر ربيع الاول عام 1052هـ/جوان 1642 م مبلغ خمسة عشر الف دينار، وانه انفق في ترميم بعض الامكنة من المسجد المذكور واصلاح بعضها، مع بعض الابنية المحتاج اليها بمدرسة المسجد والكتاب الملحق بها ودار العجزة من طلبة العلم، واشترى الى ذلك كتبا لمكتبة الجامع منها شرح العينى على صحيح الامام البخاري في ثلاثة اسفار بمبلغ الف واربعمائة دينار، ونسخة من الصحيح في عشرين جزءا كانت تعرف بالخروبية - ولعلها كانت بخزانة الشيخ الخروبي العلامة الشهير - اشتراها سيدي سعيد قدورة بسبعمائة دينار، فكان مجموع ما انفقه فيما ذكر 37302 دينارا جزائريا خمسينية العدد. واليك ما جاء في بعض التقارير الفرنسية الرسمية حول موضوع الاوقاف الاسلامية ابان احتلال الجزائر:

---

h. klein feuillet d'Eldjazaïr v3 p: 30 - 65, Alger 1912. (1)

ففي سنة 1836 م قام بعض المسؤولين من رجال الحكومة الفرنسية ببحث دقيق - حسب زعمهم - عن الاوقاف الموجودة ابان الاحتلال فبلغ عددها 1419 عقارا، منها واحد وخمسون باسم زاوية الثعالبي واضافة 18 (اناسا) ؟... وفي نفس التاريخ وقع التصرف في 188 بناية، منها ما حطم ومنها ما استعمل في مصالح الحكومة وكان دخل هذه الاحباس يومئذ100000 فرنكا سنويا، وفي السنة بعدها ازداد مبلغ الدخل فبلغ الى 140000 فرنكا، وذلك بعد عزل الوكيل السابق. وجاء في نص تقرير فرنسي آخر على انه وقع هنالك احصاء لهذه الاوقاف فكانت هكذا:

1717 عقارا
1039 اناس؟.
2756

اما الدخل العام لهذه الاوقاف فانه بلغ يومئذ 20000 فرنكا ومنها دخل اوقاف الجامع الاعظم التي بلغت 12000 فرنكا. ويقول التقرير انه فضل في صندوق اوقاف الحرمين الشريفين لسنة 1830 م بعد طرح النفقات: مبلغ 7170305 فرنكا، وان عدد احباس الاندلس كانت تبلغ مائة وواحدا وقفا، منها اربعون عقارا و60(اناس)؟ وكانت الصدقات تبلغ 78000 فرنكا بعد ان كانت من قبل لا تزيد عن 36000 فرنكا، واما عدد رسوم الوثائق الموضوعة على سبيل الوديعة في صناديق وخزائن احباس الحرمين فانها بلغت خمسة آلاف وثيقة، وقد اظهر البحثان عدد الوثائق التي تخص احباسا اخرى وصل الى 35 وثيقة[1]. وفي الايام الاخيرة من العهد التركي كان وكيل اوقاف الحرمين مكة والمدينة يبعث في كل سنة بألفي محبوب ذهبا، وكان بيت المالجي هو المكلف بتبليغ المبلغ فيسافر مع الحجاج في سفن كانت تعدها الحكومة او اعيان البلاد لذلك.

وجاء في تقرير احصائي مؤرخ بيوم 30 نوفمبر 1842 م وضعه م. بلونديل Blondel مدير المالية احصى فيه عدد اوقاف القطر الجزائري كله مع بيان

(1) راجع: ministère de la guerre tableau de la situation des Etablissements français dans l'Algerie: p: 220 - 227, paris 1838.

ومبلغ دخلها وهي فيه كما يلي:

مكان الوقف	الاوقاف المثمرة	الاوقاف المختصة بالمصالح العامة	الجمع
الجزائر	1764	34	1798
بونة (عنابة)	60	15	75
وهران	109	23	132
قسنطينة	1276	416	1692

واما الدخل فهو كما يلي:

اوقاف الحرمين الشريفين	127800	فرنكا ذهبيا
سبل الخيرات	15000	» »
احباس الاندلس	4000	» »
احباس سيدي عبد الرحمن الثعالبي	5500	» »
احباس المساجد	12000	» »
	164300	فرنكا ذهبيا

ويذكر احمد بوضربة في مذكرته ان نصف مدخولات املاك مكة والمدينة كان يرسل الى الحرمين وكان يقدر سنويا بمبلغ 15000 فرنكا اما النصف الاخر فيوزع على فقراء البلاد والمحتاجين.

وجاء في التقرير الذي رفعه الجنيرال كاستو Gastu الى الوالي العام على القطر الجزائري الماريشال راندون Randon بتاريخ 19 اوت 1858 م ان مبلغ مساحة ارض الاوقاف كان يومئذ 18000 هكتارا وقيمتها خمس وعشرون مليونا فرنكا ذهبا.

وهذا جدول الدخل والخرج لمشاريع خيرية جزائرية اخرى بالاضافة الى مداخيل الاوقاف لسنتي 1836 -37م وهي بحسب الفرنك الذهبي كما يلي:

السنة	اوقاف الحرمين	سبل الخيرات	اوقاف الاندلس	بيت المال
1836م	11785875	1429564	167075	1411335 فرنكا
1837م	1225336	1373907	408072	1400322 »
الخرج 1837	10989599	1334187	397080	840493 »
السنة الباقي اخر ديسمبر				
1837م	1260737	39720	10992	559829 »

ولا يفوتنا هنا ان نشير الى اوقاف الحاج عبد الرحمن القينعي التي اوقفها على الفقراء بضريح الثعالبي وفقراء العاصمة وفقراء مدينة البليدة حيث موطنه فانها بلغت ما يقرب من المليون فرنكا وقد توفي الى رحمه الله ليلة النصف من شهر رمضان سنة 1284هـ/9 جانفي 1868م ودفن بجوار ضريح سيدي احمد الكبير بالبليدة.

واليك نص وقفية حسن باشا على الجامع الذي أسسه بالعاصمة سنة 1210هـ/1795م، يحمل اسم جامع كتشاوى نسوقها اليك بنصها الكامل كوثيقة نموذجية نستشف منها مبلغ ما كان عليه حال الوقف بالجزائر وما كان عليه حال الواقفين من الكرم والسخاء ومبلغ تعشقهم بذل اموالهم في سبيل الله:

«ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا».

صح ما فيه من جميع الاوقاف وتعيين المصرف على الوجه المذكور فيه وجعل وكيل سبل الخير ناظرا عليه عقد احمد بن محمد القاضي بمحروسة عفى عنها.

خاتم	خاتم	خاتم
حسن باشا بن حسين (1208)	1212	الواثق بالصمد عبده احمد

«لبسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحمد لله فاتح النعم فضلا من عنده، المحسن بما لا يقوم احد بحقه، وان بلغ غاية جهده المعطى المانع فلا مانع لعطائه ولا مخلف لوعده، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، احمده سبحانه ونشكره وأعظم من ذلك الاعتراف بالعجز عن شكره وحمده ونستعينه سبحانه على استدرار نعمه واستمرار رفده، واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة من لفظة وصحة عقله ونقدسه جل وعلا عن نده ونزهه عن ضده، ونشهد ان سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم اكرم من اتصف بنبيه وعبده، واعظم من ارشد الخلق لهديه ورشده صلى الله عليه وسلم وعلى آله واصحابه الكرام وحزبه وجنده صلاة نتخذها ان شاء الله تخلصا من هول والحشر ونكره، ونتبوأ بها بفضل مولانا الكريم من سعة رحمته مقعدا آمنا لا نخاف شقاوة من بعده.

« اما بعد حمد الله العظيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم، فان المعظم الشهير المفخم الاسعد الاصعد، الاهدى الارشد الاعز الابر فخر الدولة العثمانية وانسان عين المملكة الخاقانية، المؤيد المنصور، المجاهد في سبيل الملك الغفور مولانا السيد حسن باشا بن المرحوم بكرم الحي القيوم السيد حسين لما جبلت عليه طبيعته من التقرب الى الله سبحانه وتعالى بافعال الطاعات والتزلف اليه جل جلاله بالاعمال الصالحات، حبس على المسجد الجامع الذي احدث بناءه وشيد اركانه الكائن بكجاوة قرب ضريح الولي الصالح سيدي والي دادا نفعنا الله ببركاته آمين، داخل محروسة الجزائر المحمية بالله تعالى احباسا داخل البلد المذكور تصرف على خدمة المسجد المذكور من خطيب وامام ومؤذنين بالمنارة وحزاب وشعال وفراش وغير ذلك ممن يقوم بالمسجد المذكور على ما سيأتي تفصيله وذكره آخره ان شاء الله تعالى:

1 – منها جميع جلسة الحانوت المعدة للحرارين الكائنة قرب كوشة النصارى المعروفة بحانوت ابن الحوات.

2 – ومنها جميع جلسة الحانوت المعدة لصنعة الحرارين الكائنة اعلى كوشة النصارى المعروفة بحانوت الحاج مسعود بن زاكور.

3 – ومنها جميع الدار الكائنة قرب درب القصير.

4 - ومنها جميع جلسة الحانوت الفكاه الكائنة بسويقة عمور ومقابلة المسجد هنالك

5 - ومنها جميع جلسة حانوت المعدة لصنعة الحرارين الكائنة قرب الحاكورة المقابلة للصاعد الراكبة على الحانوت التي ابتاع جلستها السيد حسن باشا المذكور المعروفة بحانوت ابن الحوات.

6 - ومنها جميع جلسة الحانوت المعدة لصنعه الحرارين التي كانت ملكا للسيد محمد الحرار بن الحاج مسعود بن زاكور الكائنة بعلوى راكب على فرن معد لطحن الزرع المعروف بفرن كوشة النصارى.

7 - ومنها جميع جلسة الحانوت الكائنة اعلى سوق السمن المعدة لبيع الفواكه الرابعة على يمين الصاعد وباعلاها فرن هناك معد لطحن الزرع.

8 - ومنها جميع جلسة الحانوت الكائنة بسوق السمن المعدة لبيع السمن الملاصقة لحانوت السيد محمد العطار عرف التلميذ، الاولى على يمين الهابط.

9 - ومنها جميع جلسة الحانوت الكائنة برحبة الشعير المعدة لبيع الدخان.

10 - ومنها جميع الدار الكائنة بدرب الحلاب الاولى على يسار الداخل للدرب المذكور مع مخزنها الملاصق بالدرب المسطور المسامتة بانحراف المسجد الولي الصالح سيدي المرايشي وعلى مقربة من حومة السلاوي.

11 - ومنها جميع جلسة الحانوت الكائنة بالعلوي الكبير المعدة لصنعه الحرارين قرب الحمام المالح وعلى مقربة من باب الوادي المسامتة لحانوت بن القالي في القديم وملاصقة من ناحية لحانوت اسماعيل الحرار.

12 - ومنها جميع جلسة الحانوت الكائنة بكجاوة المقابلة بانحراف الحانوت الحاج احمد غياطو، الاولى على يمين الهابط من السباط الكائن هناك

13 - ومنها جميع جلسة الحانوت المعدة لصنعة الحرارين داخل فندق الزيت في الطبقة العليا.

14 - ومنها جميع الدار الكائنة بحومة مسيد الدالية المقابلة بانحراف لعين ماء هناك اسفل الكوشة المعدة لطبخ الخبز.

15 - ومنها جميع جلسة الحانوت الكائنة بسوق اللوح الملاصقة لمسجد هناك مع جميع بناء الغرفة الراكبة على الحانوت المذكورة التي استجد بناءها السيد محمد بن السيد يوسف وجعل عناء ساحة سطح الحانوت المذكورة بجانب حبس المسجد اللاصق بها المذكور وقدره ديناران اثنان ذهب في كل سنة.

16 - ومنها جميع جلسة الحانوت الكائنة بالعلوي الكبير المعدة لصنعة الحرارين الراكبة على الجلسة التي على ملك المكرم قدور بن الكوسة اعلى العلوي المذكور وبمقربة من باب الوادي.

17 - ومنها جميع جلسة الحانوت الكائنة بتبارن ابن لاغا المعدة لصنعة المقفولجية المعروفة في القديم بحانوت الحاج خلاف.

18 - ومنها جميع جلسة الحانوت المعدة لبيع العطرية الكائنة بكجاوة اعلا عين ماء هناك المعروفة بحانوت المقداد.

19 - ومنها جميع جلسة الحانوت الكائنة بين بيبان باب عزون الثانية على يمين الخارج من باب عزون.

20 - ومنها جميع جلسة الحانوت المعدة لصنعة الشبارلية الملاصقة لحانوت الحاج قدور السامري المعروفة بحانوت باب علال.

21 - ومنها جميع القهوة ملك وجلسة التي استجد بناءها اسفل المسجد المذكور.

22 - ومنها جميع ملكية الحانوت التي استجد بناءها الملاصقة للقهوة المذكورة اسفل المسجد المسطور.

23 - ومنها جميع ملكية الحانوتين الذين استجد بناءها اعلا حانوت الطبيب المذكورة اللتين تحت المسجد المذكور.

ثم بعد كون ما ذكر كما سطر اشهد المعظم الشهير المفخم الاسعد الاصعد مولانا السيد حسن باشا المذكور سدده الله على ما اولاه وقلده، والى كل قول وعمل صالح ارشده شهديه على نفسه على لسان رسوله السيد محمد حفاف

الشواش في التاريخ انه عين لخدمة المسجد المذكور قدرا معلوما في كل شهر كما سنبينه ان شاء الله تعالى:

بأن عين للخطيب من اوقاف المسجد المذكور عشرين ريالا دراهم صغارا في كل شهر، كما عين لامام المسجد المذكور خمسة عشر ريالا دراهم من الوصف في كل شهر.

كما عين اثنى عشر رجلا لقراءة الحزب بالمسجد المذكور في كل يوم حزبا بعد صلاة الصبح وحزبا بعد صلاة العصر على العادة الجارية لجميع المساجد الكائنة داخل محروسة الجزائر آمنها الله من سوء الدوائر، لكل واحد منهم ربع دينار ذهبا في كل شهر.

كما عين لباش حزاب ثلاثة ريالات دراهم صغارا في كل شهر.

كما عين للمؤذنين بالسدة الذين يقرأون القرآن ويقيمون الصلاة تسعة أشخاص لكل شخص منهم ريالا واحدا بعينه في كل شهر.

كما عين لباش مؤذن بالسدة المذكورة ستة ريالات وستة اثمان الريال كلها دراهم من الوصف في كل شهر.

كما عين شخصين لقراءة تنبيه الانام يعطى لكل واحد منهما ثلاثة ريالات دراهم من النعت في كل شهر.

كما عين للقراءة بالكرسي ريال واحد ونصف الريال دراهم من النعت في كل شهر.

كما عين لمقيم المغرب والعشاء ثلاثة ريالات دراهم من الوصف في كل شهر.

كما عين اربعة اشخاص لتفريش المسجد المذكور يعطى لكل واحد منهم ثلاثة ريالات دراهم صغار في كل شهر.

كما يعطى لشعال المسجد المذكور ثلاثة ريالات صغار في كل شهر.

وعين للمؤذنين بالصومعة اربعة اشخاص يعطى لكل واحد منهم ثلاثة ريالات دراهم صغارا في كل شهر.

كما عين اربعة اشخاص لكنس المسجد يعطى لكل واحد منهم ثلاثة ريالات دراهم من الوصف في كل شهر.

كما عين لمناول العصا للخطيب يوم الجمعة ربع دينار ذهبا في كل شهر.

كما عين لماسح ابواب المسجد المذكور مع المائيضة اربعة ريالات ونصف الريال كلها دراهم صغارا في كل شهر.

كما عين لمدرسين اثنين عشرة ريالات دراهم صغارا لكل واحد منهما في كل شهر.

كما عين لساقي الماء بالسبالة التي احدث بناءها المسامتة للمسجد المذكور ثلاثة ريالات دراهم من النعت في كل شهر.

وباقي غلة الاملاك المذكورة بعد اخراج ما وجب اخراجه كما ذكر يصرف منه في ضروريات المسجد واوقافه من رم منهدم وحصور وقناديل وزيت وغير ذلك مما يحتاجه المسجد المذكور.

وقدم السيد حسن باشا المذكور على النظر في الاوقاف المومى اليها والتصرف في تنفيذ ما ينفذ من غلتها وحوز الفاضل عن ذلك المستحقية وهو الحاج خليل منزول آغا وكيل سبل الخيرات في التاريخ او من يقوم مقامه، قبل ذلك منه والزم نفسه القيام به جهده وشهد على – هناك كلمة مطموسة؟ – فمن بدل او غير في ذلك فالله حسيبه وسائله ومتولى الانتقام منه وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون.

وشهد على السيد حسن باشا المذكور وعلى الوكيل المذكور بما نسب اليه فيه ان الله يجزي المتصقين ولا يضيع اجر المحسنين، فمن بد له بعدما سمعه فاثما اثمه على الذين يبدلونه. بتاريخ اواسط شعبان المبارك الذي هو من عام عشرة ومائتين والف.

الامضاء

محمد / / / وفقه الله بمنه

وما وقع فيه من الوقف الصادر من الواقف المرحوم ثابت عندي بشهادة

المسطورين وغيرهم وفقه الله سبحانه ابراهيم ابن محمد القاضي في المحكمة الحنفية في جزائر المحمية بالله تعالى.

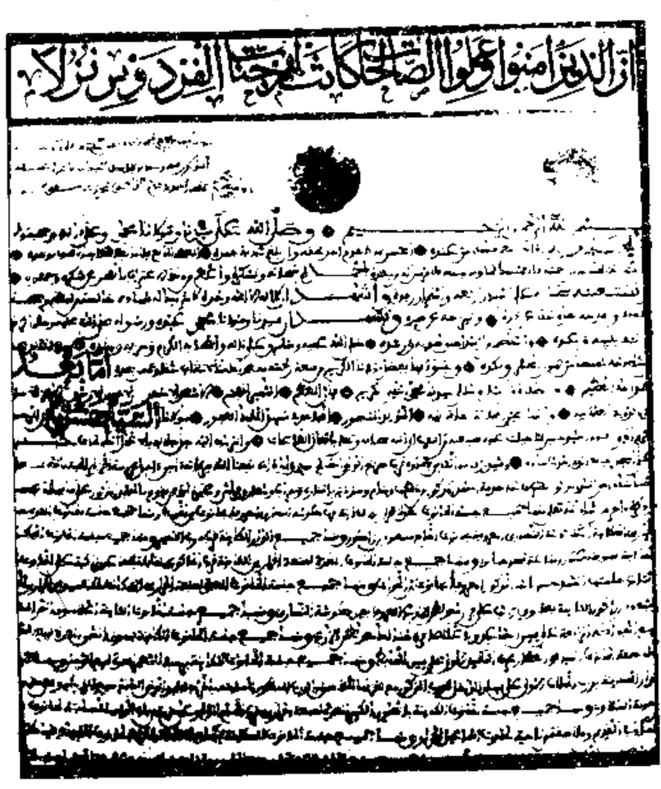
امضاء وخاتم

الواثق الى الله الرحيم السيد ابراهيم القاضي سنة 1213

الحمد لله، بعد ان كان المرحوم بكرم الحي القيوم السيد حسن باشا بالجزائر كان ابن السيد المذكور في الرسم اعلاه حبس ووقف لله تعالى جميع الاماكن المذكورة معه في المومى اليه على المسجد الذي احدث بناءه الكائن بكجاوة قرب ضريح الولي الصالح سيدي والي دادة نفعنا الله ببركاته آمين، وعين من كراء الاماكن المسطورة ما يأخذ كل واحد من خدمة المسجد المذكور على يد من عين لذلك حسبما ذلك كله مبين معه في المومىي اليه البيان التام، وقد كان السيد حسن باشا المذكور استجد بناء جميع الدويرة الكائنة بسكة غير نافذة المعروفة بزنقة البوير الملاصقة من بعض جهاتهاالعلوى هنالك. ومن اخرى لمطهرة المسجد المذكور مع وخزنيها مع العلوي المذكور المعد لصنعه الحرارين مع جميع الثلاثة حوانيت: اثنان منها لبيع الدخان والاخرى للحجامة الراكبة عليهم الدويرة المذكورة مع جميع الحمام الذي احدث بناءه السيد حسن باشا المذكور بموضع زندانة كانت هنالك الملاصقة لخلوة سيدي والي دادة المذكور الاول على يمين الداخل للدرب الموصل لضريح الولي المذكور اعلى المسجد المذكور الملاصق له مع المخزن المعد الان لبيع الشارباجي الملاصق لباب المسجد المذكور المقابل بانحراف لدكان قائد الفحص.

وحبسها على المسجد المذكور والحقها بالاماكن المذكورة، وذلك في السالف عن التاريخ ولم يلحقها بالرسم المشار اليه، وصار وكيل سبل الخيرات يستغل الاماكن المذكورة على الوجه المسطور ورام الوكيل المذكور في التاريخ وهو السيد مصطفى خوجة ابن السيد محمد الحاق الاماكن المحبسة المذكورة بالرسم المشار اليه ورفع امره في شأن ما ذكر الى الشيخ الفقيه العالم العلامة والنبيه الخير النزيه الصدر الاوحد الوجيه فخر القضاة ومعدن الفضل والخيرات وهو ابو الحسن السيد ابراهيم افندى قاضي الحنفية في التاريخ الواضح طابعه الرفيع اعلاه دام عزه وعلاه واعلمه بما ذكر فأجابه الى ذلك وامره حفظه الله تعالى باثبات ما يدعيه من تحبيس ما ذكر ممن ذكر على من سطر فامتثل امره السعيد ورأيه الصائب الرشيد، وأثبت ذلك لديه بشهادة المعظم

الامجد الانجد الفاضل الاسعد مولانا السيد مصطفى باشا في التاريخ ابن المرحوم السيد ابراهيم والمعظم الارفع السيد مصطفى خزناجي بدار الامارة العلية في التاريخ ابن السيد مصطفى والمعظم الاجل المرعى المبجل السيد سليمان خوجة الخيل في التاريخ على لسان السيد الحاج العربي ترجمان السيد مصطفى باشا المذكور نص شهادتهم انهم سمعوا من السيد حسن باشا المذكور قائلا على معنى الاشهاد عليه انه حبس جميع الاماكن المذكورة على المسجد المسطور والحقها بالاحباس المذكورة كما ذكر، فبعد ثبوت ما ذكر كما سطر اذن لشاهديه في كتب هذا اذنا تاما تلقاه منه شهيد له، وشهد عليه حفظه الله تعالى بما نسب اليه فيه وعلى من ذكر مما ذكر على نحو ما بين فيه وسطر في احواله الجائزة شرعا وعرفه بتاريخ اوائل رجب عام ثلاثة عشر ومائتين والف.



ان الذين امنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا

امضاء القاضي بخط غامض مغلق

وهذه أول صورة شمسية للوقفية اخذت رأساً من الاصل:

صورة وثيقة وقفية جامع كتشاوة بالعاصمة

واذا كان هذا رسم وقفية واحدة من محبس وواقف واحد وعلى مكان واحد بهذه المثابة من الروعية والجلال، فكيف بنا لو قدر لنا ان نطلع على جل - ان لم نقل كل - الرسوم المتعلقة بالاوقاف مع تحديد نواحيها من كثرة المساجد والمعاهد واختلاف اغراض ومقاصد اهلها المحبسين مع تباين رتبهم في التأثل واليسار وتنوع المشاريع الموقوفة عليها وتباين المراجع التي يرجع اليها او ينتهي عندها الوقف في كامل القطر الجزائري؟... وان شئت مزيد البيان والاطلاع على المؤسسات الاسلامية واوقافها على عهد الاتراك بالجزائر فراجع:

D. Haubrsairt, l er volume de Recueil Commission d'Afrique - Albert devaulx: Les Edifices Religieux de L'ancien Alger, Alger 1870 - Pelissier, de Reymond - Annales Algeriennes 1847

وما كاد ينقضي على تاريخ الاستعمار هنا بالجزائر خمس سنوات فقط حتى رأينا انخفاض محصول دخل الاوقاف من 13837665 فرنكا الى 4322070 فرنكا، ولم يبق يومئذ من تلك الاوقاف القائمة سوى 952 عقارا ودخلها لا يزيد على 16000 فرنكا!... واما دخل مشروع سبل الخيرات فانه انخفض من 150000 فرنكا الى 1835 فرنكا، مع اننا رأينا القوم في احصاءاتهم الرسمية يذكرون بأن اوقاف هذا المشروع تبلغ 119 عقارا و212 رواتب وارصاد مختلفة، فاين ذهب هذا كله؟ وهكذا نرى الاستعمار قد محا وطمس موارد الحياة الاسلامية العامة بهذه الديار وقضى على جميع المؤسسات الخيرية التي تركها لنا اسلافنا واجدادنا الكرام حتى لا يبقى لنا مطمع في استرجاع مجدنا الضائع المغصوب، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين.

وفي موضوع الاوقاف هذا نشر بحث بجريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتاريخ 14/9/1370هـ/18/6/1951م بقلم الباحث الشيخ عبد الوهاب بن منصور جاء فيه:

«... وكانت لهذه الاوقاف هيئة سامية تتكون من ناظر واحد وتارة من جملة نظار يدعى الواحد منهم (الوكيل) يعاونه عدلان ومستخلص وجماعة من الشواش والحراس وكانت وظيفة (الوكيل) وظيفة هامة تتطلع اليها العيون وتشرئب اليها الرقاب والوالي هو الذي كان يعين الوكلاء بمراسيم عالية، ولم تكن وظيفة الوكيل مقتصرة على ادارة اوقاف الحرمين بالجزائر وحدها بل

كان نفوذه في دائرة اختصاصه يسري على سائر جهات القطر، وهو الذي كان يعين النواب الذين يتصرفون نيابة عنه في اوقاف الحرمين في مدن القطر وقبائله، وقد وقفنا على رسم مؤرخ بعشرين ذى القعدة سنة 1212 هـ/1798 م يعين بموجبه وكيل اوقاف الحرمين بالجزائر السيد عمر بن عمار، متصرفا نائبا عنه في ادارة اوقاف الحرمين بعنابة داخلها وخارجها هو السيد الحسن بن مصطفى الخراط، وبسبب هذه المركزية الادارية كان المتصرفون خارج العاصمة يبعثون حساباتهم والمداخيل التي تجمعت لديهم الى الوكيل العام بالجزائر لا الى الحرمين نفسيها. وقد وقفنا على رسم تصفية حساب مدينة البليدة عن سنة 1239 هـ/1824 م بتاريخ اواخر رجب 1240 هـ بين الوكيل العام بالجزائر السيد علي خوجة ونائبه المتصرف بالبليدة عن تلك السنة 6366 ريال سلطاني، كما وقفنا على رسم تصفية حساب وهران عن سنة 1244 هـ مؤرخ في اوائل جمادى الاولى سنة 1245 هـ/1829 م وقد بلغ دخل وهران عن تلك السنة 1500 ريال بوجو، وقد حمل هذا الدخل الى الوكيل العام بالجزائر السيد بنعودة بورصالى خليفة الباي حسن باي العمالة الغربية بوهران. كما اطلعنا على وثيقة مؤرخة بعشرين رمضان سنة 1237هـ/1822 م تفيد ان السيد مصطفى بن الابيض قائد الدار بقسنطينة بعث بواسطة الباي 440 ريالا الى الوكيل بالجزائر وهو ما حصل بيديه من دخل اوقاف الحرمين بقسنطينة عن سنة 36 والثلث الاول من سنة 37. كما اطلعنا على وثيقة اخرى مؤرخة في اوائل ربيع الاول سنة 1239هـ/1823م تفيد ان السيد ابراهيم خوجة قائد الدار بقسنطينة بعث 355 ريالا من مداخيل اوقاف الحرمين الشريفين بواسطة خليفة الشرق.

وكان الوكيل عندما ينهي حساباته مع متصرفي اوقاف الحرمين بالقطر ويجتمع لديه ما بعثوا به يعلم الباشا بذلك ويطلب منه ان يعين موعدا للنظر في شأن تلك الاموال ويكون هذا الاعلام والطلب عادة عندما يقرب وقت قيام ركب الحجاج الجزائريين الى المشرق لاداء الفريضة، وعندما يحل الميقات الذي حدده الباشا ينعقد مجلس جليل بالمسجد الاعظم تحت رئاسته تحضره لجنة موقدة من طرف الجيش وشيخ البلدية الوزراء والقضاة والمفتين والعلماء ونقيب الاشراف وامين الامناء، ثم يعرض الوكيل على انظار الحاضرين تقريرا مطولا

يبين فيه دخل القطر وخرجه، ويرجو منهم ان يقسموا تلك الاموال حسب رغبات المحبسين المبينة في رسوم التحبيس التي يكون تحت يده نصوصها الاصلية او نسخ منقولة على الطريقة الشرعية منها، وفي ذلك المجلس تعين مصارف تلك الاموال وتكتب جرائد فيها اسماء ذوي الحيثيات من العلماء والسدنة او الفقراء والمساكين الذين ينالون نصيبا من مال الوقف، وكما كان يعين في ذلك المجلس امير الركب الجزائري الذي يرافق الحجاج ويحمل المنح والصدقات، وقد كان امير الراكب هذا يختار غالبا من امناء بيت المال، ويكون من وظيفته زيادة على ما تقدم الاتصال بحكومات الاقطار التي يمر بها وتفتيش الوكالات الجزائرية والاتيان بتركات الهالكين من حجاج الجزائر في الطريق، وارجاع ضعفاء الحجاج على نفقة الحكومة الى بلدانهم.

وكانت اموال اوقاف الحرمين توجه تارة برا مع قافلة الحجاج، وتارة بحرا الى الوكالة الجزائرية بالاسكندرية في سفن اسلامية او نصرانية ووكالة الجزائر بالاسكندرية هي التي كانت تتكفل بعد ذلك بايصال المال الى الحرمين.

ففي سنة 1089هـ/1678 م بعثت الحكومة الجزائرية بدخل اوقاف الحرمين الى وكالتها بالاسكندرية على ظهر سفينة يونانية، وفي سنة 1096هـ/1685 م بعثت 400 دينار ذهبي مع «قبطان» احدى السفن الهولاندية، وفي سنة1104هـ/1693م بعثت 1666 دينارا سلطانيا في سفينة جزائرية يقودها «الرايس» الحاج احمد بن غانم، في سنة 1122هـ/1710 م بعثت 1500 دينار سلطاني مع قافلة برية يقودها الشيخ الطيب بن بوزيان، وفي سنة 1127هـ/1715 م بعثت 1500 دينار سلطاني الى الاسكندرية في سفينة القبطان بير الانجليزي، وفي سنة 1139 هـ/1727 م بعثت 500 دينار سلطاني بحرا الى الاسكندرية في سفينةالقبطان الفرنسي نيقولا اوجير، وفي سنة 1148هـ/1736 م بعثت 3000 دينار سلطاني مع البطل المجاهد احد قادة الاسطول بالجزائر الحاج محمد بن عبدي باشا.[1]

---

(1)كان أول ملك عثماني بعث بهدية سنوية إلى أمير مكة هو السلطان محمد تشلبي- خامس سلاطين الدولة العثمانية 816 - 824هـ/1413 - 1421م وعرفت بإسم (الصرة) وهي عبارة عن قدر معين من النقود يرسل به الى امير الحرمين الشريفين لينفقه على من هنالك من الفقراء.

والملاحظ ان اموال اوقاف الحرمين الشريفين بالمغرب الاوسط لم تكن لتبعث او ترسل كلها الى ارض الحجاز، فقد كان الوكلاء يتصرفون فيها احيانا تصرفات مخالفة لقصد المحبسين، من ذلك انهم كانوا يقرضون منها وينفقون على الواردين على الجزائر من جزيرة العرب ان كانوا يحملون توصيات من أعيان الحرمين كما انه كان ينفق منها على فقراء العاصمة باستمرار، حتى ظن اولئك الفقراء مع مرور الايام ان جزءا منها محبس عليهم، ولذلك اكثروا من التشكي عقب الاحتلال ومطالبة الحكومة الفرنسية بالانفاق عليهم منها كذي قبل.

ومنذ ان وضع الاستعمار الفرنسي قدميه بهذه الارض شرع في تقويض دعائم هذه الاوقاف وتشتيت شملها وهدم معالمها حجرا حجرا ففي اليوم السابع من شهر ديسمبر 1830م20 جمادى الثانية 1246 هـ اصدر الجنيرال كلوزيل قرارا يحتوي على ثمان مواد قضى فيه على هذه المبرة الاسلامية وبدأ يفسخ ما كان منها موقوفا على الحرمين بدعوى ان مداخيلها تنفق على الاجانب ممن هم خارج البلاد، اذ يراها هو - في نظره - اموالا ضائعة، فعمد بذلك الى احباس الحرمين الشريفين فانتزع منها خمسة وخمسين عقارا، ثم التفت الى اوقاف الجامع الاعظم بالعاصمة فحذف منها احدى عشرة بناية، وتنص المادة الثالثة من قراره هذا على القائمين بأملاك الاحباس ملزمون بأن يقدموا في ظرف ثلاثة ايام من تاريخ القرار تصريحا يبين صفة وضعية وحالة عقارات الاحباس التي يستغلونها بالكراء او غيره، ومحصول الكراء او الغلة وتاريخ الدخل الاخير، وفي المادة الرابعة ينص على انه يجب على القضاة والمفتين والعلماء وغيرهم من القائمين على ادارة الاوقاف - تسليم العقود والسندات المتعلقة بتدبير شؤون تلك الاملاك وقائمة اسماء المكترين مع بيان مبلغ الاكرية السنوية وزمن الاداء الاخير - يسلمون كل ذلك الى مدير الاملاك. واما المادة السادسة فانها تنص على ان كل شخص خاضع للتصريح المذكور في المادة الثالثة من هذا القرار ولا يدلي بما عنده يحكم عليه بغرامة لا تقل عن الدخل السنوي للعقار الذي لم يسجله. ثم اتبع ذلك بمرسوم اخر نشر يوم 31 اكتوبر1838م يؤكد فيه ما جاء في سابقه مع اطلاق يد السلطة الحاكمة في الاوقاف لها ان تفعل فيها ما تشاء، وجاء المنشور الملكي المؤرخ بيوم 21 أوت 1839م باثبات جميع القرارات الصادرة بخصوصية الاوقاف وتصحيحها، وجاء في قرار وزير الحربية المؤرخ

بيوم 23 مارس 1843م «ان مصاريف ومداخيل المؤسسات الدينية تضم الى ميزانية الاستعمار »(1)

ثم توالت بعد ذلك لوائح ومنشورات متنوعة وكلها تدور حول هذا المعنى، واخيرا - اي في سنة 1263 هـ - 1847م - وأثر ابعاد مفتي العاصمة الشيخين مصطفى بن الكبابطي المالكي، ومحمد العنابي الحنفي ونفيها الى المشرق ادعت الحكومة فقد صكوك الاوقاف بضياع سجلاتها وذهابها طعمة للنار!

ولقد حدثني ثقة من شيوخ مدينة الجزائر المعمرين المتنورين عن صفة فقد دفاتر وسجلات الاوقاف بالتهاب النار هذا فقال لي: ان ذلك كان عن تدبير وتعمد قام به الحاكم العسكري الفرنسي الحالي، وذلك انه في يوم ما استدعى ناظر الاوقاف وامره باستحضار سندات الاوقاف معه، ليطلع عليها على سبيل المراقبة للمحافظة - بزعمه - على سير النظام العام، فلما وقعت الدفاتر بين يديه - وكان جالسا الى جانب المدفأة - دفع بها الى النار!... تأمل!!..

وبذلك انفتح للمستعمرين باب العبث بالمؤسسات الاسلامية وابتزاز اموال الاوقاف وغيرها من المشاريع الخيرية، ولا يستبعد صدور اعمال كهذه من حكومة ظهر فيها امثال ذلك المتلاعب بأموال الجزائر: الوزير طاليران، وامثال مختلسي شركة حفر قناة(السويس)التي اسسهافرديناn دى ليسبس سنة 1881 م، وامثال اصحاب فضيحة شركات (اوسترك) التي القيت بسببها شكوك وريب خطيرة حول وزيري المالية والحقانية وانتهت بسقوط حكومة م طارديو اواخر سنة 1930 م ومثلها فضيحة ستافيسكي الاثيمة التي اشتركت فيها عصابة من الشخصيات الحكومية البارزة (1933م) وضف الى ذلك ما وقع اخيرا في غضون الحرب التحريرية بالجزائر (1954 - 1962 م) من السلب والنهب الخ.. الخ..

وبأعمال كهذه اصبحت مجموعة اوقاف الحرمين التي كان يبلغ عدد وحداتها

---

(1) راجع albert Devoulx - les Edifices Religieux de l'Ancien Alger p: 44 - 45, Alger 1870

سنة 1246هـ/1830 م: 1357 مكاناً فلم يبق منها في سنة 1251هـ/1835 م سوى 952 وحدة البالغ دخلها 138376 فرنكا و65 سانتيما واما الباقي هدم وحطم او حول بعضه الى محلات عمومية او ادارات حكومية واتخذ آخر منها معابد وكنائس مثل جامع كتشاوة وجامع على بتشنى وجامع حسين داى البرانى بالعاصمة وكذلك بغيرها من عواصم القطر الجزائري وفيها بفضل الله ما أستعيد بعد الثورة التحريرية الكبرى 1954 - 1962 م فعاد الى اصله.

وقد ورد في بعض الوثائق انه كان بالعاصمة ما يبلغ 167 مؤسسة اسلامية وذلك ما بين مسجد ومعهد وضريح وزاوية وهي على هذا الترتيب:

109	مسجدا
32	ضريحا
13	مسجدا جامعا
13	زاوية
167	

وعند ج. مارسي 106 مؤسسه؛ منها 92 مالكية المذهب و14 حنفية G. marçais Manuel D'Art musulman t 2 p 776 paris 1927 ولم يبق من هذا العدد كله بالعاصمة في عصرنا هذا، سوى اربعة مساجد جمعية واربعة مساجد للصلوات الخمس وخمسة او ستة اضرحة، فأين جامع السيدة، وإين جامع السلطان واين جامع خضر باشا، واين جامع المقرئين - ما قارون - واين جامع سوق اللوح، واين جامع البلاط، واين الجامع الاخضر، واين جامع الشماعين، واين جامع ومدرسة بوعشبة، وجامع الزيتونة، والجامع المعلق وجامع سيدي علي الفاس، وجامع سيدي هدى، وجامع سيدي المريشي، وجامع ابن نيقرو، واين زاوية سيدي العباس، وزاوية ايوب، وزاوية الاندلس الخ... الخ...[1]

(1) للاطلاع على ضبط امكنة هذه المسجاد والمعابد راجع كتاب هـ - كلان h. klein, feuillets d'Eldjazair, Alger 1913 - Albert devaulx les Edifices Religieux de l'ancien Alger Alger 1870

كما انه ورد فيما وقفت عليه من بعض الوثائق المخطوطة ان نفقة هذه المساجد لسنة 1246هـ/1830 م بلغت 13639 فرنكا ونفقة المكاتب 12000 فرنكا، واما نفقة الصدقات فبلغت اذ ذاك الى 122503 فرنكا، اما ضريح الثعالبي فانه كان يستلزم من النفقة 6000 فرنكا ورغم ذلك فلم يبق للموظف الديني ما ينتفع به من جميع الاحباس الموقوفة عليه سوى مرتب ضئيل كان يتقاضاه او يتسلمه كرمز لحقوقه المغتصبة المهضومة!

فأين تقع هذه المعاملة القاسية للمعاهد الاسلامية من معاملة المسلمين للمعابد المسيحية وغيرها من جميع الاديان وفي جميع البلاد التي فتحوها عنوة او صلحا؟ وكيف كانوا يعاملون. مقدسات اهل الذمة وحتى للخرائب منها والانقاض التي تتساقط من هياكلهم التي ابلاها القدم وتقادم عليها العهد، ويكفينا شاهد على ذلك ما ذكره الشيخ ابو زكرياء يحيى بن علي الشقراطيسي(أوائل القرن الخامس الهجري) في كتابه «مجموعة الاسئلة الفقهية» انه «سأل يوما شيخه ابا الحسن القابسي - وهو اول من ادخل صحيح البخاري الى افريقية - سأله عن كنائس النصارى الموجودة في بلاد قسطيلية وهي ارض الجريد التونسي اليوم، قال اذا خربت هذه الكنائس واخذ المسلمون حجرها وبنوا ساقية وبنوا على الساقية مسجدا، هل يسوغ ذلك؟ وهل يجوز التوضى في تلك الساقية؟... فأجابه القابسي بما يلي:

«ان كانت خرائب هذه الكنائس كذلك حين دخل المسلمون ولم يعمرها نصراني الذمة بعد ذلك في الاسلام فلا بأس بالانتفاع بالساقية والصلاة في المسجد، وان كان عمرها اهل الذمة عما يجب واقروا بها وعليها قد دخل المسلون عليهم فخربت الكنائس بعد ذلك وعجز اهل الذمة عما يجب لهم بقيت ذمتهم، فان كان كذلك وطلب اهل الذمة الحجر الذي بنى به البناء الذي ذكرتم فلهم حق ان كان يستطاع اخلاص الحجر لهم سالما ليعيدوا به عمارة الواجب لهم، وان كان قد فوت في البناء تفويتا إن نزع لهم لم ينتفع به في بناء بعد، فلهم قيمته على من اخذه وبنى به على حاله يوم اخذه من الخرائب ينفقونها فيما يجب لهم من عمارة كنائسهم تلك، والله ولي التوفيق» قال: فعمل اهل قسطيلية بهذه الفتوى ولم يغيروا شيئا مما فصلته لأنها فتحت صلحاً على يد حسان بن النعمان الغساني فأقام بها من أسلم ورحل عنها من اراد البقاء على دين النصارى او

البقاء مع الجزية قال ابن الشباط : وكان دخول حسان رضي الله عنه افريقية سنة تسع وسبعين من الهجرة[1]

والاصل في ذلك يرجع الى ما شرعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم فتح بيت المقدس وجلوسه لابرام الصلح مع اهلها وصلاته خارج كنيسة القيامة كما هو مشهور عنه في كتب التاريخ ، وذلك حذرا منه من أن يتخذها المسلمون بعده حجة لهم في اقتحامها وحرمان النصارى منها . وكتب لهم في ذلك عهده المشهور بان لا يجمع للصلاة على الدرجة التي جلس او صلى عليها ولا يؤذن عليها ، كما انه نص في صك الصلح وعهد الامان الذي اعطاه لاهل الذمة من نصارى بيت المقدس على المحافظة على مقدساتهم الكنسية كيفما كان شأنها فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان اعطاهم « .. أمانا لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احد منهم[2] فليتأمل المنصف الفرق بين المعاملة الاسلامية لاهل الكتاب ومعاملة النصارى لاهل الاسلام.

وبهذه المناسبة نذكر على سبيل المقارنة بين الغزو الغربي والفتح العربي الاسلامي ما قاله النائب الفرنسي (دوساد) يوم ان خطب في قومه مفتخرا بغزو الجزائر امام مجلس الامة (1834/4/28م) فقال:

« حطمنا في مدينة الجزائر 900 منزلا بدون سابق انذار واستولينا على 60 مسجدا فاستعملناها للمصالح العسكرية وهدمنا عشرة منها ، وكنا حيثما قمنا بأعمال البناء ننبش القبور ونبعثر العظام دون أدنى احترام « !. وجاء في تقرير اللجنة الاستطلاعية التي بعث بها ملك فرنسا الى الجزائر يوم 7 جويلية 1833 م ما يلي:

« ... ضممنا الى املاك الدولة سائر العقارات التي كانت من املاك

(1) الهادي مصطفى التورزي اعلام الافارقة (عبد الله الشقراطسي) ص 14 ط تونس 1955م.

(2) تاريخ الطبري ج3ص105ط القاهرة 1357هـ/1939م والمفصل في تاريخ القدس لعارف العارف ج 1ص96ط القدس 1380هـ/1961م

الاوقاف واستولينا على املاك طبقة من السكان كنا تعهدنا برعايتها وحمايتها... لقد انتهكنا حرمات المعاهد الدينية ونبشنا القبور واقتحمنا المنازل التي لها حرمتها عند المسلمين « ...»[1] وارجو ان لا يحرجنا القارىء فيبدى لنا رغبته في الاطلاع عن عدد ما حطمه الاستعمار من الدور الجميلة والقصور الانيقة ابان الاحتلال فان اذاعة خبر ذلك يؤلمنا كما أنه لا شك يؤلمه ايضا، ولا سيما اذ سقنا له كلمة رجل الساعة الرسمي في ذلك الحين وهو الجنيرال الـ « بروسار » حين كان يفتخر بأنه باشر تحطيم تسعة آلاف منزل كانت من ابهى وابدع المنازل بضواحي العاصمة[2] هذا عمله هو وحده فكم حطم غيره؟..
وذكر لارشي Larcher في كتابه Traité de legislation Algerienne – f. 3 p.95–441 ان ميزانية النهب والسلب بلغت في مدة الخمسة عشر سنة الاولى من ايام الاحتلال ان انتهب من حوز الجزائر 87000 هكتارا من 111000 هكتارا اي بمعدل ثلاثة ارباع المساحة كلها، وفي سنة 1851 م سلبت السلطة 60000 هكتارا، و18 مليونا من الغنم وثلاثة ملايين ونصف من البقر ومليونا واحدا من الابل؟! وانظر في ذلك Rapportde la Commission gouvernemental d'enquete 1883

وبعد هذا كله نرى ونسمع اليوم من المعمر الغاصب يتساءل تجاهلا فيقول ما لهذه الثورة الجهنمية القائمة اليوم بالجزائر؟... ولا يسعنا نحن الا ان نجيبه ساخرين او جادين – كما يشاء – : ان ذلك نشأ عن حسن تطبيق ما تتبجحون به – ايها المعمر – كشعار لدولتكم: من حرية ومساواة وعدالة ومؤاخاة!...

والحق اقول ان عملية تحويل المساجد الى كنائس او الكنائس الى مساجد هو عمل يجرح قلوب المغلوبين على امرهم بما تبقى ندبة التحامه طول الدهر – كما يقول البتنونى –[3] وتنتقل من الاباء الى الابناء ومن الاجداد الى الاحفاد واصل مصائب الدولة العثمانية وتحريش نصارى اوربا بها هو تحويلها

---

(1) احمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا ص 16 – 17 ط الجزائر 1356 هـ.

(2) h. klein – Feuillets d'Eldjazaïr, Alger 1937

(3) رحلة الاندلس ص 77 الطبعة الثانية بالقاهرة.

كنيسة آيا صوفيا الى مسجد، واذا كانت المساجد كلها لله والدين كله لله فخير للناس ان يتركوا للناس حريتهم في تعبدهم اذ لا اكراه في الدين، ولكم دينكم ولي دين.

محاولة فاشلة:

قضى انهزام الداي وخيبته في رد حملة العدو عن بلاده بالانسحاب من الجزائر، فغادرها في جماعة من خاصته وطائفة من بعض رؤساء الحربية والحاشية وبعض من كان يلوذ به من أهالي المدينة وكان عددهم يناهز المائة والعشرين نسمة: 58 رجلا و52 امرأة نجد من بينهم أخاه وصهره الثاني مصطفى قادري، وبنات الداي الثلاث: عائشة وحنيفة وليلى، وسن الداي يومئذ يناهز الثلاثة والستين عاما -

واذا ما صدقنا الاسرائيلي باكري بوخريص فيما اخبر به عما اخذه الداي معه عند مغادرته الجزائر من الاموال المنقولة وهي تشتمل على اثنين وتسعين طردا وخمسة وسبعين صندوقاً كبيراً، قلنا انها تقدر بثمانية عشر مليونا من عملة ذلك الوقت وبلغ ما يختص بنفائس التحف والذخائر وثمين الجوهرات والاحجار الكريمة الى ما يقدر ثمنه آنذاك بثمانية ملايين فرنكا وباضافة ما هنالك من الكنوز يبلغ العدد الى ما ذكرناه[1] وجاء في تعليق لرفعة بك الطهطاوي على رسالة احمد افندي الجزائري فقال: ان ذلك بلغ تسع ملايين فرنكا غير المدخرات من جواهر وغيرها.

ولكننا نجد ما يتناقض مع هذا عند الرحالة الألماني (ماينريش فون مالتسان) فيما ذكره في كتابه (ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا) ترجمة الدكتور ابو العيد دودو ص 109 ط الجزائر 1976 م حاكيا ما حدثه به الحاج احمد بن الشيخ. مصطفى الفاديري مفتي المالكية بالجزائر، (عم جدتنا لأم الزهراء بنت عبد الرحمن القاديري، وهو ممن عرف الداي معرفة مباشرة) قال: «عندما كان حسين لا يزال دايا كنت لا اراه الا وأنا خائف مرتعد، لأنه لم يكن هناك ما هو ايسر له من حز الرؤوس، غير اني تعرفت اليه فيما بعد بالاسكندرية،

---

(1) H.Klein, feuillet d'Edijeszaïr, fascicule 3 p. 21 -23-24-36-96-121 et fascicule 5, et fascicule 4 P. 90 - 114 - 130 F:5 p 93 - 94- 105 Alger 1912-1913.

وسرعان ما اصبحت ضيفا يوميا في منزله: لقد كان لطيفا.. مرح المزاج، ولم يكن يبدو عليه انه تأثر كثيراً لما فقده من مجد وسلطان، وعلى ذكر هذا... فالفرنسيون يزورون الحقائق عندما يقولون عنه انه قد نقل سبعة ملايين فرنك الى مكان آمن، فلم يكن بالجزائر كلها شخص واحد يملك مثل هذا المبلغ ونحن عرب الجزائر لم نكن نعرف ما معنى المليون على الاطلاق. وكان صديقي الخزناجي اغنى رجل في الجزائر.... كان اغنى من الباشا نفسه وقد عددت امواله بنفسي، ولكنها لم تكن تتعدى ستين الف دولار اسباني..»؛ فاي الروايتين احق بالتصديق؟...

اقلت السفينة الفرنسية (جاندارك) الباشا ومن معه باثقالهم من مرسى الجزائر يوم 11 جويلية 1830 م/ المحرم 1246 هـ على الساعة الرابعة بعد الزوال متوجهة بهم الى ايطاليا وقد كان ان اختار الباشا جزيرة مالطة موطنا له، ولعله اختار هذا المكان ليتصل فيه بالسلطات البريطانية ولكنه رفض طلبه وحول الى ايطاليا، فعرجت به وبمن معه السفينة اولا الى ميناء (ماهون) بجزيرة مينورقة، فمكث هنالك الى اليوم الثالث والعشرين من جويلية: ثاني صفر، ثم أبحرت بهم الى مدينة (نابولي) الايطالية فنزلوا بها آخر شهر جويلية، وهناك اخذ الداي يعمل على الاتصال بالاحرار الجزائريين لتدبير خطة لمقاومة العدو، ومنها انتقل الى باريس مطالبا حكومتها بالوفاء له فيما تعهدت به نحوه من حماية املاكه الخاصة وباحترام الاوقاف الخ... وبقي هنالك في انظار مقابلة الملك ليبسط امامه الموضوع، فرفض الملك مقابلته، فعاد الداي الى ايطاليا واختار لاقامته بها مدينة «ليفورن» ومن هناك اخذ في تجديد العمل السري على دوام الاتصال والارتباط بأهل الجزائر للاستمرار على مناهضة العدو المحتل ولكنه انكشف امره في الاخير وخاب المشروع واخذت الحكومة الفرنسية في الضغط على ايطاليا مما ادى الى طرد الداي من بلادها فرغب حينئذ في الانتقال الى سكنى مدينة طنجة بالمغرب فأبت عليه حكومتها ذلك، فنزل بالاسكندرية حيث رتب له محمد علي باشا معاشا بها واستمر مقيما هناك منعزلا عن السياسة الى ان وافاه اجله سنة1254 هـ - 1838 م عن سن ينيف على السبعين خريفا تاركا وراءه بناتا عشن بعده معيشة الذل والهوان.

عوامل انهيار الجزائر التركية:

ان عوامل انهيار الجزائر التركية لكثيرة وعديدة...، وان اهمها فيما أرى يرجع الى ما سأذكره ملخصا فيما يلي: لقد تعرضت وحدة التراب المغربي في القرن التاسع عشر لمحنة قاسية وبؤس شديد وذلك انه اجتمعت عليه عدة اسباب، منها انعقاد مؤتمر فينا (1230 هـ/1815م) وبعده جاء مؤتمر ايكس لا شابيل (1233 هـ/1818م) اللذين تقرر فيهما اعادة تنظيم اوربا تنظيما سياسيا جديدا، ونهضت البلقان ضد الحكم العثماني وكذلك جلاء جيوش الاحتلال من فرنسا ثم افول نجم الدولة العثمانية بانهزامها في حربها مع اليونان واشتغالها بحروب محمد علي.. الخ... كل ذلك تمخض عنه انطلاق القوات الاورباوية من عقالها والزج بنفسها في مغامرات استعمارية واسعة النطاق، فوقعت اذ ذاك مسابقة جريئة بين تلك القوات نحو بقية الاقطار ولما ان تم توزيع افريقيا الوسطى كلها اصبحت افريقيا الشمالية معرضة الى الخطر[1].

فشهد القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين صراعا عنيفا حامي الوطيس بين الدول الاسلامية على اختلاف اقطارها وبين الاستعمار الغربي، وقد كان صراعا - كما يقول فتحي رضوان -: «متعدد الصور، وقد تزعمته ثلة من القادة والزعماء تباينت اساليبهم وامزجتهم واسلحتهم وان اتحدت اهدافهم وغاياتهم، وكان اكثرهم من ذوي الكفاية والقوة حتى غلب على الظن ان الاستعمار الغربي لم يجد مقاومة الا حيث يوجد مسلمون.

وليس في ذلك شيء يدعو الى الدهشة او العجب، فقد كانت تركيا رأس العالم الاسلامي يومئذ، ولكن تركيا فقدت على مر الايام قوتها العسكرية ففقدت بالتالي هيبتها السياسية واخذ خصومها يثخنونها جراحا حتى شبهت بالمصارع العملاق الذي عاش حياته يطوح بخصومه يمينا ويسارا ويلوي اعناقهم عنوة واقتدارا ثم كبرت سنه وضعف على الايام جلده فخرجت له ضحاياه من كل جانب.

وقد نجم عن ذلك التدهور في قوة تركيا ان سقطت اجزاء الامبراطورية

---

(1) المغرب الاقصى ص 93 ط القاهرة 1519م

العثمانية في آسيا واوربا اقليما بعد اقليم وقطرا بعد قطر وقد كانت اسبق الاقطار الى المصير المحزن: الجزائر فسقطت في يد الفرنسيين في 1246هـ/13 من يولية 1830م ولحقت بها تونس في 1298هـ/12 مايو سنة 1881م ثم مصر فسقطت بيد الانكليز في 1299هـ/14 سبتمبر سنة 1882م وطرابلس هي الاخرى كذلك سقطت بيد الطليان في سنة 1329هـ/14 1911م ثم مراكش التي اعلن عليها الفرنسيون الحماية في 1330هـ/30 مارس1912م ».

على ان هنالك لاضمحلال السلطة التركية من الجزائر وتدهور حكومتها وسقوطها بيد الفرنسيين عوامل اخرى متوافرة كثيرة وهي في آن واحد متنوعة مع انه كان العامل الواحد منها يكفي للاتيان على الحكومة الجزائرية واسقاطها من اساسها. فكيف وهي كثيرة عديدة كما قلنا...

وان اول ما يتجلى لنا من هذه العوامل ان ظهر ما بين صفوف الحكومة الجزائرية اختلاف في صورة تنافس بل عداء وتحاسد بين القوى التي وكل اليها حماية الدولة الجزائرية والقيام على شؤونها، وبين وجاقات الانكشارية وطوائف المقاتلة والبحارة الاندلسية والمغربية وبين الباشا المعين من قبل السلطان وبين الديوان المكون من الاهالي لمعاونته في ادارة البلاد نفسها، وقد اندفع الناس يومئذ الى مقاتلة بعضهم لبعض واجتهادهم في الكيد والتدبير في ذلك ليل نهار مما دعا الى انتشار الفوضى بين الرعية وفشو اغتيال الدايات فقتل فيما بين سنتي 1671 و1830م النصف من عددهم اي 14 من 28 دايا، مما اخذ يمتص حيوية البلاد شيئا فشيئا. وضف الى ذلك ما كان يوجد من بين صفوف الجيش التركي من اناس هم خليط من يهود ويونان وغيرهم ممن تجندوا في الجيش التركي على انهم مسلمون متوسلين الى ذلك باجراء عملية الختان عليهم ولكنهم يبطنون بخلاف ذلك كله!!...

ثم اننا نرى الجزائر الى ذلك في اوائل القرن الثاني الهجري - الثامن عشر الميلادي - اخذت تتساقط من ذرى مجدها الذي كانت مشتهرة به بين الدول في الميدان البحري من التفوق المنقطع النظير فانخفض عدد وحدات اسطولها الى النصف مما كانت عليه من قبل، في حين ان القوى البحرية الاجنبية قد بلغت من التقدم والرقي في ذلك الحين مبلغا مرموقا، وبالرغم من هذا لم نر لدايات

الجزائر التفاتا الى اصلاح حالة الاسطول وتقوية جبهتهم!... واخذ ايراد الدولة من القرصنة يقل بتقدم الملاحة الاوربية واحتياط السفن المارة بسواحل افريقية، فلم يزداد دخل الدولة من هذا الباب يومئذ على مائة الف من الفرنكات بينما انه كان يفوق هذا المبلغ بأضعاف مضاعفة...

واقبلت مع ذلك الاوبئة والامراض الفتاكة والطواعين والمجاعات تعتري هذا الوطن ففتكت بالسكان حتى انه كان يموت كل يوم مئات من الناس، اذ في سنة واحدة فقط 1201هـ/1787م) مات لهذه الاسباب 17000 نسمة، وفي صيف سنة 1232هـ/1817م سجل موت خمسمائة نسمة كل يوم ؟!... وكلهم مصاب بالطاعون وقد انحط مستوى سكان العاصمة في يوم من الايام الى 30000 نسمة بعدما كان اربعين الفا، ولم تكن الجزائر لتلقى ادنى عناية بتدبير صحة سكانها من طرف الحكومة حتى هبطت الامراض بالناس في البلاد الى الحضيض، ومع ذلك فقد كان من بين ظهرانيهم اطباء اجانب فكان من الواجب على الحكومة ان تستعملهم لحماية ارواح الرعية ولكنها بكل اسف!... اهملتهم حتى تفشى الداء واستفحلت العلة.

ثم أن بانقطاع عدد المتطوعين في الجندية وقع انخفاض في عدد الجيش التركي بالجزائر لان المحصورين في اسبانيا من المسلمين قد انتهوا ولم يفكر الدايات في اسلوب يعوضون به ما تهاوى من جيوشهم حتى اصبح عدد الجيش الجزائري كله لا يزيد عن ستة آلاف جندي فقط بل انخفض في بعض الاحيان الى 3681 جنديا فقط، ولو ان عناية الحكومة التركية التي كانت متجهة كليا بحكم وضعيتها البحرية مع خصومها الاجانب الى تكوين جيش بحري - وبحري فقط - فلو انها اعطت شيئا من اهتمامها الى تكوين جيش نظامي بري ايضا من الاهالي لما كان انهيار العسكرية البرية يقع بهذه السرعة، ولو كان العدو يتغلب عليها بسهولة برا من ناحية سيدي فرج وتسقط البلد في زمن لا يتجاوز قدره قبسة العجلان وان ما كان هنالك موجودا من الجند البري فانه كان مشتغلا عن حماية البلاد بجلب المغارم وقمع العصاة المنشقين من الرعية بحيث لم يصطدموا الفرنسيون بالمقاومة المنتظرة التي كان يجب ان يصطدموا بها اثر نزولهم بساحل الجزائر، واذا التفتنا كذلك الى المقاومة البحرية وجدناها ايضا ضئيلة من

اجل ما فقدته الحكومة الجزائرية من اسطولها العتيد صيف سنة 1233هـ/1816م وما فقدته من وحداتها كذلك في تعزيزها للقوات العثمانية ضد الثورة اليونانية وحلفائها سنة 1237هـ/1821م وما اضاعته من المراكب والسفن في واقعة ناوارين 1242هـ/1827م.

كما انه احاطت بالجزائر يومئذ دواع اخرى سياسية واقتصادية كانت شديدة الخطر على كيانها والحفاظ على وجودها ومن اهمها ان كان قد اتخذ ولاة الامر قرارين كان لهما اسوء الاثر على اقتصاد البلاد وسياستها الدفاعية والحربية ويتعلق القرار الاول الذي اتخذ عام 1208هـ/1794م بمنح حق شراء القمح وتصديره، لشخصين من اليهود هما بوشناق وبكري - او بو خريص - اللذان جمعا ثروة طائلة من تموين الجيش الفرنسي، والجيش الانكليزي ايضا المرابط بجزيرة مالطة وجبل طارق. ويتعلق القرار الثاني الذي اتخذ في سنة 1213هـ/1799م بمنح نفس التاجرين السابقين حق احتكار الخشب المستورد من المنطقة الشرقية من بلاد القبائل وتزويد مصانع السفن به، وكانت عائلة المقراني منذ سنة 1114هـ/1702م هي صاحبة هذا الاحتكار ثم تخلت عنه، وبالاضافة الى ذلك فقد حصلا على حق المتاجرة في المنطقة الواقعة بين بجاية والقالة، وبسبب ما كان ينطوي عليه صدر هذين التاجرين من الجشع والخيانة لم تتمكن البحرية الجزائرية من استعادة قوتها وجبر الخسائر اللاحقة بها، لانهما لم يقنعا بالتعرفة التي حددت لهما في الربح منذ سنة 1113هـ/1702م وقدرها 20% وكانت، تدفع لهما تلقاء تكاليف النقل، ولما رفضت الحكومة رفع هذه التعرفة عمدا الى خفض الاجور التي كان يدفعانها للعمال، وقاما بالرد على هذا القار بمنع شحن السفن بالخشب الذي كان ينقل الى العاصمة فبقي مكدسا على الشاطىء معرضا للتلف، وبذلك لحق البحرية الجزائرية من الضعف والتخلف ما ادى الى سقوطها امام اساطيل الخصوم.

وضف الى ذلك عدم اعتماد الدولة في مداخلها على مورد منظم ثابت يضمن ثبات الحكومة واستمرارها فثبتت في مكانها جامدة لم تتطور مع الزمن التطور اللائق بروح العصر مثل جاراتها وخصومها من دول البحر الابيض المتوسط بحيث تقدمت هذه تسير بخطى واسعة نحو اقامة دعائم الحضارة المادية التي نشاهد آثارها اليوم مندفعة نحو نهضة شاملة في مختلف ميادين الحياة. فسبقتها في

التنظيم الإجتماعي والحربي والبحث العلمي وتخلفت الحكومة الجزائرية في هذه الميادين كلها.

وكما نرى ايضا منشآت الفرنسيين التجارية وشركاتهم الاقتصادية متمركزة بمحطاتهم المنتشرة بالسواحل الجزائرية ومن ورائها الحكومة تحمي رجالها حق الرعاية عليهم ويساعدهم في مقاصدهم اليهود الذين استبدوا باحتكار القمح والخشب.

وضف الى ذلك انحطاط اخلاق الرؤساء والموظفين الغير الاكفاء من ضعاف الارادة وفاقدي الضمير وعديمي العزيمة من متأخري الدايات واقترن ذلك بصعود نجم الجندية واجتماع القوة كلها بيد الجند وقادتهم الذين لم يكن لهم من الغيرة الوطنية ادنى نصيب، اذ انهم وفدوا على الجزائر او جيء بهم من الاناضول كجنود غرباء يقضون تجنيدهم في وطن اجنبي عنهم مثلهم في ذلك مثل الجنود المرتزقة فكل ما يأمله الجندي في حياته العسكرية التشوف الى الحكم والترقي في مناصب الحكومة واشباع لذته، مع عدم اندماج الاتراك في المجموعة الشعبية من الطبقة العاملة، ومرت فترة زمنية ادرك الامة فيها فتور عميق فلم يعد للديوان حول ولا طول وترك الناس ادارة البلاد لمن شاء يتصرف فيها كيف شاء، ومال الوزراء الى الدعة وتوسدوا الراحة وانغمسوا في الملذات وحذا حذوهم كبراء الموظفين فلم يكن ليعني «اغا المحلة بأن يناقش الداي في شأن الاسطول، ولم يهتم «الخازندار» بشؤون المال، فترك هؤلاء العمال جميع شؤون الدولة ومصالحها بيد الداي يديرها ويتصرف فيها حسب مقدرته وكفائته، فثقلت بذلك عليه الامانة فسلمها هو بدوره الى الجند واقتفى اثر اصحابه. ويذكر لنا الزهار في مذكراته وقد كتبها على عهد الداي حسين -: ان الداي في نفسه كان يلتزم احكام الشريعة المطهرة اما عماله على اهل البادية فقد ظلموا وجاروا على الرعية [1].

وكل هذا وقع في اواخر القرن الثامن عشر الميلادي: عصر النهضة والقوة وعصر ارتكاب الاخطار والاهوال والمغامرات فلو ان اولئك الدايات تفطنوا لهذه الفرصة الطيبة واجتهدوا جادين في تنظيم سياستهم نحو الجزائر واعدوا

(1) احمد توفيق المدني: مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار ص 176 ط الجزائر 1974م

العدة لمقاومة كل عدوان يراد بهم لافادهم ذلك كثيرا وافلتت البلاد من المصير السيء الذي لاقته، ولقد شاهدوا كيف كانت تواجد العداوة تتبدي لبلادهم وانياب الشره تتكشر في وجوههم وكيف كانت ايدي الغزاة تنوشها ومع هذا لم يتفطن احد من هؤلاء الحكام الى ما يراد ببلده ليحسب للمستقبل حسابه فيأخذ نفسه وبلاده بالتقية من شر متوقع والحالة ان الله قد منحهم ارضا يسهل الدفاع عنها ولهم قدرة على ركوب البحر والتغلب على اخطاره وكان لهذه القدرة خطرها في الصراع المقبل عليهم، ومع هذا فلم يغني عنهم ذلك شيئا.

ثم ان الحكومة الجزائرية على صلة بأوروبا فهي دائماً على مرأى ومسمع مما هي قائمة به هذه الدول من الاعمال التي تستعملها لتدافع بها عن اوطانها وكان الاخذ باصلاح الحال وتدارك الموقف عليهم وقتئذ سهلا ميسورا ولكنهم ابوا الا القهقرى في زمن اشتد فيه سباق الناس الى الامام.

ومن هنا عرفنا ان اعظم الاسباب في سقوط الجزائر لقمة سائغة بين يدي الاستعمار هو انه لم تكن بها حكومة بالمعنى الذي يفهم جيدا من هذا اللفظ، وكل ما كان هنالك انه كان بها حاكم يستعين في تصريف الامور بطائفة من الاعوان والوزراء ويشرف على نفر من الجند في البر والبحر، ولكنه لم يكن ذا سلطة فعالة محترمة فقد رأينا انه على الرغم من معاهداته مع الدول لم تسلم السفن المتعاهدة من الاعتداء والاذى. اذ كانت السلطة موزعة توزيعا غريبا بينه وبين رؤساء الجند. فلم يكن ليستطيع ان يقضي امرا او يعقد رأيا بل كان في معظم احيانه موزعا بين اراء هؤلاء الاجناد ويمثل هذا اللون من الحكم لم يكن في مقدور الجزائر ان تثبت تحت الضغط الاوربي، فقد قلل ذلك من احترام الدول لها وهون عليها امرها وجعل الاستيلاء الغربي على الجزائر ضرورة تقتضيها مصلحة البلاد نفسها، وجعل الدول ترضي عن عمل فرنسا وتقف ساكنة حيالة وتارة مشجعة له، وكان في استطاعتها ان تفعل شيئا لحماية الجزائر لو ارادت سوى حكومة بريطانيا فاننا نراها سجلت اعتراضها ضد هذه الحملة وذلك خشية ان تعمل فرنسا عرقلة المواصلات البحرية بين القاعدتين البريطانيتين: مالطة وجبل طارق.

وفي نفس الوقت نرى بلاد المغرب العربي فقيرة فقرا معنويا وماديا أيضا من

حيث عجزها عن القيام بانشاء دولة شديدة القوى حديثة النظام تجعلها قادرة على النهوض بأعباء التنظيم والدفاع العصري، ومرد ذلك كله راجع الى قلة او عدم استغلال موارد الرزق في البلاد، وهذا هو الفقر المادي الذي نقصده، ثم أن سوء التصرف فيما كان يرد من المال، فان كل ما كان يرد في تلك الاعوام من ايراد المغرب كله لا يكاد يكفي لانشاء جيش قوي صحيح، ولم يكن ليمكن الحاكمين من مباشرة نواحي الاصلاح لو طلبوا ذلك، ولا يعلل هذا الانحطاط الذي أصاب موارد البلاد بانصراف اهلها عن استثمار موارد الخيرات الموجودة ببلادهم واهتموا بكسب الرزق من وجوه أخرى كالقرصنة، فنضبت موارد البلاد مع توالي الاهمال يوما بعد يوم، فاجتمع اهمال الحكومة الى اهمال الشعب وتدهورت مرافق البلاد تدهورا سريعا خطيرا جعلها في حال هي اقرب الى الافلاس والاملاق.

وعلى الرغم من أن استثمار هذه الموارد لم يكن بالامر العسير على أهل البلاد فـإن الحكومة اهملته وانصرفت عنه، فمنحت صيد المرجان الى شركة فرنسية احتكارا، وكان في امكانها هي صيده والكسب من ورائه محقق، وقس على ذلك ما اصاب موارد الخير الاخرى كالزراعة وتنظيم (ثمارق) البلاد وما الى ذلك، وقد كان هذا الفقر سببا في طائفة شتى مما اصاب البلاد من الشرور، وهذا الفقر المكتسب هو ما دفع بحكومة الجزائر الى الاستمرار في محاولة الكسب عن طريق القرصنة وجعل اقلاعها عن ذلك امرا خطيرا على ماليتها، فلم يستطع الحكام الاقلاع عنها البتة على الرغم مما بدا من اخطارها وما يهدد سلامة البلاد من التلف والضياع.

وكان هذا العوز ايضا داعيا آخر من الدواعي التي كانت سببا في افساد العلائق بين الجزائر وبين دول اوربا، اذ كانت هذه الدول تأبى مكابرة الاعتراف لحكومة الجزائر بصفة الدولة المحترمة ما دام حاكم الجزائر معتبرا في نظرهم رئيس عصابة من اللصوص لا بد أن تدفع له اتاوة مالية حتى يكف اذاه ويمنع أفراد عصابته عن العدوان والاذى، فكانت لذلك العلائق بين الجزائر والدول شاذة لا تشرفها بحال ولا تعطى فكرة طيبة عنها، وأرى ان هذا هو السبب الاساسي الذي جعل الدول ترضى على عمل فرنسا وتتركها تفعل بالمغرب العربي ما تريد.

ثم أن اسلوب الحكم التركي بالجزائر كان قد انتهى الى مثل ما انتهى اليه في عامة الاقطار الاسلامية الاخرى المنضوية تحت العلم العثماني من انتشار المظالم والزيغ عن الصواب باحتقار الاهالي والعمل على الاستبداد بالحكم دون أهل الوطن من سكانه الاصليين وابعادهم عن المناصب الرئيسية اللهم الا ما كان هنالك من مناصب ثنوية تافهة ليست ذات أهمية كبيرة ولا شأن لها كما جرى على ذلك الاستعمار الفرنسي بعدهم وهو نفس الشيء الذي انكره المؤرخ الفرنسي سيديو على الاتراك حيث قال:

«وتولى خير الدين - مملكة الجزائر نيابة عنه - أي السلطان العثماني - وأتى اليه من الدولة عساكر جاروا على العرب وجبروهم بالسيف على الطاعة ففقدت العرب الطباع الشريفة والهمم الكريمة واستبدلوا لباس العنفوان الطبيعي بلباس الذلة والمسكنة المضروبة عليهم الى ايامنا هذه»[1] وقد جعل الاتراك المناصب والوظائف الحكومية العليا كلها مقصورة على طوائف الانكشارية ووجاقاتهم خاصة، الامر الذي بلغ ببعض شعراء الجزائر الى مهاجمتهم والحط من شرفهم ومن ذلك قول ابي عثمان سعيد بن عبد الله المشهور بالمنداسي المتوفي منتصف القرن الثاني عشر الهجري من قصيدة له في الموضوع:

فما دب فوق الارض كالترك مجرم ... ولا ولدت حواء كالترك انسانا
ولا طار مثل الترك للسمع طارق ... ولا وجد الشيطان كالترك فتانا
عتوا واستفزوا المسلمين من القرى ... وقد عبدوا حمر الدنانير أوثانا

الخ...

ومما يحقق لنا ذلك ما حكاه الوزير محمد بن عثمان المكناسي في رحلته (الاكسير في فكاك الاسير ص 164 ط الرباط 1965م) قال في حديثه عن الاسارى الجزائريين الذين وقعوا في ايدي الاسبان وكان الوزير هذا موفدا من طرف سلطان المغرب محمد بن عبد الله العلوي الى ملك الاسبان لفك الاسرى قال:

... وبعد ايام ورد جواب الطاغية - ملك الأسبان - فأمر حاكم

(1) خلاصة تاريخ العرب ص 190 ط القاهرة 1309 هـ

قرطجنة أن يسرح لنا كل من اردنا ، وذكرانه لو لم يكن عنده اسرى بالجزائر فيحتاج الى ما يفدي به اخوانه لسرحهم اجمعين ، فأخرجت بفضل الله تعالى وبركة سيدنا - سلطان المغرب - ايده الله - اثنين وتسعين اسيرا زيادة على الثلاثين الاولين ، تخيرنا منهم الصبيان الصغار الذين يخشى عليهم الكفر والعياذ بالله والشيوخ العاجزين وذوي الاعذار ، ومن طال مكثه في الاسر نحو الثلاثين سنة.... واكتريت لهم مركبا ووجهتهم من قرطجنة الى سبتة... والاسارى المذكورين المسرحون كلهم من أهل الجزائر واياالتها...

وقال في ص 165 : كان سيدنا ايده الله قبل هذا بنحو اربع عشرة سنة تكلم مع الطاغية وحتم عليه في فداء الاسارى المذكورين بالمعاوضة بالاسارى الاسبنيول الذين بالجزائر فأسند الطاغية الامر الى سيدنا نصره الله فبعث الى عامل الجزائر فحثه على تتميم هذه الحسنة ، فأعلم الطاغية ، فحمل جميع اسارى المسلمين في المراكب ووجههم الى الجزائر بقصد مفاداة المسلمين بالنصارى ، ففدى عامل الجزائر الترك وامتنع عن فداء العرب ، وفدى من بقي عنده من النصارى بالمال ، ورد المسلمين الى الاسر ببلاد الكفرة فانظر الى الفعل الشنيع والامر الفظيع كأنه لم يبلغه قول رب العالمين: انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب.. وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من اعتق رقبة اعتق الله بكل عضو منها عضوا من النار... وكيف يحل له أن يفرق بين المسلمين وكلهم اخذوا تحت علمه ، فيفتدى اخوانه الترك ويترك اولاد العرب على انه بيده من اسارى النصارى ما يفتدى به اسارى المسلمين كلهم ويفضل بيده نصارى كثيرون فآثر الدنيا وفدى النصارى بالمال ورد المسلمين الى الاسر ببلاد الكفرة....

ولهذا وذاك نرى أهل البلاد منصرفين عن الدولة نابذين طاعتها ، فانحطت البلاد وضعف شأنها تبعا في ذلك لما حدث في غيرها من البلاد التي كانت منضمة الى الحكم العثماني ، وذلك ما دفع بعبد الرحمن الكواكبي وامثاله من العلماء الوطنيين الاحرار الى رفع غيرتهم وارسال صرخاتهم المتواصلة تنديدا بسياسة الاتراك الديكتاتورية العاتية والجبروتية و المستبدة والعنصرية المقيتة[1].

---

(1) راجع طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبي ط القاهرة بدون تاريخ.

ومما يزيدنا تأكيدا في التمسك بهذا الرأي ما نجده في الوثيقة التي بعث بها أهل تلمسان - ابان سقوط الجزائر - الى سلطان المغرب الاقصى المولى عبد الرحمن بن هشام (فاتح ربيع الاول 1346 هـ) من التصريح له بالانكار على الحكومة التركية الجزائرية وابداء رغبتهم في مبايعته والحاق بلادهم بمملكته وقد كان السلطان المذكور فض ذلك من قبل بحجة أن لاهل الجزائر عهدا وذمة في ربقة السلطان العثماني صاحب القسطنطينية، فجاء في هذه الوثيقة التلمسانية ردّاً على هذه الحجة ما يلي:

انما له - أي سلطان القسطنطينية - مجرد الاسم هنالك، وعامل الجزائر انما كان متغلبا، وبالدين متلاعبا، فأهلكه الله بظلمه، وتطاوله على عباد الله وجوره وفسقه ان الله يمهل على الظالم حتى يأخذه، فاذا اخذه لم يفلته، ويدل على تغلبه واستقلاله عدم وقوفه عند أمر العثماني وامثاله بل لا يكترث به أصلا، ولا يتبع له قولا ولا فعلا كيف وقد امره ان يعقد مع النصارى صلحا فلم يقبل له قولا ولا نصحا، وطلب منه بعض الاموال، ليستعين بها على ما حل به من النصارى من الاهوال فامتنع غاية الامتناع ولم يمكنه من شبر منها فضلا عن الباع حتى اخذها العدو الكافر، وهذا جزءا كل فاسق فاجر، مال جمع من حرام، سلط الله عليه الاعداء اللئام،وهذا كله من هذا المتغلب متواتر مشاهد بالعيان، مستغن عن اقامة الدليل والبرهان[1]

واضف الى ذلك اهمال الاستفادة من سلوك دول اوربا ذاتها في تطوراتها الحديثة والانتفاع بما كان مفتوحا بينها وبين الجزائر من ابواب المعاملة في ميدان السلم والحرب، فكان من مقدور اهل الجزائر ان يتفطنوا الى اسرار تقدم اوربا فيسايروها ويعملوا على مقتضى منهاجها التقدمي، ومعلوم أن هذه كانت تدفع الى الجزائر اتاوة مختلفة في أكال متنوعة: اسلحة وذخائر حديثة الطراز ونقودا وغيرها... فكان من اليسير على اهل الجزائر الاستفادة من ذلك الاتصال والاستعانة به، ولكنهم قصروا في ذلك واهملوه، بل ولعلهم جهلوه او تجاهلوه... ولا عذر لهم في ذلك.

---

(1) الاستقصاء لاحمد الناصري السلاوى ج 9ص27 - 28 ط الدار البيضاء 1956م

وبعد هذا يتبين لنا وان ليس هناك من حرج اذا رأينا الشعب الجزائري الابي الغيور يثور احيانا - وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر بالخصوص - على الحكم التركي فيخلع طاعته وينشد استقلاله، بل وليس عليه من ذنب كذلك اذا رأيناه يتواثب بالدولة رافعا راية العصيان فقد قيل بما قيل: اذا لم يكن للمرء في دولة امرىء

نصيب ولا حظ تمنى زوالها

وما ذاك عن بغض لها غير انه

يرجى سواها فهو يهوي انتقالها

بل تراني استطيع ان اذهب الى ابعد من هذا في الاستنتاج ولربما يراه بعض القراء مبالغة جريئة او هوة اعجب واغرب من ذلك! فنقول: انه لمن الضروري لدى الدول المعادية - ومنهم الاسبان - والحال في الجزائر كما ذكرنا - اذا هم انتهزوا هذه الفرصة وحاولوا فتح المغرب من جديد وذهبوا يهاجمون مدنه الساحلية المرار العديدة فخربوا وهران وغيرها!... وليس على الفرنسيين كذلك من حرج أو ذنب اذا هم فكروا في غزو المغرب من جديد، واذا كان قدر تعذر عليهم ذلك اولا لكثرة الشواغل بحوادث الثورة القائمة يومئذ ببلادهم، فلا ملام عليهم بعد ذلك على الاقل من انتهاب اموال المغرب الاوسط متى سمحت لهم الفرصة باستيراد القمح منه وتأجيل الدفع مع التسويف والتماطل فيه حتى تتراكم ديون الجزائر على فرنسا وتتراكم... وتتراكم.. اذ كانت هذه الحكومات لا ترى اي معرة او حيف فيما اذا قامت بمثل هذه الاعمال التعسفية ما دامت الجزائر على هذه الصفة من الاستنامة واللامبالاة فان فرنسا كانت تعرف من نفسها وانها لا تسدد شيئا من ديونها!، وان الجزائر اعجز من ان تسترد ديونها منها او من غيرها، وان الداي اقل عناية بشؤون بلاده من ان يتعب الفرنسيين بالمطالبة والالحاح، فليس عليها اذا - امام محكمة الاجحاف والطغيان! من جناح في تلاعبها بمالية الجزائر، اذ ليس هنالك رادع ولا زاجر بل ولا ترى يومئذ انها في حاجة او ضرورة ملحة عليها في غزو المغرب ما دامت تفوز منه بما يقدر بملايين الجنيهات قمحا بلا مشقة ولا نصب، بل ولعل مصلحتها تستدعي ان ترفض التعاون مع

الدول في القضاء على قرصان الجزائر ما دام بقاء الجزائر والقرصان يفيدها ويؤذي عدوتها انكلترا.

افلا يكون ما ذكرناه من حال الدولة التركية بالجزائر ما فيه عبرة وعظة لحكامها وقادتها المتأخرين لو كانوا يعقلون؟... ولكنهم ارسلوا انفسهم مع التهاون والقاء الحبل على الغارب فأصبحوا في خبر كان.

ومن هنا تبدأ قصة الفرنسيين في المغرب وهي - كما يذكر حسين مؤنس - قصة طويلة محزنة لا تخلو من وجوه الخير للبلاد واهلها، وقد كان هذا مصير المغرب على اي حال ما دامت اوربا تجاوره ويثور في نفسها شعور الصليبيين نحوه بين الحين والحين، وما دامت العلاقة بين الجانبين قد ظلت قرونا طويلة لا تتغير ولا تتبدل. جهاد دائم وغزو لا ينتهي وحرب لا يخمد اوارها، وقد رأينا كفة المغرب خفيفة حتى في ايام قوته وعلو شأنه، ورأينا كيانه مهدد وادارته مختلفة وشؤونه فوضى لا آمل للخير فيها، ورأينا السياسة التركية تزيد في ضعف البلاد وتثير عليها عداء العالم الاوربي، فكلما عدا الاتراك على المسيحيين في شرق اوربا تطلعت الدول الى اخذ الثأر من المغرب، وبهذا شقى المغرب بالاتصال بالمجموعة الاسلامية في هذه الاونة شقاء عظيما، وعرفنا ان فرنسا كانت تبيت له هذا المصير منذ حين، وان كانت تتربص به الدوائر وترقب الفرصة المواتية، فلم يكن سقوط الجزائر بالامر البعيد والاحتمال او المستغرب، بل كان نتيجة طبيعية جدا لها اسبابها القريبة والبعيدة ونتائجها البعيدة القريبة كذلك[1].

وهذه قصيدة شعبية من نوع الشعر الملحون نظمها اديب الجزائر ومفتيها في التاريخ الشيخ محمد ابن الشاهد الصغير رثاء لمدينة الجزائر التي سماها (مزغنة) كما هي معروفة به، نسبة الى سكانها الأولين: بني مزغنة. سبكها هكذا في اسلوب شعبي ليسهل تناولها على سائر الاوساط ويتداولها الناس، والا فالناظم فحل من فحول الادب العربي كما تشهد به قصائده البليغة وموشحاته قال:

(مزغنـــــة) من يطبـــــك نعطيـــــــه روحي بشارا

---

(1) راجع الشرق الاسلامي للاستاذ حسين مؤنس

يجبر كسران قلبك   ويباعدوك النصارا
الناس خانت بجربك   ظنيت كانوا سكارا ظ
العين ضالة تنوح   والقلب صاعد نفاسو
الهم نادي وبرح   فالقلب ساكن جناسو
والصبر بالهزم صرح   والجفن عاد انعاسو

العقل دهشان تالف   والوحش غم المدينا
الذمي زهوان مخالف   يضحك ولا لو غبينا
ما طاق قلبي يوالف   واجب فراقك علينا

يا دار هاتي وداعك   بالدمع تموج مرارو
للغير حنت بقاعك   وصلك تعذر مزار
فالعهد خاني تباعك   ليلى تخبا نهارو

ما اصعب يوم فراقك   والقلب لبا صدودي
في القلب هاجت شواقك   والدمع جرح خدودى
التكفر عمر سواقك   لو صبت نلحق جدودي

بالقهر سكنو ديارك   في القلب صب مراير
الغيار قطع اوتارك   والفكر في العيش حاير
يا عين فجري نهارك   وابك لذل الجزاير

دخلوا براجك ورفدوا   ما فيه للحرب مقنع
المال فرحوا بعدو   وفدوه والعين تدمع
الفساد طوع يدو   والدين الدين يمنع

الشوق ردموه بالفاس   والاسلام حطوا اعلامو
بالقطيع شربوه والكاس   يهود سكروا وصامو
قطعوا اشجارك والاغراس   والناس ضجوا وهاموا

في البر ساحوا ارجالك   واخرين في البحر ساروا
بالغبن باعوا نوالك   والجفن تهيمن امطاروا
رب يسلك اوحالك   باللطف تجري اقداروا

وهذه قصيدة بالفصيح نظمها الشاعر نفسه – محمد ابن الشاهد في الموضوع فقال :

أمن صولة الأعداء سور الجزائر سرى فيك رعب أم ركنت الى الأسر؟!.
لبست سواد الحزن بعد مسرة وعمت بواديك الفتون بلا حصر
رفضت بياض الحق عنك فأصبحت نواحيك تشكو بالأمان الى الجور
وعطل درس العلم والجهل عسعس ونادى بتعطيل العلوم على النشر
وناح على الأسوار طير خرابها فأصبح فأس الهدم ينبيء بالغدر
أصبت بسهم عن عيون سهامهم تزيد عن العميان بالشفع والوتر
وأظهرت للأعداء وجه ملاحة وأبرزت للأحباب وجهاً من النكر

ثم يبكيها ويندبها ، ويصف ما حل بها من المصائب من هدم وتدمير وقطع للأشجار فيقول :

عليك لهذا أجريت نهر مدامعي وفيك استحق العقل سكراً بلا خمر
نقضت عهوداً بالوداد تقررت وواليت أقواماً تمالوا على خسر
فجاسوا بروجاً للحروب تشيدت وداسوا دياراً بالنواهي وبالأمر
ونالوا من الأموال يسراً ميسراً وفازوا بها والقلب يصلى على جمر
ومن لطفه ان السيوف أتت لنا وسلت على الأشجار تقطع بالثمر

ويختم الشاعر قصيدته هذه بوصف فضائح المستعمرين الغزاة ويبكي حظ الجزائر ، ويرى أنه مهما بكى عليها فإن بكاءه دون هذا المصاب ، يقول :

فضجت أناس والعقول تولهت وباتوا على مر الفراق بلا فكر
فباعوا نفائيس المتاع ببخسها وهاموا حيارى في الفيافي وفي البحر
فآه على جهد وما به منعة وآه على دار يسود بها غيري
أموت وما تدري البواكي بقصتي وكيف يطيب العيش والأنس في الكفر؟!
أيا عين جودي بالدموع سماحة ويا حزن شيد في الفؤاد ولا تسر
ويا دار تدبير الأمور لخالقي فصبراً عسى عسراً يبدل باليسر

وقد استجاب الله دعاء هذا الشاعر الجزائري فبدل عسر الجزائر يسراً وتحررت من سيطرة الأجنبي واستعادت سيادتها .

سياسة الاتراك بالجزائر:

كان اليوم الذي قضى فيه الاتراك على الدولة الجزائرية دولة بني عبد الواد الزيانية سنة 953هـ/1556م هو اليوم الذي اكتمل فيه الاستيلاء التركي التام على الوطن الجزائري، ثم انتهى دور الاتراك هذا بتوقيع معاهدة الاستسلام للدولة الفرنسية التي امضاها الداي حسين باشا سنة 1246هـ/1830م ولقد شاهدت الجزائر فيما بين هذين التاريخيين احداثا كثيرة وتقلبات في موجات حربية وسياسية عظيمة وتدافعتها تيارات صاخبة فارتطمت بمعاطب ومهالك موبقة، كما طرأت على حياتها اليومية تقاليد وعادات جديدة في تطورات عديدة سواء ذلك في نظم الحكم او اساليب العيش لم يكن لها به عهد من قبل كما مر بنا تفصيله فيما سلف من الفصول حسب المناسبة فذكرنا هناك صفة علائق الحكومة الجزائرية التركية بالباب العالي باستانبول وقلنا انها كانت ضئيلة، وضئيلة جدا لا سيما في العهد الاخير حيث كانت اكثرية الطبقة الحاكمة هنا طبقة خسيسة لقيطة، فان سلاطين آل عثمان لم يكونوا ليخكموا الجزائر يومئذ من دار سعادتهم حكما مباشرا، وانما كان يحكمها باسمهم جماعة من ضباط الجيش ورياس الاسطول المغامرين المنتمين الى عدة قبائل وشعوب يخيم بعضها قرب خط الانقلاب ويسكن بعضها غير بعيد في منطقة الجليد، الخ... كما كنا اشرنا كذلك الى ما كان عليه الدايات والباشاوات وسائر رؤساء البحرية وزعماء طوائف الانكشارية من الاستبداد بسياسة البلاد وظلم العباد، الامر الذي ادى ببعض كتاب وشعراء منتصف القرن الثاني عشر للهجرة الى مهاجمتهم ووصفهم بالظلم حتى نظم فيهم ابو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي قصيدة قال فيها:

بنى السدذ والقرنين للناس رحمة   فيالتـه من شوكه الترك هنانا

وجاء في رجز لمسلم بن عبد القادر الزائري الوهراني المتوفي سنة 1249هـ/1833م قوله عن الترك:

فانشغلوا بالظـلم ليس من عدل   فاخـذوا اخـذاً وبيـلا بالمهـل
لما نسوا مـا ذكروا بـهختـم   عـلى قلوبهم اللـه وانتقم

وهكذا نجد الورثيلاني يصفهم كذلك بهذه الصفات في مواضع من رحلته[1].

اضف الى ذلك ما كان يقع بينهم من التنافس على بسط نفوذهم والمقاتلة الشديدة التي كانت في سبيل التهالك والتنازع على الملك والاستيلاء على كرسي الرئاسة والجاحشة عنه او عن صحونه وموائده الشهية مع الضغط على ابناء البلاد وارغامهم على الخضوع لسيطرتهم الاستبدادية دون ترو او نظر الى مستقبل البلاد والعمل على اسعاد الوطن وترقيته كما هو المفروض وكما نص عليه سلاطين آل عثمان في كثير من المناسبات فانه قد جاء وثيقة هامة من دفتر (مهم) رقم 10 حكم 266 بتاريخ 978هـ باسم السلطان سليم يوصي فيها والي الجزائر قلج على بما يلي:

« واوصيكم بحفظ البلاد وصون العباد ودفع المحن والرزايا عن جميع الرعايا، واحياء شعائر الدين واجراء قوانين سيد المرسلين ليكون اهل الاسلام وامة خير الانام في تلك الاراضي المباركة في ظل ظليل، وعدل جميل، تحت كنف حماية سلطاننا السنية، وفي زمن خلافتنا الفائقة، على ايمانهم وعن شمائلهم محفوفين بكمال الراحة، واجمل الاستراحة، منعمين آمنين مطمئنين بحيث لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ».

وكما جاء في وثيقة اخرى من دفتر (مهم) رقم 14 حكم 1597 بتاريخ979هـ/معربا قال السلطان للوالي المذكور:

« ... كذلك يجب عليك حفظ وحراسة الاماكن، وحماية وصيانة الرعايا والبرايا التابعين لولايتك على ما يرام، ويجب ايضا التنبه والتأكيد على رجالك وتخويفهم وتهديدهم للحيلولة دون ظلمهم وتعديهم على احد... وينبغي تأديبك لكل من تسول له نفسه القيام بمثل هذه الاعمال حتى يكونوا بمثابة عبرة ونصيحة للآخرين واذا لم تتقيد بشروط ضبط وربط رجالك، ولم تراع واجبات حفظ وحراسة البلاد ودفع الظلم والضرر عن الاهالي، وكذلك إذا لحق ضيم بفقراء الرعية من اجل الاهمال والتساهل فلن يقبل عذرك وستعاقب على ذلك[2].

---

(1) نزهة الانظار ص 88. 89. 110 ط الجزائر 1326هـ/1908م

(2) احمد توفيق المدني: الوجود العثماني بالبلاد الجزائرية. محاضرة

ورغم كل هذا فقد وجد من الولاة والحكام من عمل على سياسة التفرقة واثارة دواعي التنافس بين الاسر ورؤساء القبائل والعشائر... فهذا حضري؛ وهذا بدوي وهذا براني وهذا تركي، وهذا عربي الخ... فثار بينهم داء الضرئير وكل ذلك يفعلونه اتقاء شر الثورات والعصيان.

ونظرا لمثل ما قدمنا من الوصايا السلطانية وغيرها من الاوامر والنواهي الصادرة عن دار الخلافة العثمانية فهناك من عمل من بعض الولاة والحكام على كسب مودة الشعب واستمالته الى الحكومة المركزية فعملوا على توطيد العلاقات مع الأهالي وسكان البلاد حيث أبقى بعضهم على تحكيم بعض الأسر الجزائرية حكماً محلياً وعمد بعضهم الى تدعيم طائفة الطرقية كالقادرية والرحمانية، ومنهم من عمل على تشجيع الصناعة التقليدية وغيرها من سائر أنواع الحرف التي يمتهنها الشعب، فلقد جاء في وثيقة لحمدان عثمان خوجة سجل فيها مناقشة وقعت له مع وزارة الحربية الفرنسية... حيث قال:

«... والترك على ضغطهم بالنسبة للدولة الفرنسية يشترون الحبوب وقت الحاجة من خزائنهم ويبيعونها للفقراء برأس مالها ويؤمنون الطرق ثم بالسيف بعد السياسة والعدل[1]، وشاهدنا على ذلك هو هذا المنشور التالي الذي كان ان اذاعه على رعيته احمد باشا آخر بايات قسنطينة دفعا للحيف والظلم عن قومه كما جاء مصرحاً به في هذا النص حيث قال:

... ليعلم الواقف على هذا المكتوب الاعظم، والمنشور المبارك الافخم،... وهو أن الامير السيد الحاج احمد باي.. حرر الرعية من كافة المظالم السابقة لا يطالبون بمغرم ولا محتمه ولا حلاس ولا جابري ولا غير ذلك من التكاليف الفارطة ولا يؤخذ منهم شيء سوى الزكاة والعشر بوجه ما أحكمه قانون الشرع العزيز للاستعاضة على جهاد الكفرة دمرهم الله تعالى، اعلم الامير وشيخ البلد والعلماء بهذا اعلاما تاما شاملا عاما، ومن أجل أن يكون هذا المكتوب للرعية اصلا اصيلا في رفع المظالم عنهم يعتمدون عليه، وأمرا منبرما ممن ذكر عند المهمات يرجعون اليه... فحسب الواقف عليه الوقوف عنده وعدم المخالفة، وكتب باذن السادات والامير بتاريخ اواخر جمادى الاولى

(1) عبد الجليل التميمي: بحوث ووثائق في تاريخ المغرب ص 58ط تونس 1972م

سنة1246هـ/1830م. وكان فيمن امضى هذا المنشور ووضع خاتمه اسفله: الامير نفسه ومعه شيخ البلد محمد الفكون، والقاضي الحنفي مصطفى ابن باش تارزي، والقاضي المالكي احمد العباسي، والمفتي الحنفي مصطفى، والمفتي المالكي عمار، وناظر الاوقاف محمد العربي بن عيسى، والخليفة مصطفى وقائد الدار الحاج محمد بن البجاوي، وشيخ العرب بن الحاج وقائد الزمالة محمد بن العربي [1] فهذه شهادة شاهد من أهلها.

ولا نزاع في كون الاتراك امة اسلامية قد استدعيت الى الجزائر لحمايتها ودفع اعدائها وخصومها الفرنج ورد عادية الاسبان عنها وعن اغلب سواحل الشمال الافريقي وليس في استطاعة احد انكار ما استفاده الشعب الجزائري في هذه الفترة من حيث المحافظة على اسلامه تجاه غزوات الإسبان وغيرهم المتكررة ضده، والعمل على توحيد سياسته وتعيين حدود بلاده وضبط تخومها الشرقية والغربية وتنظيم ادارته الخ... فهذا كله مسلم لا يتنازع فيه اثنان ولا يتناطح فيه عنزان، ومع ذلك فان الحكومة التركية بالجزائر تعتبر في نظر بعضهم مدوني التاريخ غاصبه لعرش الجزائر. فهم يقولون فلماذا اغتيل سالم التومى؟... ومن اغتاله؟ وهنا ربما نستطيع ان نقول ان ذلك وقع لما استبان منه - عروج - الخيانة والغدر في اتصالاته المريبة بالاسبان كما حصل مثل ذلك من ملك تنس ابو عبد الله من تحريض الاسبان على طرد الاتراك من الجزائر خشية زوال ملكه؛ ثم لماذا كانت الحكومة التركية هنا تحول بين ابناء البلاد من الاهالي الجزائريين وبين الوظائف والمناصب الرئيسية في الوطن؟... وقس على ذلك....

والواقع انه لم يوجد على سطح الكرة الارضية امة من الامم التى خلقها الله كانت جميع اعمالها فضائل وحسنات، أو كلها كانت مساوىء وسيئات، فلكل محاسن ومساوىء، فقد احسن العرب واساؤا، وعدل الاعاجم وظلموا، واصلحوا وافسدوا واصابوا واخطاوا، والتاريخ للزمان مرآة، كما ان اعمال الافراد والجماعات شاهدة لهم أوعليهم ناطقة بغيهم أن غووا أو برشدهم ان رشدوا ووظيفة التاريخ التسجيل والحكم للأجيال فهو شاهد الماضي ورائد

---

(1) الاخبار المبينة لاستيلاء الاتراك على قسنطينة لمحمد الصالح بن العنتري ص 87 ط قسنطينة

المستقبل، ومن أضل الضلال وامر الضرر هو ان يعمد المرء الى حقائق الاشياء فيقلبها ويحرفها ارضاء لزمرة او تزلفا الى جماعة او تسترا من عدو او اندفاعا وزاء عنصرية أو عصبية فان الحق يعلو ولا يعلا عليه وان كابر فيه المكابرون اوكره ذكره المتجبرون وانكره او كتمه المغرضون، وقد خلق الله الامم وفطرها على جبلات تتفق وتختلف عن بعضها بعضا فتراها بعواملها تسير ولأحكامها تنقاد، فخلق التركي مطبوعا على القوة والبأس والبلاء.. فلذلك نراه مولعا بها وباسبابها مغفلا ماعداها، واصطبغت ايامه واعماله واحكامه بالقسوة لما ركب في طبعه ونبت به لحمه وجرى به دمه من هذه الصفات فكان منه ماشهد له به التاريخ من مظاهر البطولة الى المغامرة مع الصرامة والحماس فهو لا يحيد عنها في كل موافقة، ان خيرا وان شرا.

العلاقات الجزائرية مع الخارج.

يحدثنا التاريخ عن العلاقات السياسية الجزائرية مع الخارج فيذكر لنا انها كانت في معظم الاوقات على عهد الاتراك هي على أسوأ مايكون وذلك بسبب الروح الصليبية التي كانت تعمل متجلية في وجه الحكومات المسيحية والدول النصرانية التي كانت تعمل ضد الجزائر بدافع الرغبة في التوسع الاستعماري، وفي التمسيح والتنصير ومقاومة الاسلام في عقر داره، وغير ذلك من مقاصد اخرى سياسيا واقتصاديا، فكانت تقابلها الاخرى بحركة الجهاد التي تزعمتها الجزائر في البحر. وبذلك كانت علاقتها اشد سوءاً مع اوروبا المسيحية، وهذا لم يكن ليمنع من تطور العلاقات وتحسنها في بعض الاحيان.

والواقع ان العلاقات بين الجزائر وسائر دول الشمال الافريقي وبين اوروبا عموما لم تكن تدخل في دائرة القانون العام، ذلك لأن المسلمين كانوا يعتبرون البحر المتوسط بحراً اسلاميا محضا، وبالتالي فليس للدول المسيحية ان تمارس الملاحة في مياهه دون ان تحصل على ترخيص من الدول الاسلامية وذلك بتوقيع معاهدة خاصة معها كما فعل ملك فرنسا فرنسوا الاول في امضائه معاهدة صداقة مع مفوضي خير الدين ومع السلطان سليمان القانوني (معاهدة شاتيلرو Chatellrau (949هـ/1534م)، وقد سبقتها معاهدة صيد المرجان بالسواحل الشرقية للجزائر (1520م)

وفي عهد البيلربكوات عارض حسن فنزيانو في قبول تركيز سفارة فرنسية

بالجزائر وصمم على امتناعه هذا حتى جاءه في ذلك خطاب فيه تهديد من قبل السلطان العثماني (987هـ/1579م)، ومع ذلك لم يتحمل الجزائريون بقاء قناصل فرنسا في عاصمتهم وقلدتهم في ذلك حكومة تونس على عهد الداي عثمان فأطردت ممثلي فرنسا من أرضها، ورغم هذا فإننا نجد التاريخ يحدثنا عن عدة اتفاقيات سياسية واقتصادية ومعاهدات صلح عقدتها دولة الجزائر التركية مع العالم الخارجي عبر تاريخ وجودها على هذه الارض.

فمن ذلك ما أنجزته الحكومة الجزائرية مع ملك فرنسا فرانسوا الاول حينما استنجد بها لدفع غارات شارلكان وحملاته على ساحل فرنسا الجنوبي، فانجدته هذه باسطولها مرتين كانت الاولى943هـ/1536م،والثانية سنة 950هـ/1543م. حيث فك خير الدين الحصار المضروب على مدينتي نيس وطولون وفي عام 960هـ/1553 استنجد هنري الرابع بالاسطول الجزائري ايضا لتحرير مدينة مرسيليا وشاطىء فرنسا الجنوبي من ايدى الهيجونوت والاسبان، وفي نفس الوقت طلب هنري هذا نفسه قرضا ماليا من الجزائر فاسعفته حكومتها. وفي سنة 968هـ/1501م اظهرت فرنسا رغبتها الملحة في اقامة علاقات ديبلوماسية مع الجزائر فكان الأمر كذلك كما أرادت، وفي عام 970هـ/1563م وصلت البعثة الفرنسية الاولى للجزائر، وفي عام 1203هـ/ 1789م اعترفت الحكومة الجزائرية بحكومة الثورة الفرنسية... ووقفت معها في محنتها الاقتصادية فأمدتها بالاموال والحبوب رغم دسائس اعدائها وخاصة بريطانيا لمنعها من ذلك... ولقد احصيت جميع المعاهدات او الاتفاقيات التي كانت بين فرنسا والجزائر خلال القرن السابع عشر الى يوم الاحتلال (1246هـ/1830م) فبلغت 58 معاهدة،وبلغ عددمبعوثيهاالسياسين الى الجزائر اثناء هذه الفترة ستا وتسعين مبعوثا فرنسيا. وقد بلغ مجموع ما ابرمته دولة الانكليز من اتفاقيات ومعاهدات مع الجزائر 27معاهدة.

وهكذا نرى الجزائر فعلت مع دول اخرى اجنبية في امريكا واوروبا على اختلاف اقطارها وتباعد اوطانها، ففي سنة 1090هـ/1679م وقعت هولاندا معاهدة مع الجزائر، وفي سنة 1093هـ/1682م امضت هولاندا وبريطانيا معاهدة صلح مع الجزائر وعلى غرارها فعلت كل من بلجيكا واسبانيا والدانمراك والبندقية والنمسا والسويد والبرتغال وغيرها.. فاما اسبانيا فانها نالت

بفضل الصلح المبرم مع الجزائر سنة 1206هـ/1791م حقوق امتياز صيد المرجان بالسواحل الغربية الجزائرية وتحصلت على رخصة لاشتراء 1000 حمولة قمح مع تخفيض الرسوم الجمركية على سفنها بالمرسى الكبير بحيث لا تتجاوز هذه الرسوم 56 ريالا ، اي 63 فرنكا مقابل اتاوة سنوية تقدر بـ120 الف فرنكا سنويا .

واما البندقية فانها قد نالت كذلك حق التجارة مقابل اتاوات سخية قدرت في معاهدة سنة 1160 هـ/1747م المعقودة بين الداي بابا علي ومندوب البندقية ب 2200 سكة ذهبية ثم ارتفعت هذه الاتاوات اثر معاهدة 1177 هـ/1763م الى ما يقارب 50000 سكة بالإضافة الى عتق خمسة عشر مسلما كانوا مستعبدين باوروبا ونالت السويد امتيازا حرية التجارة البرية اثر معاهدة 1142 هـ/1729م. وذلك مقابل دفع 10000 ريال كل عشر سنوات وتزويد الجزائر بما قيمته 15000 ريال من العتاد الحربي واخشاب البناء وتقديم 6000 ريال عند تنصيب قنصل جديد لها بالجزائر ، وان فرنسا نالت قرضا من الجزائر سنة 1208 هـ/1793م بما قيمته مليون فرنكا بدون فائدة مع تسهيلات لنشاطها التجاري [1].

وعقدت الولايات المتحدة الاميركانية ثلاث معاهدات صلح وصداقة مع الجزائر ، فكانت الاولى منها في شهر صفر 1210 هـ/سبتمبر 1795م ، والثانية يوم فاتح ربيع الاول 1220 هـ/30 جوان 1805م والثالثة يوم 17 صفر 1231 هـ/23 ديسمبر 1815م كما أن الحكومة الجزائرية اصدرت اعترافها بحكومة الثورة الامريكية وبحق الولايات المتحدة في الاستقلال عام 1190 هـ/1776م وعندما جدد هنري الرابع اتفاقية الامتيازات مع الدولة العثمانية لسنة 1013 هـ/1604م ارسل سفيره في الاستانة الكونت (سافارى دي بيريف) في بعثة خاصة الى الجزائر وتونس حيث وقع مع اوجاق الجزائر والداي التونسي اتفاقيات على حدة تتناول مسالة تحرير الاسرى الفرنسيين واحترام السفن الفرنسية في البحر .

---

(1) د. سعيدوني: النظام المالي في الفترة العثمانية [1800 - 1830م] ص 74, 75, 76. ط الجزائر 1979م

واذا عدنا الى خصوصية فرنسا مع الجزائر نرى أن خير الدين - بارباروسة - اثناء توليته حكومة الجزائر تحمس لفكرة التحالف العثماني الفرنسي ولذلك كان السبيل ممهدا امام فرنسا لكي تحصل على بعض الامتيازات التجارية منذ اواسط القرن السادس عشر، ويلاحظ أن مركز فرنسا قد تصاعد بالتدريج في النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى اصبحت كبرى الدول الاوربية الواقعة على البحر المتوسط ذلك أن اسبانيا اخذت تضعف بعد زوال امبراطورية شارل الخامس بينما كانت ايطاليا مفككة، ولذلك تطلعت فرنسا قبل غيرها الى انشاء قنصلية لها في الجزائر سنة 972هـ/1564م لولا أن عارض البيربك وايده التجار الفرنسيون في ذلك الموقف لانه كان من المفهوم لديهم أن القنصل سيكون تاجرا مزاحما لهم يستغل مركزه لمصلحته الخاصة، ولذلك تأخر تأسيس القنصلية حتى سنة 988هـ/1580م وكان صيد الاصداف من الساحل الجزائري هو أهم مظهر من مظاهر تلك العلاقات التجارية حيث كان لتلك الاصداف اهمية كبرى في ذلك العصر لانه كان من أدوات الزينة الهامة في اوربا.

وعندما اتسع الصراع الدولي نتيجة حروب الثورة الفرنسية عملت حكومة الثورة على تحسين علاقاتها بالحكومة الجزائرية لانها كانت في حاجة الى استيراد القمح سيما وأن الجزائر كانت تمنحها تسهيلات في الشراء على سبيل الاقتراض... وكان الداي يستفيد من هذه المعاملات التجارية ولذلك حرص على حسن العلاقات حتى عند قيام الحملة الفرنسية على مصر سنة 1213هـ/1798م فلم يقطع علاقاته مع فرنسا الا تحت ضغط الرأي العام وسطوة حكومة الاستانة وترقب بعد ذلك اول فرصة لاستعادة العلاقات مع فرنسا عندما عرض نابليون الصلح سنة 1215هـ/1800م ولكن الاستانة عادت بالاشتراك مع انجلترا الى ممارسة الضغط على الداي حتى اعلن الحرب على فرنسا من جديد، ولكن لم يقم بأي عمل جدي ضدها، بل انه تفاوض سرا معها في هذه الاثناء بشأن تعهد فرنسا بحماية هذا الاقليم.

ولكن هذه السياسة تغيرت بعد تولي نابليون الامبراطورية وخاصة بعد تحويل ايطاليا الى مملكة تدور في فلك امبراطوريته، فقد اصبح يشعر بمسؤولية

حماية السفن الايطالية والاسرى الطليان الذين يشكلون غالبية الاسرى المسيحيين في الجزائر ، فأرسل اخاه جيرون في حملة عظيمة سنة 1220 هـ/1805 م لتهديد الداي ،، ونجح فعلا في استخلاص 2500 اسير، وتجديد امتيازات تجارية ولكن هزيمة فرنسا البحرية في الطرف الاخير اتاحت للجزائر الفرصة للتخلص من قيود هذه التعهدات ومن الطبيعي ان يحدث في مثل هذه الظروف تقارب بين الجزائر وبريطانيا فعقدت اتفاقية معها سنة 1807 م وتنازلت بمقتضاها عن حصن القالة للانجليز لمدة عشر سنوات مقابل 297500 فرنكا .

ومن الواضح المعروف ان اهتمام بريطانيا بالبحر الابيض المتوسط كان محدودا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ويكاد أن يكون قاصرا على اعمال شركة (الليفانت) - الشرق الاوسط - التي تأسست سنة 989هـ/1581م ولذلك كانت بريطانيا هي ثاني دولة تسعى الى انشاء قنصلية لها في الجزائر ولكن هذا التمثيل القنصلي البريطاني كان مثل التمثيل الفرنسي متقطعا ، وتعرضت الجزائر لعدة هجمات من الاسطول البريطاني ولكنها أقل من الهجمات الفرنسية من حيث العدد ومن حيث الالحاح ولا تكاد تختلف بريطانيا في ذلك عن معظم الدول البحرية الاوربية ، كهولاندة والدانمارك التي كان من الضروري اصطدامها بالدولة الاسلامية البحرية الكبيرة ، وعلى العموم كانت علاقة بريطانيا بحكومة الجزائر أفضل وقد ازدادت تحسينا خلال القرن الثامن عشر عندما تأكد تفوق بريطانيا في البحار واصبحت سياستها تقوم على نظرية سياسية مؤداها انه من مصلحة الدول الكبرى بقاء الجزائر كقوة بحرية في البحر المتوسط وذلك حتى لا يتاح للدول الصغيرة منافستها في الميدان التجاري اذا تحقق امن الملاحة في البحر المتوسط .

وطبيعي أن يحدث في مثل هذه الظروف تقارب بين الجزائر وبريطانيا ، فعقدت اتفاقية معها سنة 1222هـ/1807م وبمقتضاها تنازلت الجزائر عن حصن القالة للانجليز لمدة عشر سنوات[1].

(1) المغرب العربي للدكتور صلاح العقاد ص 37و43و47و48ط القاهرة 1962م وانظر فيما يتعلق بالعلائق الجزائرية مع الخارج: Laugier de tassy, l'Histoire de Royame d'Alger avec l'etat

ولا باس هنا ان نزيد في البيان بتوضيح ما كانت تقدمه الدول والحكومات ومنها امريكا من الضرائب الباهظة والمبالغ الضخمة من اتاوات مالية وادوات وآلات وعتاد ومواد مختلفة الى حكومة الجزائر في مناسبات مختلفة؛ وهي كما عند ڤاروو ليون پالبير ومحمد بن عبد القادر الامير، كما يلي:

- امريكا: تدفع 600 جنيه استرليني

- انكلترا: مثلها كلما جددت قنصلها

- هولندا: مثلها كذلك، اي نفس المبلغ السابق

- البرتغال: تدفع 44 ألف بياستر سنويا

- مملكة الصقليتين: تدفع مثل المبلغ الذي تقدمه البرتغال، الا أنها تدفع منه 24 الف نقدا، والباقي في شكل بضائع

- السويد والداغارك: تقدمان مبالغ مالية كبيرة سنويا في شكل مواد حربية قيمتها 400 بياستر - قوية

- مملكة الطوسكان: تدفع 23 ألف بياستر كلما حضر قنصل لها الى الجزائر

- اسبانيا: تدفع مبالغ مالية كلما جددت قنصلها

- سردينيا: تسير حذو اسبانيا كلما تجدد لها قنصل بالجزائر

- النمسا: تدفع هدايا دورية مباشرة وعن طريق الدولة العثمانية.

اما عند ڤاروا فهي كما يلي:

- الولايات المتحدة الامريكية، وهولاندة والبرتغال ونابلي، والسويد، والنرويج، والداغارك، تدفع ضريبة كل عامين

- الداغارك والنرويج، والسويد، تدفع ضرائب اخرى في شكل اسلحة وحبال، وصوارى، ورماح، وذخيرة البارود، ورصاص، وحديد تقدر قيمتها بمبلغ 25 ألف فرنك لكل دولة

- اسبانيا وفرنسا، وانجلترا، وهانوير، وسردينيا، والطوسكان وراقوس،

Langier de tassy, Histoire de royaume D'Alger avec l'état présent de son gouvernement (Amsterdam1735) –lerey, état général et particulier de Royaume et de la ville d'alger, la Haye 1570.

اوالبندقية، تدفع هدايا دورية للدايات والباشات واعضاء الديوان، عند ابرام المعاهدات او تعيين القناصل لها بالجزائر.

– هامبورق وبريم تدفعان أدوات الحرب والتموينات البحرية

– النمسا وروسيا لا تدفعان الضرائب ولكن تدفعان اموالا طائلة لفداء أسراها الكثيرين بالجزائر.

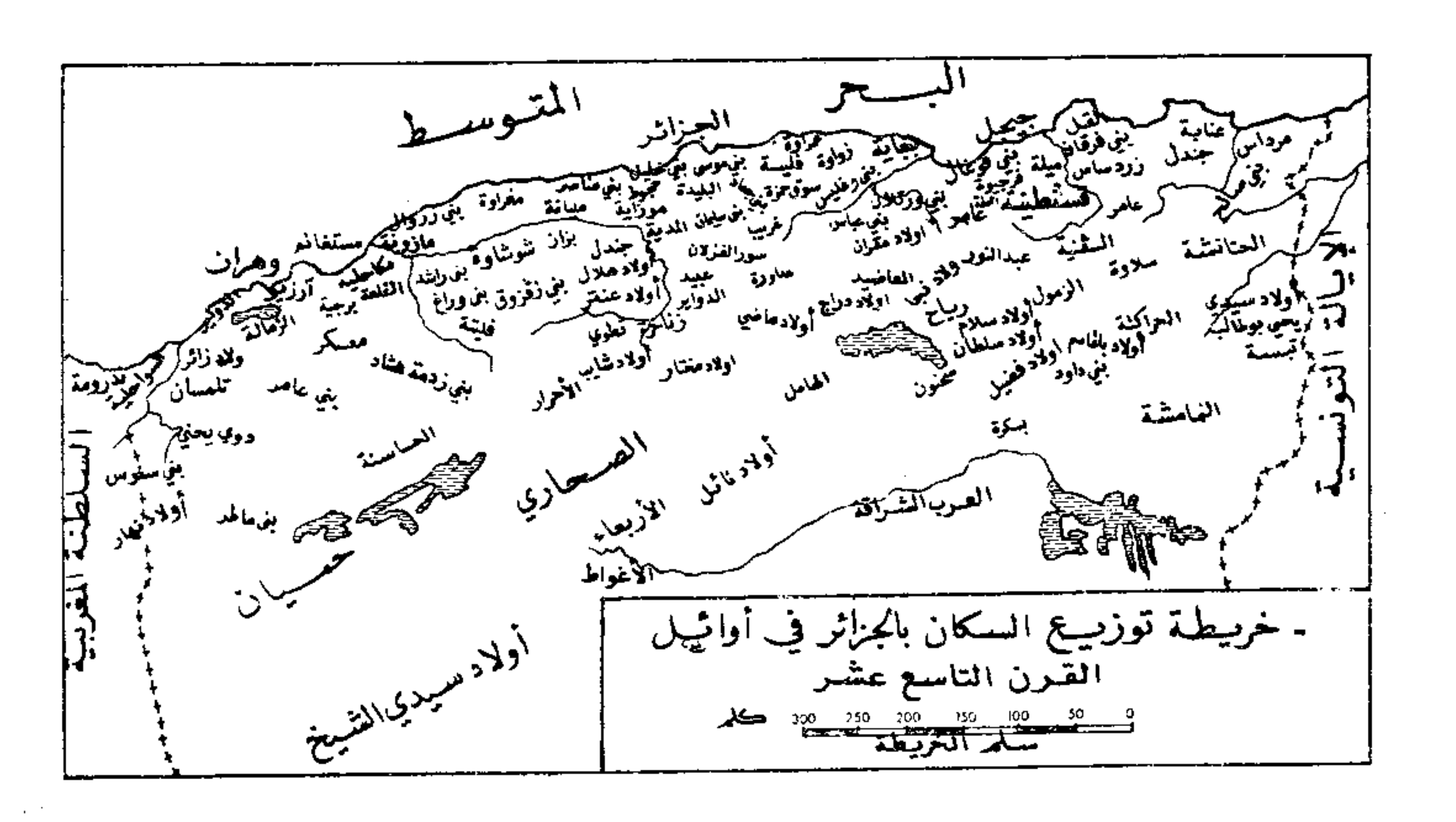
وهنالك دول أخرى تدفع كل عشر سنوات او عند تجديد المعاهدات 10آلاف بياستر – قوية – وتقدم هدايا عندما يتسلم قناصلها مناصبهم. وانظر ما قدمناه حول هذا الموضوع في فصل النظام الحكومي لهذه الدولة...

ولقد بلغ مجموع ما ابرمته انجلترا من اتفاقيات ومعاهدات مع الجزائر 27معاهدة وفيما بين عام 1619و 1830م وقعت فرنسا 58اتفاقية كما أسلفنا وتولى رعاية مصالح فرنسا خلالها بالجزائر 60قنصلا ونائب قنصل وتردد على الجزائر 96محافظا ومبعوثا واول القناصل الفرنسية بارتول Bartholle,وآخرهم دوفال Duval,وأول المحافظين والمبعوثين دولا فوريست De laforest وآخرهم دوبيري Duperré

نشاط المجتمع الجزائري

اذا استثنيا كبريات عواصم القطر الجزائري التي هي داخلة تحت نفوذ ولاة الاتراك مباشرة فان سكان بقية انحاء القطر الجزائري يرجعون في نظامهم الداخلي الى نظام الجماعات والعشائر التابعة للمشائخ أو ما يعبر عنهم بالخلفاء، وهم يعتبرون انفسهم مستقلين في داخليتهم والحالة انهم تابعون للحكومة المركزية هم وجميع شؤونهم السياسة العامة...

وكان عجز الاتراك عن اخضاع هذه الجماعات والقبائل خضوعا تاما بالزامها بطاعتهم العمياء هو السبب في تركهم يعيشون بجانبهم هكذا معيشة طليقة حرة ولكن لا ننسى بأن صلتهم بالترك كانت تقوم على معاهدات كان من مصلحة الطرفين احترامها، وكانت هذه الجماهير من الناس منقسمة الى فريقين فريق منها خاضع للحكومة خضوع الرعية التي لها عوائدها وتقاليدها الجماعية الخاصة، والفريق الثاني تابع للحكومة المخزنية في كل شيء.



- خريطة توزيع السكان بالجزائر في أوائل القرن التاسع عشر
300 250 200 150 100 50 0
كلم
سلم الخريطة
البحر المتوسط
السلطنة المغربية
الإيالة التونسية
الجزائر
وهران
مستغانم
تلمسان
معسكر
قسنطينة
عنابة
جيجل
بجاية
القل
ميلة
بسكرة
تبسة
الأغواط
الصحاري
أولاد نائل
الأربعاء
العرب الشراقة
النمامشة
أولاد سيدي الشيخ
حميان
الحساسنة
بني عامر
أولاد مختار
أولاد عنتر
أولاد هلال
بني زقزوق
بني زروال
مغراوة
زواوة
فليسة
عامر
الزمول
رياح
مخنون
الحامل
بني زدمة هشاد

وقد فرضت الدولة على القسم الاول منها العشور والزكاة مع ضرائب اخرى تؤدي عينا أو نقدا وهو ما يعبر عنه في اصطلاحهم باللزمة، وهذا الفريق هو دائما قائم تحت تصرف رجال المخزن وطوع ارادته.

واما الفريق الثاني فانه كان معفى من كل الضرائب باستثناء الرسوم القانونية ولكنه كان موقوفا على خدمة الحكومة متهيئا لها دائما وابدا حاضر للقتال عند أول اشارة، كما انه دوما في اعانة الاتراك يمدهم بالمحاربين وباليد العاملة ويعينهم على جمع الضرائب واللزمة ويدهم القبائل العاصية والثائرة بغاراته ويعمل عمل الشرطة في البلاد، فأفاد الحكومة كثيرا في تدعيم سلطانها وكان عونه عليها اجدى من عون فريق الانكشارية.

وكانت طرق الكسب التي تجري بين الناس موزعة بين عامة طبقات الشعب بطريقة تلقائية، فديوان الشرطة والعمل في تجارة التمور والسقاية كانت موكولة الى اهل بسكرة، وقبائل بني يني كانوا ولا يزال اكثرهم يشتغل بصناعة الحلى من الفضة، وبنو سنوس - قرب تلمسان كانوا مختصين - كما انهم على ذلك الى الان - بصنع الحصر والبسط ونسج الزرابى بالاضافة الى صناعة الخزف والسلاح، كما اختص المزابيون بشأن الحمامات العامة والاحتراف بالجزارة، والعمل في المطاحن مع المساهمة في تجارة الرقيق الاسود وحركة القوافل بالصحراء الخ.. وقد خولتهم الحكومة ذلك مكافأة لهم خاصة منذ قيامهم بالهجوم على قلعة الامبراطور fort L'Empereur بالعاصمة وقتلهم للحامية التي كان ان وضعها شارل الخامس هناك، اما سكان السهول فكانوا يشتغلون بالزراعة وتربية المواشي والفروسية، واما اهل الحواضر والمدن ولا سيما منهم سكان العاسمة بالخصوص فان اغلبهم كان يمتهن بعض الصناعات اليدوية التقليدية ويمتهن المهن الفنية مثل النقش على الخشب والنجارة والبناية والحدادة وصنع السلاح والسراجة والخياطة والخرازة والطرز وما شاكل ذلك، وذكر صاحب المرآة- حمدان بن عثمان خوجة - مصانع الملابس المطرزة بالحرير التي كانت موجودة بالجزائر، فقال: والجزائر هي التي تزود مدينة تونس ومدنا أخرى بأصحاب هذه الصناعة، وفيهم من كان يشتغل بنفسه مشاركا بأمواله في اكتراء

السفن العاملة في القرصنة على جزء من الربح، وفيهم التاجر أيضا كما اختص اهل الاغواط بالاشتغال في معاصر الزيت. واما اليهود فالموسر منهم كان يحترف المرايات وصنع الحلي وطرز الملابس، وكان لكل صنف من هذه الاصناف ولكل ارباب حرفة او مهنة من هذه الحرف والصناعات اليدوية وغيرها نقيب يرجع اليه في حل مشاكلهم ويسمى (الامين)، فهناك امين النجارين، وامين البنائين ، وامين الصاغة ، وامين الدباغين ، وامين الدلالين، الخ... والكل تشملهم رئاسة (أمين الامناء). كما انه كان لكل طائفة او قبيل من سكان العاصمة نقيب او عريف ايضا فللأشراف نقيب، وللقبائل امين كما كان للبسكريين امين... الى غير ذلك مما كان من أمناء النقابات المهنية ورؤساء المجموعات السكنية. ولا تزال بالعاصمة الى اليوم بعض الاسر التي تحمل لقب الامين، كاسرة امين الدباغين. وامين البنائين، وأمين الامناء... وهو نظام عربي اسلامي قديم: فلقد كان سعيد بن سعد بن ابي وقاص نقيب النشابين، وسلمان الفارسي نقيب الحلاقين، وذا النون المصري نقيب الاطباء، واسعد بن زرارة نقيب بني النجار، وهناك نقباء الأوس والخزرج... (1)

ثم أن الترك بسياستهم هذه باعدوا في حكم البلاد بين طبقات الاهالي وذلك منهم اتقاء للفتن والثورات التي قد تحدث ضدهم، بيد أن ذلك كان هو السبب نفسه في اندلاع معظم الثورات فانقلب عليهم الاهالي واعتبروا ذلك من اعمال الظلم والارهاق رغم كل الاحتياطات التي اتخذتها الاتراك ورغم غطرستهم بطورانيتهم التركية على كل اثر معنوي كان للعرب بهذه البلاد فانهم كانوا زيادة على ذلك يعتبرون انفسهم سادة البلاد بدون منازع وانهم احق بها وبحكمها من أهلها فكانوا يطلقون على سواهم من سكان البلاد الاصليين اسم «عرب» او «أولاد عرب» ما داموا مسلمين لا ينتمون الى العنصر التركي، وكان من آثر ذلك ان زادوا في تقسيم المجتمع الجزائري تقسيما ثانيا آخر، فأصبح

(1)راجع: ابن حجر: الاصابة ج 1ص 34ط القاهرة 1328هـ - السهيلي: روض الانف ج 4ص83ط القاهرة 1389هـ/1969م - ناجي معروف: المدخل في تاريخ الحضارة العربية ص 81ط بغداد اي 1379هـ/1960م - ل. صبحي الصلح: النظم الاسلامية ص408ط بيروت 1396هـ/1976م

هناك طبقات ثلاث: «جزائري ولد البلد»، وهو في اصطلاحهم كل من كان تركي الابوين، و «كرغلى» او (قول أوغلى ومعناه اولاد الخدم وهو من كان والده تركيا وامه اهلية، و «براني» بتشديد الراء المفتوحة وهو غير ساكن البلد من جميع أهل القرى والمداشر والارياف، وهؤلاء هم بالطبع الاكثرية الساحقة من الوطنيين، وكانت الحكومة تعامل هذين الصنفين الاخيرين معاملة الخسف والارهاق فتفرض عليهم الضرائب والمغارم الفادحة... وكان مفعول هذه الخطة السياسة - خطة معاملة التعالي - التي سار عليها الاتراك ان انبتت الحقد والضغينة وحب الانتقام في صدور الوطنيين، فضلوا يمقتون الوجود التركي ويتوقون الى الخلاص منه منذ أمد بعيد، وذلك ما كان باعثا اساسيا لسكان بلاد زواوة وغيرها من أهل البوادي على التمرد طوال القرن الثامن عشر الميلادي ومستهل القرن بعده.

اذا أنت لم تنصف اخاك وجدته   على طرف الهجران ان كان يعقل

ويركب حد السيف من أن تضيمه   اذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

فكان لطبيعة هذه النظم الاستعمارية بالجزائر اثرها السيء في تكييف المضمون الطبقي للمجتمع الجزائري.

ويوم أن غزت فرنسا أرض الجزائر وجدتها كذلك، فقوام المجتمع كان يومئذ عدة طبقات الاقطاعيون المثلون في الداي وبعض الاتراك والحكام المحليين والبورجوازية الوطنية الناشئة التي يمثلها اصحاب التجارة الداخلية والخارجية، والبورجوازية الصغيرة الممثلة في الفلاحين واصحاب الملكيات الصغيرة، وصغار التجار والموظفين، كما كانت توجد طبقة عاملة وليدة ممثلة في عمال صناعة السفن والحبال والنسيج، وبعض المهن اليدوية، كانت هذه هي طبقات المجتمع الجزائري ساعة الغزو الفرنسي.

وفيما يتعلق باخلاق الاسر المتحضرة وتقاليدها بالعاصمة وسلوك افراد العائلة داخل المنزل وخارجه يقول الرحالة الالماني «مالتسان» في كتابه الموسوم ب«ثلاث سنوات في شمال افريقيا» المنشور سنة 1863م، وفي كتابه «صور من التقاليد» الذي نشره سنة 1869م: بأن هناك سلوكا مهذبا وزينا يؤديه صغار الاسرة نحو كبارها، فالابن يقبل يد ابيه واعمامه في اجلال

واكبار ولا يتحدث في حضورهم الا اذا وجه الخطاب اليه، كما أنه لا يجرؤ ابدا على االتدخين او شرب القهوة او غيرها من الاشياء التي هي الترف اقرب منها الى الحاجيات الضرورية امام والديه وان الحنان الابوي يتجلى بشكل اكثر رقة ولطافة ما هو عليه الحال لدى الاورباويين... وهناك حتى بين أعضاء الاسرة المتساوين او المتقاربين في الاعمار احترام متبادل، فالاخ يعامل أخاه باحترام كبير ويدعوه بكلمة سيدي ويخلع عليه هذا من جهته نفس اللقب، وهذا السلوك يقوم على وعي تام لمعنى الاحترام والتقدير لكل فرد، وعلى التفكير في ان ذلك يرفع من شأن الاسرة في نظر الغير ويزيد في احترامها... فالغني يساعد الفقير ويتكفل بأرملته وايتامه حتى انه ليس من النادر أن يقتسم الاخ ثروته مع اخوته الذين لزمهم الفقر وتسلط عليهم العوز

ان لدى الجزائريين الحقيقيين - يعني بهم اهل الحاضرة - فضيلة جوهرية هي الامانة التي لها شهرة عالمية بحيث لا تحتاج الى دليل.. وهكذا يستمر مالتسان في حديثه عن الاخلاق في الجزائر العاصمة فيقول «... اما الفساد الذي يحلو للسائح ان يتحدث عند عودته الى بلاده فهو شائع بين المهاجرين اليها من الاعراب والبرابرة ومقصورة عليهم فقط، فجميع حفلات الرقص والغناء التي يشاهدها هذا السائح برفقة دليل تقام من طرف هؤلاء، ومن النادر جدا ان يعثر فيها على جزائري حقيقي يعرف قدر نفسه ويحترم سمعة اجداده.

وينكر المؤلف «مالتسان» على السائح ان يحكم على العربي الجزائري من تصرفات الحمالين وماسحي الاحذية وغيرهم وينصحه بأن يجهد نفسه اذا هو اراد الاتصال بمثل الجزائر الحقيقي الذي يعيش في عزلة موقرة.

كما يصرح - مالتسان هذا - بأنه قد اتيح له بعد جهد وعناء الاتصال بعدد كبير من افرادها هذا الطبقة وانه كلما ازدادت علاقته بهم ثباتا اندهش بصورة اكثر لما يبدو عليهم من وقار، وجدية وحسن المعاملة اقتصرقديما على البحث عنها في حقل الاسطورة...[1]

---

(1) المجاهد الثقافي السنة الاولى عدد 2اوت1967م

وبمثل هذا ايضا تشهد الكاتبة الانكليزية (صوفيا برنارد) التي زارت الجزائر سنة 1811م فاثنت على حسن سلوك الجزائريين وتأدبهم في المعاملات وقالت:

«انهم يمتنعون عن تناول المشروبات الروحية ليت جميع الامم تحذو حذوهم، واما لباسهم جميل جدا، واما سلوكهم مع الاجانب فهو يتسم بطيبة القلب وروح المجاملة، انهم كرماء الضيافة، وباختصار فان اقامتي في الجزائر كانت قصيرة ولكنها كانت مليئة بالمتعة وانا اعتقد ان من المستحيل ان يجد المرء اي مكان آخر في العالم لياقة وادبا ورعاية مما يجده في الجزائر» (1)

واذا نظرنا الى هذا القطر الجزائري بمنظار من كان في ذلك العصر من رجالات السلوك الاسلامي الخالص والعلم والدين مثال الشيخ عبد الرحمن الاخضري الجزائري نجده يندب عصره هذا راثيا لحاله متاثرا لما كان عليه الناس وقتئذ من سوء السلوك فيقول منتقدا اهل عصره ووطنه

«...وعاشر القرون هو قرننا هذا الذي ظهرت فيه الفتن واشتد فيه اليأس وقوي فيه النحس واشتد فيه طغيان الكافرين، وانتشر فيه ظلم الظالمين، وكثرت فيه شرار الخلائق، ولم يبق الا أثار الطرائق، والناس فيه ساهون مهطعون لحطام الدنيا معرضون عن الدرجات العليا سابقون فيه الى هواهم ليوقعوا في اهوى المهاوي، واسوأ المساوىء. وليس لهم تفكر في هادم اللذات ولا تأهب فيما بعد الممات كأنهم في الدنيا مخلدون، وهم للفناء مشاهدون، يخدم الوحد منهم طول عمره على منفعة ساعة، ويضيع منفعة الابد فما اشنعها من اضاعة!... ان كان قبل هذا الزمن عبدة الاوثان فأهل هذا الزمن عبدة الشيطان، شاع الشر وانتشر لقرب هجوم الايات الكبر اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه...واعنا على هذا الزمن الصعب الذي كسفت فيه شموس الحق، وشاع فيه ظلام الباطل بين الخلق، وسد الافق دخان الهوى وانتشر في الاقليم واستوى.

ونرى الاخضري في موطن حديثه عن الثقافة يندب حظ العلم والمعرفة

---

(2) اسماعيل العربي: مجلة الثقافة 42. 1398هـ/1978م

بهذا الوطن مستاء مما كان عليه حال البلاد في ذلك الزمن فيقول « ... هذا الزمان الصعب الذي انقرض فيه اكابر العلماء ولم يبق فيه الا الحثالة، وغلبت العجمة على قلوب الانام حتى كاد العلم ينقرض بانقراض اهله... الى ان يقول آسفا متحسرا يشكو زمانه: زماننا هذا هو الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام؛ لا يبقى من الاسلام الا اسمه. ولا القرآن الا رسمه [1]

وفي أرجوزته القدسية يقول متبرماً من أحداث زمانه (القرن العاشر الهجري 16م):

هذا زمان كثرت فيه البدع	واضطربت عليه أمواج الخدع
وخسفت شمس الهدى وأفلت	من بعد ما قد بزغت وكملت
والدين قد تهدمت أركانه	والزور طبق الهوا دخانه
وظلمات الزورو البهتان	تزخرفت في جلة الأوطان
لم يبق من دين الهدى الا اسمه	ولا من القرآن إلا رسمه
هيهات قد غاضت ينابيع الهدى	وفاض بحر الجهل والزيغ بدا
أين رعاة الدين اهل العلم؟	قد سلفوا والله قبل اليوم!

الخ.. الخ...

كما اننا نراه في منظومته القدسية هذه ينعي على متصوفة زمنه سوء سلوكهم، فيقول بعد أن يذكر محاسن سلوك من سلف من رجال التصوف الاسلامي:

فأين حال هؤلاء القوم	من سوء حال فقراء اليوم
قد ادعوا مراتبا جليلة	والشرع قد تجنبوا سبيله
قد نبذوا شريعة الرسول	فالقوم قد حادوا عن السبيل
لم يدخلوا دائرة الطريقة	فضلا على دائرة الحقيقة
لم يقتدوا بسيد الانام	فخرجوا عن صلة الاسلام
لم يدخلوا دائرة الشريعة	واولعوا ببدع شنيعة
لم يعملوا بمقتضى الكتاب	وسنة الهادى الى الصواب

ويقول فيها ايضا:

قد احدثوا طريقة بدعية	وتركوا الطريقة الشرعية

(1) شرح الاخضرى على سلمه ص 38ط القاهرة 1314هـ.

وأشرفوا عـــــلى كهوف الكفر وستروا بدعتهم بالفقر
وعكسوا حقائــــق الامور ونصبوا حبائـــــل الفجور
واتخـــذوا مشائخـــا جهـــالا لا يعرفوا الحرام والحـــلالا

وهي ارجوزة طويلة تبلغ ستا واربعين وثلاثمائة بيت، اغلبها في انتقاد هذا النوع من ادعياء التصوف والكشف عن مخاريقهم وضلالاتهم فانظرها فانها مطبوعة بالقاهرة سنة 1348هـ.

أما بالنسبة لما اشتهر به أهل مدينة الجزائر من النظام الفائق في حال المعاش والتفاني في العمل والاخلاص فيه والنظافة والشجاعة النادرة الخ.. فان ذلك امرا استثار اعجاب الافرنج من اسبان وغيرهم، وقد لاحظ المعتنون منهم بأمر المحافظة على قواعد الصحة ومراعاة النظافة بالجزائر فقالوا انه لم يسجل لداء السل ولا للزهرى ولا لغيرها من الامراض الخبيثة والادواء العويصة بهذه البلاد ما يجعلها تذكر الى جانب غيرها من البلاد الاخرى التي عمت فيها هذه الامراض اكثر السكان.

وأما ما بلغ اليه عدد سكان الجزائر يومئذ؟ فهذا مما لا أظن أن نوفق الى تحقيقه وضبطه ضبطا لما يروى في ذلك من الاخبار المضطربة وتعذر اجراء عملية الاحصاء يومئذ والتسجيل الرسمي وقتئذ مفقود بسبب ما كان يحدث بين الاونة والاخرى من تقلبات الزمان وآفاته الطبيعية من زلازل وأوبئة وطواعين ومجاعات وما كان يلحق البلاد من تغير في اسباب المعاش من انخفاض وارتفاع وانحدار وازدهار وهجرة وجلاء مع ارتفاع عدد الاسرى تارة وانخفاضه تارة اخرى ولم يكن هناك علم الاحصاء - ديموجرافية - مدروسا او مضبوطا كما هو في عصرنا الحديث، فلذلك نرى خلافا كبيرا بين المؤرخين في تقدير عدد سكان هذا القطر على اختلاف أجناسهم واديانهم وعناصرهم من عرب وبربر وترك ونصارى ويهود واندلسيين وزنوج وعبيد الخ... فمنهم من بلغ بهم الى ثمانية ملايين نسمة، مثل الجنيرال بيجو، ومنهم من تجاوز ذلك مثل الشيخ حمدان عثمان خوجة فأنه بلغ بهم كما جاء في كتابه المرآة - وهو اعرف بقومه ووطنه - الى عشرة ملايين نسمة، غير اننا نراه يقول في تحديد مملكة الجزائر: يحدها غربا «وجدة» وجنوبا غدامس بمملكة

طرابلس ونظرا لوسع هذه الرقعة من الارض فلا يستغرب ما ذكره حمدان مما اشتملت عليه من عدد السكان، ومنهم من توسط بين ذلك؟ على انه من المتفق عليه انهم لم ينقصوا عن ثلاثة ملايين نسمة او ثلاثة ملايين ونصف منهم 34000 يهودي ، و600 اورباوي على اختلاف اجناسهم من اسباني وايطالي وبلجيكي والماني وفرنسي وانكليزي ويوناني وبولوني وسويسرى وروسي الخ... ولا صحة لما يدعيه بعض دعاة الاستعمار من ردهم لاسباب تزايد سكان الجزائر اليوم الى فضل عناية المعمر واهتمام السلطة المحتلة بهم، كلا فاننا نشاهد العالم كله قد ازداد سكانه في هذين القرنين الاخيرين زيادة كبيرة، وهو آخذ في الازدياد على نطاق واسع حتى في البلاد المتخلفة: وانما قولهم هذا هو مجرد دعاية استعمارية لا تقوم على أساس.

وكذلك نقول بالنسبة الى سكان العاصمة فإننا نرى الخلاف جارياً بين الكتاب في ضبط عدد السكان بها، فمنهم من عدهم اربعين الف نسمة ومنهم من قال هم ثلاثون الفا، من بينهم 4000 نسمة تركيا و 14000 اهلي و 6000 اسرائيلي وهناك من علماء الاحصاء في القرن 17 من رفع هذا العدد الى 000 100 نسمة اي علاوة على ما هنالك من نحو 25 الفا او 30 ألفا من الاسرى، ومنهم من زاد على ذلك فبلغ في احصائه الى 000 160 نسمة كما جاء ذلك في احصائية ماصون لسنة 1651م، ولم يكن عدد الاسرائليين ليزيد في يوم من الايام على عشرة آلاف يهودي، ومنهم من نزل بهذه الارقام كلها الى ما هو دون ذلك بمراحل كثيرة [1] وضبط عدد اليهود في القطر الجزائري كله قبل سنة 1956م فلم يكن ليتجاوز 000 100 نسمة ولقد اورد الدكتور سلفاتوري بونو في محاضرة له احصاء لهؤلاء السكان في نهاية القرن 16م فقال بانه كان بالجزائر 15 ألف تركي ومشرقي وردوا من مختلف الجهات، و25 ألفا من العرب المهاجرين من اسبانيا و 12 الفا من المغاربة العرب والبربر الذين اتوا من داخل البلاد، و6 آلاف من الكراغلة وما بين 5 او6 الاف يهودي وبضعة الاف من الملونين الافارقة...

---

(1) Reveu Africaine N 430, 431 p: 149, 150 (1952) et N440, 441, p277 278, 284

وكتاب «على عبد القادر حليمى» مدينة الجزائر نشأتها وتطورها - ص250 - 266 ط الجزائر 1972م

وجاء في تعليق لرفاعة بك الطهطاوي كتبه كذيل لرسالة احمد افندي «الجزائري » كيف دخل الفرنسيون الجزائر » ط بيروت 1962م متحدثا عن عاصمة الجزائر إبان الاحتلال: فقال ويبلغ جميع اهلها نحو مائة وخمسين الفا.

وفي سنة 1202هـ/1788م كان ان حل بالجزائر المستشرق الفرنسي (فونتير دي بارداي) اوفدته حكومته لمفاوضة الحكومة الجزائرية في حل بعض المشاكل، فمكث هنا بالعاصمة مدة سنتين كاملتين اطلع خلالها على سير الحياة الجزائرية العامة وكتب في ذلك تقريراً قدمه لدولته، وكان مما جاء فيه قوله عن احصاء سكان العاصمة: « .. لا يمكننا أن نحصي سكان مدينة الجزائر احصاء مدققا لان النساء محجبات، إنما نقول: ان في الجزائر نحو 50 الفا من السكان، منهم 3000 اتراك و6000 كورغلية - ابناء آباء اتراك وامهاتهم جزائريات - و7000 يهودي و2000 خليط من الاسرى مسيحيين وغيرهم، و32000 عرب ومنهم البساكرة الذين يشتغلون غالبا بحمل الماء وزواوة ومزابيون وجرابة[1].

وفيما يختص بأمر الأروبيين الموجودين وقتئذ بالجزائر يقول الدكتور سلفاتوري بونو استاذ التاريخ بجامعة روما: «انهم في معظمهم عبيد دفعتهم الى اعتناق الدين الجديد الظروف التي كانوا يعيشونها، لكنهم فعلوا ذلك على العموم عن طواعية واختيار؛ على انه حدث كذلك أن رغب أروبيون بمطلق ارادتهم في ترك العالم المسيحي لاعتناق العقيدة الاسلامية، والانضواء تحت لواء البربرية، وكان هؤلاء الاروبيون من التجار وارباب السفن او من البحارة الذين قدموا الى بلاد البربر من اجل العمل ومن العسكريين الذين فروا من الحاميات الاسبانية خصوصا من وهران وثمة اروبيون آخرون كانوا يقدمون الى المدن البربرية من اجل اعتناق الإسلام والاندماج في عالم اكثر حرية وعدلا من العالم الذي أتوا منه، فقد كانت عدة بلدان اوروبية يجتاحها في الواقع لذلك العهد نظام سياسي واجتماعي تحكمي استبدادي وقمعي أيضا وانه كان من هؤلاء بالجزائر سنة 1580 م نحو خمسة آلاف نسمة، وكان لبعضهم اسرة وبلغ

---

(1) الاصالة 25/1395هـ/1975م

عددهم في سنة 1600م نحو ثمانية آلاف زيادة على 1200 امرأة[1]

وهناك احصاء آخر وقع لاصحاب الاملاك العقارية بالجزائر قامت به فرنسا ابان الاحتلال ونقله النائب الفرنسي «ورينى» عن وثائق مكتب الاحصاء الملحق بالحملة الفرنسية لسنة 1830م وقدمه الى المجلس الوطني سنة 1873م جاء فيه ان عدد الملاك - الملاكين - بالجزائر بلغ يومئذ 3500000 ويعني هذا الاحصاء ان الاغلبية الساحقة من افراد الشعب الجزائري كانت تتمتع بالملكية الفردية، او كانت على الاقل تنتفع بتراب بلادها على اعتباره ملكا مشاعا بين افراد القبيلة؛ واما عن عدد دور العاصمة ومنازلها داخل اسوار المدينة فانه قدر سنة 1789م بحوالي 5000 دار، كما قدر عدد الدور سنة 1829م بحوالي 8000 دار واما المنازل او قل الحدائق الخارجة عن اسوار المدينة فقدرها هايدو سنة 1578م بأكثر من 1500 منزل وقدرها غيره بـ 2000 منزل.

وايا ما كان فلا سبيل لنا الى تحرير وضبط عدد السكان على الوجه الصحيح الاكمل الا بالرجوع الى الوثائق الحكومية الرسمية التي هي مفقودة اليوم مع تفشي نظام الاقطاع وانتشار الفوضى يومئذ بنواحي الجنوب وبأقصى الحدود الجزائرية شرقا وغربا وجنوبا، فانى لنا بتحرير ذلك؟... وقد اتينا بما فيه الكفاية لاخذ صورة عامة عن عدد السكان.

وكان لما ذكرنا آنفا من تعدد عناصر سكان الجزائر - ولا سيما العواصم الكبيرة منها - التي كانت تجمع العربي والبربري والتركي والصقلي والعبراني والاوربي والاندلسي وكثر فيها عدد الاعلاج وتظخم في اواخر القرن السادس عشر الميلادي فجاؤا من صقلية وكريسكا والبانيا واسبانيا حتى اسف الكاتب هيدو لذلك وقال: ان جميع القراصنة من الاعلاج، - وهم طبعا القوم الذين اعتنقوا الاسلام تدينا او حرفة وتصنعا -؟ ونشأ عن ذلك اختلاف في لغة البلاد العامية الى درجة ان اصبحت لها صفة خاصة بها لهجة فمفرادتها وتركيبها وجملها وعباراتها متداخلة لا يتفهمها الا من مارس حياة المدينة وامتزج باهلها وان كانت هي في الجملة تظهر عليها مسحة عربية، ولقد الف شيخنا الدكتور محمد بن ابن شنب رحمه الله معجما صغير الحجم جمع فيه

(1) الأصالة 25، 1395 هـ/ 1975 م

الالفاظ التركية والفارسية المستعملة في لغة مخاطبة اهل مدينة الجزائر وشرحها بالفرنسية وقدمه كاطروحة اضافية تكميلية لنيل درجة الدكتوراة بجامعة الجزائر، وهو مطبوع بالعاصمة سنة 1922م Mots turke et persans conservés dans le parler Algérien.

واما عن مدى انتشار اللغة البربرية واستعمالها بالجزائر فقد ذهب «وليام مارسي» الى ان نسبة الناطقين بالبربرية هي اليوم في مقاطعة قسنطينة، 27 بالمائة، و 34 بالمائة في مقاطعة الجزائر العاصمة، وواحد بالمائة في مقاطعة وهران[1] وجاء في احصائية سنة 1910م ان عدد المتكلمين باللغة البربرية بأرض الجزائر كلها 1305730 نسمة من اصل 4447149نسمة هم مجموع سكان الجزائر اذ ذاك. ولما زاد عدد سكان الجزائر سنة 1926م فبلغ الى 5113096 نسمة كان عدد الذين يتكلمون البربرية 1501436 نسمة[2] ولهجاتها تختلف باختلاف الجهات ونواحي البلاد، وتدل الاحصائيات المتخذة في اواخر ايام الاستعمار ان نسبة عدد البربر بارض الجزائر تبلغ 29%.

البحرية الجزائرية:

ان هذا الحوض من البحر الابيض المتوسط معروف لدى المؤرخين بانه مهد الحضارات الانسانية القديمة على اختلافها فعلى شواطئه وضفافه انشأت الحضارة الكريتية والمصرية القديمة والايجية، والفينيقية والقرطاجنية واليونانية والرومانية.. وغيرها..

والجزائر هي احدى ممالك هذا البحر الابيض المتوسط فهي تملك ما يفوق جميع ما كان يملكه غيرها من شواطئه، فتاريخها جزء من تاريخه،وتاريخه صفحة وضاءة من صفحات تاريخها الحافل، ونجد ذلك متصلا ومتواصلا منذ ان استلم الجزائريون راية الملاحة من يد الفينيقيين الى هذا العصر الذي نؤرخه كما بسطناه في بابه فيما تقدم من تاريخ كل دولة من الدول التي تداولت الحكم بهذه البلاد. الا ان اسطول شمال افريقية بشكل عام اصابه فتور بسبب الانقسام السياسي الذي

(1) شارل اندرى جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية تعريب محمد مزالى - البشير بن سلامة: ج 1 ص 68ط تونس 1969م.

(2) Augustin Bernardet et Lacroix: L'évolution du nomadisme en Algérie - Alger Jourdan 1906

اصاب المغرب العربي والاندلس ثم استرجع قوته وعادت اليه أهميته أيام دولة الموحدين التي تمكنت من إقامة دولة موحدة تضم جميع شمال افريقيا واسبانيا، وحينما شنت الدول الاوروبية حروبها الصليبية على المشرق العربي لم يسلم المغرب العربي منها ايضا، ونتيجة لهذه الحروب قويت الاساطيل الاوروبية على حساب الاساطيل العربية واستمرت اسبانيا على المقاومة الصليبية بهجومها على المرسى الكبير (910هـ/1505م)، وفي سنة 914هـ/1508م سقطت وهران وبجاية وفي سنة 916هـ/1510م اضطرت سوانيء دلس او الجزائر لدفع الضرائب وامتد نطاق الغزو الاسباني حتى شمل تونس وطرابلس وتقلصت سلطة مملكة تلمسان التي اضطرت الى عقد معاهدة مع الاسبان سنة 918هـ/1512م وقامت عدة امارات أو مشيخة صغيرة في الجزائر خضع بعضها للاسبان، ودفعت الاخرى الضرائب لهم.

وفي خلال الفترة التي ما بين سنة 920هـ/1514م وسنة 1246هـ/1830م بلغت البحرية الجزائرية الى ذروة عظمتها واصبح اثرها في الحياة الجزائرية ممتازا سواء من الناحية الداخلية او في علاقاتها بالدول الاجنبية. وقد بلغ عدد الجيش البحري في بعض الاحيان الى ثلاثين الفا.

فمن الناحية الداخلية نجد انه بالرغم من تبعية الجزائر للدولة العثمانية فانها كانت من الناحية الفعلية مستقلة استقلالا تاما في جميع شؤونها وقد فصلنا ذلك من تاريخها تفصيلا واذا انتقلنا إلى الناحية الخارجية نجد ان الجزائر كانت عنصرا حيويا مؤثرا في الاحداث التي مرت على البحر الابيض المتوسط في تلك الفترة، وكانت تربطها علاقات بجميع الدول التي لها اتصال بهذا البحر، واذا ما حاولت دولة التمرد على سطوة الجزائر كان اسطولها يضع حدا سريعا لهذا التمرد.

واسبانيا التي كانت ما زالت محتفظة بالمرسى الكبير، هي الدولة الاوربية الوحيدة التي طال تمردها على سلطة الجزائر البحرية ورفضت دفع الضرائب وتقديم الهدايا والعوائد فتعرضت بذلك لغزوات مستمرة من قبل الاسطول الجزائري حتى استسلمت سنة 205هـ/1791م وانسحبت من الجزائر ودفعت مليون (كرونة) ضريبة سنوية بالاضافة الى هدايا بما قيمته 42 الف دولار يقدمها كل قنصل اسباني جديد يعين في الجزائر.

وهكذا كان انبعاث البحرية الجزائرية على عهد الاتراك، وكانت عاصمتها دائما مدينة الجزائر التي مصرها الاخوان عروج وخير الدين واتخذاها عاصمة للمملكة الجزائرية، وبها كان مقر الاسطول الجزائري الا في حالة اذا ضاق الميناء بالمراكب فليلتجىء الاسطول الى ميناء بجاية ولا سيا في فصل الشتاء - وذلك لمناعته الطبيعية - وبمدينة الجزائر اسست المنشآت لصنع السفن والتعدين منها مصنع كان بحي باب الواد لصنع البوارج الضخمة، واخر كان بجوار ثانوية الامير عبد القادر وثالث بباب عزون وهو مختص بصنع اشكال واصناف من السفن التي دون البوارج الضخمة، ورابع كان بناحية باب البحر - الى جانب الجامع الجديد - حيث توجد مخازن الحنايا التي تحت بطحاء ساحة الشهداء.

ووقفت الجزائر في كثير حروبها البحرية الى الانتصار على الاعداء في كثير من الوقائع البحرية البعيدة المدى، حتى انه كانت الدولة العثمانية تعتمد عليها دائما في حروبها الدفاعية، وظل اسطولها يجوب المحيط من بريطانيا وايسلاندا الى جزر الكاناري - الخالدات والازروس، ونيواسكتلاندا وقناة سان جورج بالعالم الجديد باسطا نفوذه على الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط من ناحية وعلى شواطىء اوروبا الغربية من ناحية اخرى حتى قارب ان يتصل باعلى المتجمد الشمالي وهكذا اصبح الاسطول الجزائري طوال القرنين السادس والسابع عشر مضرب الامثال بين الدول في القوة والجرأة والاقدام وهكذا الى اوائل القرن الثامن عشر فأصابه ضعف وهزال، وذلك بسبب ما دهى به من تفاخم صولة اوربا وامريكا وتحزبها ضده.

وللاسطول الجزائري شهرة عالمية في ميدان محاربة القرصنة حتى انه شغل بال الكثيرين ممن كتب عن تاريخ البحرية من الاوربيين القدماء منهم والمحدثين مثل(هايدو) في المتقدمين (وايف لاي) في المتأخرين وما بينهما من كل من كتب تاريخ هذه البلاد...

وقد مر بنا ان ذكرنا ان عدد وحدات الاسطول الجزائري على عهد الاتراك بلغ في بعض الاحيان الى 212 سفينة بل ربما بلغ 600قطعة مختلفة الشكل مجهزة بالمدافع تجهيزا كاملا فاقت به غيرها من مراكب دول المشرق

والمغرب، وكان يتراوح عدد البحارة والنوتيين بكل مركب منها ما بين الثلاثين والاربعين والمائة والعشرين رجلا وقد فاق عدد القراصنة البحرية الستة الاف جندي، وهم خليط من ترك وعرب وبربر ومن اسلم من اسرى اوربيين كانوا يحترفون القرصنة وغيرهم ممن يوجد من هذا القبيل منتشرا فيما بين مرافيء مدينة وهران وبجاية وعنابة وباقي الموانيء الجزائرية الاخرى التي يرابط فيها الاسطول الجزائري.

يقول (وليم شيلر) قنصل امريكا بالجزائر (1815 - 1844م) في كتابة المترجم الى الفرنسية بعنوان Aperçu sur LEtat dAlger ما معناه: «لقد بلغ الجزائريون في هذا الوقت الى اوج قوتهم وسمعتهم حتى ان اعظم الدول البحرية الان تطلب صداقتهم...ان الجزائريين اليوم يتباهون بأن عظمتهم البحرية لا تماثلها بحرية بريطانيا العظمى»...

وكان لطائفة من هؤلاء البحارة شهرة عالمية في تدبير حركة الاسطول وتعرف هذه الطائفة بلقب «الرياس» جمع رايس او رئيس وقد بلغ عددهم سنة 1029هـ/1620م الى ثلاثمائة رايس منهم كجك علي وسليمان رايس، ومامي ارنوط رايس ومصطفى رايس ومراد رايس وغيلان رايس ومحمد رايس وصالح رايس وبيبي محمد، وعلي بتشنين، وابن قرقش قبطان، وعلي عراجي، وقلفاط حسن، وعلج علي الذي قاد الاسطول الجزائري في معركة ليبانط الشهيرة

(979هـ/1571م)وعلي بن عودة رايس، واحمد الزميرلي، ومصطفى المالطي، وعمر رايس، ومحمد بن زرمان وابن طاباق، وقدور بازون - او باصوم - وابراهيم رايس، وولد الترجمان، ويحيى رايس، وهو صاحب القصر الموجود الى الان بجي سوق الجمعة بالعاصمة وعلي رايس وهو صاحب الحديقة الغناء الموجودة بضاحية الابيار بالجزائر وهي المعروفة فيما بعد بجنان الرايس حميدو الذي وقعت به المصادقة على وثيقة الاستسلام بين آخر دايات الجزائر والجنيرال دوبورمون (1246هـ/1830م) واخر مشاهير الرياس هو الرايس حميدو المستشهد في معركة بحرية ضد الاسطول الامريكي قرب بوغاز جبل طارق سنة 1230هـ/1815م.

واليك بعض تفاصيل ايضاحية حول الاسطول الجزائري كما رواها لنا كتاب الافرنج ومؤرخوهم وما سجله السواحون واصحاب الرحلات منهم:

فانهم ذكروا لهذه المراكب ثلاثة اشكال، نوع منها ,, « يسمى الشبك » ونوع يسمى « الغلياطة » ونوع يسمى « اللنتشون » وكلها سفن شراعية ذات صواري طويلة وتجر بالجذاف ايضا فأما الصنف الاول المسمى « الشباك » فهو عبارة عن مركب ذوي ثلاث صواري وثلاثين مجذافاً وحمولته مائتا طن ويتراوح عدد مدافعه من اربعة الى اربعة وعشرين مدفعا وعدد البحارة به من الثلاثين الى المائتين نوتي وهذا الاختلاف في العدد والكم انما يعود الى اختلاف شكل المركب وتباين حجمه والى ما تقتضيه الظروف كذلك، واما الغلياطة فهي مركب يحمل من العشرين الى الثلاثين نوتيا ويبلغ عدد مدافعه الى العشرين مدفعا، واما اللنتشون فهو يخالف جميع انواع هذه المراكب في شكله وفي سرعة سيره، وهذا من غير ما يلحق بالاسطول من طراز الزوارق والقوارب الكثيرة...

ويشتمل سلك ادارة قيادة السفينة - الطاقم - على اثني عشر عضوا: باش رايس - رئيس اعلى - وصوطو رايس - نائبا - ورايس العسة والورديان - نائبه - وباش طبجي - ضابط المدفعية - وباش دومانجي - مدبر دفة المركب او سكانه - ويرقانجي - الموكل بالشراع - وخوجة - كاتب - وخزناجي - محافظ خزينة البارود - ورئيس فرقة الانكشارية، وباش جراح - طبيب جراحي - واغة.

وفيما يرجع الى عدد وحدات الاسطول ومعرفة مبلغه قلة او كثرة، فهذا ما نراه يختلف في تقديره المؤرخون كما اننا نجده يزيد وينقص بحسب اختلاف الظروف وتعدد الوقائع فبينما نرى خير الدين في سنة 943هـ/1536م يسافر في اربعة واربعين جفنا نرى هذا العدد ينقص سنة 975هـ/1568م بأربعة مراكب فينزل الى اربعين ثم ارتفع حوالي سنة 979هـ/1571م الى الخمسين مركبا ثم اننا نراه في سنة 988هـ/1580م يزيد من ناحية فيبلغ الى 25 « فرقاطة » وينزل بالنسبة الى نوع الغلياطة الى خمس وثلاثين جفنا، وفي سنة 999هـ/1591م ارتفع هذا العدد الى 75 قطعة كبيرة وفي سنة 1029هـ/1620م وجد بميناء العاصمة 80 سفينة، وروى لنا (الاب دان) انه كان بميناء العاصمة

سنة 1040 هـ/1630م نحو سبعين مركبا وفيها ما امتلكه الجزائريون من يد الفرنسيين منذ سنوات، وفي سنة 1041 هـ/1632م وجد بالميناء 13 غلياطا كلها تسير بالجذاف وسبعون اخرى من ذوات الشراع، و 23 مركبا من ذوات الثلاثين الى الخمسين مدفعا، وفي سنة 1043 هـ/1634م كان الاسطول الجزائري مركبا من 70 قطعة كل منها مسلح بما يبلغ ما بين 25 الى 40 مدفعا ثم في سنة 1067 هـ/1657م نقص هذا العدد فانحط الى 23 مركبا، ويشتمل كل مركب منها على 30 الى 50 مدفعا. وفي سنة 1072 هـ/1662م كان بالعاصمة منها 22 بارجة وتسع غلياطة ولم يكن في سنة 1092 هـ/1681م من هذه المراكب بميناء الجزائر سوى 17 مركبا وسفينتين كبيرتين فيها من السلاح الثقيل 112 مدفعا، وجاء ذكر هذه السبعة عشر سفينة مسماة باسمائها كلها في تقرير (سيورايي) sieur haYet نذكر منها: فرس الذهب، والوردة، والوريدة، ومدينة الجزائر، والمرزوق والكناريا، والماريكانية، والبرتقيزة، وهذه الاخيرة اسرها الرئيس حميدو من يد البرتغال في المحرم 1217 مايو 1802م وكان على ظهرها 282 اسير، ثم ضاعت فاحترقت مع غيرها يوم ان غزا اللورد ايكسموث الجزائر سنة 1231 هـ/1816م كما ان هنالك اسماء لمراكب اخرى مثل مفتاح السلام، وديك المرسى، ودليل الاسكندرية الخ... واخرى مما غنمتها البحرية الجزائرية فتركتها باسمائها المعروفة بها من قبل، ونقل H.Klein هـ. كلان - عن تقرير القنصل فيقول Fiolle لسنة 1097 هـ/1686م: ان السفينة المسماة بوردة الذهب كانت مسلحة بأربعين مدفعا و «النجوم السبعة» بثلاثين مدفعا و «اسد الذهب» مجهزة باثنين وثلاثين مدفعا، كما انه كان هنالك - بهذا التاريخ ايضا - من المراكب من ذوات القنطرتين او الظهرين عشر سفن كل منها يحتوي على ثلاثين مدفعا، وعشرة من ذوات القنطرة الواحدة تحتوي كل واحدة منها على 14 مدفعا، وتبلغ احيانا الى العشرين. وكان بالمرسى ايضاً مركبان اثنان من ذوات القنطرتين يحتويان على 45 مدفعاً وحراقة مجهزة بعشرين مدفعا وخمسة مراكب اخرى اثنان منها من ذوات الخمسين مدفعا، واثنان من ذوات الثلاثين مدفعا، واخر بمدفع واحد، وكان الى جانب ذلك 39 سفينة للنقل والتجارة.

وجاء في تقرير الدكتور (دوكرافطون Duc de grafton) المؤرخ بيوم 14 اكتوبر 1687م ان مبلغ المراكب الجزائرية على تنوع اشكالها واختلاف وزن

حمولتها بلغت يومئذ الى ستين سفينة كان بها سبعون وخمسمائة مدفعا .

ثم اننا لم نجد بالجزائر سنة 1137هـ/1725م ما يطلق عليه اسم الاسطول الا نحو عشرين سفينة كبيرة، ويذكر القنصل لومير le mair في تقريره المؤرخ بيوم 4 مارس 1752 م ان الجزائر هي هذه السنة كانت تملك ثلاثة ومائة مركب مجهزة باربعمائة وثلاثين مدفعا واثنين وعشرين منجنيقا، اما في سنة 1172هـ/1759م فانها ما كانت تملك الا بارجتين من ذوات الثلاثين مدفعا وتسعة عشر مركبا، وفي سنة 1179هـ/1766م كان بالجزائر اربع وعشرون مركبا، وكل منها يحمل عشرة مدافع وفي سنة 1194هـ/1780م نقص عدد المراكب الى17 سفينة كبيرة بكل واحدة منها من المدافع ما بين العشرة الى الاربعين مدفعا، وجاء في تقرير القنصل الفرنسي (دوكيس) ان الجزائر ما كانت تملك في سنة 1206هـ/1791 سوى 3 سفن تحمل ما بين 40 الى 50 مدفعا، و7 مراكب من نوع الشباك او الشبك وهي تحمل من 12 الى 32 مدفعا و3زوارق تحمل كل واحد منها من 10الى 22مدفعا وعشر مراكب من نوع اللنشتون مدرعة بمدافعها ايضا وهناك نحو خمسين من هذا النوع في طريق التجهيز، وفي تقرير لجنة (دوبوا طهينفيل) Dubois thainville المؤرخ بسنة 1215هـ/1800م قال انه كان بالجزائر يومئذ 16 سفينة فقط، بها 355 مدفعا، ثم نرى هذا العدد يرتفع سنة 1217هـ/1802م الى 66بارجة وبكل منها ما بين 25الى 80 مدفعا بعيد المرمى ثم في سنة 1230هـ/1815م اخذت في النقصان الى احدى واربعين سفينة ولم يوجد في السنة بعدها سوى خمس بوارج واربعة مراكب وثلاثين قاربا، وكلها من ذوات المدافع وليس عند قوطرو gouthrot في ذلك التاريخ سوى بارجتين من ذوات الخمسين الى الستين مدفعا، واثنين من نوع « الكورفيط » ذات الخمسة مدافع واثنين من نوع « البريشك » ذي الثمانية عشر مدفعا واربع غلائط ذات الخمسة عشر الى 26مدفعا ومركب واحد من نوع « اليولاكر » ذي العشرين مدفعا وخمسة وثلاثين قاربا، ويحدثنا القنصل العام للولايات المتحدة الاميركية . شالير عن البحرية الجزائرية في سنة 1230هـ/1815م فيقول: ان الاسطول الجزائري كان مركبا من خمس فراقط fregates ذات38الى50 مدفعا وعلى خمس من طراز الكورفيط corvettes المشتمل كل

واحد منها على 20 الى 30 مدفعا وعلى مركب واحد من نوع البريك Brick أو البريشك واخر من طراز الفالير وهو المعروف في البحرية العربية باسم الشيني او الشونة ،وهو مركب معد للجهاد البحري وهذا النوع هو اقدم انواع السفن واهم القطع التي كان يتألف منها الاسطول الاسلامي والروماني معا ، لانه كان من اكبر السفن واكثرها استعمالا لحمل المقاتلة ، وكانوا يقيمون فيها ابراجا وقلاعا للدفاع والهجوم، وكان متوسط ما يحمله الشيني الواحد 150 رجلا ويجذف بمائة مجذاف [1] ، كما اوضح لنا شالير عدد رجال المدفعية الموجودين يومئذ بالعاصمة فقال انهم كانوا لا يتجاوزون الثلاثين طبجيا ، والطبجي هو جندي المدفعية.

وذكروا انه لم يوجد بسجل البحرية الجزائرية المؤرخ بسنة 1236 هـ/1821م سوى 32 مركبا ولم يبق للجزائر من المراكب في سنة 1240 هـ/1820م حسب الاستعلامات والاخبار التي جمعها او التقطها بيانكي Bianchi الا 17 مركبا وهي مختلفة الشكل والحجم ومجموع ما كان بها من المدافع هو 368 مدفعاً ومن هذه المراكب ما يسمى « مفتاح الجهاد » وهي بارجة تحمل 62 مدفعا « وفوز الاسلام » بها 24 مدفعا و« الفاسية » 46 مدفعا و« ابن الحواس » 50 مدفعا و « المظهر الصافي » 36 مدفعا وهي من نوع كورفيط ، ومن طراز بريقانتين واحدة: امالي لهدي وواحدة تسمى « المجنية » وهي ذات 16 مدفعا ، الخ .. وفي السنة بعدها اضيف الى هذه 8 مراكب مختلفة الشكل والحجم تحمل 4000 نوتيا من غير عدد جيش الطبجية المدفعية.

وهكذا نرى الاسطول الجزائري يتارجح في مبلغ عدد وحداته ما بين ارتفاع وانخفاض ، فبينما نراه يبلغ في سنة 1044 هـ/1634م الى ما يربو عن 600 قطعة مختلفة الشكل والوضع والحمولة نراه في سنة 1137 هـ/1725م ينخفض عدده الى 31 قطعة ثم ينزل الى 24 ثم الى 16 وقدرها . « شو » سنة 1151 هـ/1738م . بما يقرب من ست قطع فقط ويذكر لنا « شالير » قنصل الولايات المتحدة بالجزائر ان البحرية الجزائرية كانت مؤلفة سنة 1230 هـ/1815م من اربع بوارج حربية كل واحدة منها مجهزة بحوالي اربعين

---

(1) راجع تاريخ الاسطول العربي لمحمد ياسين الحموي ط دمشق 1364 هـ/1945م

مدفعا، ومن اربع (نقائر) corvettes ولومانة galeres واحدة وثلاثين زورقا وفي سنة 1238هـ/1822م كانت تبلغ وحداته مابين صغيرة وكبيرة 61سفينة وكل ذلك يرجع فيما اظن الى تطور نشاط الاسطول في نجاحه في غزواته وفي فشله او خيبته في خلال سنة 1242هـ/1827م اصيب الاسطول التركي في نكبــة معركــة (نافــاران) الــتي تعاونــت فيهــا القوات المسيحية بما فيها روسيا في تحطيم الاسطول التركي وحلفائه من الجزائر وغيرها، ولذلك لم تواجه الحملة الفرنسية ضد الجزائر سنة 1246هـ/1830م مقاومة بحرية تذكر اذ لم يوجد بميناء العاصمة يومئذ سوى حوالي 20قطعة من نوع الشبك و11 سفينة كانت في وضعية سيئة حتى اصبح الجاسوس الفرنسي - الضابط بوتان - يصف الاسطول الجزائري في مطلع القرن التاسع عشر بكونه لا شيء تماما والملاحظ ان فترة الصراع الدولي من سنة 1793 الى سنة1815 م. قد اتاحت للجزائر بتجديد قوتها البحرية وقد اشتهر الرئيس حميدو بمجهوده الفعال في اعادة بناء الاسطول الجزائري حتى قدر عدد بحارته سنة 1815م بثلاثين الفا، ولم يقتصر نشاطها في هذه الفترة على حوض البحر الابيض المتوسط فقط، اذ يبدو ان عقد الصلح مع اسبانيا قد فتح امامها مضيق جبل طارق والدخول الى المحيط الاطلسي لممارسة نشاطها على مياهه[1]

كما يلاحظ ايضا انه منذ اوائل القرن التاسع عشر الميلادي شرع الدايات في ادخال تحصينات جديدة على ميناء العاصمة مثل الحصن الجديد وبرج «تاقورة» وبرج «رأس عمار» وبرج الزوبية وبرج باب البحر الخ... حيث يراها المتجول اليوم موجودة في غضون المباني التركية القائمة حول «برج الفنار» بالميناء القديم ويرى النقائش هناك تحمل تاريخ تأسيسها واسم بانيها مكتوبة باللغة التركية تارة وباللغة العربية اخرى[2].

(1) صلاح العقاد: المغرب العربي ص 50ط القاهرة 1961م.

(2) راجع: laye yves: le port d'Alger Alger 1951 - ch. Andre julien Histoire de lafrique du nord, paris 1931 colin, corpus des inscription Arabes d'Algerie, paris 1901 - gustave gauthrot la conquête d'Alger, par is 1929 - H. Klein Feuillets d'Eldjazaif Alger 1912-1913 L. lacoste : la marienne sous les turques paris 1931.

واستمرت سيطرة الجزائر المطلقة على البحر الابيض المتوسط حتى سنة 1230هـ/1815م حيث تغيرت الأحوال وتطورت الظروف مما ادى الى تقهقر البحرية الجزائرية، ومن هذه الظروف التكتل الاوروبي الذي واجه حروب نابليون فبعد هزيمته اجتمع الحلفاء في فينا سنة 1814م وعقدوا مؤتمرا اوروبيا محضا اتفقوا فيه على تصفية الثورة الفرنسية، ومن بين القرارات التي اتخذوها تضامنهم للقضاء على البحرية الجزائرية... ومن تلك الظروف ايضا ظهور الانقلاب الصناعي في اوروبا، حيث اخذت الدول الاوربية تستخدم الاساليب التقنية الجديدة في البحرية وفي الاسلحة، بينما بقيت الجزائر بعيدة عن الاختراعات العلمية الحديثة مما ادى الى تدهور بحريتها وتفوق البحرية الاورباوية عليها... ومن الاسباب الحاسمة التي ادت الى تدهور البحرية الجزائرية معركة (نافارين) التي وقعت سنة 1827م بين الدولة العثمانية والدول الاورباوية واشترك فيها الاسطول الجزائري الى جانب الدولة العثمانية التي استنجدت به، وقد دمر معظم الاسطول الجزائري في تلك الوقعة [1] ومن اسباب هذا الانحطاط في البحرية الجزائرية ايضا ما قامت به شركة بوخريص اليهودية من احتكار تجارة الاخشاب وشططها في اكتساب الربح من الحكومة مع بخس الثمن الذي تدفعه لاهل الغابات الجزائرية، فتوقف هؤلاء عن اقتلاع الاخشاب وتسليمها للشركة، وبذلك توقفت دار الصناعة بالجزائر عن ابتناء السفن الحربية وكان ذلك من اكبر اسباب الضعف البحري الذي لحق الجزائر فعاقها ذلك عن الدفاع عن نفسها امام الحملة الفرنسية [1] حتى اصبحت في سنة 1346هـ/1830م لا تملك سوى بارجة واحدة، ومركب واحد وثمانية من نوع الشبك، و 7 من نوع البرشك. ويخالف الاب P. Dan في هذا العدد فيذكر انه كان بالجزائر يوم سقوطها سبعون مركبا؟... فجميع هذه الظروف ادت الى انهيار البحرية الجزائرية ومهدت السبيل للاحتلال الفرنسي الذي تم سنة 1246هـ/1830م.

---

(1) البحرية الجزائرية (ب) الشركة الوطنية للتوزيع والنشر ط قسنطينة 1966م

(2) احمد توفيق المدني: كتاب الجزائر ص148 ط الجزائر 1350هـ

النشاط الاقتصادي والانتاج المهني والزراعي:

ترتكز الحياة الاقتصادية - في غالب احوالها - بالجزائر على الفلاحة وتربية المواشي والتجارة في الحبوب والشمع وانواع الجلد والحلفاء ومعالجة صناعة الصوف ونسج الحرير والحصر والتقاط المرجان وصنع الفخار والحلى الخ...وكما كان ذلك منتشراً في انحاء القطر شرقا وغرباً: في الجزائر وتلمسان وقسنطينة وندرومة وقلعة بني راشد ومازونة ومناطق جرجرة والاطلسي الصحراوي وبواسطة التبادل التجاري كان ذلك الاتصال بالشركات الاجنبية واطراد التعاضد الواقع بين الجزائر وحجر التجارة في اوربا من فرنسية وانكليزية وايطالية وهولاندية، وما كانت تكتسبه الجزائر كذلك من ربح او ما تغنمه من غنيمة في معاركها البحرية ضد العدو، وفي ذلك يقول التمجروتي في رحلته« .. فبلادهم- يعني الجزائر كانت لذلك افضل من جميع بلاد افريقية واعمر واكثر تجارا وفضلا وانفذ اسواقا واوجد سلعة ومتاعا حتى انهم يسمونها اسطنبول الصغرى ». وكان يصدر عن الجزائر الى اوربا انواع الحبوب من قمح وشعير... والتين والزيتون والزيت والزبيب والتمر والتبغ وريش النعام والجلد والصوف الخام ونسيجه، وكان من اهم محصولات الجزائر، كما يحدثنا به فونتيرددى باراي -- حب الارز الذي يزرع في ناحية مدينة مليانة، قال ومنذ اعوام وقعت زراعته في جهة وادي مينة، فكان محصوله في هاتين الناحيتين معا نحو ستة آلاف قنطار سنويا، وهذا كاف للاستهلاك المحلي، وبذلك وقع تحجير دخول الارز المصري الى الجزائر، حتى ان مسيو (جيمون) التاجر الفرنسي اتى يوما بكمية من ارز دمياط فلم يتيسر له بيعه الا بعد ان تحمل خسارة كبرى وارجع اكثره الى مرسيليا. وثمن الارز الجزائري كان لا يتجاوز سعره العشرة فرنكات الى اثنى عشر فرنكا للقنطار يباع كيلا، فالكيلة عندهم هي الصاع الذي يبلغ وزنه القنطارين قال ومن الممكن زيادة الاعتناء بزراعة الارز والكتان، على ان الكتان قد اصبح محل عناية كبرى وتصنع الان (- 1202 هـ/1788م -) منه اقمشة تستعمل في البلاد وترسل منها الهدايا - احيانا - الى استانبول، ومما يدخل في محصولات الجزائر يومئذ غراسة التبغ وهي فلاحة جاء بها الاتراك وتلقاها عنهم الجزائريون فكان ما تنتجه احواز الجزائر منه هو اطيب نوع للتدخين، وكذلك ما تنتجه منه ارض

بونة – عنابة – فيرسل منه الكثير الى تونس وطرابلس اما السعر فكان لا يزيد النوع العادي منه على 2موزونات للرطل، (16اوقية) واما النوع الرفيع فسعره 3موزونات وهذا سعر الجملة اي بالمائة « قتة » وزن القتة نحو الرطل

كما ادخلت الجالية الاندلسية على مهنة الزراعة والفلاحة بالجزائر انواعا جديدة من الغرس والزرع واساليب اخرى جديدة في الكيف مما جعلها تمتاز عن غيرها كما وكيفا، فان غابة الكروم وحدها كانت تغطي من ارض الجزائر مساحة الفي هكتار وناحية العاصمة منها كانت معروفة بانتاج الجيد من انواع العنب، ويسوغ لكل احد ان يشتري العنب ليعصره خلا او يصنع منه العسل المعروف باسم « الرب » بضم الراء مفخمة أي المربيات او الحلواء المسماة بالكفتة، وهي لاتزال تصنع الى اليوم ببلد « المدية » اوخمرا[1] و« البايليك » -الحكومة- هي التي تسعر ثمن العنب بناء على الحصول منه في كل سنة ففي سنة 1202هـ/1788م حدد سعر القنطار منه بـ 23موزونة، ولا شك ان تحريم الاسلام للخمر بصفة قطعية قلل من شأن اهمية فلاحة الكروم.

وبين مدينة وهران وارزيو توجد سباخ غنية تمد المملكة الجزائرية كلها بالملح، فاذا مرت السفن من هنالك ولم يكن لها ما تحمله ملأت جوفها بالملح واتت به الى العاصمة فيشتريه « البايلك » منها على سعر 22 صولديا[2] ونصف للقنطار وهو يبيعه على سعر 45صولديا والسفينة التي ترسو بارزيو تدفع

---

(1)ومن هنا يتجلى لنا الامر عن وجه ما كان يجري عليه التعامل بين الناس اذ ذاك من ترجيح العمل بمقتضى المذهب الحنفي الذي هو مذهب الحكومة وهو يقضي باباحة النبيذ وبيع عصير العنب لمن يتخذه خمرا، وذهب أبو يوسف الى ابعد من ذلك فأباح للمسلم بيع الخمر والنبيذ وابتياعهما عن طريق توكيل الذمي في ذلك راجع شرح العبادي على كتاب القدوري وبهامشه شرح الميداني على نفس المتن ج 2 ص 366ط القسنطينية 1323هـ والميزان للشعراني ج 2ص71ط القاهرة 1302هـ. والمحلى لابن حزم ج9ص9ط القاهرة 1351هـ وقطب السرور في اوصاف الخمور لابي اسحاق ابراهيم ابن الرقيق القيرواني ص 444مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق وشرح التفتازاني على العقائد النسفية ص 147ط القاهرة 1335هـ والمعيار للونشريسي ج3: باب البيوع ط فاس 1314هـ

(2) الصولدي كلمة لاتينيه ينطق بها هكذا :صوليديوس Solidus وهي اسم لعملة قديمة، وتؤادي هذه اللفظة معنى الجزء العشريني من قيمة الفرنك أو خمس صانتيات منه

معلوما وهو 25 سكة جزائرية كما تدفع قسطا واحدا في المائة لقبطان المرسى.

ومعلوم أن الدولة الجزائرية عرفت - في عهدها التركي - حركة تجارية كبرى مع الخارج، عرفت ذلكُ مع الموانىء الشرقية كما عرفته مع الموانىء الغربية القريبة منها والبعيدة، عرفته مع تونس والمغرب وطرابلس والاسكندرية.

فقد كانت قوافل تجارية هامة تربط بين مدينتي قسنطينة وتونس، ومن اهمها القافلة الشهيرة التي كانت تنطلق من مدينة قسنطينة متكونة من 200 الى 300 بغل محملة ببضائع تبلغ قيمتها مليون فرنكا لتباع يومئذ بمدينة تونس بمليون ونصف مليون فرنكا [1]

وفي الغرب مع مرسيليا وليفورن وبوهيميا وهولاندا وبريطانيا وغيرها من موانىء بلاد الدول الغربية...وكان للجزائر عدة وكلاء منتشرون في الخارج يقومون بمهمة الوساطة في ذلك كما كان كذلك لهذه الشعوب والامم الاجنبية بالجزائر وسطاء...

والجزائر بدورها كانت تستورد حاجاتها الضرورية من الخارج فتجلب الرخام من ايطاليا، والات الحديد والادوات الفولاذية كالسلاسل ومراسي السفن وغيرها من فرنسا، ونسيج القطن والقطيفة والحرير وانواع الاقمشة من مدينة ليون وجنوة، وزجاج البلور من بوهيميا ومن البندقية تأتي بانواع المرايا وبالخزف المطلي من نوع الزليج والقاشاني وانواع الساعات المرونقة والسلاح وملح البارود وجميع أجهزة الحرب ومن بريطانيا العظمى، تستورد شراع السفن والقلاع والحبال والاخشاب الغليظة لانشاء السفن من هولاندا وبريطانيا وتستورد من بلاد الشرق انواعا من السلاح كالخناجر والسيوف والسكاكين والملابس الفاخرة والسجاجيد والاواني الخزفية كانواع الصيني المزخرف، وتأتي بالعقاقيروالتوابل من بلاد هنالك متفرقة.

وأما ما كانت تصدره الجزائر للخارج على وجه التبادل التجاري سنويا فانه

---

(1) د. ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800 - 1830م) ص198 ط الجزائر 1979م

حسب ما ذكره فونتيردي بارادي هو كما يلي: 8 آلف قنطار جزائري من الصوف الوارد على العاصمة غالبا من ناحية التيطرى. ويخرج من ميناء بونة عنابة - 12 الف قنطار من الصوف ايضا وقد تبلغ احيانا الى 16000 قنطار وكانت العاصمة تبعث الى اوربا بنحو 25 الف فروة حيوان المقدر ثمنها اذ ذاك بنحومائة الفليرة (700000 فرنكاو مايقرب من المليون فرنكا). وفي سنة 1203 هـ/1788م صدر عن كل من ميناء العاصمة وبونة - عنابة وارزيو وتادلس - دلس - 150 الف حمولة من مختلف انواع الحبوب والخضروالفواكة باستثناء القمح خاصة فانه لا يساق للخارج الا بعد الحصول على رخصة من طرف الداي، ومثله في ذلك الشمع والعسل، وذلك حرصا ومحافظة على الغذاء الرئيسي والمواد الاولية للسكان.

ويذكر لنا نفس المصدر بعض التفاصيل عن صادرات الجزائر الى هولاندا وبريطانيا وفرنسا لسنة 1204 هـ/1789م فيقول بانها بلغت خمس الى ست مراكب مملوءة بالجلد ومثلها كذلك من الصوف والشمع وذلك ما يقدر بثلاث واربعمائة قنطار سنويا، باضافة حمولة اخرى من الزيت، قال وقد يبلغ عدد المركب المحملة الى اوروبا سنويا نحو خمسة عشر مركبا. وفي سنة 1229 هـ/1814م صدرت اربعين الف راسا من البقر الى الجيش البريطاني في اسبانيا.

وكما يفيدنا بهذا الشأن ايضا مع شيء من التفصيل الاستاذ شالير ويليام Shaler wiliam نقلاً عن مصدر وثيق ينبيء بتفاصيل محققة دقيقة عن سير الحياة الاقتصادية بالجزائر لسنة 1237 هـ/1822م وهي كما علمت من سنوات التخلف في الانتاج الجزائري، فقال بأن ثمن الصادرات لهذا السنة بلغ 273000 دولارا اسبانيا، وهو ما يقدر ب 1365000 فرنكا، منها 800000 فرنكا في مقابلة ثمن الصوف الصادرة الى مرسيليا وليفورن وجنوة و 40000 فرنكا في مقابلة الجلد، و 90000 فرنكا للشمع، 75000 فرنكا لسوى ذلك من مختلف البضائع والسلع وهذا تفصيلها:

بلغت الصادرات الى مرسيليا وليفون وجنوة الى	20000	قنطارا
فمن الصوف بسعر ثمان دولارات للقنطار	160000	دولار
و10 آلاف قنطار من الجلد بسعر 8 دولارات للقنطا	80000	

600 قنطار من الشمع بسعر 30 دولار للقنطار	18000	,,
ومن ريش النعام وغيره	150000	,,
	273000	دولار

ورفع بعضهم هذا المبلغ الى 1479660 فرنكا؟...

واما الواردات فهي كما يلي:

بضائع وسلع متنوعة من بريطانيا العظمى والهند	500000	دولار اسباني
ومن اسبانيا: حرير وديباج وسكر وفلفل وبن المجلوبة من مصانع المانيا وبريطانيا	300000	,, ,,
ومن فرنسا: سكروبن وفلفل وفولاذ ومنسوجات وغيرها	200000	,, ,,
ومن الشرق حرير خام ومصنوع	100000	,, ,,
ومن فرنسا ايضا وايطاليا: مصوغ وحلى ومجوهرات الخ..	100000	,, ,,
المجموع	1200000	دولار اسباني

ورفع هذا العدد بعضهم الى 6504000، فرنكا؟...

وبناء على الحساب الاول يكون معدل الخسارة التجارية سنويا: 927000 دولارا ويلاحظ الكاتب الفرنسي (فانتوردي بارادي) Venture de paradis فيذكر لنا التبادل التجاري الذي وقع بين الجزائر والخارج لسنة 1203 هـ/1789م ولا سيما ما كان منه مرتبطا بمرسيليا وليفورن والبلاد الشرقية قال انه تصاعد من مليون وتسعمائة ليرة الى مليونين ومائة الف ليرة[1].

واذا اخذنا بعين الاعتبار الميزان التجاري في اواخر القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر فاننا نجد ان مجموع قيمة المعاملات التجارية بين الجزائر واوروبا - حسب المعلومات التي اوردها شالير قنصل الولايات المتحدة بالجزائر والتي تعود الى سنة 1822م نجدها تبلغ 1473000 منها 1200000 دولاراً للواردات فقط و273000 دولار للصادرات.

اما اذا اخذنا بعين الاعتبار تقرير اللجنة الافريقية فاننا نجد ان المعاملات التجارية الجزائرية الاروباوية كان يبلغ مجموع قيمتها 4800000 ف منها

laye yves: le port d'alger p. 69-65 Alger 1951 (1)

2200000ف للواردات و 2600000 للصادرات، وهي تتنوع في اهميتها كما يلي: 0,125 لانكلتيرا، ومثلها للبندقية، 0,25 لهولاندا ومثلها لفرانسا[1]

وتأتي بعد الدول الاورباوية في التجارة مع الجزائر مدن اخرى من الشرق الادنى مثل استانبول وازمير اللتين كانتا تصدران الى الجزائر الغزل والقطن. ومدينة بروسيا تصدر الحرير والاواني النحاسية والغلايين، والاسكندرية وطرابلس تصدران الزرابي والاواني الخزفية والقطن والاقمشة والارز والبن وقد بلغ مجموع عدد السفن التجارية التي نزلت ميناء الجزائر سنة 1789م حوالي 80 مركبا منها 30 سفينة فرنسية ومثلها من اسبانيا وثمانية من صقلية و 3 سفن من تركيا و 4 من دول شمال اوربا و 3 من ليفورن ومثلها من الاسكندرية. وعندما تعرض شارل اندري جوليان للتجارة الجزائرية الخارجية في كتابه «تاريخ شمال افريقيا» قال: كانت التجارة الخارجية الجزائرية مزدهرة، وكانت تقدر في ذلك العهد بعشرة ملايين ذهبا.

ودائما مع فانتورد دي بارادي، وهو معنا هنا يفصل لنا اسعار المواد الغذائية الرائجة يومئذ بالجزائر - العاصمة - فيقول: «...والطابق - يعني الربع من الكبش يساوي من 20 الى 24 صوليديا، ويرتفع قليلا في فصل الشتاء فيبلغ الى 30صولديا والكبش يساوي في الصيف من 5 الى 6 ليرات وفي الشتاء 10 ليرات واحيانا يساوي فرنكين ونصف واما الدجاجة فثمنها ثمن بوجو او 9 صولديات والمائة بيضة بفرنك واحد وعشرين سنتيماً والخبز الرفيع يساوي صولديا للخبزة الواحدة التي وزنها 10 اوقيات والزويجة حمام 9صولديات. قال والتركي لا يأكل في الغالب الا لحم الضأن ولا يأكل الدجاج ولا اي طائر ماعدا البط الوحشي. وكذلك لا نراه يهتم للاسماك كثيرا ولا يأكل لحم البقر الا مضطرا ويفضل عليه لحم البعير، قال واجرة الدار المتوسطة تبلغ من 30 الى 40 فرنكا في السنة[2] وكاد المؤرخون يجمعون على رخص اسعار المواد الغذائية في هذا الحقبة من الزمن بالسواحل الجزائرية بسبب ما

---

(1) د. سعيدوني: النظام المالي... ص 76.

(2) احمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا ص 192 - 194 ط الجزائر 1356هـ

Ventrue de paradis, Alger au 18 eme siecle revue africaine 1895 p: 290

هنالك من انتشار مهنة قنص السمك وتصبيره، وذلك وحده كاد ان يكون كافيا لسد حاجة سكان الموانىء.

وكان فيما كتبه الرحالة الالماني موريتس فاغنر في وصف مقاهي مدينة الجزائر (1836م) ان قال: وتقدم القهوة في فناجين مصنوعة من الخزف فوق صحون من الصفيح ويوضع فيها مسحوق السكر، وهي قوية الطعم الى حد ما ولكنها لذيذة، وتكاد رواسب البن تملاء الفنجان، ويقدم للمرء معها غليون احمر ذو قصبة طويلة وتبغ من النوع الممتاز قال: وثمن ذلك كله سنتيم واحد، ولا يتصور المرء ان هناك متعة اقل ثمنا من هذه [1].

ولا يخفى ما كانت عليه حال الحواضر الجزائرية من انتشار نظام الاسواق المتنوعة في بضائعها ومصنوعاتها واختلاف اصناف المهن والحرف اليدوية بها، فنجد هنا سوقا خاصا بالحدادين، وهنالك سوقا للرصايصية وسوقا خاصا بالمقايسية، صانعي الاساور والخواتم من عظم الجاموس - وسوق الذكير - الفولاذ - وسوق الصفارين لصنع اواني النحاس وتمويهها بالقصدير، وسوق الصياغين - الصاغة - وسوق الدباغين، والصباغين والمقفولجية - صانعي الاحذية - والقنداقجية، صانعي خشبة البندقية وسوق التشاقماقجية للسلاح، وسوق الخراطين والفراغية - لاذابة القطع المعدنية وسبكها، وكان لخصوص هـذه الصناعة مصنع كبير بالعاصمة يعرف باسم دار النحاس بجي باب الواد قرب ثانوية الامير عبد القادرففيه كانت تفرغ المدافع ولقد ظفر الفرنسيون في هذا المكان يوم احتلاله بـ 1800 مدفعا، وفيه كانت تصنع القنابل والقذائف النارية، وهذا من غير معامل بلاد زواوة التي كان يسبك فيها الحديد قطعا عمودية ويبعث به الى اسواق العواصم الجزائرية. يقول (وليام شالير) قنصل امريكا بالجزائر قبيل الاحتلال: ان المعادن الوحيدة في المملكة - الجزائرية - هي الرصاص والحديد الذين تستعمل منها القبائل كمية كبيرة تصنعها بنفسها.

---

(1) ابو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان ص 64ط الجزائر 1975م

وذكروا أنه كان بالجزائر - التركية - انواع كثيرة واصناف متنوعة لشتى المهن والصناعات بلغت نحو الستين صنفا وفيها ما كانت الجزائر تفوق غيرها في تحضيره والفضل في ذلك يرجع الى الجالية الاندلسية التي أمست وفودها تتهاطل على أرض الجزائر أفواجا أفواجا....، واغلب رجالها كان يتقن على الأقل نوعا من اصناف الصناعة أو فنا من فنون الحضارة... مع ما جاء به المشارقة - من اتراك وغيرهم من صناعات وفنون الى هذه البلاد وما نشأ عن ذلك المزج من التفاعل الذي اخرج للناس فنا جزائريا ممتازا.

جاء في تقرير لبعض السواح الاجانب الذين تجولوا بالقطر الجزائري سنة 1033 هـ/1623 م انه كان يوجد لصناعة الصوف بالعاصمة يومئذ 200 نول، يصنع فيها انواع واشكال من النسيج من بسط واغطية وسجاجيد وبرانس واردية وملاحف وشاشية - غطاء الرأس - الخ... ولصناعة الحرير 3000 نولا وكان ما يصنع بها هو اتقن واكثر متانة مما يصنع باوربا كما حقق ذلك بنفسه فونتيردى بارادى، وفيها ما كان يصنع حسب ذوق اهل المشرق فيرسل به الى من يستعمله هنالك، ومنه ما كان يباع هنا بالشمال الافريقي مثل الحزام، للتمنطق به، كما وجد بالعاصمة نحو الف ومئتي معلم يشغلون مهنة الخياطة، وستمائة تاجر في دود القهز، وفي مدينة قسنطينة وحدها وجدوا ثلاثة وثلاثين معملا للدباغة وخمسة وسبعين مصنعا لصناعة السروج، وسبعة وستين ومائة مصنع للاحذية و 18 فرنا لطهي الخبز و22 طاحونة مائية ومصنعا واحدا كبيرا للسلاح، وبتلمسان وجدوا اكثر من خمسمائة معملاً للنسيج وللجلد والخشب والحديد، وفي بلاد بني مصاب - مزاب - وجدوا اكثر من ستة آلاف عامل لصناعة الزرابي وحدها،

وجاء في تقرير لسائح اجنبي آخر نزل بالجزائر سنة 1151 هـ/1738م، أحصى فيه ما كان يوجد بالعاصمة من اصحاب الحرف والمهن الشعبية عموما فذكرانه شاهد بنفسه ثمانين ومائة مصنعاً للسكاكين والسيوف وماشاكلها من خناجر وغيرها من انواع السلاح الابيض المطعم بالفضة وغير المطعم وكذلك صناعة التعدين وحتى تعاطي ضرب السكة المزور،... وهذا من غير بقية الحرف اليدوية الاخرى كالفنون التقليدية والنقش والبناء والتزويق والطرز

الخ.. ولوحظ انه كان لكل طائفة من طوائف الصناع شارع خاص أو سوق مستقل يعرف بهم وهم يعرفون به، وذكر حمدان عثمان خوجة في المرآة ان الجنيرال الفرنسي كلوزيل هو الذي امر بتهديم سوق (القيسارية) حيث تباع الكتب وبه كان يوجد النساخون للكتب، وهو الذي كذلك أمر بتحطيم سوق اخرى تعرف بسوف(المقايسية)وهي اساور تصنع من قرون بقر الجاموس، كما ان هذا الجينيرال نفسه ايضا امر بهدم سوق الصباغين التي تصبغ فيها الثياب كما هدمت ايضا سوق (الفرايرية) حيث تصنع ادوات الحديد مثل اقفال البيوت والدكاكين واجهزة الزناد والبنادق الخ.. ولم يبق من بنيان هذه الاسواق - أي على عهد حمدان خوجة - سوى ثمانية دكاكين كل منها منفصل عن الاخر)، قال وعندما هدمت هذه الاسواق الثلاثة تلاشى قسم كبير من صناعة البلاد، وكذلك هدم القائد كلوزيل بمشاركة الدوق دوروفيقو سوقا أخرى تسمى بالسوق الكبير حيث تباع الاقمشة وانواع الخيط وتصنع به اشرطة الحرير وانواع الازرار والقيطان والظفائر وقد هدمت ايضا المخازن الخاصة بصيادي الاسماك... وبهذا نفهم معنى قول حمدان بن عثمان خوجة في مرآته: ... ان الحكومة التركية كانت تعين السكان وتساعدهم على المشاريع التي يتخذونها وسيلة لانماء ثروتهم، كما انها تحميهم في طريقهم الى الغنى، لكونها على يقين بأنها ستصبح غنية بسبب غنى هؤلاء السكان » وهذا ما ينبغي فعله لمن يريد الخير لامته وشعبه ووطنه.

ولقدلاحظ المؤرخون أن دولاب التجارة الواسعة كانت بيد اليهود، رغم أنهم كانوا مستذلين وذلك لما يتعاطونه من الربا في المعاملة مع ما كان لهم من الأولية التي اعطيت لهم في التجارة مباشرة مع الشركات الاجنبية ومع الخواص من الاجانب، وكان اهم الشركات الاجنبية التي كانت تحتكر تجارة الجزائر هي الشركات الفرنسية والبريطانية منها la compagnie des indes (1719-1730) الفرنسية التي تحولت فيما بين (1730-1794م) الى الشركة الملكية الافريقة compagnie Royal d'Afrique ثم تحولت بعد الثورة الفرنسية الى الوكالة الوطنية الافريقية Agence nationale d,Afrique ثم الى الشركة الافريقية التي كان مركزها مرسيليا.

أما أهم الدول التي كانت تتعامل مع الجزائر فهي فرنسا، وقد ظلت شركاتها تحتكر مدة طويلة تجارة الجزائر مثل (شركة لانش) في القرن السادس عشر (1560م) ثم شركة الباستيون التي اسسها سانسون فوبليون بمقتضى اتفاقية 29 سبتمبر 1628م ومنحها الدايات حق الامتياز في صيد المرجان وانشاء مراكز في شرق الجزائر مقابل التزامها بدفع 16000 جنيه استرليني سنويا الى خزينة الجزائر، ثم شركة مرسيليا التي عرفت بالدار الفرنسية ثم بالشركة الملكية بعد أن عادت تشرف عليها الحكومة ابتداء من سنة 1741م وقد بلغت قيمة الصادرات من مدينة الجزائر الى فرنسا سنة 1775م حوالي النصف مليون جنيه، وكانت قيمة الواردات الجزائرية لسنة 1789م بلغت حوالي 8 آلاف جنيه منها حوالي النصف كانت تقع مع الشركات الفرنسية. وعند اعلان الحرب على الجزائر (1830م) كانت مستودعات ميناء بونة مفعمة بأنواع من البضائع والسلع تنتظر الشحن الى فرنسا ولا سيما من منتجات المرجان والشمع والجلد والصوف. ويأتي الشركات البريطانية في الترتيب التجاري بعد فرنسا ويذكر شو: انه في اواسط القرن الثامن عشر كان التجار البريطانيون يستوردون حوالي 8000 طن من الحبوب من ميناء ارزيو لتموين مستعمراتهم بجبل طارق سنويا وان الشركات البريطانية كانت تحتكر التجارة مع مدينة الجزائر [1]. وكثيرا ما كان اهل البوادي من الرحل وسكان الصحراء يتعاطون التجارة بطريق المعاوضة فيستبدلون بعض منتوجات الصحراء بما هم في حاجة اليه من مرافق الحياة وضروريات المعاش. واغلب المعاملة التجارية كانت تجري بين الناس مقايضة يدا بيد فلا تداين الا من ضرورة، وما من حرفة من الحرف أو مهنة الا ولها نقيب رسمي يسمى بالامين فهو الذي يشرف على سير اصحاب تلك المهنة، ويسهر على منع الغش والتدليس والضرب على يد الانتهازيين ويسعى لحماية حقوق المنتج يشبه وظيفة شيخ المدينة في بعض مناحية الادارية وهناك المحتسب المعروف عمله في النظم الاسلامية ولا تزال الى اليوم هنا عندنا بالعاصمة عائلتان عريقتان يتلقبان بذلك احداها بأمين الامناء، والاخرى بالمحتسب، ولكنه اليوم اصبح اسما بلا مسمى.

---

(1) علي عبد القادر حليمي: مدينة الجزائر نشأتها وتطورها ص 303 – 307 ط الجزائر 1972م.

وازدحمت مدائن الجزائر بتجارة الرقيق كما كان الشأن بتونس وسائر اقطار المغرب العربي وغيره وأخذ عددهم يتزايد عاما فعاما، وجل هؤلاء الاسرى كان من جنس الاسبان والانجليز والفرنسيين والطليان... وبذلك اصبحت تجارة الرقيق نافقة في نواحي المغرب واصبح الاعتماد على هذا الصنف من التجارة عظيما.

ولقد كانت القرصنة في اواخر القرن السادس عشر الميلادي مورد رزق وواسطة كسب لحكومة الجزائر ولاهلها، واصبح هؤلاء يؤلفون الشركات ويبنون السفن ويجهزونها بالعدد اللازمة ويرسلونها في البحر تغزو وتعيش، فتأخذ السفن غصبا وتنهب البضائع التي فيها قسرا وتسطو على ركابها فتسوقهم اسارى من رجال ونساء واطفال وتباع بعد ذلك الاموال والارواح في اسواق الجزائر فتأخذ الحكومة من ذلك نصيبا معلوما ويقسم الباقي على أصحاب السفن والبحرية الجزائرية فيحصل للرئيس 40 سهما، وللملاح - النوتي 3 سهام ومثله يحصل عليه الخوجة والباش طبجي والاغا ولرئيس العملة سهان اثنان، ومثله مدبر دفة المركب وللاسرى المسيحيين 3 سهام، وللجند الخالي من الالقاب سهم واحد.

واذا كان الأسير من أسرة ذات شأن أو ثروة أو وجاهة فنعم الغنيمة هي، اذ كان اقارب الاسرى وحكوماتهم المتبوعة هي، وبعض رهبانيات النصارى يفكون من كان هكذا شأنهم بمبالغ طائلة[1].

ومما يؤخذ على الحكومة يومئذ تساهلها مع الحكام والولاة في تسلطهم على الاسواق واشتغال بعضهم بالتجارة واهتمامهم بمساهمة التجار فيها ومزاحمة الرعية في كسب المعاشر واحتكارهم لتجارة الرقيق على الأخص. وهو عمل ممقوت انتقده علماء الاقتصاد ومقته علماء السياسة والاجتماع قديما وحديثا، وقالوا بانه عمل مضر بسير الحركة الاقتصادية بين الرعية وتضييق على الشعب، وتحطيم الكفاءات إذ هو عمل يقضي على التنافس والتزاحم الغريزي الموجود في طبع الشر وذلك لأن الانسان مجبول على حب التنافس والتفوق والسبق الى الاتيان

---

(1) راجع تعليق الامير شكيب ارسلان على كتاب حاضر العالم الاسلامي ج 2ص167ط القاهرة: 1352م

بعمل أفضل وأرفق وأوفق بالمستهلك ، وعمل الحكومة أو رجال الحكومة في هذا يقطع لهم طريق الوصول الى استثمار المال ويميت فيهم الأمل الذي هو سر التقدم في الحياة العامة والزحف الى الأمام ، فيحصل حينئذ ركود عام يهوي به الشعب الى أحط درجات الفقر والضعف ، وهذا عمل يعاكس الطبيعة والجبلة التي فطر عليها البشر! وذلك علاوة على ما يؤدي اليه هذا العمل عرقلة الجباية ومسالك دخل خزينة الدولة التي تنفق منها في مصالحها العامة مدنياً وعسكرياً.

وان المبدأ الصحيح الذي يجب القيام به والعمل عليه في هذا الميدان هو العمل على مسايرة مزايا الانسان التي خلقها الله فيه من من مساعدته على استغلال مواهبه والانتفاع تنفيذ بفطرته وتطبيقها في دائرة العقل والشرع، فالانسان خلق كما يقول حكيم الشرق الإكبر السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله خلق على حب الاختصاص والرغبة في الامتياز ، فهما الحاملان على المنافسة السائقة الى المباراة والمسابقة ، فلو سلبتها افراد الانسان لوقفت النفوس عن الحركة الى معالي الأمور ، واغمضت العقول عن كشف اسرار الكائنات واكتناه حقائق الموجودات وكان الانسان في معيشته على مثال البهائم البرية ان امكن له ذلك وهيهات هيهات[1]

وهذا منتيسكيو مؤلف كتاب (روح القوانين) يقص علينا فيما يرويه في كتابه في هذا المعنى قصة الأمبراطور (تيوفيل) وزوجته (تيودورا) فقال:

«ان الامبراطور شاهد يوما سفينة تحمل امتعة لزوجته هذه ، فأمر باحراق المركب قائلا لزوجته: انا امبراطور ، وانت تريدين ان تجعليني رب سفينة!... كيف يستطيع الناس الفقراء ان يكتسبوا أقواتهم اذا نحن زاحمناهم؟...» وساق منتيسكيو هذه الحكاية في فصل من كتابه المذكور تحت عنوان: (ان الامير يجب ان لا يتعاطى التجارة ابدا) وواصل المؤلف كلامه متعمقا في بحثه عن هذه الظاهرة الشوهاء آتيا بالحجج والشواهد التاريخية على صدق دعواه في حكمه هذا كاشفا عن الاضرار التي تلحق بالشعب من تعاطي السلطان للتجارة فقال: «عندما كان البرتغاليون القتشاليون يحكمون الهند الشرقية كان للتجارة

---

(1) جمال الدين الافغاني: رسالة ابطال مذهب الدهريين. تعريب الشيخ محمد عبده ص 33ط القاهرة 1312هـ

فروع رائجة جدا، مما حمل امراءهم على الاستئثار بها وذلك ادى الى تقويض مؤسساتهم في تلك البلاد[1] وفي ذلك يقول مؤرخنا العظيم ابن خلدون:

«ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية وان استحداث التجارة والفلاحة للسلطان هو غلط عظيم في سياسة الملك. وأنه ضرر عاجل للرعايا من وجوه عديدة.. ومضايقة لهم... ويدخل بذلك على النفوس غم ونكد... وهو مع ذلك فيه فساد للارباح ونقص للعمارة... ويؤدي بقبض أمال التجار والفلاحين عن السعي في ذلك جملة فيفسد نظام الجباية، وان معظم الجباية انما هي من الفلاحين والتجارة لا سيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها. فاذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة او دخلها النقص المتفاحش واذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين الارباح القليلة وجدها بالنسبة الى الجباية أقل من القليل، ثم انه ولو كان مفيدا فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانيه من شراء أو بيع فانه من البعيد ان يوجد فيه من المكس، ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تكسبها كلها حاصلا من جهة الجباية، ثم فيه التعرض لاهل عمرانه واختلال الدولة بفسادهم ونقصه، فان الرعايا اذا قعدوا عن تثمير اموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت وكان في ذلك اتلاف أحوالهم فافهم ذلك. وهذا ما رأيناه وافق عليه اليوم كثير من علماء الاجتماع والاقتصاد السياسي وشاهدنا من خالف ذلك ذل وافتقر. ثم قال ابن خلدون:

«...واعلم ان السلطان لا ينمي ماله ولا يدر موجوده الا الجباية. وادرارها انما يكون بالعدل في اهل الاموال والنظر لهم بذلك، فبذلك تنبسط آمالهم وتنشرح صدورهم للأخذ في تثمير الاموال وتنميتها فتعظم منها جباية السلطان واما غير ذلك من تجارة او فلح فانما هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة

وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين في البلدان انهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلادهم (او يستجلبوها من الخارج) ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاءون ويبيعونها في

---

(1) ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص 212. القاهرة 1961

وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضونه من الثمن (كما يفعل بعض المفوضين من المتصرفين في تسيير النظام الاشتراكي في بعض الحكومات اليوم)، وهذه اشد من الأولى واقرب الى فساد الرعية واختلال احوالهم، وربما يحمل السلطان على ذلك من يداخله من هذه الاصناف اعني التجار والفلاحين لما هي صناعته التي نشأ عليها، فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه في جمع المال سريعا!... سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس؛ فانها أجدر بنمو المال واسرع في تثميره، ولا يفهم ما يدخل على السلطان من الضرربنقص جبايته، فينبغي للسلطان ان يحذر من هؤلاء ويعرض عن سعايتهم المضرة بجباته وسلطانه[1]

وكان الفرس يشترطون على من يولونه منهم ان لا يتخذ ضيعة فيضر بجيرانه ولا يتاجر فيجلب غلاء الاسعار في البضائع.

ثم ان الاحتكار بصفة عامة هو مما منعته الشريعة الاسلامية باجماع اهل المعرفة بالفقه، ولقد ورد فيه من الوعيد الشديد ما يبلغ بصاحبه الى أقصى منتهى الخزي والعار!...

ولقد سبق الى تقرير هذه القاعدة الاقتصادية الهامة واقرارها في الحياة العامة كل من الخليفتين العمرين رضي الله تعالى عنهما، فان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص ايام ولايته على مصر ينهاه عن الاشتغال بشأن الزراعة والتجارة آمرا له بتركها للرعية فقال: «فانكم أيها الرهط الامراء جلستم على عيون المال - أي خياره لم يفزعكم عذر، تجمعون لابنائكم وتمهدون لانفسكم، اما انكم تجمعون العار، وتورثون النار؟!... وأما الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز فانه كانت له سفينة يحمل فيها الطعام وهو امير المدينة فيبيعه فيها، فنهاه محمد بن كعب القرضي (117هـ/735م) عن ذلك وقال له: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيما وال تجرفي رعيته فقد هلكت رعيته» قال فأمر بذلك الطعام فتصدق به وفكها وتصدق بخشبها.[2] وقرر في دستور حكومته الرشيدة ما يلي:

---

(1) مقدمة ابن خلدون، ص 137 — 138 ط بولاق 1274هـ

(2) بن الازرق: بدائع السلك: ج 1 ص 216 ط تونس 1977/u139م

« ونرى أن لا يتجر امام، ولا يحل العامل تجارة في سلطانه الذي وهو عليه، فان الامير متى يتجر يستأثر ويصب امورا فيها عنت وان حرص على ان لا يفعل[1] وكتب لبعض عماله: « ان تجارة الولاة لهم مفسدة وللرعية مهلكة، فامنع نفسك ومن قبلك عن ذلك »[2]

وكيفما كان الامر فان المستوى المالي لبلاد المغرب على الاطلاق كان لا يعين على قيام دولة قوية حديثة تستطيع ان تنهض باعباء التنظيم والدفاع - كما يقول الدكتور حسين مؤنس - واخطأت حكومة الجزائر نفس الخطأ الاقتصادي الذي وقعت فيه كل دولة اسلامية غيرها، وهو اهمال عيون الثروة في البلاد والاعتماد في إملاء الخزانة على ما يرد من الاسلاب والغنائم وارباح الحروب فاجتمع اهمال الحكومة الى اهمال الشعب، وتدهورت مرافق البلاد تدهورا سريعا خطيرا جعلها في حال هي اقرب الى الافلاس والاملاق[3].

وفي موضوعنا هذا ورد حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم اخرجه الطبراني في معجمه الكبير انه قال: من اخون الخيانة تجارة الوالي في رعيته وشرحه الشيخ عبد القادر المغربي (رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع اللغة العربية بمصر والمجمع اللغوي العراقي، المتوفي سنة 1956م) فقال: وذلك بأن يتاجر - اي الوالي - بالبضائع في اسواقهم ويزاحمهم متاجرهم ومعاملات مصارفهم، فتحجز عنهم الارباح التي دخلت جيبه هي حقهم لو عفه وتركها لهم واهتم بأمر وظيفته، فهو بذلك كأنه قد خانهم. ويحتمل ان يكون المراد بقوله (تجارة الوالي في رعيته) ان يعقد الوالي مع حكومات اخرى عقودا سياسية او اقتصادية ضارة بمصالح رعيته او باستقلال بلاده لقاء منفعة ينالها هو من تلك الحكومات فيكون بذلك قد جعل رعيته سلعة تاجر بها وجر الربح لنفسه على حسابها وكفى بهذا خيانة!..[4]

وفي حديث من رواية جابر قال: دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض،

(1) راجع البلاذري، وسيرة عمر بن العزيز لابن عبد الحكم ص 83 ط القاهرة 1954م.
(2) محمد بن الازرق: بدائع السلك في طبائع الملك، ج 1 ص 215 ط تونس 1397هـ/1977م
(3) الشرق الاسلامي ص 319
(4) الاخلاق والواجبات: ص 179 - الجامع الصغير ص 318. بولاق 1290هـ

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما انه قال: «من اشراط الساعة تجا
السلطان» يريد الفناء والخراب والدمار، ومن هنا نتبين خطأ بعض الحكوما
الاسلامية وغير الاسلامية التي تبنت المذهب الاشتراكي اليوم فوقعت رعي
فيما لا تحمد عقباه فحصل لها مثل ما قد حصل لمن سلك هذا المسلك من الأمم السال
كأمة الرومان على عده الامبراطور (دقلديانوس 359 م) فكانت عاقبتهم الخيبة (و
ديورانت: قصة الحضارة ج 3م 3 ص362 ط القاهرة 1964م) والعاقل من اتعظ
بغيره. وكفى الإسلام شرعة ومنهاجا... وجملة القول فليس هناك أخطر على ام
من ان نلبسها مذهب امة اخرى دون نظر الى طبيعتها، وحاجاتها، وحجمها
ودوقها، وروحها، وتقاليدها، وعاداتها...

المذاهب الفقهية والعقائدية

انما نعنى هنا بالمذاهب والمعتقدات الاسلامية منها خاصة لا خارج الاسلام؛ اذ قد تكلمنا على ذلك فيما تقدم،

ان اول ما عرف هذا الوطن الاسلام عرفه بواسطة اولئك الابطال الفاتحين من العرب الذين اخترقوا أقطار المعمورة فيما بين المحيط الاطلسي والخليج الفارسي وتقدموا الى ما وراء ذلك فابعدوا في الفتوح شرقا وغربا برا وبحرا مبشرين ومنذرين مستشهدين في سبيل الله.... كل ذلك فعلوه في مدة وجيزة لم تتجاوز نصف القرن الاول من تاريخ الاسلام

ولم يكن لهؤلاء لفاتحين في دينهم مذهب عقائدي أو فقهي - اصطلاحيا - سوى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه مما وعوه في صدورهم من أثر صحيح او خبر متواتر، وهكذا سار النظام الاسلامي الاساسي بهذه الديار ايام الفتح الاولى، وغاية ما بلغ اليه اهل المغرب يومئذ في اخذهم بالتقليد ان عملوا على الخطة التي قررتها البعثة العلمية او نقول لجنة الفقهاء العشرة من التابعين الذين بعث بهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله الى افريقية سنة لتلقين اهل المغرب تعاليم الإسلام ومبادئه العامة[1].

---

(1) راجع تاريخ الجزائر العام، ج 1 - طبقات علماء افريقية لابي العرب - رياض النفوس للمالكي ج 1 ص 64. القاهرة 1951م

واستمر أهل المغرب على هذا إلى ان ظهر من بينهم الخوارج (122هـ/740م) فنشروا فيهم مذهب الاباضية كما تسربت اليهم بعض عقائد المعتزلة ثم كان لهؤلاء دولة في الجزائر هي الدولة الرستمية (160هـ/776م) بتيهرت، والمذهب الحنفي يومئذ منتشر بالشرق الجزائري وبتونس ايضا تحت رعاية الخلافة العباسية التي كان يمثلها بهذه الديار ولاة بني الاغلب (184هـ/800م) وكان اول من اظهر المذهب الحنفي وعمل على نشره بهذه الربوع هو ابو محمد عبد الله بن عمر بن فروخ الفارسي 172هـ/788م) قال عياض: « ... ظهر مذهب ابي حنيفة بافريقية ظهورا كثيرا الى قرب اربعمائة سنة فانقطع منها، ودخل منه شيء الى ما وراءها من المغرب، قريبا من جزيرة الاندلس وبمدينة فاس[1] ولم يزل اهل تهودة - بحوز بسكرة - على مذهب اهل العراق الى اواسط القرن الخامس الهجري[2]

وجاء دور الدولة الادريسية (172هـ/788م) فجاء معها مذهب مالك، إذ يروى عن مؤسسها ادريس الاول انه قال: نحن أحق باتباع مذهب مالك وقراءة كتابه - الموطأ - فأخذ به العلماء وارتحلوا الى مالك للاخذ عنه مباشرة، وكان علي بن زياد التونسي (183هـ/799م) هو اول من جاء بكتاب الموطأ الى افريقية وروايته لهذا الكتاب مشهورة توجد منها قطعة صالحة بمكتبة القيروان ثم انتشر هذا المذهب في كامل هذا المغرب الكبير على يد اسد ابن الفرات (213هـ/828م وسحنون (240هـ/854م) وزار المقدسي المغرب في هذه الاونة فكتب في رحلته ما شاهده من الوفاق والوئام السائدين يومئذ بين اهل هذين المذهبين - المالكي والحنفي - فقال: « ... وما رأيت فريقين احسن اتفاقا وأقل تعصبا من اهل القيروان، وسمعتهم يحكون عن قدمائهم حكايات عجيبة حتى قالوا: انه كان القاضي سنة حنفيا وسنة مالكيا ... »

وهكذا الى أن ظهرت الدولة العبيدية - الفاطمية - بافريقة (296هـ/909م) فعملت على نشر مذهب الشيعة الاسماعيلية - من آل البيت الى ان حدث ما كان هنالك من التطاحن بين المالكية والشيعة على ما هو مبسوط في غير هذا

---

(1) ترتيب المدارك ج 1 ص 65 ط الرباط 1383هـ/1965م

(2) انظر البكري ص 145/144/82/72 ط الجزائر 1911م

المكان الى ان قضى على هذا المذهب الشيعي حماد بن بلكبين الصنهاجي بالجزائر سنة 407 هـ/1017م) واستعاض به المذهب المالكي ووقع الاقتصاد عليه في سائر انحاء مملكته من تراب الجزائر ثم افتى به امير القيروان المعز بن باديس سنة 435هـ/1043 م) فعمت المالكية البلاد شرقا وغربا الى أن امتلك الموحدون المغرب العربي كله (539هـ1145م) فظهر فيهم ميل الى العمل بالكتاب والسنة والاخذ بظاهرهما واستنباط الاحكام منها مباشرة وحملوا رجال العلم على ذلك ورغبوهم فيه فعاشت هذه الفكرة او قل الطريقة اياما قليلة ثم تلاشت واضمحلت بذهاب دولتهم وعاد الناس الى التمسك بمذهب مالك ثم لم يكن بعد ذلك ظهور « ولا ذكر لمذهب ابي حنيفة ولا لغيره بالجزائر الى أن ظهر الاتراك بهذه البلاد سنة 920 هـ/1514م فعملوا على نشر مذهبهم الحنفي السائد يومئذ بالمشرق وجاؤوا بالفقهاء الحنفية من بلادهم فاسندوا اليهم رئاسة القضاء واحدثوا منصب الافتاء تقليدا لدار الخلافة العثمانية باستانبول فعم بذلك المذهب الحنفي المغربين الادنى والاوسط - تونس والجزائر - كما نصبوا الى جانبه المفتي المالكي [1] ووظفوا لكل من المذهبين قاضيا لفصل الخصومات التي تعرض عليه من طرف اتباع مذهبه، وهناك « المجلس الشريف » وهو المجلس الشرعي او العلمي كما يسميه بعضهم، المكون من قاضيين ومفتيين وكاتبين برتبة باش عدل وتارة يحضر جلساته الباشا نفسه، وفي هذا المجلس يقع الفصل في القضايا الكبرى وتعقب فيه احكام القضاة ويسمع فيه الى المتظلمين من الحكام والولاة أو غيرهم من ذوي السلطة القانونية والشرعية فينصفهم المجلس: وكان من صلاحياته ايضا تعيين ناظر الاوقاف وناظر المعارف المشرف على

(1) لا يخفى وان ترسيم منصب المفتي وعده من جملة النظم الاساسية في الحكومات الاسلامية عامة حدث اثر تخلي الخلفاء وتباعد الامراء عن الجانب الروحي في الاسلام مندفعين في ولايتهم وراء السلطة الزمنية فاضطروا الى من يعطي سلطانهم جلال الدين وحرمته فاحتاجوا الى الفقهاء واصبح لا بد لاعطاء اوامر رجال الدولة طابعا شرعيا من تأييدها بفتاوى فقهية ونصوص شرعية، فظهر حينئذ ترسيم منصب الافتاء او اصحاب الفتيا وهم اهل الشورى وكان لهم شأن عظيم في الاندلس ثم في الدولة التركية ومن ثم اصبح الافتاء او منصب مشيخه الاسلام وظيفة ثابتة ثبوت الوظائف الحكومية وهي الى ذلك حيلة سياسية اتخذها الحكام حتى لا يفر العلماء من قبضة الحكومة ايضا؛ ومن هنا جاء استيلاء الحكومات على الأوقاف والأحباس عامة.

التعليم وترسيم المدرسين الخ... وينعقد هذا المجلس في مركزه الدائم - الجامع الاعظم - بالعاصمة في كل يوم خميس، وهو اشبه بديوان المظالم على عهد دولة المماليك بمصر التي قلدت فيه الدولة الفاطمية قبلها.

ولقد ظل هذا المجلس قائم المفعول متعثرا في سيره بعيد الاحتلال الى ان ضم اليه الاستعمار شخصية فرنسية زج بها بين اعضائه المسلمين فذهب عنه بهاؤه وانكسفت شمسه وامحى عنه جلاله الى ما بعد سنة 1276هـ/1859م وما هي الا ايام قلائل حتى انتشر عقده فتعطل المجلس تماما بموجب قرار استعماري والزم الاهالي برفع قضاياهم الى مجلس الاستئناف المحدث بدار العدالة الفرنسية، واعضاءه كلهم فرنسيون او من تشملهم الجنسية الفرنسية من مستوطني اليهود والاسبان والطليان وغيرهم... وانحصر نظر القاضي الشرعي في دائرة الفصل او الحكم الابتدائي في الاحوال الشخصية دون غيرها من النوازل والقضايا الجنائية او المدنية والتجارية والمالية الخ..

ولم يتورع رجال الاستعمار الفرنسي عن التعرض الى نفس هذه المحاكم الشرعية المحدودة النظر فعملوا على حذفها في نواحي بلاد القبائل الزواوية وابطلوها بقرار صدر يوم 15رجب 1251هـ/28اوت 1874م واستبدلوها بنظام (الجماعة الاهلية) التي تبنى احكامها على العرف والتقاليد المعتادة من غير التفات الى احكام الفقه الاسلامي وتوظيف موثق بالناحية، عزما منهم على فصم عرى الوحدة الاسلامية بين أهل البلاد وحلا للرابطة القومية وتفريقا بين المؤمنين كما فعلوا بالمغرب الاقصى يوم أن اصدروا مرسومهم المعروف بالظهير البربري (26مايو1930م) وذلك نهاية منهم في تحقير شأن الشريعة الاسلامية وإهانة لأهلها، وهذه صورة تاريخية اخذت للمجلس العلمي حالة انعقاده في اواخر ايامه بالجامع الاعظم، ومن حسن الحظ ان حافظت الرواية السماعية المتواترة على إسماء هؤلاء المشائخ الذين تصدروا هذا المجلس، فهم من اليمين الى الشمال.

- الجالسون: مصطفى ابن السمان باش عدل حنفي - احمد بن جلول باش عدل مالكي - مصطفى غياطو قاضي المالكية - حميدة العمالي مفتي المالكية - الحاج محمد غرناوط مفتي الحنفية - الحاج احمد بن الحاج مصطفى العلج قاضي الحنفية



- الواقفون: الحاج حمدان - الشيخ ابن القبطان - ابن باش طبجي (اعوان).
- الجالسان بالارض: علي لابريط وكيل شرعي - ابن ربراب وكيل شرعي.

صورة المجلس العلمي - الشرعي -

وفي الثلاثينات الاولى من تاريخ الاحتلال الفرنسي للبلاد زار الجزائر السائح الألماني هاينريش فون مالتسان، وفيها كتب رحلته « ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا » وكان فيما تعرض له في رحلته هذه ان تعرض لدراسته المجتمع الجزائري من نواح شتى وذكر المذاهب الفقهية الاسلامية المتبعة في الجزائر يومئذ فقال عن المذهب الحنفي انه هو المذهب الذي كان « يدين به اغلب الاتراك بما في ذلك السلطان الأعظم. وبما ان حكام الجزائر من سنة 1514 الى 1830م كانوا من الاتراك فقط فإن المذهب الحنفي كانت له رتبة الامتياز، فكان تبعا لذلك مذهب الأسرة الحاكمة، ومسجده - الجامع الجديد - اجمل المساجد واغناها اما المذهب المالكي الذي كان يدين به أمويو اسبانيا وخلفاء قرطبة وجعلوه مذهبا لهم في خلافة المغرب فهو اليوم مذهب أغلب العرب والحضر.... ومساجد الجزائر كلها باستثناء الجامع الجديد المذكور

آنفا تابعة للمذهب الاخير »[1] ونسي أو اغفل الرحالة ذكر جامع سفير وجامع السيدة وجامع علي بتشيني وهذه ايضاً تابعة للحنفية كما يوجد بمدينة البليدة جامع للحنفية وقل كذلك في قسنطينة والمدية ايضا، واما العقائد فانها كانت ولا تزال على مذهب الاشعرية والماتريدية. وفي ذلك يقول عبد الوهاب السبكي في طبقاته: ان المالكية باجمعهم واكثر الشافعية هم اشاعرة اما الحنفية فيرجحون مذهب الماتريدي.

وبعد ان زالت دولة الاتراك وتقلص ظلها من هذه البلاد قل اتباع المذهب الحنفي ولم يبقَ الا عدد ضئيل جدا في بعض العواصم الجزائرية مثل العاصمة ومدينة البليدة والمدية وتلمسان وقسنطينة اذ غلب عليه المذهب المالكي كما هو الامر في بقية الشمال الافريقي، وانكمش مذهب الاباضية متقلصا الى الصحراء بأرض الشبكة من بلاد بني مصاب - مزاب - كما انه انحاز بتونس الى جزيرة جربة وبطرابلس الى جبال نفوسة وهو مذهب العامة بعمان وزنجبار.

واما من حيث العقائد واصول الدين فأهل الجزائر بل اهل المغرب قاطبة - كلهم على مذهب اهل السنة - اشاعرة وماتوريدية - فهم على هذا منذ نشر ذلك بينهم ابو الحسن القابسي (403 - 1012م) والف رسالته لمناصرة مذهب الاشاعرة ثم زادهم رسوخا وتمسكا بهذا المذهب ما تلقوه عن ابن تومرت من الدروس ايام مقدمه من الشرق (515هـ/1121م) فتغلغلت في صدورهم هذه العقيدة وتمكنت من قلوبهم منذ ذلك العصر الى الان حتى قال في شأنهم تاج الدين ابن السبكي - وهو من علماء القرن الثامن الهجري: «والمغاربة لا يحتملون احدا يعارض الاشعري في كلامه ولا يعترض عليه »[2] ما عدا الاباضية فان لهم منحنى اعتزاليا.

وفي العصر المتأخر هذا ظهرت فئة قليلة من المتنورين تدعو الى الاخذ

---

(1) انظر الرحلة تعريب الدكتور ابو العيد دودو ص 23 — 24 ط الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر 1976م

(2) طبقات الشافعية الكبرى ج 5 ص 48 ط القاهرة 1324هـ

بالعقيدة السلفية ممعنة في التمسك بمبادىء الاصلاح الديني والاجتماعي الذي دعا اليها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ولا سيما بعد ان زار هذا الاخير مدينة الجزائر وتونس سنة 1321هـ/1903م واجتمع فيهما بأعيان العلماء وقادة الفكر الحر، منهم شيخنا المنعم المبرور عبد الحليم بن علي بن سماية وشيخنا ابو القاسم الحفناوي والشيخ محمد بن مصطفى الكمال رحمهم الله والقى الشيخ درسه العام في التفسير بجامع الحاج مصطفى الاكحل القائم الى الان بربض الحامة في حي (بيلكور) بالجزائر، وكان موضوع الدرس تفسير سورة «والعصر» وطبع بمصر.

ولم تعرف الجزائر في تاريخها الاسلامي كله ذلك النزاع او الجدل الديني والخلاف المذهبي الذي عرفته من قبل على عهد بيزنطية ولا ما عرفته الاوطان الاسلامية الاخرى، من الخصام الناهض حول مسائل الخلاف بين المذاهب الاسلامية اصلا وفرعا على نحو ما كان قائما بين اهل السنة والمعتزلة والشيعة وغيرها من اهل الملل والنحل والطوائف والفرق الاخرى في البلاد الشرقية كل ذلك لم تعرفه الجزائر في تاريخها الاسلامي.

ولا يفوتنا ان نذكر هنا ظهور حركة اصلاحية ترمي الى الاجتهاد دعا اليها عالم جليل من علماء الجزائر في القرن الماضي الا وهو ابو عبدالله محمد بن علي السنوسي (1202هـ/1276هـ - 1787م/1859م) ولد هذا العالم الديني في مدينة مستغانم من ولاية الجزائر ونشأ بها ودخل تونس والمغرب وطرابلس وبرقة ومصر ومكة وعارض بعض علماء القاهرة، واشتد غيظهم عليه حتى كادوا ان يودوا به لولا مهاجرته القاهرة، قال الشيخ محمد عبده: «ان الشيخ السنوسي كتب كتابا في اصول الفقه زاد فيه بعض المسائل على اصول المالكية وجاء في كتاب له يدل على دعواه انه ممن يفهم الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد او مجتهدين، فعلم بذلك احد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم في علماء الجامع الازهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لانه - في نظره - خرق حرمة الدين واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين، وربما كان يجتري الاستاذ على طعن الشيخ السنوسي بالحربة لو لاقاه، وانما الذي خلص السنوسي من الطعنة ونجى الشيخ المرحوم من

سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة، هو مفارقة السنوسي للقاهرة قبل ان يلاقيه الاستاذ المالكي[1]

ولا ادري كيف منع الاستاذ المالكي عفا الله عنه من مخالفة بعض اقوال المجتهدين وهو يعلم ان هناك كثيرا من التابعين من خالف بعض آراء الصحابة، ويعلم مخالفة الشافعي لشيخه مالك نفسه كما انه يعلم مخالفة اشهب وابن القاسم لمالك ومخالفة الصاحبين لابي حنيفة في مسائل شتى.. الخ...؟؟... اليس في اعتراض الاستاذ المالكي على الشيخ السنوسي هذا تضييق لمتسع وتحجير على العقل وقضاء على المواهب؟ وايصاد لباب الاجتهاد في الدين الذي لو تركه امثال هذا الاستاذ المالكي على حاله مفتوحا - كما قال احمد امين - لرأينا العجب من فلسفة المسلمين الاصيلة وبعد نظرهم ومبلغ جدهم، ولرأينا كذلك العجب العجاب من نمو الفقه وتطوره مما يناسب كل عصر، ولكنهم جازاهم الله عن عملهم ضيقوا في الدين واسعا وحرموا على انفسهم ما احله الله، وليسوا يبيحون لانفسهم ان يواجهوا مسألة جدت ولم يكن لها في الماضي نظيره ولا ان يقدروا عمل االزمان في تغيير الاحداث والاحكام فنحن احوج ما نكون الى طائفة مجتهدة تماشي العصر وتشرع للزمان.

لقد ملىء العالم انقلابات خطيرة في الصناعة كالطيارات والغواصات والقاطرات والقنابل الذرية والراديو والتلفزيون وغيره من آلاف المخترعات - وها هو الانسان اليوم قد بلغ بنفسه الى عالم القمر فنزل به وغرف منه غرفات - وكل هذا يتطلب تشريعات جديدة، فمثلا الطائرات تقتضي بحثا في مدى ملكية الامة لسمائها وهل يجوز لطائر من امة ان يطير بطائرته في سماء امة اخرى من غير اذنها ونحو ذلك من المشاكل...

قال: وكثيرا ما كان الشيخ محمد عبده رحمه الله يستفتي في مسائل جديدة تواجه المسلمين كلبس البرنيطة وايداع المال في صناديق التوفير، واكل ذبائح

---

(1) الاسلام والنصرانية ص 113 — 114 ط القاهرة 1223 هـ وجاء في تعليق ناشر الكتاب وهو الشيخ محمد رشيد رضا قال ان الاستاذ المالكي المومى اليه هو الشيخ محمد عليش رحمه الله.

النصارى ونحو ذلك، فكان يجتهد ويشنع عليه في اجتهاده ولولا اجتهاده هذا لحار المسلمون في امرهم.

واستمر احمد امين في حديثه عن مزية الاجتهاد وما يؤدي اليه الجمود من العواقب الوخيمة فقال:

«اما هذا الجمود واغلاق العين عما يحصل فنتيجة اهمال الساسة الفقه الاسلامي والاتجاه الى غيره من القوانين الغربية كما حدث في عهد الخديوي اسماعيل، فقد روى انه طلب من جمهرة من العلماء ان يجمعوا له الاحكام من سائر المذاهب المختلفة ولا يتقيدوا بمذهب واحد، وان يعدلوا عن بعض المسائل في مذهب الى غيرها اصلح منها في مذهب آخر فلم يقبلوا فاضطر الى التشريع على اساس القانون الفرنسي وانشاء المحاكم الاهلية، فكان ذلك ضربة كبرى على التشريع الاسلامي.

ولو كان مصطفى كمال قد رأى من علماء المسلمين مرونة واجتهادا ما التجأ الى القوانين الاوربية ينقلها بحذافيرها من غير مراعاة لوطنه، ومن هذا نرى اننا نحتاج الى ثورة فقهية وثورة ادبية بجانب الثورة السياسية[1] العارمة القائمة اليوم.

واذا نظرنا الى التصوف وهو مما يتصل بالعقائد والمذاهب الاسلامية ايضا فاننا نجده في هذا العصر قد خرج عن المعروف به من العكوف على العبادة والانقطاع الى الله عز وجل والاعراض عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ومتاع وانفراد عن الخلق للعبادة وجدناه قد خرج عن هذا كله، وسلك به مدعوه ميدان الدجل والدروشة والاستغلال، ولا غرو في ذلك فان الشعب التركي يومئذ معروف بميله الكبير الى هذه الدروشة والاعتقاد في اصحابها واهل الطرق والخوانق والخوارق والتكايا والزوايا على اي حال كانوا، ان صلحوا وان فسدوا!...

ومع ان الاسلام كان كما انه لا يزال هو دين الدولة والشعب الرسمي العملي فانه كان للاجانب المواطنين بهذه الديار الحرية المطلقة في

---

(1) مجلة الازهر غرة المحرم 1372هـ/21 سبتمبر 1952م.

معتقدهم،فنجداليهودي حرا في اقامة طقوسه الدينية مع تطبيق احكام شريعته كما يراها احباره، ومعبده محترم، فكان لليهود منها بالجزائر - العاصمة اربعة عشر معبدا ،والمسيحيون كذلك سواء من كان منهم في المعبد او في المستشفى او في السجن او في غير هذه الامكنة مما لم توجد فيها بيع ولا كنائس، فدياناتهم محترمة، يقول لوجي دوطاسي Laugie de tassy في تقديمه لكتاب هولاندي طبع في امستردام سنة 1725م ثم ترجم الى الفرنسية وطبع بباريس سنة 1727م قال: « ... ففي الميدان الديني نجد احسن شيء وأروعه التسامح، وهذا التسامح هو موجود في الجزائر ويستحق سكانها الشكر والاعتراف بالجميل.... وان حكومة الجزائر لها سلوك ممتاز في هذا الميدان، فانها تترك الحرية التامة للمتدينين الساكنين ببلادها، وبقدر ما يشتهر عندهم الانسان بالتدين الا ويرتفع قدره عندهم ويحترمونه ويحمونه »[1].

ويقول دوقرامون de grammont انه كان بالعاصمة الجزائرية وقتئذ معبدان اثنان للنصارى الكاثوليك واخران لليهود، اما النصارى الاوثودوكس فانهم لم يكن لهم بالجزائر سوى معبد اغريقي يقوم عليه راهب واحد، ولم يكن للبروتيستانت يومئذ ظهور بالجزائر[2].

الثقافة والحضارة والعمران:

من المعلوم ضروره عن الترك ولا سيما منهم العثمانيون فانهم في سائر اطوار حياتهم، وادوار حكم ملوكهم وسلاطينهم منذ عرفهم التاريخ وعرفوه الى الان - كما يقول الدكتور غوستاف لوبون -: ليسوا بأمة حضارة مبدعة فرغم طول مكثهم بهذا القطر من ارض المغرب الاسلامي لم نر لهم مدينة انشأوها او ارضا مواتا اخصبوها مثلما فعل من قبلهم ممن حكم هذه البلاد او تعاقب عليها من الدول والحكومات فيما قبل الاسلام او بعده، فهذه تيمقاد وجميلة الرومانية وهذه القيروان العربية، وهذه المهدية والمسيلة العبيدية وهذه تيهرت الرستمية، وهذه بجاية والقلعة الحمادية وهذه اشير والجزائر والمدية ومليانة

---

(1) مجلة الاصالة ص 131 عدد 14 — 15 - الجزائر 1393هـ/1973م.

Feuillets D'eldjazair ,p : 45 — 1912 ,f 4 p :45 Alger 1913 (2)

الزيرية، وتلمسان الزيانية ومراكش المرابطية وهذه فاس الادريسية وتونس الحفصية الخ... فأين ما يقال عنه هذه كذا التركية؟... اين ما انشأه الاتراك بجانب هؤلاء ممن ذكرناه مع ان مكث الاتراك بهذه الديار كان اطول من مكث كثير من غيرهم ممن ذكرنا من الدول، وقد امتد سلطانهم شرقا وغربا وطالت ايام امبراطوريتهم نحو ستة قرون ولا يكاد يعرف لهم في كامل هذه الامبراطورية الشاسعة الا رجاء شيء ذو بال يذكرون به في تاريخ العمارة اللهم الا بعض القصور بنوها سلاطينهم او مساجد وتكايا للعبادة او ثكنات للحرب، وما كان شغلهم الشاغل الا الحرب والغزو، نعم لقد كانت لهم في هذا الميدان مواقف هامة مشرقة ورهيبة ترتعد لها فرائص اقوى ملوك اوربا فرقا لزمن طويل من سلاطينهم الذين قاموا مقام القياصرة واحلوا الهلال محل الصليب الاغريقي فوق آيا صوفيا وبسطوا نفوذ الاسلام في الافاق، هذا حق وصدق.

فالترك وان استطاعوا ان يؤسسوا دولة كبيرة وامبراطورية عظيمة فانهم اثبتوا عجزهم عن ابداع حضارة في كل زمن وكان اقصى جهودهم ان يستفيدوا مما اصبح تحت ايديهم من علوم العرب وفنونهم وصناعاتهم وتجارتهم، ولم يقدر للترك ان يتقدموا خطوة واحدة في هذه المعارف التي ازدهرت ايام سلطان العرب[1].

وما الحضارة في الجزائر على عهد الاتراك الا خلاصة او قل هي عصارة لمدنيات اجيال وامم عريقة في القدم والمدنية تعاقبت على هذا الوطن وتقدمت وجود الاتراك بهذا القطر باحقاب فخلفت وراءها في مجرى تاريخ الحضارة بالجزائر من الاثر ما هو من حالتها الراهنة، ذلك ان الجزائر كانت ولا تزال ملتقى تيارات مختلفة لاساليب واوضاع شتى ولأنواع من الفنون والصناعات فهناك مثلا نجد بها الطابع البربري الاصيل ونجد الى جانبه الفن الفينيقي والروماني والبيزنطي والعربي والتركي والاندلسي والاوربي الحديث مع امتياز خاص وتفوق للمظهر البربري العربي على غيره وكأن الجزائر بذلك اصبحت بوتقة تصهر فيها مدنيات الامم وحضاراتها فهي دائما في تفاعل مستمر تلتقط الجديد من انتاج العالم وتخضعه لطبيعتها لتكيفه بطابعها الخاص.

---

(1) حضارة العرب لغوستاف لوبون.

ويذكر لوبون في معرض حديثه عن الصناعات التقليدية عند - البربر - فيقول انهم «ذوو استعداد صناعي يكفي لصنع ما يحتاجون اليه من مختلف الادوات والنسائج والاسلحة والحلى الخ... وهم يرسلون الى الخارج ما يزيد من مصنوعاتهم فقال: ورأيت بين ما يصنعونه من الحلى ما لا يقل دقة عما نراه في مخازن اكثر الصاغة الباريسيين اناقة[1] وهناك جهات معلومة من ارض الجزائر كانت تصنع بها الاسلحة النارية وذلك لوجود بعض مناجم في مناطق حولها. كما اشار الى ذلك حمدان بن عثمان خوجة في المرآة

ولا يضير الجزائر اذا قلنا هي دائما في تفاعل مستمر تقتبس الجديد من انتاج العالم مستثمرة لخلفات تراث الامم التي تعاقبت على حكمها، فان ذلك لا يمس بكرامتها اذ هو امر طبيعي وقاعدة اجتماعية عامة، فان الحضارات جميعاً والثقافة باصنافها انما هي سلسلة متصلة الحلقات مرتبطة بالناس جميعا، ليست ملكا مقصورا او حجرا محجورا. فلكل جيل ولكل امة الحرية المطلقة في ان يقتبس او يتلقى عن الغير ممن عاصرها او تقدمها ما يتلاءم مع ميولها النفسانية والعقلية فظاهرة الاقتباس هي ظاهرة عالمية، وليس للحضارة او للثقافة جنس معين او وطن محدد، بل هما ملك للانسانية جمعاء ومرافق عامة مشاعة بين الناس كافة، فما الحضارة او المدنية - كما يقول ول ديديورانت: الا ثروة زاخرة تجمعت على الايام من الفنون والحكمة والوان السلوك والاخلاق، ومن هذه الثروة الزاخرة يستمد الفرد في تطور غذاء الحياة العقلية ولولا ان هذا التراث البشري يهبط الى الاجيال جيلا بعد جيل لماتت المدنية موتا مفاجئا...[2]

ولقد اثبتت البحوث العلمية ان اصول الفن اليوناني مقتبسة من الاشوريين والمصريين... وان العرب والاغريق والرومان والفينيقيين والعبريين وكل امة اخرى استفادوا من مجهودات الماضي ولولا ذلك لكان لزاما ان تبدأ كل امة بما بدأت به الامم الاخرى ولسد باب التقدم[3].

---

(1) حضارة العرب لغوستاف لوبون ص 305. ط القاهرة 1367هـ/1948م.

(2) قصة الحضارة 1 ص 126 ط القاهرة 1956م.

(3) حضارة العرب ص 27

وفي ذلك يقول الامير شكيب ارسلان رحمه الله: «فلا يعلم الخلق مدنية *واحدة من مدنيات الامم الا وهي رشح مدنيات سابقة وتراث اقوام درجوا*، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية، ومجموع نتائج عقول مختلفة الاصول ومحصول ثمرات الباب متباينة الاجناس[1] فقلما نرى كشفا علميا او اختراعا حديثا متكاملا من جميع وجوهه الا وقد شارك في اخراجه للوجود جمع او جيل من الناس فكان الامر في ذلك يجري مجرى اقتباس الامم في لغتها والتقليد في استعمال الفاظها وكلماتها - لبعضها بعض وقد اصبحنا الان وليس منا من يزعم او يدعي ان هناك لغة خالصة من كل شائبة اجنبية وكذلك نقول في الحضارة. والوقع اننا لم نر للفن الجزائري على عهد الاتراك مسحة وطنية صرفة او هي كذلك اجنبية عنه تماما، بل نراه كما هو عليه الان: الفن الممتزج الذي تجتمع فيه عناصر مختلفة ففيه من الفن البربري المحلي وفيه مما ورد عليه من المشرق والغرب ومن هنا وهناك... فانظر الى الزي واللباس مثلا والى الاثاث والى مظاهر الزخرفة والزينة وهندسة البناء والعمارات والموسيقى وحتى في الوان الطعام واشكال الطبخ والحلويات تجد في ذلك اخلاطا وانماطا ولا سيما في الحواضر والمدن التي يكثر فيها الافاقيون وينتشر فيها المهاجرون واللاجئون فتحقق لنا بذلك انه لم توجد قط ثقافة او حضارة لم تتأثر بثقافة جيرانها اعداء لها كانوا او اصدقاء والمتفنن دائما وابدا هو يعاني طابع بيئته اينما حل وحيثما كان، وهذا ما يجعل لفنه وادبه واثره قيمة تاريخية وهو يبلغ من اشباعه بذلك ما تبصر معه جميع مظاهر الزمن الفنية مشتملة بلا استثناء على طابع الفصيلة التي تمكن ان تؤرخ بها[2].

ولا داعي الى التكرار - هنا بذكر ما كنا المعنا اليه فيما تقدم من انواع الصناعات والحرف المختلفة الموجودة اذ ذاك بالجزائر بل تكفي مراجعته في مكانه من فصل الاقتصاد والانتاج المهني.

ولا ينبغي ان يفوتنا هنا الالماع الى اصل من اصول فن الطرز الجزائري

---

(1) حاضر العالم الاسلامي ج 1 ص 113 ط القاهرة 1352هـ.

(2) فلسفة التاريخ لغوستاف لوبون ص 103 ط القاهرة 1954م.

الذي كان له حظ وافر في تكوين الجيل على الاقل، والا وهو ما كان يعرف في العواصم الجزائرية باسم «دار المعلمة» وهو عنوان عام كان يطلق هنا على مدارس البنات، ولقد كان لهذه المدارس الاثر الحسن في خدمة الفنون الجميلة وتكوين الذوق الفني في الوسط العائلي وبين النساء خاصة، وان شئت تعريفا تحليليا لهذا المركز النسوي فقل هو مدرسة صناعية خاصة بالنساء من نوع ما نسميه نحن الان مركز التعليم الصناعي للبنات ففي هذا الحرم يتعلم البنات التطريز والتشبيك وصناعة زخرفة الملابس ونسيج الزرابي والخياطة والفصالة والطبخ وترتيب البيت وشيئا من آداب السلوك، وحسبك ان تلقي نظرة على ما بالمتاحف الجزائرية ولا سيما منها متحف الفنون التقليدية ومتحف الاثار القومي ومتحف باردوا - كلها بالعاصمة - لترى ما هنالك من نفائس اخرجتها يد البنت الجزائرية المصونة كما تجد شطرا من ذلك في بعض البيوتات الجزائرية المحافظة العريقة، وفي ذلك ما يكفيك للاستدلال بنفسك على ما كان هنالك من بدائع الفن الجزائري ومبلغ حضارة الاسرة الجزائرية في الميدان الصناعي ومجال الفن في الداخل والخارج.

ويعجبني هنا ما حكا المقري الجد (795 هـ) في كتابة التحف والطرف مما سمعه من بعض الفقراء يقول: «لو قدر أرسطو قدر (البرنس) في اللباس وقدر (الكسكس) في الطعام لاعترف للبربر بحكمة التدبير الدنيوي وان لهم قصب السبق في ذلك»[1].

وفي مجال الانشاء والتعمير ما نشاهد بعضه اليوم منبتا في مختلف مدن الجزائر فمؤرخو الافرنج انفسهم يشهدون بأنهم وجدوا بالعاصمة يوم حلولهم بها ما يزيد على خمسة عشر الف منزل وثمانية الف حديقة محيطة بالمدينة، وستا وستين ومائة مؤسسة دينية، فكذلك قل في العواصم الجزائرية الكبرى مثل قسنطينة وتلمسان ووهران الخ... فكلها كانت مكتظة بالدور والقصور والقلاع والحصون والمساجد والمدارس والاسواق، فهذا الجنيرال بروصور **Brosort** يعترف بأنه هو نفسه امر بتحطيم ما يزيد على تسعمائة منزل مما كان قائما بضواحي العاصمة، كما ان هؤلاء الافرنج انفسهم ذكروا في مؤلفاتهم التاريخية انهم

---

(1) بن الازرق: بدائع السلك ج 2 ص 807 ط تونس 1397هـ/1977م.

وجدوا بقسنطينة خمسة وتسعين معهدا دينيا، وبوهران (1132هـ/1720م) خمسمائة واثنين وثلاثين منزلا، واثنين واربعين محلا عموميا مثل الحمامات والملاجىء وغيرها...كما انهم وجدوا بتلمسان 1043 عمارة للسكنى، كل واحدة منها تؤوي 14 ساكنا، وفي المعسكر 812 عمارة، وفي بجاية 265 عمارة الخ...

ولقد بلغ الاعجاب باحد الضباط الغزاة الفرنسيين الذين صاحبوا الحملة فقال: «ان هذه الارض التي قيل لنا انها متوحشة وخالية من السكان، وجدناها مغطاة بالمساكن الريفية الجميلة، تحيط بها البساتين، وكلها مبنية فوق مرتفعات تتناقض حركاتها المتموجة مع شواطىء.«بروقانس القاحلة».

وكانت الاحياء السفلية بالنسبة الى احياء الناحية المرتفعة من العاصمة المعروفة باسم الجبل تمتاز بفخامة البنيان وزخرفته، وفيها كان مسكن الطبقة الارستقراطية من الرؤساء وذوي المناصب السامية في الدولة وكبار الشخصيات التركية الحاكمة وصفوة الشعب، وكانت تعرف هذه الناحية من العاصمة باسم حي «الرياس» وفيه من الدور والقصور الجميلة كثير مثل دار عزيزة باي[1] الباقية الى اليوم وقد اتخذها الاستعمار مركزا للمطران وهي اليوم مستعملة لمصلحة السياحة، ودار مصطفى باشا وكان فيما استعملت فيه هذه الدار ايام الاستعمار ان اتخذت مكتبة عمومية الى سنة 1376هـ/1957م ثم هي اليوم مركز عسكري، وكذلك دار خديجة العمياء، ودار - متحف - الصناعة والحرف التقليدية بحي سوق الجمعة، ودار احمد داي المتوفي قتيلا سنة 1223هـ/1808م بنى هذه الدار الرائعة بقصد ان يسكنها بأسرته لقربها من قصر الحكومة ولكنه لم يتمتع بسكناها طويلا حيث توفي من نفس السنة التي تم فيها البناء، وقصر حسن باشا المتصل بجامع كتشاوة انشأه صاحبه سنة 1204هـ/1790م وهو الذي اتخذته الحكومة الفرنسية مركزا لاقامة الوالي العام شتاء واسمته بقصر الشتاء، ثم حول الى معهد للدراسات الاسلامية العليا تحت ادارة فرنسية وهو اليوم مركز المجلس الاسلامي الاعلى ومنها دار الانكشارية

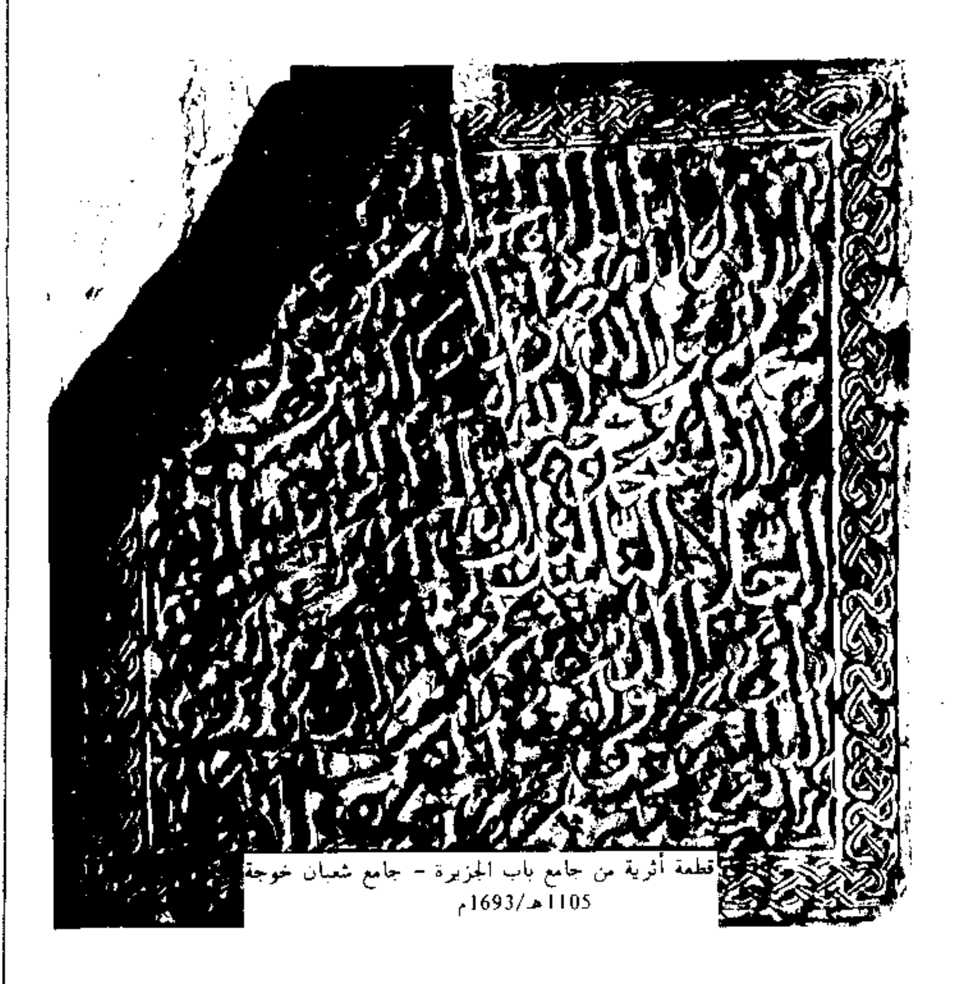
---

(1) هي بنت القائد احمد بن رمضان وأيم فرحات بن مراد باي قسنطينة، ثم تزوجت بأخيه رجب - رجم - الذي اشاد لها هذه الدار الانيقة، توفيت يوم29 جمادى الاولى سنة 1079هـ/4 نوفمبر 1668م.

قرب المسرح البلدي انشئت فيما بين سنة 1037 - 1047هـ/1627 - 1637م وقصر امارة البحر بميناء الجزائر القديم اقامه حسين داي آخر دايات الجزائر سنة 1242هـ/1826م وقد حدث تغيير كبير من تجديد وترميم اخرجاه عن وضعيته وشكله القديم في الداخل اما المنار القائم بجانبه الى اليوم فهو من مؤسسات عراب احمد باشا سنة 981هـ/1573م واما الرصيف الممتد منه الى مدخل الميناء فهو من منشآت صالح رايس 967هـ1573م 1560م بخلاف الرصيف الطويل الرابط بين المدينة والميناء القديم فهو من منشآت خير الدين باشا سنة 936هـ/1530م ومنها جنان الباي - المستشفى العسكري اليوم - خارج باب الواد انشأه بابا حسن داي ما بين سنة 1205 - 1212هـ/1791م - 1798م، وقصر الباردو قرب قصر الشعب انشأه الوجيه الحاج حميدو بن عمر اكراما لضيفه السامي التونسي الذي زاره في اواخر القرن الثاني عشر الهجري فأطلق عليه مشيده اسم « الباردو » احتفاء بصاحب قصر باردو بتونس، وهو اليوم متحفا للتاريخ القديم وما قبل التاريخ.

ومن المؤسف له ان الغالب من مثل هذه المنازل الفخمة ولا سيما منها ما كان بأسفل حي القصبة قضى عليها الاستعمار فحطمها وأقام مكانها عمارات على شكل حديث هي اشبه ما تكون بصنادق البضائع المكدسة أو خلايا النحل، مثل ما فعلوا بمنازل وبنايات شارع فاتح نوفمبر المواجه للجامع الكبير وما قارب ذلك من حي باب الواد وباب عزون والباب الجديد الخ ... وقد تقدم لنا ما ذكره ذلك الرجل الثقة المعاصر لحوادث الاحتلال الشيخ حمدان عثمان خوجة من ان الجنيرال كلوزيل وهو الذي امر بتحطيم سوق القيسارية بحيث تباع الكتب ويهدم كل من سوق القايسية حيث تصنع اساور عظم الجاموس، وسوق الصباغين المختص بالصباغة..

فمسخوا المدينة بذلك مسخا كليا فتغير شكلها المعماري الاسلامي الى وضع اورباوي جديد، وكأن البلاد ضاقت عن اقامة مثل هذه المباني الحديثة في غير هذا المكان من ارجاء المدينة الفسيحة، ولم يكد يسلم من هذا المسخ الا النادر القليل، وقد نعى على ذلك علماؤهم فيما كتبوا عن الفن الاسلامي بالجزائر فقال ج. مارسي: « ولقد كان اول واجبات الاحتلال الفرنسي في نظرنا عندما استقرت له الامور في الجزائر ان يعني بالمحافظة على ذخائر الفن فيها وان يدرسها ولا سيما القديم منها...



قطعة أثرية من جامع باب الجزيرة - جامع شعبان خوجة 1105 هـ/1693م

وكان فيما عبث به يد الاستعمار من مباني الاسلام بالجزائر: المساجد العظيمة مثل جامع السيدة وجامع كتشاوة بالعاصمة اما الاول فانه حطم سنة 1252 هـ/1837م ولم يبق له اثر ظاهر اليوم، وكان محله هذه الساحة الفسيحة التي تشمل حي باب الواد بأكمله فتمتد من ساحة الشهداء الى ثانوية الامير عبد القادر وينسب تأسيسه الى اسماعيل باشا سنة 1081هـ/1671م وترميمه وتجديده الى احمد باشا الذي حكم الجزائر من سنة 1220 هـ/الى 1223 1805م -1808م. ومن بقاياه الضئيلة هذه السواري الرخامية البيضاء الفخمة القائمة بواجهة الجامع الكبير وكذلك المنبر المستعمل اليوم بالجامع الجديد

وهو من الرخام الابيض المزخرف؛ والذي كان سبب تحطيم جامع السيدة هم اليهود انفسهم وذلك انهم لما ادركوا موطن الضعف من الحاكم الفرنسي العام وهو الجنيرال كلوزيل وانه يمتلىء شرها وطمعا وحبا في المال اخذوا يوسوسون له ويوحون اليه بما تهوى نفوسهم حول هذا المسجد ومبلغ تعلق الداي به، حتى جعلوه يعتقد بأن (جامع السيدة) المذكور يحتوي على خزانة مال الداي، وفي الحين ذهب الجنرال الى زيارة هذا المسجد متظاهرا بالنزاهة والمروءة وراح يكرر الذهابَ اليه من وقت الى آخر، ثم بدا له ان يستولي على جميع ما هناك من الزرابي والثريات والقناديل واحد المنابر المرمرية الذي كان موجودا هناك ايضا، ثم اوصد ابواب المسجد، وفي اثناء الليل ادخل العمال تحت جناح الظلام بقصد التفتيش عن خزانة الاموال الموهومة، وبعد ما استنفد جميع طاقاته في التفتيش عنها ويئس من جودها هنالك اراد ان يستر عمله المخجل بتهديم هذا المسجد الذي كان يحتوي بنيانه على عدة سوار مرمرية نادرة الوجود ورتج وابواب مزخرفة وقد بيع ذلك كله كما قيل... ويقال ان هذه الاشياء نقلت الى (تولوز)، وكانت جدران هذا المسجد مزخرفة بمربعات من الرخام والزليج الصيني المجلوب من اسبانيا، اما سقفه فمن خشب الارز وكذلك ابوابه الداخلية الرقيقة، والواحه الزجاجية الصينية...ولقد تم الاستيلاء على جميع الاشياء المذكورة قبل انجاز تهديم هذا المسجد من اجل ايجاد خزانة الاموال المفترض وجودها هناك، ثم اهمل ما تبقى من بنيانه شاخصا دون اتمام تهديمه كليا [1].

واما جامع كتشاوة فكان من لطف الله به انه بعد تحطيمه (1832/1218م) اقيم بمكانه وباحجاره كاتيدرائية تحمل اسم القديس فيليب (Cathédrale Saint Phillipe) اقام هذا المسجد حسن باشا سنة 1210هـ/1795م وانفق عليه كما يقول ابو القاسم الزياني: مالا تسمح نفس احد بأنفاقه الا من وفقة الله، ولقد شاهد الزياني هذا المسجد في ذروته اثر رجوعه من الحج سنة 1210هـ/1795م واعجب به فكتب عنه في رحلته (الترجمانة الكبرى) ما يلي:

« ... وفي يوم الجمعة توجهت مع اصحاب لي حملوني على الصلاة في المسجد الجديد الذي اسسه حسن باشا بعد سفرنا للحجاز واقام به الجمعة فدخلته

---

(1) المرآة لحمدان عثمان خوجة.

وشاهدته وصلينا الجمعة وأخبروني بما انفق عليه من الاموال وما جلب له من اصناف الرخام والمرمر وما اوقف عليه من الرباع والضياع، ما لا تسمح نفس احد بانفاقه الا من وفقه الله ».

« ومن الغد رجعت اليه مفردا وتأملته موضعا وميزت ما فيه من انواع الصنع واختلاف الاشكال ومناسبة الموضوعات من كل نوع الى ان احصيت جميع اوضاعه وكأنه نصب عيني في الغيبة وانشأت فيه رسالة ولفقت ابياتا على قدر وسعي في مدحه ومدح بانيه... « ثم بعدما اثنى على مؤسس المسجد (حسن باشا) وذكر جملة من مآثره العمرانية والحربية قال...

« ...ثم الهمه الله الى تطهير بقعة كانت بقرب دار الخليفة مجمعا للاشرار ويباع بها الخمر للكفار، فاشتراها وما حولها بمال معتبر، وصير عاليها سافلها وما تأتي في ذلك ولا صبر، وشيدها مسجدا جامعا للاسلام، ومعبدا لاهل الخير والدين والعلماء الاعلام، وانفق عليه من الاموال ما لا تسمح نفس بانفاقه وعمره بالحلال الذي هو من خالص الاموال وانفق فيه اهل الهندسة والفلسفة من كل صنعة فاتقنوا بنيانه سعة ورفعة، وجعل اسفل هذا المسجد دكاكين وقهاوي، ومخازن ومهاوي، اوقفها على المسجد المذكور الذي ادخره ليوم البعث والنشور، وحقق قبلته اهل العلم والفتوى، واوقف على عمارته من لا شك انه من اهل الخير والتقوى، وجمع له انواع المرمر والرخام، من بلاد الترك والاروام: من كل قائم ومبسوط، ومربع ومخروط، ومدرج ومشجر، ومنقوش ومسطر، وخدود وقدود وقيام وقعود، واعتاب وابواب وخصص ومحراب، وفي وسطه قبة عظيمة مرتفعة في الفلك، يفزع من لمعان انوارها في البحر السمك، قائمة على سواري لا كصواري، مجردات عواري كالجواري، يحاكين في بياض اللون، البرد النازل من الكون، كأنهن في القيام، حور مقصورات في الخيام، وجعل لهذه القبة سراجيب بأنواع البلور الذي لم ير في عصر من العصور، يكاد سنابرقه يذهب بالابصار، وادار بهذه القبة قببا على شكل منمق، كأنها جدول موفق، من ثنائي وثلاثي ورباعي وخماسي وسداسي وسباعي ومقربص ومشجر، وقاطع ومقطوع ومسطر، وداخل وخارج وبخاريات وقصاعي وانصاف ترنيجيات، وفوق ذلك من الاصباغ كل لون غريب، بتدبير اهل الحل والعقد

والتجريب، وكتبوا اسماء الله وآياته، وانبيائه وخلفائه تعظيما بالذهب الابريز الصيان وليس الخبر كالعيان، وادار بهذه القبة شذروانا من الصود، مموها بأنواع الاطيلة الفائقة بالالوان يصلي فيه الامراء والاجناد واعيان الديوان، عليه انوار وازهار واغصان واثمار واطيار وامامه كشك يجلس به المؤذنون واهل الالحان والقراءات، ومن له وظيف بالمسجد كالموقت والراوي لحديث الانصات، وجعل لهذا المسجد منبرا من الرخام الشفاف مؤلف من سبعة اصناف، من مرمر وجزع، ووزبرجد وودع، وفيروزج وفاروز، كأنه اللواء المطروز، ابدع فيه كل خارطة صنعه الخراط، وكل ناقش زاد على الشرط، وكل مسطر حقق ما سطر، وكل مشجر ابدع فيما شجر، فهو كالامير والتاج على رأسه، والكل في خدمته وانسه، وكسا جدرانه بالزليج والفرفري والصيني؛ وفوقه الجبص الفائق والمعدني وجعل في كل جهة رواشن تسطع منها الانوار مضيئات، وسلاسل مموهة للقنادل والثريات، وجعل تحت كل روشن ساعة على كرسي كالعروس يطرب لسماعها جوامح النفوس، فحاز بلطافة شكله، ضخامة المساجد والمدارس، وجاز بدقة صنعته انوار الزارع والغارس، فلو رأيته السليمانية بالقسطنطينية لسلبها، ولو كلمته ابا صوفيا ما اجابها، ولو قابله الجامع الازهر، لتعجب من حسنه وانبهر، ولو ناظرته مساجد الشام وحلب، لاعترفت بفضله واقرت بالغلب، ولو سمعت بتشييده بيعة لشبونه لتهدمت، ولو شاهدته كنيسة روما العظمى لاسلمت...»[1].

وبعد فهذا هو المسجد الجامع - جامع كتشاوة - الذي حطمته الدولة الفرنسية بعد الاحتلال بسنتين (1832/12/18م) وحولته بتشويه شكله وتغيير وضعيته الى كتدرائية مسيحية واطلقت عليه اسم القديس فيليب واقيمت لاول مرة فيه صلاة مسيحية هي صلاة ليلة عيد الميلاد 24 ديسمبر 1832 م برئاسة الراهب كولان. وقد وقع لاسقاط هذا المسجد وتحطيمه هيجان عظيم في الاوساط الاسلامية مما جعل السلطة تستعمل في احتلاله الحديد والنار وجعلت الجنود الفرنسية تهاجم الجامع بالمعاول وتهجم على المصلين بالسكاكين فقتل فيه من قتل وارضخ من ارضخ تحت نعال الجند، قيل وكان به يومئذ اربعة آلاف مسلم قائم

---

(1) الترجمانة الكبرى ص 375 ط فضالة المحمدية - المغرب الاقصى - 1387 هـ/1967م.

يصلي[1]، ويروي عن الحاكم الفرنسي يومئذ - الجنيرال روفيقو - انه لما عزم على تخريب هذا المسجد العظيم وهدمه صرح لرفقائه قائلاً « يلزمني اجمل مسجد في المدينة لنجعل منه معبد اله المسيحيين». ويوم ان عزم على تنفيذ هذه الخطة خاطب رجاله قائلا: عجلوا بذلك، فجامع كتشاوة هو اجمل مسجد في المدينة خاصة وانه يتاخم القصر ويقع وسط الدوائر الحكومية والحي الاوربي »...

ولقد اعيد اليوم والحمد لله الى سيرته الأولى وطريقته المثلى، واحتفل بفتحه يوم الجمعة غداة عيد الاستقلال 1962/11/2 م وكانت الصلاة والخطبة فيه بامامة الشيخ محمد البشير الابراهيمي وحضرها جمع غفير من الشخصيات البارزة الجزائرية والتي جاءت من مختلف اقطار العالم الاسلامي والعربي لحضور عيد الاستقلال وخطب فيهم بعد الصلاة وزير الاوقاف يومئذ الاستاذ احمد توفيق المدني خطبة جامعة ومن البقايا العتيقة لهذا المسجد الباقية الى اليوم بعض من سواريه الرخامية العظيمة والبعض من رخام ومرمر منبره، ورتاج الباب كل ذلك موجود اليوم بالمتحف القومي للاثار بالعاصمة وهناك بعض السواري والاعمدة منه هي كذلك موجودة بحديقة المتحف المذكور.

ووقع لجامع حسن باي بقسنطينة ما يشبه جامع كتشاوة في اختيار الاستعمار لاجمل المساجد وجعلها كنائس، فلقد كتب الراهب « سيشي » احد رؤساء الاديرة والنائب العام لمطران الجزائر في رسائله عن الجزائر ما بين سنتي 1839 و 1841م فقال « ان السيد فالي - الحاكم الفرنسي العام - هو رجل عميق صاحب ذمة وضمير ويحكم الجزائر كالملك المنفرد في حكمه، هذا هو الرجل الصالح للمستعمرة فهو يبغي تثبيت دعائم الدين وفرض احترامه في كل مكان ويريد ايضا مضاعفة الصلبان والمعابد في الجزائر، كما ان صاحب السيادة بامكانه تنفيذ ارادته مع اي رجل كان، وقد اختار اجمل مسجد في قسنطينة ليجعل منه

---

(1) راجع ch.jullien, HistoiredeL'Algerie contemporain, p : 90 - 92 paris 1964 والدكتور حسين فوزي: انتصار الجزائر ط مصر 1381هـ/1962م وعلي الشلقاني: ثورة الجزائر ص 19 ط القاهرة 1956م.

اجمل كنيسة كاثوليكية في المستعمرة »[1] وكان من بين المساجد التي حولت الى كنائس: جامع علي بشنين بحي باب الوادي بالعاصمة انشيء سنة 1032 هـ/1622م واصبح على عهد الاستعمار كنيسة (1259 هـ/1843) تحمل اسم Notre dame de la victoire نوطردام دولا فيكتوار، ومثله (جامع القصبة البراني) الواقع تجاه باب دار السلطان - المدخل الرئيسي لقصر [القصبة - باعلى المدينة اقامه حسين داي سنة 1242 هـ/1827م ثم مسى كنيسة سنة 1255 هـ/1839م باسم Sainte Croix سانت كروا، وهو كسابقه باق على وضعيته وشكله الاسلامي الا ما الحق به مما تتطلبه الطقوس المسيحية وكذلك جامع سوق الغزل بقسنطينة (1143 هـ/1730م) وقد عادت هذه المساجد اليوم بحمد الله الى حظيرة الإسلام.

ومن الابنية الباقية بالجزائر العاصمة منذ العهد العثماني الى اليوم: جامع سفير - صفر بن عبد الله - بوسط حي القصبة بالعاصمة اسمه صاحبه المسمى به سنة 941 هـ/1534م ثم اعيد ترميمه على عهد بابا حسن باشا سنة 1185 هـ/1771م ثم كذلك للمرة الثالثة والاخيرة سنة 1242 هـ/1827م على عهد حسين داي ثم في عهد الاستقلال جاء من لا اخلاق له فانتزع ما كان بجدرانه من الزليج الفارسي المزخرف الجميل الاصيل واستبداله بسقط المتاع!...؛ ومن المساجد الباقية الجامع الجديد بباب البحر المجاور للجامع الكبير، انشيء على حساب خزينة مشروع سبل الخيرات سنة 1070 هـ/1660م والوالي اذ ذاك البكباشي خليل آغا، وضريح الشيخ عبد الرحمن الثعالبي انشأه الداي الحاج احمد العلج سنة 1108 هـ1696م ثم زاد عبدي باشا في عمارته سنة 1142 هـ/1730م وكذلك دار السلطان المعروفة باسم القصبة كان اول من شرع في تأسيسها الفاتح التركي عروج سنة 922 هـ 1516م. ثم جدّدها البكلر باى احمد عراب سنة979 هـ/1572م ويوجد نقش بأعلى باب القصبة مؤرخ بسنة الف للهجرة (1591م) وفيه ذكر اسم خيضر باشا ثم اصابها حريق في حادثة انفجار البارود سنة 1025 هـ/1616م فأعيد بعد ذلك ترميمها بأمر الداي علي خوجة واتخذها مسكنا له سنة 1232 هـ/1817م وبقيت على ذلك الا ما غيره الاستعمار من بعض

(1) احمد الخطيب: الثورة الجزائرية ص115- 116ط بيروت 1958م.

إجزائها من الداخل. والدار الحمراء بحي الرياس بناحية باب الواد، وهي من ممتلكات حسين داي ومنها كان خروجه حين ودع الجزائر.

ومنهـا بقسنطينـة: الجامـع الاخضر اسمه البـاي بوحنـك سنـة 1156هـ/1743م وجامع سيدي الكتاني انشأه صالح باي سنة 1190هـ/1776م ومثله المدرسة المتصلة به وفيها مدفن الباي واسرته، ومدرسة سيدي الاخضر (1193هـ/1779م) وقصر الحاج احمد باي (1241هـ/1826م) الخ ..الخ.. فكل ذلك يدلنا دلالة صحيحة على ازدهار فن المعمار وتقدم صناعة التجارة والزجاج والنقش وصنع الاجر يومئذ، ويؤكد (روزى) ان صنع الخزف كان يصنع ويستعمل بالجزائر بنفس الاسلوب المستعمل في فرنسا، ويلحق بما ذكرناه في مجال العمارة وضع القنوات وتسيير مجاري المياه على اختلاف مصالحها المتعددة من شرب وسقي وتنظيف.

وجاء في وصف الجزائر للرحالة الاسباني هايدو (988هـ/1580م) ما تعريبه: «لقد انتشرت بها - الجزائر - القصور المشيدة على الطراز الاندلسي التي كان يجلب لها الرخام من ايطاليا وقد عجت هذه القصور بأجمل ما ابدعه الفن الاوربي من تحف، والتي كان يسلبها القراصنة من السفن الاوربية»[1]

كما توجد بقايا بعض آثار معمارية اخرى للاتراك بوهران ومعسكر ومليانة ومستغانم والبليدة والمدية ولكنها قليلة جداً بالنسبة الى ما ذكرناه بالعاصمة فمنها مثلا جامع الباشا بوهران (1207هـ/1792م) وجامع بني صاف (1206هـ/1791م وجامع العين البيضاء بمستغانم شيده محمد الكبير باى الغرب اول شهر ذي العقدة 1175هـ/1761م. وجامع مدينة معسكر بناه الباى عثمان الكردي سنة 1166هـ/1753م وفيه كانت مبايعة الامير عبد القادر الجزائري بالامارة 1248هـ/1832م وهو المشهور باسم جامع المبايعة ومثله المدرسة التي كان يديرها الشيخ محمد بن عبد الله الجلالي بمعسكر ايضا، ولما اتم الباي بناء الجامع والمدرسة زاره الشاعر الجزائري احمد بن محمد بن علال المقري الكرومي وقال في ذلك شعراً:

---

(1) الدكتور صلاح العقاد: المغرب العربي ص 32 ط القاهرة 1962م.

عجباً له من مسجد في الأرض قد	حاكى السماء تطاولا في المفخر
وترى المدرس قد علا كرسيه	يلقي على العلماء حب الجوهر
تحويه مدرسة غدت آثارها	تحييه بالعلم النفيس الاشعري
تمحي رسوم الجهل من الواحه	تحمي شمائله من الزور السري
بنى الامير محمد في الغرب قد	لاحت آثاره كالصباح المسفر

ورتب الامير لهذا المسجد اماما خطيبا واربعة مدرسين وخصص احدهم لتدريس علوم الشريعة التفسير والحديث، وجمع فيه طائفة من حفظة القرآن الكريم يتلونه ويدرسونه آناء الليل واطراف النهار وعمر سائر وظائف المسجد والمدرسة بمن كان كفوءا للوظيفة، وزاد في جامع السوق بلاطين في المقدم، وجدد جامعها العتيق ونرى في مليانة مشهد الشيخ احمد بن يوسف الراشدي بناه محمد الكبير ايضا.

وبعد فهذه بعض اهم المباني والمنشآت التركية التي بقيت معالمها قائمة منذ العهد العثماني الى اليوم ذكرناها كاشارة لنوذج من فن المعمار الاسلامي للعهد التركي البائد بالجزائر.

المباني والعمارات في تاريخ الحضارات - كما هو معلوم - هي المصدر الوحيد الذي يصحح به الماضي تقريبا، وبها يكشف عن بعض عناصر التاريخ التي لا تحدث عنها الكتب، فان الوقوف او الاطلاع على هذه الاثار قد يكون اضمن مصادر التاريخ، ذلك لان هذه المصادر - كما يقول غوستاف لوبون: لا تكذب ابدا، وهي تشتمل على لغة بالغة الوضوح، قال: ويفضل هذه الاثار الحجرية بعد اطلاعنا على تاريخ المصريين والاشوريين والهندوس مثلا افضل من اطلاعنا على امم ظهرت على مشرح العالم بعد هؤلاء بزمن طويل جدا كالغوليين مثلا[1] وان الاحجار لتجيد الحديث لمن يجيد الاصغاء اليها كما قال اناتول فرانس والله در محمود غنيم الشاعر المصري في قوله من قصيدة:

قم سائل الاهرام عن تاريخهم	ما فصل التاريخ مثل جماد
هي الثقات من الرواة برئي من	عصبيــة وسلمن من احقاد

(1) فلسفة التاريخ لغوستاف لوبون ص 100 ط القاهرة 1954م.

ولو شئنا ان نكتب عن هذه الخلفات الاسلامية والمنشآت الاثرية الجزائرية باسهاب لضاق بنا المجال الذي حددناه لانفسنا في دراسة تاريخ الجزائر العام بهذا الكتاب، فأرجأنا ذلك الى ما نسأله سبحانه وتعالى العون عليه من وضع كتاب خاص في تاريخ العمارة في الاسلام بالجزائر.

وينبغي ان نعلم بأن اغلب هذه المواد وأكثر هذه العناصر المتكونة منها هذه المنشآت مثل هذه السوارى الرخامية والمنابر المرمرية والزليج المزخرف المنبث في مختلف البنايا والمنشآت الجزائرية القديمة كل ذلك مستجلب من الخارج ومثلها في ذلك اليد العاملة ايضا، ولكن هذا لا يمنع من الاعجاب بحسن ذوق اصحابها الذين اختاروا لانفسهم هذه الهندسة وهذه الاشكال البديعة في وضعها المنسجم هذا من نقوش انيقة وزخرفة وجمال، ومعلوم ان فن الزخرفة الاسلامي بالمغرب انما عرف منذ ان اتحدت اقطاره مع بلاد الاندلس تحت حكم المرابطين (483هـ/1090م) كما نشاهده الى اليوم في بلاد المغرب الاقصى وبمدينة الجزائر وتلمسان وقصور الحمراء وجامع قرطبة وذلك بقطع النظر عن الفن البربري العتيق.

وفيما يرجع الى معرفة سير الحركة الثقافية والنشاط العقلي بالجزائر نرجع اولا الى ما كتبه المعاصرون لهذه الفترة من الزمن من مختلف الكتاب على اختلاف مللهم ولغاتهم حتى لا نحمل على التعصب او المفاخرة والمباهات او الغض من شأن سير الثقافة في العصر التركي بالجزائر، ثم نقول كلمتنا التي تعبر عما نعتقده في ذلك، من حقائق ثابتة ولنصرح برفض ما لا يقبله العلم والتاريخ من الافكار الزائفة، قال التمقروتي في رحلته - النفحة المسكية في السفارة التركية - «.. وطلبة العلم فيها - يعني الجزائر - لا بأس بهم الا ان حب الدنيا واثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم كثيرا، والكتب فيها اوجد من غيرها من بلاد افريقية، وتوجد فيها كتب الاندلس كثيرا... «وقال بولار» التعليم بالجزائر في القرون الوسطى وما بعدها »:

«لقد كان بالجزائر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مراكز ثقافية مزدهرة وكان فيها اساتذة متمكنون من علوم الفلسفة والفقة والادب والطب والنحو والفلك، وكانت المدارس الكثيرة العدد منتشرة في ربوع البلاد،

والتعليم فيها شرعي وديني ومدني » ولقد احصيت هذه المدارس سنة 1830م بأكثر من الفي مدرسة ما بين ابتدائية وثانوية وعالية[1] منها ثمانون بالعاصمة[2] ولعل منها ما كان من كتاتيب الصبيان؟

كما إن هـذا المؤرخ الفرنسي «بولار» نفسه يعود ثانيا الى هذا الموضوع في عهد الإحتلال فيرثى لحال تدهور التعليم الإسلامي وينعـاه فيقول: «إن وصول الفرنسيين في الجزائر أحدث بلبلة عميقة في عالم المفكرين والادباء، لقد ترك اغلب العلماء كراسي تدريسهم وتفرق التلامذة وعوضا عن الدروس العامة والتي تؤخذ في الاجتماعات اخذ اولئك يبحثون عن فاك معميات العلوم في دروس منعزلة وبمدارس من الدرجة الثانية او في الزوايا البعيدة وقد وضعت ادارة المساجد والمدارس في يد طماعين يحولون مصارف الاوقاف لجيوبهم ومنذ ذلك الوقت اهملت كل المدارس تقريبا[3].

وجاء في كتاب «الحقيقة الجزائرية ص 70 نقلا عن خطبة «اوجين كومبس» بمجلس الشيوخ الفرنسي حين قال:

«لقد كان التعليم في الجزائر سنة 1830م أقل تقهقرا مما جعلته السلطة العامة الفرنسية لقد كان هناك ما يزيد عن الفي مدرسة ابتدائية وثانوية وعليا، وكان الاساتذة المختصون يعلمون التلامذة الذين كانوا يقبلون بغاية الاجتهاد على دروسهم، وكانت الدروس العامة تنظم في جميع المساجد للكبار».

كما يحدثنا صاحب كتاب الثغر الجماني عن مآثر باي المغرب محمد بن عثمان الكردي فيقول: «ومن أعظم مآثره – وإن كانت كلها عظيمة – إنه رتب المدرسين في الجوامع بوظائف يأخذونها من الاحباس بعد أن كانا العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزن بشيء الا من كان متوليا لخطة أو مستعملا في خدمة

---

(1) احمد الخطيب: الثورة الجزائرية ص 35 ط بيروت 1958م

Boyer. p. L'evolution de l'Algerie median. p 70 Alger 1960.

boyer .p .L'Algerie mediane , p 70 Alger 1960 (2)

(3) محاضرات علال الفاسي ص 68 ط القاهرة 1955م.

فاتسعت بذلك حال العلماء وانشرحت الصدور للقراءة وشرهت لها النفوس وكثر طلبة العلم وتشوف كل احد للتدريس واشتد الحرص على العلم من بعد أن كان يترك اشتغالا بالتجارة لقلة جدواه... وفي حديثه عن ما احاط بالمسجد الذي انشأه الباي المذكور من المؤسسات والبنايات العلمية يقول... مكتنفا بالمدرسة التي كاد العلم أن يتفجر من جوانبها، وحبس عليه خزانة كتب هي في البيت الذي بناه لاجلها خارج بعض زواياه بابها فيه» وكما يذكر لنا المؤلف مبلغ تعلق الباي بحب العلم واهله فيقول: واما حبه للعلم واحسانه الى العلماء الاخيار فقد شاع منه ما يغني عن الاخبار، وكم من تأليف نشأ بامره ونال مؤلفه به وافر بره فمنها انه امر بعض الطلبة سالفا بجمع فتاوى العلماء في جوائز الملوك فجمع له من ذلك رسالة اثابه عليها بسبعين دينارا وجمع له بين كلام شارح السلوانة - ويعني بها روضة السلوان لابي اسحاق ابراهيم بن عبد الجبار الفجيجي - في البازي وصاحب التذكرة في اقل من كراسة فأجازه بما يليق بمنصبه، ثم أمرني باختصار الاغاني فاختصرته في نحو الثمانين كراسة، فأثابني بمائة سلطاني، ثم أمرني ايضا بجمع طب القاموس فضممته وزدت عليه من كلام الاطباء ما صار به تأليفا بديعا حسن الترتيب، فأثابني عنه بخمسين سلطانيا، وقد كنت الفت باسمه كتابا في الادب سميته (عقود المحاسن) فلم تسمح الايام بايصاله اليه، وفي ايامه السعيدة شرحت العقيقية شرحا ضخما عجيبا، ولما نزل الطلبة بيفرى (في واقعة فتح وهران 1206 هـ) امر السيد مصطفى بن عبد الله (ابن زرقة) قاضي وهران بتقييد الحوادث الواقعة فيما يتعلق بالجهاد وما يصل الطلبة من رزق وغيره فقيد قليلا ثم اشتغل عن التقييد الى ان حصل الفتح فهو الان يتلقى الاخبار من افواه الرواة ويجمعها من الرسائل وغيرها ويضمها الى ما قيده حتى يصير المجموع ان شاء الله كتابا ولمحبة هذا الامير للعلم والادب كان يشتري كتبه بالثمن البالغ ويستكثر منه وينتسخ ما لم تسمح نفس مالكه ببيعه وكثيرا ما يأمر بقراءتها بحضرته في مجلس حكمه واذا انفض الناس انفرد بها فكانت له نعم الانيس ولذلك تجده مستحضرا لاكثر معانيها... وله في الطب اليد الطولى والمرتبة العليا، فهو يصف للناس الادوية ويدفع لهم ما حضر عنده... ومن طبه جمع الشيخ عبد اللطيف كتابه المنهل الروي والمنهج السوي

في الطب النبوي[1] وكان شأن الطب والصيدلية يومئذ بالجزائر ضئيلا واكثره يعتمد على العقاقير والأعشاب والتوابل المجربة.

ويقارن فايست E. Vyst في كتابه «تاريخ قسنطينة على عهد البايات Histoire de canstantine Sous les Beys المطبوع بقسنطينة سنة 1869م بين سير حركة التعليم بمدرسة صالح باي بقسنطينة وبين التعليم العالي بكوليج دوفرانس collège de France بباريس فيقول: «اننا لو قارنا بين هذا وذاك لما كان بينها يومئذ تفاوت ويضيف الى ذلك الكلام على المنح التي كانت تشمل طلبة مدرسة قسنطينة هذه فيقول: ان لكل تلميذ جراية 6ريالات سنويا.

واتفق ان في شهر ديسمبر 1831م زار (فيلهلم شيمبرا) الألماني مدينة الجزائر وكتب عنها في رحلته يقول: لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة غير اني لم اعثر عليه، في حين اني وجدت ذلك في بلدان جنوب اوروبا فقلما يصادف المرء هنالك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب ومن الانصاف ان نقول ان الجزائريين يتكلمون الفرنسية بطلاقة وذلك ما دعا الحكومة الفرنسية الى استخدامهم في الوظائف العمومية اما الفرنسيون الذين يتكلمون العربية فلا وجود لهم الا في النادر جدا!..»[2]

وجاء في بعض التقارير عن الثقافة بالجزائر لسنة 1251هـ/1836م انه كان بقسنطينة يومئذ سبع مدارس عليا منها مدرسة ابن آفوناس، ومدرسة ابن الفكون والمدرسة الكتانية - الحاضرة اليوم - و 86 مدرسة ابتدائية: و16 زاوية والى جانب ذلك خمسة وثلاثون مسجدا كلها كان يتعلم بها العلم، ويتراوح عدد التلاميذ بها ما بين الستمائة الى تسعمائة طالب، وكان بها من الكتب الابتدائية نحو التسعين كتابا ويزاول الدراسة بها نحو الخمسين وثلاثمائة والف تليمذ[3] وكان بتلمسان مدرستان وسبع وخمسون كتابا للدراسة، وبالجزائر -

---

(1) الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني احمد بن سحنون الراشدي تحقيق الاستاذ المهدي البوعبدلي ص 127 — 135 — 146 — 147 ط قسنطينة - الجزائر - 1973م

(2) ابو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان ص 13ط الجزائر 1975م

(3) Marcel Enrit. l'Algerie à l'epoque d'Abdelkader p. 235 paris 1951.

العاصمة - المدرسة الحسينية، وبها كانت وفاة الشيخ محمد بن القاضي ليلة السبت 27 ذي الحجة 1242هـ/1730م ودفن خارج باب الوادي بمقبرة الطلبة، كما انه كان بها ايضا تجاه الجامع الكبير - زاوية ذات طابقين لسكنى الطلبة، اسست سنة 1039هـ/1629م وزاوية الاندلس بنهج سوق السمن - شارع الباب الجديد - وزاوية قشاش بباب الجزيرة وزاوية الشرفاء قرب جامع كتشاوة وزاوية سوق الجمعة وزاوية جامع تشخطون، وفي مدرسة سيدي رمضان كانت تدرس الرياضيات من حساب وهندسة وفلك وفرائض... وقد أحصى الفرنسيون مدارس العاصمة اثناء الاحتلال بحوالي 80 مدرسة ابتدائية و12 عليا، وهذا علاوة على ما كان للبنات من مدارس خاصة. أما في تلمسان فان عدد المدارس الابتدائية بها كان يبلغ 50 مدرسة كما أسلفنا

وجاء في تصريح السيناتور كومب امام مجلس الشيوخ الفرنسي انه كان بالجزائر عند الاحتلال اكثر من الفي معهد ثانوي، ويقارن يالسن walsin ;اوربان urbain بين الحالة الثقافية في باريس والجزائر اذ ذاك فيذكران: أن سبة الامية في الجزائر سنة 1830م كانت أقل منها في فرنسا بالنسبة لتعدد لسكان يعني وأن الامية كانت اعلى في فرنسا [1]

وكان يقدر عدد طلبة الجزائر يومئذ بألفي نسمة، وكانت مكتبات هذه لمعاهد عامرة بنفائس المخطوطات منها مكتبة الجامع الكبير التي تجاوزت لاربعين الف مجلدا، ومكتبة جامع كتشاوة وغيرهما من المكاتب الخاصة الموجودة بدور العلماء والامراء والعامة والموجودة بسائر المساجد والزوايا... كمكتبة الشيخ سيدي سعيد قدورة ومكتبة المفتي المالكي الشيخ علي ابن الامين ومكتبة الشيخ حميدة العمالي بالعاصمة، وخزائن الكتب الموجودة بمعسكر مثل مكتبة الشيخ بوراس ومكتبة محمد المصطفى بن زرفة الدحاوي ومكتبة الامير عبد القادر. وبوهران مكتبة الباي محمد بن عثمان الكردي وبقسنطينة مكتبة آل الشيخ الفكون الـتي كانت تضم ما يزيد عن 2500 مجلد، ومكتبة باش تارزي هي الاخرى كانت تحتوي على 500 مجلد ولقد ثبت أن العالم الفرنسي بربروجي حاز أثناء

---

(1) مجلة التاريخ الحديث والمعاصر - سبتمبر 1955م.

مصاحبته للفيلق الثاني الذي احتل مدينة قسنطينة 800 مخطوط[1] ومكتبة آل بن باديس، وبمجانة مكتبه آل الضخري ورؤساء الدواودة الخ... ويذكر لنا حمدان عثمان خوجة أن القائد كلوزيل هو الذي امر بتحطيم سوق القيسارية بالعاصمة حيث كانت تباع الكتب وبها كان يوجد النساخون، ويحدثنا الحسن بن محمد الوزاني المعروف عند الغربيين باسم ليون الافريقي المتوفي سنة 1550 متحدثا عن نفسه في رحلته «... وسكنت في الجزائر عند السفير الجزائري الذي ارسل الى اسبانيا لجمع حوالي ثلاثة آلاف مخطوط عربي اشتراها من صاليفا saliva بمملكة بلنسية valence ومن الجزائر ذهبت الى بجاية حيث وجدت بارباروس محاصرا لحصنها (اوط 1515م) ومكثت هناك لاطلع على نهاية اعماله الى أن لجأ الى حصن جيجل». وأكثر معظم هذه الكتب ضاع ولم يبق منها الا صبابة ضئيلةجدا جدا تفرقت هنا وهناك!... ومنها هذا النزر الزهيد الموجود اليوم بالجامع الجديد وبالمكتبة الوطنية بالجزائر، قال سيديو«... ان الفرنسيين عندما فتحوا مدينة قسنطينة في شمال افريقيا احرقوا كل الكتب والمخطوطات التي وقعت في ايديهم كأنهم من صميم الهمج Sedillot Histoire général des Arabes,tl p 183 وهكذا فعل جند نابليون من قبل بمكتبة الجامع الازهر يوم ان غزا مصر (1213/5/13هـ/1798/10/22م) فانهم دشتوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها... وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتبا ومصاحف نفيسة...»[2] شنشنة اعرفها من أخزم!...

وجاء في تعليق لصديقنا الاستاذ المؤرخ احمد توفيق المدني على بعض من قال من مؤرخي الغرب بأن عدد سكان القطر الجزائري لم يكن ليتجاوز الثلاثة ملايين من الانفس وان هذا القطر كان يشتمل على نحو ثلاثة آلاف

---

(1) Le Banron de slane: Rapport suivi des catalogues et des manuscrits arabes lés plus importants de la .Bibliothèque d'Alger et de la Bibliothèque de Said Hammouda a Constantine
Revue Africaine t60,1925, p: 104 adressé à M. le Ministre de l'Instruction publique Paris Duponts. d.

(2) انظر تاريخ الجبرتي ط بولاق 1297هـ وتحفة الناظرين للشرقاوي ط مصر 1310هـ

كتاب ومسجد وزاوية لتعليم القرآن والقراءة والكتابة فقال: فلو فرضنا أن كل كتاب ومدرسة وزاوية لم يكن يشمل الا عشرين فقط من الطلاب وجدنا عدد الطلبة يومئذ ستين الفا، مع انهم كانوا يبلغون الى 80الف طالب، على أن الاحصاء الرسمي الفرنسي يثبت أن الامية كانت موجودة في فرنسا سنة 1833م على نسبة 53% في المائة من مجموع الامة [1] ولم تكن الامية بالجزائر آنذاك لتتجاوز 14 %

وعندنا دلائل أخرى كذلك تدل على ازدهار التعليم بالجزائر قبل الاحتلال منها ما كتبه الجنيرال فالز سنة 1834 قائلا بأن «كل العرب الجزائريين تقريبا يعرفون القراءة والكتابة، حيث هناك مدرسان في كل قرية». وفي تقرير آخر كتبه الجنيرال دوهو تبول الى نابليون الثالث سنة 1850م قال فيه بأن الدراسات الاسلامية عشية الاحتلال كانت في وضع مزدهر نسبيا».

اما الاستاذ ايمري الذي درس طويلا الحياة الاجتماعية الجزائرية وتاريخها في القرن التاسع عشر، فقد اشار الى أنه قد كان في قسنطينة وحدها قبل الاحتلال: خمسة وثلاثون مسجدا تستعمل كمراكز للتعليم، كما كان بها كذلك سبع مدارس ثانوية يحضرها ما بين ستمائة وتسعمائة طالب، ويدرس فيها اساتذة محترمون لهم أجور عالية واما بخصوص المدارس الابتدائية فقد كان هناك تسعون مدرسة يحضرها 1350 تلميذا. والذي وقفت عليه واطلعت عليه بنفسي في عدة وثائق رسمية مخطوطة يرجع تاريخها الى ما بين سنتي 938 و1034هـ/1532 - 1625م وهي تحمل شهادة رجال القضاء الاسلامي: ان عدد مساجد قسنطينة في هذا التاريخ ينيف على 67مسجدا، وأما معاهد التعليم بها ما بين مدارس وزوايا كان يبلغ 16مركزا. وكتب الجنيرال بيدو في مذكراته قال بانه كان في قسنطينة سنة 1837م تسعون مدرسة ابتدائية يحضرها ما بين الف وثلاثمائة الى الف واربعمائة تلميذ. ثم انه لم يكن بها في سنة 1850م اكثر من ثلاثين مدرسة يحضرها ثلاثمائة وخمسون تلميذا فقط، اما بخصوص التعليم العالي فقد اشار هذا الكاتب الى أن عدد الطلاب سنة 1837م كان من ستمائة الى

---

(1) محمد عثمان باشا ص 9 - 10 ط الجزائر 1356هـ

سبعمائة، ثم انخفض عددهم في سنة 1850م الى ستين طالبا فقط.

وكتب ب. ل. بوليو في كتابه «الجزائر وتونس» (باريس 1894م) بأنه كان للجزائر - حضارة متقدمة ومجتمع منتظم، وعاطفة ذاتية قوية بكيانها، أماالكاتب اليكسيس دي توكفيل فقد صرح امام المجلس الوطني الفرنسي سنة 1847م بأنه كان للجزائر حضارتها الخاصة رغم تخلفها، واعترف قائلا: بأننا قد جعلنا المجتمع الاسلامي (الجزائري) اكثر شقاء واكثر بربرية مما كان عليه قبل وجودنا[1].

ويحدثنا الرحالة الالماني «مالتسان» عن التعليم في الجزائر في كل من كتابيه: ثلاث سنوات في شمال افريقيا الذي نشره سنة 1863م وكتابه الثاني:

صور من التقاليد الذي نشره سنة 1869 م فيقول: بأن القاعدة العامة الجاري بها العمل في الاوساط الجزائرية التي تحترم نفسها هي أن جميع الاسر الكريمة تصركل الاصرار على ان يصل كل طفل الى درجة طالب علم على الاقل[2].

وفي اواسط القرن الثاني عشر الهجري زار عبد الرحمن الجامعي الفاسي مدينة الجزائر فقال في وصفها من قصيدة له:

بـلاد برأس الغرب تـاج مكلـل وخلخـال سوق الشرق غير ضوامر

ومنها قوله:

فدعـني من غرناطــة وربوعهـا وشنيــل فالحسن انتهـى للجزائر

وتحدث عنها كثيرا في رحلته التي ذكر فيها اسفاره وما عرض له في تجواله، وكان فيما ذكره: الكتاتيب القرآنية وكثرة اطفالها كما يقول، وقد كان بهذه الحاضرة نحو مائة مكتب ملأى بالاولاد حيث أن المحل الذي لا يسع التلاميذ يجعلون فيه سدة يصعدون اليها بالدرج يتعلمون القراءة والكتابة ويحفظون القرآن العظيم وحفاظه كانوا كثيرين والدروس العليا تلقى في المساجد والزوايا

(1) الحركة الوطنية الجزائرية للدكتور ابي القاسم سعد الله ص 72 - 73 ط بيروت 1969م

(2) المجاهد الثقافي 1967/8/2م

العديدة وبالخصوص في الجامع الاعظم فكان فيه تسعة عشر استاذا[1].

كما زارها ايضا العلامة الحافظ الشيخ ابو راس محمد الناصري المعسكري (1238هـ/1823م) فكتب عنها في رحلته «فتح الالاه ومنته..» ما يدل على علو كعب العلم والادب فيها، وذكر جلة ممن اجتمع بهم من علمائها مثل المشائخ: الحاج علي بن الامين مفتي مالكية الجزائر والمفتي الخطيب محمد بن الحفاف والحاج محمد بن الشاهد، ومحمد بن مالك، والقاضي ابن جعدون، قال «ومنهم شيخنا الذي ارتدى بالنزاهة يافعا وكهلا، وكان للتلقيب بشيخ الاسلام أهلا، السيد احمد بن عمار عالم الجزائر، أمنها الله من سوء الدوائر، كان غاية في الحديث والادب، ينسل اليه من كل حدب تولى بها زمنا الخطابة والفتوى والامامة ثم عزفت له بها الاقامة فرحل الى الحرمين الشريفين، ذوي ظلال الشجرتين الوريفتين، بعد ما اخرج بالجزائر الاساتيذ من التلاميذ والفقهاء النحارير. والعلماء الجماهير، وقد جعل على الخفاجي - شرح الشفاء - حاشية...» وهنا أطلق عنان قلمه للثناء على هذه الحاشية الجليلة وعلى مؤلفها ابن عمار ثم اخبر عن مكان وفاته بأنها كانت بالمشرق - في الحجاز - ولم يذكر لنا تاريخ ذلك ومن جهة أخرى نجد الشيخ (بوراس) هذا نفسه وهو ممن عاصر آخر العهد التركي يشكو تدهور العلم في عصره وقلة الرغبة فيه، اذ نراه يقول: «اني في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده وسدت مصادره وموارده، وقلب دياره ومراسمه، وعفت اطلاله ومعالمه... الخ...»[2] وقد يكون هذا راجعا الى شدة شغف الشيخ بطلب المزيد من العلم وشدة رغبته وتعلقه بما هو أفضل واسمى مما كان عليه الحال في وقته فلم يقنع بالحاضر أو يكون هو الأمر الواقع بالنسبة الى اواخر العصر التركي بالجزائر، واذا قرنا هذا الكلام بما وصف به الاخضري في عصره - القرن العاشر الهجري - وجدناهما مطبقين كل الاطباق ومتفقين كل الاتفاق على فكرة واحدة، وهي فكرة التخلف الذي اصاب العالم الاسلامي يومئذ في تفكيره وثقافته بل وفي حضارته عموما: «...واذا كان العذر من حق المبتدي في الزمان المتقدم فكيف في هذا الزمان الصعب الذي

---

(1) صفحات في تاريخ مدينة الجزائر: نور الدين عبد القادر ص 201 ط قسنطينة 1965م.
(2) عجائب الاسفار مخطوط

انقرض فيه أكابر العلماء ولم يبق فيه الا حثالة الحثالة، وغلبت العجمة على قلوب الانام حتى كاد العلم ينقرض بانقراض اهله[1].....

ونعود الى ابن عمار لنثبت له بعض ما أغفله تلميذه (أبوراس) من تآليف شيخه: فمنها كتاب وضعه في سيرة علي باشا باي تونس. ورسالة في تفسير قوله تعالى «اني اريد ان تبوء باثمي واثمك» (الاية) ذكرها له تلميذه ابراهيم السيالة في (مباهج الازهار) مخطوط بتونس يحمل رقم 260 ورسالة في مسألة وقف، طبعت بتونس ضمن كتاب في الرد على الوهابية 1910م. كما وقفت له على قطعة نثرية وشعرية في ست صفحات من كتاب له مكتوب بخطه يصف فيها مأدبة عشاء دعي اليها بقصر الوزير الكاتب ابي العباس احمد ابن عبد اللطيف، الكائن بضاحية (القبة) شرقي العاصمة، وهذه الصفحات الست هي موجودة مصورة وله ديوان شعر، وثبت اسمه (منتخب الأسانيد، في وصل الاجزاء والمصنفات والمسانيد) وكتاب في الادب والتاريخ بعنوان: لواء النصر في فضلاء العصر، وله رسالة وضعها كمقدمة لدرس صحيح الامام البخاري يوم أن شرع في تدريسه بالجامع الكبير، وهي في ملكنا بخطه رحمه الله، وله الرحلة الحجازية المسماة بنحلة اللبيب باخبار الرحلة الى الحبيب، كتبها سنة 1166 هـ/1752م طبع بعضها في الجزائر سنة 1320 هـ/1902م وفيها تعرض المؤلف الى وصف جانب من جوانب النشاط الادبي بالجزائر في عصره فقال:

« هذا وقت جرت عادة اهل بلادنا الجزائر حرسها الله من الفتن، وحاطها من الدوائر انه اذا دخل شهر ربيع الاول انبرى من ادبائها وشعرائها من اليه الاشارة وعليه المعمول الى نظم القصائد المديحيات، والموشحات النبويات ويلحنونها على طريق الموسيقى بالالحان المعجبة ويقرأونها بالاصوات المطربة ويصدعون بها في المحافل العظيمة والمجامع المحفوفة بالفضلاء والرؤساء والنظيمة، من المساجد والمكاتب والمزارات وهم في اكمل زينة واجمل زي واحسن شارات تعظيما لهذا الموسم الذي شرف به الاسلام، واحتفالا بمولده عليه الصلاة والسلام فلما استهل هذا الشهر الشريف من هذه السنة

---

(1) شرح الاخضري على سلمه في المنطق ص 38 ط القاهرة 1314هـ

(1166هـ/1752م) ولاح هلاله لمصبى المنيف عين لم تكتحل بسنة انشأت هذه القصيدة الموشحة، جعلها الله لمنصب القبول مرشحة وهو قولي، مستعينا بحول الله وقوته متنصلا من قوتي وحولي:

يا نسيما بات من زهر الربا يقتفي الركبـــان
احملن مـــني سلامـــا طيبـــا لأهيــــل البـــان

اقرأن مـــني سلامـــا عبقـــا ان بـــدت نجـــد
ان لي قلبـــا اليهـــا شيقـــا شفـــه وجـــد
وفؤادي يجتنيهـــا حرقـــا وضنـــى يعـــدو

وهو موشح شائق رائق فانظره في رحلته، ثم قال:

«...وهذه الطريقة التي مدحنا بها النبي صلى الله عليه وسلم عليها جرى اهل بلادنا وارباب طارفنا من البلاغة وتلادنا والشعر والقريض عندنا في هذا الغرض ما أنزره واقله في هذا العصر والذي قبله، ومجلى هذه الحلبة، ومقدم الجماعة ونائل الجعبة وامام الصناعة وركاب صعابها ومذللها، ومسبل شعابها ومسهلها عاشق الجناب المحمدي ومادحه بلا معارض، ومثلث طرقتي البوصيري وابن الفارض، الشيخ ابو العباس سيدي احمد المانجلاني اتحفه الله بنفهق رضوانه والحفه مطارف التكريم في اعلى جناته، وقد اثبت هنا من مولداته ما يطرب ويروق، ويبهر الشمس عند الشروق... وبعد أن اورد ابن عمار طائفة نموذجية من نظم المانجلاتي هذا قال: «وهذا الرجل الصالح من عشاق الشمائل المحمدية المشرقة العاطرة الندية وله ديوان قصائد مولدية تزرى بالازهار الندية»[1].

ومن أجلّ مشاهير فرسان هذه الحلبة من ادباء الجزائر وعلمائها في العصر العثماني هؤلاء المشائخ: احمد المانجلاتي، وابو عبد الله محمد بن محمد الشهير بابن علي، وله ديوان، ومحمد بن الشاهد، وعلي المانجلاتي واحمد بن عبد الله الجزائري،

---

(1) انظر الرحلة ص 27 - 35 ط الجزائر 1322هـ/1904م.

واحمد بن قاسم البوني وابن يوسف، والحاج احمد البابوجي، ومصطفى بن الكبابطي، ومحمد العنابي، ثم جاء بعدهم امثال الحاج علي ابن الحفاف الخ.... واغلبهم تولى منصب الافتاء بالعاصمة فكانوا بذلك ائمة علم ودين وأدب. ومن حسن الحظ أن اغلب هذه القصائد والموشحات لا تزال موجودة الى اليوم محتفظا بها (مخطوطة) عند (باش قصاد) والباش قصاد هو عبارة عن رئيس جماعة المنشدين بالمعاهد الدينية بالعاصمة في شهر المولد النبوي

ومن الأسف الشديد أن تقاليد العاصمة في الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف بهذه الصفة التي ذكرها ابن عمار قد اهمل شأنها اليوم بالجزائر (1383هـ/1963م) وآخر من ادركنا ممن سلك هذا المنهج الطريف من علماء الجزائر هو شيخنا العالم اللغوي المفسر المحقق عبد الحليم بن علي بن سماية المتوفي الى رحمة الله في رمضان سنة 1351هـ/جانفي 1933م ومن موشحاته قوله:

يـــــا روح سار تعطر	من نشر اهــــل الخيـــام
بـــــالله سر تتخطر	واحمل اليهم سلامي
بلـــغ الى أهـــل طيبـــة	مـــني عظـــيم التحيـــة
قـــف وقفـــة مستطيبـــة	عنـــد كريم الشجيـــة
وانشق هنالـــك طيبـــة	من روضـــة عبقريـــة

الخ...

شاهدته رحمه الله وقد جاء بموشحه هذا صبيحة يوم الاحتفاء بذكرى المولد بجامع الحاج مصطفى الاكحل رحمه الله بربض الحامة فوضعه بن يدي (الباش قصاد) وهو يومئذ الشيخ محمد بن أحمد بو قندورة المفتي الحنفي في التاريخ جاء به هكذا في مسودة لم يجف مدادها وذكر لنا انه نظمه ليلة تلك الصبيحة نفسها، فاشتغل به الباش قصاد مع جماعة (القصادين) ووضعوا له الحانا موسيقية ملائمة وصدحوا بها في ذلك المجلس الحافل من تلك الصبيحة نفسها واستغرق الاحتفال بالمسجد المذكور الى ما قبل الزوال، ثم دعانا الشيخ الى منزله وكان يسكن قريبا من الجامع المحتفل فيه واعاد هناك المنشدون الترنم بالموشح المذكور، بأصوات شجية وتناولنا عنده مالذ وطاب من الحلويات والمشروبات الشهية وانسنا الشيخ باحاديثه العلمية ونكته الطريفة واشاراته الصوفية وهنـاك جرى ذكر عـلم التوقيـت وعـلم مني اني مشتغل يومئذ بوضع

شرح على ارجوزة، «الجوهر المرتب في العمل بالربع المجيب» للشيخ محمد المكي ابن عزوز وكان قد امرني بذلك شيخنا ابو القاسم الحفناوي حيث لم يشرح هذا النظام من قبل فجاء الشيخ بآلة الربع المجيب وهي مصنوعة من نحاس اصفر وبيده كتابان في الفن احدهما متن سبط الماردیني والثاني حاشية للتاجوري في نفس الموضوع وكلاهما مخطوط وقدمهما الي هدية قائلا: استعن بهما يا ولدي على شرح ما أنت قائم بصدده اليوم، وأخبرني بأنه هو كذلك تلقى هذا العلم عن شيخنا ابي القاسم الحفناوي، ولولا الحفناوي لاندثر هذا العلم اليوم من الجزائر، وفعلا هو مندثر اليوم بحيث لا أكاد اذكر ولا اعرف احدا يحسنه بالجزائر اليوم!... ولله الامر من قبل ومن بعد.

وقبل مقدم ابي رأس الى العاصمة وفد عليها اديب المغرب الاقصى ابو عبد الله محمد بن قاسم بن زاكور فحل بها سنة 1093 هـ/1682م وحضر مجالس علمائها قال: « فاهتديت بأنوارهم السنية، الى قطف مارق من انوارهم الجنية ورتعت في رياض آدابهم فتمتعت ونهلت من حياض علومهم حتى تطلعت، وكرعت في انهار بلاغتهم حتى رويت، وهصرت من أفنان براعتهم ما هويت، ونسيت ببشرهم وتأنيسهم، وما اقتبسه من المعارف في تدريسهم ما عانيته من رهج القفار وقاسيته في لجج البحار.

ولو لم يزد احسانهم وجميلهم على البر من أهلي حسبتهم أهلي

« ...فممن اقتبلني بكلتا يديه، واجاز لي رواية مالديه، العالم الاشهر، والحبر الاكبر حائز الشرفين العرضي والذاتي، ابو حفص عمر بن محمد المانجلاتي، ابقاه الله، ونضـر مرءاه، هو بقية السلف، وبركة الخلف... وقد افصحت عن علاه، في قصيدة طرزتها ببعض حلاه، وانشدتها بين يديه ليوم ختمي جمع الجوامع عليه، وهو يوم السبت الرابع من جمادي الاولى من شهور سنة أربع وتسعين والف. مطلعها:

حي على الانس ان طيف الهموم سرى
وسل نفسك وانهـج نهـج من صبرا

ثم بعد ابيات تخلص بعدها لمدح شيخه هذا فقال:

حبر الجزائر والدنيا برمتها من عالج العلم حتى ذاع واشتهرا

بـدر الجلال ومصباح الكـاب ومق ... بـاس الجهال الذي كل الورى بهرا
شيــخ احــاط بأنواع المديــح فما ... ابقـى لمن بعـده شيئـا ومـا وذرا

الى أن يقول:

مـا احسن البين اذ كانت اساءته ... تقضي الى مثل مصباح الدجا عمرا

الخ...

واستجاز الناظم شيخه هذا فكتب له الشيخ اجازة يقول فيها ».. فقد اجتمعت بالشاب الأديب الاريب الحاذق اللبيب، السيد محمد بن قاسم ابن زاكور مفتتح عام اربعة وتسعين والف وقرأ علي جمع الجوامع للامام السبكي من حفظه مع جماعة من الطلبة فمكثنا في قراءته من أوله الى آخره نحو اربعة اشهر فرأيت من حرصه واعتنائه واشتغاله بما يعنيه ما أعجبني، وفيه قابلية لما يلقي اليه مع ذهن ثاقب، وفهم صائب ومشاركة في فنون العلوم، وكانت قراءتنا لجمع الجوامع باحضار شراحه كالمحلي وكنا نقرأ منه باللفظ، وولى الدين العراقي والكوراني وحواش مع بعض شراح مختصرات الحاجب فشغف بذلك وأعجبه لحرصه على العلوم فطلب مني أن اجيزه فامتنعت لاني في نفسي لست من أهل هذا الشأن، ولا سيما من فرسان ذلك الميدان، فألح علي المرة بعد المرة لظنه الجميل، اني من هذا القبيل فأسعفت طلبته حرصا على جبر خاطره، خشية من كسر قلبه، لان كسر القلوب في كسر القلوب وجبرها في جبرها فأجزته أن يروي عني ما رويته عن أشياخي من الفنون التي اسردها بشرطه المعتبر، عند أهل النظر، وكنت قرأت على مشائخ جلسة اعلام، ومن اجلهم عندي سيدي ومولاي الذي لازمته اربع عشرة سنة نهارا وليلا في غالب الاوقات ابو الحسن سيدي علي بن عبد الواحد السجلماسي الانصاري قدس الله روحه في دار النعيم مع جماعة من الطلبة الاخيار، والنجباء الابرار اخذت عنه فني الاصول والبيان والمنطق ومصطلح الحديث والفقه والحديث والسير والتصوف، ففي الاصول قرأنا جمع الجوامع مرارا ومختصرا بن الحاجب نصفه وفي البيان تلخيص المفتاح مرارا، وفي المنطق الجمل للخونجي، ومختصر الشيخ السنوسي ونظم الشيخ سيدي عبد الرحمن الاخضري، وفي المصطلح الفية العراقي مرارا وجملة من كتب السير، وفي الحديث صحيح البخاري ومختصر خليل في الفقه ونظم

بن عاصم في الاحكام كما قرأناه كتاب الشفا للقاضي عياض مع البردة للامام البوصيري في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والسينية وعقائد الشيخ السنوسي قراءة ضبط وتحقيق وكنت اخذت قبل قدومه الى بلدنا عن غيره من المشائخ من اعظمهم واولاهم شيخ الاسلام سيدي سعيد بن ابراهيم الجزائري امام الجامع الاعظم نفع الله به ونفعه بعلومه واسكن بحبوحة الجنان: الحديث والفقه والنحو وشيئا من التصوف كالحكم لابن عطاء الله والتنوير، وعن غيره الحساب والفرائض وشيئا من علم الوقت الى غير ذلك، واخذت عن غير من ذكر الخزراجية بشرحها للشريف الغرناطي وأقرأتها للطلبة ما ينيف على اربعين ختمة كما اخذت لامية ابن مالك في التصريف كل ذلك بجد واجتهاد مع التفرغ والاشتغال بالعلوم، واليوم تشتت البال، وتبدلت الاحوال، نسأل الله أن يختم لنا بالحسنى ويلحقنا باسلافنا واشياخنا غير مبدلين ولا مغيرين، أنه ولي ذلك وهو حسبي ونعم الوكيل، وهم رضي الله عنهم اخذوا ذلك عن مشائخ جلسة من اعلام المغرب والمشرق قراءة واجازة واعلاما، وها أنا اكملت غرضه واذنت له أن يروي ذلك عني بشرطه عمن رويته عنه، والله مع هذا ما ظننت اني في هذه الطبقة ولكن خلت الديار فسدت غير مسود... » وفي آخر هذه الاجازة يقول: وكتب عن عجل، والقلب في وجل، صبيحة الاربعاء المكمل عشرين من شهر جمادي الاخرى من عام اربعة وتسعين بعد الالف عبد الله وأصغر عبيدة عمر بن محمد عبد الرحمن بن يوسف الجزائري الدار والمنشأ المانجلاتي نسبا اصلحه الله وكان له ولذريته وليا ونصيرا آمين آمين آمين والحمد لله رب العالمين.

وباطلاعنا على هذه الاجازة العلمية النفيسة التي تعدد فيها ذكر أضناف الكتب والعلوم نكون قد ظفرنا بوثيقة صحيحة ثمينة تكشف لنا عن مستوى درجة المثقف (العالم) الجزائري في ذلك العصر وما كان يدرس آن ذاك من الكتب في مختلف انواع الفنون الاسلامية ما عدا التاريخ فانه لم يحز عند الجمهور يومئذ اقبالا على العموم، وهذا ما صرح به عالم صالح من علماء وصلحاء الجزائر، في أواخر القرن الثاني عشر الهجري وهو الشيخ الحسين الورثيلاني إذ نراه يقول في حديثه عن بلاد مصر وعجائب القاهرة « ... إن كثيرا من عامة الطلبة بل الخاصة منهم لا يعلمون عجائبها أصلا لا سيا أهل بلادنا فان علم التاريخ منعدم فيهم وساقط عندهم!... فيحسبونه كالاستهزاء

أو اشتغالا بما لا يعني او من المضحكة المنهى عنها.. »[1] وكذلك علم الطب فقد تغلبت عليه الشعوذة يومئذ، فانه بعد ما كان يدرس في كتاب القانون والفية ابن سينا وتذكرة الانطاكي والحاوي للرازي اصبح يؤخذ من مجاميع وكنانيش جمع فيها اصحابها تجاريبهم الشخصية وما نقله المتطببون شفاهيا عن بعضهم بعض من الفوائد العامة أو عما يعثرون عليه في مطالعاتهم من خواص الاشياء فيدونونها في مجاميعهم حتى فقد الناس ثقتهم بهؤلاء المتطببين وذهبوا يختارون لانفسهم أطباء وجراحين أجانب ولم يشتهر من اطباء الجزائر في هذه الفترة - فيما نعلم - سوى الشيخ الحكيم عبد الرزاق بن حمَّادوش، صاحب «كتاب كشف الرموز» المطبوع بالجزائر سنة 1335هـ ثم أعيد طبعه بها مرارا والطبيب خليل بن اسماعيل الجزائري مؤلف كتاب «الذخائر النفيسة لدفع الامراض العويصة» ولا يزال كتابه هذا مخطوطا في 280 ورقة توجد منه نسخة بمكتبة الجزائر الوطنية تحت رقم 1763، وذكر شيخنا ابو القاسم الحفناوي في الجزء الثاني من تعريف الخلف ص 467 أنه اطلع على رسالة لمحمد بن رجب الجزائري وضعها في معالجة امراض الوباء والطاعون «استقاها مؤلفها من عدة مؤلفات في الطب وقد كان ذلك بمناسبة ما اصاب الجزائر سنة 1200هـ/1786م من هذا الداء الوبيل، قال ووضع لها الشيخ محمود بن الشيخ علي بن الامين المتوفي يوم 15 رمضان 1314هـ/17 فيفرى 1897م مقدمة تحتوي على سبعة فصول وخاتمة وذيلها بذيل شرح به الفاظها وحل به مشاكلها، وروى لنا الاسير الالماني سيمون بفايفر في مذكراته عن الايام التي قضاها في عاصمة الجزائر (1825 - 1830م) حديثا جرى له مع وزير جزائري حول الطب والاطباء في الجزائر، فقال له الوزير: انه لا يوجد بالجزائر طبيب ماهر بعد أن انتهى فن الطب العربي... وذكر في موضوع آخر من المذكرات: انه احتيج اليه هو في نفسه في يوم من الايام الى معالجة الجرحى - وقد كان في بلده - المانيا - يتعاطى تعلم فن الطبابة - فكلمه الخزناجي قائلا له: «... ونظرا لاننا ليس عندنا اطباء فقد طلب مني الباشا أن ارسلك الى الثكنات التي حمل الجرحى اليها لتضمد جراحهم... » كما حكي بفايفر عن نفسه يوم أن حل الفرنسيون بالجزائر

---

(1) الحسين الورثيلاني: نزهة الانظار ص 597 ط الجزائر 1326هـ/1908م.

6 جويلية 1830م فقال: كنت واقفا امام المستشفى حين اقتربت مني فرقة من المشاة يتقدمها جنيرال... وعندما وصل الجنرال الى المستشفى توقف لحظة ليتأمل بنايته فمضيت اليه وأخبرته بأنها كانت في السابق ثكنة للانكشاريين، وهي الان مقام لما يقرب من ألف جريح، فنظر الى بدهشة، وازدادت دهشته حين قلت له بأنني الماني واني الطبيب الوحيد في المستشفى أعاني الم الاسر في الجزائر منذ خمس سنوات... »[1] ثم ظهر بعد أن ذلك الجنيرال هو الجنيرال دامريمون. وأنا استبعد كثيرا أن تكون هناك دولة من دول التاريخ الحديث، ويكون هناك وطن وشعب يبلغ عدده الملايين ولا يوجد من بينه اطباء ؟ الى هذا الحد... والحال أن بجواره دولة كدولة السعيدين بالمغرب حيث يوجد بمحلة سلطانها محمد بن عبد الله من الجراحين والحجامين ما ينيف على المائة، وانه كان يؤتني بالجرحى في الوقعة التي كانت بين هذا السلطان وبين عمه عبد الملك بن محمد الشيخ سنة 984هـ/ 1576م من ميدان القتال الى المحلة فتشد جراحاتهم ويعالجون بأنواع العلاج والادوية الخ... فكيف يكون هذا العلم او صناعة الطب ومهنة الطبابة موجودة بأرض المغرب الاقصى ولم يشتهر من أصحابها بأرض الجزائر سوى افراد قلائل؟... على اننا نجد ضاحب المرآة يذكر في سياق حديثه عن نظام مسير الجنود الى الحرب ووصفه للمعسكر بأنه يوجد باحد جانبي هذا الممشى - حسب تعبير المترجم - خيمة كبيرة تشكل مستشفى حيث يوجد جراحون وصيدلية؛ ولعلهم أجانب؟... وجاء عن هلتون سامبسون الذي قضى اربع سنوات في بلاد الجزائر وعاشر فيها سكان الريف والجبال وبالخصوص سكان جبال الاوراس، وصاحب الاطباء الجزائريين في البلاد وذكر عنهم الكثير في ميدان الطب وقال عنهم: ان حرفة الطب بالجزائر - حرفة سرية - يرثها الابن عن ابيه ولهم كتب قيمة في هذا الميدان نرجع اصولها الى علم الطب والجراحة لاطباء عرب من العصور الوسطى،

وهي حرفة سرية أصحابها ماهرون في علم ثقب العظام أو استبدال عظام الانسان بعظام الحيوان وكثيرا ما استبدلوا عظام الساق المكسورة للانسان بعظام الكباش أو حيوانات أخرى، ولهم دراسة ايضا بطب العيون ويستعملون

---

(1) مذكرات سيمون بفايفر تعريب دودو ص 103-86-25ط الجزائر 1974م.

الادوات التقليدية التي تشبه الى حد بعيد ادوات الطبيب اليوناني هيبوقراط في عملياتهم الجراحية ونسبة نجاحهم في هذا الميدان مرتفعة رغم بساطة هذه الادوات الجراحية، ولهم دراية فائقة بعلم النباتات يجمع الطبيب بنفسه الاعشاب من الغابة أو يقطرها ويزنها ويمزجها ويحضرها للمرضى[1].

واما فن الموسيقى فقد اخذ الجزائريون منه حظهم الاوفر ولا سيا الطبوع والالحان الاندلسية التي اتى بها زرياب من المشرق وكان ان وضع اصولها واحكم تفاريعها واجزاءها كل من امثال الكندي والفارابي وابن سينا بالمشرق وابن باجه وابن الطفيل وابى الصلت امية بن عبد العزيز بالمغرب ثم جاء بعدهم ابن جودي وابن الحمارة وغيرهما فزادوا هذه الالحان تهذيبا واخترعوا طبوعا جديدة من الالحان المطربة، وكان خاتمة هذه الصناعة ابو الحسن بن الخاسر المرسي فانه ادرك فيها علما وعملا ما لم يدركه احد وله في الموسيقى كتاب كبير في جملة اسفار، وكل تلحين سمع بالاندلس والمغرب في شعر متأخر - كما يقول التيفاشي - فهو من صنعته[2] وكل ذلك انتقل الى اهل الجزائر وبرعوا فيه، كما برعوا في العزف على آلاتها الموسيقية المعروفة ونظموا الشعر الفصيح منه والملحون ولهم في فنونه معان رشيقة، وتعابير رقيقة، وحكم بالغة، ووضعوا له الانغام والالحان ولا يزال بعضها مستعملا الى الان، ومنها ما اقتبسوه من انغام العجم كالبشاراف الفارسي والالحان التركية الاخرى...

ومن حيث الخط وهندسته واشكاله المستعملة بالجزائر، فانه يمتاز من بين اشكال الخط العربي بمظهره المغربي المستطيل وطابعه الجزائري الخاص المنبثق عن الخط الكوفي القديم ثم اخذ بعد ذلك يتطور شيئا فشيئاً بحسب ما طرأ على الجزائر من مهاجري الاندلس والجاليات الشرقية التي كانت تصحب المراكب النازحة الى الجزائر، فدخل على الخط الجزائري من ذلك اصناف من نوع الخط الاندلسي المستدير والخط الفارسي والنسخي ونوع الرقعة الى غير ذلك... وكذلك القول في الفنون الجميلة الاخرى من تزويق ورسم وتصوير

---

(1) علي عبد القادر حليمي: مدينة الجزائر.. ص 274 ط الجزائر 1972م -

M. W. Hilton sompson: A study of the Healing art in Algeria, London oxford University press 1922.

(2) حسن حسني عبد الوهاب ورقات عن الحضارة العربية بافريقة ج 2 ص 544 ط تونس 1966م.

مصغر أو مكبر ومهنة الطهو أو الطهاية فان أغلب هذه الفنون كان متأثرا بالطابع الشرقي ولا سيما منه الطابع التركي والفارسي والاندلسي.

على أن جميع ما ذكرناه من أنواع فنون العلم واصناف المعرفة السائدة يومئذ بالجزائر لا يتجاوز نوعها أن يكون من قبيل علوم الادب والدين وان الجزائر في ثقافتها ومعارفها الخاصة والعامة كانت سائرة في ركب بلاد العالم الاسلامي المنطوي في دراساته العامة يومئذ على هاتين الناحيتين فقط ناحية علوم الدين والادب لا صلة له بغيرها من طبيعيات ورياضيات وما شاكلها من العلوم العقلية الا في النادر، ولقد شارك علماء الجزائر في كلا هذين الفرعين من العلم - الدين والادب - مشاركة فعالة فألفوا الكتب في الفروع الفقهية وعلم اصول الدين ووضعوا المتون والشروح على ذلك وفيهم من وضع تفسيرا للقرآن الكريم وفيهم من ملاء الدواوين شعرا، وفيهم من اختصر كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني كما فعل احمد بن علي بن سحنون صاحب كتاب «الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني» وفيهم... قال يحي الشاوي (1096هـ/1685م) سمعت والدي يقول: كان في بني راشد ثلاثمائة مجلس في المرادي - يعني شارح الفية ابن مالك في النحو ولا نكاد مع ذلك نظفر بأثر علمي لهؤلاء في فن الهندسة أو غيره من الرياضيات والفلسفيات والطبيعيات والفيزياء والكيمياء أو غيرها من مرافق علوم الحياة، وان كان هناك شيء من ذلك. فهو شيء طفيف ضئيل جدا أقرب ما يـ ن الى التهجي بالقياس الى من يتعلم القراءة والكتابة اللهم الا صبابة من علم الحساب لقسمة الفرائض والمواريث او لتحديد بالمكاييل والموازين وضبط المقاييس أو شيئا من مبادىء علم الهيئة والفلك لضبط المواقيت الشرعية ولا تدري كيف بلغ الامر بطلبة تلمسان فتقهقر فيهم العلم كليا الى حد تندهش له النفوس وتطير منه العقول!، فلا نزال مترددين مرتابين من وصف الزياني (1249هـ/1809م) لطلبة تلمسان في رحلته الترجمانة الكبرى ص 144 فضالة - المحمدية - 1387هـ/1967م حيث قال: وهؤلاء الطلبة الذين بتلمسان ليس فيهم من يحسن منطقا ولا لغة ولا عربية لاصلاح اللسان ولا يتعاطون الفروع الفقهية والاحاديث النبوية وأقمت بها - تلمسان - سنة ونصفها شربت زلالها واستنشقت عرفها...» فلا أدري على أي محمل احمله؟...

ولكن اذا نظرنا الى مصر يومئذ وهي التي يقول فيها الشعراني العالم الصوفي المصري (973هـ/1565م) «ان الناس قد اجمعوا على أن ليس على وجه الارض بلدة اكثر علما من مصر» ونحن نرى فيها مثل اعيان علمائها كالشيخ عبد الرحمن الجبرتي (1240هـ/1825م) احد علماء مصر المرموقين وهو بعد ابن الشيخ حسن الجبرتي المشهور بعلم الرياضيات والفلك، يندهش ويتعجب مما اجراه امامه بعض علماء اوربا الكيماويين من تجارب علمية وفنية أيام حملة نابوليون على مصر (1213هـ/1798م) فقال الشيخ الجبرتي عنها: انها «نتائج لا تسعها عقول امثالنا»[1] ونرى كذلك مثله شيخ علماء الازهر: الشبراوي (1171هـ/1758م) في جماعة من العلماء يعترفون بجهلهم للعلوم الرياضية امام والي مصر الوزير احمد باشا كور وحتى في اواخر القرن التاسع عشر الميلادي نرى الحكومة المصرية تخشى تعليم الرياضة والطبيعة فتستفتي شيخ الأزهر محمد الأنبابي1313هـ/1896م): «هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء - المعبر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر المعارف؟... فيجيب الشيخ في حذر: «ان ذلك يجوز مع بيان النفع من تعلمها». كأن لم يكن للمسلمين عهد بهذه العلوم ولم يكونوا من مخترعيها وذوي التفوق فيها في التاريخ!.. فاذا كان الامر هكذا بالنسبة الى اهم إركان مركز الثقافة الاسلامية بالمشرق وعلمنا أن الجزائر كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحضارة الاسلامية العامة فماذا عسى أن يكون عليه مستوى حال المثقف الجزائري في ذلك العصر؟... فلا شك انه معذور نوعا ما، او شبه معذور!...

وعقب الكاتب الانكليزي (كرشيفور هيرولد) في كتابه عن بونابارط معلقا على ما أظهره علماء الازهر من تعجب واندهاش لهذه التجارب الكيماوية ملتمسا لهم بعض العذر فقال ما تعريبه. «ان علماء الازهر قد احتفظوا بوقارهم ورصانتهم العقلية امام عجائب العلم الحديث الذي خيل الى علماء البعثة الفرنسية انها تقع عندهم موقع السحر من ابناء الشعوب البدائية، ولكنهم قد نظروا اليها فعلا - نظرتهم الى حيَل السحرة واصحاب الشعوذات وان كانوا قد فهموا انها تستند الى علم جدير بالتحقيق من قبيل ما عرفوه أو سمعوا به

---

(1) تاريخ الجبرتي ج 3 ص 35 - 36 ط بولاق 1236هـ

من حكمة الاولين وانه لم تمض حقبة قصيرة على عهد نابليون حتى كان الافريقيون والاسياويون قد علموا ما وراء تلك الحيل من اسرار الكهرباء والكيمياء وتبين ان السذاجة كانت من نصيب علماء الحملة لانهم قدروا الدهشة في غير موقعها من عقول اولئك الحكماء[1].

وان شئت ان تعرف شيئا عن تراجم علماء هذه الفترة الزمنية بالجزائر فارجع الى ما دّونه وجمعه شيخنا ابو القاسم الحفناوي في كتابه الحافل «تعريف الخلف برجال السلف» وهو مطبوع بالجزائر في جزأين 1906م ورحلة ابي رأس المعسكري (مخطوطة) ورحلة المشرفي (مخطوطة) والفية احمد بن قاسم البوني (الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة). نشرت بالتقويم الجزائري لسنة 1913م قيل انها مشروحة بشرح موجود ببعض الخزائن الخاصة بالعاصمة، ولم أقف على هذا الشرح وللناظم منظومة ثانية تحتوي على ثلاثة الآف بيت واقرأ ارجوزة الشيخ محمد بن حواء التجيني المستغانمي المسماة بسبيكة العقيان فيمن عرف بستغانم واحوازها من العلماء والاعيان، وهي منشورة في كتاب سلسلة الاصول لحشلاف ط تونس 1347هـ/1929م ورحلة ابن زاكور ط الجزائر 1319هـ/1902م والبستان لابن مريم ط الجزائر 1908م ولواء النصر في فضلاء العصر لابن عمار الجزائري - ان ظفرت به؟ - فهو الآن في حكم المفقود، وارجع كذلك الى ما قدمناه لك من التراجم في صلب الكتاب والى ما ذكرناه من المصادر والمراجع في اوله... فان في ذلك ما يفيدك بلا شك علما بالحياة العقلية والثقافية في الجزائر عبر العصور ولنختم هذا الفصل بهذه القصيدة في وصف العاصمة لناظمها الشيخ الحاج علي ابي طالب الغريسي المتوفى سنة 1258هـ/1842م وهو عم الامير عبد القادر الجزائري وصهره نظمها بمناسبة مروره بالعاصمة في طريقه الى الحج، وهذه القصيدة تعطينا صورة حية لما كانت عليه مدينة الجزائر في تلك الفترة من الزمن قال رحمه الله:

عليك الجزائر عج نحوها	وداوي بطيب شذاها العلل
وشاهد قصورا اشيدت بها	وامكنة نزهة للمقل
فكم من علوم منوعة	يضع نشرها بالدروس فسل

---

(1) عباس محمود العقاد: ما يقال عن الاسلام ص 223 ط القاهرة 1966م.

وكم مشكــلات ازال الفطــا · فحول بهـا سار ضرب المثـل
وكم فاضــل قــد حوتــه وكم · همام يصول وفرد وصــــل
وكم بــددوا شمــل جمع كفو · ر ببيض المواضي وسمر الاسل
وجيش كمـى وصخـب الجيا · د وحزم وعزم يقــد القلــل
اضاقوا البــلاد بجلـب العدى · اسارى وغص الفضا والجبـل
وكم من حصون اعــدت بهــا · لدفـع عــدو طغــى فانجـدل
فسر قاصــدا بلــدة قد ثوى · بها الفضـل حقا ونيل الامل
تفاخر مصر وفاسابهــــــــا · وتونس ذات البهــا والحلــل
فيا رب صنها من المزعجات · ومن كــــل شر وضر نزل
وابــق علومــا وتقوى بهــا · لجيــل فجيــل الى المنتقـل
بجـــاه النـــبي الرسول الى · الخلائـق حـتى الهداة الاول
عليــه صـلاة من اللــه مـا · تألــق برق وودق هطـــل

ولعل القارىء يلاحظ اننا قد توسعنا قليلا في البحث عن تاريخ الحضارة الجزائرية في هذا الفصل على خلاف ما تعوده منا فيما سلف من فصول هذا الكتاب، وذلك علما منا بأنه لا يتجلى تاريخ الامة كحقيقة واقعية الا في تاريخ حضارتها وتمدنها وعمرانها داخل بلادها ومدى ما بلغته من التأثير بذلك على غيرها خارج البلاد، وما الكلام عن تاريخ الاحداث السياسية الداخلية والخارجية وما زاولته الدولة من حروب وفتوحات في ذلك الاجانب من الجوانب الضرورية في تاريخ الدولة لا غير، فلذلك ترانا هنا سلكنا هذا المسلك في هذا الفصل واطلنا فيه النفس نوعا ما.

ولاة الجزائر وزعماؤها:

لقد علمت فيما قدمناه لك واوضحناه من الكلام حول نظام الحكم التركي وتراتيبه الادارية في اول بحثنا عن تاريخ هذه الدولة بالجزائر فقلنا بأن القطر الجزائري كان منقسما اداريا الى اربع ولايات او قل خمس مقاطعات، هو مقاطعـة العاصمة وتسمى دار السلطان،، وولاية تيطري، وولاية الغرب، وولاية الشرق، ثم اوطان الجنوب. فأما مقاطعة العاصمة فهي تشمل المدينة واحوازها والساحل مع سهل متيجة وهي دائما كانت تحت تصرف الداي او

الباشا نفسه المقيم دائما بقصره في العاصمة ومركز تيطري مدينة المدية، ومركز ولاية الشرق هو دائما بقسنطينة، اما ولاية الغرب فقد كان مركزها اولا بقلعة بني راشد بمازونة، ثم انتقل منها الى معسكر، ولما فتح محمد الكبير مدينة وهران (1206هـ/1791م) اتخذها مقرا لحكومته. وكان لاوطان الجنوب رؤساء و (شيوخ عرب) هم المشرفون عليها والمسؤولون عنها امام بايات المقاطعات.

ولم يحاول الاتراك اقامة حكام لهم يؤيدون سياستهم في جبال الاوراس الا في اوائل القرن الثامن عشر، وكان اول هؤلاء الحكام زديرة - سديرة بن محمد ابو ضياف، ويقول الرحالة (بيسونيل) ان جميع القبائل كانت تعترف برياسته عام 1725م، وانه كان يلقب بشيخ الاوراس؛ على ان سلطان هؤلاء الحكام لم يكن وطيد الاركان.

ومن المعلوم ان تعيين ولاة النواحي او المشائخ او قل البايات انما يقع بتفويض من حاكم الجزائر - الباشا - او الداي مع مصادقة اعضاء الديوان على ذلك، وفيما يرجع الى نظام الحكم بأرض الجنوب فانه كان على ما عهدته القرون الوسطى من نظام الاقطاع بأوربا ومشيخة القرية بالصحراء في المشرق والمغرب.

فهناك بتقرت ووادريغ الاسرة الجلالبية او بني جلاب، وهم الذين كان من آثارهم الباقية اليوم هذا المسجد الكبير الموجود حاليا بمدينة تقرت، وقد تم بناؤه سنة 1194هـ/1780م من طرف احد سلاطينهم المسمى ابراهيم بن محمد، قام بذلك تكفيرا عن جريمة ارتكبها في حق اخيه علي الكبير؛ واولهم الحاج سليمان بن رجب، وآخرهم فرحات الجلابي الذي قضت عليه السلطة الفرنسية فقتلته سنة 1267هـ/1851م وقبره بتربة سيدي خالد. جنوب غربي بسكرة واشتهر من قدمائهم الشيخ محمد لا كحل بن عمر، قام بهذه الولاية بعد أبيه فمكث بها ستا وثلاثين سنة، وتوفي بتقرت وبها قبره، وقام بالامر بعده ابنه الشيخ احمد... ومنهم الشيخ احمد بن الشيخ محمد، تولى المشيخة سنة 1180هـ/1762م وعزل عنها سنة 1195هـ/1777م، وتولى مكانه عبد القادر بن عمر.

وكان منطقة وارقلة شيوخ سعيد عتبة المتمركزون بنقوصة، واسرة ابن

ابي غلبون ومولاي علاهم. وبنقوصة اسرة بني بابيه الزنجية، وكان على رئاسة النامشة اولاد شاشي، والمرد اسيون، والدواودة بارض الزاب وناحية الحضنة، فكل من هذه المناطق الصحراوية كانت على نظام الاسياد الاقطاعيين باوروبا ولاكملوك الطوائف بالاندلس.

وليس للسلطة المركزية عمل على هذه النواحي من نفوذ الفعلي سوى ما كانت تفرضه على اهلها من الجباية والزكاة واللزمة والدنوش والغوائد والاعتراف بسلطان الاتراك الذي كان يتجلى للجمهور في الخطب الجمعية بالمساجد فينادي باسم السلطان العثماني.

واليك طائفة من اسماء بعض مشاهير زعماء العشائر وشيوخ القبائل والولاة والبايات ومن تولى منهم منصباً رئيسياً على عهد الاتراك بالجزائر.

فمنهم سالم التومي حاكم مدينة الجزائر وشيخها ايام نزول الاتراك بها، قضى عليه الترك كما قضوا على شيخ بلاد قبائل زواوة ابي العباس احمد بن القاضي المقيم انذاك بجبل كوكو بناحية سوق الاربعا- بني إيراثن، فلقي حتفه بثنية بني عائشة سنة 935هـ/1528م، ومنهم محمد ابن القاضي المعروف بابن بوخثوش او وعشوش او غثوش، وهو الذي عبر عنه الورثيلاني في رحلته باسم سلطان زواوة وفي موضع آخر سماه امير زواوة، مات في الطريق مرجعه من الحج سنة 1179هـ/1766م، ودفن في المرحلة التي بين نقب علي والينبع اخبر بذلك الورثيلاني كما ذكر لنا ايضا حاكم مجانة في عصره وهو محمد بن احمد بن القندوز المقراني ثم العباسي فلقبه بالسلطان ايضا، وقال بانه اجتمع به في بلده (مجانة) بتخفيف الجيم بالشمال الغربي من برج بو عريريج. وفي هذا ما يدلنا على انه كان يوجد بارض بلاد القبائل زعماء اسر كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الداخلي، مع ارتباطها بنوع من التحالف مع السلطة التركية، فتقوم لها باعمال البوليس مع التزامها بتقديم الجند للحكومة المركزية في حالة ما اذا دعت الضرورة الى ذلك مع دفع الضرائب للخزينة وفي المقابل كانت السلطة الحاكمة تقدم لهؤلاء الرؤساء بعض الاسلحة فتمدهم بها ليتمكنوا من القيام بمهمة المحافظة على الامن الداخلي، وبهذا الاعتبار نظر اليهم الورثيلاني فأطلق عليهم لقب السلطان تارةً وتارة نعتهم بالامير.

وكان على قلعة هوارة اسحاق بن يعقوب التركي ثالث الاخوة: عروج وخير

الدين؛ وكان على الناحية الغربية من العاصمة محمد بن علي. واول من شغل ولاية تيطري الباي رجب ومركزه المدية؛ وآخر البايات بها هو الباي ابراهيم بن ابي مزراق مات قتيلا في رمضان 1249هـ/ جانفي 1834م. ومن مشاهير ولاة هذه الولاية: الباي مصطفى الوزناجي، ومحمد بن ابراهيم الذي تولى قيادة جيش فتح وهران.

وهو صهر الباي محمد بن عثمان الكردي، وعزل الوزناجي سنة 1206هـ1207هـ - 1792م فحل محله محمد الذباح، وفي سنة 1208هـ/1795م عزل الذباح وعوض بالحاج ابراهيم بورصالي ثم عزل هذا سنة 1210هـ/1796م وعوض بالباي حسن قائد بني سليمان ثم وقع القبض على هذا القائد (15 شوال 1216هـ/17 فيفري 1801م) وصودرت جميع ممتلكاته واستخلفه محمد الطبجي، واشتهر بيت آل ابن الفكون بقسنطينة بالرئاسة في العلم والحكم وقد توارثها منهم جماعة... وكانت مشيخة الحراكتة متنقلة بين كل من اولاد بني مدكور واسرة الشيخ عيسى، ورئاسة جبال النمامشة في اولاد شاشي ولا حرار ورؤساء الحنانشة ،واما الدواودة، فهم قبائل كثيرة تنتسب الى داود بن مرداس بن رياح تغلبوا على الزاب الجزائري منذ الحملة الهلالية في وسط القرن الخامس الهجري، وكانت مساكنهم بسكرة وطولقة ومنهم الاربعاء بمدينتي الاغواط وبسكرة وبنو عساكر بن سلطان، واولاد مسعود بن سلطان واولاد سباع بن يحي ومشيختهم كانت في بني عكاز المعروفين اليوم بأولاد زكري بتراب ملحقة اولاد جلال، وكان مركز حكومتهم بدار احمد باي وكان لبني مرداس رئاسة البلاد التي ما بين مدينتي العين البيضاء وقالمة ومشيخة بلاد مجانة لآل امقران المستقرين بقلعة بني عباس استمرت المشيخة، فيهم الى ان قضي عليهم الاستعمار سنة 1288هـ1872م

وكان الذي بنى القلعة المذكورة هو الشيخ سيدي احمد بن عبد الرحمن (القرن التاسع الهجري) موطنه فيما دون وادي آقبو من بلاد زواوة، فاقام بها مملكة اسس لها العساكر وجيش الجيوش واخذ المغرم في القرن العاشر، ووصلت جنوده الى عمالة تونس ووادي ريغ في الصحراء ومن جهة المغرب الى مزاب وبلاد الاغواط وهم على ذلك في المملكة ثمانون سنه وكان اخرهم في مملكة القلعة هو سيدي ناصر وهو كما قال الورثيلاني

رجل فاضل عالم زاهد واولاده على المملكة في مجانة تحت ولاية الاتراك غير ان حكمهم عليهم ضعيف[1] وكانت رئاسة الاوراس لاسرة ابن الضياف ومنهم زديرة او - سديرة - بن محمد (1137هـ/1725م) ومنهم الشيخ الحسناوي بن بلقاسم هو من قبيلة الحنانشة وقد حضر وشاهد الغزو الفرنسي لبلاده، ومن شيوخ جبل احمر خدو بالاوراس اسرة ابن قانا الزواوية وتولت هذه مشيخة بسكرة زمن صالح باي حوالي سنة 1202هـ - 1203هـ/1788م وكان على رأس قبيلة الدوائر اسرة البحايثية المعروفين باسم «الامحال» جدهم الموفق بن البشير، ومنهم الاخوان. قدور ومصطفى ابن اسماعيل آغة الدوائر على عهد الاحتلال الفرنسي. كما اشتهر من رؤساء العشائر في آخر العهد التركي اسم احمد بن يونس ولا سيما في إبان الثورة التي وقعت بناحية الدير الشرقي في ارجاء تبسة، قتله الحاج احمد باي قسنطينة سنة 1242هـ/1827م ومن مشاهير القادة المتازين وابطال الجزائر البارزين في هذا العصر يحيى آغا الذي كان يشغل منصب وزير الحربية طيلة عشر سنوات خدم خلالها الداي بكل اخلاص ومات قتيل الداي بدسيسة وقعت من احمد باي وبمشاركة ابراهيم الخزناجي آغا العرب (1244هـ/1828م).

ومن الاسماء اللامعة في تاريخ الزعماء والرؤساء بالجزائر في هذا العصر الشيخ ابو الضياف رئيس قبيلة الحنانشة، قتله احمد باي المملوك، ومنهم احمد الميلي نائب باي قسنطينة (اسماعيل بن ابراهيم القريتلي) على قبيلة الحراكتة، ومن شيوخ العرب احمد بن الحاج، ومحمد بن الصخري بن بوعكاز العلوي مات قتيلا في صفر سنة 1047هـ/جوان 1637م والشيخ قدور بن الصخري رئيس قبيل الحشم، ومن مشاهير الاغاوات من غير من تولى منهم امارة الجزائر - يحى أغا وكان مشهورا بالشجاعة والحزم والاغا احمد بن الحملاوي وعلي بن عيسى وكلاهما كان بقسنطينة، ومحمد بن الغماري شيخ سهول انقاد بولاية وهران، وكانت مشيخة الزمالة ايام الباي حسن آخر بايات وهران، بيد المرسلي وعدة بن قدور.

---

(1) الورثيلاني: نزهة الانظار. ص 36 - 37. ط الجزائر 1326هـ/1908م.

واشتهر من القادة القائد خرميش او كرميش ابن سلامة المقتول في واقعة اولاد سلطان، وبتلمسان القائد رجب البجائي اغتاله الاستعمار، وكان اول قائد بمستغانم المولود بن قطاط وهو عربي الاصل من قبيلة المجاهر ومن شيوخ بلدة سيق محمد بوعلام من دوار الغرابة، وبواحة البيض الشيخ ابو بكر بن الدين من اولاد سيدي الشيخ، ومن شيوخ الناحية الغربية لولاية قسنطينة القائد عمار بن الحملاوي اغتاله الباي محمد تشاقر (1231هـ/1816م)، ومن ولاة فرجيوة مقور بن عاشور واخوه مصطفى قتيل الباي تشاقر ايضا، والحاج احمد بن مصطفى بن عاشور المعروف بابي عكازا امتدت ايامه الى عهد الاحتلال، واشتهر من شيوخ زواغة، ابن عز الدين، ومن الرؤساء المشهورين ايام ولاية الحاج احمد باي قسنطينة: الحاج عمار بن زقوطة.

واما رؤساء المقاطعات من البايات فاليك ما علمناه من اسمائهم، ونبدأ بولاة غرب البلاد من غير مراعاة للترتيب الزمني.

كان مقر هؤلاء الرؤساء او البايات اولا هو كما ذكرنا آنفا: بقلعة بني راشد، وفيها قتل اسحاق اخو عروج وخير الدين، ثم كانت مدينة مازونة هي مركز الولاية الى ان تولاها مصطفى بوشلاغم فنقل مركزه الى بلد القرط - معسكر - كما قامت كل من مدينتي مستغانم وقلعة بني راشد بوظيفة قاعدة الولاية الغربية في فترة من ايام حكم بوشلاغم، الى ان استعاد الباي محمد الاكحل الكبير مدينة وهران من يد الاسبان (1206هـ/1791م) فنقل اليها مركز حكومته، واستمرت هذه المدينة قاعدة لولاية الغرب الى سقوطها بيد الاستعمار الفرنسي (1246هـ/1831م).

وكان من اول الولاة الذين تولوا هذا المنصب ممن عرفنا اسماؤهم الباي حسن بن خير الدين باشا، ثم الباي بوخديجة (970هـ/1563م) وخلفه السواق المازوني المغتال على يد زوجته، ثم جاء بعده السائح المازوني فحكم احدى عشر سنة، ثم جاء بعده دور علي باي المعروف باسم قارة باغلي نسبة الى مدينة باغل بتركيا، تولى الحكم سنة 1228هـ/1813م. وهو سابع البايات بهذه الولاية، ظهر عليه بعض التساهل او التغافل في معاملته مع اعداء الداي علي باشا فغضب عليه وقتله خنقا وهو على ظهر جسر نهر شلف بين قرية (لافاراند)

وعين الدفلة وذلك سنة 1232هـ/1817 م. ثم يأتي ذكر اسم السعدي باي وهو الثامن، ثم باهجي حسن تولى منتصف شهر ذي الحجة سنة 1232هـ/ منتصف اكتوبر 1817م، ويقال ان السعدي باي هو عاشر من تولى هذا المنصب بهذه الولاية؟... ثم يأتي بعده ذكر اسم محمد بن عيسى، ولكنه في الترتيب يقال انه هو الخامس عشر او السادس عشر؟... ثم شعبان باي الزناقي تولى حدود سنة 1090هـ/1679م وتوفي بمعركة قصبة وهران سنة 1098هـ/1686م بعد ان انكسر بيده سيفان كان يحارب بها الاسبان بهذه المعركة، والسابع عشر منهم هو مصطفى بوشلاغم بن يوسف بن محمد بن اسحاق المسراتي فاتح وهران، (1119هـ/1708م) مكث في ولايته هذه الى سقوط المدينة بيد الدوك مونطارنيار سنة 1145هـ/1732م وفي ايامه وقع نقل مركز الحكم من مازونة الى قلعة بني راشذ ثم الى معسكر وكانت وفاته سنة 1146هـ/1733 وقيل سنة 1149هـ/1738م والى هذا ينسب بناء برج الاتراك بمستغانم، ثم تولى بعده اخوه يوسف بن يوسف بن محمد بن اسحاق المسراتي بقي في الحكم سنة واحدة وتوفي بالوباء في تلمسان سنة 1147هـ/1734م. ودفن هناك ثم تولى بعده اخوه مصطفى الاحمر المتوفي في مستغانم مسموماً سنة 1161هـ/1748م ودفن حيث مدفن اخيه بوشلاغم وتولى بعده اخوه محمد ابو طالب الحاجي فبقي على ولايته تسعة اعوام ومات قتيلا سنة 1155هـ/1742م. والموفي عشرون هو الباي محي الدين المسراتي الملقب بقائد الذهب لقب بذلك لفرط جوده وكرمه، ويقال له باي الاحمال، تولى يوم وفاة اخيه الحاجي سنة 1155هـ/1742م وبعد ست سنوات من ولايته اختلفت عليه الرعية وقامت ضده فالتحق بوهران - وكان بها الاسبان - فذهب الى تونس وبها توفي، الحادي والعشرون محمد العجمي، وكان يلقب بالجدي - اي الخروف - لم يمكث بولايته هذه سوى تسعة أشهر ثم قتل سنة 1166هـ/1752م الثاني والعشرون عثمان باي بن ابراهيم (مؤسس الجامع الاعظم بمعسكر 1160هـ/1747م) فاستعاد تلمسان من الاسبان وتوفي بمعسكر وهناك مدفنه 1185هـ/1771م، الثالث والعشرون، حسين باي حكم سنتين (1186هـ - 1188هـ/1772 - 1774م) ثم وقع له ما حمله على الفرار، من نفوذ باشا الجزائر فانتقل الى اسطنبول ثم الى القاهرة، الرابع والعشرون الباي ابراهيم

الملياني وهو الذي قاتل الانكليز يوم حملتهم على الجزائر (1189هـ/1775م) فحاربهم بساحل العاصمة وشاطئها بنواحي ضاحية حسين داي وهو على رأس عشرة آلاف مقاتل فانهزم جيش العدو الذي كان يرأسه او. او. ريلي O. Reilly ومن مآثره انشاؤه لبرج العسكر القائم بمدينة معسكر (1176هـ/1762م)، الخامس والعشرون الحاج خليل التركي تولى سنة 1190هـ/1777م والى هذا ينسب اول خلاف وقع بين الاتراك والدرقاويين بولاية وهران، وهو الخلاف والنزاع الذي نشب بعين الحوت بين المرابط محمد بن علي الدرقاوي والباي المذكور، وجد قتيلا بمخيمه يوم كان متوجها في طريقه الى قمع الثوار بتلمسان[1] سنة 1194هـ/1779م. السادس والعشرون الباي محمد بن عثمان الكردي الملقب بالاكحل لسمرة كانت به وهو المشهور بلقبه محمد الكبير، تولى سنة 1195هـ/1781م، فقاوم المنشقين من بني الاغواط وفي نواحي الشلالة وعين ماضي واستعاد وهران من حكم الاسبان سنة 1206هـ/1791م وتوفي قيل مسموما سنة 1224هـ/1809م، وله مآثر جليلة تكفل بجمعها وتدوينها كل من احمد بن هطال التلمساني في كتابه «الرحلة» واحمد بن سحنون الراشدي في كتابه «الثغر الجماني» وكلاهما مطبوع، ولقد اشرنا الى بعض تلك المآثر فيما تقدم، وبعد ان مكث في الحكم ثمانية عشر سنة، خلفه ولده عثمان (1213هـ/1798م) فبقي ثلاث سنوات في الحكم وساءت سيرته فابعد الى مدينة البليدة، ثم اعيد الى مثل منصبه بقسنطينة وتوفي يوم ثورة ابن الاحرش الدرقاوي في واقعة وادي الزهور من بلاد القبائل، الثامن والعشرون الباي مصطفى المنزالي تولى سنة 1215هـ/1800م وكان لعجزه عن تسيير الادارة وضعفه عن مقاومة ثورة الشيخين الدرقاويين ابن الاحرش وابن الشريف ما جعله، بمعزل عن الحكم فتولى بعده الباي محمد المقلش 1220هـ/1805م واتهم من طرف احمد باشا بالانتهازية في حروب درقاوة حيث اتخذها وسيلة لمصادرة اموال الرعية لصالحه ولشفاء صدره بالانتقام من مشائخ وعلماء الدين فحكم عليه داي الجزائر بالاعدام فقتل خنقا سنة 1221هـ/1807م بعد ان نكلوا به وعذبوه، والموفي ثلاثين مصطفى المنزالي – للمرة الثانية – قضى اغلب ايامه في مقاومة درقاوة، ولم تمض عن ولايته سنة واحدة حتى دعي من طرف الداي الى ولاية وزارة المال – خزناجي – فتولاها سنة 1221هـ/1807م الواحد والثلاثون الباي محمد

الرقيق وهو المكنى بوكابوس ويلقب بالمسلوخ ايضا تولى سنة 1223هـ/1808م فوقف في وجه الثوار الدرقاويين فقاتلهم وقتل رئيسهم المسمى بوطرفة بندرومة وكان شديد الانتقام ممن ينتسب الى هذه الطائفة، حتى انه كان الناس في وقته من حسد منهم احدا او كانت بينه وبين اي شخص خصومة او شحناء وشى به الى الباي وادعى عليه انه من اشياع الدرقاوي فيأخذه الباي فوراً وينتقم منه شر انتقام وكان مهما ظفر بأحد من درقاوة بادر بالفتك به مستعملا معه اشد انواع العذاب، ولا يقبل فيه اي شفيع، وكان من نوع التعذيب الذي يأخذ به صاحبه ان يأمر باخراجه الى السوق وهناك يقع دق اعضائه بالمعاول شيئا فشيئا حتى يموت، ومنهم من يأمر باقلاع عينيه فيترك اعمى من حينه، ومنهم من تقطع اعضاؤه فان مات والاجهز عليه فيموت في سجنه، ومنهم من يأمر فيهم بذبحه، ومنهم من يقطع رأسه مع فضحه ومنهم من يموت خنقا، ومنهم من يبقر بطنه، ومنهم من يشنق الى غير ذلك من انواع التقتيل الشنيعة[1].

ولقد وقع من هذا الباي ما ينبيء عن مخالفته على الحكم المركزي بالجزائر، وظهر منه ميل الى الانضواء تحت لواء سلطان المغرب الاقصى فقبضت عليه السلطة التركية وجيء به الى العاصمة فنكل به الداي وقتله (1226هـ/1812م) وقطع رأسه فملىء قطنا وصلب على باب الجزائر.

وآخرهم هو حسن بن موسى باي كانت فيه قسوة وغلظة وجفاء ولاسيما في جانب علماء الدين مكث في ولايته اربعة عشر سنة، وأخيرا استسلم الى السلطة الفرنسية وهاجر الى مكة المكرمة (20 رجب 1246هـ/4 جانفي 1831م).

وتوجس الماريشال كلوزيل خيفة من توالي الفتن واستمرار الحرب بالجزائر فسعى في مفاوضة احمد باي حاكم تونس على ان يتولى حكم ولاية وهران قبل مبلغ من المال يؤديه الباي الى دولة فرنسا، وفعلا بعث الباي التونسي بنائبه خير الدين الى وهران وكاد الامر ان يتم بين الماريشال الفرنسي والباي المذكور، ولكنه اخفق في الاخير ولم ينجح المشروع.

---

(1) احمد بن سحنون: الثغر الجماني ص 45 - 46 ط قسنطينة - الجزائر 1973م انظر دليل الحيران وانيس السهران في اخبار مدينة وهران لمحمد بن يوسف الزياني (مخطوط)

وأما ناحية الشرق الجزائري - ولاية قسنطينة - فانها كما علمت لم تخضع في اول مرة للاتراك بل استمرت على رفض طاعتهم وبقيت خاضعة للحفصيين زهاء ثلاثين سنة الى ان سعى في التوسط للوفاق بين اهل قسنطينة والاتراك العثمانيين شيخ الاسلام ابن الفكون فاذعن القسنطينيون يومئذ للحكومة التركية (1052 هـ/1642 م) وانتصب بعد ذلك الباي فرحات بن مراد رئيسا على هذه الايالة بلقب باي (1057 هـ/1647 م) ثم خلفه من جاء بعده على هذا الترتيب:

		تاريخ التولية
فرحات بن مراد	باي قسنطينة	1057 هـ/1647 م
محمد بن فرحات	,, ,,	1063 هـ/1652 م
رجم بن مراد	باي قسنطينة	1077 هـ/1666 م
خير الدين	,, ,,	1083 هـ/1672 م
عبد الرحمن دالي	,, ,,	1087 هـ/1676 م
شعبان	,, ,,	1099 هـ/1687 م
علي خوجة	,, ,,	1104 هـ/1692 م
احمد بن فرحات	,, ,,	1112 هـ/1700 م
ابراهيم العلج	,, ,,	1114 هـ/1702
جحودة	,, ,,	1119 هـ/1707 م
علي بن حمودة	,, ,,	1120 هـ/1708
حسين شاويش	,, ,,	1121 هـ/1709 م
عبد الرحمن بن فرحات		
حسين دنقزلي	,, ,,	1122 هـ/1710 م
علي بن صالح		
حسين بوكمية - القليان	,, ,,	1125 هـ/1713 م
حسين بوحنك - حسن باشا	,, ,,	1149 هـ/1736 م
حسين زرق عينه	,, ,,	1167 هـ/1753 م
احمد القلي (جد الحاج احمد آخر بايات قسنطينة)		1170 هـ/1756 م
صالح باي	باي قسنطينة	1185 هـ/1771 م
ابراهيم بو اصبع (مكث ثلاثة ايام)	باي قسنطينة	1206 هـ/1791 م

صالح باي (للمرة الثانية)	,, ,,	1206 هـ/1791م
حسين بن حسن باشا بوحنك	,, ,,	1207 هـ/1792م
مصطفى الوزناجي	,, ,,	1209 هـ/1795م
الحاج مصطفى انكليز	,, ,,	1212 هـ/1797م
عثمان - باي وهران سابقا -	,, ,,	1218 هـ/1803م
عبد الله بن اسماعيل	,, ,,	1219 هـ/1804
حسين بن صالح باي	باي قسنطينة	1221 هـ/1806م
علي بن يوسف		
احمد شاوش القبائلي	,, ,,	1223 هـ/1808م
احمد طوبال		
محمد نعمان	,, ,,	1226 هـ/1811م
محمد تشاقر	,, ,,	1229 هـ/1814م
قارة مصطفى حكم شهرا واحدا		
احمد المملوك	,, ,,	1233 هـ/1817م
محمد الميلي (بوشطابية)		
ابراهيم الغربي	,, ,,	1234 هـ/1819م
احمد المملوك- للمرة الثانية-	,, ,,	1235 هـ/1820م
ابراهيم القريتلي	باي قسنطينة	1237 هـ/1822م
محمد ماناماني	,, ,,	1240 هـ/1824م
الحاج احمد بن محمد الشريف (باي ثم باشا)		1242 هـ/1826م

واستمر الحاج احمد باي في منصبه بعد سقوط الجزائر ومنحته حكومة اسطانبول لقب باشا فبنى يومئذ الى جوار قصر الامارة دارا لسك النقود فضرب بها عملة من نحاس وفضة متوجة باسمه، وشرع في مقاومة الاستعمار حيث ما حل من اعمال قسنطينة، واستمر على ذلك متنقلا في البلاد الى ان سقطت قسنطينة بيد المستعمر يوم الجمعة 13 رجب 1253 هـ/13 اكتوبر 1837م فالتجأ الباشا الى جبال الاوراس ومن هناك شن غارته الشعواء على العدو حيثما كان او وجد،

وهكذا الى ان استقر في جبل حمر خدو بالاوراس ثم بجبل اولاد سلطان (1264هـ/1848م) وبهذا المكان حاصره العدو ووقعت به الهزيمة فألقى عليه القبض في شهر رجب - جوان - من نفس هذه السنة وجيء به الى مدينة قسنطينة فمكث بها ثلاثة ايام ثم نقل منها الى مدينة سكيكدة ومنها حمل على ظهر باخرة فرنسية وجيء به الى عاصمة الجزائر فبقي سجينا الى ان وافاه حمامة يوم 20 شوال1266هـ/1850/8/30م فدفن بتربة الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي وقبره معروف هناك، فكان هو آخر حاكم يمثل السلطة التركية بالجزائر.

دايات الجزائر

	تاريخ التولية
الحاج محمد التريكي	داي 1082 هـ/1672م
بابا حسن	,, 1092 هـ/1682م
الحاج حسين ميزو مورطو	,, 1094 هـ/1683م
ابراهيم خوجة	,, 1097 هـ/1686م
الحاج شعبان خوجة	,, 1100 هـ/1689م
قارة ابن علي	,, 1106 هـ/1695م
بابا حسن شاوش	,, 1110 هـ/1699م
بابا حاجي مصطفى	,, 1112 هـ/1700م
حسين خوجة	,, 1117 هـ/1705م
محمد بكداش	,, 1118 هـ/1707م
دالي ابراهيم	,, 1122 هـ/1710م
وزن بابا علي شاوش	,, 1122 هـ/1710م
محمد خزناجي	,, 1130 هـ/1718م
بابا عبدي	,, 1136 هـ/1724م
ابراهيم	,, 1145 هـ/1732م
ابراهيم خوجة	,, 1158 هـ/1745م
علي بو اصبع	داي 1161 هـ/1748م
محمد بكير خوجة	,, 1168 هـ/1755م
بابا محمد بن عثمان	,, 1179 هـ/1766م
بابا حسن	,, 1205 هـ/1791م
مصطفى	,, 1212 هـ/1798م
احمد خوجة	,, 1220 هـ/1805م
علي بوجوالق	,, 1223 هـ/1808م
الحاج علي الشريف	1224 هـ/ 1809م

الحاج محمد الخزناجي	,,	1230هـ/1815م
عمر	,,	1230هـ/1815م
علي خوجة	,,	1232هـ/1817م
حسين بن علي	,,	1233هـ/1818م

وكانت نهاية حسين بن علي يوم أن سقطت الحكومة التركية العثمانية الجزائرية بيد الاستعمار الفرنسي يوم 13المحرم 1246هـ/5جويلية 1830م، فانتقل حينذاك من الجزائر الى ايطاليا ثم الى فرنسا ومنها انتقل الى الاسكندرية وبها كانت وفاته ومدفنه (1254هـ/1838م) وعاشت بناته من بعده عيشة اليتم والمذلة، قال محمد لطفي جمعة: ,,وقد عرفنا احد احفاده الذي روى لنا تفصيل هجرة الاسرة وما صادفته من صنوف الهوان بعد فقد ملكها وثروتها,,[1]

وهنالك قوائم اشتملت على ذكر اسماء ولاة الاتراك بالجزائر منذ استيلائهم عليها الى آخر ايامهم بها، وهذه القوائم نشرت باللغتين العربية والفرنسية بالجزائر سنة 1857م بعناية خواكيم الاسباني. وهي قوائم نراها قد تتفق مع ما مشينا عليه في تنسيق ذكر اسماء الولاة وتاريخ توليتهم وقد تختلف أحيانا عن ذلك بتقديم هذا وتأخر ذاك كما أننا لاحظنا بها بعض الاضطراب في ضبط التواريخ ولم نر الناشر يذكر لنا المصدر الذي اخذ عنه أو المرجع الذي رجع اليه في تحقيقها ما عدا بعض المواضع ذكر فيها اس‍ـ طائفة من الولاة نسبها الى عبد الرزاق؟ - ولعله ابن احمدوش؟ - فتراانا لذلك اهملناها ولم نعتمد عليها كثيرا وهي جديرة بالمراجعة على كل حال.

(1) حياة الشرق ص 128 ط القاهرة 1932م.

سلاطين آل عثمان

1099هـ - 1255هـ

1687م - 1839م

	تاريخ التولية
السلطان سليمان خان الثاني	1099هـ/1687م
السلطان احمد خان الثاني	1102هـ/1691م
السلطان مصطفى خان الثاني	1106هـ/1694م
السلطان الغازي احمد خان الثالث	1115هـ/1703م
السلطان الغازي محمود خان	1143هـ/1730م
السلطان عثمان خان الثالث	1168هـ/1754م
السلطان مصطفى خان الثالث	1171هـ/1757م
السلطان الغازي عبد الحميد خان الاول	1187هـ/1773م
السلطان الغازي سليم خان الثالث	1203هـ/1789م
السلطان مصطفى خان الرابع	1222هـ/1807م
السلطان الغازي محمود خان الثاني	1223هـ/1808م

وفي أيام هذا السلطان - محمود الثاني - سقطت الجزائر فخرجت من يد الاتراك الى يد الفرنسيين، وتوفي السلطان محمود يوم 19ربيع الثاني 1255هـ/فاتح شهر جوان 1839م أي بعد الاحتلال الفرنسي بتسع سنين

من مشاهير الجزائر
ابوراس محمد الناصري المعسكري
1165 - 1238هـ
1751 - 1823م

العلامة الحافظ البحر الشيخ ابو راس محمد بن عبد القادر الراشدي، نسبة الى بلده الراشدية [1] المعروفة اليوم باسم (معسكر) بالشمال الغربي الجزائري، ويتصل نسبه بأدارسة المغرب، ولد رحمه الله بنواحي مدينة معسكر بين جبل كرسوط و(هونت) يوم 8 صفر 1165 هـ/27 ديسمبر 1751 م، من أم اسمها زولة.

كان رحمه الله احد اقطاب جهابذة اهل النظر ومن فحول العلماء الاعلام الواسعي الاطلاع الراسخين في العلم الذين خدموا الثقافة الاسلامية في العهد التركي العثماني بالجزائر؛ نشأ وتربي بين احضان والديه وذويه المشهورين بين قومهم بالانقطاع الى العلم ومحبة العلماء والتمسك بطريق الصلاح والتقوى، اخذ اولا القرآن عن والده فقرأه بروابتي ورش وقالون، واتقن بقية رواياته فأحسن رسمه وضبطه على الشيخ منصور الضرير تلميذ سيدي احمد بن ثابت التلمساني، وأخذ مبادىء علوم اللغة والادب عن مشائخ وقته بمدينة معسكر، ولازم منهم القاضي الشيخ محمد بن مولاي علي بن سحنون فزاده ذلك رغبة وشوقا في طلب العلياء، وكان قد فقد والداه طفلا صغيرا فكفله اخوه عبد القادر بمجاجة

وكانت مدينة مازونة حافلة بالعلماء ولا سيما منهم حملة الشريعة اهل الفقه وعلوم الدين فانتقل المترجم يافعا من مجاجة ميّمماً مدينة مازونة ماشيا على قدميه حافيا عاريا لضيق ذات اليد فاتقن بها دراسة الفقه المالكي بمختصر خليل حفظا وفهما، وكان من بين المشائخ الذين اعتمدهم في دراسته الشيخ ابن علي بن الشيخ ابن عبد الله المغيلي وكان مجلس هذا الشيخ كما يصفه لنا ابوراس مزدحما

---

(1) سميت كذلك نسبة الى مؤسسها راشد بن المرشد القرشي مولى ادريس الاول دفين زرهون بالمغرب الاقصى - ق 2 للهجرة. -

للطلاب كمجلس ابن تيمية)، ومنهم الشيخ العربي بن النافلة وشيخ الاسلام محمد الصادق بن آفغول، ومحمد بن عبد القادر قاضي مازونة، ولم يلبث المترجم الا قليلا فظهرت عليه علائم النبوغ والنجابة فالتف حوله الطلبة واقبلوا عليه ياخذون عنه فأقرأهم الفقه مع غيره من الفنون، فاحكموا ضبط قواعد الميراث والفرائض...

ثم عاد الشيخ الى الراشدية - معسكر وهي اذ ذاك محط العلماء فانقطع فيها ليأخذ عن علمائها مثل الشيخ عبد القادر المشرقي، والشيخ عبد القادر بن السنوسي ابن دحو واخيه السنوسي وكان هذا متبحرا في المعقولات وبما ان مترجمنا كان متضلعا في المنقولات فتلازم الشيخان واخذ كل منهما عن صاحبه، فأعاد علينا بذلك عهد الشريف التلمساني مع ابن عبد السلام التونسي.

ولما استفاض ذكر الشيخ بين فضلاء عصره وذاع صيته بين الناس واشتهر علمه قلدته الحكومة الجزائرية خطة قضاء مدينة معسكر فقام بمنصبه كما يقتضيه مقام امثاله من قضاة العدل في نزاهة واستقامة، وتزوج يومئذ باخت عالم غريس بل عميد علمائها الشيخ محمد بن فريحة بن الشيخ محمد بن يحيى، وحصلت له يومئذ حظوة عظيمة عند أمراء الجزائر وباشاواتها وبايات وهران وولاتها وغيرهم من ذوي الحكم والسلطان.

ولما ان دعا داعي الجهاد لفتح مدينة وهران سنة 1206هـ/1795م شارك رحمه الله بنفسه في الجيش ودخل المعمعة وحارب الى جنب الباي محمد بن عثمان، وامتحن بعدها فرمي من طرف خصومه الحسدة بالمشاركة في ثورة درقاوة - القائمة ضد السلطة التركية - 1217هـ/1802م وله في تاريخ هذه الثورة تأليف اسماه (درء الشقاوة في حروب درقاوة)، وقد مرت بنا الاشارة الى هذه الحرب في محلها ايام ولاية مصطفى باشا على الجزائر، فعزل الشيخ يومئذ من منصبه، ثم ظهرت براءته فابتنى له صديقه الباي مصطفى منزالي مسجدا بمعسكر وأسس له به مكتبة حافلة تحتوي على ما ينيف عن ثلاثة الاف مجلد، وبها غرفة للمطالعة تدعى ببيت المذاهب الاربعة، انقطع فيها الشيخ للمطالعة والتأليف ونشر العلم وتدريسه ليل نهار فتقاطرت عليه التلاميذ من كل ناحية فكان يلتف حوله زهاء ثمانين وسبعمائة طالب علم وانثال اليه الناس يأخذون

عنه الفتوى فكان لا يفتر عن الدّرس طوال الاسبوع كاملا ما عدا صبيحة يوم الاثنين المقررة لديه للاستجهام والراحة وكان يختم مختصر خليل ثمان مرات في السنة وداب الشيخ مستمرا على خطته هذه فلم يثبت عنه انه تركها او تخلف عن مجلس الدرس وقتا ما.... وتخرج على يده كثيرون، ولو لم يكن له من التلاميذ الا الامام المجتهد محمد بن علي السنوسي الكبير والامير عبد القادر الجزائري لكفاه شرفا وفخرا.

واستدعى الشيخ من نواحي شتى ليتولى التدريس فكانت تأتيه رسائل الاستدعاء في المناسبات وغيرها وسعى اليه اناس ليحظوا بقدمة اليهم في بيوتهم للتبرك به والانتفاع بعلمه، وبذلوا في ذلك غاية مجهوداتهم فأخفقوا.

. ولم يزل الشيخ سائرا في سلوكه على مهيعه هذا الى ان دعاه داعي الحج الى بيت الله الحرام والتبرك بزيارة روضة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم فشد رحله الحجاز، فحج مرتين، كانت الاولى عن طريق البحر سنة 1204هـ/1790م والثانية سنة 1226هـ/1811م وبهذه المناسبة الطيبة والرحلة الموفقة حصل على الاجتماع باعيان أمراء البلاد واكابر العلماء في الجزائر وتونس والمغرب ومصر والشام والحجاز وكانت له معهم مساجلات ومناظرات فأعجب اكثرهم بعلمه وقوة حفظه وسعة اطلاعه فأجاز واستجاز، وكان فيمن لقيه وأجازه من العلماء بمصر الشيخ مرتضى الزبيدي شارح القاموس والاحياء وعبد الله الشرقاوي ومحمد الامير، ولقبه بعضهم في اجازته بالحافظ وشيخ الاسلام وحافظ المغرب الاوسط، وكان منهم في الجزائر شيخ ادبائها وعالمها القدوة سيدي احمد بن عمار المفتي، وقاضي العاصمة احمد بن جعدون، والمفتي المالكي علي بن عبد القادر ابن الأمين، وقاضي قرومة الشيخ الهادي واجتمع بمحمد بن الحفاف في مجلس حكمه في العاصمة، وحضر بالجامع الكبير مجلس الشيخ الحاج محمد بن الشاهد في درس الموطأ. وكانت اقامته هنا بالعاصمة عند الشيخ محمد بن مالك، وبتلمسان عند قاضيها الشيخ محمد بن عبد الرحمن، ولقي بقسنطينة الشيخ محمد بن عبد الكريم ابن الفكون، وقاضيها علي الونيسي والشيخ احمد العباسي واجتمع في تونس بشيخ الاسلام احمد بيرم فاخذ عنه مختصر الكنز فقه الحنفية كما اخذ ايضا عن والده قاضي الحضرة وعن الشيخ صالح الكوش، وكان فيمن اجتمع

بهم من أعيان علماء تونس ايضا الشيخ ابراهيم الرياحي فمدحه هذا واثنى على علمه بقصيدة تحتوي على تسعة وخمسين بيتا، جاء فيها قوله بعد ابيات:

وسلم الامر تسليم الورى لأبي رأ ... س ودن مثل ما دانوا لبزدان
حبر تفيض بعرفان جوانبه ... ان لم تفل فهو في التحقيق عرفان
انفاسه بضروب العلم سائحة ... وكل عضوله درس وتبيان
تراه جامع اشتات الفضائل من ... قوم مضوا فكان القوم ما بانوا
اذا تحدث فاسمع مالكا واذا ... تفقه اهتز بالاعجاب نعمان

ومنها قوله:

هذا الامام ابوراس محمد من ... سارت بتبريزه في الخلق ركبان
هذا الذي اقلعت انباؤه صما ... وابصرت نوره الملتاح عميان

وكأن الناظم يشير بهذا البيت الأخير الى قول المتنبي:

انا الذي نظر الأعمى الى ادبي ... واسمعت كلماتي من به صمم

وهناك غيره كثير ممن امتدحه من ادباء المشرق والمغرب وكان فيمن اضافه واكرمه وقربه من مجلسه بتونس واعلا من شأنه تقديرا لعلمه الأمير حمودة باشا. وقد كنا اشرنا الى ان الشيخ ارتحل الى مصر واجتمع باكابر علمائها مثل الشيخ مرتضى الزبيدي والشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الازهر ومحمد الامير وغيرهم وهناك أذن له بالافتاء في الفقه على المذاهب الاربعة، وفي الحجاز اخذ عن الشيخ عبد الغني مفتي الشافعة بمكة والشيخ عبدءالرحمن التادلي وعن الشيخ عمارة العلاف بالينبع وطاف بالبلاد الشامية فدخل غزة والرملة والقدس الخ .... وكانت له مع علمائها وغيرهم مساجلات ومناظرات في شتى مسائل من العلم

وفي سنة1218 هـ/1803 م حل ببلاد المغرب الاقصى فحظي برضى السلطان المولى سليمان بن محمد وكان ملكا عالما فقربه من مجلسه العلمي الذي كان يحضره أكابر علماء المغرب وجرت له معهم مناظرات ومباحث ناقش فيها السلطان نفسه وتكلم بمحضرهم في فنون شتى وكان فيمن حضر تلك المجالس الطيب ابن كيران

وعبد القادر بن شقرون وابن حمدون وغيرهم... فاذعن له الجميع وشهد وله بالعلم والمعرفة والفضل كما أنه لقي طائفة من علماء الوهابية بالحرمين فناظرهم... وظهر له منهم انهم من خيث اصول الدين فهم على مذهب الامام احمد بن حنبل، واما من حيث الفروع فهم على غير ما ذهب اليه ائمة المذاهب الاربعة وأثنى عليه السنوسي الكبير في فهرسته فقال بعد ما حلاه بالامام الحافظ: «كان شيخنا المذكور حافظ عصره وامام قطره، الشائع عنه انه لا يزيد على مرة في مطالعة الدرس لما منحه الله من سيلان الذهن وسعة الحافظة وكان حافظا متقنا لجميع العلوم عارفا بالمذاهب الاربعة لا يسأل عن نازلة الا يجيب عنها بداهة كأنها حاضرة بين شفتيه محققا لمذهب مالك غاية لا سيما مختصر خليل فله فيه الملكة التامة بحيث يلقيه على طلبته في اربعين يوما، والخلاصة - الفية ابن مالك - في عشرة أيام، وله مؤلفات تزيد على الخمسين [1]ولعل السنوسي وهو تلميذه لم يطلع على فهرست الشيخ ابي راسي التي ذكر فيها ثبتا مفصلا لمؤلفاته في مختلف العلوم فهي تزيد هنالك على التسعين كتابا او كان السنوسي كتب ذلك في زمن لم تكن مؤلفات الشيخ زادت على ما ذكره؟! وشبهه أبو حامد المشرفي في الذخيرة بأسد بن الفرات في الفقه المالكي وقال عنه انه ألف في سائر الفنون والاسانيد والمذاهب والاصول والادب والتاريخ والانساب والتوحيد والمنطق والتصوف واللغة والبيان الخ... منها ما عرفناه ووقفناه عليه بأنفسنا ومنها ما لم نعرف عنه الا اسمه.

فمنها في التفسير وعلوم القرآن كتاب مجمع البحرين في ثلاثة مجلدات، وتقييد على نظم الخراز في الرسم، والدرر اللوامع، والطراز، وله في الحديث: كتاب مفاتيح الجنة واسناها، في أحاديث اختلف العلماء في معناها، والسيف المنتضى فيما رويت بأسانيد الشيخ مرتضى والايات البينات في شرح دلائل الخيرات، وفي الفقه: حاشية عقد الحواشي على جيد شرحي الزرقاني والخرشي في ستة أسفار. والمدارك في ترتيب فقه الامام مالك، والاحكام الجوازل في نبذ من النوازل، ونظم مسائل في الفروع كثيرة الوقوع مع قلة النصوص فيها، والكوكب الدرى في الرد بالجدرى وما رواه الواعون في اخبار الطاعون، والنبذ المنيفة في

---

(1) فهرس الفهارس للكتاني ج - 1 ص 105 ط فاس 1346 هـ

ترتيب فقه أبي حنيفة، وله في الخلاف العالي: رحمة الامة في اختلاف الائمة وجزيل المواهب في اختلاف الاربعة مذاهب، وله في علم الاصول: تشنيف الاسماع في مسائل الاجماع وحاشية على شرح المحلى لجمع الجوامع، وقاصي الاوهاد في مقدمة الاجتهاد، وله في علم الكلام والتوحيد: كفاية المعتقد ونكاية المنتقد وهو شرح العقائد الكبرى للامام محمد بن يوسف للسنوسي، وانوار البرجيس بشرح عقيدة الجمان النفيس لابي زيد عبد الرحمن التجيبي. وفي التصوف: الزهر الاكم في شرح الحكم أو فتح الالة في التوصل الى شرح حكم ابن عطاء الله، وكتاب الحاوي لنبذ التوحيد والتصوف والاولياء والفتاوي. وله في النحو: الدرة اليتيمة، والحاشية الكبرى على شرح المكودي والنكت الوافية بشرح المكودي على الالفية، وعمدة الزاد في اعراب «كلا شيء وجئت بلا زاد» وسبب وضعه لهذا الكتاب انه وقع بينه وبين كاتب باي وهران الشريف محمد حسن المعروف بالكاتب المستغانمي نقاش بمحضر الباي حول نصب همزة شيء من قولك لا شيء، ووضع كتابا ثانيا في الموضوع نفسه واسماه بغية المرتاد وبعث بها الى الكاتب المذكور، وله نفي الخصاصة في احصاء تراجم الخلاصة، وله في اللغة: كتاب ضياء القابوس على كتاب القاموس، وله ضابط اختصره من الازهري على قواعد القاموس والجوهري، لم يكمل ورفيع الاثمان في الولائم، وله في الادب: شرحان على مقامات الحريري وقفت على احدهما بمكتبة الجزائر الوطنية وهو في جزئين ضخمين، والبشائر والاسعاد في شرح بانت سعاد ونيل الارب في شرح لامية العرب وازالة الوجم عن قصيدة لامية العجم، والوصيد في شرح سلوانة الصيد لابن عبد الجبار الفجيجي - وله سبعة شروح على القصيدة العقيقية في مدح خير البرية لابي عثمان سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي، والرياض المرضية في شرح الغوثية وشرح قصيدة الكاتب الجليلية المسماة بالخليلية، والفوائد المخبتة في الاجوبة المسكتة، شرح معلقة امرىء القيس؛ وشرح مقصورة ابن دريد، وله في علم البيان: كتاب نيل الاماني على مختصر سعد الدين التفتزاني، وفي النطق: كتاب القول المسلم في شرح السلم، وفي العروض والقوافي شرح مشكلة الانوار التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، وله في التاريخ تآليف كثيرة متنوعة: منها زهر الشماريخ في علم التاريخ، أطلعت على نسخة منه مخطوطة بالجامعة الجزائرية تحت رقم 2003 وعدد صفحاتها وهي

من القطع المتوسط 104 صفحة والكتاب يحتوي على بحوث جليلة تتعلق باصول السلالات البشرية وانساب القبائل... وكتاب الوسائل الى معرفة القبائل. وكتاب المنى والسول من اول الخليقة الى بعثة الرسول وشرح العقد النفيس في ذكر الاعيان من اولياء غريس ودر السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة، توجد منه نسخة في مدينة مكناس ودرء الشقاوة في حروب درقاوة وذيل القرطاس في ملوك بني وطاس، والزهرة الوردية في ملوك الدولة السعدية، والعز المتين في ذكر بني مرين، ومروج الذهب في نبذة من النسب ومن الى الشرف انتمي وذهب، يقال انه انتقد فيه كثيرا من انساب القبائل البربرية المنتمية لآل البيت وذلك ما جر عليه محنته باحراق الكثير من كتبه وتآليفه وضياع الكثير منها في حياته وبعد وفاته، ولب أفياخي في عدة أشياخي وعجائب الاخبار ذات التأسيس فيما يقع بين المسلمين والفرنسيين، وهو أوراق قليلة أخبر فيه بطريق الزيرجة وعلم (الحدثان وباسلوب رمزي عن حوادث الاحتلال وعن مدته ونهايته، وبمكتبتنا نسخة منه مخطوطة، ونباهة الغمر في انباء العمر، والخبر المعلوم في كل من اخترع نوعا من العلوم، وفتح الالاه ومنته في التحدث بفضل ربى ونعمته، وهو كتاب حافل ممتع ترجم فيه لنفسه ترجمة ضافية املك منه نسخة بخط جميل، كما وقفت على نسخة اخرى منه بمكتبة الجامعة الجزائرية تحت عدد 502، وكل هذه التفاصيل الوافية التي أثبتناها هنا في ترجمته انما هي رشفة من سيرة حياته التي دونها بقلمه في كتابه هذا «فتح الالاه...» وله القصص الفتانة في ذكر البربر وزناتة، ورحلتي ونحلتي في تعداد رحلتي، تكلم فيها عن رحلاته المتعددة للمشرق والمغرب، والاصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة، ونظم الحلل السندسية في شان وهران والجزيرة الاندلسية وهو يحتوي على 181 بيت وله عليها شرحان او ثلاثة: القصص المعرب عن الخبر المغرب عما وقع بالاندلس وثغور المغرب، وغريب الاخبار عما وقع بوهران والاندلس مع الكفار وروضة السلوان المؤلفة بمرسى تطوان، وقيل هو كتاب واحد متعدد الاسماء وعجائب الاسفار ولطائف الاخبار وهو شرح لقصيدته: نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران على يد المنصور بالله الباي سيدي محمد بن عثمان توجد منه نسخ متكررة بالمكتبة الوطنية ومنه نسخة بمكتبتنا وقد تكون هذه الاسماء كلها لمسمى واحد؟... وله تاريخ جزيرة جربة... ولم يطبع من تآليفه هذه كلها

سوى كتابين اثنين فقط وهما: نظم الحلل السندسية نشره الجينيرال ج. فوربيقي G. Faure Biguet مع ترجمة فرنسية طبع بالجزائر سنة 1310هـ/1903م والثاني تاريخ جربة نشر باوروبا بعناية المستشرق اكزيكا قيصر، وقد كان للمترجم امل في شرح صحيح الامام البخاري ولا ادري هل تم له ذلك ام لا؟... وعد بعضهم تاليفه فبلغ بها الى سبع وثلاثين ومائة كتاب، وما أجدر مترجمنا بقول المتنبي: يمدح ابا الفرج احمد بن الحسين القاضي المالكي:

اديب رست للعلم في ارض صـــــــــــدره

جبال؛ جبال الارض في جنبهـــا قـــف!...

ورغم وفرة تآليف ابي راس المفيدة وجدة نشاطه في ميدان الانتاج الثقافي العارم في مختلف انواع العلوم والفنون فلا نستطيع الا ان نوافق العلامة كراتشوفيكي السوفياتي حينما قال: ابو راس محمد بن احمد الناصري إلذي يعد من انشط كتاب المغرب في ذلك الوقت واحفلهم انتاجا ويبلغ مجموع تصانيفه في مختلف العلوم مائة واربعين مصنفا وهو نفسه قد قارن شخصه في شيء من الزهو والاعتزاز بشخص السيوطي الشهير، وقد تجول كثيرا، ويبدو انه وجدت تحت تصرفه معطيات وافرة مكنته من تقديم معلومات جغرافية قيمة غير انه بكل اسف غلبت عليه اتجاهات ادبية مهتزة وركبه غرور شديد جعله يدعى المقدرة على الكتابة في جميع فروع العلوم [1]

وتوفي رحمه الله وأكرم مثواه يوم الاحد 15شعبان 1238هـ/27افريل 1823م وقد جاوز التسعين سنة من عمره، وصلى عليه عدد وافر من الناس بامامة تلميذه احمد الدايج المعروف بلقب الخرشى الكبير، وحزر ببعضهم عدد المصلين بألف وخمسمائة نسمة، ودفن قرب داره ومسجده حيث ضريحه المعروف به اليوم على ضفة النهر الفاصل بين داخل بلد معسكر وحي (بابا علي) متصلا بالسوق الاهلي واقيم على قبره مشهد وبناية هي قائمة الى اليوم.

---

(1) اغناطيوس يوليانوفيتش كراتشوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي العربي ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم - القسم2 - ص 768 لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة)1965م

عبد الرزاق بن احمدوش

اواسط القرن 12الهجري - 18م -

هو الرحالة الطبيب النباتي عبد الرزاق بن محمد بن أحمادوش أو - حميدوش - بن علي الجزائري مولدا ومنشأ وموطنا ولد على الارجح بالعاصمة في شهر رجب سنة 1107 هـ/ فيفرى 1696م كان فقيها مالكيا وطبيبا نباتيا برع في الصيدلة وتحضير الادوية وتثقف اولا على شيوخ بلده مثل الشيخ احمد بن عمار صاحب الرحلة (نحلة اللبيب) ومحمد بن ميمون صاحب (التحفة المرضية..) والمفتي الشاعر محمد بن علي وغيرهم من اقطاب العلم والادب بالجزائر، واخذ بتونس عن مثل عالمها وحافظها ومفتيها الشاعر ابي عبد الله محمد زيتونة واضرابه، وارتحل الى المشرق مرارا كما حكي ذلك عن نفسه في كتابه « كشف الرموز » قال في مادة (باذ زهر): وهو من العقاقير المضادة للسموم ولي صنعة فيه اخذتها في مصر سنة ثلاثين ومائة والف عام حججت[1] ثم عاد مرة أخرى الى مصر سنة 1161هـ/1748م واخذ بها عن الشيخ ابي العباس احمد بن مصطفى بن احمد الصباغ الاسكندرى المتوفي سنة 1162هـ/فروى عنه ثبته الذي اتمه سنة 1158هـ وهناك وضع كتابه في الطب تعديل المزاج بسبب تكوين قوانين العلاج[2] وله رحلة الى المغرب الاقصى: (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والال) ذكر فيها دخوله الى مدينة تطوان سنة 1156هـ/1743م واجتماعه فيها باعيان علمائها مثل الشيخ احمد الورزازي المتوفي سنة 1179هـ/1765م والشيخ احمد السرايري المتوفي سنة 1156هـ/1743م وعنه اخذ الفية العراقي في مصطلح الحديث ولقبه بالشيخ العلامة المتفنى، قال بأنه لم ير من يحسن قراءة هذه الالفية، وفهمها مثله، واثبت في رحلته هذه نص اجازة السرايري له، قال وانه حصل كذلك على اذن

(1) كشف الرموز ص 13 - 43 ط الجزائر 1335 هـ/ 1916 م

(2) فهرس الفهارس للكتاني ج 2 ص 108 ط فاس 1347 هـ

الشيخ محمد بن عبد السلام بناني في تدريس علم الفلك فأقرأ طلبة تطوان كتاب المقنع وكان له بها تلاميذ، وذكر انه سافر من تطوان الى مكناس ثم الى فاس ثم عاد بعدها الى تطوان ومن مينائها (مرتيل) ركب البحر الى بلده الجزائر فنزل بها في اليوم التاسع من صفر 1156 هـ/2 افريل 1743م[1] وفي رحلته هذه ذكر انه كان قبل أن يرتحل عن الجزائر موظفا في منصب (حضور البخاري) وهي وظيفة بالمسجد يشتغل فيها صاحبها بقراءة صحيح البخاري وروايته للجمهور ويختم الكتاب في رمضان، وفي هذه المرة اذن لصاحب الترجمة - كما حكى ذلك عن نفسه - بان يعود الى منصبه هذا، قال وشرعت فيه في شعبان من هذه السنة وحكى عن وصفة تقاليد الجزائر في الاهتمام بشأن صحيح الامام البخاري ومدارسته رواية ودراية الخ... وقال: حضرت درسه دراية على الشيخ الحاج الزروق المفتي المالكي بالجامع الكبير... وذكره صاحب كتاب طلوع سعد السعود ووصفه بالجاحظ ونسب له كتاباً في التاريخ...

ولا اعرف له من التآليف سوى هذا الجزء المطبوع بالجزائر وهو القسم الرابع من كتابه كشف الرموز وهو معجم شرح فيه اسماء الاعشاب والعقاقير الطبية مع ذكر خواصها ومنافعها، وضعه على اساس ما اطلع عليه من اعمال من سبقه في هذا المجال مثل ابن سينا وابن البيطار والانطاكي فلخصها واضاف اليها المصطلحات التي لم يذكرها غيره وما عرفت به من أوصافها واسمائها بالجزائر وهو يحتوي على نحو الف مصطلح، وترجم هذا الكتاب الى اللغة الفرنسية بقلم لوسيان لوكليرك lucien le clairque طبع بباريس سنة 1874م، واما النص العربي فطبع لاول مرة بالجزائر سنة1335هـ/1917م ثم تكرر طبعه بها مرتين على الحجر أو ما اشار اليه اثناء هذا الكتاب من تآليف له آخر في الطب يسمى (تعديل المزاج،...) وهذه الرحلة التي توجد منها نسخة بخطه بخزانة الدولة المغربية في رباط الفتح الفها بمناسبة سفره الى الديار المغربية سنة 1156هـ/1743م وفيها

---

(1) مختصر تاريخ تطوان لمحمد داود ج1 ص 103 ط تطوان 1375 هـ/1955 م - الدكتور ابو القاسم سعد الله: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج٢2 م 50

اشار الى انتاجه العلمي فيما الفه في علم الاسطرلاب والروزنامة والارصاد والاوفاق والبحار والهيأة والفلك والحرب والطب الخ... ويبدو حسب ما يظهر فيما خصصه لشخصه من حديثه في الرحلة عن نفسه انه زاول مهنة التجارة وانه كان يغدو ويروح بها ما بين القطرين الشقيقين: الجزائر والمغرب، وكان فيما نشر له بالجزائر سنة 1303هـ/1885م ثبت جامع لاسماء ولاتها الاتراك من باشاوات ودايات واغوات الخ... وذكر لي ان له تأليفا في جر الاثقال وفي عمل المدافع والمهارس مطبوع بالمشرق ولم أقف عليه وإما عن تاريخ وفاته فإنه لم يبلغنا عنه شيء؟ ويقال انه تجاوز التسعين من معمره فرحمه الله وامطر على ضريحه سحائب الرضوان..

عبد العزيز الثميني
1130 - 1223هـ
1717 - 1808م

الشيخ عبد العزيز بن الحاج بن ابراهيم المصابي الثميني هو عالم بلاد بني مصاب وارض الشبكة بالواحات الجزائرية وباعث النهضة العلمية وحركة التأليف بها واحد اقطاب المذهب الاباضي في هذه الديار، ولد ونشأ بقصر بني يسقن بارض الشبكة من بلاد بني مصاب بالجنوب الجزائري سنة 1130هـ/1717م وهو ينتسب الى ابن حفص عمر المصمودي صاحب ابن تومرت.

اخذ علمه عن مشائخ عصره ولازم منهم بالاخص الشيخ ابا زكريا يحيى بن صالح الافضلي فكرع من علمه ما شاء الله ان يكرع حتى امتلأ وطابه فقدمه شيخه هذا للتدريس والفتوى فكثرت تلامذته ومريدوه وكان على راس مشيخة بلاد بني مصاب وكبار رجال العزابة كما اسندت اليه سنة 1201هـ/1786م مشيخه المسجد ورئاسة اعلى مجلس عند الاباضية وهو مجلس (عمي سعيد) ذلك المجلس الذي تنتهي اليه قضايا الطائفة الاباضية وبه تحل جميع مشاكلها، فقام بوظائفه التشريعية والتنفيذية احسن قيام، وكان رحمه الله داعية من دعاة الاصلاح الديني والاجتماعي، ولقد اوذي في سبيل ذلك من طرف الدهماء حتى انهم كانوا يلقبونه لطول لحيته وسكناه قرب الجزرة (تيس الجز رة) فاعتزل الناس جميعا واعتكف في بيته منقطعا للتأليف مدة ثماني عشرة سنة لم يفتح بابه لاحد أي كان، وكان يملك خزانة حافلة بالكتب النفيسة فكانت له خير عون في اخراج كتبه وتحقيق مؤلفاته فكتب في فنون شتى، ومن أشهرها : كتاب النيل وشفاء العليل في فقه الاباضية وهو في تنسيقه واسلوبه يقارب نمط مختصر خليل في فقه المالكية، طبع اولا بمصر على الحجر في جزئين سنة 1305هـ واعيد طبعه اليوم بالجزائر في ثلاثة أجزاء صدر منه الاول والثاني 1387 - 1388هـ/1967 - 1968م وهو معتمد الاباضية في عباداتهم ومعاملاتهم. وله

كتاب التكميل لما اخل به كتاب النيل المختصره من كتاب (أصول الارضين) لابن العباس بن محمد بن بكر (مطبوع) والورد البسام في رياض الاحكام، طبع بتونس 1345 هـ/وكتاب التاج في حقوق الازواج، وله مؤلف آخر في التوحيد والفقه وضعه في عشرة اجزاء اختصر فيه كتاب (منهاج الطالبين وبلاغ الراغبين) للشيخ خميس العماني وسماه التاج ايضا، (المصباح) اختصر فيه كتابي أبي مسألة، والألواح لأبي العباس احمد بن محمد بن ابي بكر، وكتاب (النور) شرح به النونية للشيخ ابي نصر فتح بن نوح في التوحيد مطبوع، وكتاب الاسرار النورانية شرح به منظومة (الرائية) لابن النظر في الصلاة طبع بمصر على الحجر، وكلا هذين الشرحين هو اختصار لشرح الشيخ عمرو التلاتي على المنظومتين ومختصر حواشي الترتيب لمسند الربيع بن حبيب، في ثلاث مجلدات وأصل هذه الحاشية لابي ستة محمد بن عمر القصبي الجربي، وكتاب تعاظم الموجين في شرح كتاب مرج البحرين في الفلسفة والمنطق والحساب والهندسة لم يكمل، ومعالم الدين في الفلسفة وأصول الدين هو في مجلدين، وكتاب عقد الجواهر من بحر القناطر في جزئين جمع فيه مباحث له متفرقة في الاخلاق والاداب وفي الفلسفة الشرعية[1] وهذا من غير ما لم يشتغل بجمعه في كتاب من رسائل وفتاوى وتقريرات لمسائل من العلم بحيث لو جمعت لكانت مجلدا ضخما؛

وكانت وفاته رحمه الله بمسقط رأسه (بني يسقن) عشية السبت 11 رجب 1223 هـ /3أوت 1808م.

---

(1) راجع تصدير مصحح كتاب النيل ج 1 ص 9 ط الجزائر 1387 هـ ونهضة الجزائر الحديثة ص 263 ط التعاونية 1965 م.

الرئيس حميدو بن علي

1178 - 1230هـ

1765 - 1815م

الرئيس حميدو هو من المع الشخصيات الفذة والاعلام البارزة التي ظهرت على رأس قيادة الاساطيل الحربية على عهد الاتراك بالجزائر، وبرغم انقضاء اكثر ما ينيف على قرن ونصف مر على وفاته فانه لايزال صدى اسمه يرن في الاذان وشعاع مهابته يتألق دوما في سماء مجد البطولة البحرية كرمز للشجاعة والاقدام، ولا ترى اسمه في تاريخ البحرية العالمي الا مقرونا بالاعجاب والتقدير، كما انه لا يزال ابناء الثغور الاسلامية في البحر الابيض المتوسط - ولا سميا منهم اهل الجزائر - يطلقون اسمه على ابنائهم تخليدا لذكراه وتعظيما لشانه.

ولقد وصفه لنا اسماعيل سرهنك باشا في كتابه - حقائق الاخبار عن دول البحار - بانه كان على جانب من الجرأة والاقدام حتى ان كثيرا من العائلات الاسبانيولية كانت تخوف اولادها بذكره[1]

ولد الرئيس حميدو كما كان يسميه الملاحون العرب او حميدو قبودان - اي القبطان حميدو كما كان يدعونه الملاحون الاتراك، بالجزائر حوالي سنة 1178هـ/1765م، وهو يرجع في نسبه الى اسرة جزائرية منحدرة من اصل اندلسي، ولا نعرف من اسماء اسرته وآبائه الا اسم والده علي فقط.

وفي صغره اخذه والده على تعلم مهنة الخياطة والطرز فحمله الى معلم ليثقفه هذه الصنعة. وهذا ما يدلنا على ان اباه كان من اوسط طبقات الشعب فلم يدفع بولده الى ما يرغب فيه ابناء الكبراء من تعاطي اسباب الرئاسة والحكم، الا ان

(1) ابراهيم الفحام: منبر الاسلام 3 سنة 1390هـ/ 1970م.

الغلام - حميدو - كان يتطلع في نفسه الى مراقي المجد والخلود، طموحا الى التصدر في مصاف الابطال من رجال المغامرات البحرية وقادة الاساطيل وكأنه رأى من نفسه انه لم يخلق لمثل هذه الحياة الرتيبة المسالمة التي صرفه اليها والده واختارها له وهو في بلده - بالجزائر - التي كانت توصف وتدعى (دار الجهاد) في ذلك العصر بل اختار هو لنفسه ان ينخزل عن هذه المهنة ذات الحياة الراتبة على ان يندمج ما بين صفوف رجال البحرية رواد البحار والمحيطات وهو حينئذ لم يتجاوز السنة العاشرة من عمره.

وهكذا استمر حميدو يعمل حسب ما تسمح له الفرص على الاتصال برؤساء المراكب وقادة الاساطيل وربانية السفن إلى ان تمكن له الانضمام الى اعضاء مركب كان هناك راسيا بالساحل الوهراني فاشتغل يعمل معهم كنوتي صغير وما كاد ان تمر عليه بضعة ايام قلائل حتى ظهرت عليه مخائل الحذق والنبوغ فتفوق على زملائه ببراعته وصرامته، فعلا نجمه، واشتهر اسمه بين الاوساط المعنية بخوض غمار البحار واصبح مغامرا ملحوظا يتقدم الى الوقائع الحربية والمعامع البحرية من غير ان يستشعر رعبا او خشية واشتهر باعماله البطولية المتعددة فنال رتبة ضابط بحري، ثم ارتقى الى رتبة (قبودان) او رايس.

ابتدا الرئيس حميدو مغامرته وكفاحه في البحر بقيادة ثلاث سفن صغيرة كانت راسية بثغر وهران وكان ذلك بتشجيع من حاكمها، فراح يومئذ يتصدى لرد عادية سفن الدول الاروبية المعادية التي كانت تجوب البحر الابيض المتوسط فخرج منتقما للثغور الاسلامية من تلك الحملات التي كانت تشنها عليها تلك الدول،ولتحرير ما قد يجده هنالك من الاسرى المسلمين المستعبدين الذين كانوا يرغمون على التجذيف والعمل الشاق تحت ضربات السياط، ثم يعود الى الشاطىء الافريقي محملا بالغنائم الوفيرة في جملة من انقذهم من الاسرى وهكذا دواليك.

وبلغ نبأه الى داي الجزائر حسن بن حسين (1205هـ/1212هـ/1790 - 1797م) فاعجب باعماله البطولية هذه واستدعاه الى ديوانه فادناه منه واسند اليه رئاسة مركب هو من نوع المراكب الضخمة الكبيرة المعروفة باسم «الشبك» يحمل12مدفعا و60شخصا نوتيا تاركا له الحرية المطلقة في ارتياد اي ناحية

شاء من نواحي البحار وبينما كان ذات يوم يجول باسطوله المظفر عباب هذا البحر الى ان ارتطم احد مراكبه بصخرة فعطبته، ولعله كان هو ذلك المركب الذي منحه اياه الباشا فجر عليه ذلك نوعا من غضب الداي، ولكن حميدو عرف كيف يجددما رث من حبل المودة والصفاء فعقد غزوة ثانية توجه فيها نحو مياه البلاد البرتغال اشد الدول عداوة للبلاد الاسلامية في ذلك الحين، وفي احدى معاركه هناك استطاع ان يستولي على سفينة حربية تابعة لها تحمل 44 مدفعا فضمها الى اسطوله واطلق عليها اسم (البرتغالية) فانبسط لها الداي ومن حوله وقربها عين الشعب الجزائري.

وكان من اهم المعارك الموفقة التي خاضها الرئيس حميدو وساعدت على ذيوع شهرته تلك المعركة التي نشبت بينه وبين بعض السفن الامريكية في سنة 1207 هـ 1793 م واستطاع ان يستولي في نهايتها على احدى تلك السفن بما عليها من الغنائم والأسرى (217 نسمة).

وكان الباعث القوي- في هذه المرة- على تصدي حميدو للسفن الامريكية هو ارغام الولايات المتحدة الامريكية على الاعتراف بسيادة الدولة الجزائرية على الجزء الجنوبي من البحر الابيض المتوسط وبتسديد الاتاوة التي كانت تسددها تلك الدول كمظهر من مظاهر ذلك الاعتراف وفقا للتقاليد التي كانت متبعة في ذلك العهد، وكان هذا الحادث من بين الاحداث التي دفعت بالكونجرس الامريكي في سنة 1208 هـ/ 1794 م الى اتخاذ قرار بانشاء اسطول حربي لحماية السفن التجارية الامركية.

وبعد انشاء ذلك الاسطول قامت امريكا بمهاجمة الشواطىء الليبية (1211هـ/1796م) الا ان حملاتها هذه باءت بالفشل واستطاع المجاهدين البحريون من الليبيين ان يثأروا لبلادهم وأن يغنموا سفينتين امريكتين بما فيها من الملاحين والمؤن والعتاد.

واخيرا اضطرت امريكا الى التقرب من الحكومة الجزائرية فوقعت معها معاهدة تعهدت بموجبها ان تدفع مبلغ 642 الف دولار دفعة واحدة مضافة الى ما قيمته 121 الف دولار من المعدات الحربية سنويا مع الاعتراف بالسيادة الجزائرية على هذه المنطقة من البحر الابيض المتوسط في مقابل اطلاق سراح الاسرى الامريكيين وضمان عدم تعرض السفن الجزائرية للسفن الامريكية

فيما بعد والتوسط لدى الدول الاسلامية المجاورة لاقناع المجاهدين البحريين التابعين لها بعدم التعرض لها ايضا.

واعجب داي الجزائر حسن باشا ببطولة الرئيس حميدو فمنحه سفينتين كبيرتين وشجعه على الاستمرار في غزواته البحرية لسفن الدول المعادية، الا ان التوفيق لم يحالفه في مغامرته هذه المرة حيث تسلطت على مراكبه عواصف وزوابع طبيعية فأغرقته ونجا حميدو بمعجزة! فاضطر بعدها الى الاعتكاف في مدينة قسنطينة الى سنة 1215هـ/1800م فاستدعاه الداي مصطفى باشا الى العاصمة، واثار حميته الاسلامية ونخوته العربية وحثه على مواصلة كفاحه البحري فهب على الفور وشرع في الحصول على سفن جديدة وفتح باب التطوع للراغبين في الجهاد فالتف حوله المئات من الجنود والملاحين الخبيرين بفنون الملاحة والمعارك البحرية وكان فيهم كثير من ضحايا الغزوات التي كانت تشنها الاساطيل الاوربية على السفن والثغور الاسلامية ومنهم من ذاق مرارة الاسر وبات يتحين ساعة الثأر.

ولما اتم حميدو تجهيز الاسطول ونشر عليه رايته التي كانت تمتاز برسم صورة فرس عليها فانطلق بين اصوات التهليل والتكبير ودعوات المشيعين بالنصر والتأييد مبحرا صوب الشمال.

وخاض حميدو ورجاله بعد ذلك عدة معارك موفقة ضد الانكليز والايطاليين وغيرهم وكان يعتمد في حروبه من غير ما اوتيه من شجاعة وبطولة فانه كان يعتمد على عناصر الحيلة والجرأة والمفاجأة من غير ان يهمل العناصر الاساسية في الحرب من توفر الامكانيات واسباب القوة.

ولقد نجحت غزواته المتتابعة مع غزوات الجماعات الاخرى المماثلة من المجاهدين البحريين في كف أذى الاساطيل الاوربية عن الثغور والسفن الاسلامية مطبقا للقاعدة المعروفة «الهجوم خير وسيلة للدفاع» وعملا بهذه القاعدة احتجزت عدة سفن معادية كانت تحمل اصنافا من البضائع والسلع بله ما عليها من الاسرى[1].

---

(1) البيرد وفولكس: الرئيس حميدو تعريب محمد العربي الزبيري، المجاهد 619، جويلية 1972 م.

وهذا ما جعل كثيرا من الدول تعلن إعترافها بالسيطرة الاسلامية على مياه البحر الابيض المتوسط وتقديم الاتاوات للحكومة الجزائرية، فلقد جاء في تقرير كتبه الضابط الانكليزي جاكسون الذي اشترك في الحملة البحرية الانكليزية ضد الجزائر سنة 1231هـ/1816م وذلك من واقع ما تم سداده فعلا سنة 1217هـ/1802 م مقدراً بالقرش الاسباني الذي كان يساوي اكثر من ريال مصري في ذلك الزمن: ان دولة الانكليز دفعت 180 الف قرش، ودولة فرنسا دفعت 235 الف قرش، والدنمارك 112الف قرش، وهولاندا 75الف قرش، ومملكة نابولي 18750قرش في مقابلة اطلاق 75 اسير، وذلك بالاضافة الى مبالغ اخرى وهدايا ومراكب قدمت لاطلاق سراح بعض الاسرى الاوربيين، وقدر مجموع قيمة ما تم سداده في ذلك العام بمليون و818 الف قرش اسباني[1]

ولم يقتصر نشاط الرئيس حميدو على مهاجمة السفن الحربية فحسب بل صار يهاجم السفن التجارية كذلك فينتصر عليها ويستولي على بعضها، وبلغت به الجرأة ان نقل ميدان كفاحه الى المحيط الاطلسي فعبر مضيق جبل طارق وراح يتصيد السفن المعادية.

ومن أشهر غزواته التي وفرت للجزائر أرباحاً كثيرة هي تلك التي استولى فيها على السفينة البرتغالية المسماة لوسيني (Le Cygne) فقد نال الجزائر منها يومئذ 166246 ريالاً، أي ما يقدر مبلغه بـ 19423125 فرنكاً.

وبلغ الرئيس حميدو عنفوان مجده في زمن حاكم الجزائر الداي علي باشا إلى كان من المشجعين له والمعجبين بأعماله حتى انه هرع لزيارته والترحيب به وتهنئته بالنصر اثر عودته من احدى غزواته الموفقة وكان ابناء الثغور الاسلامية يتابعون بفخر واعجاب انباء المعارك الموفقة التي كان يخوضها الرئيس ويرجع منها متوجا باكاليل النصر، واصبحت امنية الآلاف من شباب تلك الثغور ان يتشرفو بالتطوع للعمل تحت لوائه حتى ارتفع عدد رجاله الذين كان يحسن اختيارهم الى نحو الثلاثين الف مجاهد وبلغت وحدات اسطوله الى 30 سفينة حربية ولما تولى الداي احمد خوجة باشا منصب الحكم بالجزائر 1219هـ/1223هـ/1805 - 1808م، وراى ما عليه الرئيس حميدو من حسن

(1) ابراهيم الفحام: القائد البحري حميدو علي - منبر الاسلام 2/ 1390 هـ/ 1970 م.

السمعة وانتشار صيته حسده على ذلك خشية مزاحمته على الملك والحالة انه لم يكن تركيا حتى ينافسه في ملكيته فنفاه الى بيروت ولكن الحاج علي باشا خزناجى الايالة الذي تولى الحكم يوم 24 المحرم 1224هـ/ السبت 11 مارس 1809م سارع الى استدعاء الرئيس فعاد حميدو الى الجزائر وشرع في تجهيز مراكب للغزو.

وكانت الولايات المتحدة خلال تلك الفترة قد ضاعفت من قوة اسطولها حتى انست من نفسها القدرة على التمرد في وجه سطوة الاساطيل الجزائرية فتوقفت على الوفاء بتعهدتها للحكومة الجزائرية، فاستدعي حاكمها (الداي عمر باشا) الرئيس حميدو وكلفه بالتصدي للسفن الامريكية الا أن حميدو كان بعيد النظر فافهم الحاكم مدى الفارق بين قوته البحرية المتواضعة وقوة الاسطول الامريكي الذي كان يفوقه عدداً وعدة، ولكن حاكم الجزائر اصر على رأيه فامتثل حميدو وخرج على ظهر سفينته (المجاهدة) وانفرد عن اسطوله حتى بلغ مضيق جبل طارق وهناك ترأى له اسطول امريكي متكون من عشر سفن يقودها الاميرال (ديكاتور) فحاول بعض النوتيين ممن كان مع الرئيس ان يحول اتجاه السفينة المجاهدة او (المحجودة) من وجه العدو الى سمت اخر فابى عليه الرئيس ذلك قائلا انه لمن العار الفرار من وجه العدو، وكان اللقاء هذا بالقرب من (كاب دو الكاط) او رأس دو القاط بالجنوب الشرقي من ميناء مدينة المرية الاسبانية، وكان حميدو قد اوصى اصحابه بانه ان كتبت له الشهادة فلا يترك جثمانه للعدو بل يلقى في البحر، وكذلك كان الامر، وشرعوا في القتال فأبلوا فيه بلاء حسنا، الا انه لم يكن هناك وجه للمقارنة بين القوتين اذ بدأت المعركة في غاية من عدم التكافؤ فخسر الرئيس حميدو المعركة ولكنه ظفر بالشهادة (7 رجب 1230هـ/17 جوان 1815م) واستشهد معه يومئذ نحو الثلاثين من ابطاله وعطب مركبان جزائريان كانا قد لحقا به للنجدة، وصعد الاميرال الامريكي على ظهر السفينة الرئيسية باحثا متلهفا عن الرئيس فأشار بعض اصحابه الى بركة دم قائلا هذا ما بقي منه!... وهكذا ختم الرئيس حياته البطولية فلفظ انفاسه الاخيرة مجاهدا مقداما، ويروى لنا الحاج احمد الشريف الزهار في

مذكراته صفة استشهاد الرئيس حميدو فيقول: ..وابتدأ القتال فدخلت عليه كورة وهو واقف على كرسيه فقسمته الى نصفين ومات رحمه الله في اول القتال، فتقدمهم اليه خليفته احمد ولد عمر ويسمونه الباش رايس وحمله والقي به في البحر ووقف في مكانه للقتال فقاتلهم خمس ساعات، واستشهد الكثير من المسلين وتكسرت الفركاطة ودخل الماء بخزنة البرود وكانت كثرة المجاهدين الباقين جرحى فمنهم من قطعت له يد ومنهم من قطعت يداه معا، ومنهم من فقد رجليه، وقل بذلك الضرب عن المسلمين فهجم الامريكان عليهم واخذوهم، فلما صعد النصارى الفركاطة سألوا حالا عن القبطان حميدو، فأخبروهم بموته فحصل لهم غيظ كبير، وقد حكى لنا من شاهد هذا القتال: ان النصارى عندما سمعوا بموت حميدو وصاروا يضربون الارض بارجلهم غيظاً منهم على موته[1]..وبذلك اسدل الستار على فصل من اروع فصول قصة الكفاح البحري في تاريخ الجزائر...[2]

قال وليم شيلر W. shaler قنصل امريكا بالجزائر (1815 - 1824م): ان الرئيس حميدو كان من الوطنيين الجزائريين القلائل الذين تقلدوا هذا المنصب لذكائه الخارق وشجاعته الفائقة[3].

وتقدم الاميرال ديكاتور باسطوله الضخم نحو مياه مدينة الجزائر وقد خلت من السفن المدافعة عنها فاستطاع ان يملي شروطه على حكومتها، وينزع رضاءها بتسليمها ما لديها من الاسرى الامركيين وموافقتها على التنازل عن الاتاواة التي كانت تقدمها الحكومة الامركية للجزائر سنويا.

وتعرض البيردوفولكس لوصف خلقة حميدو والشخصية وصورته الطبيعية فيقول: انه كان متوسط القامة رشيقاً، أبيض البشرة

---

(1) احمد توفيق المدني: مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار 118 ط الجزائر 1974م.

(2) مختصر الجزائر 26 ط بوسطن - امريكا 1826م

(3) H garrot Histoire generale deL'Algerie p: 381-622a631Alger 1910-Devoulx, A.le Raïs Hamidou , Alger Dubois 1859 -grammont, H. D. -Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830) paris Ernest Leroux 1887.

ازرق العينين وشعره اشقر، ووفقا لعادة الرياس الخالدة كان يحلق لحيته ولا يبقى سوى الشوارب التي يعطيها كل الحرية لتطول،...وعن سلوكه يقول: اما فيما يتعلق بالسلوك فاني لم اعثر سوى على الصفات الحميدة، لقد كان حميدو نشيطا، شجاعا، كريما، لبقا، رشيقا، ظريفا مع جميع الناس كبارهم وصغارهم الامر الذي جعله محبوبا لدى العموم، كما انه كان سريع الاجابة عن كل شيء ولكنه كان فجا في بعض الاحيان، ومن حقه ان يكون كذلك لان اعماله تؤكد كل ما يدعيه.

فهذه صورة مصغرة لحياة بطل جزائري، صميم اجمع الناس بانه من افذاذ ابطال الكفاح البحري في الاسلام.

جدول تاريخي

1082 - 1246هـ

1672 - 1830م

تاريخ الوقائع والاحداث	اهم الوقائع وابرز الاحداث
1672/1082م	- ابتداء حكم الدايات - وحملة الانكليز ضد الجزائر
1676/1089م	- ابرام معاهدة صلح بين الجزائر وفرنسا - ورد غارة اسماعيل ملك المغرب عن الجزائر.
1679/1090م	- مسالمة بريطانيا وهولاندا للجزائر - وتخطيط الحدود السياسية بين القطرين الجزائر والمغرب الاقصى.
1092هـ/1681م	- توتر العلائق السياسية بين الجزائر وفرنسا.
1093هـ/1682م	- انهزام الحملة الفرنسية الاولى عن الجزائر ومثلها الثانية بسنة بعدها
1094هـ/1683م	- اغتيال الداي بابا حسن وولاية الداي ميز ومورطو
1095هـ/1684م	- اندحار الاسطول الفرنسي امام الجزائر وتوسل حكومته بالباب العالي في الصلح.
1096هـ/1685م	- واقعة الكاف بتونس - انهزام الاسبان بواقعة كدية الخيار بوهران
1099هـ/1688م	- خيبة الحملة الفرنسية في هجومها على الجزائر بعد تحطيمها لاكثر مباني العاصمة؛ وفي هذه السنة

وقع تحويل مركز باي الغرب من بلدة مازونة الى مدينة معسكر.

1103هـ/1691م – انهزام ملك المغرب – المولى اسماعيل – في حملته على وهران وانعقاد اتفاقية وجدة الشهيرة

1105هـ/1693م – استنجاد ابن شكر المتزعم التونسي بالجزائريين

1110هـ/1698م – انتشار مرض الوباء وهلاك احمد داي بالطاعون

1112هـ/1700م – رد غارة باي تونس – مراد بوبالة – عن ولاية قسنطينة.

1117هـ/1705م – انهزام الباي التونسي ابراهيم الشريف وتطويق الجزائريين لتونس

1120هـ/1708م – فتح مدينة وهران.

1122هـ/1710م – استبدد ولاة الجزائر بالحكم دون سلاطين القسطنطينية – استانبول.

1127هـ/1715م – حدوث زلزال هائل متكرر بالعاصمة.

1132هـ/1719م – تجديد توقيع المعاهدة التجارية بين الجزائر وفرنسا.

1136هـ/1732م – توطيد الجزائريين عرش تونس للاسرة الحسينية.

1145هـ/1733م – سقوط وهران بيد الاسبان وانتقال مركز الحكم التركي منها الى معسكر

1147 هـ/1734م - انتصار الجزائريين بواقعة سمنجة - تونس.

1148 هـ/1735م - تضرر مدينتي الجزائر وشرشال من الزلزال

1153 هـ/1740م - انتشار مرض الوباء.

1154 هـ/1741م - تأسيس الشركة التجارية الفرنسية - الملكية- بالجزائر.

1161 هـ/1748م - توتر العلائق السياسية بين الجزائر وفرنسا.

1168 هـ/1755م - توالي الزلزال واسترساله بالجزائر مدة شهرين.

1169 هـ/1755م - مؤازرة الجزائريين لمحمد بن حسين باي تونس في ثورته ضد ابن عمه علي.

1179 هـ/1766م - مقاومة الثوار الجزائريين بارض الجنوب.

1181 هـ/1767م - انقياد اهل جبل فليسة للطاعة.

1182 هـ/1768م - تجديد امضاء الاتفاقية التجارية للشركات الفرنسية المقيمة بالجزائر.

1184 هـ/1770م - خيبة حملة الدانمارك ضد الجزائر.

1189 هـ/1775م - اندحار الاسبان في حروبهم وغزواتهم الثلاث ضد الجزائر واعلان الجزائر الحرب ضد امريكا.

1199 هـ/1785م - اخضاع اوطان الجنوب.

1201 هـ/1786م - فشو مرض الوباء وانتشار المجاعة بالجزائر.

1205 هـ/1790م - انتقاض مباني وهران من شدة مفعول زلزال هائل.

1206 هـ/1792م — فتح وهران نهائيا وهو آخر عهد بالاسبان بهذه البلاد.

1207 هـ/1793م — مناهضة الجزائر لامريكا لتخلفها عن تقديم الاتاوة.

1210 هـ/1795م — استغاثة فرنسا بالجزائر في مجاعتها الكبرى — وانعقاد معاهدة سلم بين الجزائر وامريكا.

1211 هـ/1796م — تخلي الحكومة الجزارية عن مدينة وجدة وتسليمها للمغاربة.

1212 هـ/1797م — مقتل صالح باي قسنطينة.

1213 هـ/1798م — اعلان الجزائر الحرب ضد فرنسا

1217 هـ/1802م — انفجار الثورة القومية الجزائرية ضد السلطة التركيه.

1220 هـ/1805م — — مطاردة اليهود واغتيال الداي مصطفى باشا

1221 هـ/1806م — اندفاع القرصان الجزائريين ضد المراكز التجارية الفرنسية بالجزائر وانتزاعها من يد هؤلاء وحلول الانكليز والايطاليين بها واحتدام الخلاف والنزاع بين تونس والجزائر بسبب حوادث ابن الاحرش — الثائر الجزائري —

1224 هـ/1809م — القضاء على حركة الشريف الدرقاوي وكبت الثورة القومية

1225هـ/1810م	- غزو تونس.
1228هـ/1813م	- غزو الثغور الافرنجية وعقد معاهدة سلم مع البرتغال.
1229هـ/1813م	- اندلاع لهيب الثورة القومية.
1229هـ/1814م	- ابتداء الخلاف الجزائري الفرنسي حول الديون المترتبة على فرنسا نحو الجزائر من قبل بيع الحبوب، وتلاعب شركة بوخريص اليهودية بذلك وفيها كان كشف القناع عن عداوة امريكا للجزائر.
1230هـ/1815م	- ثورة اهالي ناحية «جرجرة» واغتيال الداي الحاج علي الشريف واغارة الامريكان على الجزائر ومفاوضتهم الثانية في الصلح.
1231هـ/1816م	- خيبة الانكليز والهولانديين في زحفهم ضد الجزائر
1232هـ/1817م	- اذعان قبيلة فليسة واغتيال الداي عمر.
1236هـ/1820م	- ابرام معاهدة سلم بين القطرين الجزائر وتونس
1239هـ/1824م	- اندحار الانكليز أمام الجزائر.
1240هـ/1825م	- ثورة الاحباب التجانيين ضد السلطة التركية، وتحطيم مدينتي البليدة والقليعة من أثر الزلزال، ثم تجديد بنائها.
1241هـ/1826م	- حصار فرنسا للجزائر.
1243هـ/1828م	- حادثة لطمة المروحة واسطورة المنشة.

1246هـ/1830م – غارة فرنسا الاستعمارية ضد الجزائر واستيلائها عليها.

1254هـ/1838م – وفاة الداي حسين بن علي بالاسكندرية، وهو آخر دايات الجزائر.

ملاحق الجزء الثالث من تاريخ الجزائر العام
مع بعض استدراكات وتصويبات

ملحق بالجزء الثالث صفحة 9 سطر 6
تاريخ الجزائر العام)

وقع ان هاجرت قبيلة تركية كانت تسكن في بلاد التركستان إلى خوارزم من قارة آسيا الغربية بقيادة زعيمها سليمان شاه فمكثت هنالك ست سنوات فدهمها السلجوقيون فعادت إلى وطنها بزعامة سليمان هذا، وكان له أربعة أولاد أحدهم هو (أرطغرل) فاختلفوا في شأن مكان الرحيل والمقام به فاختار أرطغرل المضي إلى أرض الأناضول فمضى إليها في نحو 4000 أسرة وبعث بولده عثمان إلى علاء الدين السلجوقي يطلب منه أن يقطعه أرضا خصبة ليقيم فيها هو وأتباعه، فأقطعه جهة (قره جه طاغ) قرب أنقرة؛ وقد كان ذلك سنة 630هـ 1232م ولما توفي أرطغرل (726هـ/1326م) خلفه ولده (عثمان بن أرطغرل) وبقي يسير إلى جنب السلجوقيين إلى أن حصل على استقلال داخلي بأمر صادر من السلطان علاء الدين السلجوقي سنة 688هـ/1289م وأذن له السلطان في سك النقود وضربها باسمه؛ وبقي عثمان سائرا في ركاب السلجوقيين إلى أن زالت دولتهم على يد التتر القرن 13م فأعلن عثمان استقلاله لتام وسيادته المطلقة (699هـ/1299م) فاعتبر المؤرخون هذه السنة هي مبدأ ميلاد نشأة الدولة العثمانية..

ويومئذ

تاريخ الجزائر العام ج 3 ص 11 سطر 15

فغادر محمد السادس الملقب (وحيد الدين) بن عبد المجيد آخر سلطان عثماني ــ أرض تركية وتوفي بسانريمون بإيطاليا 1345هـ 1926م. وانتخب بعده عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز كخليفة لا سلطانا، ثم اصدر نفس المجلس يوم 22 رجب 1342هـ/1 مارس 1924م قراراً آخر يقضي بإلغاء الخلافة أيضا، وعندها خرج عبد المجيد من القسطنطينية طريدا معزولا(2) وانتقل

ملحق ج 3 ص 27 سطر 19

حيث بلغ عدد أفراده في عهد السلطان سليمان القانوني (1520 ــ 1566م) 12000 من المشاة، كما ضمت إليه أيضا بعض الكتائب من فرسان الخيالية.

ملحق بالجزء الثالث من تاريخ الجزائر العام صفحة 36 سطر 25

ولكي يقضي الاسبان على كل خطر يتهدد طرق مواصلاتهم في الحوض الغربي من البحر المتاوسط ودفعا لكل محاولة لانزال جيوش عربية جديدة في اسبانيا، وتأمينا لهم لبعض القواعد الأساسية على سواحل افريقيا، فإنهم قاموا بحملة صليبية، فاحتلوا تباعا كلاً من المرسى الكبير بوهران 911هـ (1505م) ثم مدينة وهران نفسها 915هـ (1509م) ثم بجاية 916هـ (1510م) وأسسوا يومئذ قلعة لهم فوق الصخرة العظيمة (ثغر مدينة الجزائر) والقريبة منها جداً وهي المعروفة بقلعة (البينيون) والزمو أمراء هذه المدن وحكامها بدفع الجزية لهم، ثم كان لهذه الحاميات المسيحية بعض أعمال الغزو في داخل البلاد.

ملحق بالجزء 3 من تاريخ الجزائر العام سطر 12 صفحة 56

ويومئذ بادرت حكومة فرنسا إلى عقد معاهدة ودية مع الجزائر، فكانت معاهدة (شاتيلرو) بأواسط القرن العاشر الهجري (16م) وهي المعروفة باسم المعاهدة الثلاثية التي أصبحت سنة 1536م رسمية.

ملحق بصفحة 81 من الجزء 3 لتاريخ الجزائر العام سطر 8

وكان تاريخ نظمه للسراج سنة 939 هجرية 1533م وإلى هذا يشير بقوله:

في شهر ذي القعدة في المصيف
فراغنا من جمع ذا التأليف
سنة تسع وثلاثين مضت
من بعد تسعمائة قد انقضت

ملحق بالجزء 3 من تاريخ الجزائر العام ص 87 سطر 5

استنجاد فرنسا بالجزائر

وفي سنة 950هـ/ 1543م أرسل ملك فرنسا هانري الثاني مبعوثه الخاص (الفارس دالبيس d'Albisse) لدعوة صالح رايس كمساعد لفرنسا في محاصرة الشطوط الاسبانية فلبى صالح نداء طلب ملك فرنسا فارتحل على رأس 40 سفينة حربية وأرسى بها في ميورقة يونيو (جوان 1553) وكان للأسطول الجزائري دوره الكبير في ذلك (1).

(1) مولود قاسم.. شخصية الجزائر الدولية ج 2 ص 17.

ملحق ج 3 ص 96 سطر 5

وفي سنة 983هـ/1575م وقع أسرا الكاتب الاسباني الشهيرثيرفانطيس أسرته سفينة جزائرية بقيادة الرايس مامي الارناؤوط وبقي هنا بالجزائر أسيرا إلى سنة 988هـ/1580م فأنقذ من الأسر وارتحل عن الجزائر.

ملحق بالجزء 3 تاريخ الجزائر العام ص 109

علي بن حمزة المغربي

القرن العاشر الهجري (16م)

علي بن ولي المشهور بابن حمزة المغربي الجزائري الأصل هو من أشهر علماء الرياضيات في عصره، (ق: 10هـ ــ 16م) بالجزائر أرتحل إلى أسطنبول وبرع في فنه هذا حتى انه جاء في بحوثه المتعلقة بالمتواليات العديدة والهندسية بما مهد به السبيل للذين أتوا بعده في إيجاد اللوغريتمات، وألف في ذلك المألفات القيمة النفيسة التي أفضت إلى تقدم بعض النظريات في الاعداد، بل أتى على ذكر بعض المسائل الغريبة والطريفة أيضا ثم عاد إلى الجزائر في أواخر القرن العاشر ومنها توجه إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، كان له من التأليف كثير لا سيما منها كتابه الذي اشتهر به «تحفة الأعداد في الحساب» ألفه باللغة التركية بمكة المكرمة على عهد السلطان مرادخان بن سليم خان (982 ــ 1003هـ/1574 ــ 1596)

قال في كشف الظنون: تحفة الأعداء في الحساب تركي لعلي بن والي وهو ابن حمزة ألفه بمكة المكرمة مرتبا على مقدمة وأربع مقالات وخاتمة...؛ ويصفه العالم الرياضي المحقق صالح زكي في «آثار باقية ط اسطنبول 1329هـ بأنه من أكمل الكتب الحسابية ويقول العلامة قدري حافظ طوقان عن هذا الرجل الجزائري..والحقيقة أنه مادار بخلدي أني سأجد بحوثا لعالم عربي كابن حمزة هي في حد ذاتها الأساس والخطوة الأولى في وضع أصول اللوغاريتمات...»
راجع: قدرى حافظ طوقان، تراث العرب العلمي ط القاهرة 1954م ــ والعلوم عند العرب ط القاهرة، 1960م ــ دائرة المعارف للبستاني، مادة : ابن حمزة ــ كشف الظنون ج 1 ص 259 ط دار سعادت 1311هـ.

ملحق بالجزء 3 من تاريخ الجزائر العام ص: 113 سطر 11

وقد كان ذلك باستنجاد ملك فرنسا هانري الرابع (1591م) 1000هـ يطلب من حكومة الجزائر المساعدة على تحرير مدينة مرسيليا من العصبة المقدسة (La sainte ligue) المتشكلة من مجموعة دول: دولة البابا والبندقية وسويسرا واسبانيا وبريطانيا...فأغاثه وأنجده.

ملحق ج 3 تاريخ الجزائر العام صفحة 183

عبد القادر الراشدي 1121هـ ــ 1700م

لقد شهدت مراكز العلم والتعليم من مساجد الجزائر ومعاهدها الحرة مثل الزوايا والمكاتب الابتدائية كذلك في هذه الفترة الزمنية حركة ثقافية نشطة لابأس بها قام بها علماء جزائريون اخلصوا لوطنهم وضحوا بحياتهم الذاتية في سبيل المعرفة وتهذيب النفوس وتطهيرها من أدران الجهالة والتخلف والكسل الذين كان من بينهم هذا الحبر العلامة الامام الشيخ عبد القادر الراشدي من قبيلة أو عشيرة فرجيوة بمدشر الرواشد بولاية قسنطينة ــ الجزائر ــ وكان معاصرا لصالح باي قسنطينة (1185هـ/1771م) و(1206هـ ــ 1791م) وتوفى في أوائل العشرة الثانية من القرن الثاني عشر، كان رحمه الله عالما متبحرا حتى قيل أنه بلغ رتبة الاجتهاد أو كاد تولى القضاء والافتاء بقسنطينة مرارا وكان له هنالك بعض الخصوم ممن استوقد الحسد ضلوعهم فنازعوه ونافسوه فيما اختصه الله به من العلم والحكمة حتى أنزلوه عن مكانه الرفيع من القضاء وغيره وصيروه لأنفسهم

بالتعلق بمن تمكن من السلطان كما حكى ذلك صاحب نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار وبالغوا في النكير عليه وتضليله حتى رموه بالكفر والتجسيم، قال وكان سبب ذلك ما جاء عرضا في تفسيره اليد التي ورد ذكرها في قوله تعالى: «لما خلقت بيدي» سورة 38. آية 75. فعزموا على الفتك به، وكان الباعث لهؤلاء على هذا التحامل هو كما قال الورتيلاني في رحلته: الحسد والبغض والتنافس ولما علموا منه من كونه طويل اللسان عليهم بالعلم، ثم قال: فلما وقف على الرسالة الموضوعة لهذا الكلام رأيتها منقحة سالمة من سوء الاعتقاد خصوصا التجسيم، غايته يبطل أدلة المؤول ويصحح من يقول باليد حقيقة غير أنه لا يعلمها الا الله لكن هذا كله بعد نفي التجسيم وما يشعر بالامكان والحدوث انتهى.

اجتمع الشيخ الحسين الورتيلاني بالمترجم المذكور بمدينة قسنطينة وذكره في رحلته فقال: قاضي الجماعة النحوي المتكلم الأصولي المنطقي البياني المحدث المفسر صاحب الأبحاث الشريفة والفوائد المنيفة قال فصلينا العصر بالعلامة المحقق والفهامة المدقق سيدي عبد القادر الراشدي. وكما ذكره شيخنا الحفناوي في تعريف الخلف بقوله: العلامة المحقق المجتهد الأصولي الكلامي قرافي وقته وعضد زمانه...

له من التآليف رحمه لله كتاب حافل في مباحث الاجتهاد يدل على تبحره في علمي الكلام والأصول، وله حاشية محشوة بالتحقيق والاتقان على شرح السيد للمواقف العضدية، وله رسالة ضافية في وزن الأعمال تعرض فيها لمباحث علم الكلام وناقش فيها بوجه خاص العلماء القائلين بالتأويل في مبحث المتشابه مطلعها قوله:

خبرا عنـــي المؤول أني كافـر بالـذي قضتــه العقــول
ما قضته العقول ليس من الـد ين إنّما الديـن ماحوتـه النقـول

وبهذين البيتين صدر في شرح قصيدته التي رد فيها على خصومه، وله تأليف تاريخي صغير الحجم تعرض فيه لكثير من أسر قسنطينة وقبائلها وبيان الشريف منها والعربي منهم والبربري، وله رسالة في تحريم التدخين بحشيشة التبغ. كما أن له تعاليق جمة وفتاوي في مسائل مختلفة وابتكارات جليلة متنوعة وتفسير لعدة آيات كان يجري فيها البحث بين العلماء بمجالس صالح باي قسنطينة وكان فيمن اجازهم من علماء المشرق بالرواية عنه مراسلة العلامة الشيخ مرتضى الزبيدي شارح كتاب الاحياء والقاموس المحيط. وبحسب الزبيدي هذا كانت وفاة الراشدي سنة 1194هـ/1780م ؟..

ملحق بالجزء الثالث من تاريخ الجزائر العام ص 202 بعد سطر 9

ورغم ذلك فإنه كان صاحب مواقف حازمة وأعمال سياسية وحربية مشرفة جليلة ومنها ما وقع في عهده من اتحاد الأقطار الثلاثة: الجزائر وتونس وطرابلس كدولة اسلامية واحدة تخضع للسلطنة العثمانية، وقد عينه السلطان العثماني أميراً على هذه الولايات الثلاث كقائد عام نائب عن السلطان، وبسعي منه لدى الحكومات الأجنبية كان تحسين حال الأسرى المسلمين الجزائريين وغيرهم ممن يوجد منهم في الخارج كما يشهد له بذلك التاريخ[1].

---

(1) راجع مجلة الدراسات التاريخية. العدد 2 سنة 1406هـ/1986م.

ملحق بالجزء الثالث ص 223 سطر 10 تاريخ الجزائر العام

وقبلها انعقدت معاهدة سلم بين داي الجزائر: بابا عبدي الملقب بالكرد وبين امبراطور المانيا وملك المجر وصقلية شارل السادس (8 مارس 1727م/1140هـ.

ملحق بالجزء 3 من تاريخ الجزائر العام ص 230 سطر 12

أو ما كان من ابرام معاهدة سلم مع دولة الدانمارك (10 مايو 1746م) أمضاها الداي ابراهيم وكريستيان السادس ملك الدانمارك والنرويج.

ملحق بالجزء 3 من تاريخ الجزائر العام ص 231 بعد سطور 17

وفي سنة 1162هـ/1748م أبرمت معاهدة سلم وصداقة بين الداي وفرانسوا الأول أمبراطور ألمانيا الرومانية المقدسة ودوق طوسكانيا، وزوجته الامبراطورة ماري تيريز ملكة المجر وبوهيميا.

ملحق بالجزء 3 من تاريخ الجزائر العام ص 249 سطر 17

وقبل ذلك أي في (13 أبريل 1808م) صدرت رسالة سرية من طرف نابليون إلى وزير البحرية (ديكريس Decéc) يقول فيها: فكروا في إعداد غزوة إلى الجزائر على كلا المستوين: براً وبحرا.. وعلى هذا الأساس حل بالجزائر رئيس

فرقة الهندسة العسكرية الرائد الفرنسي بوتان Vincent Yves Boutin فأقام بها من 24 مايو إلى 17 يوليو 1808م متقنعا ومختفيا لدى القنصل الفرنسي العام Dubois - Thainville (دوبواطانفيل) معاضدًا بطائفة من اليهود ويومئذ وضع تخطيطه الحربي لغزو الجزائر وأوصى الحملة فيه بأن لا تجابه المدينة من البحر كالعادة، ولكن يكون اقتحامها من الخلفية الأرضية فتقذف المدينة من ناحية سيدي فرج، ولتترك ابراج الجزائر وحصونها تقذف بمدفعيتها إلى البحر عبثا...وفعلا كان الأمر كذلك يوم احتل الفرنسيون الجزائر سنة 1830م/1246هـ.(1)

(1) شخصية الجزائر الدولية ج 2 ص 30 ـــ 31.

ملحق بصفحة 302 من تاريخ الجزائر ج 3 سطر7

وفي الفترة التي كانت بين سنتي 1802 و1804م هاجم الأميرال نيلسون مدينة الجزائر مرتين فانهجزم فيهما معا وولى منهما خائبا.

ملحق بالجزء 3 من تاريخ الجزائر صفحة 308 سطر 5

وعليه، سارت جيوش الاحتلال الفرنسي إلى الجزائر سنة 1830م/1245هـ

ملحق بالجزء 3 ص 311 سطر 11 تاريخ الجزائر العام

وفي سنة 1230هـ/1814م كانت الجزائر يومئذ في حرب ضروس في مقاومة روسيا القيصرية المتحالفة وقتئذ مع كل من دولة ايطاليا والدانمارك وهولاندا، واسبانيا وبروسيا ـــ ألمانية ـــ والولايات الأمريكية وكلها كانت تحارب ضد الدولة العثمانية بالجزائر، ولكنها لم تبلغ مناها ولم تنجح في مسعاها (شخصية الجزائر، ص 14 ج 1)

ملحق بالجزء 3 من تاريخ الجزائر العام آخر صفحة 315 سطر 26

وفي سنة 1230هـ/1814م انضمت أمريكا إلى كتلة سداسية كانت هي السابعة فيها وهي دولة الدانمارك، وهولندا، وايطاليا، واسبانيا، وبروسيا، فأعلنت كلها مجتمعة كجبهة موحدة من سبع دول حربا بحرية على الجزائر[1].

(1) مولود قاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1930م. ج 1 ص 14 ط قسنطينة 1985م.

ملحق بالجزء 4 من تاريخ الجزائر العام ص 378 سطر 16

وكتب في ذلك رسالة (12 مارس 1830م) إلى جميع الدول الأروبية قائلا: «إن غزو الجزائر في صالح المسيحية كلها»[1] ولم يقع منها جميعا أي رد فعل عن ذلك !...

(1) دوقرامون — مولود قاسم...شخصية الجزائر ج 2 ص 40.

ملحق ص 19 بصفحة 394 بعد سطر 8. الجزء 3 تاريخ الجزائر العام

وإليك نظرية المؤرخ الفرنسي الشهير (شارل أندري جوليان) في شأن سقوط الجزائر حيث قال ما تعريبه عن كتابه «الجزائر المعاصرة» :

«قضية مريبة دبرها تجار أقوياء من يهود مدينة الجزائر بمشاركة ساسة باريس المعيبين، وحادثة أثارها سياسي مشكوك فيه، وحملة قادها جينيرال مفقود الثقة به، وانتصار قوبل بعدم المبالات وبالعداء من طرف الرأي العام المتبوع بسقوط الأسرة الملكة التي ادعت بأنها هي صاحبة الفضل في ذلك، تلك هي المطالع العجيبة والغريبة لاحتلال فرنسا للجزائر !...

ملحق ب ج 3 ص 395 سطر 10

حيث عمدت هذه إلى تقليم أظافر العثمانيين في ولاياتهم البلقانية واثارة القلاقل والفتن في مختلف ممتلكاتها الأخرى، مع تطلع بعض الدول الأروبية التي أصابت حظا وافرا من التقدم العلمي والتقني، والاقتصادي أيضا إلى حماية مصالحها في

بلاد الدولة العثمانية فأخذت تتنافس وتتسابق إلى الحصول على امتيازات اقتصادية وسياسية في هذه البلاد، وعملت كل من دولة الانكيز وفرنسا وهولندا والبرتغال على إثارة الهيج والفتن بين أهالي الولايات وبث السخط بينهم على الحكومة العثمانية المركزية، وذلك بالاضافة إلى ما طرأ من الضعف على سلسلة من سلاطين آل عثمان فانغمسوا في حياة القصور والحريم والجوارى وما يجري خلال ذلك من الدسائس المختلفة الخ...

وعلى هذا الوضع الرهيب كانت الحالة الراهنة في القرن الثامن عشر بالنسبة إلى الدولة العثمانية في شرق البلاد وغربها...ثم أضف إلى ذلك.

ملحق بالجزء 3 ص 404 بعد سطر 8 من تاريخ الجزائر العام

وبنظرة شاملة نقول بما قاله الدكتور فهمي جدعان: ان الدولة العثمانية قد حققت في العالم العربي الاسلامي وحدة سياسية كانت قد زالت تماما بعد تفكك الدولة العباسية وهرمها ثم زوالها في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وأكثر من هذا انها حمت هذا العالم ــ العربي والاسلامي خلال أربعة قرون كاملة من الخطر الأروبي، إذ ما كانت الدولة العثمانية تدخل في مرحلة الضعف في القرن التاسع عشر الميلادي حتى بدأت الدول الأوربية ــ وخاصة فرنسا وانكلترا تنفذ عمليا **مطامعهما ومشارعهما الاستعمارية**[1].

---

(1) أسس التقدم عن مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ص: 98 ــ 99 ط بيروت 1981م.

ملحق ج 3 ص 429 تاريخ الجزائر العام

ولمزيد من الاطلاع على دراسة موضوع الأوقاف بالجزائر أنظر وثيقة الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر عدد 5 ط تونس 1980م ــ ومجلة الأصالة العدد المزدوج 89ــ90 الصادر في شهر ربيع الأول 1401هـ/جانفي ــ فيفري 1981

ملحق بالجزء 3 من تاريخ الجزائر العام ص 463 سطر 16 يزاد عليه

ويقول المؤرخ الألماني سيمونوف: «إن دايات الجزائر لم يكونوا ملوكا وراثيين. بل كانوا رؤساء جمهورية عسكرية لم يبق لها قبل آخر عهدها إلا مجرد علاقة إسمية باسطنبول» ويقول المؤرخ الفرنسي (دوقرامون): لقد كان الديوان ـــ (أي الحكومة الجائرية ـــ يتخذ القرارات بكل سيادة فيعلن الحرب؛ ويعقد السلم ويمضي معاهدات، ويقيم أحلافا بدون أن يتساءل عما إذا كانت تلك القرارات المتخذة موافقة أو غير موافقة لسياسة الباب العالي.

ملحق ج 3 ص 487 سطر 10

بالاضافة إلى مصانع أخرى كانت ببجاية وشرشال وغيرها وكما يزودنا الراهب البندكتي هايدو الأسير (1577 ـــ 1581م) بأخبار مفيدة عن البحرية الجزائرية وتفوقها عن سواها من دول الغرب حتى في أحرج الأوقات فيقول: كان القراصنة في الشتاء والربيع يشقون عباب البحر من المشرق إلى المغرب ساخرين من سفننا الشراعية التي كان بحارتها يقضون أوقاتهم في اللهو والقصف بالموانى ـــ وكانوا ـــ أي الجزائريون ـــ على يقين من أن السفن الشراعية النصرانية البطيئة الحركة ايما بطء والمثقلة متاعا أيما أثقل عاجزة عند مواجهتها لغليوناتهم التي بلغت حدا كبيرا من اتقان التوديك وخفة الحركة عن مطاردتها ومنعها من النهب والسلب كما طاب لها. بل انهم تعودوا الاستهزاء منها وتغيير وجهتهم فجأة حسب هواهم وحتى مواجهتهم بمؤخره مراكبهم». .

ويعلق شارل أندري جوليان على ما تقدم من كلام هايدو فيقول: «ويرجع تفوق الجزائريين لا إلى ملاءمة سفنهم ومراكبهم الشراعية مع حرب القرصنة فحسب بل الى تدرب الجدافين وانضباطهم الحازم، واعترف كذلك هذا الراهب البندكتي الشيخ قائلا: «لقد بلغ تمسكهم بالنظام والنظافة وتهيئة مراكبهم حدا جعلهم لا يفكرون في غير ذلك، وكانوا حريصين خاصة على اتقان عملية رصف البضائع لمزيد القدرة على الانسحاب والمراوغة، وأخيرا ولنفس الغرض هذا كان ممنوعا على أيهم وان كان ابن الباشا ان يغير مكانه أو يتحرك من بقعته»[1].

---

(1) تاريخ افريقيا الشمالية لشارل اندري جوليان. تعريب محمد مزالي ـــ البشير بن سلامة ج 2 ص 334/ ط تونس 1399هـ/1979م.

ملحق ج 3 ص 508 سطر 11

ولقد دلت التجارب تاريخيا على خيبة واخفاق سير نظام الاقتصاد الاشتراكي مطلقا منذ عصر (دوقلديانوس) الامبراطور الروماني أواخر القرن الثالث الميلادي إلى الآن...(قصة الحضارة ج 3 ص 365).

أولا يكفينا حجة ما وقع بسبب ذلك بمصر على عهد دولة المماليك الجركسية منذ أواخر القرن الرابع عشر 784هـ ــ 1382م ــ و923هـ ــ 1517م) من سوء الأحوال وتغيير الأوضاع حتى كان الفلاحون يمتنعون عن جلب ماشيتهم وحاصلاتهم للبيع ــ بأسواق القاهرة خشية مصادرة الحكومة بالمملوكية لها وشرائها بأبخس الأثمان ؟! وكفى بالتاريخ هاديا مرشدا.

ملحق بالجزء 3 من تاريخ الجزائر العام ص 516 بعد سطر 13

إلا ما يقلّ ويندر ظهوره من الخلاف ــ أحيانا ــ بين بعض السلفيين والمتصوفة، كما نرى ذلك مبسوطا فيما سطره علماء الجزائر في مؤلفاتهم مثل المنظومة «القدسية» لعبد الرحمن الأخضري مطبوعة ومنشور الهداية في كشف حال من أدعى العلم والولاية لبعد الكريم الفقون ط بيروت 1987م وأحمد زروق البرنسي في كتابيه: «البدع» و«قواعد التصوف»، وأحمد ابن مرزوق الحفيد في كتابه «النصح الخالص في الرّد على مدعى رتبة الكمال للناقص»، ومحمد بن يوسف السنوسي في كتابه «نصرة الفقير في الرد على ابي الحسن الصغير» وسعيد العقباني الخ... وانك لتجد بعض هذا فيما سطره أحمد الونشريسي في كتابه الجليل: «المعيار المعرب عن فتاوي علماء افريقيا والأندلس والمغرب» المطبوع في بيروت 12 جزءا (1401هـ/1981م).

ج 3 ص 518 سطر 15

قلت وياليتهم قلدوا فعملوا عمل لجنة مجلة القوانين الشرعية والأحكام العدلية التي وقع الاعتماد عليها والعمل بها منذ عهد السلطان العثماني عبد العزيز خان (1277 ــ 1293هـ/1861 ــ 1876م) وهي تشتمل على أغلب أبواب ما تشتد إليه الحاجة فيما يجري بين الناس في معاملاتهم ومخاصماتهم وفق قواعد الفقه الاسلامي حسب احتياجات العصر.

ملحق بالجزء 3 من تاريخ الجزائر العام ص 518 سطر 21

وهنا نرى الشيخ الحسين الورثلاني ينقل في شرحه لقدسية الاخضري حكاية عن الشيخ زروق (899هـ/1493م) انه قال: وسمعت شيخنا أبا العباس الحضرمي رضي الله عنه يقول: ارتفعت التربية بالاصطلاح ـ يعني المصطلح عليها عند الصوفية ـ في سنة أربع وعشرين وثمانمائة ولم يبق الا الفائدة بالهمة والحال، فعليكم بالكتاب والسنة بغير زيادة ولا نقصان. قلت: ـ أي الوثيلاني دائما ـ ثم بعد كلامه هذا اتبعت الطرق التي بأيدي الناس الاصطلاحية فلم أجد مع أحد حقيقة منهم ولا طريقة ولا رسما إلا مجرد النسبة يعرف ذلك من تأمله معتنيا.(1)

(1) الكواكب العرفانية والشوارق الأنسية في شرح ألفاظ القدسية (مخطوط)

ملحق بالجزء 3 من تاريخ الجزائر العام ص 523 سطر 8 بعد كلمة: (السلوك)

وبهذا نجد عبد الرحمن الجبرتي يصف لنا في تاريخه (عجائب الآثار...) حسن منظر زي أهل الجزائر حينما يتكلم على بيت أحمد بن عياد المغربي أحد أعيان تونس يوم أن ارتحل هذا إلى مصر ونزل بجوار دار الجبرتي سنة 1192هـ/1778م فقال:

...ومعه ابنه صغير أو نحو اثنتي عشرة سرية من السراري الحسان طوال الأجسام وهني لابسات ملابس الجزائر بهيئة بديعة تفتن الناسك، وكذلك عدة من الغلمان المماليك كأنما أفرغ الجميع في قالب الجمال وهم الجميع بذلك الزي(1).

(1) عجائب الآثار مجلد 1 ص 656 طبعة بيروت بدون تاريخ.

ملحق بالجزء (3) ص 552 من تاريخ الجزائر العام سط (28)

ونفس الشيء هذا كان واقعا في ذلك الوقت بالمغرب الأقصى، فلقد جاء في رحلة عبد الرزاق ابن احمادوش الجزائري: ـ لسان المقال...ـ انه كان يوما بمدينة تطوان سنة 1015هـ/1606م فتساءل عن من يشتغل بمثل هذه الفنون

أي التطبيقية ؟.. فلم يجده ! وقال في ذلك: «وأما الحساب والطب والهندسة فلم أر من يبحث عنها فضلاء عن ذلك من يتقنها !... «الا ما استثناه بعد ممن لقيه في رحلته بمدينة فاس مثل الحكيم الحاج عبد الوهاب آدراق وجماعته...

جدول استدراكات وتصويبات الجزء الثالث

صفحة	سطر	خطأ	تصويب
10	12	1166	1168
13	12	130	1230
28			يزاد عليه: في مذبحة جرت باسطنبول
31	20	علمهم على	علمهم الأحمر
31	22	ورموزها وعلى	ورموزها وفيها ما كان مثلث الألوان: أخضر وأحمر وأصفر
42	9	دياقو	دوفيرا
46	9	وذكر البيعة	وذكر فيه البيعة
53	17	وسارت	وعادت
55	12	الابربرية	الا أم ولد بربرية اسمها راح
67	4	3344	1544
75	1	الميمية	القصيدة الميمية
79	13	920	919
80	أرجوزة في		أرجوزة له
81		مخطوطة والفريدة	مخطوطة اسمها أزهر المطالب في هيئة الأفلاك والكواكب
83	9	يزاد عليه	وفاة خير الدين باربروس باسطنبول 953هـ/1546م
97	8	البندقية بتاريخ	البندقية وبريطانيا أيضا
»	15	على المسلمين	رغما على المسلمين
103	14	فنزيانوانتهي	فنزيانو إلى اسطنبول
104	2	يزاد فوق الأرقام	تاريخ التولية
133	25	1903	1032هـ
138	2	يزاد فيه	وكان هو الوحيد في تاريخ البحرية الجزائرية الذي بلغ في غزواته إلى سواحل إرلندا غربي المملكة المتحدة بالبحر المحيط الأطلسي

صفحة	سطر	خطأ	تصويب
138	11	سوى حملة	سوى خيبة حملة
144	21	مقبرة	مقرة
147	18		يزاد عليه: حسبما جاء ذلك في كتاب (أبجد العلوم) لصديق بن حسن القنوجي نقلا عن ابن البيلوني، ج 2 ص 140 ط دار الكتب بيروت بدون تاريخ وكذلك عند حاجي خليفة في كشف الظنون، ج 2 ص 106 ط دار السعادات 1311هـ وهكذا جاء عند صاحب شجرة النور الزكية ج 1 ص 300 ط القاهرة 1349هـ.
161	19	الفرنسية فرفع	الفرنسية بها فرفع
193	26	جاء نص	جاء في نص
199	27	42	24
200	23	وهران فاعترضته	وهران وكان ذلك بتحريض من بريطانيا
202	6	تونس لفرط	تونس وكان لفرط
206	22	بحاجاته	بحاجاتهم
"	24	عليه	على الداي
208	19	ولد	ولد واحد
230	13	كان من	كان أيضا من
246	18	الاسبانية حيزاد	بقيادة انطونيوبارثيلو
250	20	من	في
250	23	في يزاد عليه	بلاد
251	21	1777	1077م
251	24	قرب سبتة	نحو سنة
252	7	800	1145

صفحة	سطر	خطأ	تصويب
255	15	زلهذا لما	ولهذا نقول لما
279	26	ان	تذكران
285	8	الحسابات المتبقية	الحسابات أو المبالغ المتبقية
299	23	تحيل	احتال به من الحيل
319			يلحق تعليقا بآخر الصفحة: راجع نص المعاهدة عند مولود قاسم. شخصية الجزائر الدولية ج 1 ص 199 ط قسنطينة 1405هـ/1985م.
319	9		مخادعا برفعه علما أبيض
362	9	المزين اللائي	المزين بالزرابي التي
378	28	2	p
396	8	باشا بهذه	باشا للقيام بهذه
411	1	العالم	العالم يومئذ
411	3	كل	كامل وعن مواطأة عامة
428	17	مدخولات	مداخل
451	15	ان	انه
451	22	ولو	ولما
460	25	من	منه
461	2	ضنيت	ظ
»	4	الهم	والهم
»	9	تموج	تمزج
»	10	مزار	مزارو
»	12	يوم	عليّ
»	14	التكفر	الكفار
461	14	عمر	عمّروا
»	21	الشوق	السوق
»	22	والكاس	بالكاس
»	25	تهيمن	تهمي

صفحة	سطر	خطأ	تصويب
462	11	لهذا	لذا
463	17	كذلك الى	كذلك من قبل إلى
464	7	جاء وثيقة	جاء في وثيقة
506	5	عرقلة	من عرقله
506	16	منتسكيو مؤلف	منتسكيو (1689ـ1775م)
»	17	في هذا المعنى	«أشكال الحكومات»
507	18	وافتقر	يزاد فيه: وصدق المثل «إذا استقصى العجلُ في مص أمه رفسته؛ ومن جاوز في الحلب حلب الدم !..
508	28	1391ن	1397هـ
510	1	يزاد عليه:	وأخرج الطبراني عن أبي السائب قال: دعو الناس يصيب بعضهم من بعض. رمز له السيوطي في الجامع الصغير بعلامة الصحة.
»	23	سنة لتلقين	سنة 99هـ/718م لتلقين
513	27	المالكية	المالكية (1273هـ)
»	»	الحنفية	الحنفية (1263هـ)
»	28	الحنفية	يزاد عليه: ثم مفتيا (1265هـ)
554	3		يزاد عليه: حوالي سنة 1280هـ/1863م
516	6		يزاد عليه: المؤسس سنة 1313هـ/1895م.
518	2	لحار	لاحتار
518	5	اغلاق	أغماض
520	7	بنوها	بناها
524	10	الجبل	يزاد عليه: أوحى القصبة

صفحة	سطر	خطأ	تصويب
532	3		يزاد عليه: جامع رحبة الصوف الذي أسسه رجم باي عم محمد باي بن الباي فرحات سنة 1077هـ/1666م.
533	25	هي	هن
533	25	برثى	برنى
539	15	183	135
551	8	بالمغرب ثم	بالمغرب وهو الذي لحن الأغاني الافريقية، قال ابن سعد: واليه تنسب الآن (685هـ/1286م).
553	4	1240هـ/1825	(1237هـ/1822م)
»	29	3	2
»	»	35	236
»	»	بولاق	بيروت
558	7	1795	1794
570	25	في 2 للهجرة	توفي ادريس مسموما سنة 177هـ/793م. وقتل راشد بعده 186هـ/802م.
577	2	1310هـ	1320هـ
580	6	يزاد عليه	:راجع القسم المطبوع من رحلته المسماة (لسان حال المقال في النبا عن النسب والحسب والحال بتحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله ط الجزائر 1983م.
583	23	3	2
590	8	بأنه من	بأنه كان من

الفهرس العام للأبحاث

من مشاهير الجزائر

من مشاهير الجزائر

عصر الباشاوات

من مشاهير الجزائر

عصر الاغاوات

من مشاهير الجزائر

عصر الدايات

من مشاهير الجزائر

انتهى الجزء الثالث .

من

تاريخ الجزائر العام

ويليه الجزء الرابع

اوله:

مواصلة الحملة الفرنسية

أنجز طبعه على مطابع

ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية - بن عكنون

الجزائر